

فرانز كافكا

الآثار الكاملة

مع تفسيراتها

٣

(الذات)

المحاكمة

رواية

ترجمها عن الالمانية ابراهيم وطفي

الحاكمة

الناشر ابراهيم وطفي

ibrahim-watfe@maktoob.com

Verleger
Ibrahim Watfe
P.O.Box 20 1406
53144 Bonn
Germany

watfe@t-online.de

التوزيع: دار الحصاد للنشر
سورية - دمشق - برامكة
هاتف/فاكس: ٢١٢٦٣٢٦
صندوق بريد: ٤٤٩٠

حقوق الطبع محفوظة للمترجم

الطبعة الثانية (موسعة)

عام ٢٠٠٤

موافقة وزارة الإعلام على الصباعة:
رقم ٧١٥٩٣ تاريخ ٣٠ - ١ - ٢٠٠٢

فرانز كافكا

الآثار الكاملة

مع تفسيراتها

٢

(الذات)

المحاكمة

رواية

ترجمها عن الالمانية ابراهيم وطفي

على الكتاب أن يكون الفأس التي تكسر البحر المتجمد فينا
كافكا

إن كتابات كافكا هي ضربة فأس ضد البحر المتجمد فينا
ناقد

الى
كاتارينا جبرانا
وزكية ميلينا
وجبران خليل



الفهرس

I - المحاكمة

١٣	اعقال
١٥	مُدّع عام
٣١	الآنسة بورستر
٣٨	صديقة الآنسة بورستر
٥٢	تحقيق أول
٦١	الجلاد
٧٩	في قاعة الجلسات الخالية / الطالب / المكاتب
٨٦	إلى إلزا
١١١	صراع مع نائب المدير
١١٣	العم / الذي
١١٨	نص جزئي
١٣٩	في الكاتدرائية
١٤١	محام / صاحب معمل
١٦٦	رسام
١٩٤	التاجر بلوك / إخطار المحامي بإلغاء توكيه
٢١٩	البيت
٢٥٠	سفرة إلى الأم
٢٥٤	حلم
٢٥٨	نهاية
٢٦١	

II - دراسات

٢٦٧

- ١ - الحكم قبل المحاكمة
- ٢ - المفقود في المجتمع الصناعي
- ٣ - من اليوميات: نشوء رواية «المحاكمة»
- ٤ - طبعات
- ٥ - تسلسل فصول
- ٦ - شرح مفردات وتعابير
- ٧ - من تفسيرات أولى
- ٨ - جهاز السلطة المثالي والفرد
- ٩ - كتاب القرن العشرين
- ١٠ - وعي الذات
- ١١ - فهم القارئ لنفسه
- ١٢ - أمام القانون / نحن أمام القصة
- ١٣ - أمام القانون / مدخل إلى عالم كافكا
- ١٤ - عملية الكتابة
- ١٥ - سحر البداية و«التردد قبل الولادة»
- ١٦ - الفراش
- ١٧ - العالم كمحكمة
- ١٨ - الذات - الواجهة والذات النافية
- ١٩ - الخجل الأخير
- ٢٠ - أحداث خارجية وداخلية

III - المحاكمة الصحيحة

٤٧٥

- رسالة Kafka غير المدركة / «المحاكمة» الصحيحة
- ملاحظة أولى: ١ - اشارة من أجل قراءة خلقة
٢ - تسلسل الفصول الصحيح

- آ - دون وعي الحرية والمسؤولية تفشل الحياة الإنسانية والاجتماعية
- ١ - الدعوة إلى تأمل جديد واع
 - الاعتقال -
- ٤٨٥
- ٢ - الخطايا اللاواعية في الحياة المباشرة
- المدعي العام -
- ٤٩٠
- ٣ - وحدة الحسية والحس المهدّدة
- الآنسة بورستن -
 - صديقة الآنسة بورستن -
- ٤٩٣
- ٤ - مسؤولية الفرد أيّاناً بكرامة الإنسان
- تحقيق أول -
 - الحلال -
- ٤٩٨
- ٥ - المحكمة كصورة منعكسة للإمكانيات البشرية
- في قاعة الجلسات الخالية/الطالب/المكاتب -
 - إلى إلزا -
- ٥٠٢
- ٦ - الآمال الخداعة والانحرافات الممكّنة
- صراع مع نائب المدير -
 - العم / لبني -
 - نص جرئي -
- ٥١١
- ب - تحقيق الحياة لا يتيسر سوى للشخصية المستقلة
- ١ - حرية القرار بالسلوك الصحيح
 - في الكاتدرائية -
 - أمام القانون -
- ٥١٢
- ٢ - التأثير المتبادل بين الأدراك الصحيح
- والسلوك طبقاً لذلك
 - محام -
 - صاحب معمل -
- ٥١٤
- ٣ - الحياة الثقافية كتسليمة اجتماعية وتجارة
- ٥١٩
- ٥٢٠
- ٥٢٥

	أَمْ سَمِّوْ شَخْصِيْ وَإِدْرَاكِيْ
٥٣٧	- رَسَامَ -
	٤ - وَاجِبُ اثِيَّاتِ الدَّاَتِ الشَّخْصِيِّ
	ضَدُّ قَرَارِ الْغَيْرِ وَالْوَضْعُ تَحْتَ الْوَصَايَا
٥٤٥	- التَّاجِرُ بِلُوكَ -
٥٤٨	- إِخْطَارُ الْحَامِيِّ بِإِلَغَاءِ تَوْكِيلِهِ
	٥ - طَرَائِقُ تَحْقِيقِ الْحَيَاةِ تَحْقِيقًا مَجْدِيًّا
٥٥١	- الْبَيْتَ -
٥٥٥	- سَفَرَةُ الْأَمَّ -
	٦ - الْمَوْتُ أَمْلًا بِالْخَلاَصِ أَوْ هَلَاكًا نَهَائِيًّا
٥٥٧	- حَلْمَ -
٥٥٩	- نَهَائِيَّةَ -
٥٦٧	ج - كَافِكَا الْآخِرُ
٥٦٩	مَلَاحِظَةُ خَتَامِيَّةٍ: نَتْيَاجَةُ التَّفْسِيرِ
	أَحَادِيثُ وَمَرَاسِلَاتُ مَعِ الَّذِي أَدْرَكَ أَخْيَرًا رَسَالَةَ كَافِكَا
٥٧٠	كَلْمَةُ خَتَامِيَّةٍ
٦٥٦	٦٦٩ - مِنْ سِيرَةِ حَيَاةِ كَافِكَا وَتَلْقَيِ آثَارِهِ فِي الْعَالَمِ IV
٦٧١	١ - أَعْوَامُ الْقَرَاراتِ
٦٩٥	٢ - الْحُكْمُ عَلَى الدَّاَتِ
٧٢٢	٣ - مَرَاسِلَاتُ وَحَدِيثُ مَعِ كَاتِبِ سِيرَةِ كَافِكَا
٧٧٤	٤ - تَلْقَيِ آثَارِ كَافِكَا فِي الْعَالَمِ
٧٩٣	أَسْمَاءُ الْمُشَارِكِينَ فِي وَضْعِ الدِّرَاسَاتِ
٨١٠	أَخْطَاءُ مَطَبَعِيَّةٍ
٨١٥	لِلْمُتَرَجِّمِ

الحاكمة

اعتقال

لابد أن أحداً قد افترى على يوسف ك، إذ اعتقل ذات صباح دون أن يكون من شأنه قد فعل شرّاً. إن طباخة مؤجرة غرفته السيدة غروباخ، التي كانت تحضر له طعام الفطور كل يوم في نحو الساعة الثامنة صباحاً، لم تأت هذه المرة. وهذا ما لم يكن قد حدث قط. وانتظر ك فترة وجيزة، ورأى، ورأسه مازال على الوسادة، المرأة العجوز التي تسكن قبالتها والتي راحت تراقبه بفضول غير مألف لديها أبداً، لكنه من ثم، وهو مستغرب وجائع في الوقت نفسه، قرع الجرس. وعلى الفور طرق الباب، ودخل رجل لم يكن قد رأه قط في هذا المسكن. كان نحيلًا لكنه متين البنian، وكان يرتدي رداء محبوب التفصيل أسود اللون، يحمل مثل بدلات السفر ثياب مختلفة وجوباً وبكلات وأزراراً وحزاماً، وبالتالي بدا رداء عملياً، دون أن يتضح للمرء لماذا يصلح. «من أنت؟» سأله ك وجلس معتدلاً في الفراش في اللحظة نفسها. لكن الرجل تجاهل السؤال وكانتا كان على المرء أن يتقبل حضوره، واكتفى من طرفة بالقول: «لقد فرعت الجرس؟». «على أنا أن تحضر لي طعام الفطور»، قال ك وحاول في بادئ الأمر بصمت أن يعرفحقيقة الرجل بالانتباه والتروي. لكن هذا لم يعرض نفسه لنظراته طويلاً، بل اتجه صوب الباب، الذي فتحه قليلاً لكي يقول لأحد كان يقف على ما

يبدو خلف الباب مباشرة: «يريد أن تحضر له أنا طعام الفطور». وأعقب ذلك قهقهة صغيرة في الحجرة المجاورة، لم تؤكّد رتتها فيما إذا لم يكن عده أشخاص قد شاركوا فيها. ورغم أنه لا يمكن للرجل الغريب أن يكون بذلك قد علم شيئاً لم يكن يعرفه سابقاً، قال الآن لـ ك بلهجة إنجليزية: «غير ممكن». «من شأن هذا أن يكون أمراً جديداً»، قال ك، وقف من الفراش وارتدى سرواله على عجل. «أريد أن أرى أي ناس هؤلاء في الحجرة المجاورة وكيف ستثير لي السيدة غروباخ هذه المضايقة». صحيح أنه خطر له على الفور أنه ما كان ينبغي عليه أن يقول هذا بصوت عال وأنه بهذا إنما قد اعترف إلى حد ما بحق رقابة للغريب، لكن الأمر بدا له الآن غير ذي أهمية. وعلى كل حال فهم الغريب هكذا، إذ أنه قال: «ألا تفضل البقاء هنا؟». «لا أريد أن أبقى هنا ولا أن تخاطبني ما لم تعرفي بنفسك». «كان القصد طيباً»، قال الغريب وفتح الباب الآن طوعاً. في الحجرة المجاورة، التي دخل إليها كبيطء أكثر مما أراد، بدا المنظر للوهلة الأولى على حاله تماماً تقريباً كما كان في المساء السابق. كانت حجرة جلوس السيدة غروباخ، وربما كان في هذه الحجرة، الممتلئة بقطع الأثاث والخزف والأغطية والصور، اليوم قدر يسير من الفراغ أكثر من المعتاد. لم يُر ذلك على الفور، ولا سيما أن التغيير الرئيسي كان يكمن في وجود رجل كان يجلس إلى جانب النافذة المفتوحة وبهذه كتاب، رفع الآن نظره عنه وقال: «كان عليك أن تبقى في حجرتك! ألم يقل لك هذا فرانز إذ؟». «نعم، لماذا تريдан إذ؟» قال ك وانتقل ببصره من الرجل الجديد إلى المستني فرانز، والذي كان قد ظل واقفاً بالباب، ثم عاد إلى الأول. وعبر النافذة المفتوحة شوهدت المرأة العجوز مرة أخرى، والتي كانت تقف الآن قرب النافذة المقابلة بفضول شيخوختي حقاً لكي ترى كل شيء. «أريد السيدة غروباخ»، قال ك، وأتى بحركة وكأنه يتزرع نفسه من الرجلين، رغم أنهما كانا يقفان بعيداً عنه، وأراد أن ينصرف.

«لا»، قال الرجل الجالس قرب النافذة، وألقى الكتاب فوق منضدة صغيرة، ونهض. «لا يسمح لك بالانصراف. لقد اعترفت حقاً». «هكذا يبدو»، قال ك ثم سأله: «ولماذا إذ؟». «لسنا مكلفين بأن نقول لك هذا. اذهب إلى حجرتك وانتظر. لقد افتحت المحاكمة وسوف تعلم كل شيء في الوقت المناسب. وأنا أتجاهز مهمتي حين أخذت إليك بود هكذا كي أوثر عليك. لكنني آمل، ألا يسمع ذلك أحد غير فرانز، وهو نفسه لطيف معك على عكس كل التعليمات. وإذا حالفك الحظ مستقبلاً هكذا كما حالفك لدى تعين حراسك، فإنه يمكنك أن تكون مطمئناً». أراد ك أن يجلس، لكنه رأى أنه لا يوجد موضع جلوس في الحجرة كلها سوى الكرسي إلى جانب النافذة. «سوف تدرك كم هو حقيقي كل هذا»، قال فرانز واتجه نحوه في الوقت نفسه مع الرجل الآخر. وكان هذا خاصة أطول قامة إلى حد كبير من ك، وقد ربت على كتفه أكثر من مرة. وتفحص الإثنان منامة ك وقال إنه سيستفي عليه الآن أن يرتدي منامة أسوأ بكثير، وإنهما سيحفظان هذه المنامة وبقية ملابسه الداخلية، وسيعيدانها إليه إذا جاءت نتيجة محاكمته في صالحه. وقالا: «من الأفضل أن تعطي الشياب لنا بدلاً من مستودع الأمانات، إذ غالباً ما تحدث اختلالات في المستودع، وبالإضافة إلى ذلك يبيع المرء هناك جميع الأشياء بعد مضي وقت معين، وذلك دون مراعاة فيما إذا كانت المحاكمة صاحبة العلاقة قد انتهت أم لا. وكم تستمر طويلاً مثل هذه المحاكمات ولا سيما في الفترة الأخيرة! ومن شأنك أن تحصل أخيراً في هذه الحالة من المستودع على الثمن. لكن هذا الثمن هو أولاً قليل في حد ذاته، حيث أن ما يحدد الثمن لدى المبيع ليس زيادة العرض وإنما زيادة الرشوة، وثانياً تتناقص مثل هذه الإيرادات، حسب التجربة، بانتقالها من يد إلى يد ومن عام إلى عام». ولم يعبأ ك بهذا الكلام كثيراً، ولم يقم وزناً كبيراً لحق التصرف في أمتعته الذي كان ربما مازال يملكه، ما كان يهمه

أكثر هو أن يطّلع على حقيقة وضعه؛ لكن لم يكن في مقدوره أن يفكّر مجرد تفكير بحضور هذين الشخصين. والمرة بعد الأخرى راح كرش الحارس الثاني - لا يمكن أن يكونا سوى حارسين - يصطدم به بحركة ودية حقاً، لكنه إذا ما رفع نظره، فسيرى وجهاً جافاً ضامراً لا يناسب هذا الجسم البدين مطلقاً، وجهاً ذا أنف ضخم مائل كان يتفاهم من فوقه مع الحارس الآخر. أي ناس كان هذان؟ عما كانوا يتحدثان؟ إلى أي سلطة يتتميان؟ كان لك يعيش في دولة دستورية، وفي كل مكان يسود السلام، وكل القوانين سارية، من أقدم على مداهنته في بيته؟ كان يميل دائماً إلى الاستهانة بكل شيء ما أمكن، ولا يرى السيء إلا بعد وقوع السيء، ولا يحتاط للمستقبل، ولو أحدق كل خطر. لكن هنا بدا له هذا غير مناسب؛ صحيح أنه يمكن للمرء أن يعتبر الأمر كله دعابة، دعابة غليظة أعدّها له زملاؤه في المصرف، لأسباب يجهلها، ربما لأن اليوم كان يوم عيد ميلاده الثلاثاء، كان هذا أمراً ممكناً طبعاً، وربما لم يكن بحاجة سوى إلى أن يضحك للحارسين بطريقة ما حتى يضحكان معه، وربما كانوا حمّالين من ناصية الشارع، لم يكونوا غير شبيهين بهما... ورغم ذلك فقد عقد العزم هذه المرة حقاً منذ رؤيته الأولى للحارس فرانز ألا يترك من يده أقل ميزة قد يكون يملّكتها إزاء هذين الشخصين. ولم ير خطراً كبيراً في أن يقال فيما بعد إنه لم يفهم المزاح، يد أنه تذكّر - وإن لم يكن من عادته فيما عدا ذلك أن يتعلم من تجاريه - من بعض الحالات غير المهمة في حد ذاتها كان، على خلاف أصدقائه وبوعي وبدون أقل إحساس للعواقب الممكنة، قد تصرف فيها في غير ما حيطة، فجاءت نتيجتها عقاباً له. على هذا ألا يتكرر حدوثه، في هذه المرة على الأقل، وإذا ما كان الأمر ملهاة، فإنه يريد أن يشارك في اللعب.

كان مازال حراً. «اسمحوا لي»، قال واجتاز الحارسين مسرعاً، وذهب إلى حجرته، وسمع أحدهما يقول: «يبدو أنه عاقل». وفي حجرته فتح على الفور أدراج مكتبه بعنف، وهناك كان كل شيء مرتبًا ترتيباً كبيراً، لكن بالذات أوراق إثبات الشخصية التي بحث عنها لم يستطع، في الببلة، أن يجدتها على الفور. وأخيراً وجد أوراق الدرجة، وأراد أن يذهب بها إلى الحارسين، لكنها بدت له من ثم ضئيلة الأهمية، فاستمر في البحث حتى وجد شهادة الميلاد. وإذا عاد إلى الحجرة المجاورة، فتح الباب المقابل في هذه اللحظة، وهمت السيدة غروباخ بالدخول إلى هناك. ولم تُر سوى لحظة واحدة، إذ أنها ماكادت ترى ك حتى ارتبت على ما يبدو، فطلبت المعدنة، وتوارت وأغلقت الباب بحرص بالغ. «فلتدخلني»، لم يستطع ك أن يقول لها أكثر من ذلك، وأصبح الآن يقف وسط الحجرة حاملاً أوراقه، مازال ينظر إلى الباب الذي لم ينفتح ثانية، حتى أفرغه نداء الحارسين، اللذين كانوا يجلسان إلى الطاولة الصغيرة قرب النافذة المفتوحة، وراحوا، كما شاهد ك الآن، يتناولان طعام فطوره. «لماذا لم تدخل؟» سأله. «لايسمع لها»، قال الحارس الطويل، «إنك معتقل». «كيف يمكنني أن أكون معتقلًا؟ وحتى بهذه الطريقة؟». «ها أنت تبدأ مرة أخرى إذا»، قال الحارس، وغمض شريحة خبز بالزبدة في وعاء العسل الصغير. «مثل هذه الأسئلة لانجذب عليها». «سوف يتحتم عليكم أن تجيئوا علينا»، قال ك. «هذه هي أوراق إثبات شخصيتي، ابرزا لي الآن أوراقكم، ولاسيما أمر الاعتقال». «آيتها السماوات!» قال الحارس، «أنك لا تستطيع أن ترضى بوضعك، و يبدو أنك تعمّد استثارتنا على غير جدوى، نحن الأقرب إليك الآن على الأرجح من جميع أخوتك البشر الآخرين». «هذا هو الحال، صدق الأمر!» قال فرانز، ولم يرفع فنجان القهوة الذي كان يمسكه بيده إلى فمه، بل نظر إلى ك نظرة طويلة ذات معنى على الأرجح لكنها غير مفهومة. ودخل ك، دون إرادة

منه، في حوار نظرات مع فرانز؛ لكنه ضرب من ثم على أوراقه وقال: «هذه هي أوراق إثبات شخصيتي». «وماذا تهمنا هذه؟» قال الحراس الطويل بصوت عال، «إنك تتصرف أسوأ من طفل. ماذا تريد إذًا؟ هل تريد إيصال محاكمةك الكبرى للعينة إلى نهاية سريعة، بأن تناقش معنا نحن الحراس إثبات الشخصية وأمر اعتقال؟ نحن مستخدمان من مرتبة صغيرة غير خبرين بأوراق إثبات الشخصية، ولاعلاقة لهما بمحاكمةك سوى تأدبة نوبة حراسة لديك مدة عشر ساعات يومياً وتقاضي أجر لقاء ذلك. هذا كل ما نحن، لكننا رغم ذلك قادران أن ندرك أن السلطات العليا التي نعمل في خدمتها، قبل أن تأمر بمثل هذا الاعتقال، إنما تطلع بدقة تامة على أسباب الاعتقال وشخص المعتقل. في هذا الأمر لا يوجد خطأ. إن سلطتنا، على قدر علمي بها، وأنا لا أعرف سوى أصغر المراتب، لا تبحث، ربما، عن الذنب بين السكان، وإنما تجذب من قبل الذنب، كما جاء في القانون، ويتوجب عليها أن ترسلنا نحن الحراس. هذا قانون. أين يمكن أن يوجد خطأ هنا؟». «هذا القانون لا أعرفه»، قال ك: «هذا أسوأ بالنسبة إليك»، قال الحراس. «لا يوجد سوى في رأسيكما»، قال ك، وأراد أن ينفذ إلى أفكار الحراسين ووجهها لصالحه أو يصبح جزءاً منها. لكن الحراس قال رافضاً فحسب: «سوف تحيط بالأمر». وتدخل فرانز قائلاً: «انظر يا فيلم، يعترف أنه لا يعرف القانون ويدعي في الوقت نفسه أنه بريء». «لكل حق كل الحق، لكن لا يمكن إدراكه أي شيء»، قال الآخر. ولم يردد ك بشيء؛ وفكراً، هل ينبغي علي أن أربك نفسك أكثر بثرثرة هذين العضوين من أصغر مرتبة - يعترفان بأنفسهما أنهما هكذا؟ - وإنهما ليتحدثان على كل حال عن أشياء لا يفهمانها قط. ووثيقهما غير ممكن لولا غباءهما. وبضع كلمات سوف أتحدث بها مع إنسان ند لي سوف توضح كل شيء أكثر بشكل لا يقارن من أطول الأحاديث مع هذين. ومشى بضع مرات جيئةً وذهاباً في فراغ

الحجرة، وفي الجانب الآخر رأى المرأة العجوز التي كانت قد جرّت إلى النافذة رجلاً عجوزاً أكبر سنًا منها بكثير وأحاطت عنقه بذراعيها؛ وكان على ك أن يئهي هذا العرض، فقال: «خذاني إلى رئيسكما». «حتى يرغب في ذلك؟ وليس قبل»، قال الحارس الذي كان قد سمي فيلم، وأضاف: «أنصحك الآن أن تذهب إلى حجرتك، وتلزم الهدوء، وتنظر ما سوف يقضى بشأنك. إننا ننصحك بألا تلهي نفسك بأفكار غير مجده، وإنما أن تستجمع قواك؛ إذ سوف توضع أمامك متطلبات عالية. إنك لم تعاملنا كما كان من شأن لطفنا أن يستحق، ونسبيت أننا، مهما كنا، رجال حران إزاءك الآن على الأقل؛ وليس هذا تفوقاً صغيراً. ورغم ذلك فتحن مستعدان، إذا كان لديك نقود، أن يجلب لك فطوراً صغيراً من المقهى الواقع إلى الجانب الآخر».

دون أن يردد على هذا العرض وقف ك ساكناً فترة وجيزة. ربما لن يكون من شأن الإثنين، إذا ما فتح باب الحجرة التالية أو حتى باب الحجرة الأمامية، أن يقدما على منعه فقط، وربما كان أسهل حل للأمر كله أن يذهب به إلى أبعد الحدود. لكن ربما كان من شأنهما أن يمسكا به، وإذا ما طرح أرضاً مرة، فإنه سوف يفقد كل تفوق، هذا التفوق الذي كان ولاشك قد حافظ عليه إزاءهما الآن. ولهذا آثر ضمان الحل، هذا الحل الذي لا بد للمنجى الطبيعي أن يأتي به، وعاد إلى حجرته دون أن تقع كلمة أخرى من طرفه أو من طرف الحارسين.

ألقى بنفسه فوق سريره، وتناول من على المنضدة الصغيرة تفاحة جميلة كان قد أعدّها مساء أمس من أجل طعام الفطور. والآن أصبحت فطوره الوحيد، وعلى كل حال، كما تأكد له لدى القسمة الكبيرة الأولى، أفضل بكثير من الفطور الذي قد يجلب له من المقهى الليلي الوسخ، والذي

كان من شأنه أن يحصل عليه بعنة من الحراسين. وشعر براحة واطمئنان. صحيح أن عمله في المصرف فاته صباح اليوم، لكن يسهل الاعتذار عن هذا التأخير نظراً للمركز الكبير نسبياً الذي يشغلة. هل عليه أن يذكر العذر الحقيقي؟ ونوى أن يفعل ذلك. وإذا لم يصدقه المرء، الأمر الذي يمكن فهمه في هذه الحالة، فإنه يستطيع أن يقدم السيدة غروباخ كشاهد، أو العجوزين من الجانب الآخر أيضاً، اللذين كانوا الآن ولاشك في طريقهما إلى النافذة المقابلة. وتعجب ك، تعجب على الأقل انتلاقاً من نسق تفكير الحراسين، من أنهما دفعاه إلى الحجرة وتركاه هنا وحيداً، حيث كان يملك عشر إمكانيات لقتل نفسه. لكنه سأل نفسه في الوقت ذاته، انتلاقاً من نسق تفكيره، عن السبب الذي يمكنه أن يدفعه إلى فعل ذلك. هل ربما لأن الإثنين كانوا يجلسان في الحجرة المجاورة بعد أن استوليا على طعام فطوروه؟ كان سيكون من العبث أن يتصرّ، لأنه، حتى لو أراد أن يفعل ذلك، ما كان قادراً على فعله بسبب عبئية هذا الفعل. ولو لم يكن ضيق أفق الحراسين ملفاً للنظر هكذا، كان في مقدور المرء أن يفترض أنهما هما أيضاً، بناء على القناعة نفسها، لم يريا خطاً في تركه وحيداً. كان من شأنهما الآن أن يشاهدا، لو أرادا، كيف ذهب إلى خزانة حائط صغيرة حفظ فيها عرقاً جيداً، كيف أفرغ قدحاً صغيراً أولاً كتعويض عن طعام الفطور، وكيف شخص قدحاً ثانياً لتشجيعه، وهذا الثاني على سبيل الاحتياط فقط للحالة بعيدة الاحتمال بأنه قد يكون ضروريأ.

وهنا أفرعه نداء من الحجرة المجاورة على نحو لطم معه أسنانه بالقذح. كان النداء: «المراقب يناديك». وكان الصياح وحده هو الذي أفرعه، هذا الصياح العسكري المتقطع الذي لم يكن يظن قط أن الحراس فرانز قادر على إصداره. الأمر نفسه كان ملائماً له كل الملائمة. «أخيراً»، رد منادياً، وأغلق

خزانة الحائط، وأسرع في الحال إلى الحجرة المجاورة. كان الحراسان يقفان هناك، وقد رذاه إلى حجرته ثانية وكأن هذا أمر بدعيه. وصاحا: «ماذا دهاك؟ بالقميص تريد المشول أمام المراقب؟ إنه يدعوك توسيع ضرباً ونحن معك!». «اتركاني بحق الشيطان»، صاح ك الذي كان قد دفع حتى وصل إلى خزانة ملابسه، «إذا داهمني المرء في الفراش، فلا يمكنه أن يتوقع أن يجدني في حلّة العيد». «لا يفيد شيئاً»، قال الحراسان اللذان كانا كلما صرخ ك يظلان هادئين كل الهدوء، بل يصبحان حزبين تقريباً، ويثيران بهذا الحيرة في نفسه، أو يرجعانه إلى رشهه نوعاً ما. «مراسم مضحكة!» همهم، لكنه رفع ستة من على الكرسي، ومسكها فترة وجيزة بكلتا يديه كأنه يعرضها لحكم الحراسين. هزا رأسهما وقالا: «يجب أن تكون ستة سوداء». فألقى ك الستة إلى الأرض، وقال - هو نفسه لم يعرف بأي معنى قاله - : «لكن ليست هذه الجلسة الرئيسية بعد». ابتسم الحراسان، غير أنهما ظلا لدى قولهما: «يجب أن تكون ستة سوداء». «إذا كنت بهذا أعمى الأمر، فعلى ذلك أن يرضيني»، قال ك وفتح بنفسه خزانة الملابس، وبحث طويلاً بين الملابس الكثيرة، واختار أفضل لباس أسود، ستة كانت تقاد تلفت أنظار المعرف بتفاصيلها، كما أخرج قميصاً آخر، وبدأ يرتدي ملابسه بعناية. وكان يبنه وبين نفسه يعتقد بأنه توصل بهذا إلى تعجيل الأمر كله بأن نسي الحراسان إرغامه على الدخول إلى الحمام. وراقبهما فيما إذا كان من شأنهما، ربما، أن يتذكرا ذلك، لكن هذا لم يخطر على بالهما طبعاً، غير أن فيلم لم ينس أن يرسل فرانز إلى المراقب لإخباره أن ك يرتدي ملابسه.

ولما فرغ من ارتداء ملابسه كلياً وجّب عليه أن يذهب، مازأً بمحاذة فيلم تماماً، عبر الحجرة الجانبية الخالية، إلى الحجرة التالية التي كان بابها

مفتوحاً على مصراعيه. كانت هذه الحجرة، كما كان لك يعلم تماماً، مسكونة منذ فترة قصيرة من قبل آنسة تدعى بورستر، تعمل طابعة على الآلة الكاتبة، اعتادت أن تذهب إلى العمل في الصباح الباكر وتعود إلى البيت في وقت متأخر، ولم يكن لك قد بادلها أكثر من كلمات تحية. والآن كانت المنضدة الصغيرة قد أزيحت من جانب سريرها إلى وسط الحجرة كطاولة محاكمة، والمراقب جلس وراءها. كان قد وضع ساقاً فوق أخرى وأسد ذراعاً على ظهر الكرسي. وفي ركن من أركان الحجرة كان يقف ثلاثة شبان يتفرجون على صور الآنسة بورستر، التي كانت مثبتة على حصيرة جدارية معلقة على الحائط. وكان ثمة بلوزة بيضاء معلقة على مقبض النافذة المفتوحة. وقرب النافذة المقابلة كان يقف العجوزان مرة أخرى، لكن جمعهما كان قد زاد، إذ كان يقف وراءهما رجل أطول منهما بكثير يرتدي قميصاً مفتوحاً يكشف عن صدره، راح يضغط بأصابعه على لحيته المدببة ويفتلها.

«يوزف لك؟» سأله المراقب، ربما فقط لكي يلفت إليه نظرات لك الشاردة. فأومأ لك برأسه. «فوجئت جداً بأحداث صباح اليوم؟» سأله المراقب وأزاح بكلتا يديه الأشياء القليلة التي كانت على المنضدة الصغيرة، وهي شمعة وأعود ثقاب وكتاب ووسادة إير ودبليس، وكأنها أشياء يحتاجها في الجلسة. «بلا شك»، قال لك، وتملّكه شعور طيب لوقوفه أخيراً إزاء إنسان عاقل يستطيع أن يتحدث معه عن مسألته. «لاشك أنني فوجئت، لكنني لم أفاجأ جداً أبداً». «لم تفاجأ جداً؟» سأله المراقب ووضع الآن الشمعة في وسط المنضدة الصغيرة، في حين جمع الأشياء الأخرى حولها. وأسرع لك إلى التعليق قائلاً: «ربما تسيء فهمي، أقصد». هنا قاطع لك نفسه وتطلع باحثاً عن كرسي، وسأل: «أستطيع، فيما أعتقد، أن أجلس؟». «هذا غير

مؤلف»، أجاب المراقب. «أقصد»، قال ك، الآن دون فترة توقف أخرى، «لقد فوجئت جداً ولاشك، لكن عندما يكون المرء ثلاثين عاماً في العالم، وكان عليه أن يقتصر طريقة وحيداً مثلكما قدر علي، يكون صلب العود إزاء المفاجآت ولا يأخذها ولا يأخذ مفاجأة اليوم خاصة مأخذاً صعباً». «لماذا مفاجأة اليوم خاصة لا؟». «لأريد القول إنني أرى الأمر كله دعابة، إذ أن الإجراءات التي اتخذت تبدو لي كبيرة أكثر من اللازم. وكان على جميع أفراد النزل أن يشاركوا فيها وجميعكم أيضاً، ومن شأن هذا أن يتجاوز حدود الدعابة. لا أريد إذاً أن أقول إن الأمر دعابة». «صحيح كلياً»، قال المراقب وفحص عدد أعداد النقاب في علبة الكبريت. «لكن من ناحية أخرى»، استطرد ك قائلاً، وتوجه إلى الجميع وكان بوذه أن يتوجه حتى إلى الثلاثة الواقفين عند الصور، «لكن من ناحية أخرى لا يمكن للمسألة أيضاً أن تكون ذات أهمية فائقة. أستنتاج هذا من أنني مدعى عليه لكن دون أن أستطيع العثور على أدني ذنب قد يكن للمرء أن يتهمني بسببه. لكن حتى هذا هو أمر ثانوي، والسؤال الرئيسي هو: من الذي يتهمني؟ أية هيئة تقوم بالإجراءات القضائية؟ هل أنت موظفون؟ لا أحد يرتدي زيًّا رسمياً، إذا لم يشاً المرء أن يسمى لباسك» - وهنا توجه إلى فرانز - «زيًّا رسمياً، لكنه بالأحرى بدلة سفر. في هذه الأمور أطلب إيضاحاً وأنا مقتنع أننا سوف نستطيع بعد هذا الإيضاح أن نوَّع بعضنا بعضاً آخر وداع». وضرب المراقب علبة الثقالب على الطاولة وقال: «إنك على خطأ كبير. هؤلاء السادة هنا وأنا عديمو الأهمية كلياً بالنسبة إلى مسألك، لابل لأنعرف عنها شيئاً تقريباً. ولو كنا نرتدي البدلات الرسمية الأكثر صحة ونظامية، فإن قضيتك لن تكون أسوأ حالاً في شيء. كما لا يمكنني أن أقول لك بأي حال إنك مدعى عليه، أو بالأحرى إنني لا أعرف فيما إذا كنت مدعى عليه. أنت

معتقل، هذا صحيح، ولا أعرف أكثر من ذلك. ربما ثرثر المارسان شيئاً آخر، فكان إذاً مجرد ثرثرة. وإذا لم أستطع الآن إذاً أن أجيب على أسئلتك أيضاً، فإنني أستطيع أن أتصفح، فـأقل بنا وبما سيحدث لك، خير لك أن تفكر بنفسك أكثر. ولا تشر مثل هذه الضجة بإحساسك بالبراءة، فهذا يعكر الانطباع غير السيء الذي تعطيه. كما عليك بعامة أن تكون أكثر تحفظاً في الكلام، فكل شيء تقريباً قلته قبل قليل، كان يمكن للمرء، لو لم تكن قد قلت سوى بعض الكلمات، أن يفهمه من تصرفك، وفوق ذلك لم يكن كلامك لصالحك في شيء».

وحملق لك في المراقب. هل تلقى هنا دروساً مدرسية من إنسان قد يكون أصغر سنًا منه؟ وهل عوقب بتوييع لصراحته؟ ولم يعلم شيئاً عن سبب اعتقاله وعمن كلف به؟ وداخله نوع من القلق، فراح يتمشى جيئة وذهاباً، دون أن يعيقه أحد عن ذلك، وسحب أكمام قميصه إلى الوراء، وتحسس صدره، ومستد شعره، ومرّ بالرجال الثلاثة، وقال «الاجدوى حقاً»، فاستدار هؤلاء نحوه ونظروا إليه بلطف لكن نظرة جديدة، وتوقف أخيراً مرة أخرى أمام طاولة المراقب، وقال: «النائب العام هسترر، صديق جيد لي، هل في مقدوري أن أخباره؟». «بلاشك»، قال المراقب، «لكنني لا أدرى أي معنى يمكن أن يكون لهذا، أو ينبغي أن يكون عليك أن تتحدث في مسألة شخصية ما». «أي معنى؟» صاح لك مندهشاً أكثر من أن يكون غاضباً. «من أنت إذا؟» تريدون معنى وتقومون بما لا أقل منه معنى في العالم؟ أليس هذا مما يقطع نياط القلب؟ لقد داهمني السادة أولاً، والآن يجلسون أو يقفون هنا متسلعين ويدعونني أستعرض أمامهم مقدراتي. أي معنى لخاتمة مدعى عام إذا كنت معتقلأً كما يقال؟ حسناً، لن أخبار». «بلى»، قال المراقب ومدّ يده إلى الحجرة الأمامية حيث كان الهاتف، «لتلخابر من فضلك». «لا، لا أريد

بعد الآن»، قال ك وذهب إلى النافذة. في الجانب الآخر كانت الجماعة مازالت تقف قرب النافذة، وبدت الآن فقط باقتراب ك وقد أزعجت بعض الشيء في هدوء تفرّجها. وهم العجوزان بالنهوض، لكن الرجل خلفهما هدأً من روعهما. «هناك أيضاً مثل هؤلاء المتفرجين»، صاح ك بصوت عال جداً منادياً المراقب، وأشار بسبابته إلى الخارج. ونادى إلى الجهة المقابلة، «ابعدوا من هناك». وفي الحال تراجع الثلاثة بضع خطوات، بل تراجع العجوزان إلى ماوراء الرجل الذي واراهم بجسمه العريض، ودللت حركات فمه أنه قال شيئاً ما غير مفهوم من بعيد. لكنهم لم يتواروا كلية، بل ظهر عليهم أنهم يتظرون اللحظة التي قد يمكّنهم فيها أن يتقدّموا في غفلة من النافذة مرة أخرى. «ناس متطلّلون، فظّون!» قال ك وهو يستدير عائداً إلى الحجرة. ومن الممكن أن المراقب قد وافقه، كما ظن ك أنه لاحظ ذلك بنظره جانبية. غير أنه من الممكن أيضاً لا يكون قد سمع مطلقاً، إذ أنه كان قد ضغط يداً على الطاولة، وبذا عليه أنه يقارن الأصابع حسب طولها. كان الحراسان يجلسان على حقيقة مغطاة بقطعة مزخرفة مركبة. وكان الشبان الثلاثة يضعون أيديهم على خواصهم، ويوجّلُون بأبصارهم في غير ما هدف. وكان الهدوء يسود مثلكما في مكتب منسيٍ ما. «والآن يا سادتي»، نادى ك، وقد بدا عليه طوال لحظة كأنه يحمل الجميع على كتفيه، «حسب مظهركم يفترض أن مسألي قد انتهت. وأنا أرى أنه من الأفضل عدم التفكير بعد الآن في مشروعية أو لامشروعية تصرفكم، وأن نهي المسألة نهاية تصالح بمصالحة متبادلة. إذا كنتم ترونرأيي، فأرجو...». وتقدم إلى طاولة المراقب ومدّ له يده. رفع المراقب عينيه، عض على شفتيه، ونظر إلى يد ك المدودة؛ وكان ك مازال يظن أن المراقب سيصافحه. لكن هذا نهض واقفاً، تناول قبة قاسية مستديرة كانت على سرير الآنسة بورستن، ووضعها على رأسه بحذر وبكلتا يديه، كما يفعل

المرء لدى تحرير القبعات الجديدة. وأثناء ذلك قال لك: «كم يedo لك كل شيء بسيطاً! ترى أنه علينا أن ننهي المسألة نهاية تصالح؟ لا، لا، هذا لا يمكن فعلاً. علماً أنتي من ناحية أخرى لا أريد بأي حال أن أقول بأن عليك أن تيأس. لا، لماذا إذاً إنك معتقل فحسب، ولا شيء آخر. كان علىي أن أعلمك هذا، وقد فعلت ذلك، ورأيت أيضاً كيف تلقيت البلاغ. وهذا يكفي اليوم، ويكتننا أن نودع بعضنا بعضاً، لكن مؤقتاً فحسب. سترغب الآن ولاشك أن تذهب إلى المصرف؟». «إلى المصرف؟»، سألك. «ظننت أنتي معتقل». سألك بشيء من التحدى، إذ أنه، رغم عدم قبول مصادفته، شعر، وخاصة منذ أن نهض المراقب، باستقلالية أكثر فأكثر عن جميع هؤلاء الناس. كان يلعب معهم. وكان يتوبي، إذا ما انصرفوا، أن يجري وراءهم ويعرض عليهم اعتقاله. لذا كرر أيضاً: «كيف يمكنني أن أذهب إلى المصرف وأنا معتقل؟». «أوه»، قال المراقب الذي كان قد بلغ الباب، «لقد أساءت فهمي، أنت معتقل، لاريب، لكن على هذا ألا يعيقك عن تأدبة وظيفتك. كما عليك أيضاً لا تعاقد في طريقة حياتك العادمة». «كوني معتقلًا ليس شديد السوء إذاً»، قال لك واقترب من المراقب. وقال هذا: «لم أقصد شيئاً آخر قط». «ولا حتى إبلاغ الاعتقال إذاً يedo أنه كان ضرورياً للغاية»، قال لك واقترب أكثر. وكان الآخرون أيضاً قد اقتربوا. وأصبح الجميع الآن مجتمعين في بقعة صغيرة عند الباب. «كان هذا واجبي»، قال المراقب. «واجب سخيف»، قال لك بتشدد. «ربما»، أجاب المراقب، «لكتنا لا نريد أن نضيع وقتنا بمثل هذا الكلام. كنت أظن أنك ترغب في الذهاب إلى المصرف. وإذاً عليك تتبه إلى كل الكلمات، أضيف: إنني لا أجبرك على الذهاب إلى المصرف، لقد ظنت فحسب أنك تريد ذلك. ولتسهيل هذا عليك وجعل وصولك إلى المصرف غير ملتف للنظر، وضعست تحت تصرفك هنا هؤلاء السادة الثلاثة زملاءك». «كيف؟» صاح لك

ونظر إلى الثلاثة مندهشاً. هؤلاء الشبان غير الممتهنين المصاين بفقر الدم والذين مازال يتذكّرهم فقط كمجموعة تقف عند الصور، كانوا فعلاً مستخدمين من مصرفه، ليس زملاء، كان هذا مبالغة، ودلّ على وجود ثغرة في علم المراقب الشامل، لكنهم كانوا مستخدمين صغاراً من المصرف. كيف تقدّر علىك أن يلاحظ ذلك؟ كم كان لابدّ قد استؤثر به، من قبل المراقب والمارسين، حتى لا يُعرّف على هؤلاء الثلاثة. رابنشتاين مشدود القامة الملتوح بيديه، وكوليتش الأشقر ذي العينين الغائرتين، وكاميير ذي الابتسامة السمحجة الناشئة من تقلص عضلات مزمون. «صباح الخير!» قال لك بعد فترة وجيزة ومدّ يده إلى الرجال الذين انحنوا احناءاً مؤدبة. «لم أتعرّف عليكم أبداً. والآن سوف نشرع بالعمل إذاً، أليس كذلك؟». وأوّلماً الرجال ضاحكين متسمسين، وكأنهم كانوا ينتظرون ذلك طوال الوقت؛ وفقط عندما افتقد لك قبعته التي كانت قد ظلت في حجرته، جروا جميعاً وراء بعضهم لكي يحضرونها، الأمر الذي دلّ على كل حال على شيء من الارتباك. ووقف لك ساكناً وتابعهم بنظره عبر البالين المفتوحين، وأخرهم كان طبعاً رابنشتاين اللامبالي، الذي مشى مشية خبيث رشيق. وناول كاميير القبعة إلى لك، وكان على هذا أن يؤكّد لنفسه، كما كان الحال عليه في المصرف أيضاً مراراً، أن ابتسامة كاميير ليست قصدأ، لا بل ليس في مقدوره أن يبتسم عن قصد إطلاقاً. وفي الحجرة الأمامية فتحت، من ثم، السيدة غروباخ التي لم يجدو عليها أنها على شعور كبير بذنب، الباب للجماعة كلها، ونظر لك، كما فعل كثيراً، إلى حزام مريتها الذي كان يحرّ عميقاً، بلا ضرورة، في جسمها الضخم. وفي الخارج قررك، وساعته في يده، أن يستقلّ سيارة لكي لا يزيد تأخره، الذي بلغ نصف ساعة، بغير موجب. وجرى كاميير إلى الناصية كي يحضر السيارة، وحاول الآخران، كما يجدو، إشغال لك، إذ أشار كوليتش فجأة إلى باب البيت المقابل الذي

ظهر فيه للتو الرجل ذو اللحية المدببة الشقراء، وشعر في اللحظة الأولى بارتباك لظهوره الآن بكمال طوله، فارتدى إلى الحائط واستند إليه. والراجع أن العجوزين كانوا لايزالان على الدرج. واغتناظ ك من كوليتش لأن هذا لفت نظره إلى الرجل الذي كان قد رأه قبله، لا بل أنه حتى كان يتوقع ظهوره. «لانتظر إلى هناك»، قال بعنف دون أن يلاحظ كم هي ملفتة للنظر مثل طريقة الحديث هذه إزاء رجال مستقلين. لكن لم يكن ثمة ضرورة لإيضاح، إذ أقبلت السيارة في هذه اللحظة، فجلسوا وانطلقوا. وهنا تذكر ك أنه لم يلاحظ أبداً انصراف المراقب والحارسين؛ كان المراقب قد حجب المستخدمين الثلاثة عنه، والآن حجب المستخدمون المراقب. ولم يدلّ هذا على كثير من حضور البديهة، وعقد ك العزم على مراقبة نفسه في هذا الخصوص بدقة أكثر. ومع ذلك استدار من غير عمد وانحنى فوق مؤخرة السيارة عليه يرى المراقب والحارسين. غير أنه عاد إلى وضعه الأول دون أن يكون قد حاول مجرد محاولة أن يبحث عن أحد، واتكأ باسترخاء في ركن السيارة. ورغم أن ذلك لم يلوح عليه، كان بحاجة، الآن بالذات، إلى تطبيب خاطر، لكن الرجال بدوا متعبين، كان رابنستايبر ينظر بعيناً من السيارة، وكوليتش يساراً، وكامينر وحده كان رهن التصرف، بتكتشيرته، التي لاتسمح الإنسانية مع الأسف بالوضحك عليها.

مدعى عام

رغم الفراسة في الناس والخبرة في الحياة، اللتين كان لك قد اكتسبهما طيلة مدة خدمته في المصرف، كانت مجموعة المقهى المداومة تبدو له دائماً جديرة بالاعتبار جداً، ولم ينكر قط إزاء نفسه أنه شرف كبير له أن يتبع إلى مثل هذه الجموعة. كانت تضم فقط تقريباً قضاة ومحامين عموميين ومحامين، وكان قد قُبِل فيها أيضاً بعض الموظفين من صغار السن ومساعدي المحامين، غير أن هؤلاء كانوا يجلسون في آخر الطاولة ولا يجوز لهم التدخل في النقاشات إلا عندما توجه إليهم أسئلة خاصة. لكن لم يكن مثل هذه الأسئلة من غرض، في الغالب، سوى تفكيره الجماعة؛ وعلى الأخص المدعي العام هسترر، الذي كان في العادة جار لك، كان يحب تخجيل السادة الشبان بهذه الطريقة. وعندما كان يضع يده كثة الشعر وقد فرد أصابعها على وسط الطاولة، ويتوجه إلى آخر الطاولة، كان الجميع يرهفون آذانهم. وحين كان أحدهم هناك، من ثم، يتلقى السؤال، لكن إنما أنه لم يتمكن حتى من فهم لغزه أو أنه راح ينظر إلى جعته مفكراً أو بدلاً من أن يتكلم راح ينهج بفكيره أو حتى - وهذا كان الأسوأ - فاض في الكلام لا يقطع نادى فيه برأي خاطئ أو غير معتمد، كان السادة الكبار، من ثم،

يستدبرون في مقاعدهم وهم يتسمون وقد بدا لهم أن الأمر لم يصبح مريحاً إلا الآن. أما الأحاديث الاختصاصية الجدية فعلاً فقد كانت تظل محفوظة لهم وحدهم.

وكان قد جيء به إلى هذه المجموعة من قبل محامي هو وكيل المصرف. وكان ثمة وقت توجب فيه على كثي ان يجري مع هذا المحامي في المصرف مباحثات مطولة حتى ساعة متأخرة من المساء، ومن ثم اقتضت المناسبة من تلقاء ذاتها أن تناول مع المحامي طعام العشاء سوية على مائدةه الثابتة، وارتاح إلى المجموعة. لقد رأى هنا مجرد رجال وجهاء، ذوي علم، أقواءاً بمعنى ما، ينحصر استجمامهم بأن يبحثوا عن حل مسائل صعبة لا تتصل بالحياة العادلة سوى عن بعد، ويجهدوا أنفسهم في ذلك. وإذا لم يكن في مقدوره نفسه أن يتدخل طبعاً سوى قليلاً، فإنه حصل على فرصة أن يعلم أموراً كثيرة، الأمر الذي استطاع أن يجعل له آجلاً أو عاجلاً منفعة في المصرف أيضاً، وبالإضافة إلى ذلك استطاع أن ينشئ علاقات شخصية مع المحكمة كانت مفيدة دائماً. لكن الجماعة أيضاً بدت أنها تقبله برغبة. وسرعان ما اعترف به خبيراً مهنياً، واعتبر رأيه في مثل هذه الأمور - وإن لم يحر ذلك بلا سخرية كلية - شيئاً لا ينقض. ولم يكن من النادر أن يحدث أن ييدي اثنان رأيين مختلفين في مسألة قانونية، ويطلبان رأي كث في الواقعة، فيتردد اسم كث من ثم في جميع الكلمات والردود عليها ويدخل إلى أكثر الأبحاث تجریداً والتي لم يعد كث منذ فترة طويلة قادراً على متابعتها. لكن أموراً كثيرة توضحت له تدريجياً، ولاسيما أنه كان له في المدعى العام هستر مستشاراً جيداً إلى جانبه، والذي اقترب منه أيضاً بشكل ودي. حتى أن كث كان يرافقه ليلاً في الطريق إلى البيت. غير أنه لم يستطع أن يعتاد أبداً على أن يسير ذراعاً بذراع إلى جانب الرجل العملاق، الذي كان

من شأنه أن يستطيع إخفاءه في معطفه الفضفاض بشكل غير ملتف للنظر إطلاقاً.

لكن بمرور الأيام أصبحا يجتمعان هكذا بحيث زالت كل فروق الثقافة والمهنة والسن. وكانتا يتعاملان مع بعضهما بعضاً وكأنهما يتتميان إلى بعضهما بعضاً من البداية، وإذا كان أحدهما يبدو أحياناً متتفوقاً في الظاهر، فلم يكن ذلك هستر وإنما ك، إذ أن خبراته العملية كانت في الغالب على صواب، وذلك لأنها كانت قد اكتسبت بطريقة مباشرة، الأمر الذي لا يمكنه أن يحدث أبداً انطلاقاً من طاولة المحكمة.

وسرعان ما أصبحت هذه الصداقة معروفة طبعاً على طاولة الرواد الدائمين، ونسى تقريراً من كان قد جاء به ك إلى المجموعة، والآن كان هستر على كل حال هو الذي يرعى ك؛ وإذا ما نشأ شك بحق ك في الجلوس هنا، فإنه سيكون في مقدوره أن يعتمد على هستر حقاً. غير أن ك نال بذلك حظوة خاصة، إذ أن هستر كان محترماً مثلما كان مرهوباً. صحيح أن قوة وبراعة تفكيره الحقوقي كانت جديرة بالإعجاب الشديد، لكن كثريين من السادة كانوا في هذا المجال أنداداً له على الأقل، إلا أن أحداً منهم ما كان يبلغ مبلغه في العنف الذي يدافع به عن رأيه. وبذالك أن هستر عندما لا يستطيع إقناع خصمه، فإنه يثير الخوف في نفسه على الأقل؛ وكان كثيرون يتراجعون حتى أمام سبابته المرفوعة. كان الحال وكأن من شأن الخصم نسيان أنه كان برفقة معارف وزملاء طيبين، وأن الموضوع إنما يدور حول مسائل نظرية ليس إلا، وأنه في الحقيقة لا يمكن أن يحدث له أيما شيء بحال من الأحوال... لكنه كان يلوذ بالصمت، وهزة رأس كانت على كل حال جرأة. وكان الأمر منظراً محراجاً، إذا ما جلس الخصم بعيداً، وأدرك هستر أنه لا يمكن أن يحصل اتفاق من بعيد، وأزاح الآن، على سبيل

المثال، الصحن مع الطعام إلى الوراء، ونهض بيطء كي يذهب إلى الرجل بنفسه. والذين كانوا قريبين أحناوا رؤوسهم إلى الوراء كي يشاهدوا وجهه. لكن هذه كانت حوادث عرضية نادرة نسبياً، وقبل كل شيء لم يكن يثور إلا بخصوص مسائل حقوقية وحدها تقريباً، وعلى وجه التحديد بخصوص مثل هذه المسائل التي تتعلق بالمحاكمات التي كان قد تولّها بنفسه أو يتولّها. وإذا لم يكن الموضوع يتعلق بمثل هذه المسائل، فإنه كان ودوداً وهادئاً، وضحكته كانت لطيفة، وولعه بخсс الطعام والشراب. بل وكان يمكن أن يحدث ألا يستمع إلى الحدث العادي أبداً، وإنما يتوجه إلى لك، ويضع ذراعه فوق ظهر كرسيه، ويسأله عن المصرف بصوت منخفض، ثم يتحدث عن عمله هو، أو يحكى أيضاً عن معارفه من النساء، اللواتي يتبعنه مثلما تتبعه المحكمة. ولم يره المرأة يتحدث مع أحد آخر في الجموعة على هذا النحو، وفعلاً كان المرأة كثيراً ما يأتي، إذا ما أراد أن يرجو من هستر شيئاً - في الغالب كان المطلوب مصالحة زميل -، أول ما يأتي إلى لك، ويرجو وساطته، التي كان يقدمها دائماً برغبة ويسير. وكان، بعامة، دون أن يستغل في هذا المجال علاقته مع هستر، في غاية اللطف إزاء الجميع ومتواضعاً، وعرف، الأمر الذي كان أكثر أهمية من اللطف والتواضع، كيف يميز بشكل صحيح بين تدرج مراتب السادة، ويعامل كلّاً منهم طبقاً لمرتبته. غير أن هستر كان دائماً وأبداً يعلمـه في هذا المجال، وكانت هذه هي التعليمات الوحيدة التي لم يكن هستر يخل بها حتى في أكثر النقاش حدة. ولذا فقد كان دائماً يوجه أيضاً إلى السادة الشبان في آخر الطاولة، الذين كانوا لايزالون لايملكون مرتبة تقريباً، خطياً عاملاً ليس إلا، وكأنهم ليسوا أفراداً، وإنما مجرد كتلة مجتمعة. لكن هؤلاء السادة بالذات كانوا يقدمون له أكبر احترام، وعندما كان ينهض في نحو الساعة الحادية عشرة

كي يذهب إلى البيت، كان أحدهم يأتي على الفور ويساعده لدى ارتدائه معطفه الثقيل، ويأتي ثان ويفتح الباب أمامه وهو يقوم بانحناء كبيرة، ويبقى مفتوحاً طبعاً عندما يغادر ك الحجرة وراء هستر.

هسترر بفضيلها ك عليه. كان الأمر حاجة وليس خبأاً، عندما كانت تستند إلى الطاولة بظهرها العاري المكتنز السمين وتدني وجهها من ك هادفة إلى إرغامه على النظر إليها. ولم تتحقق بذلك سوى أن امتنع ك في النهاية عن الذهاب إلى هسترر، وعندما حضر مرة أخرى بعد بعض الوقت، كانت هيلينه قد صرفت نهائياً. وقد تقبل ك الأمر على أنه أمر بديهي. وفي هذه السهرة طال مجلسهما بنوع خاص، واحتفلوا بالمحاطبة بصيغة المفرد بناء على اقتراح هسترر، وكان ك في طريقه إلى البيت يكاد يحس بحدٍ بعض الشيء نتيجة التدخين والشرب.

في الصباح التالي بالذات أبدى المدير في المصرف في سياق حديث عمل ملاحظة بأنه يظن أنه رأى ك مساء أمس، وأنه إذا لم يخطئ الظن كان ك يسير متأطلاً ذراع المدعي العام. وبدا أن المدير إنما يجد هذا الأمر غريباً بحيث أنه - لكن ذلك كان يتافق أيضاً مع دقته المعهودة - ذكر الكنيسة التي حدث ذلك اللقاء بمحاذة جانبها الطولي بالقرب من النافورة. ولو أراد أن يصف سراياً، لما استطاع أن يعبر عن ذلك بطريقة أخرى. وأوضح ك له الآن أن المدعي العام صديقه وأنهما فعلًا مرتبطان بالكنيسة مساء أمس. وابتسم المدير مستغرباً، ودعا ك للجلوس. كانت لحظة من تلك اللحظات التي كان ك يحب المدير بسيبهما، لحظات ظهر فيها من هذا الرجل الواهن، المريض الذي يسعل سعالاً خفيفاً والمشغل بعمل ذي أكبر مسؤولية، اهتمام ما بخير ك ومستقبله، لكنه اهتمام يمكن وصفه حسب نوع موظفين آخرين كانوا قد لقوا لدى المدير شيئاً مماثلاً بأنه اهتمام بارد وظاهري لايزيد عن كونه أداة ناجحة لربط موظفين ذوي قيمة طوال سنوات بالتضحية بدقيقتين من الوقت... ومهما كان الحال، فإن ك كان يخضع للمدير في هذه اللحظات. وربما تحدث المدير مع ك على نحو مغاير

عن حديثه مع الآخرين، إذ أنه لم ينس مثلاً مركزه العالى، لكي يصبح بهذه الطريقة على درجة واحدة مع ك - وهذا ما كان يفعله بالأحرى بشكل منتظم في تعامل العمل العادى - لكنه هنا بدا أنه نسي بالذات مركز ك، وتحدث معه كما يتحدث مع طفل أو مع شاب جاهل يتقدم للمرة الأولى بطلب للحصول على عمل ويفوز برضى المدير بسبب ما غير مفهوم. ومن المؤكد أنه لم يكن من شأن ك أن يقبل مثل طريقة الكلام هذه لا من شخص آخر ولا من المدير نفسه، لو لم يظهر له اهتمام المدير صادقاً، أو لو لم يسحره كلياً على الأقل احتمال وجود هذا الاهتمام كما ظهر له في مثل هذه اللحظات. وأدرك ك ضعفه؛ وربما كان سببه يعود إلى أن، في هذا الشخص، شيئاً طفولياً حقاً مازال يكمن فيه، وذلك لأنه لم يعرف قط اهتمام والده الحقيقي الذي كان قد توفي في سن باكرة، ولم يلبث ك أن غادر البيت بعد أن كان قد رفض بالأحرى دائماً حنان الأم أكثر من أن يكون قد استدرجه من والدته التي مازالت تعيش، وهي شبه ضريرة، في المدينة الصغيرة البعيدة التي لاتتغير.

«عن هذه الصدقة لم أكن أعرف شيئاً»، قال المدير. ولم يخفف من حدة هذه الكلمات سوى ابتسامة ودية واهنة.

الآنسة بورستنر

في هذا الربع اعتاد ك أن يمضي أمسياته على نحو يسمح له بالقيام بعد العمل، إذا كان ذلك مازال ممكناً - كان يجلس في معظم الأحيان لغاية الساعة التاسعة في المكتب - بمشوار صغير وحيداً أو مع معارف، ثم يذهب إلى حانة جعة حيث يجلس إلى مائدة زبائن دائمين مع سادة متقدمين في السن غالباً، لغاية الساعة الحادية عشرة في العادة. وكان ثمة استثناءات من هذا التقسيم، إذا ما دعي ك مثلاً من قبل مدير المصرف، الذي كان يقدر عالياً قدرته على العمل وجدارته بالثقة، إلى نزهة بالسيارة أو إلى طعام عشاء في دارته. وفوق ذلك، كان ك يذهب مرة في الأسبوع إلى فناة تدعى إلزا، كانت أثناء الليل وحتى ساعة متأخرة من الصباح تقوم بالخدمة كنادلة في حانة نبيذ وأثناء النهار لاستقبال ضيوفاً إلا وهي في فراشها.

لكن في هذا المساء - كان اليوم قد مضى بسرعة في عمل مضن ومتنيات عيد ميلاد كثيرة وذية مكرّمة - أراد ك أن يذهب إلى البيت على الفور. وكان قد فكر بذلك في كل فترات الاستراحة الصغيرة التي تحولت العمل اليومي؛ ودون أن يعرف بدقة ماذا يعني، بدا له أن وقائع الصباح قد أحدثت اضطراباً كبيراً في منزل السيدة غروباخ كلها، وأنه هو بالذات ضروري لإعادة النظام. أما إذا أعيد هذا النظام مرة، فيكون كل أثر لتلك

الوقائع قد زال، وكل شيء استأنف سيرته الأولى. وعلى الأخص من المستخدمين الثلاثة لم يكن يُخشى شيئاً، فقد عادوا إلى الغرق في جهاز الموظفين الكبير، ولم يكن بالإمكان ملاحظة أي تغيير طرأ عليهم. وكثيراً ما استدعاهم إلى مكتبه فرادى وسوياً لا لغرض آخر سوى مراقبتهم؛ ودائماً كان يستطيع أن يصرفهم وهو راضٍ.

عندما وصل في الساعة التاسعة والنصف مساءً إلى أمام البناء التي يسكن فيها، التقى على بابها غلاماً صغير السن يقف هناك مفتوح الرجلين ويدخن غليوناً. «من أنت؟» سأله ك على الفور وقرب وجهه من الغلام، إذ لم يكن يرى الكثير في غيش المدخل. «أنا ابن المشرف على البناء ياسidi»، أجاب الغلام، وأخذ الغليون من فمه وانتحى جانبًا. «ابن المشرف؟» سأله ك وطرق الأرض بعصاه وهو نافذ الصبر. «هل يرغب السيد الكريم شيئاً؟ هل عليّ أن أحضر الوالد؟». «لا، لا»، قال ك وفي صوته شيء من المعدنة، كما لو كان الغلام قد ارتكب شرًّا لكن هو يعذرها. «لأيّس»، قال وتابع سيره، لكنه قبل أن يصعد الدرج، استدار مرة أخرى.

كان في مقدوره أن يذهب مباشرة إلى حجرته، لكنه إذ كان يريد أن يتحدث مع المسيدة غروباخ، فقد طرق بابها رأساً. كانت تجلس وهي تحريك جورياً إلى الطاولة التي كان عليها كومة من الجوارب العتيقة. واعتذر ك وهو مشتت الفكر بمحبيه في هذا الوقت المتأخر، لكن المسيدة غروباخ كانت لطيفة جداً وأبته أن تسمع اعتذاراً: يستطيع أن يأتي إليها في كل وقت، وهو يعلم جيداً جداً أنه أفضل وأحب مستأجر لديها. أدار ك بصره في الحجرة، كانت قد عادت إلى حالتها القديمة بشكل كامل، وأوانى طعام الفطور التي كانت صباحاً على المنضدة الصغيرة قرب النافذة كانت قد رفعت أيضاً. وفكّر أن أيدي النساء تفعل الكثير في الخفاء، ربما كان هو

خليقاً أن يحطم الأواني في الحال لكن بالتأكيد لا أن يحملها إلى خارج الحجرة. ونظر إلى السيدة غروباخ نظرة فيها شيء من الامتنان، وسألتها: «لماذا تعملين حتى هذا الوقت المتأخر؟». وكان الاثنان يجلسان الآن إلى الطاولة، وراح ك يدفن يده بين فينة وأخرى في الجوارب. «ثمة عمل كثير»، قالت السيدة غروباخ، «أثناء النهار أكرس نفسي للمستأجرين؛ وعندما أريد ترتيب حاجياتي، فلا يبقى لي سوى الأماسي». «لقد سببت لك اليوم عملاً غير مألف». «لماذا إذا؟» سألت وقد ازداد اهتمامها بعض الشيء وتوقفت عن العمل وتركت أدواتها في حضنها. «أعني الرجال الذين كانوا هنا صباح اليوم». «آه»، قالت وعادت إلى هدوئها، «لم يستحب لي هذا عملاً خاصاً». ورافق ك بصمت كيف عادت إلى حياكة الجورب، وفكرا: «يبدو أنها تعجب أنني أتحدث عن ذلك، ويبدو أنها لاترى أنه من المناسب أن أتحدث عن ذلك. وهذا يزيد أهمية أن أفعل. ولا أستطيع أن أتحدث عن ذلك سوى مع امرأة عجوز». ثم قال: «بلى، لاشك أنه سبب عملاً، لكن الأمر لن يحدث مرة أخرى». «لا، لا يمكن لهذا أن يحدث مرة أخرى»، قالت مؤيدة وابتسمت لـ ك بحنان تقريرياً. «هل تعنين هذا حقاً؟» سأل ك. «نعم»، قالت بصوت أكثر انخفاضاً، «لكن قبل كل شيء لا يجوز لك أن تأخذ الأمر مأخذ صعباً. ما أكثر ما يحدث في العالم! وإذا أنت تتحدث معي بائمان هكذا يا سيد ك، فإنني لأستطيع الاعتراف لك أنني استرقت السمع قليلاً من وراء الباب وأن كل الحراسين أيضاً روايا لي بعض الشيء. إن الموضوع يتعلق حقاً بسعادتك، وهذا يهمني فعلاً، وربما أكثر مما يحقّلي، إذ أنني لست سوى المؤجرة. لقد سمعت إذاً شيئاً، لكن لا أستطيع أن أقول إن الأمر كان شيئاً شيئاً بشكل خاص. لا. صحيح أنك معتقل، لكن ليس كما يعتقد لص. عندما يعتقد المرء مثل لص، يكون ذلك شيئاً، لكن هذا الاعتقال... إنه يbedo لي مثل شيء من شؤون ذوي العلم، اعذرني إذا

كنت أقول شيئاً سخيفاً، يبدو لي مثل شيء من شؤون ذوي العلم، صحيح إنني لا أفهمه، لكن أيضاً لا يجب على المرأة أن يفهمه».

«ليس شيئاً سخيفاً أبداً ما قلته يا سيدة غروباخ، على الأقل أنا أيضاً أرى رأيك إلى حد ما، إلا أنني أحكم على الأمر كله بشدة أكثر منك، ولا أعتبره حتى شيئاً من شؤون ذوي العلم وإنما لشيء على الإطلاق. لقد أخذت على غرة، هذا هو الحال. ولو كنت قد نهضت فور استيقاظي، دون أن يربكني غياب آنما، وذهبت إليك دون مراعاة أي شخص يعترض طرificي، وتناولت هذه المرة استثناءً طعام الفطور في المطبخ، وتركتك تحضرين لي قطع الملابس من حجرتي، وإيجازاً لو تصرفت بحكمة، لما حدث شيء، ولاختنق كل ما أراد أن يصير شيئاً. لكن المرأة غير مهياً كثيراً في المصرف مثلاً أكون مهياً، ومن الحال أن يكون من شأن شيء كهذا أن يحدث لي هناك، حيث لدى هناك خادم خاص بي، والهاتف العام وهاتف المكتب أمامي على الطاولة، وعلى الدوام يأتي ناس وفرقاء وموظفون؛ لكن بالإضافة إلى ذلك وقبل كل شيء أكون هناك دائماً في سياق العمل، لهذا فإني أكون حاضر البديهة، وسيكون من دواعي سروري أن أواجه هناك بمثل هذه القضية. والآن انتهي الموضوع، كما لم يكن بوادي في الواقع أن أتحدث عنه أبداً بعد الآن، لم يكن بوادي سوى أن أسمع حكمك، حكم سيدة عاقلة، ويسعدني جداً أننا تتفق في ذلك. لكن عليك الآن أن تمددي لي يدك، لابدّ مثل هذا التوافق أن يتعرّز بمصافحة».

فيما إذا كانت ستتمدد لي يدها؟ المرأة لم يمدّ لي يده، فكر ونظر إلى المرأة على نحو مغاير عن السابق، نظر إليها متفحصاً. ونهضت، لأنها هو أيضاً كان قد نهض، وكانت مرتبكة بعض الشيء، وذلك لأن ليس كل ما كان قد قاله كان مفهوماً لها. لكن نتيجة هذا الارتكاك قالت شيئاً لم

تُكَنْ تُرِيدُ أَنْ تَقُولَهُ، كَمَا أَنَّهُ . يَخْشُ مَنَاسِبًا قَطْ: الْأَتَأْخُذُ الْأَمْرَ مَأْخُذًا صَعْبًا هَكُنَا يَا سَيِّدَكُ،» قَالَتْ بِصَوْتٍ مُنْتَهٍ وَنَسْتَ طَبِيعًا الْمَصَافِحَةَ أَيْضًا. لِأَعْرِفُ أَنِّي آخُذُ الْأَمْرَ مَأْخُذًا صَعْبًا،» قَالَ كُوكُ وَقَدْ شَعَرَ بِالْتَّعْبِ فَجَأًةً وَأَدْرَكَ لِاقِيمَةً كُلَّ مَوَافِقَاتٍ هَذِهِ الْمَرْأَةِ.

وَنَدِيَ الْبَابَ سَأْلَ سُؤَالًا آخَرَ: «هَلْ الْآنَسَةُ بُورْسِتَنْ فِي الْبَيْتِ؟». «أَنَا»، فَلَمَّا أَسْتَدَّتْ السَّيِّدَةُ عَرْوَبَاخَ وَابْتَسَمَتْ مَعَ هَذَا الْجَوابِ الْجَافَ ابْتِسَامَةً تَنَمِّ عنْ تَعَاطُفٍ مَتَّاحِرٍ سَلِيمٍ. «إِنَّهَا فِي الْمَسْرَحِ. هَلْ كَنْتَ تُرِيدُ مِنْهَا شَيْئًا؟ هَلْ عَلَيَّ أَنْ أَبْلِغُهَا شَيْئًا؟». «آهُ، كَنْتَ أُرِيدُ أَنْ أَتَكَلَّمَ مَعَهَا بَعْضَ كَلِمَاتٍ فَحَسْبٍ». «لَا أُدْرِي مَعَ الْأَسْفِ مَتَى سَتَأْتِي؟ عِنْدَمَا تَكُونُ فِي الْمَسْرَحِ، تَأْتِي عَادَةً فِي وَقْتٍ مَتَّاحِرٍ». «هَذَا سَيَّانٌ كُلِّيًّا»، قَالَ كُوكُ وَأَدَارَ رَأْسَهُ الْمَنْكَسَةَ صَوْبَ الْبَابِ كَيْ يَنْصُرِفَ، «كَنْتَ أُرِيدُ فَحَسْبٍ أَنْ أَعْتَذِرَ لَهَا لِأَنِّي شَغَلتُ الْيَوْمَ حَجْرَتِهَا». «لَا دَاعِي لِذَلِكَ، يَا سَيِّدَكُ، إِنَّكَ تَرَاعِي الْآخَرِينَ أَكْثَرَ مِنَ الْلَّازِمِ، إِنَّ الْآنَسَةَ لَا تَعْرِفُ عَنِ الْأَمْرِ شَيْئًا، وَلَمْ تَكُنْ فِي الْبَيْتِ مِنْ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، كَمَا أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ رُتِّبَ، انْظُرْ بِنَفْسِكَ». «شَكِرًا، إِنِّي أَصْدِقُ»، قَالَ كُوكُ وَذَهَبَ رَغْمَ ذَلِكَ إِلَى الْبَابِ الْمُفْتَوِحِ. وَكَانَ الْقَمَرُ يَضِيءُ بِهَدْوَهُ الْحَجَرَةُ الْمُظْلَمَةُ، وَعَلَى قَدْرِ مَا اسْتَطَاعَ الْمَرْءُ أَنْ يُرِيَ، كَانَ كُلَّ شَيْءٍ فَعَلَا فِي مَكَانِهِ، وَبِالْبُلْوَةِ أَيْضًا لَمْ تَكُنْ مَعْلَقَةً بَعْدَ عَلَى مَقْبِضِ النَّافِذَةِ. وَبَدَتِ الْوَسَائِدُ فِي الْفَرَاشِ عَالِيَّةً بِشَكْلِ مَلْفَتٍ لِلنَّظَرِ، وَكَانَ بَعْضُهَا يَقْعُدُ فِي ضَوءِ الْقَمَرِ. «الْآنَسَةُ تَأْتِي غَالِبًا إِلَى الْبَيْتِ فِي وَقْتٍ مَتَّاحِرٍ»، قَالَ كُوكُ وَنَظَرَ إِلَى السَّيِّدَةِ عَرْوَبَاخَ وَكَانَهَا تَحْمِلُ مَسْؤُلِيَّةَ ذَلِكَ. «مَثَلَّمَا هُوَ الْجَيلُ النَّاشِئُ!» قَالَتِ السَّيِّدَةُ عَرْوَبَاخَ مُعْتَذِرَةً. «لَا رَيْبٌ، لَارِيْب»، قَالَ كُوكُ، «لَكِنْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَعْجَزَ الْأَمْرُ حَدَّهُ». «هَذَا يَمْكُنُ»، قَالَتِ السَّيِّدَةُ عَرْوَبَاخُ، «كَمْ أَنْتَ عَلَى حَقِّ يَا سَيِّدَكُ. وَرَبِّما حَتَّى فِي هَذِهِ الْحَالَةِ». يَقِينًا لَا أُرِيدُ أَنْ أَفْتَرِي عَلَى الْآنَسَةِ

بورستر، إنها فتاة طيبة، طريفة، مرتبة، تحافظ على مواعيدها، مجدة، وأنا أقدر كل هذا للغاية، لكن هناك شيء صحيح، وهو أنه عليها أن تكون أكثر إباء وتحفظاً. لقد رأيتها في هذا الشهر مرتين في شوارع بعيدة منعزلة وفي كل مرة مع رجل آخر. إن الأمر يحرجني غاية الإحراج، ولا أرويه قسماً بالله سوى لك يا سيد ك، لكن لن يكون بالإمكان تفادى أن أتحدث أيضاً مع الآنسة بورستر نفسها عن الموضوع. وللمناسبة، ليس هنا هو الشيء الوحيد الذي يجعلها مثاراً لش侃وكى». «إنك على طريق خطأ كلياً»، قال لك بغضب دون أن يكون قادرًا تقريباً على إخفاء غضبه، وللمناسبة، يبدو أيضاً أنك أساءت فهم ملاحظتي عن الآنسة، فأنا لم أقصد هكذا. بل إنني أحذرك مخلصاً من أن تقولي للآنسة أي شيء، إنك على خطأ ولاري، وأنا أعرف الآنسة جيداً جداً، وليس شيئاً صحيحاً مما قلته عنها. وللمناسبة، ربما أتجاوز الحد، لا أريد أن أمنعك، قولي لها ما تشاءين. طابت لي ليلتك». «يا سيد ك»، قالت السيدة غروباخ متسللة وأسرعت وراءك حتى بابه الذي كان قد فتحه، «لا أريد أبداً أن أتحدث مع الآنسة، وطبعاً مازلت أريد قبل ذلك أن أتابع مراقبتها، ولم أتعمن سواك على ما أعرف. ثم إنه لابد أن يكون من صالح كل مستأجر، إذا حاول المرء أن يحافظ على النزل نظيفاً، ولم يكن لي لدى ذلك مطعم آخر». «النظافة!» صاح لك وهو مازال في فتحة الباب، «إذا كنت ترغبين في المحافظة على النزل نظيفاً، ينبغي عليك أن تذكريني بإخلاء حجرتي أولاً». ثمأغلق الباب بعنف، ولم يكتثر بعد ذلك بطرقة خفيفة طرقتها الباب.

لكنه قرر، إذ لم يكن لديه أي رغبة في التوم، أن يظل مستيقظاً ويرى أيضاً لدى هذه المناسبة متى ستأتي الآنسة بورستر. وربما يكون من الممكن أيضاً، مهما كان الأمر غير مناسب، أن يتكلم معها بعض كلمات. وإذا

استند إلى حافة النافذة وضغط بيديه عينيه المتعبيتين، بلغ منه أن يفك لحظة في أن يعاقب السيدة غروبах ويقنع الآنسة بورستن بأن تتنزّلها بالاشتراك معه بإخلاء الحجرة. لكن هذا بدا له في الحال أمراً مبالغًا فيه بشكل مخيف، حتى ظن بنفسه بأنه إنما يريد أن يغير سكته بسبب الواقع التي وقعت في الصباح. ما من شيء خلائق به أن يكون أكثر سخفاً وقبل كل شيء أقل جدوئ وأكثر ازدراة.

ولما ضاق من النظر عبر النافذة إلى الشارع الحالي، اضطجع على الكتبة بعد أن كان قد فتح الباب المؤدي إلى الحجرة الأمامية قليلاً، كي يتمكن، وهو مستلق على الكتبة، من رؤية كل من يدخل إلى المنزل. حتى الساعة الحادية عشرة تقريباً ظل راقداً على الكتبة بهدوء وهو يدخن سيجاراً. لكنه بعد ذلك لم يعد يحتمل الأمر هناك، وإنما ذهب قليلاً إلى الحجرة الأمامية، وكأنه يستطيع بهذا أن يتعجل قدوم الآنسة بورستن. لم تكن نفسه تنزع إليها بشكل خاص، لا بل لم يكن في مقدوره أن يتذكر منظرها بدقة، لكنه الآن أصبح يرحب في الحديث معها، وأثاره أنها بقدومها المتأخر إنما جلبت معها وأضافت إلى ختام هذا اليوم اضطراباً وفوضى. كما أنها كانت سبباً في أنه لم يتناول اليوم طعام العشاء وفي أنه أفلق عن الزيارة التي كان ينوي أن يقوم بها اليوم إلى إلزا. غير أنه كان في مقدوره أن يستدرك كلا الأمرين بأن يذهب الآن إلى خانة النبيذ التي كانت إلزا تعمل فيها كمستخدمة. وهذا ما أراد أيضاً أن يفعله بعد الحديث مع الآنسة بورستن.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة والنصف، عندما سمع أحدهم على الدرج. وكان لك، مسترسلاً في أفكاره، يروح ويجيء في صبح في الحجرة الأمامية وكأنها حجرته الخاصة به؛ وقد فرَّ الآن إلى مأواه بابه.

كان القادر هو الآنسة بورستنر. وبينما كانت توصى الباب، شدّت، وهي ترتعش من البرد، شالاً حريراً حول كتفيها التحيطين. وفي اللحظة التالية كان عليها أن تدخل إلى حجرتها، التي لا يصح لـك حتماً أن يتسلل إليها في منتصف الليل؛ كان عليه الآن إذاً أن يدارها الكلام، لكنه لسوء الحظ كان قد نسي أن يضيء النور الكهربائي في حجرته، بحيث أن تقدمه من الحجرة المظلمة كان له مظهر مداهمة لابد أن يُرعب كثيراً على الأقل. في ارتباكه ولعدم وجود متسع من الوقت لإضاعته، همس عبر فتحة الباب: «آنسة بورستنر». ونم ذلك عن رجاء أكثر مما نمّ عن نداء. «هل هنا أحد؟»، سألت الآنسة بورستنر ونظرت حولها بعينين واسعتين. «أنا»، قال لك وتقدم. «آه السيد لك!» قالت الآنسة بورستنر وهي تبتسم، «مساء الخير»، ومدت له يدها. «أردت أن أتحدث معك بعض كلمات، هل تسمحين لي بذلك الآن؟»، «الآن؟» سألت الآنسة بورستنر، «هل يجب أن يكون الآن؟ ثمة بعض الغرابة في الأمر، أليس كذلك؟». «أنتظرك منذ الساعة التاسعة». «كنت في المسرح، ولم أكن أعلم عنك شيئاً». «إن الداعي لما أريد أن أقوله لك لم يظهر سوى اليوم». «ليس لدى مانع مبدئياً سوى أنني متعبة لدرجة السقوط على وجهي. تعال إذاً إلى حجرتي لمدة بعض دقائق. هنا لانستطيع بأي حال أن نتحدث، سوف نوقظ الجميع، ومن شأن هذا أن يكون أكثر إزعاجاً لي، وذلك بسببنا أكثر مما يكون بسبب الناس. انتظر هنا، إلى أن أضيء النور في حجرتي، ثم أطفئ النور هنا». وفعل لك هكذا، لكنه انظر حتى طلبت منه الآنسة بورستنر، من حجرتها، مرة أخرى وبصوت منخفض أن يأتي. «اجلس»، قالت وأشارت إلى الكتبة، وظللت هي واقفة عند قائمة السرير رغم التعب الذي كانت قد تحدثت عنه؛ وحتى قبعتها الصغيرة المزينة بفيض من الزهور لم تخليها. «ماذا تريدين إذاً؟ هذا يشير فضولي فعلاً»، ووضعت ساقاً على ساق. «قد تقولين»، بدأ لك، «إن المسألة لم تكن

ملحة هكذا كي يجري الحديث فيها الآن، لكن...». «المقدمات أتجاهلها دائمًا»، قالت الآنسة بورستنر. «هذا يسهل مهمتي»، قال لك، «صباح اليوم جرى، بسيبي إلى حد ما، إخلال بترتيب حجرتك إخلالاً طفيفاً، وقد حدث هذا من قبل ناس غرباء ضد إرادتي، غير أنه حدث كما قلت بسيبي؛ وعن هذا أردت أن أطلب منك المغفرة». «حجرتي؟» سألت الآنسة بورستنر وتفحصت لك بدلاً من الحجرة. «هكذا حدث الأمر»، قال لك، ونظر كل منهما الآن في عيني الآخر للمرة الأولى، «إن الطريقة التي حدث بها الأمر لاستحق بحد ذاتها كلمة». «لكن هذا هو المثير للاهتمام حقاً»، قالت الآنسة بورستنر. «لا»، قال لك. «هه»، قالت الآنسة بورستنر، «لا أريد أن أقحم نفسي في أسرار، وإذا كنت تصر على أن الأمر غير مثير للاهتمام، فإنني لا أريد أيضاً أن أغعرض على ذلك في أي شيء. والمغفرة التي تطلبها، فإنني أعتذر عن طيب خاطر، ولاسيما أنني لا أستطيع أن أجده أي أثر لعدم ترتيب». ودارت دورة في الحجرة وهي تضع راحتبيها على وركيها. وتوقفت لدى حصيرة الصور الفوتوغرافية، وصاحت: «انظر! صوري تلخصت فعلاً. وهذا بشع. كان أحدهم إذاً في حجرتي دون أن يكون له حق في ذلك». وأومأ لك برأسه ولعن في سره المستخدم كاميير، الذي لم يستطع يوماً أن يكتب حيويته المملة الخاوية. «من الغريب»، قالت الآنسة بورستنر، «أنني مرغمة على منعك من شيء كان ينبغي عليك أن تمنعه بنفسك عن نفسك، وهو الدخول إلى حجرتي في غيابي». «لقد شرحت لك يا آنسة»، قال لك وذهب أيضاً إلى الصور الفوتوغرافية، «أنني لست أنا الذي اعتد على صورك؛ لكن إذ أنك لاتصدقيني، فيجب عليّ أن أعترف إذاً بأن لجنة التحقيق قد جلبت معها ثلاثة من مستخدمي المصرف أحذ أحدهم، وسوف أخرجه من المصرف في أقرب فرصة، على الأرجح الصور بيده». «نعم، كانت هنا لجنة تحقيق»، أضاف لك إذ نظرت إليه الآنسة نظرة

تساؤل. «لأجلك؟» سالت الآنسة. «نعم»، أجاب ك. «لا»، صاحت الآنسة وضحكـت. «بلى»، قال ك، «هل تعتقدـين إذاً أنتي بلا ذنب؟». «هـ بلا ذنب...»، قالت الآنسـة، «لا أـريد في الحال أن أـنطق حـكمـاً قد يكون حـكمـاً خطـيراً، كما أـنتـي لا أـعـرفـكـ، وـعلى كل حال لـابـدـ أن يكون مجرـماً كـبـيراً من تـرـيلـ حـالـاً في طـلـبـه لـجـنـة تـحـقـيقـ. لكنـ إـذـ أـنـكـ طـلـيقـ - أـسـتـنـجـ على الأـقـلـ من هـدوـئـكـ أـنـكـ لم تـفـرـ من السـجـنـ -، فإـنهـ لاـيمـكـنـكـ أـنـ تكونـ قد اـرـتكـبـتـ مثلـ هـذـاـ الجـرمـ». «نعم»، قالـ كـ، «لـكـ يـمـكـنـ لـجـنـةـ اـنـتـحـقـيقـ أـنـ تكونـ قد اـرـتكـتـ أـنـتـيـ بـرـيءـ أوـ أـنـتـيـ عـلـىـ الـأـقـلـ لـسـتـ مـذـنـبـاـ كـمـاـ أـفـتـرـضـ». «بـالـتأـكـيدـ، هـذـاـ مـمـكـنـ»، قـالـتـ الآـنـسـةـ بـورـسـتـرـ بـاـتـبـاهـ كـبـيرـ. «هـلـ تـرـينـ»، قالـ كـ، «لـيـسـ لـدـيكـ خـبـرـةـ كـبـيرـةـ بـأـمـوـرـ الـحـاكـمـ»ـ. «لاـ، هـذـاـ لـيـسـ لـدـيـ»ـ، قـالـتـ الآـنـسـةـ بـورـسـتـرـ، «وـغـالـبـاـ مـاـ أـسـفـتـ لـهـ، إـذـ أـنـتـيـ أحـبـ أـنـعـرـفـ كـلـ شـيـءـ، وـأـمـوـرـ الـحـاكـمـ بـالـذـاتـ تـهـمـنـيـ بـشـكـلـ بـالـعـلـغـ. إـنـ الـحـكـمـةـ تـمـلـكـ قـوـةـ جـاذـبـةـ مـيـزـةـ، لـيـسـ كـذـلـكـ؟ لـكـنـيـ سـوـفـ أـكـمـلـ بـالـتأـكـيدـ مـعـلـومـاتـيـ فـيـ هـذـاـ الـاتـجـاهـ، إـذـ أـنـتـيـ سـأـبـدـاـ الـعـمـلـ فـيـ الشـهـرـ الـقـادـمـ كـكـاتـبـةـ فـيـ مـكـتبـ مـحـامـةـ». «هـذـاـ جـيدـ جـداـ»ـ، قالـ كـ، «سـوـفـ يـكـونـ فـيـ مـقـدـورـكـ أـنـ تـسـاعـدـيـنـيـ قـلـيلـاـ فـيـ مـحـاكـمـتـيـ»ـ. «قـدـ يـكـونـ هـذـاـ مـمـكـنـاـ»ـ، قـالـتـ الآـنـسـةـ بـورـسـتـرـ، «لـمـ لـ؟ـ إـنـتـيـ أـسـتـخـدـمـ مـعـلـومـاتـيـ بـرـغـبـةـ»ـ. «أـعـنـيـ هـذـاـ بـجـدـيـةـ»ـ، قالـ كـ، «أـوـ عـلـىـ الـأـقـلـ بـنـصـفـ الـجـديـةـ التـيـ تـعـنـيـ بـهـاـ. إـنـ القـضـيـةـ أـنـهـ مـنـ أـنـ يـكـلـفـ بـهـاـ مـحـامـ، لـكـنـيـ قـدـ أـحـتـاجـ إـلـىـ صـاحـبـ مـشـورـةـ»ـ. «لـكـنـ إـذـ كـانـ عـلـيـ أـنـ أـقـدـمـ مـشـورـةـ، فـلـاـ بـدـ لـيـ مـنـ مـعـرـفـةـ مـاـهـوـ المـوـضـوعـ»ـ، قـالـتـ الآـنـسـةـ بـورـسـتـرـ. «هـذـهـ هـيـ الـعـقـدـةـ»ـ، قالـ كـ، «هـذـاـ مـاـ لـأـعـرـفـهـ نـفـسـيـ»ـ. «إـذـأـ عـمـلـتـ مـنـيـ دـعـابـةـ لـكـ»ـ، قـالـتـ الآـنـسـةـ بـورـسـتـرـ وـقـدـ أـصـبـيـتـ بـخـيـةـ لـاـحـدـ لـهـاـ، «وـلـمـ يـكـنـ ثـمـةـ أـيـ مـوـجـبـ لـاـخـتـيـارـ هـذـاـ الـوقـتـ الـمـاـخـرـ مـنـ الـلـيـلـ لـهـذـاـ الـعـمـلـ»ـ. وـابـعـدـتـ عنـ الصـورـ الـفـوـتوـغـرافـيـةـ حـيـثـ كـانـاـ يـقـفـانـ مـجـتمـعـيـنـ فـرـةـ طـوـيـلـةـ. «لـكـنـ لـاـ يـاـ

آنسة»، قال لك، «إنني لا أمزح. أعجب أنك لاتريدن تصديقى. إن ما أعرفه قلته لك، بل أكثر مما أعرف، إذ لم يكن ثمة لجنة تحقيق أبداً، أسميتها هكذا لأنني لا أعرف لها اسمآ آخر. لم يجر التحقيق في شيءٍ فقط، لقد اعتقلت ليس إلا، لكن من قبل لجنة». جلسَت الآنسة بورستر على الكنبة وضحكَت من جديد: «كيف كان الأمر إذاً»، سأَلت. «مروعاً»، قال لك لكنه لم يفكِر الآن قط بذلك، وإنما أدرِكه التأثير كلياً من منظر الآنسة بورستر التي أُسندت وجهها على إحدى يديها - كان مرفقها يرقد على وسادة الكنبة - في حين راحت اليد الأخرى تمسح على ردهفها. «هذا كلام عام جداً»، قالت الآنسة بورستر. «ما هو العام جداً؟» سأَل لك. ثم تذكَرَتْ وسائل: «هل أريك كيف جرى الأمر؟». وأراد أن يقوم بحركة دون أن يتبعده. «إنني متبعة»، قالت الآنسة بورستر. «لقد أتيت متأخرة»، قال لك. «الآن يصل الأمر إلى حدّ أن أتلقى لوماً، وهذا مسوغ أيضاً، إذ كان عليّ ألا أسمح لك بالدخول. كما أن الأمر لم يكن ضروريَاً كما تبيَّن». «كان الأمر ضروريَاً، وسوف ترين هذا الآن فقط»، قال لك. «هل تسمحين لي أن أبعد المنضدة الصغيرة عن سريرك؟». «لایمكتنى إذاً أن أريك»، قال لك ممعناً بورستر، «هذا لا يجوز لك طبعاً!». «لایمكتنى إذاً أن أريك»، قال لك ممعناً وكأن المراء أحق به بذلك ضرراً لا يقدر. «حسناً إذا كنت تحتاج الأمر للتمثيل، فلا ضير أن تحرك المنضدة الصغيرة»، قالت الآنسة بورستر وأضافت بعد هنيئة بصوت أكثر انخفاضاً: «إنني متبعة بحيث إنني أسمح بأكثر مما يكون حسناً». وضع لك المنضدة الصغيرة في وسط الغرفة وجلس وراءها. «عليك أن تصوّري توزيع الأشخاص بشكل صحيح، إن الموضوع في غاية الأهمية. أنا المراقب، وهناك على الحقيقة يجلس حارسان، ولدى الصور الفوتوغرافية يقف ثلاثة شبان. على مقبض النافذة تدلّى، الأمر الذي لا ذكره إلا عرضاً، بلوزة بيضاء. والآن يبدأ الأمر. نعم، إنني أنسى نفسي،

أنا الشخص الأكثر أهمية، أقف إذاً هنا أمام المنضدة الصغيرة. المراقب يجلس جلسة مريحة إلى أقصى حد، واضعاً ساقاً فوق ساق، مدللاً ذراعه هنا فوق المسند؛ وغد لامثيل له. والآن يبدأ الأمر إذاً فعلاً. المراقب يصبح كأنه ينبغي عليه أن يوقظني، يصرخ حقاً، ينبغي علىي، إذا أردت إفهامك الأمر، أن أصرخ أيضاً، وللمناسبة، إنه لا يصرخ هكذا إلا باسمي». وضعت الآنسة بورستنر، التي كانت تستمع ضاحكة، سبابتها على فمهما، كي تمنع ك من الصراخ، لكن بعد فوات الأوان، كان ك متدمجاً في دوره أكثر مما ينبغي، وقد نادى بيضاء: «بوزف لك!»، لكنه لم يناد بصوت عال كما كان قد هدد، لكن بدرجة بدا فيها أن النداء، بعد أن أطلق فجأة، لا ينتشر في الغرفة إلا تدريجياً.

عند ذلك قرع باب الحجرة المجاورة بضع مرات، بقوة وانتظام وبشكل قصير. امتنع وجه الآنسة بورستنر ووضعت يدها على قلبها. وذعر ك ذعرًا شديداً بوجه خاص، لأنه كان لفترة وجيزة عاجزاً كلباً عن التفكير في شيء آخر سوى في أحداث الصباح والفتاة التي كان يعرض لها هذه الأحداث. وما كاد يهدئ روعه حتى قفز إلى الآنسة بورستنر وتناول يدها. «لاتخافي شيئاً»، همس قائلًا، «سوف أدرك كل شيء. ولكن من يمكن أن يكون؟ إن الحجرة المجاورة هي فقط حجرة الجلوس التي لا ينام فيها أحد». «بلّي»، همست الآنسة بورستنر في أذن ك، «منذ أمس ينام هنا ابن أخ السيدة غروباخ، ضابط برتبة نقيب. وما من حجرة أخرى خالية. وأنا أيضاً نسيت ذلك. رباه هل كان عليك أن تصرخ هكذا! إنني تعيسة بذلك». «الداعي لذلك قط»، قال ك وقتل جبينها إذ تراخي ظهرها الآن إلى الوسادة. «ابعد، ابعد»، قالت وهي تعدل بسرعة من جديد، «اذهب، اذهب. ماذا تريد، إنه ليسترق السمع من وراء الباب، إنه ليسمع كل شيء. كم تعذبني!». «لن أذهب»، قال ك، «قبل أن يهدا روحك بعض الشيء. تعالى إلى الزاوية

الأخرى من الحجرة، هناك لا يستطيع أن يسمعنا». وتركت نفسها تقاد إلى هناك. «صحيح»، قال، «أن ما حدث هو مضائقتك، لكنه لايمثل خطراً أبداً. وأنت لاتفكرين بهذا. تعلمين كم تعزني السيدة غروباخ حقاً وتصدق بشكل مطلق كل ما أقوله. وهي التي تقرر في هذه المسألة، ولاسيما أن التقيب هو ابن أخيها. كما أنها، للمناسبة، مرتبطة بي، إذ أنها استدانت مني مبلغاً كبيراً. وسوف أقبل كل اقتراح منك بشأن إيضاح لقائنا، إذا كان فقط يتحقق الغاية بعض الشيء، وأضمن أن أحمل السيدة غروباخ على تصديق الإيضاح ليس علناً فحسب، وإنما حقاً وصادقاً. ولا ينبغي عليك أن تراعيني في هذا بحال من الأحوال. إذا أردت أن يشاع أنني اعتديت عليك، فسيجري إبلاغ السيدة غروباخ بهذا المعنى وستصدق الأمر دون أن تفقد ثقتها بي، فهي شديدة التعلق بي». كانت الآنسة بورستر تنظر بهدوء أمامها إلى الأرض وقد تهافت بعض الشيء. «ماذا لا ينبغي على السيدة غروباخ أن تظن أنني اعتديت عليك»، أضاف لك. وأمامه رأى شعرها، شعرها المنفوق، الضارب للحمرة، والمضوم بشكل محكم، والمنفوش على ارتفاع قليل، وظن أنها ستوجه نظرها إليه، لكنها قالت دون أن تبدل وضعها: «اعذرني، لقد أفرغعني الطرق المفاجئ فرعاً كبيراً، ليس كثيراً بسبب النتائج التي قد يؤدي إليها وجود التقيب. بعد صرحتك ساد هدوء شامل، ثم قرع الباب، لذا أصبت بذعر، كما أنتي كنت أجلس قرب الباب، لقد جاء الطرق إلى جانبي تقريباً. أشكرك على اقتراحاتك، لكنني لأقبلها. في مقدوري أن أحمل مسؤولية كل ما يحدث في حجرتي، وإزاء كل أمرٍ. وأعجب أنك لاتلاحظ أي إهانة لي تكمن في اقتراحاتك، إلى جانب النوايا الطيبة طبعاً، التي أتعرف بها ولاشك. لكن اذهب الآن، دعني وحدني، أحتاج الآن إلى هذا أكثر من ذي قبل. إن الدقائق القليلة التي طلبتها، أصبحت نصف ساعة وأكثر». أمسك لك بها من يدها ثم من

معصمهما، وقال: «لكنك لست مستاءة مني؟». تخلصت من يده وأجابت: «لا، لا، لست مستاءة فقط ولا من أحد». عاد إلى الإمساك ببعض يدها، فتحمّلت ذلك الآن وقادته هكذا إلى الباب. وكان قد أزمع بشكل حازم على الانصراف. لكنه أمام الباب، كأنه لم يكن يتوقع أن يجد باباً هنا، توقف؛ واستفادت الآنسة بورستنر من هذه اللحظة لتنتزع نفسها وتفتح الباب وتدلّف إلى الحجرة الأمامية وتقول من هناك إلى ك بصوت منخفض: «الآن تعال من فضلك. انظر» - وأشارت إلى باب غرفة النقيب حيث ظهر ضوء من تحته - «لقد أضاء النور ويتحدث عنا». «ها إني آت»، قال ك، تقدم أمامها، أمسك بها، قاتلها على فمها ثم على وجهها كله، كما يندفع حيوان ظمآن بلسانه فوق ماء النبع الذي عثر عليه بعد زمن طويل. وأخيراً قاتلها على عنقها حيث الحلق، وهناك ترك شفتيه فترة طويلة. وانبعث صوت من غرفة النقيب دعاه يرفع نظره. «سوف أذهب الآن»، قال، وأراد أن يسمّي الآنسة بورستنر باسمها الأول، لكنه لم يكن يعرفه. وأومأت برأسها متعبة، وتركـت له يدها يقتلـها وقد أغـرـضـتـ عنه بعضـ الشـيءـ كـأنـهاـ لاـتعلـمـ شيئاـ منـ ذـلـكـ، وذهـبتـ منـحـنيةـ الـظـهـرـ إـلـىـ حـجـرـتهاـ. وـبـعـدـ ذـلـكـ بـقـلـيلـ كانـ كـيرـقدـ فيـ فـرـاشـهـ. وـسـرـعـانـ ماـ غـشـيـهـ النـوـمـ، وـقـبـلـ النـوـمـ فـكـرـ مـلـيـاـ هـنـيـهـ فـيـ تـصـرـفـهـ وـكانـ رـاضـيـاـ عـنـهـ، لـكـنـهـ عـجـبـ مـنـ أـنـهـ لـمـ يـكـنـ أـكـثـرـ رـاضـيـ؛ـ وـيـسـبـ النـقـيـبـ سـاـورـتـهـ مـخـاـوـفـ شـدـيـدـةـ بـخـصـوصـ الـآـنـسـةـ بـورـسـتـنـرـ.

صديقة الآنسة بورستنر

في الفترة التالية تُعذر علىك أن يتحدث مع الآنسة بورستنر ولو بطبع كلمات. فقد حاول الاقتراب منها بشئي الطرق، غير أنها عرفت دائمًا أن تحول دون ذلك. كان يأتي إلى البيت بعد انتهاء دوام المكتب مباشرة، ويظل جالسًا على الكتبة في حجرته دون أن يشغل الضوء، ولا يشغل في شيء آخر سوى مراقبة الحجرة الأمامية. وإذا ما مررت الخادمة مثلاً وأغلقت باب الحجرة الخالية كما يeedو، فكان ينهض بعد برهة ويفتح الباب ثانية. وفي الصباح أصبح ينهض قبل ساعة من عادته كي يتمكن ربما من أن يتلقى الآنسة بورستنر وحدها، وهي ذاهبة إلى المكتب. لكن لم تنجح أي محاولة من هذه المحاولات. ومن ثم كتب لها رسالة، إلى المكتب كما إلى المسكن، وحاول فيها مرة أخرى أن يبرر سلوكه، وعرض نفسه لكل ترضية، ووعد بألا يتجاوز قط الحدود التي من شأنها أن تضعها له، ورجا أن تتيح له فقط إمكانية أن يتحدث معها ذات مرة، ولا سيما أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً لذى السيدة غروباخ، ما لم يتشارر معها قبل ذلك؛ وفي النهاية أعلمها أنه سوف يمكث طوال يوم الأحد القادم في حجرته متضرراً إشارة منها تؤته تلبية رجائه أو تشرح له على الأقل لماذا لا تستطيع تلبية الرجاء، رغم أنه وعد أن يرضي بكل ماتشاء. ولم تعد الرسائل، كما لم يأت جواب. وعلى

العكس من ذلك كان ثمة إشارة يوم الأحد، وكان وضوحاً كافياً. فمن الصباح الباكر لاحظت من خلال ثقب الباب حركة خاصة في الحجرة الأمامية سرعان ما توضحت. معلمة لغة فرنسية، كانت ألمانية وتدعى مونتاغ، فتاة هزيلة شاحبة تعرج قليلاً، كانت تسكن حتى الآن حجرة خاصة بها، انتقلت الآن إلى حجرة الآنسة بورستن. وكانت ترى طوال ساعات وهي تجرب ساقيها عبر الحجرة الأمامية. كان دائماً شيء ما، قطعة غسيل أو غطاء صغير أو كتاب، قد نسي ولا بد من إحضاره بشكل خاص وحمله إلى المسكن الجديد.

وعندما جلت السيدة غروباخ طعام الفطور إلى لك - بعد أن كانت أغضبته لم تترك للخادمة أية خدمة - لم يستطع إمساك نفسه عن مخاطبتها لأول مرة منذ خمسة أيام. «لماذا ترفع اليوم مثل هذه الضجة في الحجرة الأمامية؟» سأله وهو يصب القهوة. «ألا يمكن إيقاف ذلك؟ هل يجب الترتيب يوم الأحد بالذات؟» ورغم أن لك لم ينظر إلى السيدة غروباخ، فإنه لاحظ أنها تنهدت في ارتياح. حتى أسئلة لك الدقيقة هذه اعتبارها اعتذاراً أو بداية للاعتذار. «لا يجري ترتيب يا سيد لك»، قالت، «ليس إلا الآنسة مونتاغ تنتقل إلى الآنسة بورستن وتنتقل أغراضها». ولم تقل شيئاً آخر، وإنما انتظرت كيف يأخذ لك الأمر وفيما إذا كان من شأنه أن يسمح لها بالاستمرار في الحديث. لكن لك راح يختبرها، حرك القهوة بالملعقة وهو مستغرق في التفكير، ولاذ بالصمت. ثم تطلع إليها وقال: «هل تخليت عن تهمتك السابقة بخصوص الآنسة بورستن؟». «يا سيد لك»، نادت السيدة غروباخ التي ما كانت تنتظر إلا هذا السؤال، ومددت يديها المشبوبتين إلى لك، «لقد أخذت مؤخراً ملاحظة عابرة مأخذناً صعباً. إنني لم أفكر أن أغrieve لك أو أغrieve أحداً بأي حال. إنك تعرفي منذ فترة كافية يا سيد لك كي تكون

مفتنتعاً بذلك. وأنت لاتدرى قط كم عانيت في الأيام الأخيرة! وأنا سأشنی بمستاجری! وأنت يا سيد ك تظن ذلك! وقلت أله علي أن أذرك! أذرك أنت!» واختنق النداء الأخير تحت الدموع، رفعت مترها إلى وجهها وراحت تتنحّب بصوت عال.

«لاتبكي يا سيدة غروباخ»، قال ك ونظر خارج النافذة، وفكر فقط بالآنسة بورستر وبأنها أزلت فتاة غريبة في حجرتها. «لاتبكي»، قال مرة أخرى وهو يتوجه صوب الحجرة والسيدة غروباخ ما زالت تتنحّب. «كما لم أكن آنذاك أعني الأمر بشكل سيء هكذا. لقد أساء كل منا فهم الآخر. وهذا يمكن أيضاً أن يحدث مرة لأصدقاء قد يدين». وأزاحت السيدة غروباخ المتر تحت العينين كي ترى فيما إذا كان ك قد رضي فعلاً. «حسناً، إن الأمر هكذا»، قال ك وأقدم الآن، إذ يستدلّ من سلوك السيدة غروباخ أن التقيب لم يكن قد باح بشيء، على أن يضيف: «هل تظنين إذاً فعلاً أنه في مقدوري أن أناصبك العداء بسبب فتاة غريبة». «هذا هو السؤال حقاً يا سيد ك»، قالت السيدة، وكان من سوء حظها أنها حالما كانت تشعر بحرية أكثر على نحو آخر كانت تقول على الفور شيئاً غير لبق، «كنت أسأل نفسى المرّة بعد الأخرى: لماذا يهتم السيد ك بالآنسة بورستر كل هذا الاهتمام؟ لماذا يتشارج معى بسبها، رغم أنه يعلم أن كل كلمة سيئة منه تسلبني النوم؟ إنني لم أقل عن الآنسة شيئاً آخر سوى ما رأيته بعيني». ولم يقل ك شيئاً تعقبياً على ذلك، كان ينبغي عليه مع أول كلمة أن يطردھا من الحجرة، وهذا ما لم يكن يريدھ. لقد اكتفى بتناول القهوة وإشعار السيدة غروباخ بزيادتها عن اللزوم. وفي الخارج عاد الماء يسمع الخطوة المتشائلة للآنسة مونتاغ، التي راحت تذرع الحجرة الأمامية بكمالها. «هل تسمعين؟» سأل ك وأشار بيده إلى الباب. «نعم»، قالت السيدة غروباخ وهي تنهى،

«أردت أن أساعدها وأدع الخادمة أيضاً تساعدها، غير أنها عنيدة وتريد أن تنقل كل شيء بنفسها. إنني أعجب من الآنسة بورستنر. غالباً ما يقلل عليّ كوني أجرت للآنسة مونتاغ. لكن الآنسة بورستنر تأخذها حتى إلى حجرتها». «يجب على هذا ألا يشغل بالك أبداً»، قال لك وهو يفتت بقايا السكر في الفنجان. «هل عاد عليك هذا بضرر؟». «لا»، قالت السيدة غروباخ، «في الواقع هذا يناسبني كلية، إذ يصبح لدى حجرة خالية أستطيع أن أسكن فيها ابن أخي التقيب. منذ فترة طويلة وأنا أخشى أن يكون قد أزعجك في الأيام الأخيرة التي اضطررت فيها أن أدعه يقيم في حجرة الجلوس المجاورة. إنه لا يراعي كثيراً». «أية خواطر!» قال لك ونهض، «إنه لا يزعجي إطلاقاً. يبدو أنك تعتبريني مفرط الحساسية، لأنني لا أستطيع تحمل تجوال الآنسة مونتاغ هذا. هاهي تعود الآن ثانية». وبدت السيدة غروباخ لنفسها مغلوبة على أمرها. «هل عليّ يا سيد لك القول بأن عليها تأجيل القسم الباقي من النقل؟ إذا أردت أفعل ذلك في الحال». «لكنها ستنتقل إلى الآنسة بورستنر!» قال لك. «نعم»، قالت السيدة غروباخ، ولم تفهم تماماً ماذا يعني لك. «إذًا»، قال لك، «لابد لها من ثم أن تنقل حاجياتها». واكتفت السيدة غروباخ بأن أومنت برأسها. هذه الحيرة الصامتة، التي لم تبد في الظاهر شيئاً آخر غير عناد، أثارت لك أكثر. وبدأ يذرع الحجرة من النافذة إلى الباب ذهاباً وإياباً، وقطع بهذا على السيدة غروباخ إمكانية الانصراف، الأمر الذي كان من شأنها أن تفعله على الأرجح.

وإذ وصل لك مرة أخرى إلى الباب، قرع هذا. وكانت الخادمة، التي أبلغت أن الآنسة مونتاغ إنما تود أن تتحدث مع السيد لك بعض كلمات وأنها ترجوه لهذا أن يأتي إلى حجرة الطعام حيث تنتظره. واستمع لك إلى الخادمة متأنلاً، ثم التفت بنظره مستهزئة تقريراً إلى السيدة غروباخ المذعورة.

ولاحت هذه النظرة تقول إن لك كان يتوقع منذ فترة طويلة هذه الدعوة من الآنسة مونتاغ التي تتلاعِم أيضًا كل التلاعُم مع العذاب الذي لقيه قبل ظهر يوم الأحد هذا من المستأجررين لدى السيدة غروباخ. وردة الخادمة مع الجواب بأنه سيأتي على الفور، ثم ذهب إلى خزانة الملابس كي يغيّر سترته، ولم يكن لديه من جواب للسيدة غروباخ، التي راحت تشكو بصوت منخفض من الفتاة المزعجة، سوى الطلب بأن تحمل أطباق الفطور وتُنْصَرِف. «لم تمس شيئاً تقريباً»، قالت السيدة غروباخ. «آه، خذني الطعام»، نادى لك، وقد شعر أن الآنسة مونتاغ قد امتنجت بكل شيء على نحو ما وجعلته كريهاً.

وحين مشى عبر الحجرة الأمامية تطلع إلى باب حجرة الآنسة بورسترن المغلق. لكنه لم يكن مدعواً إلى هناك، وإنما إلى حجرة الطعام التي فتح بابها على مصراعيه دون أن يقرعه.

كانت حجرة طويلة جداً لكنها ضيقة وذات نافذة واحدة. ولم يكن هناك من مكان سوى لخزانتين وضعتا بشكل مائل في الروايا على جهة الباب، في حين كان كل ما تبقى من المكان تشغله مائدة الطعام الطويلة التي كانت تبدأ على مقربة من الباب وتصل إلى القرب من النافذة الكبيرة التي أصبحت بهذا عسيرة البلوغ. وكانت المائدة قد أعدّت، ولأشخاص كثيرين، وذلك لأن جميع المستأجررين تقريباً يتغذون هنا طعام الغداء يوم الأحد.

حين دخل لك، أقبلت إليه الآنسة مونتاغ قادمة من قرب النافذة على طول جانب الطاولة. وتبادلوا تحية بصمت. ثم قالت الآنسة مونتاغ، وقد نصبت رأسها على نحو غير مألف كما تفعل دائمًا: «لأدري فيما إذا كنت تعرفني». وتطلع لك وهو يزوّي ما بين حاجبيه. «بالتأكيد»، قال، «إنك

تسكيني لدى السيدة غروبax منذ فترة طويلة». «لكنك لا تهتم بالنزل كثيراً، كما أظن»، قالت الآنسة مونتاغ. «لا»، قال ك. «ألا ترغب في الجلوس؟»، قالت الآنسة مونتاغ. وسحب الإثناان في صمت كرسين من آخر الطاولة وجلسا متقابلين. غير أن الآنسة مونتاغ نهضت في الحال مرة أخرى، إذ كانت قد نسيت حقيقة يدها الصغيرة على حافة النافذة وذهبت لإحضارها؛ وقد جرّت قدميها عبر الغرفة كلها. وعندما عادت، وهي تلوح بحقيبتها الصغيرة تلويحاً خفيفاً، قالت: «أريد فقط بتكليف من صديقتي أن أتحدث معك بعض الكلمات. وكانت تريد أن تأتي بنفسها، لكنها أصيّبت اليوم بوعكة خفيفة. يرجى أن تعتذرها وتستمع إلى بدلاً منها. وما كان في مقدورها أيضاً أن تقول لك شيئاً آخر سوى ما سأقوله لك. وعلى العكس، أظن أنني أستطيع أن أقول لك أكثر، وذلك لأنني نسبياً لست طرفاً. إلا تظن كذلك؟». «ماذا يمكن القول إذا؟» أجاب ك الذي تعب من رؤية عيني الآنسة مونتاغ موجهتين باستمرار إلى شفتيه. بهذا كانت تستبيح لنفسها سلطة على ما أراد أن يقوله ولم يقله بعد. «يدو أن الآنسة بورستر لا تريد أن توافق لي على المحادثة الشخصية التي طلبتها منها». «هذا هو الحال»، قالت الآنسة مونتاغ، «أو إن الحال بالأحرى ليس هكذا أبداً. إنك تعتبر عن الأمر بحدّة فريدة. على وجه العموم لا يوافق على محادثات، كما أنه لا يحدث العكس. بيد أنه يمكن أن يحدث أن يعتبر المرء محادثات ما غير ضرورية، وهذا هو الحال هنا. والآن بعد ملاحظتك يمكنني أن أتحدث بصراحة. لقد طلبت خطياً أو شفهياً مقابلة صديقتي. غير أن صديقتي تعرف الآن، وهذا ما ينبغي عليّ أن أفترضه على الأقل، موضوع هذه المقابلة؛ ولذا فهي مقتنعة لأسباب لا أعرفها بأنه ليس من شأن الأمر أن يعود بفائدة على أحد فيما لو تمّت المقابلة. وللمناسبة، لم تحدثني عن ذلك سوى يوم أمس وبشكل عابر فقط، وقالت لي إنه لا يمكن لك أيضاً أن تكون

حريراً كثيراً على إجراء المحادثة، إذ أنك لم تأت على مثل هذه الفكرة سوى صدفة، ومن شأنك نفسك ودون إيضاح خاص أن تدرك قريباً جداً إن لم يكن في الحال عبئ الأمر كله. وقد أجبت على ذلك بأن هذا يمكن أن يكون صحيحاً، لكنني أرى أنه من المفيد من أجل توضيح الأمر بشكل كامل إبلاغك جواباً صريحاً. وعرضت نفسي للقيام بهذه المهمة، وبعد بعض التردد قبلت صديقتي. لكنني أمل الآن أن أكون قد تصرفت تصرفاً توافق عليه أنت أيضاً، إذ أن حتى أدنى شك في أتفه شيء هو مؤلم دائماً، وإذا كان يمكن للمرء إزالته بسهولة كما هو الأمر في هذه الحالة، فمن الأفضل أن يحدث هذا على الفور». «أشكرك»، قال ك على الفور، ونهض بيطئ، وتطلع إلى الآنسة مونتاغ، ثم عبر ببصره الطاولة ونظر من النافذة - كان البناء المقابل يقع في ضوء الشمس - وذهب إلى الباب. وتبعه الآنسة مونتاغ بضع خطوات وكأنها لا تشق به كل الثقة. لكن أمام الباب اضطر الإثنان للتراجع، إذ أنه فتح ودخل منه التقيب لآخر. وكان ك يراه لأول مرة عن قرب. كان رجلاً طويلاً القامة في نحو الأربعين من عمره ذا وجه مكتنز لوحته الشمس. انحنى انحناءة خفيفة موجهة إلى ك أيضاً، ثم ذهب إلى الآنسة مونتاغ وقبل يدها قبلة إجلال. وكان لبقاً في حركاته كل الباقة. وقد تميز لطفه إزاء الآنسة مونتاغ بشكل ملفت للنظر عن المعاملة التي كانت قد لقيتها من ك. ورغم ذلك بدت الآنسة مونتاغ غير غاضبة من ك، إذ أنها حتى أرادت، كما ظن ك أنه لاحظ، أن تعرّفه على التقيب. لكن ك لم يرغب أن يعرف به، ما كان في وسعه أن يكون لطيفاً على نحو أو آخر لا إزاء التقيب ولا إزاء الآنسة مونتاغ، لقد ربطتها قبلة اليد بالنسبة إليه بمجموعة أرادت تحت مظهر أقصى البراءة والغيرية أن تحول بينه وبين الآنسة بورستن. غير أن ك ظن أنه لم يدرك هذا فحسب، وإنما أدرك أيضاً أن الآنسة مونتاغ إنما كانت قد اختارت وسيلة جيدة غير أنها ذات حدين. لقد

بالغت في أهمية العلاقة بين الآنسة بورستن وك، بالغت خاصة في أهمية المحادثة الملتمسة، وحاولت في الوقت نفسه أن تقلب الأمر وكأن ك هو الذي يبالغ في كل شيء. سوف تخطئي ظنها، إن ك لم يقصد أن يبالغ في شيء، كان يعلم أن الآنسة بورستن كانت ضاربة على الآلة الكاتبة قليلة الأهمية من المفروض ألا تقاومه مقاومة طويلة. وعمداً لم يحسب هنا ما كان قد سمعه من السيدة غروباخ عن الآنسة بورستن. وقد فكر بكل هذا وهو يغادر الحجرة دون كلمة وداع تقريباً. وأراد أن يذهب إلى حجرته حالاً، لكن ضحكة قصيرة من الآنسة مونتاغ سمعها من ورائه منطلقة من حجرة الطعام أوحت إليه بأنه قد يكون في مقدوره أن يعد مفاجأة للإثنين، للنقيب كما للآنسة مونتاغ. استطاع فيما حوله وأنصت فيما إذا كان يتوقع إزعاج يأتي من أية حجرة من الحجرات المحيطة، كان الهدوء يعم، ولم يكن يسمع سوى الحديث القادم من حجرة الطعام وصوت السيدة غروباخ القادم من الممر الذي يؤدي إلى المطبخ. وبدت الفرصة ملائمة، ذهب ك إلى باب حجرة الآنسة بورستن وقرعه قرعًا خفيفاً. وإذا لم يتحرك ساكن، قرع مرة أخرى، لكن رغم ذلك لم يأت جواب. هل هي نائمة؟ أم أنها متوعكة حقاً؟ أم أنها تنكر وجودها لا لسبب سوى أنها حدت أنه لا يمكن أن يكون أحد سوى ك، ذلك الذي يقرع قرعًا خفيفاً هكذا؟ وافتراض ك أنها تنكر وجودها، وقرع بقوة أكثر، وإذا لم يجد القرع نفعاً، فتح ك أخيراً الباب بحذر وليس بدون أن يتملكه شعور بأنه إنما يذنب ويفعل فوق ذلك ما لا جدوى منه. لم يكن أحد في الحجرة. كما أنها لم تكن بالكاد تذكر بالحجرة كما كان ك يعرفها. إلى جانب الحائط كان قد وضع سريران وراء بعضهما بعضاً، وكانت ثلاثة مقاعد متقاعدة بالقرب من الباب محمولة بالملابس والغسيل، وثمة خزانة مفتوحة. كانت الآنسة بورستن قد انصرفت في أغلبظن بينما كانت الآنسة مونتاغ تلتف على ك بالكلام في حجرة

الطعم. ولم تتول الدهشة كَثِيرًا، إذ لم يكن يتوقع بالكاد أن يلقى الآنسة بورستر بهذه السهولة، ولم يقم بهذه المحاولة سوى تحدياً للآنسة مونتاغ. لكن حرجه كان مضاعفاً عندما رأى، وهو يغلق الباب ثانية، الآنسة مونتاغ والنقيب وهما يتحدثان بباب حجرة الطعام المفتوح. وربما كانوا يقفان هناك منذ أن فتح لك الباب. وقد تجنبنا كل ما يدل على أنهما قد كانوا يراقبان لك، كانوا يتحدثان بصوت منخفض ولم يكونا يتبعان حركات لك بنظراتهما سوى كما يحول الماء بعينيه وهو شارد الذهن أثناء حديثه. لكن هذه النظارات كانت تنقل على لك، فأسرع على طول الحائط كي يصل إلى حجرته.

تحقيق أول

كان لك قد أبلغ هاتفياً أنه سيجري يوم الأحد القادم تحقيق صغير في مسألته. ولفت المرأة نظره إلى أن هذه التحقيقات ستعقب الآن بعضها بعضاً بانتظام، وإن لم يكن ربما كل أسبوع فإنما بكثرة. ومن المصلحة العامة من طرف إنهاء القضية بسرعة، لكن من طرف آخر يجب أن تكون التحقيقات دقيقة من كل وجه إلا أنها، نظراً للجهد المرتبط بها، لا تستمر أبداً طويلاً جداً. ولهذا السبب اختار المرأة وسيلة هذه التحقيقات المعاقة بسرعة لكن القصيرة. وتحديد يوم الأحد ليكون يوم التحقيق جرى لكى لا يضائقك في عمله المهني. وبفترض المرأة أنه موافق على ذلك، أما إذا كان يرغب موعداً آخر، فإن من شأن المرأة أن ينزل عند رغبته على قدر الإمكان. فمثلاً يمكن للتحقيقات أن تجري في الليل أيضاً، غير أنك ليس نشيطاً في هذا الوقت. على كل حال سيئقى الأمر على يوم الأحد، مادام لك لا يعرض في شيء. ومن البديهي أنه يتوجب عليه أن يحضر بالتأكيد، وليس على المرأة أن يلتف نظره أولاً إلى هذا. وذكر له رقم المبنى الذي عليه أن يحضر إليه، وكان مبني في شارع ضاحية بعيد لم يسبق لك أن كان فيه قط.

حين تلقى لك هذا الإبلاغ، علق السمعة دون أن يجيب؛ كان قد عقد العزم على الفور أن يذهب يوم الأحد، كان الأمر ضرورياً ولاشك،

كانت المحاكمة قد بدأت وكان لابد له أن يواجهها، وعلى هذا التحقيق الأول أن يكون الأخير أيضاً. كان لا يزال واقفاً لدى الجهاز مستغرقاً في التفكير، فسمع خلفه صوت نائب المدير الذي كان يريد أن يخابر، لكن كي كان يسد الطريق عليه. «أخبار سيئة؟» سأله نائب المدير ببساطة، لا لكي يعلم شيئاً، بل لكي يصرف ك عن الجهاز. «لا، لا»، قال ك، وتنهى جانباً لكنه لم ينصرف. وتناول نائب المدير السماعة وقال، وهو يتذكر الاتصال الهاتفني، من فوق السماعة: «سؤال يا سيد ك؟ هل لك أن تسرني بأن تشارك صباح الأحد في حفلة على زورق الشراعي؟ سوف يحضر جمع كبير بينهم ولاشك معارفك أيضاً. ومنهم المدعي العام هسترر. هل تريد أن تأتي؟ ليتتك تأتي!» حاول ك أن يتبعه إلى مقاله نائب المدير. لم يكن الأمر غير ذي أهمية بالنسبة إليه، إذ أن هذه الدعوة من قبل نائب المدير، الذي لم يكن قد انسجم معه قط كل الانسجام، كانت تعني محاولة استرضاء من جانبه، وتبين كم أصبح ك مهمًا في المصرف وكم بدت صداقته أو على الأقل عدم انحيازه ذات قيمة ثانوي أكبر موظف في المصرف. كانت هذه الدعوة مهانة لنائب المدير وإن لم توجه أيضاً سوى وهو بانتظار الاتصال الهاتفني ومن فوق السماعة. لكن كان على ك أن يتبع ذلك مهانة ثانية، إذ قال: «شكراً جزيلاً! لكن ليس لدى مع الأسف متسع من الوقت يوم الأحد. فأنا مرتبط منذ الآن». «خسارة»، قال نائب المدير وأقبل على المحادثة الهاتفية التي كانت قد تأمنت لتوها. ولم تكن محادثة قصيرة، غير أن ك ظل واقفاً شارد الفكر طوال الوقت إلى جانب الجهاز. وعندما أنهى نائب المدير المحادثة، ذعر ك وقال فقط كي ييرر قليلاً بقاءه الذي لانفع فيه: «تلقيت الآن هاتفًا، علي أن أحضر إلى مكان ما، لكن المrene نسي أن يقول لي في أي ساعة». «استعلم عن الأمر مرة أخرى»، قال نائب المدير. «ليس الأمر بمثل هذه الأهمية»، قال ك رغم أن اعتذاره السابق، الناقص في حد

ذاته، قد ازداد بهذا انهايأً. وتحدث نائب المدير أثناء انصرافه عن أمور أخرى، كما قسر ك نفسه على الإجابة، لكنه فكر بصورة رئيسية أنه سيكون من الأفضل أن يحضر في الساعة التاسعة من صباح يوم الأحد، وذلك لأن جميع المحاكم تبدأ عملها في هذه الساعة من أيام العمل.

كان الطقس يوم الأحد معتكراً، وكان ك متعباً للغاية، لأنه كان قد ظل في المطعم إلى ساعة متأخرة من الليل بسبب احتفال أقامه الزبائن الدائمون. وكاد يستغرق في النوم ويضيع الموعود. على عجل، ودون أن يكون لديه متسع من الوقت للتفكير ولتنظيم الخطط المتعددة التي كان قد أعدّها حلال الأسبوع، ارتدى ملابسه وأسرع دون أن يتناول طعام الفطور إلى الصالحة المعينة له. ومن الغريب أنه التقى، رغم أنه لم يكن يملك وقتاً كثيراً للنظر حوله، بالمستخدمين الثلاثة ذوي العلاقة بمسائلته، رابنستاينر وكوليتش وكاميير. كان الإثنان الأولان يركبان حافلة كهربائية تقطع طريق ك، أما كاميير فقد كان يجلس في شرفة مقهى، وقد انحنى بفضول فوق السور عندما مرّ ك. ولاشك أن الجميع تابعوه بأبصارهم وتعجبوا كيف كان رئيسهم يجري؛ كان ثمة عناد ما قد منع ك من أن يستقل حافلة، كان يعاف من أقل مساعدة غريبة في هذه القضية، قضيته، كما أنه لم يكن يريد أن يشغل أحداً وبهذا يطلعه على أي شيء مهما كان ضئيلاً، كما لم يكن لديه أقل رغبة في أن يتذليل أمام لجنة التحقيق بالحافظة على دقة الموعود بشكل مفرط. لكنه أسرع الآن، فقط كي يصل في الساعة التاسعة قادر الإمامان، رغم أنه لم يكن قد طلب منه أن يحضر في ساعة معينة.

كان قد ظن أنه سيتعرف من بعيد على المبنى من أية عالمة، لم يكن هو نفسه قد تصورها بدقة، أو من حركة خاصة أمام المدخل. لكن شارع يوليوس، الذي كان يفترض أن المبنى يقع فيه، والذي ظل ك يقف في بدايته

طوال لحظة، كان يضم على كلا الجانبين منازل متجانسة كلية تقريباً، بيوت إيجار عالية محشية يسكن فيها أناس فقراء. الآن صباح الأحد كانت معظم التوافد مشغولة، كان ثمة رجال بقمصان بنصف كم يطلون منها وهم يدخنون أو يمسكون أطفالاً صغاراً على حافة النافذة بحدر وحنق. وكانت نوافذ أخرى متغيرة إلى أعلىها بياضات أسرة يلوح من فوقها بشكل عابر رأس امرأة مشعر الشعر. كان الناس ينادون بعضهم بعضاً عبر الشارع. ومن جراء نداء من هذا النوع صدر فوق كلحظة مروره، على ضحكة كبيرة. وفي الشارع الطويل كان ثمة دكاكين موزعة بانتظام، تقع تحت مستوى الشارع يمكن الوصول إليها على بضع درجات، تحوي مواداً غذائية مختلفة. كانت النساء تدخلن وتخرجن أو تقفن على الدرجات وتتجاذبن أطراف الحديث. وكان باائع فاكهة ينادي على بضاعته ويعرضها باتجاه النوافذ، وكاد، في عدم انتباذه مثل ك، أن يطرح هذا أرضاً عربته. وهنا بدأ جراموفون مستهلك في أحياه أفضل يعزف بشكل رهيب.

ودخل ك في عمق الحرارة، وكان يسير على مهل وكان لديه الآن متسعاً من الوقت أو أن قاضي التحقيق يراه من نافذة من التوافد ويعرف إذاً أن ك قد حضر. كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة بقليل. وكان المبني يقع بعيداً إلى حد ما، وكان متداً بشكل غير مألوف تقريباً، ولا سيما مدخل البوابة كان عالياً وعربيضاً. كان مخصصاً فيما يبدو لعربات النقل الخاصة بالمخازن المتنوعة التي كانت، الآن معلقة، تحيط بالفناء الكبير وتحمل لافتات شركات يعرف ك بعضها منها من خلال عمله في المصرف. كان من عادته أن يهتم بجميع هذه المظاهر الخارجية بدقة أكثر، على خلاف ذلك وقف الآن قليلاً في مدخل الفناء. وكان بقربه رجل حافي القدمين يجلس على صندوق ويقرأ جريدة. وعلى عربة يد كان صبيان يتأنجحان. وأمام مضخة

كانت صبية صغيرة هزيلة مرتدية سترة نوم تنظر إلى ك ب بينما كان الماء يتدفق إلى صفيحتها. وفي ركن من أركان الفناء كان غسيل منشوراً على حبل مدّ بين نافذتين. وكان رجل يقف في الأسفل ويدير العمل ببعضه نداءات.

وأتجه ك إلى السلم كي يصل إلى حجرة التحقيق، غير أنه توقف ثانية، إذ أنه بالإضافة إلى هذا السلم شاهد في الفناء ثلاثة سلالم مختلفة أخرى، وفوق هذا بدا ممر صغير في نهاية الفناء يؤدي إلى فناء ثان. واغتاظ لأن المرء لم يكن قد وصف له الحجرة بدقة أكثر، ولاشك أن هذه المعاملة التي لقيها كانت إهمالاً غريباً أو لامبالاة، وقد عزم على أن يؤكد هذا بصوت عال ووضوح. وأخيراً صعد الدرج الأول، وفي خياله راودته ذكرى كلمة الحارس فيلم بأن الحكمـة إنما يجذبها الذنب، الأمر الذي استتبع في الحقيقة أن حجرة التحقيق لابد أن تقع عند الدرج الذي اختاره ك عن طريق الصدفة.

وفي صعوده ضائقاً أولاداً كثريين كانوا يلعبون على الدرج، راحوا ينظرون إليه بغيظ عندما شق صفهم. «إذا قدر لي قريباً أن آتي إلى هنا مرة أخرى»، قال في ذات نفسه، «فإنـه ينـبغـي عـلـيـ أن أحـضـرـ معـيـ إـمـاـ حلـويـاتـ كـيـ أـكـسـبـهـمـ أوـ العـصـاـ كـيـ أـصـرـبـهـمـ». بل إنه قبيل الطابق الأول اضطر إلى الانتظار فترة قصيرة حتى أتمـتـ بـلـيـةـ لـعـبـ طـرـيقـهـاـ، وـفـيـ هـذـهـ الـأـثـنـاءـ أـمـسـكـ بـسـرـوـالـهـ وـلـدـانـ لـهـمـاـ وـجـهـاـ أـفـاقـينـ بـالـغـيـنـ يـصـبـعـ الكـشـفـ عـنـ أـسـارـبـهـمـ؛ـ وـلـوـ أـرـادـ أـنـ يـخـلـصـ مـنـهـمـ،ـ كـانـ لـابـدـ لـهـ أـنـ يـؤـلـمـهـمـ فـخـشـيـ صـراـحـهـمـ.

وفي الطابق الأول بدأ البحث الحقيقـيـ.ـ وإـذـ لمـ يـكـنـ فـيـ مـقـدـورـهـ أـنـ يـسـأـلـ عـنـ لـجـنةـ التـحـقـيقـ،ـ فـقـدـ اـخـتـلـقـ نـجـارـاـ بـاسـمـ لـانـزــ خـطـرـ لـهـ الإـسـمـ لـأـنـ النـقـيبـ،ـ اـبـنـ أـخـ السـيـدةـ غـرـوـبـاـخـ،ـ كـانـ اـسـمـهـ هـكـذاــ وـأـرـادـ الـآنـ أـنـ يـسـتـعـلـمـ فـيـ جـمـيعـ الـمـساـكـنـ فـيـمـاـ إـذـ كـانـ نـجـارـ يـدـعـيـ لـانـزـ يـسـكـنـ هـنـاـ،ـ وـذـلـكـ كـيـ

يجد إمكانية للنظر إلى داخل الغرف. لكن تبين أن هذا كان في الغالب ممكناً بسهولة، إذ أن كل الأبواب تقريباً كانت مُشرعة والأولاد كانوا يدخلون ويخرجن. كانت الغرف في العادة غرفاً صغيرة ذات نافذة واحدة يُطبع فيها أيضاً. وكانت بعض النساء يحملن أطفالاً رضعاً على أذرعهن ويعملن باليد الطليقة في الطهي. وكانت فتيات مراهقات لا يرتدين سوى مرايل على ما يbedo يجرين جيئه وذهاباً بدأب أكثر. وفي جميع الغرف كانت الأسرة مازالت في الاستعمال، كان يضطجع فيها مرضى أو نائم أو ناس متبدواً بملابسهم. وطرق ك أبواب المساكن التي كانت مغلقة، وسأل فيما إذا كان نجار يدعى لانز يسكن هنا. وغالباً ما كانت امرأة تفتح الباب، تستمع إلى السؤال وتلتفت إلى داخل الغرفة صوب أحد ما يكون قد نهض من السرير. «السيد يسأل فيما إذا كان نجار يدعى لانز يسكن هنا». «نagar لانز؟» كان الناهض من السرير يسأل: «نعم»، كان ك يقول، رغم أنلجنة التحقيق لم تكن ولاري ب توجد هنا ولذا فإن مهمته كانت قد انتهت. وكان كثيرون يظلون أن ك يحرص كل الحرص على أن يوجد النجار لانز، فيمعنون الفكر، ويدركون نجاراً لكنه لم يكن يدعى لانز، أو يذكرون اسمأ له شبه بعيد جداً بلانز، أو كانوا يسألون لدى جيران لهم، أو يرافقون ك إلى باب بعيد جداً حيث من الجائز حسب رأيهم أن يكون مثل هذا الرجل إنما يسكن هناك كمستأجر لدى عائلة، أو حيث يوجد أحدهم يستطيع أن يعطي معلومات أفضل مما يستطيعون هم أنفسهم. وفي آخر الأمر لم يعد بالكاد ينبغي على ك أن يسأل بنفسه، وإنما راح يُجذب بهذه الطريقة عبر الطوابق. وندم على خطته، التي كانت قد لاحت له في بادئ الأمر عمليةً إلى حد كبير. وعند الطابق الخامس قر أن يكف عن البحث، واستأذن من عامل شاب لطيف أراد أن يقوده إلى أعلى، ثم نزل. لكنه تصايق ثانية من لاجدوى العملية كلها، فعاد ثانية وطرق أول باب في الطابق الخامس.

وكان أول مارآه في الغرفة الصغيرة هو ساعة حائط كبيرة تشير إلى الساعة العاشرة. «هل يسكن هنا نجار اسمه لازر؟» سأله. «تفضل»، قالت شابة ذات عينين سوداويتين لامعتين كانت تغسل ملابس أطفال في دلو، وأشارت بيدها المبتلة إلى باب الغرفة المجاورة المشرّع.

وظن ك أنه يدخل إلى اجتماع. كان زحام من مختلف الناس - ما من أحد اهتم بالداخل - يملأ حجرة متوسطة الحجم ذات نافذتين، تحيط بها تحت السقف تماماً شرفة غاصة كلها هي أيضاً، وحيث لا يستطيع الناس أن يقفوا إلا وقد انحنتوا واصطدمت رؤوسهم وظهورهم بالسقف. كان الهواء مقبضاً بالنسبة إلى ك، فخرج ثانية، وقال للشابة التي كانت على الأرجح قد فهمته فيما حاخطنا: «لقد سألت عن نجار يدعى لازر؟». «نعم»، قالت المرأة، «ادخل من فضلك». وربما لم يكن من شأن ك أن يتبعها لو لم تكن المرأة قد اتجهت نحوه وأمسكت مقبض الباب وقالت: «بعدك يجب علي أن أغلق الباب، ولا يجوز لأحد أن يدخل بعد الآن». «هذا عن الصواب»، قال ك، «لكن المكان غاص الآن أكثر من اللازم». لكنه رغم ذلك دخل من ثم مرة أخرى.

من بين رجلين كانا يتحادثان عند الباب - كان أحدهما يؤدي بكلتا يديه الممدودتين بعيداً حرقة عد النقود، والآخر ينظر في عينيه بحدة - امتدت يد نحو ك وأمسكت به. كانت يد صبي أحمر الوجنتين، قال: «تعال، تعال». وتركه ك يقوده، وتبيّن أن في الزحام المكتظ ثمة طريق ضيق خال يتحمل أنه كان يفصل بين مجموعتين؛ وما كان يؤيد هذا أيضاً هو أن ك لم ير في الصفوف الأولى يميناً ويساراً بالكاد وجهاً يلتفت إليه، بل لم ير سوى ظهور أناس كانوا يوجهون أحاديثهم وحركتهم إلى أتباع مجموعتهم وحدهم. وكان أكثرهم يرتدي السواد، سترات عيد عتيقة وطويلة فكت

أزرارها وتدللت إلى أسفل. وهذا اللباس وحده أثار الحيرة في نفس ك، ولو لذلك لكان من شأنه أن يعتبر الأمر كله اجتماعاً سياسياً لل بحي.

في النهاية الأخرى للقاعة التي اقتيد ك إليها كان فوق منصة منخفضة جداً غاصة أيضاً طاولة صغيرة وضعت بالعرض، ووراءها بالقرب من حافة المنصة جلس رجل قصير سمين لاهث كان يتحدث بقهقهة عالية مع رجل يقف خلفه وقد أسدل مرفقه على ظهر المبعد ووضع رجلاً على رجل. وأحياناً كان يقذف ذراعه في الهواء كأنه يهزأ بأحدهم. ووجد الصبي الذي قاد ك مشقة في تبليغ خبره. لقد حاول مرتين، وهو يقف على أطراف أصابعه، أن يبلغ شيئاً ما، دون أن يكترث به الرجل في الأعلى. وفقط عندما لفت أحد الناس على المنصة النظر إلى الصبي، توجه الرجل إليه واستمع منحنياً إلى الأسفل إلى تقريره الخافت. ثم سحب ساعته ونظر إلى ك بسرعة وقال له: «كان عليك أن تحضر قبل ساعة وخمس دقائق». وأراد ك أن يجيب بشيء، لكن لم يكن لديه متسع من الوقت، إذ ما كاد الرجل ينهي جملته حتى علت هممة عامة في نصف القاعة الأيمن. «كان عليك أن تحضر قبل ساعة وخمس دقائق»، رد الرجل وقد علا صوته ثم نظر بسرعة إلى القاعة. وفي الحال اشتدت الهممة، ثم انتهت تدريجياً إذ لم يقل الرجل شيئاً آخر. وساد الآن في القاعة هدوء أكثر بكثير مما كان الحال عليه عند دخول ك، سوى أن الناس في الشرفة الداخلية لم يكفوا عن إبداء ملاحظاتهم. وبدوا، بقدر ما أمكن للمرء أن يميز شيئاً في الأعلى في الغبش والشتورة والغبار، بملابس أسوأ من ملابس من هم في الأسفل. وكان بعضهم قد أحضر وسائد وضعها بين الرأس وسقف الغرفة حتى لا يحرج بسبب الضغط.

وكان ك قد عقد العزم على أن يراقب أكثر مما يتكلم، وعليه فقد

أحجم عن الدفاع بخصوص تأخره المزعوم واكتفى بالقول: «قد أكون جئت متأخراً، والآن أنا هنا». وتبع ذلك تصفيق استحسان من نصف القاعة الأيمن ثانية. «ناس يسهل كسبهم»، فكر لك إلا أنه تضليل من السكوت في نصف القاعة الأيسر الذي كان وراءه تماماً والذي لم يكن قد علا منه سوى تصفيق متقطع كلية. وفكر في ما يمكّنه أن يقول كي يكسب الجميع دفعة واحدة أو، إذا لم يكن هذا ممكناً، الآخرين أيضاً بشكل مؤقت على الأقل.

«نعم»، قال الرجل، «لكتبني لم أعد ملزماً بالتحقيق معك الآن».

وعادت الهميمة، لكنها هذه المرة كانت مبهمة، إذ أن الرجل استطرد مشيراً إلى الناس بالصمت: «إلا أنني أريد اليوم أن أفعل الأمر استثناءً». لكن مثل هذا التأخير لا يجوز أن يتكرر بعد. والآن تقدم!». وقف أحدهم من المنصة إلى الأسفل، بحيث أصبح ثمة مكان خال من أجل لك، فصعد إليه. وقف ملتصقاً بالطاولة، وكان الزحام خلفه كبيراً بحيث كان عليه أن يقاومه إذا لم يشاً الإطاحة بطاولة قاضي التحقيق من على المنصة أو ربما بالقاضي نفسه.

غير أن قاضي التحقيق لم يهتم بذلك، وإنما كان يجلس مرتاحاً بشكل واف على كرسيه وتناول، بعد أن كان قد قال للرجل الواقف وراءه كلمة ختامية، كتاب ملاحظات صغير كان الشيء الوحيد على طاولته. كان شبيهاً بالكتب المدرسية، عيناً، تبدل حاله كل التبدل من فرط تصفيحة. «إذاً»، قال قاضي التحقيق وتصفح الكتاب وتوجه إلى لك بلهجة تقرير: «أنت رسام حجرات؟». «لا»، قال لك، «وإنما وكيل قانوني لمصرف كبير». وتبع هذا الجواب لدى الحزب اليميني في الأسفل قهقهة كانت صافية لدرجة اضطر معها لك للمشاركة فيها. لقد استند الناس بأيديهم على ركبهم وارتعشوا كما لو كانت نوبات سعال قد انتابتهم. وضحك حتى

بعض الأفراد على الشرفة الداخلية. واستبد العصب بقاضي التحقيق، الذي كان على الأرجح مغلوباً على أمره إزاء الناس في الأسفل، وحاول أن يعوض لنفسه بالناس في الشرفة، فانتفض واقفاً وهددهم، وقد انعقد حاجبه غير الملتفتين للنظر كثيراً في العادة فوق عينيه بشكل كث أسود وكبير.

لكن نصف القاعة الأيسر كان ما يزال هادئاً دائماً، كان الناس يقفون هناك صافوفاً ويولون وجوههم شطر المنصة ويستمعون بهدوء إلى الكلمات التي كانت تتبادل في الأعلى استمعاهم إلى لغط الحزب الآخر، بل كانوا يتحملون مشاركة أفراد من صفوفهم الحزب الآخر بين الفينة والأخرى. ولعل ناس الحرب الأيسر، الذين كانوا أقل عدداً، كانوا في الواقع ذوي شأن ضئيل مثلهم مثل ناس الحزب الأيمن، لكن هدوء سلوكهم جعلهم يبدون أكثر أهمية. وحين بدأ ك الآن يتكلم، كان مقتنعاً أنه يعبر عن أفكارهم.

«إن سؤالك أيها السيد قاضي التحقيق فيما إذا كنت رسام حجرات - بالأحرى لم تسأل فقط، وإنما واجهتني بالأمر - إنما يعبر عن كامل طبيعة القضية التي تجري ضدّي. يمكنك أن تفترض بأن الأمر ليس قضية على الإللاق، وأنت على صواب جداً، إذ أنه ليس قضية إلا عندما أُعترف بها قضيّة. لكنني أُعترف به إذاً لهذه اللحظة الآن، على سبيل الرأفة نوعاً ما. ولا يمكن للمرء أن يقف من ذلك سوى موقف الرأفة، إذا أراد أن يكتثر به أصلاً. إنني لا أقول إنها قضية وضعية، لكنني أحب أن أكون قد عرضت عليك هذه التسمية من أجل الإدراك الذاتي».

وقطعاً لك نفسه، وهو ينظر إلى القاعة. إن ما قاله كان شديد اللهجة، أشدّ مما كان يقصد، لكنه كان صحيحاً. وكان يستحق استحساناً هنا أو هناك، لكن كل شيء كان هادئاً، كان المرء يتضرر، وهو متور الأعصاب على ما يبدو، ماذا يلي؟ وربما كان يتهدّأ في الهدوء انفجار من شأنه أن ينهي

كل شيء. وكان من المزعج أن الباب في نهاية القاعة قد فُتح الآن، وأن الغسالة الشابة، التي كانت على الأرجح قد أنهت عملها، قد دخلت، ورغم كل حذر أحذته جذبت بعض النظرات إليها. قاضي التحقيق وحده أثار ارتياحاً مباشراً لدى ك، إذ بدا أن الكلمات قد أصابته في الحال. كان حتى الآن قد استمع واقفاً، إذ أن كلمة ك فاجأته، بينما كان قد وقف من أجل الشرفة. والآن في فترة الاستراحة جلس تدريجياً، وكأن على هذا الجلوس ألا يلاحظ. وعلى الأرجح من أجل تهدئة تعبير وجهه تناول الدفتر الصغير ثانية.

«لأفيد شيئاً»، تابع ك، «حتى دفترك الصغير يؤكّد ما أقوله». وبدا عليه الرضا لسماعه كلماته الهدئة وحدتها في الاجتماع الغريب، حتى أنه تجرأ وانتزع الدفتر من قاضي التحقيق بلا تردد، ورفعه بأطراف أصابعه، وكأنه يخجل من ذلك، ممسكاً بورقة وسطى بحيث تدلّت من الطرفين الأوراق الملوثة، المكتوبة بأسطر متراسبة، ذات الهوامش المصفرة. «هذه هي وثائق قاضي التحقيق»، قال وترك الدفتر يسقط على الطاولة. «لا ضير عليك أن تستمر في القراءة فيه أيها السيد قاضي التحقيق. فمن كتاب الذنوب هذا لا أخاف حقاً، وإن كان لاسيبل لي إليه، إذ أنتي لأقدر أن أمسكه سوى بطري إصبعين». ولم يمكن أن يكون سوى دلالة على مهانة بالغة، أو أن يفهم الأمر على الأقل هكذا، أن قاضي التحقيق قد أمسك بالدفتر عندما سقط على الطاولة، وحاول ترتيبه بعض الشيء، وتناوله ثانية كي يقرأ فيه.

وكانت وجوه الناس في الصف الأول متوجهة إلى ك باهتمام شديد، فطلع إليهم فترة وجيزة. كانوا رجالاً متقدمين في السن بصفة عامة، وكان بعضهم ذوي لحى بيضاء. وربما كانوا هم أصحاب الشأن الذين كان في مقدورهم التأثير على الاجتماع كله، والذي لم يدع حتى مهانة قاضي

التحقيق تخرجه عن جموده الذي كان قد غرق فيه منذ أن ألقى كلامته.

«ماحدث لي»، تابع كفائلاً بصوت منخفض أكثر من ذي قبل، وهو يتفحص وجوه الصف الأول، الأمر الذي أعطى كلمته تعبيراً يدل على شيء من عدم التوازن، «ما حدث لي هو مجرد حالة فردية، ومن هنا ليست في غاية الأهمية، إذ أنتي لا آخذه مأخذناً صعباً للغاية، لكنه دلالة على إجراء بمارس ضد كثرين. وأنا هنا من أجل هؤلاء، وليس من أجلي».

وكان قد رفع صوته من غير قصد. وفي مكان ما صفق أحدهم ملواحاً بيديه، وصاح: «أحسست! لم لا؟ أحسست! ومرة أخرى أحسست!» ودش بعض الجالسين في الصف الأول أيديهم في لحاظهم، دون أن يتلفت أحد منهم بسبب النداء. كما أن لم يعطه أهمية، لكنه أثار تشجيعاً في نفسه، ولم يعد الآن يرى أنه من الضروري أن يصفق الجميع استحساناً، يكفي إذا بدأ الجمهور ينعم النظر في الموضوع وتمّ أحياناً كسب أحدهم بالإقناع.

«لا أريد نجاح خطباء»، قال منطلاقاً من هذه الفكرة، «كما أنتي لا أستطيع تحقيق ذلك. إن السيد قاضي التحقيق يحسن الحديث أكثر على الأرجح، إذ أن هذا من مهنته. إن ما أريده هو التحدث عن سوء حال عام حديثاً عاماً. اسمعوا: لقد اعتقلت قبل نحو عشرة أيام، عن واقعة الاعتقال نفسها أضحك، لكن هذا لا يخص هنا الآن. لقد دوهمت في الفراش في الصباح الباكر، وربما كان الماء - وليس هذا مستبعداً - بعدما قاله قاضي التحقيق - يحمل أمراً باعتقال أي رسام حجرات، هو أيضاً بريء، لكن الماء اختارني. كان حارسان فظان يحتلان الحجرة المجاورة. ولو كنت لصاً خطيراً، لما استطاع الماء أن يتخذ احتياطاً أفضل. وكان هذان الحارسان، فوق ذلك، صعلوكيين بلا أخلاق ولا أدب، ملاً أذني ثرثرة، وأراداً أن

يرتشيا، وأن يستدرجها مني، خداعاً وتضليلاً، ثيابي وملابسي الداخلية، أرادا
نقداً كي يحضرها لي فطوراً على حد زعمهم، بعد أن التهموا طعام فطوري
أمام عيني بلا حياء ولا حجل. ولم يكف هذا. فقد اقتدت إلى حجرة ثلاثة
أمام المراقب. كانت حجرة سيدة أقدرها جداً، وكان عليّ أن أرى كيف تم
بسبيبي، لكن دون ذنبي، تدليس هذه الحجرة إلى حد ما من خلال وجود
الحارسين والمراقب. ولم يكن الاحتفاظ بالهدوء سهلاً. لكنني وقفت في
ذلك وسألت المراقب بكل هدوء - كان من شأنه أن يشهد على ذلك لو
كان هنا - لماذا أنا معتقل. لماذا أجاب هذا المراقب الذي مازلت أراه أمامي،
وهو يجلس على كرسي السيدة المذكورة مثلاً لأكثر غطرسة بلادة؟
سادتي، إنه في الحقيقة لم يجب بشيء، وربما لم يكن يعرف شيئاً فعلاً، لقد
اعتقلنني واكتفى بذلك. بل إنه فعل أكثر مما ينبغي، وجلب إلى حجرة تلك
السيدة ثلاثة من مستخدمي مصرفي الصغار راحوا يلمسون صوراً
فوتوغرافية، هي ملك السيدة، ويقومون بلحبتها. وكان وجود هؤلاء
المستخدمين يرمي طبعاً إلى غرض آخر، كان عايهم، مثلهم في ذلك مثل
مؤجرة البيت وخادمتها، أن ينشروا نباء اعتقالى، ويضرروا بسمعتي العامة،
ويزعزعوا خاصة مكانى في المصر. والآن لم يتم شيء من هذا على
الإطلاق، حتى مؤجرتى، التي هي شخص في غاية البساطة - أريد هنا ذكر
اسمها يعني مشرف، تدعى السيدة غروباخ -، حتى السيدة غروباخ كانت
تتمتع بهم كاف حتى تدرك أن مثل هذا الاعتقال لا يعني أكثر من اعتداء
يقوم به في الشارع فتیان لم يكونوا تحت مراقبة كافية. وأكرر، لم يسبب لي
الأمر كله سوى إزعاجات ومضايقة عابرة، لكن ألم يكن بالإمكان أن
يؤدي الأمر إلى نتائج أكثر سوءاً أيضاً؟».

وحين قاطع لك نفسه هنا وتطلع نحو قاضي التحقيق الصامت، ظن أنه

لاحظ أن هذا قد أعطى لتوه بنظرة منه إشارة إلى أحدهم في الجمهور. ابتسم ك وقال: «الآن يعطي هنا السيد قاضي التحقيق إلى جانبي أحداً منكم إشارة سرية. ثمة إذاً أناس بينكم يوجهون من هنا في الأعلى. وأنا لا أذرني فيما إذا كان على الإشارة أن تثير صفيرأ أم تصفيقاً، وإذا أبوج بالموسم قبيل الأوان، أحجم بوعي كامل عن معرفة معنى الإشارة. إن الأمر سيان لدى، وإنني أحوّل السيد قاضي التحقيق علينا أن يقود مستخدميه هناك في الأسفل الذين يتلقّبون أجراً، بكلمات مكتشوفة بدلاً من إشارات سرية، وذلك بأن يقول مثلاً مرة: (الآن صفروا، ومرة أخرى: الآن صفقوا)».

في حيرة أو نفاد صبر تحرك قاضي التحقيق في كرسيه يمنةً ويسرةً. والرجل خلفه الذي كان قد تحدث معه من قبل، انحنى إليه مرة أخرى، إما لكي يشجعه بعامة، وما لكي يقدم له مشورة خاصة. وفي الأسفل راح الناس يتحدثون بصوت منخفض لكن بحيوية. واحتلّت الحزيان اللذان كانوا ييدوان من قبل ذوي آراء متناقضة. وأشار بعض الأفراد إلى ك بالإصبع، وأشار آخرون إلى قاضي التحقيق. كان الهواء الضبابي في الحجرة مزعجاً للغاية، بل إنه كان يمنع مراقبة الواقفين على بُعد على وجه الدقة. ولاسيما بالنسبة لزوار الشرفة كان لابد أن يكون مزعجاً، فقد كانوا مرغمين، لكن مع نظرات جانبية خجولة إلى قاضي التحقيق، على توجيهه أسئلة بصوت منخفض إلى المشاركين في الاجتماع، من أجل الاطلاع أكثر. وكانت الأوجبة تعطى بصوت منخفض أيضاً مستردة وراء الأيدي التي تعطي الأفواه.

«لقد أشرفت على الانتهاء»، قال ك وضرب، لعدم وجود جرس، نقبضته على الطاولة؛ وذعرأ من ذلك تفرق في الحال رأساً قاضي التحقيق ومستشاره عن بعضهما: «إن الموضوع كله بعيد عنّي، ولذا فإنني أحكم

عليه بهدوء، وفي مقدوركم، إذا كان بهمكم شيء من أمر هذه المحكمة المزعومة، أن تفيدوا فائدة كبرى، إذا ما استمعتم إلىي. وأرجوكم تأجيل تبادل أحاديثكم عما أعرضه إلى وقت لاحق، إذ أنتي لا أملك متسعًا من الوقت وسوف أنصرف قريباً.

وعلى الفور ساد الهدوء، إذ كان لك قد سيطر على الاجتماع سيطرة شديدة. لم يعد الناس يصطحبون مثلما كان الحال في البداية، بل لم يعودوا يصفقون استحساناً، لكنهم بدوا أنهن قد اقتنعوا أو أنهن في طريقهم إلى الاقتناع.

«ما من شك»، قال لك بصوت منخفض جداً، إذ سرته إنصات جميع الحاضرين بكل حواسهم؛ ونشأ في السكون صفير كان أكثر إثارة من أكثر استحسان حماساً، «ما من شك أنه وراء جميع مواقف هذه المحكمة، في حالي إذاً وراء الاعتقال والتحقيق اليوم، إنما تتوارد منظمة كبيرة. منظمة لا تشغله فحسب حرساً مرتدين ومراقبين وقضاة تحقيق أغياء سخفاء هم متواضعون في أحسن الحالات، بل إنها تستخدم، فوق ذلك، على كل حال قضاة ذوي رتب عالية وأعلى مع حاشية ضرورية من الخدم والكتيبة ورجال الذرّك ومساعدي آخرين، وحتى جلادين ربما؛ وأنا لأأتورع عن استخدام هذه الكلمة. والغرض من هذه المنظمة الكبيرة، يا سادتي؟ إنه يمكن في اعتقال أشخاص أبرياء وإجراء تحقيق ضدهم لانفع فيه ولا يتمغض في الغالب عن نتيجة كما هو الأمر في حالي. وفي عبث الأمر كلّه، كيف يمكن تفادياً فساد الموظفين الأكثر سوءاً؟ هذا مستحيل، وليس من شأن القاضي الأعلى مرتبة أن يقدر على فعل ذلك حتى بخصوصه نفسه. ولذا يحاول الحراس أن يسرقوا الملابس من على أجسام المعتقلين، ولذا يقتحم المراقبون منازل الناس، ولذا يجري إهانة الأبرياء أمام جموع

كاملة، بدلاً من التحقيق معهم. لقد حذني الحراس عن مستودعات توضع فيها ممتلكات المعتقلين، ووددت مرة أن أرى هذه المستودعات التي تتعرض فيها ممتلكات المعتقلين المكتسبة بالعمل المضني، هذا إذا لم يسرقها موظفو المستودعات اللصوصيون.

وارتفع زعيق في نهاية القاعة قاطع ك، فظلل عينيه كي يستطيع أن يرى، إذ أن ضوء النهار الخافت جعل الهواء الضبابي ضارياً للبياض وخطفَ الأبصار. كانت الغسالة التي كان ك قد رأها إزعاجاً حقيقياً فور دخولها. ولم يكن في مقدور المرأة أن يعرف الآن فيما إذا كانت مذنبة أم لا. ورأى ك فقط أن رجلاً كان قد سحبها إلى زاوية عند الباب واحتضن هناك الجزء الأعلى من جسمها الذي لا يكتسي سوى قميص داخلي. لكن لم تكن هي التي زعمت، وإنما الرجل، الذي كان قد فغر فاه وراح ينظر إلى السقف. كانت حلقة صغيرة قد تشكلت حول الإثنين، وبدأ رواد الشرفة بالقرب منهم معجبين بأن الحيد الذي كان ك قد أدخله إلى الاجتماع إنما انقطع بهذه الطريقة. وتحت الانطباع الأول أراد ك على الفور أن يجري إلى هناك، كما أنه فكر بأن الجميع حرّيصون على تأمين النظام هناك، وعلى الأقل إخراج الإثنين من القاعة؛ لكن الصحفوف الأولى أمامه سادها الجمود كلياً، فلم يتحرك أحدهم ولم يسمع له بالمرور. بل أعيق على العكس، رجال مستون مدّوا أيديهم أمامه، ويدّ ما - لم يكن لديه متسع من الوقت كي يستدير - أمسكت بياقته من الوراء؛ ولم يعد ك يفكر أصلاً بالإثنين، كانت حاله وكأن المرأة يحدّ من حرّيتها، كأن المرأة ينفذ الاعتقال؛ وقفز من المنصة بغير مبالاة. وأصبح الآن يقف وجهاً لوجه أمام الزحام. هل كان قد حكم على الناس بشكل غير صحيح؟ هل كان قد توقع من خطبته تأثيراً أكثر مما ينبغي؟ هل كان الناس قد مثّلوا وتظاهرّوا عندما كان يتحدث، وسئموا الآن

من التمثيل، إذ وصل إلى الاستنتاجات؟ أية وجوه من حوله! عيون صغيرة سوداء كانت تمرق جيئه وذهبها، الوجنات تتبدلي كوجنات السكارى، واللحى كانت متصلة وذات شعر خفيف، إذا دسَّ المُرء يده فيها، فكأنه يشكّل مخالب وليس كمن يدس يده في لحى. لكن تحت اللحى - وهذا هو الاكتشاف الحقيقى الذى اكتشفه ك - كانت تلمع فوق الياقات شارات من مختلف الأحجام والألوان. كانوا جميعاً يحملون هذه الشارات، بقدر ما كان فى مقدور المُرء أن يرى. كانوا جميعاً جماعة واحدة، الخربان ظاهرياً في اليمين واليسار؛ وإذا استدار فجأة، رأى الشارة نفسها على ياقه قاضي التحقيق، الذى كان ينظر بهدوء إلى أسفل، وقد وضع يديه في حجره. «هكذا!» هتف ك ورفع ذراعيه إلى أعلى، كان الإدراك المفاجئ يتطلب فضاء، «إنكم جميعاً موظفون كما أرى، إنكم العصابة الفاسدة التي تحدثت ضدها، لقد تزاحمت هنا كمستمعين وحواسيس، شكلتم أحزاباً شكلية، صفق أحدها كي يتحتنى؛ أردتم أن تتعلموا كيف يغرس المُرء بالأبراء. والآن لم تكونوا هنا على غير جدوى، كما آمل، فإما أنكم تخدشتم عن أن أحدكم قد توقع منكم الدفاع عن البراءة أو - دعني وإلا ضربتك -، صاح ك بعجز يرجف كان قد دفع نفسه مقترباً منه بشكل خاص - أو أنكم قد تعلّمتم فعلاً شيئاً ما. وبهذا أتتني لكم حظاً سعيداً في حرفتكم». وبسرعة تناول قبعته التي كانت تقع على حافة الطاولة، واندفع إلى المخرج وسط سكون عام، على كل حال سكون مفاجأة كاملة كل الكمال. لكن قاضي التحقيق بدا أنه كان أسرع من ك، حيث كان ينتظره لدى الباب. وقال: «لحظة». وتوقف ك، لكنه لم ينظر إلى قاضي التحقيق، وإنما إلى الباب، الذى كان قد أمسك بقبضته. «أردت فقط أن ألفت انتباحك»، قال قاضي التحقيق، «إلى أنك اليوم - يبدو أنك لم تدرك الأمر بعد - سلبت

نفسك المميزة التي يعنيها التحقيق على كل حال بالنسبة إلى المعتقل». وضحك ك للباب، وصاح: «يا أوغاد، إبني أهبككم كل التحقيقات»، وفتح الباب، وهبط الدرج مسرعاً. وارتفع خلفه ضجيج الاجتماع الذي عاد إلى حيويته، والذي بدأ على الأرجح مناقشة الأحداث على طريقة الطلاب.

الجَلَاد

حين كان كـ مساء أحد الأيام التالية يعبر الممر الذي يفصل مكتبه عن السلم الرئيسي - كان هذه المرة آخر من ذهب إلى البيت تقريراً، فقط في قسم البريد كان ثمة خادمان لايزالان يعملان في رقعة ضوئية صغيرة لمصباح كهربائي - سمع تنهيدات وراء باب لم يكن يخمن وراءه دائمًا سوى حجرة سقط المتاع دون أن يكون قد رأها بنفسه قط. توقف مستغرباً وأرهف أذنيه مرة أخرى كي يتبيّن فيما إذا لم يكن قد أخطأ. ساد السكون هنيهة، ألا أنها تنهيدات مرة أخرى. وأراد أولاً أن يستدعي خادماً، فقد يحتاج المرء إلى شاهد، غير أن فضولاً عارماً لا يكبح تملكه إلى درجة أنه فتح الباب مشرعاً على مصراعيه. وكانت حجرة سقط المتاع كما كان يخمن بشكل صحيح. كان ثمة أنواع من مطبوعات قدية عديمة القائدة ومحابر فخارية فارغة ملقة وراء العتبة. أما في الحجرة نفسها فقد كان ثلاثة رجال يقفون منحنين تحت السقف المنخفض. وكان ثمة شمعة مشببة على رف تلقى عليهم ضوءاً. «ماذا تفعلون؟» سأل كـ مندهلاً لكن دون أن يرفع صوته. كان الرجل الذي يسيطر على الآخرين فيما يedo والذى كان أول من لفت النظر إليه، يندس في نوع من الرداء الجلدي ذي اللون الغامق ترك الرقبة إلى أسفل الصدر والذراعين كلهمما عارية. ولم يعجب. لكن الآخرين

صاحبا: «أيها السيد! سنُضرب، لأنك شكتنا إلى قاضي التحقيق». وهنا فقط أدرك لك أنهما كانوا فعلاً الحارسين فرانز وفيلم، وأن الثالث كان يمسك عصا بيده كي يضربهما. «لا»، قال لك وهو يحدّق فيهما، «لم أشك، وإنما رویت فقط ما حدث في مسكنى. ولعمري لم يكن تصرفكم سليماً. «أيها السيد»، قال فيلم في حين حاول فرانز على ما يبدو أن يحتمي وراءه من الثالث، «لو كنت تعلم ضالة أجربنا، كنت ستتحكم علينا حكماً أفضل. علىي أن أعيش أسرة، وفرانز هنا أراد أن يتزوج، يحاول المرأة أن يعني بأي شكل، بالعمل وحده لا يتم ذلك، ولا حتى بالعمل الأكثر إرهافاً. ملابسك الداخلية الفاخرة أغرتني، وطبعاً يمنع على الحراس أن يتصرّفوا هكذا، كان إنما، لكنه عُرف أن تكون الملابس الداخلية للحراس، هكذا كان الحال دائماً، صدقني؛ كما أن الأمر لمفهوم، فماذا تعني مثل هذه الأشياء بالنسبة إلى مثل هذا البائس الذي اعتقل. لكنه إذا تحدث عن ذلك علينا، فلا بد من وقوع العقوبة». «لم أكن أعلم بما تقولانه الآن، كما أنتي لم أطالب بعقابكما أبداً، كان الموضوع بالنسبة إليّ هو موضوع مبدأ». «فرانز»، التفت فيلم إلى الحراس الآخر، «ألم أقل لك بأن السيد لم يطلب معاقبتنا. والآن تسمع أنه حتى لم يكن يعلم أنه يتوجب علينا أن نعاقب». «لاتدع مثل هذا الكلام يؤثر فيك»، قال الثالث لك، «إن العقاب عادل كما هو محظوم». «لا تسمع له»، قال فيلم وتوقف عن الكلام فقط كي يضع سرعة على فمه يده التي كان قد تلقى عليها ضربة عصا، «لانعاقب سوى لأنك بلغت عنا، ولو لا ذلك لما كان حدث لنا شيء، حتى ولو كان المرأة قد علم بما فعلناه. هل يمكن أن يسمى هذا عدلاً؟ نحن الإناث، لكن خاصة أنا، كما قد أثبتنا عبر فترة طويلة جدارتنا الكبيرة كحارسين - لابد لك نفسك أن تعرف بأننا من وجهة نظر الهيئة إنما قد حرستنا حراسة جيدة - وكان لدينا أمل بالتقدم، كما كان من شأننا بالتأكيد أن نصبح قريباً جلادين، مثل هذا الذي أصابه

الحظ بأن لم يبلغ عنه من قبل أحد، إذ أن مثل هذا التبلیغ لا يحصل فعلاً سوى نادراً جداً. والآن أيها السيد ضاع كل شيء، وانتهى مستقبلنا المهني، وسوف ينبغي علينا القيام بأعمال أكثر تواضعاً بكثير مما هو عمل الحراسة، وبالإضافة إلى ذلك نتلقى الآن هذا الضرب المؤلم للغاية». «هل يمكن للعصا أن تحدث مثل هذه الآلام؟» سأله ك وفحص العصا الذي لوح بها الجلاد أمامه. «سوف ينبغي علينا أن نتعري كلياً»، قال فيلم، «آه هكذا»، قال ك ونظر إلى الجلاد بدقة أكثر، كان هذا أسمراً اللون لوحته الشمس مثل بخار وجهه نضر متوجب. «ألا يوجد إمكانية لتجنب الإثنين الضرب؟» سأله ك. «لا»، قال الجلاد وهو يهز رأسه مبتسمًا. «اخلعوا ملابسكم»، أمر الحارسين. وإلى ك قال: «لابنغي أن تصدقهما في كل شيء. لقد أصيّبا بشيء من العته نتيجة الخوف من الضرب. ما قاله هذا هنا مثلاً - وأشار إلى فيلم - عن مستقبله المهني الممكّن هو شيء يدعو إلى السخرية حقاً. انظر، كم هو بدین، إن الضربات الأولى سوف تضيع في شحمه... أتعلم كيف أصبح بدینا هكذا؟ لقد اعتاد أن يلتهم طعام فطور جميع المعتقلين. ألم يتهم طعام فطورك أيضاً؟ لقد قلت الأمر. لكن رجلاً مثل هذا الكرش لا يمكن أن يصبح جلاداً أبداً، هذا أمر مستحيل». «يوجد أيضاً مثل هؤلاء الجنادين»، زعم فيلم الذي حلّ لته حزام سرواله. «لا!» قال الجلاد ومسح على رقبته بالعصا إلى درجة أنه أصيّب برجفة، «ليس لك أن تسمع، وإنما عليك أن تخلي ملابسك». «سوف أكافئك مكافأة جيدة إذا تركتهما»، قال ك وسحب دون أن ينظر إلى الجلاد مرة أخرى - مثل هذه الصفقات تتم على أحسن صورة وقد غض الطرفان أحدهما - محفظته. «تريد أن تبلغ عنّي أنا أيضاً»، قال الجلاد، وتسبّب لي أيضاً الضرب. لا، لا!». «لتكن عاقلاً، قال ك، لو كنت قد أردت أن يعاقب هذان الإثنان، لما كان من شأنني الآن أن أرغب في افتديهما. كان يمكنني بسهولة أن أغلق الباب هنا ولا أريد أن

أرى وأسمع شيئاً، وأذهب إلى البيت. غير أنني ها أنا لأفعل ذلك، بل يهمني جدياً أن أخلصهما؛ ولو أنني كنت قد حدت أنهما سيعاقبان أو أنهما يمكن أن يعاقبا، لما كان من شأنني أن أذكر اسميهما فقط. إذ أنني لا اعتبرهما مذنبين أبداً، المذنب هي المنظمة، المذنبون هم الموظفون الكبار». «هكذا هو الأمر»، صاح الحارسان وتلقيا على الفور ضربة على ظهريهما اللذين كانوا قد أصبحوا عاريين. «لو كان لديك هنا تحت عصاك قاض كبير»، قال لك وضغط، وهو يتكلم، على العصا التي أرادت أن ترتفع ثانية، «لما كنت حقاً سأمنعك من الضرب، بل على العكس من ذلك كنت سأعطيك مالاً حتى تقوى نفسك من أجل الفعل الطيب». «ما تقوله يظهر أنه جدير بالتصديق»، قال الجلاّد، «غير أنني لا أدع نفسي ترشى. إنني معين للضرب، إذاً أضرب». وتقى الحارس فرانز، الذي كان حتى الآن متحفظاً نوعاً ما، ربما توقعنا لنتيجة طيبة لتدخلك، تقدم الآن، وهو لا يرتدي سوى السروال، صوب الباب، وتعلق راكعاً بذراعك وهمس: «إذا لم تستطع الظفر بالرحمة لنا كلينا، فحاول تخليصي على الأقل. إن فيلم أكبر مني سنّاً، وأقل حساسية في كل ناحية، كما أنه تلقى ذات مرة قبل بعض سنوات عقوبة ضرب خفيفة، أما أنا فلم يمس شرمي بعد، ولم أدفع إلى سلوكِي سوى من خلال فيلم الذي هو معلمٍ في الخير والشر. تحت أمام المصرف تنتظر خطبتي المسكينة النتيجة، وأنا خجل بشكل يرشى له». وجفف وجهه الطافح بالدموع كلياً في ثوبك. «لن أنتظر بعد الآن»، قال الجلاّد، وأمسك العصا بكلتا يديه وهو على فرانز، بينما تكور فيلم في ركن وراح يراقب خلسة دون أن يجرؤ على أن يدبر رأسه. وهنا ارتفعت الصرخة التي أطلقها فرانز، غير مجزأة ولا متجزأة، وقد بدت أنها لم تصدر عن إنسان وإنما عن آلة معدّة، ودوى بها المر كله، ولا بد أن المبنى كله سمعها، «لاتصرخ»، صاح لك، ولم يستطع أن يمسك نفسه، وبينما كان

ينظر باهتمام شديد إلى الاتجاه الذي لابد للخادمين أن يأتيا منه، اصطدم بفانز، ليس بقوة لكن بقوة كانت كافية حتى سقط الغائب عن صوابه وراح في تشنجه يتلمس الأرض بيديه؛ غير أنه لم يفلت من الضربات، فقد وجدته العصا على الأرض أيضاً، وبينما راح يتلوى تحتها، راح طرفها يتحرك جيئة وذهاباً بانتظام. وهنا لاح في البعد خادم وبعد بعض خطوات وراءه لاح خادم ثان. كان ك قد صفق الباب بسرعة، وتقدم إلى نافذة قرية مطلة على الفناء وفتحها. وكان الصراخ قد انقطع كلباً. ولكي لايدع الخادمين يقتربان، صاح: «أنا هنا». «مساء الخير، أيها السيد الوكيل»، جاء الرد، «هل حدث شيء؟». «لا، لا»، أجاب ك، «إنه مجرد كلب يعوي في الفناء». لكن لما لم يتحرك الخادمان، أضاف: يمكنكما البقاء لدى عملكم». ولكي لا يضطر إلى الدخول في حديث مع الخادمين، انحنى من النافذة. وعندما نظر إلى المر بعد هنفيه، كانوا قد انصروا. لكن ك ظل عند النافذة، ولم يجرؤ على الذهاب إلى حجرة سقط المتابع، كما أنه لم يكن يرغب في الذهاب إلى البيت. كان الفناء الذي ينظر فيه فناء مربعاً صغيراً، وكان ثمة مكاتب تحيط به، وكانت جميع التوافذ مظلمة الآن، إلا أن التوافذ العلوية كانت تعكس ضوء القمر. وحاول ك جاهداً أن ينفذ بنظراته إلى ظلمة ركن من أركان الفناء كان يحوي بعض عربات يد تداخلت مع بعضها بعضاً. كان يتآلم لأنه لم يوفق في الحيلة دون الضرب، لكن الذنب لم يكن ذنبه في عدم التوفيق، ولو لم يصرخ فرانز - يقيناً لابد أن الضرب قد ألم كل الألم، لكن ينبغي على المرأة أن يتمالك نفسه في اللحظة الخامسة - لو لم يصرخ، كان من شأن ك، هذا مرتجح على الأقل، أن يجد وسيلة لإنقاع الجلاد. وإذا كانت فئة صغار الموظفين بكمالها من الرعاع، لماذا ينبغي على الجلاد بالذات، الذي يمارس الوظيفة الأكثر وحشية، أن يكون استثناءً. كما أن ك كان قد لاحظ جيداً كم تألقت عيناه لدى رؤيته الورقة النقدية،

ويبدو أنه لم ينقد الضرب إلا لكي يزيد مبلغ الرشوة قليلاً. وما كان كـسيقتـصـدـ، كان يهمـهـ فـعـلـاًـ أنـ يـخـلـصـ الـحـارـسـينـ؛ـ وإـذـاـ كـانـ قدـ بدـأـ مـنـذـ الـآنـ يـكـافـعـ فـسـادـ هـذـاـ القـضـاءـ،ـ فإـنهـ كـانـ مـنـ الـبـدـيـهـيـ أنـ يـتـدـخـلـ مـنـ هـذـهـ النـاحـيـةـ أـيـضاـ.ـ لـكـنـ فـيـ الـلحـظـةـ التـيـ كـانـ فـيـهاـ فـرـانـزـ قـدـ بدـأـ فـيـ الصـراـخـ،ـ اـنـتـهـيـ كـلـ شـيـءـ طـبـعـاـ.ـ لـمـ يـكـنـ فـيـ إـمـكـانـ كـ أـنـ يـسـمـعـ بـأـنـ يـأـتـيـ الـخـادـمـانـ وـرـبـاـ مـخـلـفـ النـاسـ وـيـفـاجـئـونـهـ فـيـ مـفـاـوـضـاتـ مـعـ الزـمـرـةـ فـيـ حـجـرـةـ سـقـطـ المـتـاعـ.ـ هـذـهـ التـضـحـيـةـ لـاـ يـسـتـطـعـ أـحـدـ فـعـلـاـ أـنـ يـطـلـبـهـ مـنـ كـ.ـ وـلـوـ كـانـ يـنـوـيـ أـنـ يـفـعـلـ ذـلـكـ،ـ لـكـانـ مـنـ الـأـسـهـلـ تـقـرـيـباـ أـنـ يـخـلـعـ كـ مـلـابـسـهـ وـيـعـرـضـ نـفـسـهـ لـلـجـلـادـ بـدـيـلاـ عنـ الـحـارـسـينـ.ـ وـلـمـنـاسـبـةـ،ـ مـاـكـانـ مـنـ شـأـنـ الـجـلـادـ يـقـيـنـاـ أـنـ يـقـبـلـ هـذـهـ الـنـيـابـةـ،ـ وـذـلـكـ لـأـنـ بـهـذـاـ،ـ وـدـونـ أـنـ يـسـتـفـيدـ،ـ سـيـكـونـ رـغـمـ ذـلـكـ قـدـ أـخـلـ بـوـاجـبـهـ إـخـلـالـاـ كـبـيرـاـ،ـ وـعـلـىـ الـأـرـجـعـ إـخـلـالـاـ مـضـاعـفاـ،ـ إـذـ كـانـ يـنـبـغـيـ عـلـىـ كـ أـنـ يـكـوـنـ مـنـيـعاـ عـلـىـ جـمـيـعـ مـوـظـفـيـ الـحـكـمـ لـاـ يـجـوزـ الـمـسـاسـ بـهـ طـلـماـ هوـ فـيـ القـضـيـةـ.ـ لـكـنـ كـانـ بـالـإـمـكـانـ أـنـ تـسـرـيـ هـنـاـ أـيـضاـ تـعـلـيـمـاتـ مـعـيـنةـ.ـ وـعـلـىـ كـلـ حـالـ لـمـ يـكـنـ فـيـ مـقـدـورـهـ كـ أـنـ يـفـعـلـ شـيـئـاـ آخـرـ سـوـىـ أـنـ يـصـفـقـ الـبـابـ،ـ وـرـغـمـ ذـلـكـ لـمـ يـكـنـ بـهـذـاـ الـآنـ أـيـضاـ قـدـ زـالـ الـخـطـرـ بـالـنـسـبـةـ إـلـيـ كـ.ـ وـكـوـنـهـ فـيـ آخـرـ الـأـمـرـ قـدـ لـطـمـ فـرـانـزـ،ـ كـانـ أـمـرـاـ يـؤـسـفـ لـهـ وـلـاـ مـبـرـرـ لـهـ سـوـىـ بـاـنـفـعـالـهـ.

في البعـيدـ سـمـعـ خطـوـاتـ الـخـادـمـينـ؛ـ وـلـكـيـ لـاـ يـلـفـتـ اـنـتـبـاهـهـمـاـ،ـ أـغلـقـ النـافـذـةـ وـذـهـبـ فـيـ اـتـجـاهـ السـلـمـ الرـئـيـسيـ.ـ وـلـدـىـ بـابـ حـجـرـةـ سـقـطـ المـتـاعـ تـوقـفـ قـلـيلـاـ وـأـنـصـتـ.ـ كـانـ ثـمـةـ هـدوـءـ كـامـلـ.ـ كـانـ يـكـنـ لـلـرـجـلـ أـنـ يـكـوـنـ قـدـ قـلـ الـحـارـسـينـ ضـرـبـاـ،ـ فـقـدـ كـانـ تـحـتـ سـلـطـتـهـ كـلـيـاـ.ـ وـمـدـ كـ يـدـهـ إـلـىـ مـقـبـضـ الـبـابـ،ـ لـكـنـ عـادـ فـسـحـبـهـ ثـانـيـةـ.ـ لـمـ يـكـنـ فـيـ مـقـدـورـهـ بـعـدـ أـنـ يـسـاعـدـ أـحـدـ وـكـانـ لـابـدـ أـنـ يـأـتـيـ الـخـادـمـانـ قـرـيـباـ؛ـ لـكـنـ عـادـ نـفـسـهـ عـلـىـ أـنـ يـشـيرـ الـمـوـضـوعـ وـيـعـاقـبـ الـمـذـنبـينـ الـحـقـيقـيـنـ،ـ الـمـوـظـفـيـنـ الـكـبـارـ الـذـيـنـ لـمـ يـجـرـؤـ أـحـدـ مـنـهـمـ بـعـدـ أـنـ

يظهر نفسه له، يعاقبهم بما يستحقون وبالقدر الذي تسمح به قوته. وحين هبط السلم الخارجي للمصرف راح يتفحص بدقة كل المارة، لكن حتى في المحيط الأبعد لم ير فتاة تنتظر أحداً. إن ملاحظة فرازير بأن خطيبته تنتظره ظهرت أنها كذبة، لكنها كذبة مغففة، لم يكن لها من هدف سوى إثارة شفقة أكبر.

وكذلك في اليوم التالي لم يفارق الحراسان مخيلة ك؛ كان شارد الذهن أثناء العمل، واضطر إلى البقاء في المكتب فترة أطول قليلاً من اليوم السابق حتى ينجز عمله. وحين مر مرة ثانية، وهو في طريقه إلى البيت، بحجرة سقط المتع، فتحها وكأنه اعتاد ذلك. ولم يدر كيف يسترد رباطة جأشه أمام ما أبصره بدلاً عن الظلمة المتوقعة. كان كل شيء على حاله كما كان قد وجده في المساء السابق لدى فتحه الباب. المطبوعات والمحابر الفخارية وراء العتبة مباشرة، الجلاد والعصا في يده، الحراسان اللذان لايزالان يرتديان كامل ملابسهما، الشمعة على الرف، والحراسان بدأ يشكوان ويصيحان: «أيها السيد!» وعلى الفور صفق ث الباب وضرب عليه بقبضتيه وكأنما بهذا يحكم إغفال الباب. وجرى، وهو يكاد يبكي، إلى الخادمين اللذين كانوا يعملان بهدوء على جهاز النسخ وتوقفاً عن عملهما وقد أصابتهما الدهشة. «أخلياً أخيراً حجرة سقط المتع»، صاح، «إننا لنفرق في الأوساخ». وكان الخادمان على استعداد لفعل ذلك في اليوم التالي، وأوْمَأَ ك برأسه، الآن لم يكن في وسعه بعد أن يرغمهما على العمل إلى وقت متأخر من المساء، كما كان ينوي في حقيقة الأمر. وجلس قليلاً كي يحافظ على الخادمين فترة قصيرة على مقربة منه، وخلط بعض النسخ مع بعضها بعضاً وظن أنه بهذا إنما يُظهر أنه يفحصها، ثم انصرف إذ أدرك أنه ليس من شأن الخادمين أن يجرؤوا على الإنصراف معه في الوقت نفسه، وذهب إلى البيت وهو تعب شارد الفكر.

في قاعة الاجتماع الخالية

الطالب

المكاتب

انتظر ك أثناء الأسبوع التالي من يوم إلى يوم إبلاغاً جديداً، ولم يستطع أن يصدق أن المرأة كان قد أخذ استغناه عن التحقيقات بنصه الحرفي، وإذا لم يصل فعلاً الإبلاغ المترتب لغاية مساء السبت، فقد افترض أنه مدغو مرة ثانية، ضمنياً، للmortal في المبني نفسه والوقت نفسه. لذا فقد توجه يوم الأحد إلى هناك، ومشى هذه المرة مباشرة على الدرج وفي المرات، وبعض الناس الذين تذكّروه، ألقوا عليه التحية وهم يقفون على أبوابهم، لكن لم يكن عليه بعد أن يسأل أحداً، ووصل إلى الباب الصحيح بعد قليل. وعندما طرقه، فتح له على الفور، وأراد أن يدخل حالاً إلى الحجرة الجانبية، دون أن يلتفت إلى المرأة المعروفة التي ظلت واقفة جانب الباب. «لتعقد اليوم جلسة»، قالت المرأة. «لماذا لتعقد جلسة؟» سأله وأراد ألا يصدق. لكن المرأة أقتنعه، بأن فتحت باب الحجرة الجانبية. وكانت خالية فعلاً، وبدت في خلوها في حالة يرثى لها أكثر مما كانت عليه يوم الأحد الماضي. وعلى الطاولة التي كانت كما هي فوق المنصة كان ثمة

بعض الكتب. «هل يمكنني أن أنفوج على الكتب؟» سأله، ليس بدافع فضول خاص، وإنما لكي لا يجد وجوده هنا دون أي جدوى كلية. «لا»، قالت المرأة وأغلقت الباب الثانية، «هذا غير مسموح به. إن الكتب تخص قاضي التحقيق». «آه هكذا»، قال ك وأومأ برأسه، «إن الكتب هي ولاشك كتب القانون، ومن طبيعة هذا النوع من المحاكم أن المرأة لا يدان وهو بريء فحسب، وإنما وهو جاهم بالقانون». «سيكون الأمر هكذا»، قالت المرأة التي لم تفهمه بالدقة. «والآن أذهب إذاً عائداً»، قال ك: «هل عليّ إبلاغ قاضي التحقيق شيئاً؟» سألت المرأة. «هل تعرفيه؟» سأله ك. «طبعاً»، قالت المرأة، «إن زوجي هو حاجب المحكمة». والآن فقط لاحظ ك أن الحجرة التي لم تكن تحوي في المرة الماضية سوى طست غسيل، أصبحت الآن تتشكل حجرة جلوس مؤثثة تائياً كاملاً. ولاحظت المرأة دهشته وقالت: «نعم، لدينا هنا مسكن مجاناً، لكن يتوجب علينا إخلاء الحجرة أيام الجلسات. لوظيفة زوجي بعض العيوب». «لأندهش من الحجرة اندهاشاً كبيراً»، قال ك ونظر إليها بغضب، «وإنما أندھش بالأحرى من كونك متزوجة». «هل تشير ربما إلى ما حدث في الجلسة الأخيرة وأزعجت به كلمتك؟» سألت المرأة. «طبعاً»، قال ك. «اليوم مضى الأمر ونسبياً تقريرياً، لكنه آنذاك أثار غضبي حقاً. والآن تقولين بنفسك إنك امرأة متزوجة». «لم يكن قطع كلمتك في غير صالحك. فقد أبدوا بعد ذلك آراء حولك غير مؤاتية أبداً». «ربما»، قال ك وغير الموضوع، «لكن هذا لا يعنرك». «القد عذرني كل من يعرفي»، قالت المرأة، «ذلك الذي عانقني، يلاحقني منذ فترة طويلة. قد لا تكون مغربية بعامة، لكنني مغربية بالنسبة إليه. وما من ثمة حمایة منه، وحتى زوجي تواجه مع الأمر؛ وعليه أن يتحمله إذا ما أراد الحفاظ على وظيفته، إذ أن ذلك الرجل هو طالب، ومن المتوقع أن يصبح ذا نفوذ كبير. وهو يلاحقني دائماً، وقد مضى قبيل مجئك». «هذا يناسب كل شيء

آخر، ولا يفاجئني»، قال ك. «تريد أن تصلح بعض الأمور هنا؟» سألت المرأة ببطء وهي تتفحص، وكأنها تقول شيئاً كان خطيراً بالنسبة إليها وبالنسبة إلى ك. «لقد استخلصت هذا من خطبتك، التي أعجبتني شخصياً كل الإعجاب. لكنني لم أسمع سوى جزء منها، لقد فاتتني البداية، وأثناء النهاية كنت مستلقية مع الطالب على الأرض». «إن الأمور هنا كريهة للغاية»، قالت بعد فترة استراحة وأمسكت بيده، «هل تعتقد أنك ستتحج في تحقيق إصلاح؟» ابتسم ك وأدار يده بعض الشيء في يديها الناعمتين. «في الحقيقة»، قال، «لست معيتاً كي أجري إصلاحات هنا، كما تعبّرين، ولو قلت ذلك إلى قاضي التحقيق مثلاً، فإنه سوف يضحك عليك أو يعاقبك. والحق أنه لم يكن من شأنى بالتأكيد أن أتدخل في هذه الأمور بمحض إرادتي، ولم يكن من شأن حاجة هذه المحكمة للإصلاح لتقتض مضجعي فقط. غير أنني، لكوني قد اعتقلت كما يقال - إذ إنني معتقل - أرغمت على التدخل هنا، وعلى وجه التحديد من أجلي أنا. لكن إذا كان في مقدوري أن أكون ذا فائدة ما للك أيضاً، فإنني سوف أفعل ذلك طبعاً بكل رغبة. ليس مثلاً حباً بالغير فحسب، وإنما، فوق ذلك، لأنه في مقدوري أنت أيضاً أن تساعديني». «وكيف يمكنني ذلك إذَا؟» سألت المرأة. «بأن تريني الآن مثلاً الكتب هناك على الطاولة». «لكن بالتأكيد»، هتفت المرأة وسحبته وراءها بأسرع ما يمكن. وكانت الكتب كتاباً عتقة بالية. وكان غلاف أحدها قد تمزق في الوسط، ولم تعد الأوراق ترتبط مع بعضها بعضاً سوى بالياف. «كم هو وسخ كل شيء هنا»، قال ك وهو يهز رأسه، وقبل أن يتمكن ك من أن يمد يده إلى الكتب، مسحت المرأة ببريلتها التراب عنها بشكل سطحي على الأقل. وفتح ك الكتاب العلوي، فلاحت له صورة خلية يجلس فيها رجل وامرأة عاريين على كتبة، وكان القصد الشائن للرسام يبدو واضحاً، لكن عدم مهارته كانت كبيرة بحيث لم يكن

يُرى أخيراً سوى رجل وامرأة ييرزان من الصورة جسدياً أكثر من اللازم، ويجلسان باعتدال مبالغ فيه، ونتيجة منظور خاطئ لا يلتفتان إلى بعضهما بعضاً سوى بمشرفة. ولم يستمر لك في تصفح الكتاب، وإنما فتح الصفحة الأولى من الكتاب الثاني، الذي كان رواية بعنوان: «المضائقات التي يجب على غرته أن تتحملها من زوجها». هذه هي كتب القانون التي تدرس هنا»، قال لك، «وهو لاء الناس يحكمون عليّ». «سوف أساعدك»، قالت المرأة، «هل تريدين؟». «هل يمكنك ذلك فعلاً دون أن تعرضي نفسك للخطر؟ قلت قبل قليل إن زوجك تابع جداً لرؤسائه». «رغم ذلك أريد أن أساعدك»، قالت المرأة، «تعال، علينا أن نتباخر في الأمر. ولا تحدث بعد الآن عن خطري، إذ أنني لا أخشى الخطر سوى حيث أريد أن أخشاه. تعال». وأشارت إلى المنصة ورجته أن يجلس معها على الدرجة. «لك عينان سوداوان جميلتان»، قالت بعد أن جلسوا ونظرت إلى لك في وجهه، «يقال لي إنه لدى أيضاً عينان جميلتان، لكن عينيك أجمل بكثير. وللمناسبة، لقد لفتا نظري على الفور آنذاك حين دخلت إلى هنا لأول مرة. وبسببهما أيضاً دخلت فيما بعد إلى حجرة الاجتماع، الأمر الذي لا أفعله فقط في ما عدا ذلك، بل إن هذا منوع على إلى حد ما». «هذا هو كل شيء إذًا»، فكر لك، «إنها تعرض نفسها على، وهي فاسدة مثل كل من حولها هنا، وقد سئمت موظفي المحكمة، الأمر المفهوم حقاً، وتستقبل من ثم أي غريب بكلمة ثناء بسبب عينيه»، ونهض لك وهو صامت، كما لو كان قد عبر عن أفكاره بصوت عال، وأوضح للمرأة بهذا تصرفه. «لا أظن أنك تستطيعين مساعدتي»، قال، «لكي يساعدني المرء فعلاً، عليه أن يكون له علاقات مع كبار الموظفين. أما أنت، فلا تعرفين حتماً سوى المستخدمين الصغار، الذين يتسلكون هنا بكثرة. لا شئ أنك تعرفين هؤلاء معرفة جيدة، ومن شأنك تحقيق بعض الأمور لديهم، لا أشك بهذا، لكن أكبر ما يمكن تحقيقه لديهم،

سيكون عديم الأهمية بالنسبة للنتيجة النهائية للمحاكمة. وسيكون من شأنك أن تخسرني بعض الأصدقاء. وهذا ما لا أريده. استمررت في علاقتك كما كانت حتى الآن مع هؤلاء الناس، إذ ييدو لي ألاً غنى لك عن ذلك. وأنا لأقول هذا بدون أسف، إذ أنك، وهذا كي أرد الثناء على نحو ما، أنت أيضاً تعجبيني جيداً، ولاسيما عندما تنظررين إلى بحزن، كما تفعلين الآن، الأمر الذي لا داعي له أبداً. إنك تتمنين إلى المجتمع الذي يجب علي أن أكافحه، غير أنك تشعرين بالراحة فيه. حتى أنك تحبين الطالب، وإذا لم تكوني تحبينه، فإنك على الأقل تفضليه على زوجك. وهذا ما أمكن معرفته بسهولة من كلماتك». «لا»، قالت بصوت عال وظلت جالسة، إلا أنها مدّت يدها نحو يدك، التي لم يسحبها منها بسرعة كافية، «لا يجوز لك الآن أن تصرف، لا يجوز لك أن تصرف مع حكم خاطئ عنّي. هل في مقدورك فعلاً أن تصرف الآن؟ هل أثوّرُ عليك فعلاً لدرجة أنك لا تزيد حتى أن تسدّي لي معرفةً وتمكث هنا هنيهة؟». «إنك تسيئين فهمي»، قال نه وجلس، «إذا كان يهمك فعلاً أن أبقى هنا، فإنني أبقى برغبة، فلدي متسع من الوقت، لقد أتيت إلى هنا متوقعاً أن تعقد اليوم جلسة. وبما قلته قبل ذلك لم أبلغ سوى أن أرجوك ألا تفعلي في قضيتي شيئاً من أجلي. ولكن هذا أيضاً لا يجُب أن يزعجك، إذا ما فكرت أن نتيجة المحاكمة لا تهمني في شيء وأنني سوف أضحك فقط إذا صدر حكم. وهذا على فرض أن يصل الأمر إلى نهاية حقيقة للمحاكمة، الأمر الذي أشك فيه جداً. إنني أظن بالأحرى أن الإجراءات القضائية قد توقفت نتيجة كسل أو سهو ونسيان أو ربما حتى نتيجة خوف الموظفين، أو أنها ستتوقف عمما قريب. لكن من الممكن أيضاً أن تستمر القضية ظاهرياً أملاً بأية رشوة كبيرة، بلا طائل كلياً، كما أستطيع أن أقول منذ اليوم، إذ أنني لا أرسو أحداً. وعلى كل حال سيكون معرفةً تسدّينه لي، إذا أبلغت قاضي التحقيق

أو أي شخص غيره يحب نقل أخبار هامة، بأنه لا يمكن قط حملني على تقديم رشوة بأية حيلة من الحيل المتوفرة بكثرة لدى السادة. سيكون ذلك من الحال كلياً، ويكونك أن تقولي لهم هذا بصرامة. وللمناسبة، ربما يكون الماء قد لاحظ ذلك بنفسه، وإذا لم يكن هذا قد حدث، فإنه لا يهمني كثيراً أن يعلمه الماء الآن. وليس من شأن هذا سوى أن يوفر عملاً على السادة، لكن أيضاً بعض المضايقات علي، والتي - لكن - أتحملها برغبة عندما أعلم أن كلّاً منها هي في الوقت نفسه ضربة بالنسبة إلى الآخرين. وأنا أريد أن أتكلّل بأن يحدث هذا. هل تعرفين قاضي التحقيق أصلاً؟». «طبعاً»، قالت المرأة، «بل إنني فكرت به أول ما فكرت، عندما عرضت عليك مساعدتي. لم أكن أدرى أنه مجرد موظف صغير، لكنك إذ تقول ذلك، فسيكون صحيحاً على الأرجح. ورغم ذلك فإنني أعتقد أن التقرير الذي يرفعه إلى أعلى إنما يملك بعض التأثير على كل حال. وهو كثيراً ما يكتب تقارير. إنك تقول إن الموظفين كساي، بالتأكيد ليسوا جميعاً، لاسيما قاضي التحقيق هذا ليس كسولاً، إنه يكتب كثيراً. في يوم الأحد الماضي مثلاً استمرت الجلسة حتى أوشك المساء. وانصرف جميع الناس، لكن قاضي التحقيق ظل في القاعة، وتوجب علىي أن أحضر له مصباحاً، ولم يكن لدى سوى مصباح صغير للمطبخ، لكنه اكتفى به وبدأ بالكتابة على الفور. وفي هذه الأثناء كان زوجي قد أتى، وكان لديه إجازة يوم الأحد ذاك بالذات، وأحضرنا الأثاث، وفرشنا حجرتنا مرة أخرى، كما وصل جيران بعد ذلك، وتحادثنا على ضوء شمعة، وباختصار نسينا قاضي التحقيق وذهبنا إلى النوم. وفجأة في الليل، لابد أن يكون الأمر في وقت متأخر من الليل، استيقظ، وإلى جانب الفراش يقف قاضي التحقيق، ويحجب المصباح بيده بحيث لا يقع ضوء على زوجي، وكان هذا حذر غير ضروري، إذ أن زوجي ينام نوماً ليس من شأن الضوء أن يوقظه منه. وقد أصبحت بذعر حتى كدت

أصرخ، لكن قاضي التحقيق كان في غاية اللطف، نبهني إلى أن أكون حذرة، وهمس لي قائلاً إنه كتب حتى الآن، وأنه يعيد لي الآن المصباح، وإنه لن ينسى أبداً منظري الذي وجدني فيه نائمة. بهذا كله أردت فقط أن أقول لك إن قاضي التحقيق إنما يكتب كثيراً فعلاً، وخاصة عنك: إذ أن استجوابك كان ولاشك أحد المواضيع الرئيسية في جلسة يوم الأحد. لكن لا يمكن مثل هذه التقارير الطويلة أن تكون عديمة الأهمية كلياً. كما أنه في مقدورك، فوق ذلك، أن ترى من هذه الواقعة أن قاضي التحقيق إنما يخطب وذى، وأنه في مقدوري الآن بالذات في الفترة الأولى، لابد أنه لم يلاحظني أصلاً سوى الآن، أن أمارس نفوذاً كبيراً عليه. كما أنتي أملك الآن دلائل أخرى تدل على أنني عزيزة عليه. ويوم أمس أرسل لي مع الطالب، الذي يوليه ثقة كبيرة والذي هو مساعدك، جوارب حريرية كهدية، زاعماً أنها مكافأة على ترتيبي حجرة الاجتماع، لكن هذا هو مجرد ذريعة، حيث أن هذا العمل هو واجبي، وزوجي يتغاضى أجرأ لقاءه. إنها جوارب جميلة، انظر» - ومددت ساقيها ورفعت ثوباتها حتى الركبتين ونظرت هي إلى الجوارب - «إنها جوارب جميلة غير أنها باللغة النعومة ولا تصلح لي».

وفجأة قاطعت نفسها، ووضعت يدها فوق يدك، وكأنها تريد تهدئتك، وهمسـت: «صـه، بـرـتـولـدـ يـراـقـبـنـاـ!» ورفعـكـ نـظـرـهـ بـيـطـءـ. كانـ شـابـ يقفـ فيـ بـابـ حـجـرـةـ الـاجـتمـاعـ، كانـ قـصـيرـ القـامـةـ، ذـاـ سـاقـينـ غـيرـ مـسـتـقـيمـتـينـ كـلـيـاـ، وـيـحاـوـلـ أـنـ يـضـفـيـ عـلـىـ نـفـسـهـ هـبـيـةـ مـنـ خـلـالـ لـحـيـةـ ضـارـبـ لـلـحـمـرـةـ رـاحـ يـتـحـسـسـهـ بـأـصـابـعـهـ بـاسـتـمـارـ. وـتـطـلـعـكـ إـلـيـهـ بـفـضـولـ، فـقـدـ كـانـ أـوـلـ طـالـبـ مـنـ طـلـابـ عـلـمـ عـلـوـمـ الـحـقـوقـ، الـتـيـ لـاـعـلـمـ لـهـ بـهـاـ، الـذـيـ يـلتـقـيـ بـهـ إـنـسـانـيـاـ إـنـ صـحـ هـذـاـ التـعـبـيرـ، رـجـلـ مـنـ شـائـنـهـ عـلـىـ الـأـرـجـعـ أـنـ يـصـلـ يـوـمـاـ مـاـ أـيـضاـ إـلـىـ وـظـائـفـ عـالـيـةـ. وـعـلـىـ الـعـكـسـ مـنـ ذـلـكـ، لـمـ يـهـتـمـ طـالـبـ عـلـىـ مـاـ يـبـدوـ بـكـ إـطـلاـقاـ،

ولم يفعل شيئاً سوى أن أشار إلى المرأة بِأصبعه أخرجه من لحيته هنيهة، وذهب إلى النافذة. وانحنى المرأة إلى ك وهمست: «لاتغضب مني، أرجوك كل الرجاء، ولا تسيء العطن بي أيضاً، يتوجب عليّ أن أذهب إليه الآن، إلى هذا الإنسان القبيح، انظر فقط إلى ساقيه المقوستين. لكنني سأعود حالاً ثم أذهب معك إذا أخذتني، أذهب حيث شاء، ويمكنك أن تفعل معي ما تريده، وسأكون سعيدة إذا ابتعدت عن هنا أطول مدة ممكنة، بل إلى الأبد». ولاحظت يد ك بيدها، وانتفضت واقفة، وجرت إلى النافذة. وبحركة لإرادية حاول ك أن يلتقط يدها، فلم تصل يده سوى إلى الفراغ. كانت المرأة تغrieve فعلاً، ورغم كل تفكير لم يوجد سبباً قوياً يدعوه إلى عدم الاستجابة للإغراء. وبلا جهد رد اعتراضًا عابراً بأن المرأة إنما تصطاده للمحكمة. بأية طريقة يمكنها أن تصطاده؟ ألم يظل دائماً حراً إلى درجة استطاع معها أن يكشف المحكمة بكلامها على الفور، بقدر ما يتعلق الأمر به على الأقل؟ ألم يستطع أن يشق بنفسه هذه الثقة اليسيرة؟ وعرضها لتقديم مساعدة بدا صادقاً وربما لم يكن عديم القيمة. وربما لم يكن يوجد انتقام من قاضي التحقيق وأتباعه أفضل من أن يحرمهم من هذه المرأة ويأخذها لنفسه. ومن الممكن أن يحدث ذات مرة أن يجد قاضي التحقيق في آخر الليل، بعد عمل مضن في تقاريره الكاذبة عن ك، سرير المرأة خالياً لأنها أصبحت ملكاً لك، لأن هذه المرأة لدى النافذة، هذا الجسد الممتليء اللدن الدافئ المتلقي بالثوب الغامق من قماش خشن ثقيل لا يخص أحداً بائي حال من الأحوال سوى ك.

بعد أن أزال على هذا النحو شكوكه ضد المرأة، بدت له المناجاة الخافتة لدى النافذة طويلة أكثر من اللازم، فطرق بآصبعه على المنصة ثم بقبضته. نظر الطالب نظرة قصيرة إلى ك من فوق كتفي المرأة، غير أنه لم

يدع نفسه يُزعج، بل حتى أنه التصدق بالمرأة أكثر واحتضنها. خفضت رأسها كثيراً، وكأنها تنصت إليه بانتباه، وإذا انحنت، طبع قبلة على عنقها بصوت عال دون أن يقطع حديثه كثيراً. رأى ك في ذلك شهادة على الطغيان الذي يمارسه الطالب على المرأة طبقاً لشکواها، ونهض واقفاً وراح يسير في الحجرة جيئه وذهاباً، وفker وهو ينظر إلى الطالب نظرات جانبية كيف يمكنه إبعاده بأسرع ما يمكن، ولذا لم يكن من غير المناسب بالنسبة إليه عندما علق الطالب، الذي تصايق على ما يبدو من دوران لك الذي كان قد تحول إلى ديدبة أقدام، قائلاً: «يمكنك أن تصرف إذا كنت نافد الصبر. وكان في مقدورك أيضاً أن تصرف من قبل، ولما افتقدك أحد. نعم، حتى أنه كان عليك أن تصرف، بل لدى دخولي، بل بأسرع ما يمكن». من المختل أن تكون كل ثورة غضب قد انفجرت في هذا التعليق، لكنه تضمن على كل حال غطروسة موظف المحكمة المقبل الذي تحدث إلى مدعى عليه غير مرغوب فيه. وظل لك واقفاً قربه تماماً، وقال وهو يتسنم: «إبني نافد الصبر، هذا صحيح، لكن سيكون من الأسهل إزالة نفاد الصبر هذا بأن تغادرنا. أما إذا كنت قد جئت إلى هنا كي تدرس - لقد سمعت أنك طالب -، فإنني أحب أن أفسح لك مكاناً وأنصرف مع المرأة. وللمناسبة، سوف يتبيني عليك أن تدرس كثيراً قبل أن تصبح قاضياً. صحيح أنني مازلت لأعرف قضاءك معرفة دقيقة، غير أنني أظن أن الكلام الغليظ وحده لا يكفي أبداً، لكنك أنت تعرف كيف تؤدي هذا الكلام خيراً أداء، لكن بوضاحه». «ما كان ينبغي أن يترك يتجلو بحرية هكذا»، قال الطالب وكأنه أراد أن يقدم للمرأة إيضاحاً لكلام لك المهين، «كان هذا خطأ. وقد قلت ذلك لقاضي التحقيق. كان ينبغي حجزه في حجرته على الأقل بين جلسات التحقيق. إن قاضي التحقيق غير قابل للفهم أحياناً». «كلام لافعل فيه»، قال ك، ومدد يده نحو المرأة. «تعالي». آه هكذا، قال الطالب، «لا، لا، لن تظفر بها»، وبقوه لم

يُكَنْ أَحَد يَتَوَقَّعُهَا مِنْهُ رُفْعَهَا عَلَى ذَرَاعٍ وَاحِدَةٍ مِنْ ذَرَاعِيهِ، وَجَرِي نَحْوِ الْبَابِ بِظَهَرِ مَقْوِسٍ وَهُوَ يَرْفَعُ نَظَرَهُ إِلَيْهَا بِحَتْنَوْ. وَهُنَا كَانَ ثَمَةُ خَوْفٍ مَا مِنْ كَمْ مَلْحوِظٌ، وَرَغْمَ ذَلِكَ تَجَاسِرُ عَلَى إِثَارَتِهِ، بَأْنَ دَاعِبُ ذَرَاعِ الْمَرْأَةِ يَبْدِي الطَّلِيقَةَ وَاحْتِضَنَهُ. وَجَرِي لَكَ إِلَى جَانِبِهِ بَضَعَ خطُوطَ وَهُوَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِإِمسَاكِهِ، وَخَنْقَهُ إِذَا دَعَتِ الضرُورَةُ، وَهُنَا قَالَتِ الْمَرْأَةُ: «لَا جَدُوْيٍ مِنْ ذَلِكَ.

إِنْ قَاضِي التَّحْقِيقِ يَدْعُو إِلَيْهِ احْضَارِي، وَلَا يَجُوزُ لِي أَنْ أَذْهَبَ مَعَكُ. هَذَا الغُولُ الصَّغِيرُ»، وَهُنَا مَسْحَتَ يَدِهَا وَجْهَ الطَّالِبِ، «هَذَا الغُولُ الصَّغِيرُ لَا يَتَرَكُنِي». «وَأَنْتَ لَا تَرِيدِينَ أَنْ تُخْرُجَنِي»، صَرَخَ لَكَ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى كَفِ الطَّالِبِ، الَّذِي نَهَشَ بِأَسْنَانِهِ نَحْوَهَا. «لَا»، قَالَتِ الْمَرْأَةُ بِصَوْتٍ عَالٍ وَصَدِّتَ كَمْ بِكَلْتَا يَدِهَا، «لَا، لَا لَيْسَ هَذَا، فَيَمْ تَفَكَّرُ إِذَاً مِنْ شَأْنٍ هَذَا أَنْ يَعْنِي هَلَّا كَيْ. لَتَدْعُهُ، أَوْهَ رِجَاءً، لَتَدْعُهُ. إِنَّهُ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا سَوْيَ تَفْيِيدِ أَمْرِ قَاضِي التَّحْقِيقِ وَيَحْمَلُنِي إِلَيْهِ». «فَيَمْكُنُهُ أَنْ يَجْرِي، وَأَنْتَ لَا تَرِيدُ أَنْ أَرَاكَ بَعْدَ الْآن أَبْدًا»، قَالَ لَكَ وَقَدْ اسْتَبَدَّ بِهِ الغَضْبُ مِنْ جَرَاءِ خَيْرَةِ أَمْلَهِ، وَلَكِنَّ الطَّالِبَ فِي ظَهْرِهِ بِحِيثِ تَعْتَرُ هَذَا قَلِيلًا، لَكِنَّهُ، فَرَحَا لِعَدْمِ وَقْوَعِهِ، قَفَرَ بِحَمْلِهِ عَلَى النَّفَرِ إِلَى أَعْلَى أَكْثَرِهِ. وَتَبَعَهُمَا كَبِيطَةٌ، وَأَدْرَكَ أَنْ هَذِهِ كَانَتِ الْهَزِيمَةُ الْأُولَى الْمُؤْكَدَةُ الَّتِي لَحَقَتْ بِهِ مِنْ هُؤُلَاءِ النَّاسِ. وَلَمْ يَكُنْ ثَمَةُ مَدِعَى لِلْخَوْفِ طَبِيعًا، فَهُوَ لَمْ يَلْقَ الْهَزِيمَةَ سَوْيَ لَأْنَهُ بَحْثَ عَنِ الْكَفَاحِ. وَلَوْ أَنَّهُ ظَلَّ فِي الْبَيْتِ وَعَاشَ حِيَاتَهُ الْمَأْلَوَفَةَ، لَكَانَ مُتَفَوِّقًا أَلْفَ مَرَةٍ عَلَى كُلِّ مِنْ هُؤُلَاءِ النَّاسِ، وَلَا سُطْطَاعٌ إِجْلَاءُ كُلِّ مِنْهُمْ عَنْ طَرِيقِهِ بِرِفْسَةٍ وَاحِدَةٍ. وَتَصُورُ الشَّهِيدِ الْأَكْثَرُ مَدِعَةً لِلسُّخْرِيَّةِ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَنْشَأَ مِثْلًا إِذَا مَا قَامَ هَذَا الطَّالِبُ الَّذِي يَرِثُ لَهُ، هَذَا الْصَّفْلُ الْمُتَغَطِّرُ، هَذَا الْمَلْتَحِي الْمَحْدُودُ، بِالْجِئْرَأَةِ فَرَاشَ إِلَزَا وَطَلَبَ الْعَفْوَ وَقَدْ شَبَكَ رَاحِتِيَّهُ مُتَوْسِلًا. وَأَعْجَبَ هَذَا التَّصْوِيرُ لَكَ، بِحِيثِ أَنَّهُ قَرَرَ، إِذَا مَا سَنَحَتْ أَيْةٌ فَرَصَةٌ مِنْهَا كَانَتْ، أَنْ يَأْخُذَ الطَّالِبَ مَعَهُ ذَاتَ مَرَةٍ إِلَى إِلَزَا.

فَضْوِلاً أَسْرَعَكَ إِلَى الْبَابِ، فَقَدْ رَغَبَ فِي أَنْ يُرَى إِلَى أَينْ حُمِّلتِ
المرأة، فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ الطَّالِبِ طَبِيعًا أَنْ يَحْمِلُهَا فَوقَ ذِرَاعِهِ عَبْرِ الشَّوَارِعِ
مَثَلًاً. وَتَبَيَّنَ أَنَّ الطَّرِيقَ كَانَ أَقْصَرَ بِكَثِيرٍ. فَفِي مُواجِهَةِ بَابِ الْمَسْكِنِ مُباشِرَةً
كَانَ ثَمَةَ درَجَ خَشِيشِ ضِيقٍ يُؤْدِي عَلَى الْأَرْجَعِ إِلَى الْعُلَيَّةِ^(*)، وَقَدْ اتَّحَدَ
بِحِيثُ لَمْ يَرِيَ الْمَرْءَ نَهَايَتِهِ. فَوْقَ هَذَا حَمَلَ الطَّالِبُ الْمَرْأَةَ صَاعِدًا بِيَطْرَهُ شَدِيدًا
وَهُوَ يَتَأَوَّهُ، إِذَا كَانَ الْجَرِيَّ حَتَّى الْآنِ قَدْ أَوْهَنَهُ . وَحَيْثَ الْمَرْأَةَ يَدِهَا نَحْوُكَ
فِي الْأَسْفَلِ وَحَاوَلَتْ، بِرْفَعٍ وَخَفْضٍ كَتْفِيهَا، أَنْ تُظَهِّرَ أَلَا ذَنْبَ لَهَا فِي
الْأَخْتِطَافِ، لَكِنَّ هَذِهِ الْحَرْكَةَ لَمْ تَكُنْ تَنَمَّ عَنْ أَسْفٍ كَبِيرٍ. وَنَظَرَ إِلَيْهَا كَ
بُوْجَهِ غَيْرِ مُعْتَرٍ وَكَانَهَا غَرِيبَةً، لَمْ يَشَأْ لَا أَنْ يَوْحِيَ بِأَنَّهُ أَصَيبَ بِخَيْرَ أَمْلٍ وَلَا
بِأَنَّهُ يَسْتَطِعُ التَّغلِبَ عَلَى خَيْرَ أَمْلٍ بِسَهْلَةٍ.

كَانَ الإِثْنَانِ قَدْ تَوَارَيَا، لَكِنَّكَ كَانَ لَا يَرِى إِلَالَ يَقْفَ بِالْبَابِ . وَأَصْبَحَ عَلَيْهِ
أَنْ يَفْتَرُضَ أَنَّ الْمَرْأَةَ لَمْ تَخْدُعَهُ فَحَسْبَ، بَلْ إِنَّهَا كَذَبَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا بِزَعْمِهَا
أَنَّهَا إِنَّمَا تُحْمِلُ إِلَى قَاضِيِ التَّحْقِيقِ. فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ قَاضِيِ التَّحْقِيقِ أَبْدًا أَنْ
يَجْلِسَ فِي الْعُلَيَّةِ وَيَتَظَارِفَ . وَلَمْ يَكُنْ الدَّرَجُ الْخَشِيشِ يَفْصُحَ عَنْ شَيْءٍ، مَهْمَا
أَطَالَ الْمَرْءُ النَّظَرَ إِلَيْهِ . وَلَا حَظَكَ قَصَاصَةُ وَرَقٍ صَغِيرَةٍ إِلَى جَانِبِ الْمَدْخَلِ،
فَذَهَبَ إِلَيْهَا وَقَرَأَ فِي كِتَابَةِ أَطْفَالِ رِكِيْكَةَ: «مَدْخَلٌ إِلَى مَكَاتِبِ الْحَكْمَةِ».
هُنَا فِي عُلَيَّةِ بَنَاءِ الإِيْجَارِ هَذَا كَانَتْ إِذَا مَكَاتِبُ الْحَكْمَةِ؟ لَمْ يَكُنْ هَذَا مَرْفَقًا
يُمْكِنُهُ أَنْ يَوْحِيَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْاحْتِرَامِ، وَكَانَ مَا يَهْدِيَ مِنْ رُوْعَ المَدْعَى عَلَيْهِ أَنْ
يَتَصَوَّرَ كَمْ كَانَتِ الْمَوَارِدُ الْمَالِيَّةُ الْمُوْضِوَّةُ تَحْتَ تَصْرِيفِ هَذِهِ الْحَكْمَةِ قَلِيلَةً،
إِذَا كَانَتْ تَضَعُ مَكَاتِبَهَا حَيْثُ يَلْقَى الْمُسْتَأْجِرُونَ، الَّذِينَ هُمْ أَنْفُسُهُمْ مِنْ
أَكْثَرِ النَّاسِ فَقَرَأُ، كَرَاكِيْبَهُمْ عَدِيمَةُ الْفَائِدَةِ . غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُسْتَبِدِ

(*) مَكَانٌ يَقْعُدُ بَيْنِ السَّطْحَيْنِ الْمَسْتَوِيِّيْنِ وَالْمَالِئِيِّنِ لِلْبَنَاءِ، يَسْتَخْدِمُ كِمْخَرْنَ صَغِيرٍ وَلَيْسَ لِلْمَسْكِنِ (ا.و.).

وجود قدر كاف من المال، لكن الموظفين انقضوا عليه قبل أن يستخدم لأغراض المحكمة. بل إن هذا كان، طبقاً لتجارب ك حتى الآن، مرجحاً جداً، إلا أن مثل هذا الانحطاط للمحكمة كان، في الحقيقة، مهيناً بالنسبة إلى المدعى عليه، لكنه كان أكثر تهديئة لروعه مما يمكن لفقر المحكمة أن يكون. كما أصبح مفهوماً بالنسبة إلى ك أن المرء، لدى الاستجواب الأول، قد خجل من أن يدعو المدعى عليه إلى حجرات الكراكيب، وفضل مضايقته في مسكنه. في أي مركر كان ك يتواجد فيه إزاء القاضي الذي كان يجلس في حجرة الكراكيب على السطح، في حين كان لديه نفسه حجرة كبيرة في المصرف، تبعها حجرة أمامية، ومن حجرته يستطيع عبر زجاج نافذة كبير أن يشاهد ميدان المدينة الذي تدب فيه حرفة دائمة. لكنه لم يكن يملك إيرادات إضافية من رشاوى أو احتلالات، كما أنه لم يكن في ميسوره أن يدع امرأة تحمل إليه في المكتب من قبل خادم. لكن ك كان يريد أن يستغني عن ذلك، في هذه الحياة على الأقل.

وكان ك لايزال واقفاً أمام القصاصة الملصقة، عندما صعد رجل الدرج، ونظر عبر الباب المفتوح إلى داخل حجرة الجلوس، والتي كان يمكن النظر منها إلى داخل حجرة الاجتماع أيضاً، وسأل ك أخيراً، فيما إذا لم يكن قد رأى هنا قبل قليل إمرأة. «أنت حاجب المحكمة، أليس كذلك؟» سأل ك. «نعم»، قال الرجل، «أوه هكذا، أنت المدعى عليه ك، الآن أتعرف عليك أيضاً، أهلاً وسهلاً بك». ومد يده إلى ك، الذي لم يكن يتوقع ذلك قط. وإذا صمت ك، قال حاجب المحكمة من ثم: «لكن من غير المعلن عنه أن تعقد اليوم جلسة». «أدربي»، قال ك وتأمل الرداء المدني الذي يرتديه حاجب المحكمة، والذي كان يحمل، إلى جانب بعض الأزرار العادية، زرعين مذهبين كشارة رسمية وحيدة بديا أنهما قد اقطعا من معطف ضابط

عنيق. «قبل هنีهة تحدثت مع زوجتك. وهي لم تعد هنا. لقد حملها الطالب إلى قاضي التحقيق». «انظر»، قال حاجب المحكمة، «دائماً تؤخذ مني وتحمل بعيداً. اليوم هو يوم أحد، ولست ملزماً بعمل، لكن فقط من أجل إبعادي من هنا، يرسلني المرء لنقل خبر غير ذي نفع بأي حال. بل ولا يرسلني المرء بعيداً جداً، بحيث أتنى أمل بأن أعود، إذا ما أسرعت جداً، ربما في الوقت المناسب. أروح أعدو إذاً بأقصى ما أستطيع، أقفي إلى الدائرة التي أرسلت إليها خبري صارخاً عبر فتحة الباب، وأنا ألهث، بحيث لن يكون المرء قد فهمه أو كاد، ثم أعود عدواً، غير أن الطالب يكون قد أسرع أكثر مني، لكن كان لديه طريق أقصر أيضاً، إذ لم يكن عليه سوى أن يهبط درج العلية. ولو كنت مستقلأً، لسحقت الطالب هنا على الجدار منذ فترة طويلة، هنا إلى جانب القصاصنة الملاصقة. بهذا أحلم دائماً. هنا فوق الأرضية قليلاً ملصق بإحكام، الذراعان ممدودان، الأصابع منفرجة، الساقان المقوستان متتوبيتان على شكل دائرة، ومن حوله تناثرت بقع دماء. لكن حتى الآن لم يكن الأمر سوى حلم». «الآن يوجد خلاص آخر؟» سأل لك وهو يتتسّم. «لأعرف خلاصاً»، قال حاجب المحكمة. «والآن يسوء الأمر أكثر، فحتى الآن لم يكن يحملها سوى إلى نفسه، أما الآن فإنه - لكن الأمر الذي كنت أتوقعه منذ فترة طويلة - يحملها إلى قاضي التحقيق أيضاً». «أليس لزوجتك ذنب في هذا؟» سأله لك، وكان لا بد له لدى هذا السؤال من كبح جماح نفسه، فقد أحس هو أيضاً الآن بغيرة شديدة. «لكن بالتأكيد»، قال حاجب المحكمة، «بل إنها تحمل الذنب الأكبر. فقد تعلقت به. وفيما يخصّه، فإنه يجري وراء كل النساء. في هذا المبني وحده أخرج من خمسة مساكن كان قد تسلل إليها. لكن زوجتي هي الأجمل في المبني بكامله، وبالذات أنا لا يجوز لي أن أدفع عن نفسي». «إذا كان الأمر كذلك، فما

من خلاص»، قال ك. «ولم لا؟»، سأل حاجب المحكمة، يجب على المرء، إذا ما أراد الطالب، الذي هو جبان، أن يمس زوجتي مرة، أن يوسعه ضرباً إلى درجة لا يعود معها يجرؤ على ذلك مرة أخرى. لكن لا يسمح لي أن أفعل ذلك، والآخرون لا يسدون لي هذا المعروف، إذ أن الجميع يخشون سلطته. وليس من شأن أحد أن يستطيع فعل ذلك سوى رجل مثلك». «لماذا أنا إذا؟» سأله مدعى عليك، قال حاجب المحكمة، «نعم»، قال ك، «لكن لا بد لي أن أخشي أكثر أن يكون له نفوذ، ربما ليس على نتيجة المحاكمة، لكن على التحقيق التمهيدي، كما هو مرجح». «نعم، بالتأكيد»، قال حاجب المحكمة، وكان رأي ك كان صحيحاً تماماً مثل صحة رأيه هو. «لكن لا تجري لدينا، في العادة، محاكمات لا أمل فيها». «لست من رأيك»، قال ك، «لكن ليس على هذا أن يعني من معالجة الطالب بين وقت وآخر». «سأكون شاكراً جداً لك»، قال حاجب المحكمة بلهجة رسمية تقريباً، وقد بدا في الواقع أنه لا يصدق إمكانية تحقق أقصى أمانية. وتابع ك قائلاً: «ربما من شأن موظفين آخرين بل ربما من شأنهم جميعاً أن يستحقوا الشيء نفسه». «نعم، نعم»، قال حاجب المحكمة وكأن الأمر بديهي. ثم نظر إلى ك نظرة أليفة، كما لم يكن، رغم كل مجاملة، قد فعل حتى الآن، وأضاف: «إن المرء يتمرد دائماً». لكن الحديث بدا له وقد أصبح غير مريح بعض الشيء، فقطعه بأن قال: «ينبغي على الآن أن أذهب إلى مكتب المحكمة. هل تريد أن تأتي معي؟». «ليس لدى هناك ما أفعله»، قال ك. «يمكنك أن تشاهد المكاتب. ولن يهتم أحد بذلك». «هل يستحق الأمر المشاهدة؟» سأله ك بتردد، لكنه كان يرحب بشدة أن يذهب معه. «ظننت أن الأمر يهمك»، قال حاجب المحكمة. «حسناً»، قال ك أخيراً، «سأذهب معك»، وصعد الدرج مسرعاً أكثر من حاجب المحكمة.

وكاد يقع لدى دخوله، إذ كان وراء الباب ثمة درجة أخرى. «إن الجمهور لا يراعي كثيراً»، قال، «لا يراعي أحد إطلاقاً»، قال حاجب المحكمة، «انظر فقط هنا غرفة الانتظار». كانت ممراً طويلاً ذا أبواب منجرة بشكل خام تؤدي إلى الأقسام المفردة في العلية. ورغم عدم وجود فتحة ضوء مباشرة، فإن الظلمة لم تكن تعم بشكل كامل، إذ كان لبعض الأقسام من ناحية المرء، بدلاً من جدران خشبية، مجرد قضبان خشبية لكنها تصل إلى السقف، ويدخل منها بعض الضوء، كما كان يمكن من خلالها رؤية بعض الموظفين، الذين كانوا يكتبون على طاولات أو يقفون إلى جانب القضبان مباشرة ويراقبون الناس في المرء من خلالها. ولم يكن في المرء سوى قليل من الناس، على الأرجح لأن اليوم كان يوم أحد. وكانوا يعطون انتظاماً متواضعاً للغاية. وعلى مسافات منتظمة من بعضهم بعضاً كانوا يجلسون على صفين من المقاعد الخشبية الطويلة التي كانت قد وضعت على جانبي المرء. وكانوا جميعهم يرتدون ملابسهم بإهمال، وذلك رغم أن معظمهم، حسب تعبير الوجه، والوقفة، وشكل اللحية، وكثير من التفاصيل الصغيرة التي لا يكاد يمكن إثباتها، إنما يتمتنون إلى الطبقات العليا. ولعدم وجود مشاجب وضعوا قبعاتهم تحت المقعد، وقد اتبّع كل منهم مثال الآخر على الأرجح. وعندما لمح أولئك الذين يجلسون قرب الباب لك وحاجب المحكمة، نهضوا تحيةً لهم؛ وإذا رأى الآخرون ذلك، ظنوا هم أيضاً أنه ينبغي عليهم أن يحيّو، وهكذا نهضوا جميعهم أثناء مرور الإثنين. ولم يقفوا متتصبين بشكل كامل أبداً، كان الظهور منحنياً وكانت الركبة مثنية، كانوا يقفون مثل شحاذين. وانتظر لك حاجب المحكمة الذي كان يسير خلفه قليلاً، وقال: «كم لابد أن يكونوا قد أذلوا». «نعم»، قال حاجب المحكمة، «إنهم مدّعى عليهم، كل من تراهم هنا هم مدّعى عليهم». «حقاً؟» قال لك. «فهم زملائي إذا». وابتسم إلى أقربهم، وكان رجلاً طويلاً أهيف القامة ذا

شعر أشيب تقريباً. «ماذا تنتظر هنا؟» سأله بطفف. لكن المخاطبة غير المتوقعة أصابت الرجل بالارتباك، الأمر الذي بدا أكثر إحراجاً لأنه كان على ما يبدو إنساناً ذا خبرة بالحياة لاريب أنه في غير هذا المكان يعرف كيف يتمالك نفسه، ولم يتخلّ بسهولة عن التفوق الذي كان قد اكتسبه على كثيرين. لكنه هنا لم يعرف كيف يجيب على هذا السؤال البسيط هكذا، وتطلع إلى الآخرين وكأنهم ملزمون بمساعدته وكأن لا أحد يستطيع أن يطلب منه جواباً إذا لم تأت هذه المساعدة. هنا تقدم حاجب المحكمة وقال كي يهدئ الرجل ويشجعه: «السيد هنا يسأل فقط عما تنتظروه. إلا فلتُجيب». وكان لصوت حاجب المحكمة، هذا الصوت الذي يعرفه على الأرجح، مفعول أفضل: «أنتظر...» بدأ قائلاً وتلعم. كان قد اختار هذه البداية على ما يبدو كي يجib على السؤال بدقة تامة، غير أنه لم يعثر الآن على البقية. وكان بعض المتضررين قد اقتربوا وأحاطوا بالجموعة، قال لهم حاجب المحكمة: «ابعدوا، ابعدوا، افسحوا الممر». وتراجعوا قليلاً، غير أنهم لم يصلوا إلى مقاعدهم السابقة. وفي هذه الأثناء كان الرجل الذي سُئل قد جمع أفكاره وأجاب حتى بابتسامة صغيرة: «لقد قدمت قبل شهر بعض طلبات الأدلة في قضيتي وأنظر الإنماز». يبدو أنك تبذل جهداً كبيراً، قال ك، «نعم»، قال الرجل، «إنها لقضائي». «لايفكر كل فرد مثلك»، قال ك، «أنا مثلاً مدعى عليه أيضاً، لكنني، بحق ما آمل بالهنا، لم أتقدم بطلب إثبات ولم أقم بأي شيء من هذا القبيل. هل تعتبر هذا ضروري؟». «لأعرف بالدقة»، قال الرجل وقد عاوده اضطراب كامل؛ لقد ظن على ما يبدو أن ك إنما يزاح معه، لذا كان يوَد على الأرجح أكثر ما يوَد، خوفاً من أن يقترب أي خطأ جديد، أن يردد جوابه السابق بأكمله، لكنه أمام نظرة ك التي تتم عن نفاد صبر اكتفى بالقول: «فيما يخصني تقدمت بطلبات إثبات». «لاشك أنك لاتصدق أنني شخص مدعى عليه»، سأله ك، «أوه عفواً

ـ بالتأكيد»، قال الرجل، وتنحى جانبًا بعض الشيء، لكن في الجواب لم يكن ثمة تصديق، وإنما مجرد خوف. «إنك لاتصدقني إذا؟ سألك، وبعدوة على نحو لاشعوري من قبل طبيعة الرجل الذليلة أمسك بذراعه، وكأنه يريد أن يرغمه على التصديق. لكنه لم يكن يغيّر إيمانه، كما أنه لم يسته سوى مسّ خفيف جداً، غير أن الرجل، رغم ذلك، صرخ وكأنه لم يمسكه بإصبعين، وإنما بكماشة حامية. هذا الصراخ المضحك أثار الضجر في نفسه بصورة نهائية؛ إذا كان المرء لا يصدق أنه مدّعى عليه، فإن هذا يكون أفضل؛ بل ربما كان الرجل يعتبره قاضياً. وللوداع أمسكه لك بقوّة فعلاً، ودفعه إلى المقعد، وتابع سيره. «إن معظم المدعى عليهم حساسون هكذا»، قال حاجب المحكمة. وخلفهما تجتمع الآن جميع المتظرين تقريراً حول الرجل الذي كان قد كفّ عن الصراخ، وبدوا أنّهم يستفهمون منه عن الحادث بدقة. وأقبل الآن على كحارس عُرف خاصةً من سيفه الذي كان غمده، حسب اللون على الأقل، من الألومنيوم. ودهش كمن ذلك، حتى أنه مدّ يده إليه. وسأل الحراس، الذي كان قد جاء بسبب الصراخ، عما حدث. وحاول حاجب المحكمة أن يهدئه ببعض الكلمات، لكن الحراس أوضح أن عليه أن يفحص بنفسه، ثم أدى تحية عسكرية وذهب وهو يسير بخطوات سريعة جداً لكنها قصيرة جداً، ناتجة على الأرجح عن التهاب في المفاصل.

ولم يهتم كـ به وبالجماعة في المر طويلاً، وخاصة أنه رأى في متصرف المر تقريراً إمكانية تتيح له الانعطاف مبيناً عبر فتحة لباب لها. وتفاهم مع حاجب المحكمة بما إذا كان هذا هو الطريق الصحيح، أو ما حاجب المحكمة بالإيجاب، فانعطف كـ هناك فعلاً. وضايقه أن يكون عليه دائماً أن يسير خطوة أو خطوتين أمام حاجب المحكمة، فقد كان يمكن للأمر

أن يedo في هذا المكان على الأقل وكأنه يساق معتقلًا. فراح يتضرر حاجب المحكمة، لكن هذا كان يتوقف على الفور حيث هو. وأخيراً قال لك لكي ينهي ازعاجه: «ها أنا قد رأيت كيف يedo الحال هنا، والآن أريد أن أنصرف». «لم تر كل شيء بعد»، قال حاجب المحكمة ببراءة تامة. «لأنني أرى كل شيء»، قال لك، الذي شعر فعلاً بالتعب، «أريد أن أنصرف، كيف يصل المرء إلى المخرج؟». «عسى ألا تكون قد ضللت طريقك»، سأل حاجب المحكمة مندهشاً، «اذهب حتى الزاوية ثم يمياً على طول الممر باستقامة إلى الباب». «تعال معى»، قال لك، «دلني على الطريق، سوف أضل سبلي، هنا ثمة طرق كثيرة». «إنه الطريق الوحيد»، قال حاجب المحكمة، بلهجة عتاب الآن، «لأنه لا أستطيع أن أعود معك مرة أخرى، بل يجب علي أن أقدم بلاخي، وقد أضعت وقتاً كثيراً بسببك». «تعال معى»، كرر لك قائلاً الآن ببررة أكثر شدة، وكأنه ضبط حاجب المحكمة متلبساً بأمر غير صحيح. «ألا فلا تصرخ هكذا»، همس حاجب المحكمة، «هنا في كل مكان ثمة مكاتب. إذا لم تشاُ أن تعود وحدك، فاذهب معى قليلاً أو انتظر هنا حتى أنجز بلاخي، وبعد ذلك أريد برغبة أن أعود معك مرة أخرى». «لا، لا»، قال لك، «لن أنتظر، ويتجوّب عليك الآن أن تذهب معى». ولم يكن لك قد تفحّص المكان الذي كان يتواجد فيه، وفقط حين فتح الآن أحد الأبواب الخشبية الكثيرة المحاطة نظر إليه. وأتت فتاة لابد أن حدث لك بصوت عال كان قد استدعاهما، وسألت: «ماذا يطلب السيد؟» ووراءها في البعد رؤى في الظلمة الوانية رجل يقترب. وتطلع لك إلى حاجب المحكمة. كان هذا قد قال إن ما من أحد سيهتم به لك، أما الآن فقد جاء اثنان، ولا يحتاج الأمر سوى إلى القليل حتى يلفت نظر الموظفين جميعهم، ومن شأنهم أن يطلبوا تفسيراً لوجوده. وكان التفسير الوحد المفهوم والمقبول هو أنه كان مدّعى

عليه وأراد أن يعلم موعد التحقيق التالي. لكن هذا التفسير بالذات لم يكن يريد أن يقدمه، وخاصةً أن هذا التفسير لم يكن مطابقاً للحقيقة أيضاً، إذ أنَّ كَلَمَ يُكَنْ قد حضر سُوِّي حِباً بالاستطلاع أو، الأمر الذي كان أكثر مُحالاً لِتَفْسِيرِهِ، رغبةً منه بالتشتت من أنَّ باطن هذه المحكمة إنما هو مُقرف مثل ما هو ظاهرها. ولقد بدا أنه كان على صواب في هذا القول، ولم ير غُبَّ في أن يتبع الدخول، فقد ضاق صدره كفايةً مما كان قد شاهده حتى الآن، وفي الوقت الحالي بالذات لم يكن في حالة تسمح له بِمُواجهة موظف كبير يمكنه أن يظهر من وراء كل باب، كان يريد أن ينصرف، وذلك مع حاجب المحكمة أو بمفرده إذا اقتضى الأمر.

لكنَّ كان لا بدَّ لوقفه الصامت أن يكون ملتفتاً للنظر، فعلاً كانت الفتاة وكان حاجب المحكمة ينظران إليه على نحو كأنَّ تحولاً كبيراً ما لا بدَّ أن يحدث معه في الدقيقة التالية، ولم يكونا يريدان أن تفوتهما مشاهدته. وفي فتحة الباب وقف الرجل الذي كان كَلَمَ قد لاحظه قبل ذلك على بُعد، كان يمسك بدعامة الباب المتخفض ويتمايل قليلاً على أطراف قدميه مثل متفرج نجد صبره. لكن الفتاة أدركت أول من أدرك أن تصرف كَلَمَ إنما كان يُعزى إلى وعكة خفيفة، فأحضرت كرسيها وسألت: «الا تُريد أن تجلس؟». وجلس كَلَمَ على الفور وأسند مرفقيه على المستدين كي يجد سندًا أفضل. «لديك دوار بعض الشيء، أليس كذلك؟» سألته. كان وجهها الآن قُوبه تماماً، وكان يرتسم عليه التعبير الصارم الذي تملكه بعض النساء بالذات في أجمل مراحل الصبا. «لاتفكِّر في الأمر»، قالت، «ليس هذا شيئاً غير مألف هنا، كل فرد تقريباً يصاب بهذه النوبة عندما يأتي إلى هنا لأول مرة. هل أنت هنا للمرة الأولى؟ والآن حقاً، هذا إذاً ليس شيئاً غير مألف. الشمس حازمة هنا على سقالة السقف، والخشب الساخن يجعل الهواء رطباً وثقيلاً.

لذا فإن المكان ليس صالحًا جدًا لمكاتب، مهما كانت المحسن الكبيرة الأخرى التي يقدمها. أما فيما يتعلق بالهواء، فهو يكون هكذا أيام زحام أصحاب الدعاوى، وهذا كل يوم تقريبًا، لا يعود بالكاد قابلاً للتنفس. وإذا أخذت أيضًا بعين الاعتبار أن الغسيل كثيراً ما يتشر هنا - لا يمكن منع المستأجرين عن ذلك منعاً كاملاً -، فلن تعجب بعد ذلك إذا ما غثت نفسك قليلاً. غير أن المرء يعتاد أخيراً على الهواء خير اعتياد. وعندما تأتي إلى هنا للمرة الثانية أو الثالثة، فلن تعود بالكاد تحس الوطأة هنا. هل تشعر الآن بتحسن؟». ولم يجب لك، كان مما يحرجه غاية الإحراج أن يكون تحت رحمة الناس هنا نتيجة هذا الوهن المفاجئ، وللمناسبة، لم تتحسن حالي، إذ عرف الآن أسباب غثائه، بل ساءت قليلاً. ولاحظت الفتاة الأمر حالاً وتناولت، كي تتيح إنعاشك، عصا معقوفة كانت تستند إلى الجدار، وفتحت بها كوة صغيرة كانت فوقك تماماً وتؤدي إلى الخارج. غير أن هبابةً كثيراً سقط بحيث أن الفتاة اضطررت على الفور إلى أن تعيد إغلاق الكوة وتنظرف بمنديلها يديك من الهباب، إذ أنك كان أكثر تعباً من أن يفعل ذلك بنفسه. وكان من شأنه أن يظل جالساً هنا بهدوء حتى يقوى بشكل كاف على الانصراف، لكن هذا كان لابد أن يحدث بسرعة أكبر كلما قلل اهتمام المرء بك. غير أن الفتاة قالت الآن فوق ذلك: «هنا لا يمكنك البقاء، هنا نعيق مجرى الحركة» - وسألت لك بنظراته عن أجرى الذي يعيقه هنا إذا - «سوف أقودك، إذا أردت، إلى حجرة المرضى».

«ساعدني رجاءً»، قالت للرجل الذي يقف بالباب، فاقترب في الحال. لكنك لم يكن يرغب في الذهاب إلى حجرة المرضى، بل إن ما أراد تجنبه هو هذا بالذات، أن يدخل به أكثر، وكلما دخل أكثر كان لابد أن يزداد الحال سوءاً. لذا قال: «أستطيع أن أمشي»، ونهض وهو يرتجف، بعد أن كان الجلوس المريح قد عوّده على الراحة. غير أنه لم يتمكن من الوقوف.

«لأستطيع فعلاً»، قال وهو يهز رأسه وعاد إلى الجلوس وهو يتنهد. وتذكّر حاجب المحكمة الذي كان من شأنه أن يستطع رغم كل شيء إخراجه بسهولة، لكن هذا بدا أنه قد انصرف منذ فترة طويلة، وتطلع ك من بين الفتاة والرجل اللذين كانوا يقفان أمامه، لكنه لم يستطع أن يجد حاجب المحكمة.

«أظن»، قال الرجل الذي كان، على فكرة، يرتدي ملابس أنيقة، ويلفت النظر خاصة بصدرية اللون تنتهي بطرفين طويلين مدربين، «إن وعكة السيد ترجع إلى الجو هنا، لذا سيكون من الأفضل ومن الأحتب إليه أيضاً لا نأخذه إلى حجرة المرضى إطلاقاً، بل أن نخرجه من المكتب كلها». «هو ذاك»، نادى ك وقطع تقريباً كلام الرجل من شدة فرحة، «يقيناً سوف تحسن حالتي على الفور، كما أتني لست واهناً هكذا أبداً، إنني لا أحتاج سوى إلى قليل من المسند تحت إبطي، ولن أسبّب لك جهداً كبيراً، ثم إن الطريق ليس طويلاً، خذني حتى الباب، وأجلس قليلاً على الدرج، وسوف أسترّد قوائي بعد قليل، إذ أتني لا أعاني من مثل هذه التوبات إطلاقاً، إن الأمر يفاجئني نفسياً. أنا أيضاً موظف، وقد اعتدت على هواء المكتب، لكن هنا ييدو الأمر في غاية السوء، كما تقول بنفسك. هل تتكرم إذاً بأن تقدوني قليلاً، إذ أتني أشعر بدوار، وسوف أصاب بغثيان إذا ما نهضت وحدي». ورفع كتفيه كي يسهل على الإثنين مساعدته.

لكن الرجل لم يلبّ الطلب، بل أبقى يديه بهدوء في جيبي سرواله وضحك بصوت عال. «انظري»، قال للفتاة، «لقد أصبت الصواب. ليس السيد متوعكاً سوى هنا، وليس بصفة عامة». وابتسمت الفتاة أيضاً، لكنها نقرت بأناملها نقرة خفيفة على ذراع الرجل، وكأنه مازح كمزاحاً شديداً. «لكن ماذا تفكرين إذاً»، قال الرجل وهو لايزال يضحك، «حقاً إنني أريد أن

أقود السيد إلى الخارج». «هذا حسن»، قالت الفتاة وهي تميل رأسها الصغير الجميل لحظة. «لاتعلق على الضحك أهمية أكثر مما ينبغي»، قالت الفتاة له، الذي راح يحملق أمامه وقد عاوده الوجوم وبدأ أنه لا يحتاج إلى تفسير، «هذا السيد - يجوز لي أن أقدّمك؟» (أعطى السيد الإذن بحركة من يده) - «هذا السيد هو إذاً مقدم المعلومات. إنه يعطي الأطراف المنظرة كل المعلومات التي تحتاجها، وحيث أن محكمتنا ليست معروفة جداً لدى السكان، فإنه يجري طلب معلومات كثيرة. إنه يعرف جواباً على كل سؤال، ويمكنك اختباره في ذلك، إذا كان لديك رغبة. لكن ليست هذه ميزة الوحيدة، إن ميزة الثانية هي الملابس الأنثقة. ونحن، هنا يعني الموظفين، رأينا مرة أنه يجب إلباس مقدم المعلومات، الذي يتحدث مع الأطراف دائمًا وكأول شخص، ملابس أنثقة أيضاً، كي يعطي انطباعاً أول مناسباً. نحن الآخرين، كما يمكنك أن ترى في الحال على، نرتدي مع الأسف ملابس رديئة جداً ومن الطراز العتيق؛ كما أنه لافتة ترجى من إنفاق شيء على الملابس، لأننا نظل في المكاتب بلا انقطاع تقريباً، فنحن هنا أيضاً. أما بالنسبة إلى مقدم المعلومات فقد اعتبرنا ذات مرة، كما قلت، أن الملابس الجميلة ضرورية. لكن إذ لا يمكن الحصول عليها من إدارتنا، التي تتصف بالغرابة بعض الشيء في هذا الصدد، فقد جمعنا تبرعات - ساهمت فيها الأطراف أيضاً - وابتعدنا له هذا الرداء الجميل وأردية أخرى. ومن شأن كل شيء أن يكون الآن جاهزاً لإعطاء انطباع جيد، لكنه بضمكته يفسد الأمر ثانيةً ويفرغ الناس». «هكذا هو الحال»، قال السيد ساحراً، «غير أنني لا أفهم، أيتها الآنسة، لماذا تروين للسيد كل خصوصياتنا، أو بالأحرى تتطفلين بها عليه، إذ أنه لا يريد أن يعلمها إطلاقاً. انظري فحسب، كيف يجلس وقد بدا عليه الانشغال بأموره الخاصة به». ولم يكن لدى ك حتى مجرد رغبة بالاعتراض، قد تكون نية الفتاة طيبة،

وربما كانت ترمي إلى التسربية عنه أو تقديم إمكانية له لجمع شتات أفكاره، لكن الوسيلة كانت خاطئة. «كان علي أن أفسر له ضحكتك»، قالت الفتاة. «كان الأمر مهيناً». «أظن أن من شأنه أن يصفح عن إهانات أسوأ إذا أخرجته في آخر الأمر». ولم يقل ك شيئاً، بل لم يرفع نظره، واحتمل أن يتحدث الإثنان عنه كما يتحدثان عن شيء، بل كان ذلك هو الأحب إليه. لكنه أحس فجأة يد مقدم المعلومات على ذراعه ويد الفتاة على ذراعه الأخرى. «هيا إذاً، أيها الرجل الضعيف»، قال مقدم المعلومات. «أشكركما جزيل الشكر»، قال لك وقد سرت المفاجأة، ونهض بيضاء، وأخذ بنفسه اليدين الغربيتين إلى الموضعين اللذين كان يحتاج فيما إلى سند أكثر ما يحتاج. «يدو الأمر»، قالت الفتاة بصوت منخفض في أذن لك، وهو يقتربون من المرء، «وكأنني كنت حريرة كثيراً بشكل خاص على وضع مقدم المعلومات في ضوء جيد، لكن ليت المرء يصدقني، إنني لأبغى قول الحقيقة. إن قلبه ليس قاسياً. ليس ملزاً بإخراج أصحاب دعاوى مرضى، ومع هذا يفعل ذلك، كما ترى. ربما لا يكون أحد منا قاسي القلب، وربما أردنا أن نساعد الجميع برغبة، غير أنها بصفتنا موظفي محكمة نظهر بسهولة وكأننا قساة القلوب ولا نريد مساعدة أحد. وأنا أعاني من هذا بالذات». «الآن ترحب في الجلوس هنا قليلاً»، سأل مقدم المعلومات، وكانوا قد وصلوا إلى المرء وبالذات إلى أمام المدعى عليه الذي كان لك قد بادره الكلام قبل ذلك. وكاد لك أن يخجل منه، إذ كان قد وقف أمامه سابقاً متتصباً هكذا، أما الآن فكان على اثنين أن يستداه، ووازن مقدم المعلومات قبة لك على الأصابع المنفرجة، وكانت تسريرحة الشعر قد تشعشت، وتدللى الشعر على جبينه المبلل بالعرق. لكن المدعى عليه بدا أنه لم يلاحظ شيئاً من هذا، كان يقف في خشوع أمام مقدم المعلومات، الذي تجاشه، ويحاول أن يعتذر عن محرك حضرره. قال: «أعرف أنه لا يمكن إنجاز طلباتي اليوم. لكنني حضرت

رغم ذلك، وفكت أن يمكنتني أن أنتظر هنا، اليوم هو يوم أحد، ولدي متسع من الوقت، وهنا لا أزعج». «لابد عليك أن تبرر هذا كثيراً»، قال مقدم المعلومات، «إن عنایتك لجدیرة بالثناء، صحيح أنك تأخذ هنا مكاناً بلا ضرورة، لكنني، رغم ذلك، ومدام الأمر لا يضايقني، لن أمنعك بلا ريب من متابعة سير مسألك بدقة. عندما يكون المرء قد رأى أناساً أهملوا واجبهم على نحو مشين، فإنه يتعلم أن يتحلى بالصبر إزاء أناس مثلك. اجلس». «كيف يعرف أن يتحدث مع أصحاب القضايا؟»، همست الفتاة، وأوهماً كبرأسه، لكنه سرعان ما انقض، إذ سأله مقدم المعلومات مرة أخرى: «ألا ت يريد أن تجلس هنا؟»، «لا»، قال ك، «لأريد أن أستريح». قال هذا بأكبر قدر من التصميم، لكنه في الحقيقة كان من شأنه أن يشعر براحة كبيرة لو أنه جلس؛ كان مثل مصاب بدوار البحر. وظن نفسه على سفينة تتواجد على أمواج مرتفعة. كان يشعر كأن الماء يرتطم بالجدران الخشبية، وكأن هدراً يأتي من أعماق الممر مثلما يصدر عن مياه متلاطمة، وكأن النمر يتارجح عرضاً فيهبط أصحاب القضايا المتظرون ويصعدون، على الجانبين. وهذا ما جعل هدوء الفتاة والرجل اللذين كانا يقودانه غير مفهوم. كان تحت رحمتهما، لو تركاه، كان لابد له أن يقع مثل لوح من خشب. ومن أعينهما الصغيرة كانت نظرات حادة تتطلق بينه وبينه، وكان ك يحسن خطواتهما المنتظمة دون أن يشارك فيها، إذ أنه كان يحمل من خطوة إلى خطوة تقريباً. وأخيراً لاحظ أنهما يتحدثان إليه، لكنه لم يفهمهما، كان لا يسمع سوى الضوضاء التي كانت تملأ كل شيء، والتي نفذت من خلالها نسمة عالية غير مفهومة بدت تدوي كأنها من صفاررة. «بصوت أعلى»، همس وقد خفض رأسه، وخجل، إذ أنه كان يعلم أنهما كانوا يتحدثان بصوت عال بما فيه الكفاية، وإن كان على نحو غير مفهوم بالنسبة إليه. وأخيراً هبت عليه تيار هواء منعش، وكأن الجدار قد شُقَّ أمامه، وسمع

أحدهم إلى جانبه يقول: «أولاً يريد أن يخرج، لكن يمكن للمرء من ثم، أن يقول له مائة مرة أن المخرج هنا، وهو لن يتحرك». ولاحظ كأنه يقف أمام باب الخروج الذي كانت الفتاة قد فتحته. وأحس كما لو كانت كل قواه قد عادت دفعة واحدة؛ ولكي يستشعر مذاقاً أولياً من الحرية، تقدم ووقف فوراً على درجة من درجات السلالم، ومن هناك ودع مرافقيه اللذين انحنى إليه. «شكراً جزيلاً»، رد قائلاً، وصافح الإثنين عدة مرات، ولم يتوقف عن المصادفة حتى اعتقد أنه يرى أنهما، هما اللذان اعتادا على هواء المكاتب، لم يتحملوا الهواء الجديد نسبياً الذي أتى من ناحية الدرج. وبالكاد استطاعا أن يجيئا، وربما كان من شأن الفتاة أن تقع، لو لم يغلق لك الباب بسرعة قصوى. ثم وقف لك برهة أخرى ساكتاً، وأصلح شعره بمساعدة مرآة جيب، ورفع قبعته التي كانت على بسطة الدرج التالية - كان مقدم المعلومات قد قذفها إلى هناك - ثم هبط الدرج بنشاط كبير وقفزات طويلة بحيث أنه كاد يشعر بالخوف من هذا التغيير. إن حالي الصحية المتamasكة كلياً فيما عدا ذلك لم تكن قد أعدت له مثل هذه المفاجآت فقط. هل أراد جسمه أن يتمرد ويهديء له محاكمة جديدة، لأنه احتمل القديمة هكذا دون عناء؟ ولم يرفض الفكرة كلياً، بأن يذهب إلى طبيب في أقرب فرصة، لكنه على كل حال أراد - وفي هذا استطاع أن ينصح نفسه - أن يستخدم ضحى كل يوم أحد مقبل بشكل أفضل من ضحى هذا اليوم.

إلى إلزا

ذات مساء تلقى ك قبيل انصرافه مخابرة هاتفية طلب منه فيها الحضور فوراً إلى المحكمة. ومحذر من عدم الطاعة. وقيل له إن تعليقاته المشينة بأن التحقيقات غير ذات نفع ولا نتيجة لها ولا يمكن لها أن تتمخض عن نتيجة، وأنه لن يحضر بعد الآن، وأنه لن يكتثر بدعوات هاتفية أو خططية، وسيطرد السعاة من الباب... قيل له بأن جميع هذه التعليقات أثبتت في الحضر، وقد عادت عليه بضرر كبير. وسئل، لماذا لا يذعن إذا؟ ألا يسعون، بدون التفات إلى الوقت والتکاليف، إلى تسوية مسألته المقدمة؟ هل يريد إزعاج هذه المساعي عمداً ويدع الأمر يصل إلى اتخاذ تدابير عنف أعمى منها حتى الآن؟ إن استدعاء اليوم هو آخر محاولة. يمكنه أن يفعل ما يشاء، لكن أن ينتبه إلى أنه لا يمكن للمحكمة الموقرة أن تدعوه يسخر منها. لكن ك كان قد أبلغ إلزا زيارته لها هذا المساء، ولم يكن في مقدوره لمجرد هذا السبب أن يحضر إلى المحكمة، وسرّ من أنه يستطيع بهذا تبرير عدم ظهوره أمام المحكمة، وإن لم يكن من شأنه قط طبعاً أن يستخدم هذا التبرير، وفوق ذلك لم يكن من شأنه، على الأرجح جداً، أن يذهب إلى المحكمة ولو لم يكن لديه أدنى التزام آخر لهذا المساء. وعلى كل حال طرح عبر الهاتف، وهو يدرك حقه المشروع، السؤال عما من شأنه أن يحدث إذا

هو لم يأت. «سوف يعرف المرأة كيف يجدهك»، كان الجواب. «وسوف أعقاب لأنني لم آت طوعاً»، سأله لك وابتسم متطرضاً ما قد يسمعه. «لا»، كان الجواب. «متاز»، قال ث، «لكن أي سبب يكون لدى لتبليبة دعوة اليوم للحضور». «لايحضر المرأة وسائل قوة المحكمة على نفسه»، قال الصوت الذي خفت ثم تبدد. «ليس من الحصافة في شيء إذا لم يفعل المرأة ذلك»، فكر لك وهو ينصرف، «على المرأة أن يحاول التعرف على وسائل القوة».

ودون أن يتربّد، سافر إلى إلزا. مستنداً بشكل مريع في ركن العربية، واضعاً يديه في جيوب معطفه - كان الطقس قد بدأ يميل إلى البرودة - راح يحيل ناظريه في الشوارع التي تدب فيها الحركة. وبارتياح ما فكر أنه هي للمحكمة، إذا كانت قد نشطت فعلاً، مصاعب غير قليلة. لم يقل بوضوح فيما إذا كان سيحضر إلى المحكمة أم لا؛ كان القاضي يتظر إذاً، بل ربما كان الجمع كله يتظر، غير أنك لن يظهر، الأمر الذي سيثير لدى الجالسين في الشرفة خيبة أمل خاصة. دون أن تربكه المحكمة ودون أن يلوّي على شيء سافر إلى حيث شاء. وطوال لحظة لم يكن متأنكاً فيما إذا لم يكن، لشروع فكره، قد ذكر للحوذى عنوان المحكمة؛ لذا نادى له عنوان إلزا بصوت عالٍ؛ وأومأ الحوذى برأسه، لم يكن قد قيل له عنوان آخر. ومن الآن فصاعداً نسي ث المحكمة، وببدأ التفكير بالمصرف يملؤه ثانية كلية كما كان الحال فيما مضى.

صراع مع نائب المدير

ذات صباح شعر ك أنه أكثر نشاطاً وصلابة بكثير من المؤلف. ولم يكن يفك بالحكمة، أو بالكاد. وإذا ما حضرت بياله، بدا له أنه يمكن لهذه المنظمة الكبيرة التي لا يحيط بها البصر أبداً أن تُمسك بسهولة وتنزع وتحطم، لكن بوسيلة خفية يجب أولاً تلمسها في الظلام وإدراكه. حتى أن حالته غير العادية أغرته بأن يدعو نائب المدير للحضور إلى مكتبه والتحدث معه عن مسألة تتعلق بالعمل كانت تلخّ منه بعض الوقت. ودائماً لدى مثل هذه المناسبة كان نائب المدير يتصرف وكأن علاقته به لم تتبدل في الأشهر الأخيرة لا في كثير أو قليل. وبهدوء أتى كما كان يأتي في السابق أيام المنافسة الدائمة مع ك، وبهدوء استمع إلى كلام ك، وأظهر مشاركته من خلال إبدائه ملاحظات صغيرة خصوصية، بل رفاقية، ولم يثر ارتباكاً في نفس ك إلا بأنه لم يدع نفسه يُلهي عن المسألة الرئيسية التي تتعلق بالعمل، لكن لا يجب على المرء أن يرى في ذلك قصداً، وبكل معنى الكلمة كان متقبلاً لهذه المسألة في قراره نفسه، في حين بدأت أفكار ك تتحمس على الفور وبكل الجهات لهذا المموج من تأدية الواجب، وأرغمه على ترك المسألة نفسها بدون مقاومة تقريباً لنائب المدير. ومرة ساء الأمر كثيراً، بحيث أن ك لم يلاحظ أخيراً سوى أن نائب المدير نهض فجأة وعاد إلى

مكتبه وهو يلوذ بالصمت. ولم يدرك ما حدث، كان من الممكن أن يكون الحديث قد انتهى بمعنى الكلمة، كما أنه كان من الممكن أن يكون نائب المدير قد قطعه لأن ك قد كدره وهو لا يدري، أو لأنه قد هدى بكلام سخيف، أو أنه أصبح مما لاريب فيه بالنسبة إلى نائب المدير بأن ك لم يستمع وكأن مشغولاً بأمور أخرى. بل حتى كان من الممكن أن ك كان قد اتخاذ قراراً سخيفاً، أو أن نائب المدير كان قد استدرجه منه وأسرع الآن إلى تطبيقه لغير مصلحة ك. وللمناسبة، لم يعد الماء إلى هذه المسألة بعد ذلك، ولم يرغب ك أن يتذكراها، وظل نائب المدير كثوماً غير أنه لم تظهر إلى حين وفيما بعد نتائج مرئية. لكن على كل حال لم تُنزع الحادثة ك، فما كانت فرصة مناسبة تستぬح، وهو في بعض قوته ليس إلا، حتى كان يقف على باب نائب المدير ليدخل عليه أو ليدعوه إليه. لم يعد ثمة متسع من الوقت ليختفي من وجهه، كما كان يفعل في السابق. ولم يعد يأمل بنجاح قريب حاسم من شأنه أن يريحه من سائر الهموم دفعة واحدة ويقيم بنفسه العلاقة القديمة مع نائب المدير. وأدرك ك أنه لا يجوز له أن يتوقف، فإذا هو تراجع، كما تقتضي الواقع ربما، يكون الخطر بأنه من الممكن ألا يتقدم بعد الآن قط. لا يجوز أن يترك نائب المدير في الاعتقاد أن ك إنما قد نُحي، لا يجوز أن يجلس بهدوء في مكتبه وهو في هذا الاعتقاد، يجب اقلاق باله، عليه أن يعلم كلما تيسر أن ك حي وأنه، مثل كل من يحيا، يستطيع ذات يوم أن يفاجئ بقدرات جديدة، مهما بدا اليوم أيضاً مأمون الجانب. صحيح أن ك كان يقول لنفسه أحياناً بأنه لا يك足ع بهذا المنهج من أجل شيء آخر سوى من أجل كرامته، إذ لا يمكن في الواقع أن يجلب له منفعة إذا راح وهو في ضعفه يعارض نائب المدير ويعزز شعوره بالقوة وينحه إمكانية أن يجمع ملاحظات ويتخذ إجراءاته بدقة طبقاً للظروف الراهنة. لكن لم يكن من شأن ك أن يستطيع تغيير سلوكه قط، فقد كان يخضع

لخداع النفس، وكان يعتقد أحياناً على وجه اليقين أنه يجوز له الآن بالذات أن يقيس نفسه بنائب المدير وهو مطمئن، وأكثر الخبرات تعasse لم تعلمه، وما لم يتم له في عشر محاولات، ظن أنه يستطيع تحقيقه بالحادية عشرة رغم أن كل شيء كان دائماً وعلى وتبة واحدة كلباً يجري لغير صاحبه. وحين كان يبقى منهوك القوى بعد مثل هذه المقابلة، كان يتصرف عرفاً، وقد خوى رأسه، لم يكن يعرف فيما إذا كان الأمل أم اليأس هو الذي كان قد دفعه إلى نائب المدير، لكن في مرة تالية كان من الواضح الجلي كلباً أن الأمل وحده هو الذي أسرع به إلى باب نائب المدير.

وهكذا كان الحال اليوم أيضاً. دخل نائب المدير رأساً، وتوقف من ثم بالقرب من الباب، نظّف نظارته جرياً على عادة اتخاذها حديثاً، ونظر أولاً إلى لك، ولكي لا يشغل نفسه به بشكل ملفت للانتباه كثيراً، دقق نظره في الغرفة كلها. وكان كأنه يتنهز المناسبة كي يفحص قوة نظر عينيه. وقاوم لك النظارات، بل إنه ابتسم قليلاً ودعا نائب المدير للجلوس. وألقى بجسمه في كرسيه ذي المسند وقربه أكثر ما يمكن من نائب المدير، وتناول في الحال الأوراق اللازمة عن الطاولة، وبدأ تقريره. كان نائب المدير في بادئ الأمر كأنه يكاد لا يستمع. وكان يحيط بلوح طاولة مكتب لك سور منخفض منحوت. وكانت طاولة المكتب كلها من صنع فاخر، كما أن السور الصغير كان مثبتاً في الخشب. لكن نائب المدير تظاهر كأنه لاحظ الآن بالذات وجود انفكاك، وحاول إزالة الخطأ بأن راح يضرب على السور بستابته. وأراد لك بناء على ذلك أن يقطع تقريره، غير أن نائب المدير لم يقبل ذلك، إذ أنه، كما أوضح، يسمع ويفهم كل شيء بدقة. لكن في حين أن لك لم يستطع الآن أن يتترع منه ملاحظة موضوعية، بدا السور كأنه يتطلب إجراءات خاصة، إذ أن نائب المدير سحب الآن مطواطه، وتناول كرافعة

مضادة مسطرة لك، وحاول أن يرفع السور، وذلك كي يستطيع على الأرجح إدخاله إلى عمق أكثر بسهولة أكبر. كان لك قد أدرج في تقريره اقتراحاً جديداً كل الجدة أمل فيه تأثيراً خاصاً على نائب المدير، وإذا وصل الآن إلى هذا الاقتراح لم يقدر على التوقف أبداً، كان عمله قد استأثر به كثيراً أو أنه بالأحرى قد سرّ كثيراً بالإدراك، الذي أصبح دائماً أقل، بأنه هنا في المصرف مازال ذا أهمية ما وبأن أفكاره مازالت تملك قوة لتبريه. لا بل إن هذا النوع من الدفاع عن النفس ربما لم يكن خيراً دفاع في المصرف فقط، وإنما في المحاكمة أيضاً، وربما كان أفضل بكثير من أي دفاع آخر كان قد حاوله أو خطط له. وفي تدافع كلامه لم يكن لدى لك متسع من الوقت لكي يصرف نائب المدير بشكل صريح عن عمله في السور، ومرتين أو ثلاث مرات ليس إلا أثناء تلاوته مسح بيده الطليقة مهدئاً على السور لكي يبيّن، تقريرياً دون أن يعلم نفسه تماماً، لنائب المدير أن ما من خطأ في السور وحتى لو وجد فإن الاستماع حالياً هو أكثر أهمية ولباقة أيضاً من سائر الإصلاحات. لكن هذا العمل اليدوي أثار همة نائب المدير، كما يحدث هذا غالباً لدى الناس الحيوتين الذي لا يمارسون سوى أعمال ذهنية؛ وفعلاً كانت قطعة من السور قد رفعت الآن، وأصبح الأمر يتعلق بإعادة إدخال الأعمدة الصغيرة إلى الثقوب التابعة لها. وكان هذا أكثر صعوبة من كل ما سبق. وكان على نائب المدير أن ينهض ويحاول بكلتا يديه أن يضغط السور داخل لوح الطاولة. لكنه لم يوفق في ذلك رغم كل جهد بذله. وكان لك أثناء التلاوة - التي مزجها بكثير من الكلام المرتجل - لم يكن قد اتبه سوى بشكل غير واضح إلى أن نائب المدير إنما كان قد نهض. ورغم أنه بالكاد حول ناظريه كلياً في أية لحظة عن العمل الجانبي لنائب المدير، فإنه افترض أن حركة نائب المدير إنما كانت ذات صلة بتقريره على وجه من

الوجه، فنهض هو أيضاً، وناول نائب المدير ورقة وهو يضع إصبعه تحت رقم ما. غير أن نائب المدير كان في هذه الأثناء قد أدرك أن ضغط اليدين لم يكن كافياً، وهكذا جلس بقرار سريع وبكامل ثقله على السور. وتم له الأمر فعلاً، فقد دخلت الأعمدة الصغيرة في الثقوب وهي تصرّ، لكن عموداً انكسر بسبب العجلة، وفي موضع ما انكسر القضيب العلوي اللين. «خشب رديء»، قال نائب المدير بامتعاض، ونزل عن الطاولة وجد

العم

لني

عصر يوم - كان لك مشغولاً جداً تماماً قبل إنتهاء البريد - انسلاخ بين خادمين يدخلان وثائق عم لك كارل، وهو مالك صغير من الريف، شافعاً طريقه إلى الغرفة. وذعر لك لدى مشاهدته أقل مما ذعر قبل فترة طويلة لدى تصوره قدوم العم. كان لابد للعم أن يأتي، كان هذا مؤكداً لدى لك منذ نحو شهر. وحتى في ذلك الوقت ظن أنه رأه، كيف، وهو محظي الظهر قليلاً، ماسكاً قبعة الخوص المطبقة بيده اليسرى، يمد إليه اليمنى من بعيد ويناوله إياها من فوق طاولة المكتب بسرعة لاتبعاً بشيء، قالياً كل شيء كان في طريقه. كان العم على عجل دائماً، إذ كانت تطارده الفكرة البائسة بأنه ينبغي عليه أن يتمكن أثناء إقامته التي لا تستغرق دائماً سوى يوم واحد في العاصمة من إنجاز كل ما كان قد اعتم فعلاً، وأنه لا يجوز له فوق ذلك أيضاً أن تفوته أية محادثة تعرض نفسها بين وقت وآخر أو صفقة أو تسلية. في هذا كان ينبغي على لك، الذي كان ملزماً بشكل خاص إزاءه بصفته وصياحاً عليه سابقاً، أن يساعدك في كل ما تيسر ويدعه فوق ذلك ببيت لديه. وقد اعتاد أن يسميه «الشبح القادم من الريف».

بعد التحية مباشرة - لم يكن لديه متسع من الوقت للجلوس في المعد الوثير حيث دعاه ك - طلب من ك أن يتحادثا على انفراد حديثاً قصيراً. «إن الأمر ضروري»، قال وهو يزدرد ريقه بمشقة، «ضروري لتهئة روعي». وفي الحال صرف ك الخادمين من الغرفة مع التوجيه بعدم السماح لأحد بالدخول. «ماذا سمعت، يا يوزف؟» نادى العم عندما أصبحا وحدهما، وجلس فوق الطاولة، وحشر تحته دون أن ينظر أوراقاً مختلفة كي يجلس بشكل أفضل. ولاذ ك بالصمت. كان يعلم ماذا سيأتي، لكنه، وقد ارتاح فجأة من العمل المرهق، والآن استسلم أولًا لتراب مريع، وتطلع من خلال النافذة إلى جانب الشارع المقابل الذي لم يكن ثير منه من مقعده سوى جزء صغير مثلث الشكل، قطعة من جدار منازل بين واجهتين من واجهات محلات التجارية. «إنك تنظر من النافذة»، نادى العم وقد رفع ذراعيه، «بحق السماء، أجبني يا يوزف. هل الأمر صحيح، هل يمكن أن يكون صحيحاً؟». «أيها العم العزيز»، قال ك وقد انتزع نفسه من شروده، «لا أدرى أبداً ماذا تريد مني». «يوزف»، قال العم محذراً، «الحقيقة كنت تقولها دائمًا بقدر ما أعرف. هل علي أن أعتبر كلماتك الأخيرة إマارة سبئية». «إنني لأحدس ماذا ت يريد»، قال ك وقد لانت عريكته، «لقد سمعت على الأرجح عن محاكمتي». «هكذا هو الحال» أجاب العم وهو يومئ برأسه بيضاء، «لقد سمعت عن محاكمتك». «من؟» سأل ك. «إرنا كتبت لي عن الأمر»، قال العم، «ليس لها اتصال بك، وأنت لاتهتم بها كثيراً مع الأسف، ورغم ذلك علمت بالأمر. لقد استلمت الرسالةاليوم وطبعاً سافرت إلى هنا في الحال. وليس لسبب آخر، لكن يبدو أنه سبب كاف. ويمكنني أن أقرأ لك مقطع الرسالة الذي يتعلّق بك». وأخرج الرسالة من المحفظة. «هنا هو. إنها تكتب: (منذ مدة طويلة لم أر يوزف، وفي الأسبوع الماضي كتبت مرة في المصرف، غير أن يوزف كان مشغولاً كثيراً إلى درجة

أنهم لم يسمحوا لي بالدخول إليه؛ لقد انتظرت طوال ساعة تقريباً، لكن كان يجب عليَّ أن أذهب من ثم إلى البيت، إذ كان لدى درس في العزف على البيانو. كان بوَّدي أن أتحدث معه، وربما توجد فرصة في القريب العاجل. يوم عيدAssisi^(*) أرسل لي عليه شوكولاتة كبيرة، كان هذا لطفاً للغاية واهتمامًا. وقد نسيت أن أكتب لكم آنذاك عن ذلك، والآن فقط إذ تسألوني، أتذكرة. وعليكم أن تعلموا أن الشوكولاتة تختفي حقاً في النزل على الفور، لا يكاد الماء يعي بأنه أهدى شوكولاتة، حتى تكون قد اختفت أيضاً. أما فيما يتعلق بيوزف، فقد أردت أن أقول لكم شيئاً: كما ذكرت، لم يسمحوا لي في المصرف بالدخول إليه، لأنَّه كان في هذا الوقت يتحادث مع أحد السادة. وبعد أن انتظرت بهدوء طوال فترة، سألت خادماً فيما إذا كانت المحادثة ستطول. فقال لابد أن يكون الأمر كذلك، إذ أن الموضوع يدور، على الأرجح، حول الدعوى المرفوعة ضد السيد الوكيل. سألت، أي دعوى هذه، وفيما إذا كان لا يخطئ، لكنه قال إنه لا يخطئ، إنها دعوى بل دعوى صعبة، غير أنه لا يعرف أكثر من ذلك. وهو نفسه يود أن يساعد السيد الوكيل، إذ أن هذا سيد طيب جداً وعادل، لكنه لا يدرِّي كيف يمكنه أن يبدأ المساعدة وكل ما يتمناه هو أن يقوم سادة ذوو نفوذ بالاهتمام به. ولاشك أيضاً أن هذا سوف يحدث وسوف يأخذ الموضوعأخيراً نهاية طيبة، لكن الحال في الوقت الحاضر، كما يمكنه أن يستنتاج من مزاج السيد الوكيل، ليس على مايرام. وطبعاً لم أنسَ أهمية كبيرة لهذا الكلام، وحاولت أيضاً تهدئة الخادم الساذج، ومنعه من التحدث عن ذلك أمام آخرين، وأعتبر الأمر كله ثرثرة. ورغم ذلك ربما كان من الخير أن تتقصى الأمر، أيها الوالد الأعز، لدى زيارتك القادمة، وسيكون من السهل

(*) - كل يوم من أيام السنة يحمل اسم قديس (كاثوليكي). ومن يحمل اسم ذلك القديس، يحتفل بهذا اليوم مثل احتفاله بعيد ميلاده أو بدلاً عنه (أ.و).

عليك أن تعرف ما هو أكثر دقة، وأن تتدخل، إذا اقتضى الأمر فعلًا، بواسطة معارفك الكثيرين ذوي النفوذ. لكن إذا لم يكن الأمر ضروريًا، وهو المرجع أكثر، فإنه على الأقل سيعطي ابنته قريباً فرصة لمعانقتك، الأمر الذي من شأنه أن يسرّها). إنها بنت طيبة»، قال العم بعد أن فرغ من التلاوة ومسح بعض عبرات من عينيه. وأوْمأَ ك برأسه، كان قد نسي إرنا كلياً نتيجة المضائقات المختلفة في الآونة الأخيرة، حتى عيد ميلادها كان قد نسيه، وقصة الشوكولاتة لم تختلق على ما يدو سوى بهدف حمايته أمام العم وزوجته. كان هذا مؤثراً للغاية، ولاريب أنه لايكافئ بشكل كاف بتذكر المسرح التي أراد أن يرسلها لها من الآن فصاعداً بشكل منتظم، ييد أنه لم يشعر الآن أنه يصلح للقيام بزيارات في النزل وإجراء أحاديث مع تلميذة مدرسة ثانوية صغيرة السن في الثامنة عشرة. «وماذا تقول الآن؟» سأل العم الذي كانت الرسالة قد أنسنته كل سرعة وانفعال وبدأ أنه يقرؤها مرة أخرى. «نعم، أيها العم»، قال لك، «إنها الحقيقة». «حقيقة؟» نادى العم. «ما هو حقيقة؟ كيف يمكن للأمر أن يكون حقيقة؟» أية دعوى؟ لكن ليست دعوى جنائية؟. «دعوى جنائية»، أجاب لك. «وأنت تجلس هنا بهدوء وفي عنقك محاكمة جنائية؟» نادى العم وصوته يعلو دائمًا أكثر. «كلما زاد هدوئي، كان الحال أفضل بالنسبة إلى النتيجة»، قال لك متبعاً. «لاتخشن شيئاً». «هذا لا يمكّنه أن يهدئني»، نادى العم، «يوزف، عزيزي يوزف، فكر في نفسك، في أقربائك، في إسمنا الكرم. كنت حتى الآن شرفنا، ولا يجوز لك أن تصبح عارنا. موقفك»، وتطلع إلى لك وقد أحنى رأسه بشكل مائل، «لا يعجبني، هكذا لا يتصرف مدعى عليه بريء، مازال في قوّته. قل لي بسرعة فقط، ما هو الموضوع، حتى أستطيع مساعدتك. يتعلق الموضوع بالمصرف طبعاً؟». «لا»، قال لك ونهض، «لكنك تتحدث بصوت عال، أيها العم العزيز، إن الخادم يقف على الأرجح بالباب وينصت. وهذا

غير مريح بالنسبة إليّ. من الأفضل أن ننصرف. وسوف أجيبك من ثم على كل الأسئلة قدر الإمكان. إنني أعرف جيداً جداً أنني مسؤول أمام الأسرة». «هذا صحيح»، صرخ العم، «صحيح جداً، أسرع فقط، يا يوزف، أسرع». «مازال يجب عليّ فقط أن أعطي بعض التوجيهات»، قال لك واستدعى هاتفيّاً نائبه الذي دخل بعد لحظات قليلة. وأشار إليه العم بيده وهو في انفعاله بأنّ لك استدعاءه، الأمر الذي لا شك فيه أيضاً. وشرح لك، وهو يقف أمام طاولة المكتب، للشاب الذي راح يستمع إليه يبرود لكن بانتباه، شرح بصوت منخفض مستعيناً بوثائق مختلفة، ماذا ينبغي إنجازه اليوم في غيابه. وأزعج العم بأنه كان أولاً يقف إلى جانبهما وهو يحلق مندهشاً وبعض على شفتيه بعصبية لكن دون أن يستمع، غير أن مظهره ذاك كان مزعجاً بشكل كاف. لكنه راح من ثم يتمشى في الحجرة جيئةً وذهاباً ويتوقف أحياناً أمام النافذة أو أمام صورة منفجرأ دائماً في نداءات مختلفة مثل: «إن الأمر بأسره غير قابل للفهم بالنسبة إليّ» أو «الآن قولوا لي فقط إلى ماذا سيؤول ذلك». وتصرّف الشاب كأنه لا يلاحظ شيئاً، واستمع بهدوء إلى توجيهات لك حتى النهاية، ودون بعض الشيء أيضاً، ثم انصرف بعد أن انحنى أمام لك كما انحنى أمام العم، لكن هذا كان في هذه اللحظة يدير له ظهره وقد راح يتطلع من النافذة وهو يكُور ستائر بيديه المدودتين. وما كاد ظهره يغلق، حتى صاح العم: «أخيراً اصرفت الدمية. والآن يمكننا نحن أيضاً أن نذهب. أخيراً!» ومع الأسف لم يكن ثمة وسيلة لحمل العم على ترك الأسئلة المتعلقة بالمحاكمة، في البهو حيث كان يقف بعض الموظفين والخدم وحيث عبر الآن عَرضاً نائب المدير أيضاً. «إذاً، يا يوزف»، بدأ العم كلامه بينما راح يحجب على انحناءات المتقين بتأدية تحية حقيقة، «الآن قل لي بصرامة، أية محاكمة هذه». أبدى لك بعض الملاحظات عديمة المعنى، كما ضحك قليلاً، وفقط على السلم أوضح للعم أنه لم يشاً أن يتحدث

بصراحة أمام الناس. «أحسنت»، قال العم، «لكن تحدث الآن». برأس مائل ومدخناً سيجاراً بنفاثات قصيرة وسريعة راح يستمع إلى ك. «قبل كل شيء»، أياها العم، قال ك، «ليست أبداً محاكمة أمام المحكمة العادلة». «هذا شيء؟»، قال العم. «كيف؟» قال ك وتطلع إلى العم. «أن هذا شيء، أقصد»، كرر العم. كانا يقفنان على السلم الخارجي الذي يؤدي إلى الشارع؛ وإذا بدوا الباب منصتاً، سحب ك العم إلى الأسفل، حيث دخلًا في حركة المرور التي تدبّ في الشارع. ولم يعد العم، الذي تأبط ذراع ك، يسأل بإلحاح كبير عن المحاكمة؛ بل إنهمَا تابعاً سيرهما وهما يلوذان بالصمت بعض الوقت. «لكن كيف حدث الأمر؟» سأل أخيراً العم وقد توقف فجأة، بحيث أن الناس السائرين وراءه تنجووا مذعورين. «مثل هذه الأمور لاتأتي فجأة، إنها تتهيأً منذ مدة طويلة، لابدّ أنه كان ثمة دلائل على ذلك، لماذا لم تكتب لي. إنك تعلم أنني أفعل كل شيء من أجلك، وأنا ما زلت وصيتك إلى حد ما وكنت فخوراً بذلك لغاية اليوم. وطبعاً سوف أساعدك الآن أيضاً، غير أن الأمر الآن، إذ أصبحت المحاكمة جارية، صعب جداً. وسيكون من الأفضل لك على كل حال إذا ما أخذت إجازة قصيرة وأتيت إلينا في الريف. كما أنك قد نحافت بعض الشيء، الآن لا أحظ ذلك. في الريف سوف تتفقى، وسوف يكون هذا أمراً حسناً، فتنة جهود تتظاهر ولاشك. لكن بالإضافة إلى ذلك سوف تكون بهذا بعيداً عن المحكمة إلى حد ما. هنا لديهم كل وسائل السلطة الممككة التي يستخدمونها بالضرورة، تلقائياً إزاءك أيضاً، لكن إلى الريف لابد لهم أولاً من أن يوفدوا أعضاء أو أن يحاولوا فقط أن يؤثروا عليك كتابةً تلغيفاً هاتفيًا. وهذا يضعف المفعول طبعاً، صحيح أنه لا يخصك، لكنه يدعوك تتنفس الصعداء». «يمكنهم أن يمنعوني من السفر، قال ك الذي كان كلام العم قد جذبه إلى نسق أفكاره بعض الشيء. «لا أظن أنهم سيفعلون ذلك»، قال العم متأملاً، «إن الخسارة

في النفوذ التي تصيبهم نتيجة سفرك ليست كبيرة جداً». «كنت أظن»، قال ك وأمسك بالعلم من تحت ذراعه كي يتمكن من منه من التوقف، «أنه من شأنك أن تعلق على الموضوع كله أهمية أقل مما أعلق، والآن تأخذ الأمر بنفسك مأخذًا صعباً». «بوزف»، نادى العلم وأراد أن يفلت منه كي يتمكن من التوقف، لكن ك لم يتركه، «لقد تحولت، كنت تملك دائمًا قدرة إدراكك سليمة، والآن بالذات تتخلّى عنك؟ هل تريد إذاً أن تخسر الدعوى؟ أتعلم ماذا يعني هذا؟ هذا يعني أن تُشطب ببساطة. وأن يُحرف معك جميع الأقارب أو على الأقل يُذَلّوا حتى يصلوا إلى الحضيض. بوزف، تمالك نفسك. إن عدم اكتراوك يودي بعقلي. حين ينظر المرء إليك يود تقريباً أن يصدق المثل القائل: «أن يكون لديك مثل هذه المحاكمة يعني أن تخسرها سلفاً». «أيها العم العزيز»، قال ك، «إن الانفعال لايفيد شيئاً، هو هكذا من ناحيتك ومن شأنه أن يكون هكذا من ناحيتي أيضاً. بالانفعال لا تكسب الدعوى، احترم أيضاً خبراتي العملية قليلاً، كما احترم خبراتك كل الاحترام دائمًا والآن أيضاً، وحتى عندما تفاجئني. إذ تقول، إن من شأن المحاكمة أن تمس الأسرة أيضاً سوءاً - الأمر الذي لا أستطيع أن أفهمه بحال من الأحوال من ناحيتي، لكن هذا هو أمر ثانوي - فإنني أريد برغبة أن أتبعك في كل شيء، إلا أن الإقامة في الريف لا أراها مفيدة ولاحتى بالمعنى الذي تقصده، لأن من شأنها أن تعني هرباً وشعوراً بالذنب. صحيح أنني هنا مطاردة أكثر، لكن في مقدوري أيضاً أن ألحق الموضوع بنفسي أكثر». «صحيح»، قال العلم بلهجة وكأن من شأنهما الآن أن يقترباً أخيراً من بعضهما بعضاً، «لم أقدم الاقتراح سوى لأنني رأيت المسألة إذا بقيت هنا مهدّدة من عدم اهتمامك، واعتبرت من الأفضل إذا عملت من أجلك بدلاً عنك. لكن إذا كنت ت يريد ملاحقة الموضوع بنفسك بكل قوة، فإن ذلك يكون طبعاً أفضل بكثير». «من شأننا أن نكون في هذا متفقين إذاً»، قال ك،

«وهل لديك الآن اقتراح عما ينبغي عليّ أن أفعل أولًا؟». «يجب عليّ طبعاً أن أفكّر بالأمر»، قال العُمّ، «عليك أن تقدّر أنني الآن في الريف منذ عشرين عاماً بدون انقطاع تقريباً، وهنا تخفّ دقة الحدس في هذه الاتجاهات. ثمة علاقات هامة مختلفة مع شخصيات قد تعرف الأمور هنا بشكل أفضل، وهنت من تلقاء نفسها. إنني في الريف مهجور بعض الشيء، وهذا ما تعرّفه. والمرء لا يلاحظ الأمر بنفسه سوى في هذه المناسبات. كما أن قضيتك جاءتني جزئياً بشكل غير متوقع، وإن كنت، وبالطبع، بعد رسالة إرنا قد حدست شيئاً مثل هذا واليوم لدى مشاهدتك علمته علم اليقين تقريباً. لكن هذا سِيَان، ما هو أكثر أهمية الآن هو عدم إضاعة وقت». وكان أثناء حديثه قد لوح بيده إلى عربة، وهو يقف على أطراف أقدامه، وسحب الآن، وهو يعطي عنواناً لسائقها، كـ خلفه إلى العربة. «نسافر الآن إلى المحامي هوند»، قال، «كان زميلاً لي في المدرسة. لاشك أنك تعرف الاسم أيضاً؟ أليس كذلك؟ لكن هذا يدعو للاستغراب. فهو يمتّع بشهرة كبيرة بصفته محامي دفاع ومحامي فقراء. أما أنا فإنني أثق به ثقة كبيرة بصفته إنساناً على وجه الخصوص». «إنني أوافق على كل ماتقوم به»، قال ك، رغم أن الطريقة السريعة والمليحة التي عالج العم المسألة فيها قد سببت له انزعاجاً. لم يكن من المفرح جداً الذهاب كمدعى عليه إلى محامي فقراء. قال: «لم أكن أعلم أنه يمكن للمرء في مثل هذه القضية أن يستعين بمحامي». «لكن طبعاً»، قال العُمّ، «إن هذا لأمر بدائي. لماذا لا إذَا؟ والآن أحك لي، حتى أكون على علم بالقضية بدقة، كل ماحدث حتى الآن». وعلى الفور بدأ ك يروي، دون أن يخفي أي شيء، وكانت صراحته التامة هي الاحتجاج الوحيد الذي استطاع أن يسمح به لنفسه ضد رأي العم بأن الدعوى إنما هي عار كبير. ولم يذكر اسم الآنسة بورستر سوى مرة واحدة وبشكل عابر، لكن هذا لم يتৎقص من الصراحة، إذ أن الآنسة

بورستن لم تكن ذات صلة بالمحاكمة. وبينما كان يروي، راح ينظر من النافذة ويشاهد كيف يقتربان بالذات من تلك الصاحبة التي كانت مكاتب المحكمة تتوارد فيها؛ ولفت نظر العم إلى ذلك، لكن هذا لم يجد التوافق ملفتاً للنظر بشكل خاص. وتوقفت العربية أمام منزل داكن. ورأساً قرع العم الجرس في الطابق الأرضي لدى أول باب؛ وبينما كانا يتظاران، كثُر عن أسنانه الكبيرة مبتسمًا وهمس: «الساعة الثامنة، وقت غير مأوف لزيارات يقوم بها أطراف في دعاوى. لكن هولد لا يؤاخذني على ذلك». من العين السحرية في كوة الباب لاحت عينان كبيرة سوداوان، نظرتا هنية إلى الضيفين واختفتا؛ غير أن الباب لم يفتح. وأكد كل من العم وكالآخر حقيقة أنه شاهد العينين. «خادمة جديدة تخاف من الغرباء»، قال العم ودق مرة أخرى. وظهرت العينان ثانية، وكان في مقدور المرء الآن أن يخالفهما حزبيتين تقريباً، لكن هذا لم يكن ربما سوى مجرد خداع سببه شعلة الغاز المكشوفة التي كانت مشتعلة وهي تئّر بشدة فوق الرؤوس دون أن تبعث ضوءاً كثيراً. «افتتحي»، نادى العم وضرب بقبضته على الباب، «إننا أصدقاء السيد المحامي». «السيد المحامي مريض»، همس أحدهم خلفهما. في باب الطرف الآخر للمنزل الصغير كان يقف رجل برداء النوم، أبلغ هذا الخبر بصوت منخفض للغاية. والتفت العم، الذي كان معتنقاً من جراء الانتظار الطويل، دفعة واحدة، وصاح: «مريض؟ تقول إنه مريض؟» واتجه إليه بوعيد تقريباً، وكأن الرجل هو المرض. «لقد فتح الباب»، قال الرجل وهو يشير إلى باب المحامي، لم أذبال ردائه وانحنتي. كان الباب قد فتح فعلاً، وكانت صبية - تعرف ك على العينين السوداويين الجاحظتين قليلاً - تقف في البهو مرتدية مريحة طويلة بيضاء وتمسك شمعة في يدها. «في المرة القادمة افتحي بسرعة أكثر»، قال العم بدلاً من إلقاء تحية، في حين قامت الفتاة بانحناءة صغيرة للتحية. «تعال يا يوزف»، قال من ثم لك، الذي تحرك ببطء مازاً

بالفتاة. «السيد المحامي مريض»، قالت الفتاة إذ هرع العم إلى باب دون تلکؤ. وراح ك ينظر إلى الفتاة بإعجاب بينما كانت قد استدارت لتغلق باب المسكن ثانية. كانت ذات وجه مستدير مثل وجه دمية، ولم تكن الوجنتان الشاحبتان والذقن وحدها هي المدور، وإنما الصدغان وطرفها الجبهة أيضاً. «يوزف»، نادى العم ثانية، ثم سأل الفتاة: «إنه مرض في القلب؟». «هذا ما أعتقده»، قالت الفتاة وكانت قد وجدت وقتاً لتتقدم بالشمعة وتفتح باب الحجرة. في ركن من أركان الحجرة، لم يكن ضوء الشمعة قد نفذ إليه بعد، انتصب في السرير وجه ذو لحية طويلة. «التي، من جاء إذًا»، سأل المحامي، الذي لم يتبع الضيفين بعد، إذ خطفت الشمعة بصره. «أليبرت، أنا صديقك القديم»، قال العم. «آه أليبرت»، قال المحامي وترك نفسه يرتدى واقعاً على الوسادات، وكأن ما من حاجة للتتصنّع والتتمثيل إزاء هذا الضيف. «هل الحال سيئة هكذا فعلاً؟» سأل العم وجلس على حافة السرير. «لا أظن ذلك. إنها نوبة من نوبات مرضك القلبي وسوف تزول مثل النوبات السابقة». «ممكن»، قال المحامي بصوت منخفض، «لكن الأمر أكثر سوءاً مما كان في أي وقت آخر. إنني أتنفس بصعوبة، ولا أنام قط وأفقد من قوتي يوماً بعد يوم». «هكذا»، قال العم وضغط القبعة عريضة الإطار على ركبته بيده الضخمة، «هذه أخبار سيئة. وهل تلقى الرعاية الصحيحة؟ كما أن الجو هنا كثيف جداً، حالك جداً. لقد مرّ وقت طويل منذ أن كنت هنا آخر مرة. آنذاك بدا لي الأمر أكثر انشراحًا. كما أن آنستك الصغيرة لا تبدو مرحة جداً أو أنها تتظاهر». وكانت الفتاة لاتزال تقف قرب الباب وهي تحمل الشمعة، وكانت، على قدر ما تفصح عنه نظرتها غير المعينة، تنظر بالأحرى إلى ك أكثر مما تنظر إلى العم، حتى وهو يتحدث الآن عنها. واستند ك إلى كرسي كان قد حرّكه مقترباً من الفتاة. «عندما يكون المرء مريضاً، مثلي»، قال المحامي، «فلابدّ له من الراحة. أنا لأنشرع بكلابة». وبعد

فترة توقف قصيرة أضاف: «ولني ترعناني جيداً، إنها بارعة». لكن هذا لم يستطع إيقاع العم، فقد كان متخيّراً ضدها بشكل ملحوظ، وإذا هو لم يرّد على المريض بشيء، فإنه راح يتابع المرضية بنظرات قاسية، حين ذهبت الآن إلى السرير، ووضعت الشمعة على المنضدة الصغيرة، وانحنت فوق المريض، وتهامست معه وهي ترتّب الوسائل. ونسى تقريباً مراعاة المريض، ونهض، وسار وراء المرضية جيئة وذهاباً، وما كان من شأن كـ ليعجب لو أن العم أمسكها من الوراء بملابسها وجذبها بعيداً عن السرير. وكان كـ نفسه ينظر إلى كل شيء بهدوء، بل إن مرض الحامي لم يكن بالنسبة إليه أمراً غير مرغوب فيه كلياً. والحماس الذي كان العم قد أظهره لقضيته، لم يتمكن كـ أن يعترضه، والإلهاء الذي عرفه هذا الحماس الآن دون مساعدة منه، تقبله برغبة. وهنا قال العم، ربما بقصد إهانة المرضية فحسب: «من فضلك يا آنسة، دعينا هنيئة وحدنا، عليّ أن أتحادث مع صديقي في مسألة شخصية». والمرضية التي كانت مازالت منحنية انحناءة كبيرة فوق المريض وراحت الآن تسوي ملاعة السرير عند الحائط، أدارت رأسها وحسب وقالت بهدوء شديد، الأمر الذي شكل فرقاً ملفتاً للانتباه عن كلام العم المتقطع من شدة الغضب والفاشل، من ثم ثانية: «ترى، إن السيد شديد المرض، إنه لا يستطيع أن يتحادث في مسائل». كانت قد كررت كلمات العم لا لسبب سوى لداعي الراحة على الأرجح، على كل حال كان يمكن حتى لغير مشارك أن يعتبر ذلك سخرية، لكن العم هاج طبعاً مثل ملدوغ. «أيتها الملعونة»، قال في غرغرة الهيجان الأولى وعلى نحو غير مفهوم إلى حد ما. وفزع كـ رغم أنه كان قد توقع شيئاً مماثلاً، وهرع إلى العم بنيّة مؤكدة أن يطبق فمه. لكن من حسن الحظ نهض المريض وراء الفتاة، وانقضت أسارير العم، وكأنه يتلع شيئاً مقرزاً، وقال من ثم بهدوء أكثر: «مازلنا أيضاً لم نفقد العقل طبعاً، لو لم يكن ما أطلبه ممكناً، لما طلبته. من

فضلك اذهي الآن». كانت المريضة تقف منتصبة إلى جانب السرير وقد ولت وجهها شطر العم تماماً، وراحت تربت بإحدى يديها على يد الحامي، كما ظن لك أنه يلاحظ. «يمكنك أن تقول كل شيء أمام لني»، قال المريض ولاريب بلهجة رجاء ملتح. «الأمر لا يتعلّق بي»، قال العم، «ليس سري». واستدار، فاقصدأً ألا يدخل في مفاوضات بعد، لكن معطياً فترة تفكير صغيرة. «من يتعلّق الأمر إذا؟» سأله الحامي بصوت خافت، وعاد إلى الاستلقاء. «بابن أخي»، قال العم، «وقد أحضرته معي أيضاً». وقدم: «الوكيل القانوني يوزف ك». «آه»، قال المريض بحيوية أكثر بكثير، ومدّ يده إلى ك، «اعذرني، لم ألحظك البتة». «اذهي، لني»، قال من ثم إلى المريضة، والتي لم تعد تقاوم، ومدّ لها يده، وكأن الأمر يعني وداعاً لفترة طويلة. «لم تأت إذا»، قال أخيراً إلى العم الذي كان أيضاً قد اقترب متصالحاً، لعيادتي مريضاً، وإنما تأتي لعمل». كان الأمر وكأن تصور عيادة مريض إنما قد شلَّ الحامي حتى الآن، أما الآن فقد بدا قوياً، وظل دوماً متكتماً على مرافقه، الأمر الذي لا بد أن يكون متعباً، وراح يشد حوصلة في وسط لحيته المرة بعد المرة. «تبدو أكثر صحة بكثير منذ أن خرجت هذه الساحرة»، قال العم، ثم توقف عن الكلام وهمس: «أراهن على أنها تسترق السمع»، وقفز إلى الباب. لكن لم يكن أحد وراء الباب، وعاد العم، دون أن يكون خائباً للظن، إذ أن عدم استراقها السمع بدا له خبئاً أكبر، لكنه كان متبرِّماً. «إنك تخطئ في تقديرها»، قال الحامي دون أن يحميها أكثر؛ وربما أراد بذلك أن يعبر عن أنها ليست بحاجة إلى حماية. لكنه واصل كلامه بلهجة أكثر حتوأً بكثير، وقال: «فيما يتعلّق بمسألة السيد ابن أخيك، فإنني ولاشك سأعتبر نفسي سعيداً إذاً ما قدر لطاقتني أن تكفي لهذه المهمة الشاقة للغاية؛ وإنني أخشى كثيراً بأنها لن تكفي، على كل حال سوف أسعى كل مسعى؛ وإذا لم أكُن، يمكن إشراك أحد آخر. ولكي أكون

صادقاً، فإن القضية تثير اهتمامي أكثر من أن أستطيع الاستغناء عن كل مشاركة. وإذا لم يتحمّل قلبي الأمر، فإنه على الأقل سيجد هنا فرصة جديرة كي يتوقف كلياً. وظن ك أنه لا يفهم كلمة من هذا الكلام كله، وتطلع إلى العم يلتسم إياضحاً منه، لكن هذا كان يجلس، والشمعة في يده، على المنضدة الصغيرة التي كانت زجاجة أدوية قد تدحرجت منها إلى السجادة، وراح يومئ برأسه إلى كل ما ي قوله المحامي، وكان موافقاً على كل شيء، وأنشأ ينظر إلى ك بين الفينة والأخرى يدعوه إلى الموافقة نفسها. هل كان العم ربما قد حدث المحامي من قبل عن القضية، لكن هذا كان مُحالاً، فكل ما سبق يعارض ذلك. لذا قال: «لأفهم». «نعم، هل أسأت فهمك ربما؟» سأل المحامي مندهشاً ومحترماً مثل ك. «لعلني كنت متسرعاً. عما أردت أن تتحدث معي؟ ظننت أن الموضوع يتعلق بمحاكمةك؟». «طبعاً»، قال العم وسأل ك من ثم: «ماذا تريد إذا؟». «نعم، لكن من أين تعرف إذا شيئاً عنني وعن محاكمي؟» سأل ك. «آه، هكذا»، قال المحامي وهو يتتسّم، «إنني محام، وأنا أختلف إلى الدوائر القضائية، ويتحدث المرء عنمحاكمات مختلفة وأكثر إثارة للانتباه، ولاسيما إذا كانت تتعلق بابن أخي صديق، فإن المرء يحتفظ بها في ذاكرته. وليس هذا شيئاً يدعو للاستغراب». «ماذا تريد إذا؟» سأل العم ك مرة ثانية، «إنك مضطرب للغاية». «إنك تختلف إلى هذه الدوائر القضائية»، سأل ك. «نعم»، قال المحامي. «إنك تسأل مثل طفل»، قال العم. «من على أن أحاط، إذا لم يكن أناساً من مجال عملي؟» أضاف المحامي. وبدا كلامه غير قابل للنقض بحيث أن ك لم يجب قط. «إنك تعمل ولاري ب لدى المحكمة في القصر العدلي، وليس لدى المحكمة في العلية على السطح»، أراد أن يقول، لكنه لم يستطع أن يحمل نفسه على أن يقول ذلك فعلاً. «عليك أن تفكّر»، تابع المحامي كلامه بهجة كأنه يشرح شيئاً بدبيهياً، بغير موجب وغَرضاً، «عليك

أن تفكك أني من مثل هذه المخالطة أحصل على منافع كبيرة لزيائي، وذلك من عدة نواحٍ. ولا يجوز للمرء حتى أن يتحدث دائماً عن هذا. وطبعاً إنني الآن معاق بعض الشيء نتيجة مرضي، لكنني رغم ذلك ألتقي زيارات أصدقاء حميمين من المحكمة وأعلم بعض الأمور. وربما أعلم أكثر من بعض الذين يقضون طوال اليوم لدى المحكمة وهم في خير صحة وعافية. وهكذا لدى الآن بالذات على سبيل المثال ضيف عزيز». وأشار إلى ركن مظلم من أركان الحجرة. «أين إذًا؟» سأل ك في المفاجأة الأولى على نحو فظ تقريباً. ونظر حوله نظرة حائرة؛ ولم يكن ضوء الشمعة الصغيرة لينفذ إلى الجدار المقابل. وفعلاً بدأ هناك في الرواية شيء يتحرك. وفي ضوء الشمعة التي كان العم يرفعها الآن بيده، رأى المرء هناك رجلاً متقدماً في السن يجلس إلى طاولة صغيرة. لابد أنه لم يتنفس قط، حتى يكون قد ظل طوال هذه المدة دون أن يشعر به أحد. والآن نهض على نحو متكلف وغير راض على ما يبدو عن لفت الأنظار إليه. كان الحال كأنه يريد أن يصدّ بيديه، اللتين كان يحركهما مثل جناحين قصرين، كل تقديم وتحية، كأنه لا يريد بأي حال إزعاج الآخرين بوجوده، وكأنه ينشد أن ينقل إلى الظلمة ثانية وأن ينسى وجوده. لكن لم يعد بالإمكان الآن الإقرار له بهذه. «الحق أنكما فاجأتمانَا»، قال المحامي موضحاً وهو يلوح للرجل بيده مشجعاً إياه للاقرابة، الأمر الذي قام به هذا بيضاء وهو يجعل النظر متراجعاً لكن بقدر من الوقار، «السيد مدير الديوان، آه هكذا، المعذرة، فأنا لم أقم بالتعريف - هذا صديقي ألبرت ك، وهذا ابن أخيه الوكيل القانوني يوسف ك وهذا هو السيد مدير الديوان - لقد تكرم السيد مدير الديوان بزيارتني إذًا. وفي الواقع لا يستطيع تقدير قيمة مثل هذه الزيارة سوى المطلع، والذي يعرف مدى العمل الذي يشق عاتق السيد مدير الديوان. ورغم ذلك حضر إذًا، وتحدثنا بهدوء وبقدر ما سمع به ضعفي، صحيح أنها لم تمنع لني من إدخال ضيوف، إذ لم نكن

توقع قدوم أحد، لكن رأينا كان ولاريب أنه كان يجب أن نظل وحدنا، لكن من ثم جاءت ضربات قبضتك، يا ألبرت، فتحررك السيد مدير الديوان مع الكرسي والطاولة إلى الزاوية، أما الآن فيظهر أنه من الممكن، هذا يعني إذا وجدت رغبة في ذلك، أن يكون علينا أن نتحدث في مسألة مشتركة ويمكنا جدًا أن نجلس سوية. السيد مدير الديوان»، قال بانحناءة رأسه وبتسامة خضوع وأشار إلى مقعد وثير بالقرب من السرير. «لا أستطيع مع الأسف أن أبقى سوى بضع دقائق»، قال مدير الديوان بهجة ودية، وجلس في المقعد الوثير براحة، ونظر إلى الساعة، «الأعمال تنادي بي. على كل حال لا أريد أن أدع الفرصة تمر بالتعرف على صديق لصديقي». وأمال رأسه قليلاً صوب العم الذي بدا في غاية السرور من الصحبة الجديدة ولكن الذي لم يكن طبقاً لطبيعته يقدر على التعبير عن مشاعر الامتنال، فأطلق ضحكة حائرة لكنها عالية راقت كلمات مدير الديوان. مشهد بشع! وكان في ميسور كمراقبة كل شيء بهدوء، إذ لم يكن أحد يهتم به؛ كان مدير الديوان، حين كان قد أخرج من مكتمه، قد استلم ناصية الحديث، كما هي عادته على مايبدو؛ وراح المحامي، الذي لم يكن ضعفه الأولى يراد به ربما سوى طرد الضيوفين، يستمع باهتمام، وهو يضع يده خلف أذنه؛ وكان العم حامل الشمعة - كان يحافظ على توازن الشمعة على فخذه، وكان المحامي ينظر مراراً إلى هناك في قلق - قد تخلص بعد قليل من الارتباك وراح يتنهج وحسب من طريقة حديث مدير الديوان ومن حركات يده الناعمة المتموجة التي كان يرافق حديثه بها. أما لك، الذي كان يستند إلى قائمة السرير، فقد أهمله مدير الديوان كلياً بل وربما عمداً وتحول إلى مجرد مستمع إلى الرجال كبار السن. وللمناسبة، لم يكن يكاد يعرف عما كان الحديث يدور، وما لبث أن فكر تارة بالممارضة والمعاملة السيئة التي لاقتها من العم، وتارة فيما إذا لم يكن قد رأى مدير الديوان ذات مرة، بل وربما كان ذلك

في الاجتماع لدى التحقيق الأول معه. وحتى إن كان قد أخطأ الظن، فقد كان من شأن مدير الديوان أن يناسب على خير وجه المشاركين في الاجتماع في الصف الأول، الرجال كبار السن ذوي اللحى الحفيفة.

هنا أتت ضجة من الحجرة الأمامية، كأنها صوت آنية خفية انكسرت، جعلت الجميع يرهفون السمع. «أريد أن أرى ماذا حدث»، قال ك وخرج بيطء وكأنه يعطي الآخرين فرصة لإيقائه. وما كاد يدخل إلى الحجرة الأمامية ويتلمس طريقه في الظلام، ولا يزال يمسك الباب بيده، حتى حطت يد صغيرة، أصغر بكثير من يد ك، على يده وأغلقت الباب بهدوء. تلك كانت المرضة التي كانت قد انتظرت هنا. «لم يحدث شيء»، همست، «قذفت وحسبت صحناً على الحائط حتى أخرجلك». وفي ارتباكه قال ك: «أنا أيضاً فكرت بك». «هذا أفضل»، قالت المرضة، «تعال». وبعد بعض خطوات بلغا باباً من زجاج مُصنَّف فتحته المرضة أمام ك. «لتدخل»، قالت. كانت على كل حال حجرة مكتب المحامي؛ وبقدر ما رؤي منها في ضوء القمر الذي لم يكن ينير إنارة شديدة سوى جزء صغير مربع من الأرضية عند كل نافذة من النافذتين الكبيرتين، كانت مؤثثة باثاث ثقيل قديم. «إلى هنا»، قالت المرضة وأشارت إلى صندوق داكن ذي مسند خشبي منقوش. وحتى بعد أن جلس ك، راح يحول بنظريه في الحجرة، وكانت حجرة عالية كبيرة، ولا بدّ لموكل محامي الفقراء أن يحال نفسه ضائعاً هنا. وظن ك أنه يرى الخطوط الصغيرة التي كان الزوار يتقدمون بها إلى طاولة المكتب الضخمة. لكنه من ثم نسي ذلك ولم يعد له عينان سوى للممرضة التي جلس إلى جانبه وقد التصقت به وكانت تلصقه بالمسند الجاني. قالت: «ظننت أنك ستخرج إلي من تلقاء نفسك دون أن أضطر إلى مناداتك أولاً. كان الأمر غريباً. في البدء رحت فور دخولك تنظر إلى

بلا انقطاع ثم تركتني أنتظر». «وللمناسبة، ادعوني لني»، أضافت بسرعة ودون تمهيد، وكأنه لا يجوز إضاعة لحظة من لحظات هذا الحديث. «برغبة»، قال ك، «أما فيما يتعلق بالغرابة، لني، فإنه من السهل تفسيرها. لقد كان عليًّا أولًا أن أستمع إلى ثرثرة الشيوخ ولم يكن في مقدوري أن أنصرف بلا سبب، لكنني ثانيةً لست جريئاً، بل خجولاً بالأحرى، وأنت أيضاً لني لم يد عليك حقاً أنه من شأنك أن يُحظى بك بقفزة واحدة». «ليس الأمر هكذا»، قالت لني، ووضعت ذراعها فوق المسند، ونظرت إلى ك، «لكنني لم أعجبك ولا أعجبك الآن أيضاً على الأرجح». «من شأن الإعجاب ألا يكون شيئاً كثيراً»، قال ك متهرباً. «أوه!» قالت وهي تبتسم وقد اكتسبت من خلال ملاحظة ك وبفضل هذا النداء تفوقاً ما. لذا فقد لاذ ك بالصمت هنيهة. وإذا أنه كان قد تعود على الظلام في الحجرة، فقد استطاع أن يميز شتى تفاصيل الأثاث. وبشكل خاص لفت نظره صورة كبيرة كانت معلقة على عين الباب، فانحنى كي يراها على نحو أفضل. كانت تمثل رجلاً في رداء القضاة الرسمي؛ كان يجلس على كرسي عرش عال يبرز طلاءه الذهبي من الصورة على نحو مت نوع. والأمر غير المألوف كان أن هذا القاضي لم يكن يجلس هناك بهدوء ووقار، وإنما كان يضغط ذراعه اليسرى بقوة على المسند الخلفي والجانبي، لكنه ترك ذراعه اليمنى طلقة كلية، وأطبق باليد فقط على المسند الجانبي، وكأنه يريد في اللحظة التالية وبدوره عنيفة وربما ساخطة أن يفتر كي يقول شيئاً حاسماً أو حتى أن ينطق بالحكم. وكان لابد من تصور المدعى عليه في أسفل السلم الذي ظهرت درجاته العليا وقد فرشت بسجادة صفراء. «ربما كان هذا قاضي»، قال ك وأشار إلى الصورة باصبع. «إبني أعرفه»، قالت لني ورفعت نظرها أيضاً إلى الصورة، «كثيراً ما يأتي إلى هنا. والصورة تعود إلى أيام شبابه، لكن لا يمكنه أن يكون قد شابه الصورة قط مجرد مشابهة، إذ أنه صغير جداً تقريراً.

ورغم ذلك ترك نفسه يُمَدِّ في الصورة، فهو معجب بنفسه على نحو جنوني، مثل الجميع هنا. لكنني أنا أيضاً معجبة بنفسي ومستاءة جداً لأنني لا أعجبك أبداً». ولم يجب لك على الملاحظة الأخيرة سوى أنه ضمّ لني وجذبها إليه، وقد أنسنت رأسها بهدوء إلى كتفيه. لكن عما تبقى، فقد سأله: «ما هي رتبته؟». «إنه قاضي تحقيق»، قالت وأمسكت يدك التي كان يطوقها بها وراحت تعبث بأنامله. «مرة أخرى قاضي تحقيق وحسب»، قال لك خائب الأمل، «إن الموظفين الكبار يختفون. لكنه يجلس على كرسي عرش». «كل هذا هو اختلاق»، قالت لني وقد حنت وجهها فوق يدك، «إنه يجلس في حقيقة الأمر على كرسي مطبخ كُوْمَت فوقها بُلَادَة عتيقة. لكن هل يجب أن تفكّر على الدوام بقضيتك؟» أضافت ببطء. «لا، أبداً»، قال لك، «بل إنني على الأرجح أفكّر بها أقل من اللازم». «ليس هذا هو الخطأ الذي تقرّفه»، قالت لني، «إنك صعب المراس، هكذا سمعت». «من قال ذلك؟» سأله، واستشعر جسدها على صدره، ونظر إلى شعرها الكثيف الغامق المضفر. «لقد بحث بالكثير إذ قلت هذا»، أجابت لني. «من فضلك لا تسأل عن أسماء، أصلح خطأك، لاتكون صعب المراس هكذا بعد الآن، هذه المحكمة لا يمكن صدّها، على المرء أن يتقدم بالاعتراف. فلتتقدّم بالاعتراف لدى أول مناسبة. عند ذاك وحسب، تتوافر إمكانية الإفلات، وليس قبل ذلك. لكن حتى هذا غير ممكن بدون معونة الغير، لكن بسبب هذه المعونة لا ينبغي عليك أن تقلق، فأنا أريد أن أقدمها لك بنفسني». «إنك تفهمين كثيراً من أمر هذه المحكمة ومن الخدائع الضرورية هنا»، قال لك ورفعها، إذ التصقت به التصاقاً شديداً، إلى حضنه. «هكذا حسن»، قالت واستقرت في حضنه بأن سوت تتوّرها وعدلت بلوزتها. ثم تعلقت برقبته بكلتا يديها، مالت إلى الوراء وتطلعت إليه طويلاً. «وإذا لم أتقدم بالاعتراف، فلا تستطيعين مساعدتي؟» سأله على سبيل التجربة. أكسب

معاونات، فكر في عجب تقريرأً، أولاً الآنسة بورستنر، ثم زوجة حاجب المحكمة وأخيراً هذه الممرضة الصغيرة، التي تبدو أنها تحتاج إلى حاجة غير قابلة للفهم. كيف تجلس في حضني، وكأنه مكانها الصحيح الوحيدة! «لا»، أجابت لني وهزت رأسها بيضاء، «فلا أستطيع مساعدتك. لكنك لا ت يريد أن أساعدك أبداً، إن مساعدتي لك لاتهمك في شيءٍ، إنك عنيد ولا تقنعني». «هل لديك عشيقه؟» سألت بعد هنئية. «لا»، قال لـ. «أوه بلـ»، قالت. «نعم، فعلـ»، قال لـ، «فـكري وحسب، لقد أنكرتها وأحمل حتى صورتها معي». وبناء على طلباتها أراها صورة إلـزا، وراحـت، وهي منكمشة في حضنه، تدرس الصورة. كانت صورة خاطفة، أخذـت لإلـزا بعد رقصة دوارة، كما كانت تحب تأديتها في حانـة النبيـذ، كانت تدورـتها تطير حولـها في رمية الشـايا للدـوران، وكانت تضع يديـها على رـديـها، وتـنظر إلىـ الجانب ضـاحـكة وقد شـدت عـنقـها؛ ولم يكنـ في مقدورـ المرءـ أنـ يـعـرفـ منـ الصـورـةـ منـ هوـ المـقصـودـ بالـضـاحـكةـ. «إنـهاـ تـلبـسـ مشـدـداـ ضـيـقاـ جـداـ»، قـالتـ لـنيـ وأشارـتـ إلىـ المـوضـعـ الـذـيـ يـرـىـ فـيهـ هـذـاـ حـسـبـ رـأـيـهاـ. «إـنـهـ لـأـعـجـبـنـيـ»، فـهيـ غـشـيمـةـ وـجـلـفـةـ. لـكـنـ رـجـماـ تـكـونـ وـدـيـعـةـ وـلـطـيفـةـ حـيـالـكـ، وـهـذـاـ مـاـ يـكـنـ فـهيـ غـشـيمـةـ وـجـلـفـةـ. هـكـذاـ فـتـيـاتـ طـوـيـلـاتـ وـقـوـيـاتـ لـأـعـرـفـ فـيـ الـفـالـبـ أـنـ يـكـنـ شـيـعاـ آخـرـ سـوـىـ وـدـيـعـاتـ وـلـطـيفـاتـ. لـكـنـ هـلـ مـنـ شـائـهاـ أـنـ تـسـتـطـعـ التـضـحـيـةـ بـنـفـسـهـاـ فـيـ سـيـلـكـ؟ـ»، «لاـ»، قـالـ لـ، «لاـ هيـ وـدـيـعـةـ وـلـطـيفـةـ، وـلـيـسـ مـنـ شـائـهاـ أـنـ تـسـتـطـعـ التـضـحـيـةـ فـيـ سـيـلـيـ». كـمـاـ أـنـيـ حـتـىـ الـآنـ لـمـ أـطـلـبـ مـنـهـاـ لـهـذـاـ وـلـاـ ذـاكـ. بـلـ حـتـىـ لـمـ أـنـظـرـ إـلـىـ الصـورـةـ بـدـقـةـ هـكـذاـ مـثـلـكـ»، «لـاتـولـيـهاـ إـذـاـ عـنـيـةـ كـبـرـىـ أـبـداـ»، قـالتـ لـنيـ، «ليـسـ إـذـاـ عـشـيقـتـكـ أـبـداـ»، «بـلـ»، قـالـ لـ، «إـنـيـ لـأـسـحـبـ كـلـمـيـ»، «قـدـ تـكـونـ إـذـاـ الـآنـ عـشـيقـتـكـ»، قـالتـ لـنيـ، «لـكـنـ لـنـ يـكـونـ مـنـ شـائـكـ أـنـ تـفـقـدـهـاـ إـذـاـ مـاـفـقـدـتـهـاـ أـوـ اـسـبـدـلـتـهـاـ بـأـخـرـىـ، بـيـ مـثـلـاـ»، «لـاشـكـ»، قـالـ لـ، وـهـوـ يـتـسـمـ، «هـذـاـ مـمـكـنـ، لـكـنـهاـ تـمـتـعـ

جميزة كبرى عليك، فهي لا تعرف شيئاً عن محاكمتي، وحتى لو عرفت شيئاً عنها، فإنها لن تفكّر بذلك. وليس من شأنها أن تحاول إقناعي بلين الجانب». «هذا ليس ميزة»، قالت لني، «إذا لم يكن لديها ميزات أخرى، فلن أفقد الهمة. هل لديها أية عاهة؟». «عاهة؟» سأله. «نعم»، قالت لني، فأنا بي مثل هذا العيب الصغير، انظر». وباعدت بين الإصبع الوسطى والبنصر يدها اليمنى اللذين كان يربط بينهما غشاء يصل إلى المفصل الأعلى للإصبعين القصرين. وفي العتمة لم يلاحظ ك حالاً ما أرادت أن تريه إياه، لذا فقد مررت يده على الموضع كي يتحسسها. «أية لعبة للطبيعة»، قال ك وأضاف، إذ شمل اليد كلها بنظرة: «أي مخلب جميل! وبنوع من الفخر راحت لني تراقب كيف راح ك يمدد إصبعيها ويضمّهما مرة بعد الأخرى، حتى قبلهما أخيراً قبلة حافظة وتركتهما. «أوه!» لكنها صاحت على الفور، «لقد قبّلتني!» وعلى عجل تسلقت حضنه بركتبتها وقد فتحت فمها، وتطلع ك إليها وهو مذهول تقريباً، وإذا كانت الآن قريبة جداً منه فاحت منها رائحة حادة مثيرة كأنها رائحة فلفل؛ تناولت رأسه، وانحنت فوقه، وراحت تعضّ وتنقبل عنقه، بل وعcessت في شعره. «لقد استبدلتني»، راحت تصيب بين حين وآخر، «انظر الآن استبدلتني ولاشك!» وهنا زلت ركتبتها، وكانت تقع على السجادة وهي تطلق صرخة صغيرة، ضمتها ك كي لاتقع، لكنه سحب إليها. «الآن أنت لي»، قالت.

«إليك مفتاح البيت، تعال متى تشاء»، كانت كلماتها الأخيرة، وقبلة بلا هدف أصابته على ظهره أثناء الانصراف. وحين خرج من باب البيت كان ثمة مطر خفيف يتتساقط، وأراد أن يسير وسط الشارع ربما كي يستطيع أن يلمع لني وهي تقف إلى النافذة، فإذا بالعم يشب من عربة كانت تنتظر أمام البيت دون أن يكون ك في شroud فكره قد لاحظها أبداً، وأمسكه

من ذراعيه وصدمه بباب المبنى، وكأنه أراد أن يسمّره عليه. «أيها الفتى»، صاح، «كيف أمكنك فقط أن تفعل هذا! لقد أساءت للغاية إلى قضيتك، التي كانت على طريق سليم. تخبيء مع فتاة صغيرة قدرة يبدو أنها بالإضافة إلى ذلك عشيقة المحامي، وتغيب طوال ساعات. ولا تبحث حتى عن ذريعة، ولا تخفي شيئاً، لا، إنك صريح كلياً، تجري إليها وتمكث عندها. وفي هذه الأثناء نجلس سوية، العم الذي يجهد نفسه في سبilk، والمحامي الذي يجب كسبه من أجلك، ومدير الديوان قبلهما، هذا الرجل العظيم، الذي يسيطر حقاً على قضيتك في مرحلتها الحالية. نريد أن نتشارو في كيف قد يمكن مساعدتك، وعلى أن أعامل المحامي بحذر، وهذا من جديد مدير الديوان، وكان يحق لك أن تدعمني على الأقل. وبخلاف ذلك تغيب. ثم إن الموضوع لا يخفى، والرجلان مهذبان لبقان، إنهم لا يتحدثان عنه، يترفقان بي، لكنهما أخيراً هما أيضاً لا يستطيعان حمل أنفسهما بعد وإذ لا يستطيعان التحدث عن الموضوع يلوذان بالصمت. لقد جلسنا صامتين طوال دقائق وأرهقنا السمع علىك ثانية أخيراً. كل شيء بلا جدوى. وأخيراً ينهض مدير الديوان، الذي مكث مدة أطول بكثير مما كان يريد في الأصل، ويودع، وهو يرثي حالياً بشكل ملحوظ دون أن يتمكن من مساعدتي، ينتظر بلطف غير قابل للفهم مدة وهو يقف بالباب، ثم ينصرف. وكنت سعيداً طبعاً لانصرافه، فقد كان نفسي قد انقطع. وعلى المحامي المريض أثر كل شيء تأثيراً أشد، فلم يستطع، الرجل الطيب، أن يتكلم أبداً، عندما ودعته. لقد ساهمت على الأرجح في انهياره الكامل وتعجل هكذا بموت رجل تحتاج إليه. وأنا، عمك، تركني في المطر هنا، المعن فقط، إني مبتل كلياً، أنتظر طوال ساعات».

نص جزئي

حين خرجا من المسرح كان مطر خفيف يتساقط. وكان لك متعباً على كل حال من المسرحية والعرض السيء، لكن فكرة أن عليه أن يأوي العم لديه أثارت الحيرة والكآبة في نفسه إلى حد كبير. كان يهمه جداً، اليوم بالذات، أن يتحدث مع ف.ب.^(*)، وربما كان بالإمكان العثور على فرصة للالتقاء بها، غير أن رفة العم منعت ذلك كلياً. لكن كان ثمة قطار ليلي يمكن للعم أن يستخدمه، غير أن دفعه إلى السفر اليوم بدا أمراً محالاً كلياً، إذ كانت قضية لك تشغله للغاية. ورغم ذلك قام لك بمحاولة دون أن يأمل منها كثيراً. «أخشى، أيها العم»، قال، «أنني سوف أحتج فعلًا إلى مساعدة منك في الفترة القادمة. ومازلت لا أرى تماماً، في أي اتجاه، لكنني على كل حال سوف أحتج إليها». «يمكنك أن تعتمد عليّ»، قال العم، «إنني لا أفكر طوال الوقت سوى في كيف يمكن للمرء أن يساعدك». «إنك دائماً كمهدى بك»، قال لك، «لكنني أخشى فقط أن زوجة العم ستزعل مني عندما سأضطر قريباً إلى أن أرجوك أن تأتي إلى المدينة مرة أخرى». «قضيتك أهم من أمثال هذه المضايقات». «هذا ما لا أستطيع الموافقة عليه»،

(*) - الحرفان الأولان من «الأنسة بورستن» (أ.و).

قال لك، «لكن مهما كان الأمر، فإنني لا أريد إقصاءك عن زوجة العم بلا ضرورة، ومن الراجح إنني أحتجلك في أقرب الأيام، ألا تحب إذاً أن تسرف في الوقت الحاضر؟». «غداً؟». «نعم غداً»، قال لك، «أو ربما الآن بالقطار الليلي، من شأن هذا أن يكون الأكثـر راحـة».

في الكاتدرائية

كُلُّ كَبَأنْ يُرِي بعْض الآثار الفنية لصديق عمل إيطالي من أصدقاء المصرف كان في غاية الأهمية بالنسبة إليه ويتوقف لأول مرة في هذه المدينة. كانت مهمة من شأنه في وقت آخر أن يعتبرها ولاشك مشروفة، لكنه الآن، وهو لا يستطيع أن يحفظ سمعته في المصرف سوى بجهد كبير، فقد قام بها على كره منه. كانت كل ساعة يُقصى فيها عن المكتب تسبب له كدرًا، صحيح أنه لم يعد في مقدوره أن يستغل وقت العمل كثيراً مثل السابق، حيث لم يكن يقضى بعض الساعات سوى بأقل ما يمكن من ظاهر عمل حقيقي، لكن همومه كانت تزداد عندما لا يكون في المكتب. في مثل هذه الحالة كان يتوجه كيف كان نائب المدير، الذي كان دائماً يقف بالمرصاد، يدخل إلى مكتبه من حين إلى آخر، ويجلس إلى طاولته، ويفتش أوراقه، ويستقبل زبائن للمصرف كان كـ يصادفهم تقريراً منذ أعوام، ويرغبهم عنه، لا بل وقد يكتشف حتى أخطاء راح كـ أثناء العمل الآن يرى أنها تهدده من ألف ناحية ولم يعد في مقدوره أن يتتجنبها. لذا كان إذا ما كُلُّف مرة، ولو كان ذلك تكريراً، بمهمة عمل أو حتى بالقيام بسفرة صغيرة - كانت مثل هذه المهام قد تكاثرت جداً في الفترة الأخيرة عن طريق الصدفة - فكان الظن يغلب على كل حال بأن المرأة إنما يريد إبعاده عن

المكتب فترة وجيزة ويراجع عمله، أو أن المرء يرى على الأقل أنه يسهل الاستغناء عنه في المكتب. وكان في مقدوره أن يرفض معظم هذه المهمات دون صعوبة، لكنه لم يكن يجرؤ على ذلك، إذ، ولو كان تخوفه يقوم على أوهى سبب، أن رفضه القيام بالمهمة كان يعني اعترافاً بخوفه. وللهذا السبب كان يقبل مثل هذه المهام هادئ النفس في الظاهر، حتى أنه عندما كان عليه أن يقوم بسفرة عمل مجده استغرقت يومين، أخفى إصابة برد جدية لا لسبب سوى لكي لا يعرض نفسه لخطر إعاقته عن القيام بالرحلة بدعوة الطقس الخريفي الممطر السائد الآن. وحينما عاد من هذه السفرة بصداع عنيف، علم أنه قد تم اختياره لمراقبة صديق العمل الإيطالي في اليوم التالي. وكان الإغراء بأن يرفض هذه المرة الواحدة على الأقل كبيراً جداً، ولا سيما أن ما كان قد قرر له لم يكن عملاً متعلقاً بعمل المكتب على نحو مباشر، كان أداء هذا الواجب الاجتماعي إزاء صديق العمل، بحد ذاته ذا أهمية كافية ولاشك، وليس بالنسبة إلى ك وحده، الذي كان يعرف أنه لا يستطيع الحفاظ على وظيفته سوى من خلال تحقيق نجاحات في العمل، وأنه كان عديم القيمة كلياً إذا لم يتم له ذلك، بل حتى إذا كان عليه أن يسحر هذا الإيطالي على نحو غير متوقع؛ لم يكن يريد أن يُبعد من مجال العمل حتى لمدة يوم واحد، إذ أن الخوف من عدم السماح له بالعودة بعد ذلك كان كبيراً، وقد أدرك بكل دقة أن هذا الخوف كان مبالغ فيه، لكنه كان يضايقه. غير أن في هذه الحالة كان من الحال تقريراً إيجاد عذر مقبول، حقيقةً إن معرفة ك باللغة الإيطالية لم تكن كبيرة جداً، لكنها كافية على كل حال؛ لكن الأمر الحاسم هو أن ك إنما كان يلمّ منذ وقت سابق بعض المعلومات في مجال تاريخ الفنون، الأمر الذي أصبح، بطريقة مبالغ فيها إلى أقصى حد، معروفاً في المصرف، وذلك لأن ك، وللمناسبة، أيضاً لأسباب تتعلق بالعمل وحسب، إنما كان لبعض الوقت عضواً في جمعية الحفاظ على

الآثار الفنية في المدينة. أما الآن فقد كان الإيطالي مولعاً بالفنون كما أشيع عنه، ولذا كان اختياره لك مراجعاً له أمراً بدبيها.

كان صباحاً عاصفاً مطراً للغاية حينما جاء لك منذ الساعة السابعة إلى المكتب، والغبار يملئه من اليوم الذي يتضنه، لكنه ينجز على الأقل بعض العمل قبل أن تقصيه الزيارة عن كل شيء. وكان متبعاً للغاية، إذ أنه كان قد أمضى نصف الليل في دراسة قواعد لغة إيطالية كي يحضر بعض الشيء، وكانت النافذة التي اعتاد في الفترة الأخيرة أن يجلس إليها كثيراً جداً، تجدها أكثر من المكتب، لكنه قاوم وجلس إلى العمل. وللأسف دخل الخادم الآن وأخبر أن السيد المدير أرسله كي يرى فيما إذا كان السيد الوكيل القانوني قد حضر؛ وإذا كان هنا، فيرجى أن يتفضل بالذهاب إلى حجرة الاستقبال، السيد القادر من إيطاليا قد وصل. «سأحضر حالاً»، قال لك، دسّ قاموساً صغيراً في جيده، وضع تحت إبطه ألبوم صور معالم المدينة كان قد هبأه للغريب، وعبر حجرة نائب المدير وذهب إلى حجرة المدير. وكان سعيداً لأنه أتى إلى المكتب في وقت باكر هكذا ويكتبه أن يكون تحت التصرف في الحال، الأمر الذي لم يكن أحد قد توقعه حقاً. وكان مكتب نائب المدير خالياً طبعاً مثلما يكون في ساعة متأخرة من الليل، وعلى الأرجح كان الخادم مكلفاً بدعوة نائب المدير أيضاً للحضور إلى حجرة الاستقبال، لكن دوى جدو. وحين دخل لك إلى حجرة الاستقبال نهض الرجلان من المقعدتين الوثيرتين العميقين. وابتسم المدير ابتسامة ودية، وكان على مايدو مسروراً للغاية لحضورك، وقام بالتعريف حالاً، وهزّ الإيطالي يدك بقوة، وسمى أحدهم، وهو يبتسم، مبكراً، ولم يفهم لك بدقة من كان يعني، وكانت فوق ذلك كلمة غريبة لم يحدس لك معناها سوى بعد برهة. وأجاب بعض الجمل السهلة، التي تلقاها الإيطالي وهو يضحك ثانية في

حين راح يمسح ييد عصبية شاربه الكث ذا اللون الأزرق الرمادي. وكان هذا الشارب معطّراً على ما ييدو، وكان المرء يجتمع تقريراً إلى الاقراب منه وشمه. وحين جلس الجميع وبدأ حديث تمهيدي صغير، لاحظ لك بازتعاج كبير أنه لم يفهم الإيطالي سوى جزئياً. عندما كان يتحدث بكل هدوء، كان يفهمه كلياً تقريراً، لكن هذا لم يكن سوى استثناءات نادرة، فغالباً ما كان الكلام يتذبذب من فمه بمعنى الكلمة، وكان يهز رأسه كأنه يتلذذ بذلك. لكنه لدى مثل هذا الكلام تورّط على نحو منتظم في لهجة ما لم يعد لها بالنسبة إلى لك شيء من الإيطالية، لكن المدير لم يفهمها فحسب، وإنما تحدث بها أيضاً، الأمر الذي كان في مقدور لك أن يتوقعه، إذ أن الإيطالي هو من جنوب إيطاليا، حيث كان المدير أيضاً بضعة أعوام. وعلى كل حال أدرك لك أن إمكانية تفاهمه مع الإيطالي إنما قد أخذت منه إلى أكبر حد، إذ أن لغته الفرنسية أيضاً لم تكون لتفهم سوى بصعوبة، كما أن الشارب كان يغضي حركات الشفتين التي كان من شأن رويتها ربما أن تساعد في الفهم. وببدأ لك يتوقع كثيراً من المتاعب، وكفّ حالياً عن السعي إلى فهم الإيطالي - في حضور المدير الذي كان يفهمه بسهولة، كان من شأن ذلك أن يكون مسعى غير ضروري - واقتصر على مراقبته باستثناء، كيف كان يستريح عميقاً في المقعد الوثير لكن في خفة رغم ذلك، وكيف كان يشد مراراً وتكراراً صدريته القصيرة المقصوصة بشكل مدبلب، وكيف حاول مرة، بذراعين مرفوعين ويدين تحرّكَان عند المفاصل بشكل سائب، أن يمثل شيئاً ما لم يستطع لك أن يفهمه، رغم أنه لم يصرف نظره عن اليدين وهو يبيل بجسمه إلى الأمام. وأخيراً ظهر الإلاعياء السابق على لك، الذي راح، دون أن يكون مشغولاً بشيء آخر، يتابع الحديث آلياً وحسب بنظرات تروح وتجيء، وهاله الأمر إذ ضبط نفسه مرة، لكن في اللحظة المناسبة

حسن الحظ، أنه في شروده أراد أن بهم بالنهوض ويستدير وينصرف. وأخيراً نظر الإيطالي إلى ساعته وانتفض واقفاً. وبعد أن ودع المدير، اندفع إلى ك واقترب منه اقتراباً شديداً إلى درجة أن ك اضطر إلى أن يدفع مقعده إلى الوراء حتى يتمكن من الحركة. أما المدير، الذي لابد وأنه أدرك من عيني ك الضيق الذي يتواجد فيه إزاء هذا الإيطالي، فإنه تدخل في الحديث وذلك في فطنة ورقة بحيث أن الأمر بدا وكأنه يضيف مجرد نصائح صغيرة، في حين أنه في الحقيقة أفهم ك بإيجاز شديد كل ما قدمه الإيطالي وهو لا يبني يقطع عليه حديثه. وقد علم ك منه أن الإيطالي مازال عليه حالياً أن يقضي بعض الأعمال وأنه بعامة لن يكون لديه سوى وقت قليل وأنه أيضاً لا ينوي بأي حال أن يمر بسرعة على كل المعلم، وأنه بالأحرى - لكن فقط إذا وافق ك، لديه وحده يقع القرار - قرر مشاهدة الكاتدرائية وحدها، لكن هذه بعنابة وتعقق. ويسره بشكل بالغ أن يقوم بهذه المشاهدة برفقة رجل عالم ولطيف هكذا - وكان المقصود بهذا هو ك الذي لم يكن مشغولاً بشيء آخر سوى تجاهل الإيطالي وفهم كلمات المدير بسرعة - وهو يرجوه، إذا كانت الساعة تناسبه، أن يكون في الكاتدرائية بعد ساعتين في نحو الساعة العاشرة. وهو نفسه يأمل أن يستطيع أن يكون هناك بالتأكيد في هذا الوقت. وأجاب ك ببعض الكلمات المناسبة، وصافح الإيطالي المدير أولاً، ثم ك، ثم المدير مرة ثانية، وذهب إلى الباب، يتبعه الاثنان، لا يلتفت إليهما سوى نصف التفاتة، لكن دون أن يتوقف عن الكلام. وبقي ك فترة وجيزة مع المدير، الذي كان اليوم يبدو متلماً على نحو خاص. كان يظن أنه ينبغي عليه أن يعتذر لـ ك على نحو أو آخر وقال - كانوا يقفان إلى جانب بعضهما بعضاً على نحو وديٍ - إنه في البداية كان ينوي أن يذهب بنفسه مع الإيطالي، غير أنه - لم يذكر سبباً دقيقاً - فر من ثم أنه من الأفضل أن

يرسل لك. وإذا لم يفهم الإيطالي على الفور في البداية، فليس عليه أن يُدْهَش، الفهم سيأتي بسرعة كبيرة، وحتى إذا لم يفهم كثيراً على الإطلاق، فليس هذا شيئاً في غاية السوء، إذ أن الإيطالي لا يعلق أهمية كبيرة على أن يُفْهَم. وللمناسبة، إن لغة لك الإيطالية جيدة بشكل مفاجئ، ولاشك أنه سوف يقوم بالأمر على خير وجه. وبهذا وُدِعَ لك. وأمضى الوقت الذي بقي له في البحث عن مفردات نادرة الاستعمال كان يحتاجها للإرشاد في الكاتدرائية ونسخها عن القاموس. كان هذا العمل مرهقاً للغاية، وجاء خدم بالبريد، وأتى موظفون باستفسارات مختلفة، وظلوا، إذ رأوا لك مشغولاً، واقفين بالباب، لكن دون أن يبدوا حراكاً، حتى استمع لك إليهم، ولم يفت نائب المدير أن يزعم لك، فقد دخل مراراً وأخذ القاموس من يده وقلب فيه دونما أي هدف على ما يبدو، وحتى زبائن ظهروا، عندما كان الباب يفتح، في شبه ظلام الحجرة الأمامية، وانحنوا في تردد، راغبين في لفت الانتباه إليهم، لكنهم لم يكونوا متاكدين فيما إذا كانوا قد شوهدوا... كل هذا دار حول لك كأنه يدور حول مرتكبه، في حين كان هو نفسه يجمع الكلمات التي كان يحتاجها، ويبحث عنها في القاموس، وينسخها، ثم يتمرن على لفظها، وأخيراً يحاول أن يحفظها عن ظهر قلب. غير أن ذاكرته الجيدة سابقاً بدت أنها خذلته كلية، وكان يتحقق أحياناً على الإيطالي الذي سُبِّ له بذل الجهد هذا، فيدفع القاموس تحت أوراق وقد عقد العزم بثبات على ألا يحضر بعد الآن، لكنه كان لا يلبث أن يرى أنه لن يكون في مقدوره أن يتمشى بصمت مع الإيطالي جيئه وذهاباً أمام الآثار الفنية في الكاتدرائية، فيسحب القاموس مجدداً بحثٍ أكبر.

وتماماً في منتصف الساعة العاشرة حين أراد الانصراف، وردت مكالمة هاتفية، حيثه فيها لني تحية الصباح وسألته عن صحته، شكرها لك على عجل

وقال لها بأن من الحال عليه الآن أن يدخل في حديث، إذ ينبغي عليه أن يذهب إلى الكاتدرائية. «إلى الكاتدرائية؟» سألت لني. «نعم، إلى الكاتدرائية». «لماذا إذاً إلى الكاتدرائية؟» سألت لني. وحاول ك أن يشرح الأمر لها بإيجاز، غير أنه ماكاد يبدأ بذلك، حتى قالت لني فجأة: «إنهم يطاردونك». ولم يكن ك يحتمل تأسفًا لم يشره ولم يتوقعه، ووَدَع ب كلمتين، لكنه قال، وهو يعلق السعادة في مكانها، نصفاً لنفسه ونصفاً لفتاة النائية التي لم يعد يسمعها: «نعم، إنهم يطاردونني».

لكن الوقت كان قد تأخر، وكان ثمة خطر تقريرياً بـألا يصل في الوقت المناسب. وسافر بالسيارة، وكان في اللحظة الأخيرة قد تذكّر ألبوم الصور الذي لم يكن قد وجد فرصة لتسليميه صباحاً والذى أخذه الآن معه. كان يحمله على ركبتيه، وراح يدقّ عليه طوال الطريق في غير ارتياح. كان المطر قد خفّ، لكن الجو كان رطباً وبارداً ومعتماً، لن يرى المرء كثيراً في الكاتدرائية، لكن زـكامـ كـسيـشـتـدـ هناك ولا شـكـ من جـزـاءـ الوقوف الطويل فوق البلاط البارد.

وكان ميدان الكاتدرائية حالياً كلياً، وتذكّر ك أنه منذ كان طفلاً صغيراً لفت انتباهه أن جميع ستائر النوافذ تقريرياً في بيت هذا الميدان الضيق كانت مسدلة دائماً. وفي جـوـ الـيـوـمـ كانـ الـأـمـرـ مـفـهـومـاًـ حقـاًـ أكثرـ منـ أيـ وقتـ آخرـ. والكاتدرائية أيضاً بـدتـ خـالـيةـ، وـلمـ يـخـطـرـ بـيـالـ أحدـ طـبعـاًـ أنـ يـدـخـلـ الآـنـ إـلـيـهاـ. وـاجـتـازـ كـكـلاـ الجـنـاحـينـ، وـلمـ يـلـقـ سـوـىـ اـمـرـأـ عـجـوزـ مـلـتـقـةـ فيـ مـلـأـةـ شـتـورـيةـ كـانـتـ تـرـكـعـ أـمـامـ صـورـةـ لمـريمـ العـذـراءـ وـتـنـظـرـ إـلـيـهاـ. وـمـنـ بـعـيدـ رـأـيـ منـ ثـمـ أـيـضـاـ خـادـماـ أـعـرـجـ يـتـوارـىـ عنـ الـأـنـظـارـ عـبـرـ بـابـ فـيـ الـحـائـطـ. وـكـانـ كـقـدـ أـتـىـ فـيـ الـوـقـتـ المـحـدـدـ، فـعـنـدـ دـخـولـهـ تـمـاماـ دـقـتـ السـاعـةـ الـحادـيةـ عـشـرـةـ، لـكـنـ الإـيطـالـيـ لمـ يـكـنـ هـنـاـ بـعـدـ. وـعـادـ كـ إـلـىـ المـدـخلـ الرـئـيـسيـ،

ووقف هناك بعض نوافذ متعددة، ثم دار تحت المطر حول الكاتدرائية كي يرى فيما إذا كان الإيطالي ربما يتضرر لدى أي مدخل جانبى. لم يكن يوجد في أي مكان. هل يمكن أن يكون المدير قد فهم الساعة على غير حقيقتها؟ وكيف كان يمكن أيضاً فهم هذا الإنسان على نحو صحيح. لكنمهما كان الأمر أيضاً، فقد كان على كى على كل حال أن يتضرره مدة نصف ساعة على الأقل. وإذا كان متبعاً، فقد أراد أن يجلس. دخل إلى الكاتدرائية مرة أخرى، ووجد على إحدى الدرجات حرققة صغيرة تشبه السجاد، فسحبها بطرف قدمه إلى أمام مقعد قريب، التف بمعرفته بإحكام أكثر، رفع اليافة، وجلس. ولكي يلهمي نفسه، فتح ألبوم الصور، وقلب فيه قليلاً، لكنه سرعان ما اضطرب إلى التوقف. إذ عم الظلام بحيث ما كاد في مقدوره، إذ رفع نظره، أن يميز جزئية من حزبيات الجناح القريب.

وفي البعد شقت أضواء شموع على شكل مثلث كبير فوق الهيكل الرئيسي. ولم يكن من شأن كى أن يستطع القول قطعاً فيما إذا كان قد رآها سابقاً. ربما كانت لم تُشعل إلا الآن. إن خدام الكنائس هم متسللون محترفون لا يلمحون. وإذا استدار ك عن طريق الصدفة،رأى حلقه غير بعيد شمعة كبيرة عالية مشببة على عمود تشتعل أيضاً. بقدر ما كان هذا جميلاً، كان غير كاف فقط لإضاءة صور الهيكل التي كانت في معظمها معلقة في ظلمة الهياكل الجانبية، بل كان بالأحرى يزيد الظلمة. كان تصرف الإيطالي معقولاً مثلاً كان غير لائق، أنه لم يحضر. إذ لم يكن بالإمكان رؤية شيء، كان سيكون على المرء أن يكتفي بتفتيش بعض الصور بوصة بوصة بمصباح الجيب الكهربائي الذي يحمله ك. ولكي يجرب ما يمكن للمرء أن يتوقع من ذلك، ذهب ك إلى مصلى جانبى صغير قريب، وصعد بعض درجات حتى بلغ حاجزاً رحاماً واطلاً، فانحنى فوقه وأضاء صورة

بهيكل بالمصباح. وكان الضوء الأبدى معلقاً أمامها حاجباً الرؤية. وكان أول ما شاهده ك وخفن بعضه هو فارس طويل مدرب كان مصوراً في أقصى حافة الصورة. كان يستند على سيفه الذي غرزه في الأرض الحمراء أمامه حيث لم يكن يظهر سوى بعض سويقات العشب. وبدا أنه يراقب باهتمام حدثاً يجري أمامه. وكان مما يدعو للاستغراب أنه ظل واقفاً هكذا ولم يقترب. ربما كان مكلفاً بالحراسة. وراح ك، الذي لم يكن قد شاهد لوحات منذ مدة طويلة، يتأمل الفارس طوال فترة، رغم أنه كان مضطراً إلى أن يطرف عينيه على الدوام، إذ أنه لم يكن ليتحمل الضوء الأخضر للمصباح. وحين ترك الضوء يدور فوق بقية الصورة، وجد مشهد دون المسيح في منظير عادي؛ وللمناسبة، لقد كانت صورة حديثة. دسّ المصباح في جيبي وعاد إلى مكانه ثانية.

وكان قد أصبح على الأرجح من غير الضروري أن ينتظر الإيطالي، لكن في الخارج كان ثمة غيث منهر ولاشك، وإذا كان الجو هنا ليس بارداً هكذا كما كان ك يتوقع، فقد قرر البقاء هنا حالياً. وفي جواره كان المنبر الكبير، وعلى سقفه الصغير الدائري كان ثمة صليبان ذهبيان فارغان استلقيا نصف استلقاء وتقاطعاً بأعلى هامتيهما. وكان الجدار الخارجي للحاجز والجزء الموصل إلى العمود الحامل يتكونان من أوراق شجر خضراء احتوت على ملائكة صغيرة بين متحرك وساكن. تقدم ك إلى المنبر وتفحصه من كل الجوانب، كان الحجر منحوتاً على نحو دقيق للغاية، وبدا الظلام العميق بين أوراق الشجر وخلفها وكأنه ملقط ومثبت، وضع ك يده في مثل هذه الفتاحة ثم راح يتحسس الحجر بحذر، إنه لم يكن حتى الآن يعلم شيئاً فقط عن وجود هذا المنبر. وهنا لاحظ عن طريق الصدفة وراء صف المقاعد التالي خادم كيسة كان يقف هناك، في رداء أسود متسللٍ كثير الثنيات، وهو

يحمل في يده اليسرى علبة نشوق، ويراقبه. «ماذا يريد الرجل؟» فكر ك، «هل يشتبه بي؟ هل يريد بقشيشاً؟» لكن حينما رأى الخادم أن ك قد لاحظه، أشار بيده اليمنى، وهو لايزال يحمل تنشيةة بين إصبعين، إلى اتجاه ما غير محدد. وكان سلوكه غير مفهوم تقريباً، وانتظر ك هنديه، لكن خادم الكنيسة لم يتوقف عن الإشارة بيده إلى شيء، بل أكد على ذلك بإيماعه من رأسه. «ماذا يريد إذا؟» سأل بصوت منخفض، إذ لم يجرؤ على أن ينادي هنا؛ لكنه أخرج من ثم محفظة النقود وزحم نفسه عبر المقعد الثانيكي يصل إلى الرجل. غير أن هذا أشار بيده على الفور إشارة رفض، هزكتفيه، وانصرف وهو يرجع. بطريقة مشي مماثلة كما كان هذا العرج السريع كان ك وهو طفل يحاول تقليد الركوب على الخيل. «عجز خرف»، فكر ك، «عقله لا يكفي سوى للخدمة في الكنيسة. كيف يظل واقفاً عندما أقف وكيف يترصد فيما إذا كنت أريد متابعة السير». مبتسماً تبع ك العجوز عبر الجناح كله حتى محاذاة الهيكل الرئيسي تقريباً، ولم يتوقف العجوز عن الإشارة إلى شيء، لكن ك تعمد ألا يلتفت، فلم يكن للتأشير غرض آخر سوى صرفه عن أثر الرجل العجوز. وأخيراً تركه فعلاً، فلم يشاً أن يخيفه أكثر من اللازم، كما أنه لم يرد أن يطفق الشبح كلياً في حال أن يأتي الإيطالي رغم تأخره.

وحينما دخل إلى الجناح الرئيسي ليبحث عن مكانه الذي كان قد ترك فيه ألبوم الصور، لاحظ إلى جانب عمود قرب مقاعد جوقة الهيكل منيراً جانبياً صغيراً بسيطاً للغاية من حجر أجرد باهت. كان صغيراً جداً بحيث كان يبدو من بعد مثل تجويف في الجدار مازال فارغاً وهو مخصص لاستقبال تمثال. ويعيناً لم يكن في مقدور الواقع أن يرتد خطوة كاملة من الحاجز. وعلاوة على ذلك كان تكبير المبر يبدأ من أسفل كثيراً على نحو

غير مألف ويرتفع إلى أعلى دون أي زخرف حقاً لكن بتقوس على نحو لا يستطيع معه رجل متوسط القامة أن يقف هناك متتصباً، وإنما لا بد له أن ينحني فوق الحاجز باستمرار. وكان المجموع كله كأنه مخصص لتعذيب الواعظ، وكان من غير المفهوم فيما يحتاج المرء هذا المنبر إذ كان تحت تصرفه المنبر الآخر الكبير المزخرف بمهارة بالغة.

ويقيناً ما كان أيضاً هذا المنبر الصغير ليافت نظرك، لو لم يكن هناك مصباح مثبت في الأعلى كما اعتاد المرء أن يعده قبل موعظة. هل ستلقى الآن ربما موعظة؟ في الكنيسة الخاوية؟ ونظرك إلى الدرج الذي كان يؤدي وهو ملتصق بالعمود إلى المنبر وكان ضيقاً جداً وكأنه لم يوضع كي يستخدمه البشر، وإنما مجرد حلية للعمود. لكن في الأسفل عند المنبر، ابتسم لك وقد تملكته الدهشة، كان القس يقف فعلاً، وقد أمسك الدرابيرون بيده وهو يتأنب للصعود، وراح يرنو إلى لك. ثم أومأ برأسه إيماءة خفيفة جداً، فرسم لك إشارة الصليب على صدره وانحنى، الأمر الذي كان عليه أن يفعله قبل ذلك. أعطى القس نفسه دفعه صغيرة وصعد إلى المنبر بخطى قصيرة سريعة. هل ستبدأ موعظة فعلاً؟ هل ربما لم يكن خادم الكنيسة قد تخلى عنه عقله كلياً وكان يريد أن يسوق لك إلى الواعظ، الأمر الذي كان ولاريب ضرورياً للغاية في الكنيسة الخاوية. وللمناسبة، كان مازال يوجد في مكان ما أمام صورة مريم العذراء امرأة عجوز كان عليها أيضاً أن تحضر. وإذا كان الأمر أمر موعظة، فلماذا لم يهد لها الأرغن. لكن هذا ظل ساكتاً يلمع لمعاناً خفيفاً من ظلمة ارتفاعه الشاهق.

وفكر لك فيما إذا لم يكن عليه الآن أن يتعد بأسرع ما يمكن، وإذا لم يفعل هذا الآن، فلن تكون هناك فرصة كي يفعله أثناء الموعظة، وسوف يتوجب عليه من ثم أن يبقى طالما استمرت، وفي المكتب كان قد أضاع

وقتاً كثيراً، ومنذ فترة طويلة لم يعد ملزماً بانتظار الإيطالي، ونظر إلى ساعته، فكانت تشير إلى الخامسة عشرة. ولكن هل كان بالإمكان فعلَّاً أن يجري وعظ؟ هل في مقدورك أن تمثل الطائفة؟ وماذا، لو كان غريباً لا يغري سوى مشاهدة الكنيسة؟ وفي حقيقة الأمر لم يكن أيضاً شيئاً آخر. وكان من السخف التفكير بأنه سوف يجري وعظ، الآن في الساعة الخامسة عشرة، في يوم من أيام العمل في أسوأ طقس. وصعد القس - كان قسًا ولاري، شاباً ذا وجه حليق أسمر - صعد على ما يدو لا لشيء سوى لإطفاء المصباح الذي كان قد أضيء خطأ.

لكن الأمر لم يكن هكذا، بل إن القس فحص الضوء ورفعه قليلاً، ثم استدار يطه صوب الدراجون وأمسكه بكلتا يديه من الأمام عند الحافة الخامسة. وهكذا وقف القس بعض الوقت وراح يحول باهظيه دون أن يحرك رأسه. وكان لك قد تراجع مسافة كبيرة واستند برفقيه على أول مقعد من مقاعد الكنيسة. وبعينين حائزتين شاهد في جهة ما، دون أن يحدد المكان بدقة، خادم الكنيسة يتذكر محنتي الظهر في دعوة وسلام كما بعد الفراغ من مهمته. أي سكون خيم الآن في الكاتدرائية! لكن كان لا بدّ لك من إزعاجه، لم يكن لديك القدرة أن يبقى هنا؛ إذا كان واجب القس أن يخطب في ساعة محددة دون مراعاة الظروف، فليفعل ذلك، ومن شأن هذا أن يتم دون عون من لك، كما أنه يقيناً ليس من شأن حضور لك أن يزيد التأثير. وبطء تحرك لك إذا، وتلمس طريقه على أطراف أصابعه محاذياً المقعد، ووصل إلى الطريق الرئيسي الواسع وسار هناك أيضاً بكل هدوء، إلا أن الأرضية الحجرية كانت تحدث صوتاً تحت أخف خطوة والتجاويف تردد الصدى على نحو خفيض لكن دون انقطاع ويتقدم منتظم مضاعف. وشعر لك ببعض الوحشة وهو يعبر وحده بين المقاعد الخالية وربما يراقبه القس،

كذلك بدت له ضيغامة الكاتدرائية وقد بلغت تقريرًا حدود ما يحتمله البشر. وعندما بلغ مكانه السابق، تصيد بمعنى الكلمة دون توقف الألبوم المتروك هناك وأخذه إليه. وكاد يغادر منطقة المقاعد، واقترب من المكان الخالي الواقع بينها وبين المخرج، إذ سمع لأول مرة صوت القس. كان صوتها قوية متمنّة. وكم ملأ الكاتدرائية المعدّة لاستقباله! لكن لم تكن الطائفة هي التي ناداها القس، كان الأمر في غاية الوضوح ولم يكن ثمة هروب، حجة أو عذر، لقد نادى: «يوزف ك!».

توقف ك ونظر أمامه إلى الأرض. في هذه اللحظة كان مايزال حراً، كان في مقدوره أن يواصل السير ويخرج من أحد الأبواب الخشبية الثلاثة الصغيرة القائمة، التي كانت أمامه غير بعيدة. وكان من شأن هذا أن يعني أنه لم يفهم، أو أنه فهم غير أنه لم يشاً أن يهتم بذلك. لكنه إذا استدار، فقد أمسك، إذ أنه يكون قد قدم الاعتراف بأنه فهم جيداً بأنه فعلًا هو المنادى وأنه يريد أيضاً أن يتبع. ولو نادى القس مرة أخرى، لكن من شأن ك يقيناً أن ينصرف، لكن إذ ظل كل شيء ساكناً طالما انتظر ك أيضاً، فقد أدار رأسه قليلاً، إذ أنه أراد أن يرى ماذا يفعل القس الآن. كان يقف هادئاً على المنبر كما كان، لكن كان يرى بوضوح أنه قد لاحظ لفته رأس ك. وكان من شأن الأمر أن يكون لعبة استخفاء صبيانية، لو لم يستدر ك الآن استدارة كاملة. فعل ذلك وناداه القس بإشارة من إصبعه أن يقترب. وإذاً ممكن الآن أن يحدث كل شيء جهاراً جرى - وقد فعل ذلك أيضاً فضولاً واحتصاراً للمسألة - بخطى طويلة طائرة نحو المنبر. وتوقف لدى المقاعد الأولى، لكن المسافة بدت للقس أكبر من اللازم، مدد يده وأشار بسبابته، وهو يحفظها بشكل عمودي نحو الأسفل، إلى مكان أمام المنبر مباشرة. وتبعد ك هذه الإشارة أيضاً، وكان عليه في هذا المكان أن يمبل رأسه إلى الوراء كثيراً حتى

برى القس. «أنت يوزف ك»، قال القس ورفع يداً على الدرابزين في حركة غير محددة. «نعم»، قال ك، وفكر كم كان سابقاً يقول اسمه دائمًا جهاراً، منذ بعض الوقت أصبح عبئاً عليه، كما يعرف الآن اسمه أناس التقى بهم لأول مرة، كما كان جميلاً أن يقدم المرأة نفسه ومن ثم وحسب يُعرف. «أنت مدعي عليه»، قال القس بصوت منخفض على نحو خاص. «نعم»، قال ك، «لقد أعلمتك بذلك». «فأنت ذلك الذي أبحث عنه»، قال القس، «أنا قس السجن». «آه هكذا»، قال ك. «لقد تركت تدعى إلى هنا»، قال القس، «كي أتحدث معك». «لم أكن أعرف الأمر»، قال ك، «لقد أتيت إلى هنا كي أوري الكاتدرائية إيطاليا». «دع الثانوي»، قال القس. «ماذا تحمل في يدك؟ هل هو كتاب صلوات وأدعية؟». «لا»، أجاب ك، «إنه ألبوم صور معالم المدينة». «ضعيه من يدك»، قال القس. رماه ك بعنف لدرجة أنه فتح وإنزلق على الأرض مسافة وقد انشت أوراقه. «هل تعلم أن محاكمةك لا تبشر بخير؟» سأله القس. «يبدو الأمر لي أيضاً هكذا»، قال ك، «لقد بذلت كل جهد، لكن حتى الآن بدون توفيق. غير أنني لم أنجز مذكرة الالتماس بعد». «كيف تتصور النهاية»، سأله القس: «سابقاً فكرت أن الأمر لابد أن يتتهي نهاية طيبة»، قال ك، «أما الآن فإني شخصياً أشك بذلك أحياناً. إنني لا أدرى كيف سيتهي الأمر. هل تدري أنت؟». «لا»، قال القس، «لكنني أخشى أن الأمر سيتهي نهاية سيئة. إن المرأة يعتبرك مذنبًا. وربما لن تتجاوز محاكمة فقط محكمة دنيا. يعتبر المرأة على الأقل حالياً أن ذنبك قد ثبت». «لكنني لست مذنبًا»، قال ك: «ثمة خطأ. كيف يمكن إذاً لإنسان أصلاً أن يكون مذنبًا. إننا هنا جمعينا لبشر، على حد سواء». «هذا صحيح»، قال القس، «لكن هكذا اعتاد المذنبون أن يتحدثوا». «هل لديك أنت أيضاً حكم مسبق ضدّي؟» سأله ك. «ليس لدى حكم مسبق ضدك»، قال القس. «أشكرك»، قال ك. «لكن جميع الآخرين الذين يشتراكون في

المحاكمة يملكون حكماً مسبقاً ضدى، كما أنهم يوحون به إلى غير المشتركين. إن وضعى يزداد دائماً صعوبة». «إنك تسيء فهم الواقع»، قال القس. «الحكم لا يأتي دفعة واحدة، إن المحاكمة تتنقل تدريجياً إلى الحكم». «هكذا هو الحال إذاً»، قال ك وخفض رأسه. «ماذا تريد أن تفعل قريباً في محاكمتك؟» سأله القس. «أريد أن أبحث عن مساعدة»، قال ك ورفع رأسه كي يرى كيف يحكم القس على الأمر، «مازال هناك بعض الإمكانيات التي لم تستنفذها». «إنك تبحث أكثر مما ينبغي عن مساعدة من الآخرين»، قال القس مستتركاً، «ولاسيما لدى النساء. ألا تلاحظ إذاً أنها ليست المساعدة الصحيحة». «أحياناً بل غالباً يكتفى أن أعطيك حقاً»، قال ك، «لكن ليس دائماً. إن النساء يملكن سلطة كبيرة. ولو كان في مقدوري أن أدفع بعض النساء اللواتي أعرفهن للعمل معاً من أجلي، لكان لابد لي من أن أوفق. ولاسيما لدى هذه المحكمة التي لا تتألف سوى من مصطادي نساء تقريباً. أر قاضي التحقيق امرأة من بعيد، فإنه يكتسح طاولة المحكمة والمدعى عليه لا لشيء سوى لكي يصل إليها في الوقت المناسب». مال القس برأسه إلى الدرابزون، والآن فقط بدا أن سقية المبر تضيق عليه. أية زوجة نعصف في الخارج؟ لم يعد نهاراً معتماً، بل كان ليلاً دامساً. وما من نقش على الزجاج للنواخذ الكبيرة كان قادراً على أن يقطع الجدار المظلم ولا يوحيض. والآن بالذات بدأ خادم الكنيسة بإاطفاء الشموع على الهيكل الرئيسي، واحدة بعد الأخرى. «هل أنت مستاء مني؟» سأله القس، «ربما كتب، لا تعرف أية محكمة تخدم». ولم يتلق جواباً. «إنها تجاري وحسب، ك. وفي الأعلى ظل السكون مخيمًا. «لم أبلغ إهانتك»، قال ك. وهنا صـ - كـ. القس إلى الأسفل في كـ: «ألا ترى إذاً على بعد خطوتين؟» كانت صـ - غضب، لكن في الوقت نفسه كائناً صدرت من إنسان يرى أحدهم كـ. وأنه هو نفسه يصاب بذعر، فيصرخ في غير ما حيطة وبلا إرادة.

والأذن لذ الإثنان بالصمت طويلاً. وبقيناً لم يكن القس يقدر، في ذلك المزي كأن يسود في الأسفل، أن يتبين لك بدقة، في حين كان لك برىءاتس بوضوح في صوء المصباح الصغير. لماذا لم ينزل القس؟ فهو لم يلق موعظة، بل أعطى لك بعض المعلومات ليس إلا، والتي من شأنها، إذا ما عاها بدقة، أن تعود بصرر على الأرجح أكثر مما تفيد. لكن بذلك أنه لارس في سه القس الطيبة، ولم يكن من الحال أن يتافق معه إذا ما نزل، ولم يكن من الحال أن يحصل منه على نصيحة حاسمة ومحبولة، من شأنها على سبيل المثال أن تريه لا مثلاً كيف يمكن التأثير على المحاكمة، وإنما كيف قد تسأل للمرء أن يهرب من المحاكمة، كيف قد يمكنه أن يتتجنبها، قد يمكنه أن يحيا خارج المحاكمة. كان لابد أن توجد هذه الإمكانية. كان لك في الفترة التي تذكر فيها، لكن هل كان القس يعرف مثل هذه الإمكانية، هل تأسّر ما رجاه المرء ذلك، أن يروح بها، رغم أنه نفسه يتمنى إلى الحكم، ورغم أنه، عندما هاجم لك الحكم، قد كبت طبيعته الوديعة بل إنه صرخ في وجهك.

«الآن تريه أن تنزل؟» سألك، «فما من ثمة موعظة يجب أن تلقي. نزل إلى». «الآن أستطيع أن آتيك»، قال القس، ولعله ندم على صراحته. وسما كان يفك المصباح من كلامه، قال: «كان لابد لي أولاً أن أتكلّم معك من بعد. وإلا فإنني أدع نفسى أناثر بسهولة وأنسى عملي».

وانظره لك سد أسفل الدرج. ومدد له القس يده وهو ينزل ومازال على درجة عليا. «هل لديك بعض الوقت لي؟» سألك. «قدر ما تحتاج من الوقت»، قال القس وناول لك المصباح الصغير كي يحمله. كذلك عن قرب لم تُل مهابه ما من طبيعته. «إنك في عاية اللطف معى»، قال لك. راح يشيان جيئه وذهاباً إلى جانب بعضهما في الجناح الجانبي المظلم. «إنك

استثناء بين جميع الذين يتسمون إلى المحكمة. وأثق بك أكثر مما أتي بأي منهم على كثرة من أعرف. معك أقدر أن أتكلم بصراحة». «لا سخدر»، قال القس. «فيما يمكن أن تخدع؟» سأله. «بالمحكمة تنخدع»، قال القس، «في الكتب التمهيدية للقانون جاء عن هذا الحدّاع: أن العابون يقف حارس باب. إلى حارس الباب هذا يأتي رجل من... يف ويلتتس الدخول إلى القانون. لكن حارس الباب يقول إنه لا يقدر أن منحه الآن الموافقة على الدخول. يتأمل الرجل ثم يسأل فيما إذا كان إذا يجور له أن يدخل في ما بعد. (من الممكن)، يقول حارس الباب، (اما الآفلا). وإذ أن الباب إلى القانون مفتوح مثلما هو دائمًا وحارس الباب يسخى جانبياً، ينحني الرجل كي ينظر من خلال الباب إلى الداخل. وإذ يلاحظ حارس الباب ذلك، يضحك ويقول: (إذا كان الأمر بغيرك هكذا، فلتتحاول أن تدخل رغم حظرني. لكن انتبه: ابني قوي وأنا است سوى الحارس الأدنى مرتبة. لكن من قاعة إلى قاعة يقف حارس الواحد منهم أقوى من الآخر ومجرد منظر الثالث لا أقدر حتى أنا أن أحتمله بعد). مثل هذه العقبات لم يكن الرجل من الريف يتوقعها، يعتقد أن القانون لهم مفتوح للجميع ودائماً، لكنه عندما ينظر الآن بدقة أكثر إلى حارس الباب وهو في معطفه من الفرو. إلى أنه المدب الكبير، وإلى اللحية التتارية الطويلة الخفيفة السوداء، يقرر أن يتضرر حتى يحصل على الموافقة للدخول. حارس الباب يقدم له كرسيًا واطفاً ويدعه يجلس إلى جانب الباب متخيلاً. هناك يجلس أيامًا وأعوامًا يقوم بمحاولات كثيرة كي يسمح له بالدخول ويتعب حارس الباب غلبلاته. حارس الباب يجري مراراً است壕ابات صغيرة معه، يسأله عن سبط وعن أمور أخرى كثيرة، لكنها أسئلة غير مكتوبة مثلما يطرحها، جال عظام، وفي الختام يقول له مزراً وتكراراً إنه لا يزال لا يقدر أن يسمح له بالدخول. والرجل الذي ترقد بأشياء كثيرة لرحلته يستخدم كل شيء مهما كان قيماً

يُسر حارس الباب. هذا يقبل حقاً كل شيء، لكنه وهو يقول: (أقبله فقط لكي لا تظن أنك فوت شيئاً). وطوال السنوات يراقب الرجل حارس الباب بلا انقطاع تقريباً. ينسى الحراس الآخرين ويبدو له هذا الأول العتبة الوحيدة للدخول إلى القانون. ويلعن الصدفة التعيسة، في الأعوام الأولى بصوت عالٍ. فيما بعد حين يشيخ يكتفي بالهمممة بينه وبين نفسه. يحرف ولأنه في دراسته لحارس الباب التي طالت أعواماً تعرف حتى على البراغيث في ياقته من الفرو، فإنه يرجو البراغيث أيضاً أن تساعده وتقنع حارس الباب بتغيير رأيه. وأخيراً يضعف بصره ولا يدري فيما إذا كان الليل قد أظلم حوله حقاً أم أن عينيه تخذله ليس إلا. لكنه يستعين الآن في الظلام بريقاً يتدقق من باب القانون لا ينطفئ. والآن لن يعيش طويلاً بعد. وقبل موته تتجمع في رأسه جميع خبرات الوقت كلها في سؤال لم يطرحه على حارس الباب حتى الآن. يشير إليه، إذ لم يعد يقوى على أن يرفع جسمه المتصلب. ويحب على حارس الباب أن يميل إليه ميلاً شديداً، إذ أن فروق الحجم قد تبدلت تبدلاً كبيراً لغير صالح الرجل. (ماذا تريد الآن إذاً أن تعرف كذلك)، سأله حارس الباب، (إنك لا تروي لك غلة). (إن الجميع ليسعون إلى القانون)، يقول الرجل، (كيف يحدث أنه في الأعوام الطويلة ما من أحد غيري طلب الدخول). حارس الباب يدرك أن الرجل مشرف على النهاية ولكي يصل إلى سمعه المض محل يصرخ في وجهه: (هنا لم يكن أحد آخر يقدر أن يحصل على إذن بالدخول، إذ أن هذا المدخل كان مخصصاً لك وحدك. سأذهب الآن وأغلقه)».

«حارس الباب خدع الرجل إذاً»، قال ك على الفور، وقد شوّقته القصة تشويقاً شديداً. «لاتكن متسرعاً»، قال القس، «لا تأخذ برأي الآخر دون فحص. لقد رویت لك القصة بحرفية الكتاب. عن خداع لم يجئ

فيها شيء». «لكن الأمر واضح»، قال لك، «وتفسيرك الأول كان صحيحاً كلياً. حارس الباب لم يبلغ الخبر المقدى إلا بعد أن لم يعد في مقدور هذا أن يساعد الرجل في شيء». «لم يُسأل قبل ذلك»، قال القس، «وانتبه أيضاً إلى أنه لم يكن سوى مجرد حارس باب وبهذه الصفة قد أدى واجبه». «لماذا تعتقد أنه أدى واجبه؟» سأله، «إنه لم يؤده. ربما كان واجبه أن يصد الغرباء جميعهم، لكن كان ينبغي عليه أن يسمع لهذا الرجل، الذي كان المدخل مخصصاً له، بالدخول». «إنك لاتكتئن تقديرًا كافياً للكتاب وتغيير القصة»، قال القس، «حول الموافقة على الدخول إلى القانون تتضمن القصة تعبيرين هامين لحارس الباب، الأول في البداية والثاني في النهاية. الموضع الأول يقول: (إنه لا يقدر أن يمنحك الآن الموافقة على الدخول)، والموضع الآخر: (هذا المدخل كان مخصصاً لك وحدك). لو كان ثمة تناقض بين هذين التعبيرين لكتبت على حق ولكن حارس الباب قد خدع الرجل. لكن ما من تناقض. بل على العكس من ذلك، فإن التعبير الأول ينسى بالثاني. يكاد في مقدور المرء أن يقول إن حارس الباب إنما تخطى واجبه بأن أفل الرجل في إمكانية للدخول مستقبلاً. في ذلك الوقت كان واجبه ييدو مقتضاً على صد الرجل. وفعلاً يعجب كثيرون من مفسري الكتاب من أن حارس الباب قد قام أصلاً بذلك التلميح، إذ يبدو أنه يحب الدقة ويرعى وظيفته أشد الرعاية. خلال أعوام طويلة لا يغادر موقع حراسته ولا يغلق الباب إلا في آخر الأمر كلياً، إنه يعي أهمية خدمته كل الوعي، إذ أنه يقول (إنني قوي)، يحترم هيبة رؤسائه، إذ أنه يقول (أنا لست سوى الحارس الأدنى مرتبة)، وهو حيث يتعلق الأمر بتأنية واجب لا يمكن استدرار عطفه كما لا يمكن إثارة الحق في نفسه، إذ يرد عن الرجل أنه (يتعجب حارس الباب بطلباته)، وهو ليس كثير الكلام، إذ أنه في غضون أعوام طويلة لا يطرح،

كما يرد، سوى (أسئلة غير مكتوبة)، وهو لايرتشي، إذ أنه يقول عن هدية (أقبلها فقط لكي لا تظن أنك فوت شيئاً)، وأخيراً يشير مظهره إلى طبع مسرف في الدقة، الأنف المدبب الكبير واللحية التatarية الطويلة الخفيفة السوداء. هل يمكن أن يوجد حارس باب أكثر إخلاصاً لواجه؟ لكن في حارس الباب تترجأ أيضاً صفات أخرى مؤاتية جداً لذلك الذي يطلب الدخول وصفات تُفهم على كل حال أنه في ذلك التلميع عن إمكانية مستقبلاً إنما كان في مقدوره أن يتخطى واجبه. إذ لايمكن نكران أنه ساذج بعض الشيء مما يتربّط معه أنه مفتر بنفسه بعض الشيء. وإذا ما كانت أيضاً أقواله عن قوته وعن قوة حارس الباب الآخرين وعن حتى منظرهم الذي لا يحتمله... أقول إذا ما كانت أيضاً هذه الأقوال جميعها صحيحة في حد ذاتها، فإن الطريقة التي يوردها فيها لتبيّن أن فهمه تشوشة سذاجة وتكبر. والمفسرون يقولون في هذا: فهم صحيح لشيء وإساءة فهم الشيء نفسه لا يتعارضان كلياً. لكن على كل حال يجب على المرء أن يفترض أن تلك السذاجة وذلك التكبر، مهما كان ظهورهما ربما خفيفاً، إنما ليضعفان حراسة المدخل، ثم ثغرات في خلْق حارس الباب. إلى هذا يأتي أيضاً أن حارس الباب طبقاً لطبيعته يبدو لطيفاً، ولاشك أنه ليس دائماً شخصاً رسمياً. فعلى الفور في اللحظات الأولى يمزح بأن يدعو الرجل للدخول رغم الخطر القائم بشكل واضح، ثم لا يصرّفه مثلاً، بل يقدم له كرسياً واطفاً ويدعه يجلس إلى جانب الباب متخفياً. إن الصبر الذي يتحمّل به طوال كل الأعوام التماسات الرجل، والاستجوابات الصغيرة، وقبول الهدايا، والوحاهة التي يسمع بها أن يلعن الرجل بجانبه وبصوت عال الحظ السيء الذي وضع حارس الباب هنا... كل هذا يدلّ على تحرك الحنان في قلبه. وليس من شأن كل حارس باب أن يتصرف هكذا. وأخيراً ينحني بناء على

إشارة إلى الرجل انحناء شديدة، كي يعطيه فرصة لإلقاء السؤال الأخير. ونفاد صبر وإن وحسُب - إن حارس الباب ليعرف أن كل شيء قد انتهى - تعبر عنه كلمات: (لا تروى لك غلة). وبعدهم يذهب حتى في نوع التعبير إلى أبعد ويرون أن كلمات (لا تروى لك غلة). إنما تعبّر عن نوع من الإعجاب الودي، لكن الذي لا يخلو من استخفاف. وعلى كل حال تكتمل شخصية حارس الباب على نحو مغاير عما تعتقد». «إنك تعرف القصة بدقة أكثر مني ومنذ وقت أطول»، قال لك. وصمتا برهة. ثم قال لك: «تعتقد إذاً أن الرجل لم يخدع؟». «لا تنسى فهمي»، قال القس، «إنني أريك وحسب الآراء القائمة حول ذلك. لا ينبغي عليك أن تراعي آراء أكثر من اللازم. إن الكتاب لا يتغير والآراء غالباً ما تكون تعبيراً عن اليسأس من ذلك ليس إلا. في هذه الحالة يوجد حتى رأي يفيد أن حارس الباب بالذات هو المخدوع». «هذا رأي يذهب إلى حد بعيد»، قال لك، «كيف يُعلَّل؟». «التعليق»، أجاب القس، «ينطلق من سذاجة حارس الباب. يقول المرء إنه لا يعرف داخل القانون، وإنما الطريق وحسب الذي يجب عليه أن ي Mishieh أمام المدخل دائماً وأبداً. والتصورات التي يملكتها عن الداخل يعتبرها المرأة صبيانية ويفترض أن حارس الباب إنما يخاف نفسه مما يريد أن يخيف منه الرجل. لا بل إنه يخاف منه أكثر مما يخاف الرجل، إذ أن هذا لا يعني شيئاً آخر سوى الدخول، حتى عندما سمع عن حارس الداخل الخفيين، أما حارس الباب فإنه لا يريد الدخول، على الأقل لا يعلم المرء شيئاً عن ذلك. صحيح أن آخرين يقولون إنه لا بد له أن يكون قد كان في الداخل، إذ أنه قبل ذات مرة في خدمة القانون وهذا لا يمكن أن يكون قد حدث إلا في الداخل. ويرد على ذلك بأنه يمكن أن يكون قد عُيِّن حارساً للباب بناء من الداخل أيضاً وعلى الأرجح ألا يكون على الأقل قد تغلغل إلى الداخل، إذ

أنه لا يقدر أن يتحمل مجرد منظر الحراس الثالث بعد. ولكن بالإضافة إلى ذلك لم يُرَو أيضًا أنه أثناء الأعوام الطويلة قد أخبر بشيء ما عن الداخل ما عدا الملاحظة عن حراس الباب. ومن الجائز أن يكون هذا محظوراً عليه، لكن أيضاً عن الحظر لم يحك شيئاً. ومن كل هذا يستنتج المرء أنه لا يعرف شيئاً عن منظر وأهمية الداخل وهو في حالة خداع في ذلك. كذلك عن الرجل من الريف يقال إنه يتواجد في حالة خداع، إذ أنه تابع لهذا الرجل ولا يعلم الأمر. وأنه عامل الرجل كتابع، فإن المرء يعرف ذلك من أمور كثيرة يفترض أنك تذكرها. لكن أنه تابع له حقاً، فإن هذا أيضاً يظهر جلياً طبقاً لهذا الرأي. وقبل كل شيء إن الحرطليق يُقدم على المقيد. والآن إن الرجل حر حقاً، في مقدوره أن يذهب حيث يشاء، ولا يحظر عليه سوى المدخل إلى القانون، فوق هذا من فرد واحد ليس إلا، من حراس الباب.

وعندما يجلس على كرسي واطئ إلى جانب الباب متنهجاً ويمكث هناك طوال حياته، فإن هذا يحدث طوعاً، والقصة لا تحكمي عن إلزم. أما حارس الباب فإنه مقيد بمكانه بحكم وظيفته، ولا يجوز له أن يتعد نحو الخارج، وحسب كل ما يظهر لا يجوز له أيضاً أن يذهب إلى الداخل، حتى إذا أراد ذلك. وفوق هذا، صحيح أنه في خدمة القانون، لكنه لا يخدم سوى هذا المدخل، إذا لا يخدم سوى هذا الرجل المخصوص له وحده هذا المدخل. وأيضاً لهذا السبب هو تابع له. ويُظن أنه طوال سنوات مديدة، طوال سن الرجلة بкамاله، لم يقم سوى بخدمة عقيمة، إذ يردد أن رجلاً يأتي، أي أحداً في سن الرجلة، أنه كان على حارس الباب إذاً أن يتضرر طويلاً حتى يؤدي غرضه، بل كان عليه أن يتضرر كما يشاء الرجل، الذي أتى طوعاً بالتأكيد. لكن أيضاً نهاية الخدمة تحددها نهاية عمر الرجل، حتى النهاية إذا يظل تابعاً له. والمرة بعد المرة يجري التسوية بأن حارس الباب يبدو أنه

لا يعرف شيئاً من كل هذا. لكن لا يُرى في هذا شيء ملفت للنظر، إذ طبقاً لهذا الرأي يتواجد حارس الباب في حالة خداع أكثر شدة بكثير تخص وظيفته. إذ أنه في النهاية يتحدث عن المدخل ويقول (سأذهب الآن وأغلقه)، لكن في البداية يَرِدُ أن الباب إلى القانون مفتوح مثلاً هو دائماً، لكن إذا كان دائماً مفتوحاً، دائماً يعني مستقلًا عن مدة حياة الرجل الذي يُخصّ له، فإن حارس الباب أيضاً لن يستطيع أن يغلقه. وتختلف الآراء عما إذا كان حارس الباب بإعلانه أنه سوف يغلق الباب إنما يريد إعطاء جواب ليس إلا أو إبراز واجبه الوظيفي أو إثارة الندم والحزن في نفس الرجل في اللحظة الأخيرة. لكن كثريين يتفقون في أنه لن يكون في مقدوره أن يغلق الباب. بل إنهم يعتقدون بأنه في النهاية على الأقل حتى في معرفته دون الرجل، إذ أن هذا يرى البريق الذي يتدفق من مدخل القانون، في حين أن حارس الباب بصفته هذه إنما يولي المدخل ظهره كما لا يقدر منه ما يدلّ على أنه لاحظ تغييراً. «هذا معلم جيداً»، قال لك الذي كان قد كثر لنفسه بصوت غير مرتفع بعض الموضع من تفسير القس. «إن الأمر معلم جيداً وأعتقد الآن أيضاً أن حارس الباب مخدوع. لكنني بهذا لم أغير رأيي السابق، إذ أن الاثنين يتطابقان إلى حد ما. وليس مما يحسّم الأمر إذا كان حارس الباب إنما يرى بوضوح أو أنه يُخدع. لقد قلتُ، إن الرجل يُخدع. إذا كان حارس الباب يرى بوضوح، فإن في مقدور المرأة أن يشك في ذلك، لكن إذا كان حارس الباب يُخدع، فلا بد لانخداعه أن ينتقل إلى الرجل بالضرورة. وصحيح أن حارس الباب لا يكون في هذه الحالة خداعاً، لكنه يكون سادجاً إلى درجة كان لابدّ معها من طرده من وظيفته على الفور. وعليك أن تأخذ في الاعتبار أن الخداع الذي يتواجد فيه حارس الباب لا يضره في شيء، لكنه يضر الرجل ألف مرة». «هنا تصطدم برأي

معاكس»، قال القس، «إذ أن بعضهم يقول إن القصة لاتعطي أحداً حقاً في أن يحكم على حارس الباب. فكيفما بدا لنا، فإنه يظل خادماً للقانون، فإذا إنه ينتمي إلى القانون، إذاً إنه يخرج من دائرة الحكم البشري. كما لا يجوز للمرء، من ثم، أن يعتقد أن حارس الباب إنما هو تابع للرجل. إن ارتباطه بحكم وظيفته ولو كان بمدخل القانون وحده لهو أكثر بشكل لا يقارن من الحياة في العالم حياة طليقة. إن الرجل يأتي إلى القانون ليس إلا، وحارس الباب هناك من قبل. إنه معين في الخدمة من قبل القانون، والشك في جدارته من شأنه أن يعني شكلاً في القانون». («لا أوفق على هذا الرأي»)، قال لك وهو يهز رأسه، «إذ إذا رأى المرء هذا الرأي، فإنه ينبغي عليه أن يعتبر كل ما يقوله حارس الباب حقيقياً. أما أن هذا غير ممكن، فقد قمت نفسك بتعليله مفضلاً. «لا»، قال القس، «لا ينبغي على المرء أن يعتبر كل شيء حقيقياً، ينبغي على المرء أن يعتبره ضرورياً وحسب». (رأي كثيب)، قال لك، «الزيف يُعمل نظاماً للعالم».

قال لك هذا في الختام، لكن هذا لم يكن حكمه النهائي. كان مجاهداً أكثر من أن يتمكن من أن يحيط باستدلالات القصة جميعها، كما أن القصة قادته إلى استدلالات غير مألوفة، أشياء غير حقيقة، تناسب لتكون حدثاً لمجلس أئس موظفي المحكمة أكثر مما تناسبه. كانت القصة البسيطة قد أصبحت غير متناسقة، وأراد أن يخفف منها، والقس، الذي أظهر الآن قدرًا كبيراً من رقة المشاعر، احتمل الأمر وتلقى ملاحظة لك صامتاً، رغم أنها، يقيناً، لا تتطابق رأيه.

وسارا فترة صامتين، والتتصق لك بالقس دون أن يعلم في الظلمة أين يتواجد. وكان المصباح في يده قد انطفأ منذ فترة طويلة. مرة مع أمامه مباشرة التمثال الفضي لقديس كاشفاً عن الفضة وحسب ثم توارى في

الظلام على الفور. ولكي لا يظل معتمداً على القس اعتماداً كاملاً، سأله لك: «ألسنا الآن بالقرب من المدخل الرئيسي؟». «لا»، قال القس، «إننا بعيدان عنه كثيراً. هل ت يريد أن تصرف الآن؟» ورغم أن لك لم يكن الآن قد فكر بذلك، فإنه قال على الفور: «بالتأكيد، ينبغي علي أن أصرف. إنني ويكيل قانوني في مصرف، وينتظر قدومي، ولم أحضر إلى هنا سوى كي أري الكاتدرائية لصديق عمل أجنبى». «إذاً»، قال القس ومد يده إلى لك، «فلتذهب». «لكنني لا أستطيع أن أجد وحدي طريقى في الظلام»، قال لك. «اذهب يساراً إلى الحائط»، قال القس، «ثم تابع السير على امتداد الحائط دون أن تتركه وسوف تجد مخرجاً». ولم يكن القس قد ابتعد سوى بضع خطوات، لكن لك نادى بصوت عال جداً: «من فضلك، انتظر». «إنني أنتظر»، قال القس. «ألا تريد شيئاً آخر مني؟» سأله لك. «لا»، قال القس، «كنت من قبل لطيفاً معي للغاية»، قال لك، «وفترت لي كل شيء، لكنك الآن تتركني وكأنني لا أهلك شيئاً». «عليك أن تصرف»، قال القس، «طبعاً»، قال لك، «فلتفهم هذا». «افهم أولًا من أكون»، قال القس. «أنت قس السجن»، قال لك واقترب منه، لم تكن عودته العاجلة إلى المصرف ضرورية جداً كما كان قد صورها، كان في مقدوره إلى حد ما أن يظل هنا. «إنني أنتهي وبالتالي إلى المحكمة»، قال القس. «لماذا علي إذاً أن أريد شيئاً منك. المحكمة لا تريد شيئاً منك. إنها تفتح أبوابها لك عندما تأتي وتعفيك عندما تذهب».

محام

صاحب معمل

قبل ظهر يوم من أيام الشتاء - في الخارج كان الثلج يتتساقط في الغبش - كان ك يجلس في مكتبه متبعاً للغاية رغم الساعة المبكرة. وحتى يحمي نفسه على الأقل من صغار الموظفين كان قد كلف الخادم ألا يسمح لأحدthem بالدخول عليه، إذ أنه مشغول بعمل أكبر. غير أنه بدلاً من أن يعمل، استدار في كرسيه، وأزاح بيضاء بعض الأشياء على الطاولة، لكنه من ثم ترك، دون أن يعلم، ذراعه كلها ترقد ممدودة فوق لوح الطاولة، وظل جالساً دون حراك وقد نكس رأسه.

لم يعد التفكير في المحاكمة يتركه. وكثيراً ما كان قد فكر، فيما إذا لم يكن من المستحسن أن يعذّ مرافعة دفاع ويرفعها إلى المحكمة. كان يريد أن يعرض فيها سيرة موجزة ويوضح لدى كل حدث مهمّ نوعاً ما، لماذا كان قد تصرف هكذا، وفيما إذا كان يجب، حسب حكمه في الوقت الحاضر، استئناف طريقة التصرف هذه أم استصوابها، وما هي الأسباب التي كان في مقدوره أن يذكرها لهذه أو تلك. وكانت ميزات مثل مرافعة الدفاع هذه قياساً إلى مجرد الدفاع من قبل المحامي، والذي هو - للمناسبة - فيما عدا

ذلك أيضاً، ليس محامياً لاعتراض عليه، ميزات لاشك فيها. فـ ك لم يكن يعلم أبداً عما كان المحامي يقوم به؛ وعلى كل حال لم يكن هذا كثيراً، فمنذ شهر كامل لم يكن قد استدعاه إليه، وكذلك لم يكن ك في أية محادثة سابقة قد أخذ انطباعاً بأن هذا الرجل إنما يستطيع أن يتحقق له الكثير. وقبل كل شيء لم يكن قد استفهم منه عن شيء تقريراً. وهنا كان يجب السؤال كثيراً. السؤال كان الشيء الرئيسي. وكان ك يحسن وكأنما في مقدوره نفسه أن يطرح الأسئلة الضرورية كلها. أما المحامي فبدلاً من أن يسأل، كان يتحدث بنفسه أو يجلس أمامه صامتاً، وينحنى قليلاً فوق طاولة المكتب، على الأرجح بسبب سمعه الضعيف، ويشدّ في ذرّابة من لحيته، وينظر إلى السجادة، ربما إلى الموضع بالذات حيث رقد ك مع لني. وبين الفينة والأخرى كان يعطي ك بعض التنبّهات الفارغة مثلما يعطيها المرأة للأطفال. وكذلك خطباً عديمة الجدوى مثلما هي مملة والتي لم يكن ك ينوي في الحساب الختامي أن يدفع قرشاً أجرأ لها. وبعد أن كان المحامي يعتقد أنه أذله على نحو وافٍ، كان يبدأ عادة في تشجيعه بعض الشيء مرة أخرى. كان يحكى أنه كان قد كسب كلياً أو جزئياً العديد من الدعاوى المماثلة، دعاوى كانت خاسرة أكثر ظاهرياً، وإن لم تكن في الحقيقة صعبة هكذا مثل هذه. وكان يقول إنه يملك قائمة بهذه الدعاوى هنا في الدرج - وهذا كان ينقر على درج ما من دراج الطاولة -، لكنه لا يقدر مع الأسف أن يُري المذكرات، لأن الموضوع يتعلق بأسرار رسمية. ورغم ذلك فإن الخبرة الكبيرة التي اكتسبها من خلال كل هذه الدعاوى إنما تعود الآن طبعاً بالفائدة على ك. وطبعاً بدأ العigel على الفور وكاد ينجز مذكرة الالتماس الأولى. وهذه في غاية الأهمية، وذلك لأن الانطباع الأول الذي يتربكه الدفاع إنما يحدد في الغالب اتجاه الإجراءات القضائية بكلمه. ولكن مع الأسف، وهذا ما يجب عليه أن يلفت نظر ك إليه، يحدث أحياناً أن

مذكرات الالتماس الأولى إلى المحكمة لأنقراً إطلاقاً. بل تُركن جانبًا ببساطة، ويُشار إلى أن استجواب المدعى عليه ومراقبته أكثر أهمية حالياً من كل ما هو مكتوب. ويضيف المرء، إذا كان الملتزم مستعجلًا، أنه قبل اتخاذ قرار وحتى تتجمع كل المواد فإن المرء سيفحص طبعاً كل الملفات متزابطة، ومنها إذاً هذه المذكورة الأولى أيضًا. لكن مع الأسف حتى هذا هو في الغالب غير صحيح، فمذكورة الالتماس الأولى توضع عادةً في غير مكانها أو تضيع كلياً، وحتى إذا ظلت موجودة حتى النهاية، فإنها، لكن كما علم المحامي من الإشاعات ليس إلا، لا تكاد تقرأ. كل هذا شيء مؤسف، لكنه ليس لغير ما داع كلياً، ويرجحى من كأن يتبه إلى أن الدعوى ليست علنية، يمكنها أن تصيب علنية، إذا اعتبرت المحكمة ذلك ضروريًا، لكن القانون لا يفرض العلنية. وبناء على ذلك فإن مذكرات وكتب المحكمة أيضاً ولا سيما صحيفة الاتهام لا سبيل للمدعى عليه ومحامي دفاعه الوصول إليها، لذا لا يعرف المرء بعامة أو على الأقل لا يعرف بدقة ضد ماذا ينبغي على مذكورة الالتماس الأولى أن توجه، ولذا لا يمكنها في الحقيقة سوى عن طريق الصدفة أن تحتوي على شيء ذي أهمية بالنسبة إلى الموضوع. ولا يمكن للمرء أن يعد مذكرات التماس صحيحة فعلاً وذات أدلة سوى فيما بعد، عندما تظهر بوضوح أكثر في مجرى استجوابات المدعى عليه نقاط الاتهام وتعليقها أو يمكن حدسها. في هذه الظروف يتواجد الدفاع طبعاً في وضع سيء للغاية وصعب. لكن هذا أيضاً هو أمر مقصود. إذ أن الدفاع غير مسموح به أصلاً من قبل القانون، وإنما يتتساهم فيه، وهناك ثمة نزاع حتى مما إذا كان يجوز استئناف على الأقل من الموضوع ذي العلاقة في القانون. لذا فإنه بالمعنى الدقيق لا يوجد محامون معترف عليهم من قبل المحكمة، وجميع الذين يظهرون أمام هذه المحكمة كمحامين هم في الواقع محامون مرييون ودون أهلية. وهذا يؤثر طبعاً على

هيئة المحامين كلها تأثيراً مهيناً للغاية، وعندما سوف يذهب لك في المرة القادمة إلى مكاتب المحكمة، يمكنه، حتى يكون قد رأى هذا أيضاً ذات مرة، أن يتفرج على حجرة المحامين. والراجح أنه سوف يرتعب من الناس الجالسين هناك. حتى الحجرة الضيقة ذات السقف المنخفض المخصصة لهم تدلّ على الاحتقار الذي تكتبه المحكمة لهؤلاء الناس. ولا تحصل الحجرة على ضوء سوى من خلال كوة صغيرة مرتفعة جداً للدرجة أنه إذا أراد أحدهم أن ينظر منها، هنا للمناسبة يملأ أنفه دخان مدفأة قريبة من الكوة ويسود وجهه، فإنه ينبغي عليه أن يبحث عن زميل يحمله على ظهره. وفي أرضية هذه الحجرة - وهذا فقط لضرب مثل على هذه الأحوال - يوجد منذ أكثر من عام حفرة، ليست كبيرة إلى درجة أن يقع فيها إنسان، لكنها تكفي لأن يغور فيها المرء بكل ساقه. وحجرة المحامين تقع في الطابق الثاني للعلية، فإذا ما غار أحدهم إذاً، فإن ساقه تتلذى في الطابق الأول، أي تماماً في الردهة حيث ينتظر المدعى عليهم. وليس مبالغة عندما يستوي المرء في دوائر المحامين مثل هذه الظروف ظرفاً مخزيّاً. وشكاؤي إلى الإدارة لا تتحقق أدنى نجاح، لكن يُحضر على المحامين بكل شدة تغيير أي شيء في الحجرة على نفقتهم الخاصة. غير أن معاملة المحامين هذه أيضاً لها تعليتها. إن المرء يريد إقصاء الدفاع ما أمكن، على التهم نفسه أن يحمل عباء كل شيء. ليس موقفاً سيئاً في الحقيقة، لكن لن يكون أكثر خطأ من الاستنتاج من هذا أنه لدى هذه المحكمة لاضرورة للمحامين بالنسبة إلى المدعى عليهم. على العكس، ليسوا ضروريين لدى أي محكمة أخرى مثلما هم لدى هذه. إذ أن المحاكمة بعامة ليست سرية أمام الجمهور فحسب، وإنما أمام المدعى عليه أيضاً. طبعاً بقدر ما يكون هذا ممكناً ليس إلا، لكنه ممكן بقدر كبير جداً. إذ أن المدعى عليه أيضاً لا يطلع على أوراق المحكمة، ومن الصعب للغاية معرفة هذه الأوراق من الاستجوابات التي تجرى بناء عليها، ولكن لاسيما بالنسبة إلى

المدعى عليه الذي يكائد حرجاً ويحمل كل ما يمكن من هموم تشتبّه في فكره. هنا يتدخل الدفاع. لدى الاستجوابات لا يجوز لمحامي الدفاع، بصفة عامة، أن يكونوا حاضرين، لذا ينبغي عليهم أن يستعلموا عن الاستجواب من المدعى عليه وذلك على باس حجرة قاضي التحقيق إن أمكن، واستخلاص ما يصلح للدفاع من هذه القارier العامضة للغاية في الغالب. لكن هذا ليس هو الأهم، إذ لا يمكن للمرء أن علم الكثير بهذه الطريقة، وإن كان رجل نشيط يعلم أكثر من غيره طبعاً هنا أيضاً مثلما هو الحال في كل مكان آخر. ورغم ذلك تظل علاقات المحامي الشخصية هي الأهم، في هذه العلاقات تكمن القيمة الرئية للدفاع ولاريб أن كذا استخلص من خبراته الخاصة بأن دني مطمه للمحكمة لا ينصف بالكمال كلّياً، وتضمن عاملين مقصرين في واجباتهم ومرسي الأمر الذي يؤدي على نحو ما إلى نشوء ثغرات في إحجام لحكومة الصارم. هنا يقحم معظم المحامين أنفسهم، هنا تُرثى يُستبطن لا بل وقع فيما مضى على الأقل حالات سرقة ملقطات. ولا يذكر أنه يمكن بهذه الطريقة مؤقتاً تحقيق بعض النتائج الحيدة لصالح المدعى عليه لا بل المعاجمه، وبهذا يروح هؤلاء المحامون الصغار يتباخرون وبحدبون زبائن جدداً، لكن هذا لا يعني شيئاً بالنسبة إلى مسار المحاكمة أو أنه لا يعني شيئاً حميداً. أما ما يملك قيمة حقيقة فهو العلاقات الشخصية صدقة ليس إلا، وعلى وجه التحديد مع كبار الموظفين، بحيث لا يقصد سوى كبار الموظفين في الدرجة الدنيا. وبهذا وحده يمكن التأثير على سير المحاكمة وإن كان ذلك على نحو غير ملحوظ في البداية لكن بوضوح أكثر دائماً في وقت لاحق. وهذا ما لا يقدر عليه طبعاً سوى محامين قلائل وهما كأن اختيارك حسناً للغاية. إذ ربما لم يكن في مقدور أكثر من محا واحد أو اثنين امتلاك علاقات مماثلة لما يملك د. هولد. لكن هؤلاء لا يهتمون بالجماعة في حجرة المحامين ولا علاقة لهم بها. غير أن

الاتصال مع موظفي المحكمة وثيق أكثر. حتى أنه ليس من الضروري دائمًا أن يذهب د. هولد إلى المحكمة وينتظر في المجرات الأمامية لقضاء التحقيق حتى يظهر هؤلاء مصادفة ويتحقق حسب مزاجهم مجرد نجاح صوري في الغالب أو ولا حتى هذا أيضًا. لا، وكرأي الأمر بنفسه، إن الموظفين ومن بينهم ذوو مرتبة عالية يأتون بأنفسهم ويعطون عن طيب خاطر معلومات، مكشوفة أو على الأقل سهلة التفسير، يتحدثون عن سير الدعاوى التالي، لا بل إنهم يقتنعون في حالات مفردة ويقبلون رأي الآخر برغبة. لكن لا يجوز للمرء في هذه الناحية الأخيرة بالذات أن يثق بهم ثقة كبيرة؛ فمهما عبروا على أية حال عن قصدهم الجديد المؤاتي للدفاع، فإنهم يذهبون ربما مباشرة إلى مكاتبهم ويصدرون حكمًا يعلن في اليوم التالي يتضمن العكس تماماً وربما يكون بالنسبة إلى المدعى عليه أكثر قسوة بكثير من قصدهم الأول، الذي كانوا قد ادعوا أنهم إنما قد رجعوا عنه كلياً. وليس في مقدور المرء طبعاً أن يفعل شيئاً ضد ذلك، إذ أن ما قالوه سرًا لم يقل سوى سراً ولا يسمح بنتيجة علنية، حتى ولو لم يكن الدفاع مضطراً فيما عدا ذلك للسعى إلى الحصول على حظيرة السادة. ولكن صحيح أيضاً، من طرف آخر، أن السادة يتصلون بالدفاع، طبعاً ب الدفاع خبير وحسب، ليس جهاً بالبشر ليس إلا أو بدافع من المشاعر الودية مثلاً، بل لأنهم، من وجهة نظر معينة، يحتاجون أيضاً إليه. هنا تظهر سيئات نظام محكمة يفرض المحكمة السرية منذ بداياته. إن الموظفين ينقسمون الارتباط مع السكان، للدعاوى العادية المتوسطة هم مهيؤون على خير وجه، مثل هذه الدعوى تأخذ مسارها من تقاء نفسها تقريباً ولا تحتاج سوى إلى دفعة بين الفينة والأخرى، أما إزاء الحالات البسيطة جداً كما إزاء الحالات المعقدة بشكل خاص، فإنهم غالباً ما يكونون في حيرة من أمرهم، ولأنهم محشورون في قانونهم على نحو متواصل ليلاً نهاراً، فلا يمكنون الحس الصحيح للعلاقات

الإنسانية، وهذا ما يعززهم كثيراً جداً في مثل هذه الحالات. فيأتون إلى المحامي من أجل نصيحة ووراءهم خادم يحمل الملفات، التي هي سرية في الحالات الأخرى. كان في مقدور المرأة أن يلقى إلى جانب هذه النافذة بعض الرجال الذين هم آخر من يتوقعهم المرء، كيف ينظرون دون عزاء من النافذة إلى الشارع، بينما كان المحامي يجلس إلى طاولته ويدرس الملفات كي يتمكن من إسداء نصيحة معقولة لهم. وللمناسبة، في مقدور المرأة أن يرى في مثل هذه المناسبات، كم يأخذ الرجال مهنتهم على محمل الجد بشكل بالغ، وكيف يقعون في أئس شديد بسبب عراقيل لا يستطيعون طبقاً لطبيعتهم التغلب عليها. كما أن وظيفتهم ليست سهلة فيما عدا ذلك، ولا يجوز ظلمهم واعتبار وظيفتهم سهلة. إن نظام رتب المحكمة وتصاعدها هو لانهائي لا يعرف حتى المطلعون نهايته. لكن الإجراءات القضائية أمام المحاكم هي، بعامة، سرية حتى بالنسبة إلى صغار الموظفين، لذا فإنه ليس في مقدورهم في أي وقت كان، أو بالكاد، أن يتبعوا المسائل التي يعالجونها متابعة كاملة ويزرعوا مسارها في المستقبل، إن الدعوى تظهر إذا في أفقهم دون أن يعلموا في الغالب من أين تأتي، وتستمر، دون أن يعلموا، إلى أين تسير. إن الدرس إذا الذي يمكن استقاوه من دراسة المراحل الإفرادية للمحاكمة والقرار النهائي وحيثياته إنما يفوت هؤلاء الموظفين. لا يجوز لهم أن يشتغلوا سوى بذلك الجزء من المحاكمة الذي حدد لهم القانون، ويعرفون من البقية، أي من نتائج عملهم هم، في الغالب أقل مما يعرف الدفاع، الذي يظل في العادة على اتصال مع المدعى عليه إلى نهاية المحاكمة تقريباً. أيضاً في هذا الاتجاه إذاً يستطيعون أن يعلموا من الدفاع بعض الأمور القيمة. هل مازال لك يعجب، عندما يراعي كل هذا، من انفعال الموظفين الذي يعبر أحياناً عن نفسه إزاء المدعى عليهم - الكل يمر بهذه التجربة - بطريقة مسيئة. إن جميع الموظفين متورّو الأعصاب، حتى إذا بدوا هادئين.

وطبعاً يجب على صغار المحامين بشكل خاص أن يعانون الكثير من ذلك. يحكي المرء مثلاً القصة التالية التي لها جداً مظهر الحقيقة. موظف متقدم في السن، رجل طيب هادئ، قام طوال يوم وليلة بلا انقطاع بدراسة قضية كانت معقدة لاسيما بسبب مذكرات المحامي. إن هؤلاء الموظفين هم مجتهدون فعلاً مثلما لا يكون أحد آخر. والآن عند الصباح، بعد أربع وعشرين ساعة من عمل غير مثمر جداً على الأرجح، ذهب إلى باب المدخل، وكمّن وراءه، وراح يدحرج على درجات السلالم كل محام أراد أن يدخل. وتحمّل المحامون على الفسحة في الأسفل وتشاوروا عما ينبغي عليهم أن يفعلوا، فمن طرف إنهم لا يمكنون في الأصل حقاً بالدخول، لذا لا يمكنهم أن يقوموا بالكاد بشيء ضد الموظف من الناحية القانونية، وبيني وبيني عليهم أيضاً، كما تقدّم، أن يتحاشوا إثارة الموظفين ضدهم. لكن من طرف آخر إن كل يوم لا يقضى لدى المحكمة هو يوم ضائع بالنسبة إليهم ولذا كانوا حريصين إذاً كل الحرص على أن يدخلوا. وفي النهاية اتفقوا على أنهم يريدون إنجهاد الرجل المسن. ومرة بعد مرّة أصبح يُرسل محام يصعد الدرج كي يدع نفسه، تحت مقاومة قدر الإمكان لكن مقاومة سلبية، يقذف إلى أسفل، حيث يتلقّه زملاؤه. واستمر ذلك نحو ساعة، فتعمّل الرجل المسن فعلاً، لقد كان أيضاً منهكاً من العمل الليلي، فعاد إلى مكتبه. ولم يشأ الواقعون في الأسفل أن يصدّقو الأمر في البداية فأرسلوا أولًا واحداً منهم كي يفتح وراء الباب ويتحقق فيما إذا كان المكان هناك خالياً. ثم بعد ذلك ليس إلا دخلوا ولم يجرؤوا على الأرجح أن يتذمروا مجرد تذمر. إذ أنه من البعيد كلياً عن اهتمام المحامين - في مقدور حتى أصغرهم أن يحيط علماً بالظروف على الأقل جزئياً - أن يرغبو في إدخال أو فرض أية إصلاحات لدى المحكمة، في حين - وهذا ذو دلالة عميقة - أن كل مدعى عليه تقريراً، حتى الناس البسطاء كلياً، يبدأون فور أول دخول لهم

إلى المحاكمة التفكير في مقترنات إصلاح وبهذا يضيّعون في الغالب وقتاً وطاقة يمكن استخدامها في مكان آخر بشكل أفضل بكثير. أنّ الأمر الصحيح الوحيد هو التواجد مع الظروف القائمة. حتى ولو كان من الممكن إصلاح جزئيات - لكن هذا هو خرافة غير معقوله - يكون من شأن المرء في أحسن الأحوال أن يتحقق شيئاً للحالات القادمة، لكنه أضرّ نفسه ضرراً لا يمكن تقديره، كونه أثار انتباه الموظفين الحبيين دائمًا للانتقام. لا إثارة فقط للانتباه! الترام الهدوء، حتى ولو سارت الأمور خلاف تصور المرء كل الخلاف! محاولة فهم أن هذا الكيان العضوي الضخم للمحكمة إنما يظل على نحو ما في حالة معلقة إلى الأبد، وأنه يمكن للمرء حقاً، إذا ما غير في مكانه شيئاً ما بشكل مستقل، أن يسحب الأرض من تحت أقدامه ويسقط بنفسه، بينما يعوض الكيان العضوي الضخم لنفسه الخلل الصغير بسهولة في موضع آخر - كل شيء متّابعاً - ويظل كما هو، إذا لم يصبح، بل وهذا مرجح، أكثر ترابطاً وأكثر احتراساً وأكثر صرامة وأكثر شرّاً. إن المرء ليترك العمل للمحامي، بدلاً من الإخلال به. واللوم لا يفيد كثيراً، ولا سيما عندما لا يستطيع المرء إيضاح أسبابه بكل أهميتها، لكن يجب القول كم أضرّ كقضيته بتصرفه تجاه مدير الديوان. ويجب تغريباً حذف هذا الرجل ذي النفوذ من قائمة أولئك الذين يمكن للمرء أن يفعل لديهم شيئاً مالـك. حتى الذكر العابر للمحكمة يتّجاهله بقصد واضح. والموظرون هم في بعض الأمور مثل الأطفال. يمكن غالباً لتصرفات بريئة - وليس تصرف لك منها مع الأسف - أن تجرّهم إلى درجة أنهم يكفون عن الحديث حتى مع أصدقاء طيبين ويعرضون عليهم إذا ما التقوا بهم ويعملون ضدّهم في كل شيء، لكن أحياناً وبطريقة مفاجئة وبدون سبب خاص يدعون مزحة صغيرة، لم يجرؤ المرء عليها سوى لأن كل شيء يبدو بلا أمل، تضحكهم ويصبحون راضين. وإنه من الصعب والسهل في آن التصرف معهم، ولا يوجد بالكاف

قواعد لهذا التصرف. وما يدهش أحياناً أن عمراً متوسطاً واحداً يكفي لإدراك أنه في مقدور المرأة أن يعمل هنا بغير النجاح. لكن تأتي ساعات قائمة، مثلما لدى كل واحد، يظن فيها المرأة أنه لم يتحقق أي شيء، حيث يبدو للمرأة أنه لم يأخذ نهاية طيبة سوى المحاكم المحدد لها منذ البداية أن تنتهي بسلام، كما كان من شأن الأمر أن يحدث دون مساعدته أبداً: في حين خسرت كل الدعاوى الأخرى رغم كل الجري وراءها وكل جهد وكل نجاح ظاهري صغير سرّ به المرأة مثل هذا السرور. ولكن من لم يدر للمرأة أن ما من شيء مضمون، ورداً على أسئلة محددة لن يكون من شأن المرأة حتى أن يجرؤ على نكران أنه إنما يتقدمه مساعدة بالذات قد نقل إلى طريق خطأ محاكمات تسير بشكل حسن طبقاً لطبيعتها. وهذا أيضاً نوع من الثقة بالذات، لكنه هو الشيء الوحيد الذي يبقى بعد ذلك. ما هذه النوبات - وطبعاً هي مجرد نوبات لا أكثر - يتعرض لها المحامون من ممّا يشكل خاص عندما تتزعّم منهم فجأة المحاكمة تقدموا بها شوطاً كاماً وعلى نحو مرضٍ. وهذا هو ولاشك أسوأ ما يمكن أن يحدث لها. ولا تسحب المحاكمة منهم من قبل المدعى عليه مثلاً، إن هذا لا يحدث أبداً إن المدعى عليه الذي أخذ مرة محامياً معيناً يجب أن يبقى لديه مهما حدث. كيف سيكون في مقدوره، إذا ما استعان مساعدة ذات مرة أن يحافظ أساساً على نفسه. هذا لا يحدث أبداً، لكن يحدث أحياناً أن المحاكمة تأخذ اتجاهًا حيث لا يعود يسمع للمحامي أن يأتي معه. الدعوى والمدعى عليه وكل شيء يسحب من المحامي ببساطة؛ ومن ثم لا تعدّ أيضاً أفضل العلاقات مع الموظفين تستطيع أن تساعد، إذ أنهم أنفسهم لا يعرفون شيئاً. لقد دخلت المحاكمة مرحلة لا يجوز فيها بعد الآن تقديم مساعد، وحيث تنظر فيها المحاكم لاسبيل إليها، وحيث أيضاً لا يعود المحامي يستطيع الوصول إلى المدعى عليه. ومن ثم يأتي المرأة ذات يوم إلى البيت ويجد عنى

طاولته جميع المذكرات الكثيرة التي وضعها المرء بكل جد ومع أجمل الآمال في هذه القضية، لقد أعيدت لأنه لا يجوز رفعها إلى المرحلة الجديدة للمحاكمة، إنها قصاصات عديمة القيمة. وفي هذا لا يجب أن تكون المحاكمة قد حُسرت بعد، لا بأي حال، على الأقل لا يتوافر سبب حاسم لهذه الفرضية، فقط لا يعود المرء يعرف شيئاً عن المحاكمة ولن يعلم أيضاً شيئاً بعد الآن عنها. لكن مثل هذه الحالات هي استثناءات لحسن الحظ وحتى إذا حدث وكانت محاكمة لك مثل هذه الحالة، فإنها ما زالت حالياً بعيدة كل البعد عن مثل هذه المرحلة. هنا إذاً ما زال ثمة فرصة موفورة لعمل محام ويمكن لك أن يكون واقعاً أنها ستغتنم. إن مذكرة الالتماس، كما ذكر من قبل، لم تقدم بعد، لكن هذا ليس مستعجلأً أيضاً، إن الأكثر أهمية بكثير هي المحادثات التمهيدية مع الموظفين ذوي الشأن، وهذه قد جرت بنجاح مختلف، كما يجب الاعتراف بصرامة. ومن الأفضل بكثير حالياً عدم البوح بتفاصيل، قد يمكنها أن تؤثر علىك لغير صالحه ليس إلا وتترع صدره بالأمل بشكل مفرط أو تعصّ مضجعه أكثر من اللازم، ويكتفي القول إن أفراداً أبدوا رأياً حسناً للغاية كما أظهروا استعداداً كبيراً، في حين أبدى آخرون رأياً أقل حسناً لكن دون أن يرفضوا تقديم مساعدتهم إطلاقاً. والنتيجة هي إذاً في الإجمال سارة للغاية، لكن لا يجوز للمرء أن يستنتج من هذا شيئاً خاصاً، وذلك لأن جميع المباحثات التمهيدية تبدأ على نحو مشابه ولاريب أن التطور فيما بعد هو الذي يظهر قيمة هذه المباحثات التمهيدية. وعلى كل حال لم يُخسر شيء بعد وإذا ما أمكن التوفيق في كسب مدير الديوان - لقد اُخذت إجراءات مختلفة لتحقيق هذه الغاية - فإن الأمر كله يمكن، كما يقول الجراحون، جرحأً نظيفاً ويمكن للمرء أن ينتظر بارتياح ما هو آت.

في مثل هذا الكلام كان المحامي لا ينقد. وكان يتكرر لدى كل زيارة. دائمًا كان يوجد تقدم، لكن ما من مرة أمكن إعلام نوع هذا التقدم. وباستمرار كان يعمل في مذكرة الالتماس الأولى، لكنها لم تكن تنتهي، الأمر الذي كان غالباً ما يظهر لدى الزيارة التالية ميزةً كبيرةً، حيث أن الفترة الأخيرة، الأمر الذي لم يكن في مقدور المرأة أن يتبنّى به، كانت غير ملائمة أبداً لتقديمها. وإذا ما علق ك أحياناً، وهو خائز القوى كلّياً نتيجة الأحاديث، أن الموضوع، حتى مع مراعاة جميع المصابع، إنما يتقدم ببطء شديد، كان يُرد عليه بأن الموضوع لا يتقدم ببطء أبداً، لكن كان من شأن المرأة أن يكون قد مضى بعيداً لو كان ك قد توجه إلى المحامي في الوقت المناسب. لكنه كان قد فوت هذا مع الأسف، وهذا التقصير سوف يجلب أيضاً أضراراً أخرى، وليس أضراراً زمنية وحسب.

وكان الانقطاع اللطيف الوحيد الذي يتخلّل هذه الزيارات هو لني، التي كانت دائمًا تعرف كيف تعمل حسابها أن تحمل الشاي إلى المحامي في حضور ك. كانت من ثم تقف وراء ك، وتتّظاهر بأنّها تنظر إلى المحامي وهو يمبلّك كثيراً بنوع من الشّرّه فوق الفنجان ويصبّ الشاي ويشرب، وتدع ك يمسك يدها خلسةً. وكان يخّيّم صمت تام. كان المحامي يشرب، وكان ك يضغط يد لني، وكانت لني تخرؤ أحياناً على مداعبة شعر ك برفق. «مازالت هنا؟» كان المحامي يسأل بعد أن يكون قد فرغ من الشرب. «أردت أن أحمل الآنية»، كانت لني تقول ثم تأتي ضغطة يد أخيرة، ويسحب المحامي على فمه ويداً بالإلحاد على ك بقوّة جديدة.

هل كان السلوان أم اليأس ما أراد المحامي أن يتوصّل إليه؟ لم يكن ك يعلم الأمر، لكنه سرعان ما أصبح يعتّر أنه من الثابت أن الدفاع عنه ليس دفاعاً جيداً. إنه لمن الممكّن أن يكون كل ما يرويه المحامي صحيحاً، وإن

كان من الواضح أيضاً إنما أراد أن يضع نفسه في الصدارة إن أمكن وأنه على الأرجح لم يسبق له في مرة من المرات أن تولى محاكمة كبيرة هكذا مثلما هي محاكمة لك حسب رأيه. لكن العلاقات الشخصية مع الموظفين والتي يجري التنويه بها بلا انقطاع ظلت مدعاة للشكوك. هل كان يجب استغلالها إذاً لمنفعة لك وحده دون غيره؟ إن المحامي لم يكن ينسى قط أن يشير إلى أن الموظفين هم من ذوي الدرجات الدنيا ليس إلا، أي أنهم في موقف تبعية شديدة، ومن أجل تقدمهم استطاعت بعض تحولات المحاكمات أن تكون على الأرجح ذات قيمة. هل كانوا ربما يستخدمون المحامي من أجل تحقيق مثل هذه التحولات التي هي بطبيعتها دائماً لغير صالح المدعى عليه؟ ربما لم يكونوا يفعلون هذا في كل محاكمة، حتماً، لهذا لم يكن مرجحاً، وكان هناك محاكمات يقرؤون أثناء مجرها بمنافع للمحامي لقاء خدماته، إذ لا بد أنه كان أيضاً يهمهم الحفاظ على سمعته غير مصابة بضرر. لكن إذا كان الأمر هكذا فعلاً، فإية طريقة سيكون من شأنهم أن يتخلوا في محاكمة لك التي كانت، كما أعلن المحامي، محاكمة بالغة الصعوبة أي باللغة الأهمية، وكانت منذ البداية قد أثارت اهتماماً كبيراً لدى المحكمة؟ لم يكن من المشكوك فيه جداً ماذا من شأنهم أن يفعلوا. ودلائل على ذلك كان في مقدور المرء أن يراها في أن مذكرة الالتماس الأولى مازالت لم تقدم بعد رغم أن المحاكمة كانت قائمة منذ أشهر، وفي أن كل شيء كان، حسب قول المحامي، يتواجد في مهده، الأمر الذي كان طبعاً ملائماً جداً لخدır أعصاب المدعى عليه وإيقائه في حيرة من أمره ومن ثم مفاجأته على حين غرة بالقرار أو على الأقل بالبلاغ أن التحقيق الذي انتهى لغير صالحه إنما سيُرفع إلى السلطات الأعلى.

كان من الضروري على أي حال أن يتدخل لك بنفسه. وبالذات في

حالات الإعفاء الشديد كعهده في ضحى هذا اليوم من أيام الشتاء، حيث دار كل شيء في رأسه دون إرادته، وكان هذا الاقتتاع لائداً. والازدراء الذي كان يكتن في الماضي للمحاكمة لم يعد قائماً. ولو كان وحده في العالم، كان في مقدوره أن يتتجاهل المحاكمة بسهولة، لكن وإن كان من المؤكد أيضاً أن المحاكمة لما قامت من ثم إطلاقاً. أما الآن فقد كان العم قد سحبه إلى الحامي، وكان ثمة دور لاعتبارات عائلية؛ ولم تعد وظيفته مستقلة كل الاستقلال عن مجرى المحاكمة، وهو نفسه كان، في غير ما حيطة وبقسط من ارتياح لا يدرك كنهه، قد ذكر المحاكمة أمام معارف، وكان آخرون قد علموا بها بطريقة غير معروفة، والعلاقة بالأنسة بورستر بدت تتأرجح مطابقة للمحاكمة... وباختصار لم يعد يكاد لديه خيار يقبول المحاكمة أو رفضها، كان يقف في صميمها وينبغي عليه أن يدافع عن نفسه. وإذا ما تعب كان الأمر شيئاً.

لكن لم يكن من داع حالياً لقلق مفرط. كان قد عرف كيف يرتفع في المصرف في غضون فترة زمنية قصيرة نسبياً ويصل إلى مركزه العالي، ويحافظ على نفسه في هذا المركز معترفاً به من قبل الجميع، وليس عليه الآن سوى أن يوجه هذه القدرات، التي أتاحت له هذا، إلى المحاكمة بعض الشيء، وكان مما لا ريب فيه أن الأمر سينتهي نهاية طيبة. وقبل كل شيء كان من الضروري، إذا كان المفروض بلوغ شيء ما، رفض كل فكرة منذ البداية بذنب ممكן. لم يكن ثمة ذنب. والمحاكمة لم تكن شيئاً آخر سوى صفقة كبيرة، مثل الصفقات التي غالباً ما كان قد عقدها بريء للمصرف، صفقة تكمن في داخلها، كما كانت العادة، أحاطار مختلفة كان لابد من صدّها. ولكن لتحقيق هذه الغاية كان لا يجوز للمرء أن يفكر بأي ذنب وإنما أن يتمسك ما أمكن بفكرة الفائدة الشخصية. وانطلاقاً من وجهة النظر

هذه كان من المحتم أيضاً سحب التوكيل من المحامي قريباً جداً ومن الأفضل في هذا المساء. صحيح كان الأمر حسب حكاياته شيئاً فضليعاً وعلى الأرجح مهيناً للغاية، غير أن ك لم يستطع أن يتحمل أن تلقى جهوده في المحاكمية عوائق ربما سببها محاميه الخاص به. لكن إذا ما أزيح المحامي يوماً، فإنه لابد من ثم تقديم الالتماس على الفور والإلحاح ربما كل يوم على أن يراعي. ولتحقيق هذا الغرض لن يكون من شأن الأمر أن يكفي إذا ما جلس ك مثل الآخرين في المر ووضع قبته تحت المقدع. هو نفسه أو النساء أو سعاة آخرون يتوجب عليهم يوماً إثر يوم أن يزدحموا على الموظفين ويرغموهم، بدلاً من النظر إلى المر من خلال القضايان، على الجلوس إلى طاولتهم ودراسة التماس ك. ولا يجوز الكف عن هذه المساعي، يجب تنظيم كل شيء ومراقبته، على المحكمة أن تقع يوماً ما على مدعى عليه كان يعرف كيف يحافظ على حقه.

أما إذا كان ك أيضاً يجرؤ على أن يقوم بهذا كله، فقد كانت كتابة الالتماس شيئاً هائلاً. في السابق، قبل نحو أسبوع، لم يكن في مقدوره أن يفكر سوى بشعور من الخجل بأنه يمكن أن يجد نفسه ذات مرة مضطراً إلى أن يعمل بنفسه مثل هذا الالتماس، أما أن هذا يمكن أن يكون صعباً أيضاً، فهذا ما لم يفكر به فقط. وتذكر كيف أنه ذات ضحى، إذ كان غارقاً في العمل، قد قام فجأة بتناول دفتر الكتابة كي يضع على سبيل التجربة نسق أفكار مثل هذا الالتماس ووضعه ربما تحت تصرف المحامي الخامل، وكيف فتح باب حجرة الإدارة في هذه اللحظة بالذات ودخل نائب المدير وهو يطلق فهقهـة كبيرة. كان الوضع بالنسبة لـ ك محرجاً للغاية آنذاك، رغم أن نائب المدير لم يكن طبعاً قد ضحك على الالتماس، الذي لم يكن يعلم عنه شيئاً، وإنما على نكتة بورصة كان قد

سمعها لتوه، نكتة يتطلب فهمها رسمياً رسمه نائب المدير، وهو ينحني فوق طاولة ك، بقلم رصاص ك الذي أخذه من يده، وعلى الدفتر الذي كان مخصصاً لكتابية الالتماس عليه.

واليوم لم يعد ك يعرف شيئاً من الجدل، لم يكن بدّ من كتابة الالتماس. وإذا لم يجد له وقتاً في المكتب، الأمر المرجح جداً، فكان عليه أن يكتبه في البيت في الليلات. وإذا لم تكفي الليلات، فعليه أن يأخذ إجازة. فقط حذار من الوقوف في منتصف الطريق. لم يكن هذا في الأعمال وحسب وإنما دائماً وفي كل مكان كان الأكثر هراء. والالتماس كان يعني ولاريب عملاً لانهائيّاً تقريباً. لم يكن على المرأة أن يكون بطبيعة شديد الخوف حتى يأتي بسهولة إلى الاعتقاد بأنه من غير الممكن إنجاز الالتماس في أي وقت كان. لم يكن الكسل أو المكر هما اللذان استطاعا أن يمنعوا وحدهما الحامي من إنجاز الالتماس، وإنما لأنه كان يجب، جهلاً بالادعاء القائم بل وبتوسيعاته الممكنة، استرجاع الحياة بكلامها في أدق أعمالها وأحداثها، وعرضها ومراجعتها من كل النواحي. وكم هو محزن كان مثل هذا العمل فضلاً عن ذلك. ربما كان يصلح لأن يشغل، ذات مرة بعد الإحالة إلى التقاعد، العقل الذي أصبح خرفاً ويساعده في قضاء الأيام الطوال. أما الآن، حيث كان ك يحتاج إلى كل الأفكار من أجل عمله، وحيث كانت كل ساعة، إذ كان ما زال في طريق الصعود والترقي وكان يعني تهديداً حتى بالنسبة إلى نائب المدير، تمضي بأقصى سرعة، وحيث كان يريد أن يتمتع بالأمسيات والليلات القصيرة وهو شاب، الآن عليه أن يبدأ بتأليف هذه العريضة. ومرة أخرى انتهى تفكيره إلى الشكوى. ومن غير عمد تقريباً، ولكي ينهي هذا ليس إلا، تحسس بإصبعه زر الجرس الكهربائي المتصل بالحجرة الأمامية. وبينما كان يضغط عليه تطلع إلى الساعة. كانت

تشير إلى الحادية عشرة، لقد انقضت ساعتان، وكان قد فُرِّت وقتاً طويلاً ثميناً وكان طبعاً متعباً أكثر من ذي قبل. وعلى كل حال لم يكن الوقت قد ضاع هباء، كان قد اتخذ قرارات يمكن أن تكون قيمة. وجلب الحاجب بالإضافة إلى بريد متتنوع بطاقة زيارة تخصان رجلين كانوا يتظاران لك منذ فترة طويلة. كانوا من زبائن المصرف ذوي أهمية كبيرة ما كان يجوز في الواقع بأي حال من الأحوال أن يدعهما المرء يتظاران. لماذا حضرا في وقت غير مناسب هكذا ولماذا، هكذا بدا الرجالان مرة أخرى خلف الباب المغلق يسألان، ينفق لك الجدّ أفضل أوقات العمل من أجل مسائله الشخصية. تعباً مما مضى وتعباً من ترقب الآتي نهض لك لكي يستقبل الرجل الأول.

كان رجلاً قصيراً القامة خفيف الحركة، صاحب معلم كان لك يعرفه خير معرفة. أبدى أسفه لإزعاجه لك في عمله الهام، وأبدى لك أسفه من طرفه لأنّه ترك صاحب العمل يتظار فترة طويلة هكذا. لكنه نطق هذا الأسف بطريقة آلية هكذا وبلهجة خاطئة تقريباً بحيث أنّ كان من شأن صاحب العمل ولا بدّ أن يلاحظ الأمر لو لم يكن موضوع العمل قد استحوذ عليه كلياً. وبدلأ من ذلك أخرج على عجل قوائم حساب وجداول من كل الحساب ونشرها أمام لك، وشرح مفردات حساب متعددة، وصحح خطأ حسابياً صغيراً لفت انتباذه حتى لدى هذه النظرة العابرة، وذكر لك بصفة مشابهة كان قد عقدها معه قبل نحو عامين، وذكر عرضاً أنّ مصراً آخر هذه المرة يسعى بتضحيات كبيرة لعقد الصفقة، وصمت أخيراً لكي يعلم الآن رأي لك. وكان لك في البداية قد تابع فعلاً كلام صاحب العمل على نحو جيد، وكانت فكرة الصفقة المهمة قد أثرت فيه أيضاً، إلا أنّ ليس لفترة طويلة مع الأسف، فسرعان ما تخلى عن الإصراء، وظل برهة يومئ برأسه ردأً على نداءات صاحب العمل المرتفعة، لكنه أفلع

أخيراً عن هذا أيضاً واقتصر على النظر إلى الرأس الأصلع المكتب على الأوراق والتساؤل عن الوقت الذي سيعرف فيه صاحب العمل أخيراً أن كلامه كله عديم الجدوى. وإذا صَمِّمت الآن، ظنَّك في أول الأمر فعلاً أن هذا يحدث كي يعطيه فرصة للاعتراف بأنه غير قادر على الإنصات. لكنه لاحظ، وبأسف ليس إلا، من النظرة المتلهفة لصاحب العمل المستعد على ما يedo لكل الردود، أن المحادثة التجارية لابدّ مستمرة. مال برأسه إذاً وكأنه أمّاً أمر وبدأ يمزّ بقلم الرصاص متمهلاً فوق الأوراق، وراح يتوقف بين الفينة والأخرى ويتحقق في رقم من الأرقام. وخمن صاحب العمل وجود اعترافات، ربما لم تكن الأرقام ثابتة فعلاً، وربما لم تكن الأمر الحاسم، على كل حال غطى صاحب العمل الأوراق بيده وبدأ من جديد، وهو يقترب من كُل الاقتراب، عرضاً عاماً للصفقة. «إنه صعب»، قال كُوك وهو يقلب شفتيه، وهو يدى دون سند على المسند الجانبي دون أن يستطيع الاتكاء على شيء، إذ كانت الأوراق، الشيء الوحيد الذي يمكن الإمساك به، مقطأة. بل إنه لم يتطلع سوى بوهٍ عندما فتح باب حجرة الإدارة وظهر هناك نائب المدير، في غير وضوح كامل، بل كأنه وراء غلالة من النسيج الشفاف. ولم يفكِّر كُوك في هذا، وإنما تابع التأثير المباشر الذي كان مفرحاً للغاية بالنسبة إليه. إذ وثب صاحب العمل على الفور من مقعده وأسرع لللاقة نائب المدير، لكن كان على كُوك أن يرفع خفة حركته عشرة أضعاف، إذ كان يخشى أن يختفي نائب المدير ثانية. كانت خشية بغير موجب، فقد التقى الرجالان وتصافحاً وتوجهوا سوية إلى طاولة كُوك. واشتكتي صاحب العمل من أنه لم يجد لدى الوكيل القانوني ميلاً كبيراً للصفقة وأشار بيده إلى كُوك الذي عاد تحت نظره نائب المدير ينحني فوق الأوراق. وإذا استند الإنان من ثم إلى طاولة المكتب وانبرى صاحب العمل يكتسب نائب المدير لنفسه، كان الأمر بالنسبة إلى كُوك أن تفاوضاً يجري حوله هو ومن

فوق رأسه وذلك من قبل رجلين تصورهما بالغى الضخامة. وعلى مهل حاول وهو يدير عينيه إلى أعلى أن يعرف ماذا جرى فوقه، تناول من على طاولة المكتب دون أن ينظر، ورقة من الأوراق، ووضعها على كفه ورفعها بالتدريج إلى الرجلين وهو ينهض. ولم يفكر وهو يفعل ذلك في شيء محدد، بل تصرف وهو يشعر أنه لابد أن يتصرف هكذا عندما يتهمي مرة من وضع الالتماس الكبير، والذي عليه أن يريمه كلياً. ونظر نائب المدير، الذي كان يشارك في الحادثة بكل اهتمام، إلى الورقة على نحو عابر ليس إلا دون أن يطالع ما جاء فيها، إذ أن ما كان مهمتاً بالنسبة إلى الوكيل القانوني كان غير مهم بالنسبة إليه، وتناولها من يدك وقال: «شكراً، إنني أعرف كل شيء»، ووضعها بهدوء على الطاولة الثانية. ونظر لك إليه من الجانب وهو يشعر بمرارة. غير أن نائب المدير لم يلاحظ الأمر أبداً أو أن هذا قد شجعه ليس إلا، فراح يقهقه، وبرد مفحماً أخرج مرة صاحب المعمل إحراجاً واضحاً لكنه أخرجه من حيرته على الفور بأن قدم بنفسه اعتراضاً، وفي النهاية دعاه للانتقال إلى مكتبه حيث يمكنا إتمام المسألة. «إنه شأن في غاية الأهمية»، قال لصاحب المعمل، «وأنا أدرك هذا تمام الإدراك. والسيد الوكيل القانوني - وحتى لدى هذه الملاحظة كان يتكلم في الواقع مع صاحب المعمل وحده - سوف يسرّه ولاريبي إذا نحن توكلنا الأمر عنه. إن المسألة تتطلب تفكيراً هادئاً. أما هو فيبدو اليوم غارقاً في العمل كثيراً، كما أن هناك بعض الناس ينتظرون في الحجرة الأمامية منذ ساعات». كان لدى لك ما فيه الكفاية من ضبط النفس كي يلتفت بعيداً عن نائب المدير ويوجه ابتسامته الودية لكن الجameda إلى صاحب المعمل وحده، وفيما عدا ذلك لم يتدخل أبداً، واستند بكلتا يديه، وهو ينحني قليلاً، على طاولة المكتب مثل صبي متجر وراء النصة، وراقب كيف تناول الرجلان الأوراق من على الطاولة، وهم يتابعان الكلام، وتواريا في حجرة الإدارة. والتفت

صاحب المعلم، وهو مازال في الباب، وقال إنه لا يودع الان بعد، وإنما سوف يقوم طبعاً بإطلاق السيد الوكيل العداني على نجاح الحادثة، كما أن عليه أن يعلمه خبراً صغيراً آخر.

وأخيراً كان ك بمفرده. ولم يفكر أبداً بالسماح لأي زبون آخر بالدخول عليه، وعلى نحو مبهم وحسب أدرك كم هو مريح أن الناس في الخارج إنما كانوا يعتقدون أنه مازال يتفاوض مع صاحب المعلم وأنه لهذا السبب ليس في مقدور أحد، ولا حتى الحاجب، أن يدخل عليه. ذهب إلى النافذة وجلس على قاعدها وأمسك بالقبض بيد واحدة ونظر إلى الميدان. كان الثلوج لا يزال يتتساقط، ولم يكن الجو قد صحا مطلقاً.

وظل جالساً هكذا مدة طويلة دون أن يعلم ماذا يخلق له في الحقيقة متاعب، إلا أنه راح بين الفينة والأخرى وحسب ينظر بشيء من الخوف من فوق كتفه إلى باب الحجرة الأمامية، حيث كان قد ظن خطأ أنه يسمع صوتاً. وإذا لم يأت أحد، أصبح أكثر اطمئناناً وذهب إلى منضدة الغسيل وغسل وجهه بماء بارد وعاد برأس أقل هموماً إلى مكانه لدى النافذة. وبذا له الآن قراره بأن يتولى بنفسه الدفاع عن نفسه أكثر أهمية وخطورة مما كان يفترض في الأصل. مadam كان قد ألقى الدفاع على عاتق المحامي، كان فيحقيقة الأمر لاشأن له كثيراً في المحاكمة، كان يراقبها من بعيد وبالكاد يمكن أن تصل إليه مباشرة، كان يمكنه متى شاء أن يتحقق كيف هو أمر محكمته، لكنه كان في مقدوره أيضاً أن يسحب رأسه مرة أخرى، متى شاء. أما الآن، إذا ما قام بنفسه بالدفاع عن نفسه، فلا بد له، حالياً على الأقل، أن يعرض نفسه للمحكمة أولاً وآخرأ، ونجاته في ذلك يجب أن يكون في ما بعد خلاصه الكامل والنهائي، لكن من أجل بلوغ ذلك يتوجب عليه، حالياً على كل حال، أن يلقي بنفسه في خطر أكبر بكثير مما

كان حتى الآن. ولو كان من شأنه أن يرحب في الشك في ذلك، فإن من شأن لقاء اليوم مع نائب المدير وصاحب العمل أن يستطيع إقناعه على نحو كاف بالعكس. كيف كان يجلس مأخوذاً كلياً لا شيء سوى لأنه قد عقد العزم على أن يدافع بنفسه عن نفسه؟ لكن كيف سيصبح الحال في ما بعد؟ أيام تنتظره! هل من شأنه أن يجد الطريق الذي من شأنه أن يجتاز كل شيء ويؤدي إلى نهاية طيبة؟ وألا يعني دفاع متقن - وكل شيء آخر كان عدم الجدوى - ألا يعني دفاع متقن، في الوقت نفسه، ضرورة اعتزال كل شيء آخر ما أمكن؟ هل من شأنه أن يجتاز هذا سلام؟ وكيف سيتتم له إنجاز ذلك في المصرف؟ لم يكن الأمر يتعلق حقاً بالالتماس وحده، والذي قد يكون من شأن إجازة أن تكفيه، رغم أن من شأن طلب إجازة الآن بالذات أن يكون مخاطرة كبيرة، كان الأمر يتعلق بمحاكمة كاملة لا يمكن تقدير مدتها. أي عائق ألقى فجأة في مسارك!

والآن عليه أن يعمل للمصرف؟ - نظر إلى طاولة المكتب. - الآن عليه أن يدخل زبائن عليه ويتفاوض معهم؟ في الوقت الذي كانت فيه محاكمته تسير باستمرار، في الوقت الذي كان فيه موظفو المحكمة يجلسون في العلالي فوق أوراق هذه المحاكمة، كان عليه أن يقوم بأعمال المصرف؟ ألم يدو الأمر مثل تعذيب تعترف به المحكمة وكان يتصل بالمحاكمة ويرافقها؟ وهل من شأن المرء في المصرف مثلاً أن يراعي، عند تقييم عمله، وضعه الخاص؟ لا أحد ولا أحداً. إن محاكمته لم تكن مجاهولة كلياً، وإن لم يكن مازال من غير الواضح كلياً من يعلم عنها وكم. لكن عسى ألا تكون الإشاعة قد وصلت بعد إلى نائب المدير، وإلا كان من شأن المرء أن يرى بوضوح ولابد، كيف من شأنه أن يستغلها ضدك بلا مراعاة لأية زمالة وإنسانية. والمدير؟ يقيناً كان يميل إلىك وكان من شأنه في أغلب الظن،

حالما يعلم بالمحاكمة، وبقدر ما يعود الأمر إليه، أن يرحب في خلق بعض التسهيلات له. لكن يقيناً ما كان من شأنه أن ينبع في ذلك، حيث أنه كان الآن، إذ بدأت القوة المضادة التي كان له قد شكلها حتى الآن تصبح واهنة، يقع دائماً أكثر تحت تأثير نائب المدير، الذي راح، فوق ذلك، يستغل حالة المدير المتألة لدعم سلطته الشخصية. ماذا كان على له إذاً أن يأمل؟ ربما أضعف بمثابة هذه الأفكار قوته على المقاومة، لكن كان من الضروري أيضاً ألا يخدع نفسه وأن يرى كل شيء بوضوح بالقدر الممكن حالياً.

وبدون سبب معين، وفقط لكي لا يضطر حالياً للعودة إلى طاولة المكتب، فتح النافذة. ولم تدع نفسها تفتح سوى بصعوبة. وكان عليه أن يدبر المقبض بكلتا يديه. فتسرب عبر النافذة بكل عرضها وارتفاعها ضباب مختلط بدخان وملاها برائحة حريق خفيفة. كما تطاير إلى الداخل بعض من ندف الثلج. «خريف رديء»، قال من وراء له صاحب المعمل الذي كان قد دخل قادماً من لدن نائب المدير إلى الحجرة دون أن يشعر به. أوهماً له برأسه ونظر في غير ارتياح إلى محفظة صاحب المعمل والتي من شأن هذا في أغلبظن أن يخرج منها الأوراق لكي يعلم له نتيجة المفاوضات مع نائب المدير. غير أن صاحب المعمل تبع نظرة له ونقر على محفظته وقال دون أن يفتحها: «تريد أن تسمع كيف جاءت النتيجة. متوسط الجودة. إنني أحمل تقريراً عقد الصفقة في المحفظة. إنسان جذاب، نائب مديرك، لكنه ولاريب ليس غير خطط». وضحك وصافح له وأراد إضحاكه. لكن بدل له من الريب أن صاحب المعمل لم يشأ أن يريه الأوراق وهو لم يجد في ملاحظة صاحب المعمل شيئاً يدعو للضحك. «أيها السيد الوكيل القانوني»، قال صاحب المعمل، «إنك لتعاني من الطقس. تبدو اليوم مكتباً جداً». «نعم»، قال له وتحسس صدغه بيده، «صداع، هموم عائلية».

«صحيح جداً»، قال صاحب المعلم الذي كان إنساناً مستعجلًا لا يقدر أن يستمع إلى أحد بهدوء، «على كل فرد أن يحمل صليبه». ومن غير عمد كان لك قد خطأ خطوة باتجاه الباب وكانت أراد أن يرافق صاحب المعلم إلى الخارج، لكن هذا قال: «ما زال لدى أيها السيد الوكيل القانوني خبر صغير لك. وأخشى جداً أن أزعجك به اليوم بالذات، لكنني كنت في الفترة الأخيرة مرتين لديك ونسيت الأمر في كل مرة. وإذا ما تابعت تأجيله، فإنه في أغلب الأظن يفقد الغرض منه بشكل كامل. لكن من شأن هذا أن يكون شيئاً مؤسفًا، إذ أن خبري قد لا يكون في حقيقة الأمر عديم القيمة». وقبل أن يكون لدى لك متسع من الوقت كي يجيب، اقترب منه صاحب المعلم، ونقر بترجمة الإصبع على صدره نقرة حفيفة، وقال بصوت منخفض: «لديك محاكمة أليس كذلك؟» تراجع لك إلى الوراء ونادي على الفور: «هذا قاله لك نائب المدير». آه. كلاً، قال صاحب المعلم، «من أين يمكن للنائب أن يعرف الأمر إذا؟». «وأنت؟» سألك وقد تمالك نفسه أكثر. «إنني أعلم بين الفينة والأخرى شيئاً من المحكمة»، قال صاحب المعلم. «هذا يخص الخبر الذي أردت أن أنقله لك». «ناس كثيرون لهم صلة بالمحكمة!» قال لك وقد خفض رأسه ثم قاد صاحب المعلم إلى طاولة المكتب. وجلس الإثنان ثانية مثل السابق وقال صاحب المعلم: «مع الأسف ليس كثيراً ما أستطيع إعلامك إياه. لكن في مثل هذه الأمور ينبغي على المرء ألا يهمل أي صغيرة أو كبيرة. ولكن فوق ذلك هناك ما يدفعني لمساعدتك بطريقة ما ومهما كانت مساعدتي متواضعة. لقد كنا حتى الآن رفاق عمل حسنين، أليس كذلك؟ والآن إذا؟». وأراد لك أن يعتذر بسبب تصرفه في محادثة اليوم، لكن صاحب المعلم لم يقبل مقاطعة، رفع محفظته تحت إبطه كي يبيّن أنه مستعجل، وتابع قائلاً: «عن محاكيمتك أعرف من شخص اسمه

تيتوريٰ. إنه رسام، وتيتوريٰ هو اسمه الفني فقط، أما اسمه الحقيقي فإنه لا أعرفه مطلقاً. وهو يأتي منذ سنوات بين وقت وآخر إلى مكتبي ويجلب معه لوحات صغيرة أعطيه لقاءها - وهو يكاد يكون متسللاً - دائماً نوعاً من الصدقه. وللمناسبة، إنها لوحات لطيفة، تمثل مناظر مروج وما شابه. وكانت هذه المبيعات - كنا كلانا قد تعودنا على ذلك - تجري بسهولة تامة. لكن ذات مرة تكررت هذه الزيارات أكثر من اللازم، فوجهت إليه اللوم، ودخلنا في الحديث، وقد اهتممت بمعرفة كيف يمكنه أن يعيش من الرسم وحده، وعلمت مندهشاً أن المصدر الرئيسي لدخله هو رسم أشخاص. قال إنه يعمل للمحكمة. سألت أي محكمة. فراح يحكى لي عن المحكمة. وسوف يكون في مقدورك أن تصور على أحسن وجه كم كانت دهشتي من هذه الحكايات. ومنذ ذلك الوقت وأنا أسمع لدى كل زيارة من زيارته أية أخبار جديدة عن المحكمة، وهكذا أطلع تدريجياً على الموضوع إلى حد ما. لكن تيتوريٰ ثرثار، وغالباً ما يكون عليّ أن أصذه، ليس لأنه يكذب أيضاً بالتأكيد، وإنما قبل كل شيء لأن رجل أعمال مثلني، يكاد ينهار تحت وطأة هموم العمل، لا يستطيع أن يهتم كثيراً فوق ذلك بأمور الغير. لكن هذا عرضاً وحسب. ربما - هكذا فكرت الآن - يستطيع تيتوريٰ أن يساعدك بعض الشيء، إنه يعرف قضاء كثرين وإذا لم يكن نفسه ذا نفوذ كبير، فإنه ليسطيع أن يعطيك نصائح، كيف يمكن للمرء أن يقوى على مختلف الناس ذوي النفوذ. وإذا لم تكن أيضاً هذه النصائح حاسمة في حد ذاتها، فإنها ستكون في حوزتك ذات أهمية كبيرة حسب رأي. إنك تكاد تكون محامياً. لقد اعتدت دائماً أن أقول: يكاد الوكيل القانوني كأن يكون محاماً. أوه، إنني لست قلقاً بسبب محاكمنك. لكن هل تريد الآن أن تذهب إلى تيتوريٰ؟ بناء على توصيتي سوف يفعل بالتأكيد كل ما يمكنه

فعله. وأنا أرى فعلاً أن عليك أن تذهب إليه. وهذا لاينبغي طبعاً أن يكون اليوم، ذات مرة، في مناسبة ما. لكنك - أريد أن أقول هذا - لست ملزمأً أقل إلزام بأن تذهب أيضاً إليه فعلاً، لأنني أنا بالذات أقدم لك هذه النصيحة. لا، إذا كنت تعتقد أنه في مقدورك أن تستغنى عن تيتورلي، فإنه من الأفضل يقيناً ألا تلتفت إليه. وربما كان لديك خطة دقيقة كلياً ويمكن لتيتورلي أن يعيقها. لا، في هذه الحالة لا تذهب طبعاً بحال من الأحوال. كما أن التماس نصائح من مثل هذا الغلام يكلف بالتأكيد جهداً. والآن كما تريده. هذا هو كتاب التوصية وهذا هو العنوان.

خائب الأمل أخذك الرسالة ووضعها في جيبي. حتى في أحسن الحالات كانت الفائدة التي يمكن للتوصية أن تجلبها له، أقل بكثير من الضرر الذي كان يمكن في أن صاحب المعلم إنما كان يعلم أمر محاكمةه، وفي أن الرسام إنما كان قد أشاع الخبر. وبالكلاد استطاع أن يكره نفسه على أن يشكّر ببعض الكلمات صاحب المعلم الذي كان في طريقه إلى الباب: «سوف أذهب إليه»، قال وهو يودع صاحب المعلم لدى الباب، «أو، إذ أنتي الآن مشغول جداً، أكتب له أن يأتي إلي في المكتب ذات يوم». «كنت أعرف»، قال صاحب المعلم، «إنك ستتجه إلى المخرج الأفضل. غير أنني فكرت أنك ستفضل تجنب دعوة ناس مثل تيتورلي هذا إلى المصرف، كي تتحدث معه هنا عن المحاكمة. كما أنه ليس من المفيد دائمآً تسليم رسائل إلى مثل هؤلاء الناس. لكنك تعمقت في كل شيء ولا ريب وتعلم ماذا يجوز لك أن تفعل». أومأك برأسه ورافق صاحب المعلم عبر الحجرة الأمامية لكن رغم الهدوء الظاهري كان مرتعباً جداً من نفسه. في الواقع لم يقل إنه سيكتب إلى تيتورلي سوى لكي يبين على نحو ما صاحب المعلم بأنه يعرف كيف يقدر التوصية ويفكر حالاً في إمكانيات التقاء مع تيتورلي، على أنه لو كان

يعتبر مساعدة تيتورلي له ذات قيمة، فلن يكون من شأنه أن يتربّد في الكتابة له فعلًا. لكنه لم يتبين الأخطار التي يمكن أن تنجو عن هذا إلا من خلال ملاحظة صاحب العمل. ألم يستطع الاعتماد على عقله إلا قليلاً هكذا فعلاً؟ إذا كان من الممكن أن يدعو شخصاً مريباً إلى المصرف عن طريق رسالة واضحة كي يتلمس منه، ولا يفصله عن نائب المدير إلا باب، نصائح فيما يتعلق بمحاكمته، ألم يكن من الممكن بل من المرجح جداً أنه غفل عن أخطار أخرى أيضاً أو ألقى بنفسه إلى داخلها؟ ليس دائماً كان أحدهم يقف إلى جانبه ليحدّره. وبالذات الآن، حيث كان يحسن به أن يظهر مستجيناً قواه، ظهرت مثل هذه الشكوك في يقظته الشخصية، هذه الشكوك الغريبة عليه حتى الآن. هل تبدأ الآن في المحاكمة أيضاً الصعوبات التي كان يحسّنها لدى قيامه بعمله المكتبي؟ لكنه الآن لم يعد يفهم أبداً كيف كان من الممكن أنه قد أراد أن يكتب إلى تيتورلي ويدعوه إلى المصرف.

وكان مايرال يهر رأسه على ذلك، عندما وقف الحاجب إلى جانبه ولفت انتباهه إلى ثلاثة رجال كانوا يجلسون على مقعد هنا في الحجرة الأمامية. كانوا يتظرون منذ فترة طويلة أن يُسمح لهم بالدخول على ك. والآن إذ كان الحاجب يتحدث مع ك، نهضوا وقد أراد كل منهم أن يستغل فرصة مناسبة كي يتودّد إلى ك قبل الآخرين. وإذا كان المرء من طرف المصرف بلا مراعاة هكذا بأن يتركهم يضيّعون وقتهم هنا في حجرة الانتظار، لم يعودوا هم أيضاً يريدون أن يراعوا. «السيد الوكيل القانوني»، قال أحدهم، لكن ك دعا الحاجب يحضر له المغطّف الشتوي وقال، وهو يرتديه بمساعدته، للثلاثة جميعهم: «اعذروني يا سادتي، ليس لدى الآن مع الأسف متسع من الوقت لاستقبالكم. أرجوكم جداً العذر، لكن لدى مشوار عمل ملحّ يجب القيام به وينبغي علي الانصراف في الحال. ولقد

رأيتم بأنفسكم كيف جرى الآن تأخيري فترة طويلة. هل تتذمرون بالعودة
غداً أو في أي وقت؟ أم أنكم قد تريدون التحدث عن الأمور هاتفيّاً؟ أو
لعلكم تريدون ربعاً الآن أن تقولوا لي بإيجاز ما هو الموضوع وأنا أعطيكم
من ثم جواباً خطياً مفصلاً. لكن سيكون من الأفضل أن تأتوا في القريب
الماضي». اقتراحاتك هذه أدهشت الرجال، الذين كانوا قد انتظروا على
غير جدوى كلياً، دهشة كبيرة إلى درجة أنهم نظروا إلى بعضهم بعضاً
بصمت. «اتفقنا إذًا؟» سألك الذي كان قد التفت نحو الحاجب الذي
حضر له الآن القبة أيضاً. ومن خلال الباب المفتوح لحجرةك كان المرء
يرى كم تزايد تساقط الثلوج في الخارج. لذا فقد رفع كيافة المعطف وزرّها
عالياً تحت العنق.

في هذه اللحظة خرج نائب المدير من الحجرة الجانبية، ونظر، وهو
يتسم، إلىك في معطفه الشتوي وهو يباحث مع الرجال، وسأل: «هل
تنصرف الآن أيها السيد الوكيل القانوني؟». «نعم»، قال لك وانتصب،
«يجب أن أقوم بمشوار عمل». لكن نائب المدير كان قد التفت نحو الرجال
وسأله: «والسادة؟ أظن أنهم يتذمرون منذ فترة طويلة». «لقد اتفقنا»، قال لك،
لكن الرجال لم يعد يعوّهم عائق، أحاطوا بك وأعلنوا بأنه لم يكن من
 شأنهم أن يتذمرون طوال ساعات، لو لم تكون مسائلهم هامة ويجب أن
 تُبحث الآن وبالتفصيل وسرّاً. واستمع نائب المدير إليهم برهة، كما تأمل
ك، الذي كان يمسك القبة في يده وينظر مواضع فيها من التراب، ثم
 قال: «سادتي ثمة مخرج بسيط للغاية. إذا أردتم الاكتفاء بي لعدم وجود
 إمكانية أفضل، فإنني أتولى المفاوضات برغبة كبيرة بدلاً عن السيد الوكيل
 القانوني. وطبعاً يجب مناقشة مسائلكم على الفور. نحن رجال أعمال
 مثلكم ونعرف كيف تقدير وقت رجال الأعمال تقديرأً صحيحاً. هل
 تريدون الدخول إلى هنا؟». وفتح الباب الذي يؤدي إلى الحجرة الأمامية

يالمهار نائب المدير في الاستيلاء على كل ما يجب على كُوكُون أن يتخلّى عنه مرغماً! لكن ألم يتخلّى كُوكُون عن أكثر مما هو ضروري على أي حال؟ بينما كان يجري إلى رسام مجهول وهو يحمل أمالاً غامضة و - كما اعترف هو لنفسه - ضئيلة للغاية، أصيّت هنا سمعته بضرر لا يعالج. وعلى الأرجح كان من الأفضل كثيراً أن يخلع المعطف الشتوي ثانية ويسترجع لنفسه، على الأقل، الرجلين اللذين كان عليهما أن يتّنظراً في الحجرة المجاورة. وربما كان من شأن كُوكُون أن يحاول أيضاً ذلك، لو لم يلمح الآن نائب المدير كيف كان يبحث عن شيء ما في درج السجلات، وكأنه يخصه. ولما اقترب كُوكُون من الباب وقد تملّكه الانفعال، نادى نائب المدير: «آه، لم تتصرف بعد». وحوّل إليه وجهه، الذي بدأ تجاهيده الكثيرة المسطوطة أنها تدلّ على قوة وليس على تقدّم في السن، وبدأ على الفور يبحث ثانية. وقال: «إنني أبحث عن نسخة عقد يفترض أن تكون لديك كما يدعى مندوب الشركة. ألا تريدين مساعدتي في البحث؟». وتقدم كُوكُون خطوة، لكن نائب المدير قال: «شكراً لـقد وجدتها»، وعاد إلى حجرته ثانية وهو يحمل حزمة كبيرة من الأوراق لا تقوى نسخة العقد فحسب، بل أوراقاً أخرى كثيرة ولا ريب. «الآن لا طاقة لي به»، قال كُوكُون في ذات نفسه، «لكن عندما سُتُرّ على مصاعبي الشخصية يوماً ما، فسيكون حقاً أول من عليه أن يكابد، وبمرارة إن أمكن». بفضل هذه الفكرة هدأ روع كُوكُون بعض الشيء، وأعطى الحاجب، الذي كان قد فتح الباب المؤدي إلى الممر وتركه مفتوحاً وهو يمسكه فترة طويلة، مهمة بأن يبلغ المدير عندما تنسح الفرصة أنه في مشوار عمل، وغادر المصرف وهو يكاد يكون سعيداً لأنّه يستطيع أن يكرس نفسه مدة ما لقضيته على نحو أكثر شمولاً.

رسام

وسافر فوراً إلى الرسام، الذي كان يسكن في ضاحية تقع في اتجاه معاكس تماماً للضاحية التي تتوارد فيها مكاتب المحكمة. وكانت منطقة أكثر فقراً، البيوت معتمة أكثر، الشوارع مليئة بالأوساخ التي انتشرت على التلخ الذائب. في المبني الذي كان الرسام يسكن فيه كان مصراع واحد فقط من مصراعي الباب الكبير مفتوحاً، لكن في المصراع الآخر كان ثمة فجوة فتحت في الأسفل جانب الجدار، وكان يندفع منها، تماماً إذ اقترب ك، سائل كريه أصفر ينبعث منه دخان هرب منه فأر إلى القناة القرية. وفي أسفل السلالم كان طفل صغير يرقد فوق الأرض على بطنه وي بكى، لكن بكاءه لم يكن يسمع بالكاد جراء الضجيج الذي كان يعلو على كل شيء والذي كان يأتي من ورشة سمسكيٍّ على الجانب الآخر من باب الممر. وكان باب الورشة مفتوحاً، وكان ثلاثة صبيان يقفون في نصف دائرة حول قطعة ما تحت التصنيع يدقونها بالشواكيش. وكان ثمة لوحه كبيرة من الصفيح الأبيض معلقة على الحائط تلقي ضوءاً خافتاً تسرب بين صبيين وأضاء الوجوه ومرأيل العمل. ولم يكن لدى ك سوى نظرة عابرة، وأراد أن ينتهي من هنا بأسرع ما يمكن، لأن يستكشف الرسام ببعض الكلمات وحسب ويعود على الفور إلى المصرف. وإذا ما حقق هنا أقل نجاح، فمن شأن هذا

أن يؤثر تأثيراً طيباً على عمله اليوم في المصرف. ولما بلغ الطابق الرابع اضطر إلى تخفيض خطوطه، إذ راح يلهم كل اللهاث، كان الدرج كما كانت الطوابق ذا علوٌ مفرط، والمفروض أن الرسام كان يسكن في علية تقع في أعلى المبنى. كما أن الهواء كان خانقاً، ولم يكن هناك سلم خارجي، وكان السلم الضيق محاصراً من الجانبين بجدران فتحت فيها هنا وهناك وحسب في الأعلى كلياً تقريباً نوافذ صغيرة. وتماماً إذ توقف ك قليلاً، جرت عدة بنات صغيرات خارجة من مسکن وأسر عن يرتفعن السلم وهن يضحكن. وتبعهن ك على مهل، ولحق بإحدى البنات التي كانت قد تعثرت في خطها وتأخرت عن الآخريات، وسألتها وهما يصعدان إلى جانب بعضهما بعضاً: «هل يسكن هنا رسام تيتوري؟» وكزته البنت، الحدباء بعض الشيء والتي لم تكبد تبلغ الثالثة عشرة من عمرها، برفقها وتطلعت إليه من الجانب. لم تكن حداة سنتها ولا عاشرتها قد استطاعت أن تمنع من أن تكون فاسدة كل الفساد. وحتى لم تبتسّم، بل نظرت إلى ك بجدّ نظرة حادة تنم عن دعوة. وتطايرت ك بأنه لم يلاحظ تصرفها وسأل: «هل تعرفين الرسام تيتوري؟» أوّمأت برأسها وسألت من طرفها: «ماذا ت يريد منه؟» وبدالـ ك أنه من المفید أن يعلم بسرعة بعض الشيء عن تيتوري: «أريد أن أدعه يرسمني»، قال. «تدفعه يرسمك؟»، سألت، وفتحت فمهما أكثر مما ينبغي، وبرق ضربت ك يدها، وكأنه قال شيئاً مفاجئاً للغاية أو شيئاً يخلو من الكياسة، ورفعـت بكلتا يديها نورتها القصيرة جداً على كل حال، وجرت بكل ما استطاعت من سرعة خلف البنات الآخريات اللواتي خفت صراخهن ثم تلاشت في الأعلى، لكن عند الانحناء التالية للسلم التقى ك مرة ثانية البنات كلّهن. كـن على ما يبدو قد علمن من الحدباء غرض ك وانتظرنه. وقفـن إلى جانبي السـلم والتصقن بالحائط حتى يـرـ ك بينهن بسهولة ورحـن يـلسـن مـازـهـن بـأـيـهـنـ. كانت كل الوجوه وكذلك هذا

الاصطفاف على جانبين تمثل مزيجاً من الطفولية والخلاعة. وفي مقدمة البناء، اللواتي انضممن الآن خلف ك وهن يضحكن، كانت الحدباء التي تولّت القيادة. وكان ك يدين لها بأنه وجد الطريق الصحيح حلاً. إذ أنه كان ي يريد متابعة الصعود على طول، لكنها هي أشارت له بأن عليه أن يختار تفرعاً للسلم كي يصل إلى تيتورلي. وكان الدرج الذي يؤدي إليه ضيقاً بشكل خاص، وطويلاً جداً، وبدون منعطف، ويمكن رؤيته بطوله كله، ويسده في الأعلى باب تيتورلي مباشرة. هذا الباب الذي كان، على عكس بقية السلم، مضاء إضاءة منيرة نسبياً من خلال نافذة ضوء علوية صغيرة مركبة فوقه بشكل مائل، كان مركباً من عوارض غير مطلية رسم عليها اسم تيتورلي بلون أحمر وخطوط فرشاة عريضة. ولم يكدر ك يكون مع حاشيته في منتصف السلم، حتى فتح في الأعلى الباب قليلاً، الأمر الذي سببه الخطوات الكثيرة على ما يedo، وظهر في فتحة الباب رجل لا يرتدي على الأرجح سوى رداء النوم. «أوه!» نادى إذ رأى الجميع، وتوارى. وضررت الحدباء كفأ على كف من الفرح، وتراحمت بقية البناء وراء ك ليدفعنه إلى الأمام بسرعة أكبر.

إنما يجري في وفاق وديٍ. ورفعت البناء عند الباب الواحدة بعد الأخرى رقابهن إلى الأعلى وصحن بالرسام كلمات مختلفة يقصد بها المزاح لم يفهمها ك، كما ضحك الرسام في حين كانت الحدباء في يده تكاد تطير. ثم أغلق الباب، انحنى مرة أخرى أمام ك ومهـ يده إليه وقال مقدماً نفسه: «الرسام تيتوري». أشار ك إلى الباب الذي كانت البناء بهمسن وراءه، وقال: «يبدو أنك محظوظ جداً في العمارة». «آه، البناء طويلاً اللسان!» قال الرسام وهو يحاول عيناً أن يزيل رداء النوم على الرقبة. وكان، للمناسبة، حافي القدمين ولا يرتدي سوى سروال كتانـي واسع أصفر اللون، مشـبـت بحزام راح طرفة الطويل يتمايل. «طويلاً اللسان وهـ حمل ثقيل علىـ»، تابـعـ كلامـهـ، وتركـ رداءـ النومـ الذيـ كانـ زـرهـ الأخيرـ قدـ انقطعـ، وأحضرـ كـرسـياـ وأـلـزمـ كـ بالـجلـوسـ عـلـيـهـ. «ذـاتـ مرـةـ رسـمـتـ وـاحـدةـ منـهـنـ -ـ وهـ حتـىـ لـيسـ هـنـاـ الـيـوـمـ -ـ وـمـنـذـ ذـلـكـ الـوقـتـ وهـنـ يـلاـحـقـنـيـ. عـنـدـمـاـ أـكـونـ هـنـاـ، لاـ يـدـخـلـنـ سـوـىـ عـنـدـمـاـ أـسـمـعـ بـذـلـكـ، أـمـاـ إـذـاـ اـنـصـرـفـ مـرـةـ، فـتـكـونـ دـائـمـاـ وـاحـدةـ عـلـىـ الأـقـلـ هـنـاـ. وـقـدـ صـنـعـ لـأـنـفـسـهـنـ مـفـتـاحـاـ لـبـايـيـ يـتـبـادـلـهـ بـيـهـنـ. لـاـ يـكـنـ بـالـكـادـ تـصـوـرـ كـمـ يـزـعـجـ هـذـاـ. أحـضـرـ إـلـىـ الـبـيـتـ مـثـلـاـ مـعـ سـيـدـةـ عـلـيـ أـنـرـسـمـهـاـ، أـفـتـحـ الـبـابـ بـمـفـتـاحـيـ فـأـجـدـ مـثـلـاـ الـحـدبـاءـ هـنـاكـ عـنـدـ الطـاـوـلـةـ الصـغـيرـةـ تصـبـعـ شـفـتيـهاـ بـلـونـ أـحـمـرـ بـالـفـرـشـاةـ، فـيـ حـينـ يـرـوحـ أـخـوتـهاـ الصـغـارـ، التـيـ عـلـيـهـاـ أـنـ تـشـرـفـ عـلـيـهـمـ، يـدـورـونـ وـيـوـسـخـونـ الـحـجـرـةـ فـيـ كـلـ أـرـكـانـهـ. أوـ أحـضـرـ، كـمـ حـدـثـ لـيـ يـوـمـ أـمـسـ، إـلـىـ الـبـيـتـ فـيـ سـاعـةـ مـتـأـخـرـةـ -ـ أـرجـوـ مـرـاعـاةـ لـذـلـكـ أـنـ تـغـفـرـ حـالـتـيـ وـالـفـوـضـيـ فـيـ الـحـجـرـةـ -ـ إـذـاـ أحـضـرـ إـلـىـ الـبـيـتـ فـيـ سـاعـةـ مـتـأـخـرـةـ وـأـرـيدـ أـنـ أـذـهـبـ إـلـىـ الـفـرـاشـ، فـإـذـاـ بشـيءـ يـقـرـصـنـيـ فـيـ سـاقـيـ، أـنـظـرـ تـحـتـ السـرـيرـ وـأـخـرـجـ هـكـذاـ بـنـتاـ صـغـيرـةـ. وـأـنـاـ لـاـ أـدـرـيـ مـاـذـاـ يـتـدـافـعـنـ إـلـيـ، وـأـظـنـ أـنـكـ لـاحـظـتـ أـنـيـ لـاـ حـاـولـ استـدـراـجـهـنـ إـلـيـ. وـطـبـعـاـ أـعـاقـ بـذـلـكـ عـنـ عـمـلـيـ

أيضاً. ولو لم يكن هذا المرسم قد وضع تحت تصرفني مجاناً، كنت قد انتقلت منذ مدة طويلة». في هذه اللحظة نادى خلف الباب صوت صغير رقيق ينتم عن تحفه: «تيتوري، هل تسمع لنا الآن بالدخول؟». «لا»، أجاب الرسام. «وأنا وحدي أيضاً لا؟» عاد الصوت يسأل. «أيضاً لا»، قال الرسام، وذهب إلى الباب وأغلقه.

في هذه الأثناء كان ك قد نظر حوله في الحجرة، وما كان يخطرقط على باله نفسه أنه قد يمكن لأحدهم أن يسمّي هذه الحجرة الصغيرة البائسة مرسمًا. لم يكن في مقدور المرأة بالكاد أن يخطو فيها طولاً وعرضًا أكثر من خطوتين طويلتين. كل شيء، الأرضية، والجدران، وسقف الغرفة كان من خشب، وبين العوارض كان الماء يرى شقوقاً ضيقة. وفي مواجهة ك عند المائط وضع السرير الذي كان محملًا ببياضات مختلفة الألوان. وفي وسط الحجرة كان ثمة لوحة على حامل رسم يغطيها قميص تدلّت أكمامه حتى الأرض. وخلف ك كانت النافذة التي لم يكن في مقدور المرأة أن يرى من خلالها في الضباب أبعد من فوق سطح المبنى المجاور المعطى بالثلج.

وذَكَرت إدارة المفتاح في القفل ك بأنه كان يريد الانصراف قريباً. لذا فقد أخرج رسالة صاحب المعلم من جيبه وقدّمها إلى الرسام وقال: «لقد سمعت عنك من هذا السيد الذي هو من معارفك، وأتيت إليك بناء على نصيحته». فرأى الرسام الرسالة قراءة عابرة وألقى بها على السرير. ولو لم يكن صاحب المعلم قد تكلم بغایة التحديد عن تيتوري بصفته أحد معارفه، بصفته إنساناً فقيراً يعتمد على صدقاته، لكان في مقدور المرأة الآن أن يعتقد فعلاً أن تيتوري لا يعرف صاحب المعلم أو لا يعرف أن يتذكرة على الأقل. وفوق ذلك سأله الرسام: «هل تريد أن تبتاع لوحات أم أن ترسم؟» ونظر ك إلى الرسام في دهشة. ماذا ورد إذاً في الرسالة في حقيقة الأمر؟ كان ك قد

افتراض بدهياً أن صاحب المعمل قد أعلم الرسام في الرسالة أن ك لم يكن يريد شيئاً آخر سوى الاستفسار عن محاكمته. وكان في عجلة من أمره وجرى إلى هنا بغیر تفکیر أو ترؤ! لكن كان عليه الآن أن يحیب الرسام على نحو من الأنجاء، فقال وهو يلقى نظره إلى حامل الرسم: «إنك تعمل الآن في لوحة؟». «نعم»، قال الرسام وألقى بالقلميص الذي كان معلقاً فوق الحامل على السرير تلو الرسالة. «إنها صورة شخص. عمل جيد، لكنها لم تتم بعد كلية». وكانت الصدفة مؤاتية لك، وإمكانية التحدث عن الحكمة قُدمت له بكل معنى الكلمة، إذ أن اللوحة كانت على ما يedo صورة قاض. وكانت، للمناسبة، شبيهة بشكل ملفت للنظر باللوحة في مكتب المحامي. كانت اللوحة هنا حقاً صورة قاض آخر كلية، رجل بدین بلحية سوداء كثة تصل جانبياً إلى الوجنتين، كما أن تلك اللوحة كانت لوحة زيتية، أما هذه فقد كانت ملونة بأقلام الشمع وعلى نحو خفيف وغير واضح. لكن كل شيء آخر كان مشابهاً، إذ هنا أيضاً كان القاضي بهم بالنهوض متوعداً من كرسى عرشه الذي كان يمسك بمسندية. «إن هذا لقاضٍ»، أراد لك أن يقول على الفور، غير أنه أحجم من ثم مؤقتاً واقترب من اللوحة وكأنه يريد دراستها في تفاصيلها. كان ثمة شخص طويل يقف في الوسط فوق المسند الخلفي لكرسي العرش لم يستطع تفسيره، فسأل الرسام عنه، «مازال يجب إكماله بعض الشيء»، أجاب الرسام وأحضر من على منضدة صغيرة قلم شمع ورسم به قليلاً محيط الشخص، لكن دون أن يوضحه بذلك أكثر لك. «إنها العدالة»، قال الرسام أخيراً. «الآن أتبتها»، قال لك، «هذا هو الرابط حول العينين وهذا هو الميزان. لكن أليس هذه أجنحة على العقين وألا تتوارد في حالة جري؟». «نعم»، قال الرسام، كان علي أن أرسمها هكذا حسب الطلب، إنها في حقيقة الأمر العدالة وإلا هه النصر في آن». «ليس هذا ربطة جيدة»، قال لك مبتسمـاً، «يجب على العدالة أن تقف، وإلا فإن

الميزان يتارجع وما من حكم عادل ممكن». «بهذا أتبع أصحاب الطلب»، قال الرسام. «نعم ولا ريب»، قال لك الذي لم يكن يريد بمحاظته أن يزعج أحداً. «رسمت الشخص هكذا مثلما هو فعلاً على كرسي العرش». «لا»، قال الرسام، «لم أر الشخص ولا كرسي العرش، هذا كله هو اختلاف، لكن محمد لي ما ينبغي علي أن أرسمه». «كيف؟» سألك وتظاهر عمداً وكأنه لا يفهم الرسام تماماً، «إنه لقاضٍ، هذا الذي يجلس على مقعد القاضي». «نعم»، قال الرسام، «لكنه ليس قاضياً كبيراً ولم يجلس مرة من المرات على مثل كرسي العرش هذا». «ويبدع نفسه ترسم في وضع احتفالي هكذا؟ إنه ليجلس هنا مثل رئيس محكمة». «نعم، مختالون هم هؤلاء الرجال»، قال الرسام. «لكن لديهم إذن سام بأن يدعوا أنفسهم ترسمون هكذا. وقد محمد لكل منهم كيف يسمح له أن ترسم. والآن لا يمكن للمرء مع الأسف بناء على هذه اللوحة بالذات أن يحكم على تفاصيل الزي والجلسة، إذ أن الوان أقلام الشمع غير صالحة مثل هذه الرسوم». «نعم»، قال لك، «من الغريب أنها مرسومة بأقلام الشمع». «القاضي يرغبهـا هـكـذا»، قال الرسام، «وهي مخصصة لإحدى السيدات». ويبدو أن مشاهدة اللوحة أثارت فيه الرغبة في العمل، فتشعر عن ساعديه وتناول بعض الأقلام، وراح لك يراقب كيف تكون فيما بعد، تحترؤوس المرتعشة للأقلام، عند رأس القاضي، ظل ضارب للحمرة تلاشى على شكل إشعاعي قرب حافة اللوحة. وبالتدريج أحاطت لعبة الظل هذه بالرأس مثل حلية أو وشاح رفيع. أما ما حول شخصية العدالة فقد ظل، باستثناء تلوين خفيف، مضيناً. وفي هذا الضياء بدت الشخصية تتغلغل بشكل خاص، لم تعد تذكر بإلاهة العدالة، كما لم تعد أيضاً تذكر بإلاهة النصر، لقد بدت الآن بالأحرى مثل إلهة الصيد على أتم وجه. وجذب عمل الرسام لك أكثر مما كان يريد؛ لكنه في النهاية لام نفسه أنه كان هنا فترة طويلة وفي حقيقة الأمر لم يكن قد فعل أي شيء

من أجل قضيته الخاصة به. «ما اسم هذا القاضي؟» سأله فجأة. «هذا ما لا يجوز لي أن أقوله»، أجاب الرسام، كان منحنياً انحنياً شديداً إلى اللوحة وأهمل ضيفه على نحو واضح بعد أن كان قد استقبله في بادئ الأمر بكل مراعاة. واعتبر ك هذا نزوةً وتضليل من ذلك لأنه بهذا حسر وقتاً. «هل أنت موضع ثقة المحكمة؟ سأله. وعلى الفور وضع الرسام الأفلام جانباً، وانتصب وفرك يديه ونظر إلى ك متسمماً، وقال: «دائماً وحسب قل الحقيقة حالاً، تريد أن تعلم شيئاً عن المحكمة، كما جاء أيضاً في كتاب التوصية، وتحدثت في بادئ الأمر عن لوحتي حتى تكسبني. لكنني لا أستاء من ذلك. ولم يكن في مقدورك أن تعرف أن هذا غير مناسب عندي. آه من فضلك!» قال صادقاً بحدة، إذ أراد ك أن يتقدم بشيء ما، وتابع من ثم قائلاً: «للمناسبة، إنك على حق تماماً بمحلا حظتك أنتي موضع ثقة المحكمة». وتوقف فترة كأنه يريد أن يترك لـ ك وقتاً يقبل فيه هذه الحقيقة. والآن عاد المرء يسمع البناء وراء الباب. لقد تراحمن على الأرجح حول ثقب المفتاح، وربما كان في مقدور المرء أيضاً أن يرى إلى داخل الحجرة من خلال الشفوق. وأغفل ك أن يعتذر على نحو ما إذ لم يشأ إلهاء الرسام، لكنه لم يشأ أن يتكبر الرسام جداً ويجعل نفسه بهذه الطريقة لا سبيل إليه إلى حد ما، لذا فقد سأله: «هل هذه هي وظيفة معترف بها علينا؟». «لا»، قال الرسام باقتضاب وكأن لسانه انعقد بهذا. لكن ك لم يشأ أن يتركه يصمت وقال: «غالباً ما تكون مثل هذه الوظائف غير المعترف بها أكثر تأثيراً من الوظائف المعترف بها». «هذه هي الحالة لدى»، قال الرسام وأومأ برأسه مقطعاً جبينه. «لقد تحدثت يوم أمس مع صاحب العمل عن حالتك، وسألني فيما إذا لم أكن أريد أن أساعدك، وقد أجبت: (يمكن للرجل أن يأتي مرة إلى)، والآن يسرني أن أراك هنا بهذه السرعة. يبدو أن الموضوع يهمك جداً، الأمر الذي لا يدهشني طبعاً. هل تريد ربما أن تخلي معطفك أولاً؟» ورغم أن ك كان لا

ينوي أن يبقى هنا سوى فترة قصيرة جداً، فإنه رحب بكل الترحيب بهذا الطلب من الرسام. وكان الهواء في الحجرة قد أصبح بالتدريج خانقاً بالنسبة إليه. ومرةً كان قد نظر في عجب إلى مدفأة حديدية صغيرة في الزاوية غير موددة بلا شك. وكانت الحرارة المشبعة بالرطوبة في الحجرة لا يدرى كنهاها. وبينما كان يخلع معطفه الشتوي ويفك أزرار سترته، قال الرسام معتقداً: «يجب أن يكون لدى حرارة. إن الوضع هنا لم يريح جداً، أليس كذلك؟ والحجرة من هذه الناحية تقع موقعاً جيداً جداً». لم يقل لك شيئاً تعقيباً على ذلك، لكن فيحقيقة الأمر لم تكن الحرارة هي التي ضايفته، بل كان بالأحرى الهواء الرطب الذي يكاد يعيق التنفس، فلم يكن هواء الحجرة قد حدد منذ فترة طويلة. وما زاد هذه المضايقية بالنسبة إلى لك هو أن الرسام طلب منه أن يجلس على السرير، بينما جلس هو على الكرسي الوحيد في الحجرة أمام حامل الرسم. فوق ذلك بدا أن الرسام يسيء فهم لماذا ظل لك على حافة السرير فقط، بل طلب منه أن يرتاح في جلسته، فإذا تردد لك، ذهب بنفسه ودفعه إلى عمق الوسائل واللحاف. ثم عاد إلى كرسيه وطرح أخيراً السؤال الموضوعي الأول، والذي دعا لك أن ينسى كل شيء آخر. «هل أنت بريء؟» سأله. «نعم»، قال لك. والرد على هذا السؤال أثار البهجة في نفسه حقاً، ولا سيما أنه جاء إزاء شخص غير رسمي، أي بدون أية مسؤولية. لم يكن أحد ما قد سأله بصراحة هكذا. ولذلك يتمتع بهذه البهجة، أضاف إلى ذلك: «إنني بريء كل البراءة». «هكذا»، قال الرسام، خفض رأسه وبدا أنه ينعم النظر. وفجأة رفع رأسه ثانية وقال: «إذا كنت بريئاً، فيكون الموضوع في غاية البساطة». وتعكرت نظرة لك، موضع ثقة المحكمة المزعوم هذا تكلم مثل طفل جاهل. «براءتي لا تثير الموضوع»، قال لك. ولم يسعه إلا أن يتسم رغم كل شيء، وهو رأسه بيضاء. «الأمر رهن كثير من الدلائل التي تبدها المحكمة. لكنها في النهاية تسحب من أي

مكان ما، لم يكن فيه أي شيء في الأصل، ذنبًا كبيراً». «نعم، نعم بالتأكيد»، قال الرسام وكان لك يزدوج تسلسل أفكاره بلا داع. «لكنك لبريء؟». «الأمر كذلك»، قال لك. «هذا هو الشيء الرئيسي»، قال الرسام. لم يكن من الممكن التأثير عليه بأسباب مضادة، إلا أنه لم يكن من الواضح، رغم حزمه، فيما إذا كان قد تكلم هكذا عن قناعة أم عن مجرد عدم الاتزان. وأراد لك أن يتحقق من هذا أولاً، ولهذا قال: «يقيينا إنك لتعرف الحكمة أفضل مني بكثير، إنني لا أعرف أكثر مما سمعت عنها لكن من الناس مختلفين كل الاختلاف. لكنهم اتفقوا جميعهم في أنه لا تقام دعاوى هو جاء وفي أن المحكمة، إذا ما رفعت دعوى مرة، تكون مقتنعة اقتناعاً ثابتاً من ذنب المدعى عليه ولا يمكن صرفها عن هذا الاقتناع سوى بصعوبة». «صعوبة؟» سأله الرسام ورفع يدها إلى الأعلى. «أبداً لا يمكن صرف الحكمة عن هذا. إذا أنا رسمت هنا جميع القضاة إلى جانب بعضهم بعضاً على قماش الرسم وأنت سوف تدافع عن نفسك أمام هذا القماش، فسوف تتحقق تماماً أكبر مما تحقق أمام المحكمة الحقيقة». «نعم»، قال لك لنفسه ونبي أنه لم يكن يريد سوى استكشاف الرسام.

ومرة أخرى بدأت بنت تسأل وراء الباب: «تيتورلي، ألن ينصرف إذاً قريباً». «اسكتن»، نادى الرسام ناحية الباب، «أما ترين إذاً أن لدى مقابلة مع السيد». لكن البنت لم ترتضى بذلك وإنما سألت: «أنت سترسمه؟» وإذا لم يرِد الرسام قالت: «رجاء لا ترسمه، إنساناً قبيحاً هكذا». وتبع ذلك بلبلة من نداءات موافقة غير مفهومة. وقفز الرسام إلى الباب فهزأ وفرج ما بين مصراعيه عن زيق - بدت أيدي البنات الممدودة والمشبوبة توسلـاً - وقال: «إذا لم تهدأن، أليكـن جميعـاً على السـلم. اجلسـن هنا على الدرج والزمنـ الهدـوء». وعلى الأرجـح لم يستجـبن على الفورـ، بحيث وجـب عليهـ أنـ يـأمرـ: «اقـعدـن على الدرجـ!» عند ذاكـ سـادـ الـهدـوءـ.

«عفواً»، قال الرسام عندما عاد إلى ك. وكان لك بالكاد قد التفت نحو الباب، وكان قد ترك الأمر للرسام كلياً فيما إذا كان وكيف يريد أن يحميه. كما أنه ما كاد الآن يقوم بحركة عندما انحنى الرسام إليه وهمس في أذنه كي لايسمع في الخارج: «أيضاً هؤلاء البنات هن من المحكمة». «كيف؟» سأل لك وانسحب برأسه إلى الجانب ونظر إلى الرسام. لكن هذا جلس ثانية على كرسيه وقال بين المزاح والشرح: «إن كل شيء هو من المحكمة». «هذا ما لم ألاحظه بعد»، قال لك باقتضاب، وجردت ملاحظة الرسام العامة الإشارة إلى البنات من كل ما يدعو إلى القلق. ورغم ذلك نظر لك طوال هنيهة إلى الباب الذي كانت البنات يجلسن الآن بهدوء وراءه على الدرج. إلا واحدة كانت قد أدخلت قشة في شق بين العوارض وراحت تحرکها على مهل دخولاً وخروجاً.

«يبدو أنك مازلت لا تملك فكرة واضحة عن الحكمة»، قال الرسام، وكان قد مد ساقيه مباغعاً بينهما وراح يضرب بأطراف قدميه على الأرض. لكن مادمت بريئاً، فلن تحتاجها أيضاً. أنا وحدى سوف أخرجك». «كيف ت يريد أن تفعل هذا؟» سأله، «إذ قلت بنفسك قبل قليل أن المحكمة لاتنفع معها الحجج أبداً». «لأنه لاتنفع معها الحجج فقط التي تقدم للمحكمة»، قال الرسام ورفع سبابته وكانت لم يلاحظ فرقاً دقيقة، «لكن الشأن يختلف في ما يحاوله المرء من هذه الناحية وراء المحكمة العلنية، في حجرات المداولة إذاً، في الأروقة أو مثلاً أيضاً هنا في المرسم». وما قاله الرسام الآن لم يعد يبدو له غير جدير بالتصديق هكذا، بل أنه يتناسب تماماً مع ما كان قد سمعه من أناس آخرين أيضاً. نعم، حتى أنه كان مفعماً بالأمل كثيراً. إذا كان يمكن توجيه القضاة بهذه السهولة فعلاً عن طريق علاقات شخصية، كما كان الحامي قد صور الأمر، فإن علاقات الرسام مع القضاة

المتكبرين كانت مهمة بشكل خاص ولا يمكن على أي حال التقليل من شأنها أبداً. فمن شأن الرسام أن يتنظم على خير وجه في مجموعة المساعدين التي راح ك يجمعها حوله بالتدریج. كان المرء ذات مرة في المصرف قد أثني على موهبته في التنظيم، هنا، حيث كان يعتمد على نفسه وحده، لاحت فرصة طيبة لاختبار هذه الموهبة إلى أقصى حدودها. ورافق الرسام التأثير الذي كان إيضاحه قد أحدثه في ك ثم قال في شيء من التوجّس: «ألا يلفت انتباحك أني أتحدث مثل حقوقية تقريراً؟ إنها مخالطي المستمرة لرجال المحكمة هي التي تؤثر علي هكذا. وطبعاً أستفيد كثيراً من هذا، لكن الرخام الفني يضيع في معظمها». «وكيف اتصلت لأول مرة بالقضاء؟» سأل ك، وكان يريد أن يكسب ثقة الرسام قبل أن يضعه في خدمته. «كان هذا سهلاً للغاية»، قال الرسام، «لقد ورثت هذا الاتصال. أبي من قبلي كان رسام محكمة. إنها وظيفة ثورث دائمًا. ولا يمكن أن يُحتاج لها أنساس جدد. إذ من أجل رسم مختلف مراتب الموظفين وضعت قواعد كثيرة متنوعة وسرية قبل كل شيء، بحيث أنها لا تُعرف إطلاقاً خارج أسر معينة. هناك في الدرج مثلاً لدى مذكريات والدي، التي لا أريها لأحد. لكن فقط من يعرفها يكون قادرًا على رسم قضاة. ولكن حتى لو فقدتها، يظل لي قواعد كثيرة أحملها في رأسي وحده، بحيث أنه ليس من شأن أحد أن يستطيع منازعي وظيفتي. فكل قاض يريد أن يرسم كما رُسم قدراء القضاة الكبار، وما من أحد يقدر على ذلك غيري». «هذا شيء تخسّد عليه»، قال ك، الذي فكر في مركزه في المصرف، «مركزك ثابت إذاً لا يمكن زعزعنه؟». «نعم ثابت لا يمكن زعزعته»، قال الرسام ورفع كتفيه في زهو. «لذا أستطيع أيضاً أن أخاطر أحياناً بمساعدة رجل مسكون لديه محاكمة». «وكيف تفعل ذلك؟» سأله ك، وكأنه ليس هو الذي كان قد سمى الرسام لتره رجالاً مسكوناً. غير أن الرسام لم يدع نفسه يُلهى، وإنما

قال: «في حالتك مثلاً، إذ أنك بريء براءة تامة، سوف أقوم بما يلي». وأتغلق على ك الذكر المتكرر لبراءته. فقد بدا له أحياناً أن الرسام إنما يضع، من خلال مثل هذه الملاحظات، نتيجة طيبة للمحاكمة شرطاً لمساعدته، والتي من شأنها طبعاً أن تبطل بهذا. لكن ك كبح جماح نفسه رغم هذا الشك ولم يقاطع الرسام. لم يكن يريد أن يستغنى عن مساعدة الرسام له، كان قد عقد العزم على ذلك، كما أن هذه المساعدة لم تبد موضع تساؤل أو شك أكثر مما هي مساعدة المحامي بحال من الأحوال. بل إن ك كان يفضل مساعدة الرسام أكثر بكثير، لأنها عرضت براءة وصراحة أكثر.

كان الرسام قد قرب كرسيه من السرير وواصل كلامه بصوت خافت: «لقد نسيت أن أسألك بادئ الأمر، أي نوع من الحالات ترغب، يوجد ثلاثة إمكانيات، إلا وهي البرءة الحقيقة، البرءة الظاهرة والمماطلة. والبرءة الحقيقة هي طبعاً الأفضل، لكنني لا أملك أدني تأثير على هذا النوع من الحال. ولا يوجد حسب رأيي أي شخص مفرد إطلاقاً من شأنه أن يملك تأثيراً على البرءة الحقيقة. هنا لا يحسم على الأرجح سوى براءة المدعى عليه. وإذا أنك بريء، من الممكن حقاً أن تعتمد على براءتك وحدها. لكنك في هذه الحالة لست بحاجة لي ولا لأية مساعدة أخرى».

هذا العرض المنظم أذهل ك في بادئ الأمر، لكنه من ثم قال بصوت منخفض مثل الرسام: «أعتقد أنك تناقض نفسك». «كيف إذا؟» سأل الرسام في آناء واتكاً بظهره مبتسماً. وأشار هذا الابتسام شعوراً في ك وكأنه شرع الآذ يكتشف تناقضات ليس في كلمات الرسام فحسب، بل في المحاكمة نفسها. لكنه رغم ذلك لم يتراجع وقال: «قلت سابقاً إن المحكمة لا تنفع معها الحجج، وفي ما بعد حصرت هذا بالمحكمة العلنية، والآن تزيد وتقول إن البريء لا يحتاج إلى مساعدة أمام المحكمة. في هذا ثمة تناقض.

ل لكنك بالإضافة إلى ذلك قلت سابقاً إن في مقدور المرأة أن يؤثر شخصياً على القضاة، غير أنك الآن تنكر أنه يمكن في أي وقت كان بلوغ التبرئة الحقيقة، كما تسميتها، عن طريق تأثير شخصي. في هذا يكمن التناقض الثاني». «يمكن توضيح هذين التناقضين بسهولة»، قال الرسام، «الحدث هنا هو عن أمرتين مختلفتين، ما جاء في القانون وما خبرته شخصياً، ولا يجوز لك الخلط بينهما. في القانون، والحق يقال لم أفرأه، جاء طبعاً من طرف أن البريء يبرأ، لكن من طرف آخر لم يرد هناك أنه يمكن التأثير على القضاة. لكنني أنا علمت عكس ذلك تماماً. إبني لست على علم بتبرئة حقيقة واحدة، لكنني أعرف تأثيرات كثيرة. ومن الممكن طبعاً أنه لم تكن توجد براءة واحدة في جميع الحالات التي أعرفها. لكن أليس هذا بعيداً عن الاحتمال؟ لا براءة واحدة في كل هذه الحالات الكثيرة؟ فمنذ أن كنت طفلاً كنت أسمع جيداً إلى الوالد عندما كان يتحدث في البيت عن محاكمات، كذلك القضاة الذين كانوا يأتون إلى مرسمه، كانوا يتحدثون عن المحكمة، في محيطنا لا يتحدث المرأة عن شيء آخر إطلاقاً، وما كدت أحصل على إمكانية الذهاب بنفسي إلى المحكمة، حتى رحت أستغلها دائمًا، واستمعت إلى محاكمات لأشخاص في مراحل هامة وتابعتها ما بقيت ظاهرة، و - ينبغي علي أن أعترف بالأمر - لم أعاصر تبرئة حقيقة وحيدة». «لاتبرئة وحيدة إذاً»، قال لك وكأنه يتحدث إلى نفسه وإلى آماله. «لكن هذا يؤكد الرأي الذي لدى من قبل عن المحكمة. إن الأمر إذاً من هذه الناحية أيضاً عديم الجدوى. من شأن جلال وحيد أن يغوض عن المحكمة كلها». «لا يجوز لك أن تعقم»، قال الرسام وهو غير راضٍ، «لم أتحدث سوى عن تجاريبي». «إن هذا ليكفي»، قال لك، «أم أنك سمعت عن أحكام براءة فيما مضى؟». «مثل أحكام البراءة هذه»، أجاب الرسام، «يقال إنها وجدت حقاً. لكن من الصعب جداً التتحقق من ذلك. إن القرارات الختامية للمحكمة

لاتنشر، بل إنها لا توضع حتى تحت تصرف القضاة، وبالتالي لم يصل إلينا عن محاكمات قديمة سوى أسطير. وهذه تحوي حتى في أكبر عدد منها على أحكام براءة حقيقة، يمكن للمرء أن يصدقها، لكن لا يمكن إثباتها. ورغم ذلك لا ينبغي على المرء أن يحملها كلياً، ويقيناً إنها تتضمن بعض الحقيقة، كما أنها جميلة جداً، وأنا نفسي رسمت بعض اللوحات التي تناولت مثل هذه الأسطير». «مجرد أسطير لا تغير رأي»، قال لك، «كما أنه لا يمكن للمرء أن يستشهد أمام المحكمة بهذه الأسطير؟» وضحك الرسام، وقال: «لا، هذا لا يمكن». «فلا جدوى إذاً من التحدث عن ذلك»، قال لك، وأراد أن يقبل جميع آراء الرسام إلى حين، حتى ولو كان يعتبرها بعيدة الاحتمال وكانت تناقض حكايات أخرى. ولم يكن لديه الآن متسع من الوقت ليفحص مدى حقيقة كل ما قاله الرسام أو ناهيك عن نفسه، كان الخد الأقصى قد تحقق، إذاً كان قد دفع الرسام لأن يساعده بأية طريقة، وإن كانت أيضاً غير حاسمة. لذا قال: «لنصرف النظر إذاً عن الترئة الحقيقية، لكنك ذكرت إمكانين آخرين». «الترئة الظاهرية والمماطلة. لا يمكن للأمر أن يتعلق سوى بهما»، قال الرسام. لكن ألا ترى، قبل أن نتحدث عن ذلك، أن تخلي سترتك. لاشك أن الجو حار عليك». «نعم»، قال لك الذي لم يكن حتى الآن قد انتبه إلى شيء آخر سوى إلى توضيحات الرسام، لكن، إذ جرى تذكيره بالحرارة، راح جبينه يتصبب الآن عرقاً. «يكاد الأمر لا يطاق». وهز الرسام رأسه، وكأنه يفهم عدم ارتياح لك على خير وجه. «ألا يمكن فتح النافذة؟» سأله لك. «لا»، قال الرسام. «إنها مجرد لوح زجاجي مرَّكب بشكل ثابت، ولا يمكن فتحه». وأدرك لك الآن أنه كان طوال الوقت يأمل أن الرسام أو هو سيذهب فجأة إلى النافذة ويفتحها على مصراعيها. وكان مهياً أن يستنشق حتى الصباب بضم مفتوح. والشعور بأنه محجوز هنا عن الهواء على نحو كامل سبب له دواراً. وضرب بيده ضربة

حقيقة على اللحاف من الريش إلى جانبه وقال بصوت ضعيف: «إن هذا لغير مريح وغير صحي». «أوه لا»، قال الرسام دفاعاً عن نافذته. «بكونها لا يمكن فتحها يجري، رغم أنها مجرد لوح بسيط، الحفاظ على الحرارة هنا بشكل أفضل مما يمكن بواسطة نافذة بلوحين. أما إذا أردت أن أجدد الهواء، الأمر الذي ليس ضرورياً جداً، لأن الهواء ينفذ في كل مكان عبر شقوق العوارض، فإنه يمكنني أن أفتح واحداً من بابي أو حتى كليهما». متعرضاً بعض الشيء بهذا الإيضاح قال لك بناظريه كي يجد الباب الثاني. ولاحظ الرسام ذلك وقال: «إنه خلفك، كان علي أن أسدّه بالسرير». ورأى لك الآن فقط الباب الصغير في الحائط. «هنا كل شيء أصغر من اللازم بالنسبة إلى مرسم»، قال الرسام وكأنه أراد أن يسبق لوماً من لك. «كان علي تدبير أموري قدر الإمكان. السرير أمام الباب يقوم طبعاً في مكان شيء جداً. فالقاضي، مثلاً، الذي أرسمه الآن، يأتي دائماً من الباب المجاور للسرير، كما أتيتني مفتاحاً لهذا الباب، كي يستطيع أن يتظمني هنا في المرسم حتى عندما لا أكون في البيت. لكنه يأتي عادةً في الصباح الباكر بينما أكون ماؤزال نائماً. وطبعاً انتزع دائماً من النوم في أوج غطيطي عندما يفتح الباب إلى جانب السرير. ومن شأنك أن تفقد كل احترام للقضاة، لو سمعت اللعنات التي أستقبله بها عندما يتحطى سريري. في مقدوري والحق يقال أن آخذ المفتاح منه. لكن ليس من شأن هذا سوى أن يزيد الأمر سوءاً. يمكن للمرء هنا بأقل مجهود أن يخلع كل الأبواب من مفاصلها». وأثناء هذا الكلام كله كان لك يفكر فيما إذا كان عليه أن ينزع سترته، غير أنه رأى أخيراً أنه إذا لم يفعل ذلك لن يكون قادرًا على البقاء هنا طويلاً، لذا فقد نزع السترة، لكنه وضعها فوق ركبته حتى يتمكن من ارتدائها ثانية على الفور إذا ما انتهت الحادثة. وما كاد ينزع السترة حتى نادت إحدى البنات: «لقد خلع سترته»، وسمع كيف تراهمن جميعاً إلى الشقوق، كي يشاهدن

المنظر بأنفسهن. «إذ أن البنات يعتقدن»، قال الرسام، «أنتي سأرسمك وأنك لهذا السبب تخلي ملابسك». «هكذا»، قال ك دون أن يكون مسروراً كل السرور، إذ أنه لم يشعر أن حاله أفضل من ذي قبل رغم أنه كان يجلس الآن بالقميص. وسأل وهو يكاد يتذمر: «كيف سميت الإمكانيتين الآخريين؟» فقد كان نسي التعبيرين مرة ثانية. «البرءة الظاهرة والماء»، قال الرسام، «والأمر لك فيما تختار. وكل منها مكنته المنال بمساعدتي»، طبعاً ليس بدون جهد، والفرق في هذه الناحية هو أن البرءة الظاهرة إنما تتطلب مجاهداً مركزاً محدوداً زمنياً في حين تتطلب الماء مجاهداً أقل بكثير لكنه مستمر. أولاً إذاً البرءة الظاهرة. إذا كنت ترغب هذه، أكتب على ورقة شهادة براءتك. إن نص مثل هذه الشهادة ورثته عن والدي ولا يتطاول إليه شيء. مع هذه الشهادة أقوم الآن بجولة لدى القضاة الذين أعرفهم. أبداً إذاً مثلاً بأن أقدم الشهادة للقاضي الذي أرسمه الآن، أقدمها له مساء اليوم عندما يأتي للجلسة. أقدم له الشهادة، وأوضح له أنك بريء وأضمن براءتك. لكن هذا ليس مجرد ضمان ظاهري وإنما هو ضمان حقيقي ملزم». ونمّت نظرات الرسام عن شيء مثل عتاب على أن ك إنما يريد أن يلقى على عاتقه ثقل مثل هذا الضمان. «من شأن هذا أن يكون لطفاً كبيراً»، قال ك، «ومن شأن القاضي أن يصدقك ورغم ذلك لا يرئني حقاً؟». «كما قلت من قبل»، أجاب الرسام، «وللمناسبة، ليس من المؤكد بحال من الأحوال أن من شأن كل واحد أن يصدقني، فبعض القضاة سوف يطلب مثلاً أن أصطحبك نفسك إليه. فسيكون عليك إذاً أن تأتي مرة معي. لكن في مثل هذه الحالة يكون الموضوع قد رُبع إلى نصفه، ولاسيما أن من شأنني طبعاً قبل ذلك أن أعلمك كيف يكون عليك أن تتصرف لدى القاضي المختص. والأسوأ هو لدى القضاة الذين - أيضاً - سوف يحدث - يرفضونني منذ البداية. عن هؤلاء يجب، وإن كنت أيضاً

لن أقصر في القيام بمحاولات متكررة، أن نستغنى، كما أنه يجوز لنا ذلك، إذ لا يمكن لقضاة فرادى أن يرجحوا الكفة هنا. وعندما أجمع على هذه الشهادة عدداً كافياً من تواقيع القضاة، أذهب مع هذه الشهادة إلى القاضي الذي يتولى أمر محاكمتك. ومن الجائز أن يكون لدى توقيعه أيضاً، وفي هذه الحالة يتتطور كل شيء بسرعة أكبر بعض الشيء مما هو مألف. لكن على وجه العموم لا يعود يوجد من ثم عوائق كثيرة إطلاقاً، هنا يصبح زمن أقصى درجات التفاؤل بالنسبة إلى المدعى عليه. إن الأمر غريب لكنه صحيح، يكون الناس في هذا الوقت أكثر تفاؤلاً مما يمكنون بعد البراءة. لا يعود الأمر يحتاج الآن إلى جهد خاص. والقاضي يملّك في الشهادة ضماناً من عدد من القضاة، وفي مقدوره وهو مطمئن أن يبرئك، ولا ريب أنه سيفعل ذلك إكراماً لي ولمعارف آخرين لكن بعد إجراء شكليات مختلفة. أما أنت فتخرج من المحكمة وتكون حراً طليقاً. «فأكون إذا حراً»، قال لك بتردد. «نعم»، قال الرسام، «لكن تكون حراً ظاهرياً وحسب أو بتعبير أفضل حراً إلى حين. إذ أن القضاة من ذوي الدرجات الأدنى، الذين ينتهي معارفي إليهم، لا يملكون الحق في التبرئة تبرئة نهائية، وهذا الحق لا تملكه سوى المحكمة العليا، والتي هي مستحيلة المنال كلياً بالنسبة إليك ولن يطالها جميعاً. ونحن لا نعلم كيف يبدو الحال هناك ولا نريد أيضاً، على فكرة، أن نعلم. فإذا فإن قضاتنا لا يملكون الحق العظيم في التخلص من الاتهام، لكنهم يملكون الحق في الفصل عنه. هذا يعني، إذا برئت على هذا النحو، تكون قد ابتعدت برهة عن الادعاء، لكنه يظل يحوم فوقك ويمكن، حالما يأتي الأمر الأعلى وحسب، أن يوجه على الفور. وإذا أتيت على اتصال جيد هكذا مع المحكمة، أقدر أيضاً أن أقول لك كيف يبدو في التعليمات لمكاتب المحكمة الفرق ظاهرياً بحثاً بين التبرئة الحقيقة والظاهرة. لدى تبرئة حقيقة يجب على ملفات القضية أن تحفظ في المحفوظات بشكل كامل، إنها

تحتفي كلياً من الندعوى، وليس الإدعاء وحده، وإنما المحاكمة أيضاً وحتى حكم البراءة يتلف، كل شيء يتلف. والأمر مغایر لدى التبرئة الظاهرية. مع الملفات لم يجر تغيير آخر سوى أن هذه التبرئة أثريت بتأكيد البراءة، بحكم البراءة وبحيثيات هذا الحكم. لكن التبرئة الظاهرية، للمناسبة، تتضليل في الإجراءات، وتحال، كما تقضي حركة العمل الدائبة لمكاتب المحكمة، إلى المحاكم العليا، وتعود إلى المحاكم الدنيا، وتتأرجح هكذا في ذبذبات كبيرة وصغيرة وفي تعثرات كبيرة وصغيرة. وهذه الطرق لا يمكن تقديرها. من الخارج يمكن أن يلوح أحياناً أن كل شيء قد نسي منذ فترة طويلة وأن الملف ضاع وأن التبرئة كاملة. إن علينا بواطن الأمور لن يصدق هذا. ما من ملف يضيع، ولدى المحكمة لا يوجد نسيان. ذات يوم - ما من أحد يتوقع الأمر - يتناول قاض ما الملف في يده بانتباه أكثر، ويتبين أن الادعاء في هذه الحالة ما زال قائماً، ويصدر أمراً بالاعتقال الفوري. لقد افترضت هنا أن بين التبرئة الظاهرية والاعتقال الجديد إنما تمضي فترة زمنية طويلة، وهذا ممكن، وأنا أعرف عن مثل هذه الحالات، لكن من الممكن بالمثل أن المبرأ يأتي من المحكمة إلى البيت ليجد هناك مكلفين يتظرون كي يعتقلوه مرة أخرى. ف تكون الحياة الطلبية قد انتهت طبعاً. «وتبدأ المحاكمة من جديد؟» سألك غير مصدق تقريباً. «طبعاً»، قال الرسام، «تبدأ المحاكمة من جديد، لكن مرة أخرى يكون ثمة إمكانية كالسابق لاستصدار حكم براءة ظاهري. يجب على المرء مرة أخرى أن يستجتمع كل القوى ولا يجوز له أن يستسلم». وربما قال الرسام الكلمات الأخيرة تحت الانطباع الذي أحدثه فيه لك الذي كان قد تهافت بعض الشيء. «لكن أليس»، سألك وكأنه يريد الآن أن يسبق بوحشاً ما للرسام، استصدار تبرئة ثانية أصعب من استصدار الأولى؟. «لام يكن للمرء»، أجاب الرسام، «أن يقول شيئاً محدداً في هذا الشأن. لاشك أنك تقصد أن القضاة إنما يتأثرون بالاعتقال الثاني في

حكمهم لغير صالح المدعى عليه؟ الأمر ليس كذلك. فقد كان القضاة لدى التبرئة يعلمون بهذا الاعتقال. هذا الحال لا يكاد يؤثر إذاً. لكن لا يستبعد أن يكون لأسباب أخرى لا حصر لها مزاج القضاة وتقديرهم القانوني للحالة قد تغير، ولذا يجب أن تكيف الجهود حول التبرئة الثانية مع الظروف المتغيرة وأن تكون على وجه العموم قوية مثل الجهود قبل التبرئة الأولى». «لكن هذه التبرئة الثانية هي مرة أخرى ليست نهائية»، قال ك وأدار رأسه رافضاً. «طبعاً لا»، قال الرسام، «يتبع التبرئة الثانية الاعتقال الثالث، والتبرئة الثالثة الاعتقال الرابع وهكذا دواليك. هذا يمكن في صميم مفهوم التبرئة الظاهرية». ولاذ ك بالصمت. «لا تلوح لك التبرئة الظاهرية على ما يبدو مفيدة»، قال الرسام، «وقد تناسبك المماطلة بشكل أفضل. هل عليّ أن أشرح لك ماهية المماطلة؟ وأوّلأً لك برأسه. وكان الرسام قد اتكأ بظهره على كرسيه وفتح ساقيه، وكان رداء النوم مفتوحاً على سعته، وكان قد دسّ يداً تحته وأخذ يمسح بها صدره وجانيه. «إن المماطلة»، قال الرسام ونظر أمامه لحظة وكأنه يبحث عن إيضاح صحيح بشكل كامل، «إن المماطلة تكمن في أن يحافظ على المحاكمة باستمرار في أدنى مرحلة من مراحلها. ولتحقيق ذلك من الضروري أن يظل المدعى عليه والمساعد، لكن لا سيما المساعد على اتصال شخصي لا ينقطع مع المحكمة. وأكرر، لا حاجة هنا إلى مثل هذا الجهد كما هو الحال لدى بلوغ تبرئة ظاهرية، لكن ما يلزم هو انتباه أكبر بكثير. ولا يجوز للمرء أن تنقطع الصلة بينه وبين المحاكمة، ينبغي عليه أن يذهب إلى القاضي المختص في فترات منتقطة وفي مناسبات خاصة فوق ذلك ويحاول بكل طريقة أن يقيه لطيفاً؛ وإذا لم يكن المرء يعرف القاضي شخصياً، فيجب على المرء أن يدع قضاء من المعارف يؤثرون عليه، وذلك دون أن يجوز للمرء أن يتخلى لهذا السبب مثلاً عن المحادثات المباشرة. وإذا لم يهمل المرء شيئاً في هذا الخصوص، فإنه يمكنه أن

يفترض بجزم كاف أن المحاكمة لن تتجاوز مرحلتها الأولى. صحيح أن المحاكمة لا توقف، لكن المدعى عليه يكون في مأمن من الإدانة مثلما يكون تقريباً فيما لو كان حراً طليقاً. وبالقياس إلى التبرئة الظاهرية تمتاز المماطلة بأن مستقبل المدعى عليه يكون أقل بعدها عن الوضوح، إنه يظل في مأمن من رعب الاعتقالات المفاجئة ولا يتوجب عليه أن يخشى، مثلاً بالذات في الأوقات حيث تكون ظروفه الأخرى أقل ما تكون مناسبة لذلك، وأن يتوجب عليه أن يحمل نفسه الأتعاب والانفعالات التي ترتبط بلوغ التبرئة الظاهرية. على أن للمماطلة أيضاً بعض المساوى بالنسبة إلى المدعى عليه والتي لا يجوز الاستهانة بها. وأنا لا أفك في هذا بأن المدعى عليه هنا لا يكون حراً طليقاً فقط، والحق أنه ليس هذا بالمعنى الحقيقي حتى لدى التبرئة الظاهرية، إن الأمر هو سبيعة أخرى. لا يمكن للمحكمة أن تتوقف دون أن تتوافر على الأقل أسباب ظاهرية لهذا التوقف. لذا يجب أن يحدث في المحاكمة شيء ما في الظاهر. يجب إذاً من حين إلى حين اصدار تعليمات مختلفة، يجب استجواب المدعى عليه ويجب أن تجري تحقيقات، وما إليه. يجب أن تدار المحاكمة دائماً في الدائرة الصغيرة التي حصرت فيها على نحو مصطنع. وهذا يجعل طبعاً بعض المضايقات بالنسبة إلى المدعى عليه، لكن التي لا يجوز لك، من ناحية أخرى، أن تصورها في متنهى السوء. إن كل شيء هو لظاهريّ، فالاستجوابات مثلاً هي إذاً في غاية القصر فقط، وعندما لا يكون لدى المرء مرة متسع من الوقت أو رغبة في الذهاب إلى هناك، فيجوز له أن يعتذر، بل يمكن للمرء، لدى بعض القضاة، أن يحدد معهم سلفاً التعليمات لفترة طويلة، إن الموضوع في جوهره هو فقط أن يمثل المرء، إذ أن المرء مدعى عليه، أمام قاضيه بين الفينة والأخرى». كان لك أثناء الكلمات الأخيرة قد وضع ستنته فرق ذراعه ونهض واقفاً. «إنه يقف»، نادى صوت على الفور في الخارج أمام الباب. «تريد أن تصرف الآن؟»

سؤال الرسام الذي كان أيضاً قد وقف. «لأشك أن الهواء هو الذي يخرجك من هنا. هذا يخجلني للغاية. كما أنه من شأنني أن أقول لك بعض الأمور الأخرى. لقد اضطررت للإيجاز كل الإيجاز. لكنني آمل أن أكون قد كنت مفهوماً». «أوه نعم»، قال ك الذي راح رأسه يؤلمه نتيجة الجهد الذي أرغم نفسه عليه للاستماع. ورغم هذا الرد الإيجابي قال الرسام كل شيء مرة ثانية موجزاً، كأنه يريد أن يمنع ك سلوى وهو في طريقه إلى البيت: «كلتا الوسيطين تشركان في أنهما تتعان إدانة المدعى عليه». «لكنهما تتعان أيضاً التبرئة الحقيقة»، قال ك بصوت منخفض، وكأنه يخجل من أنه قد أدرك ذلك. «لقد أدركت جوهر القضية»، قال الرسام بسرعة. ووضع ك يده على سترته الشتوية، لكنه لم يقدر حتى أن يقرر أن يرتدي السترة. وكان الأحب إليه أن يحزم كل شيء ويجري به إلى الهواء المنعش. وحتى البناء لم يقدرون على دفعه إلى ارتداء سترته، رغم أنهن رهن ينادين بعضهن بعضاً قائلات قبل الأولان بأنه إنما يرتديها. وكان بهم الرسام أن يفشل على نحو ما مزاج ك، لهذا قال: «مازلت لم تقرر بخصوص مفترحاتي. أنا أحب هذا. بل كان من شأنني أن أنصحك بالعدول عن اتخاذ قرار على الفور. إن الحسنان والسيئات دقيقة كالشعر. وينبغي على المرء أن يقدر كل شيء بدقة. لكن لا يجوز للمرء أيضاً أن يضيع كثيراً من الوقت». «سوف أعود ثانية قريباً»، قال ك الذي ارتدى سترته بقرار مفاجئ وألقى المعطف فوق كتفيه وأسرع إلى الباب، الذي بدأت البناء وراءه يصرخن الآن. واعتقد ك أنه يرى البناء الصارخات من خلال الباب. «لكن عليك أن تفي بوعدك»، قال الرسام الذي لم يتبعه، «وإلا فإنني أحضر إلى المصرف كي أستعلم بنفسي». «لتفتح قفل الباب»، قال ك وشدَّ على المقبض الذي كانت البناء، كما لاحظ من الضغط المعاكس، يمسكن به من الخارج. «هل تريد أن تعاكس من قبل البناء؟» سأله الرسام. «من الخير أن تستخدم هذا

الخرج»، وأشار إلى الباب خلف السرير. ووافق لك على ذلك وقفز عائداً إلى السرير. لكن بدلاً من أن يفتح الرسام الباب هناك، زحف تحت السرير وسأل من تحت: «لحظة واحدة ليس إلا. ألا تريد أن ترى لوحة أخرى، يكفي أن أيعها لك؟» ولم يشأ لك أن يكون غير مهذب، فقد كان الرسام قد اهتم به فعلاً ووعده بأن يساعدك مستقبلاً، كما أنه نتيجة سهو ونسبيان لك لم يتحدث قط عن المكافأة لقاء المساعدة، لذا لم يكن لك يقدر الآن أن يرده، وتركه يعرض اللوحة، وإن كان يرتد لهفة على الخروج من المرسم. وسحب الرسام من تحت السرير كومةً من اللوحات بدون إطار والتي كانت مغطاة بتراب كثير بحيث أن هذا، عندما حاول الرسام أن ينفخه من فوق اللوحة العليا، تطاير فترة طويلة أمام أعينك وأخذ عليه أنفاسه. «منظر مرج»، قال الرسام وقدم اللوحة إلى لك. كانت تعرض شجرتين هزيلتين تتصبان متباعدتين عن بعضهما في عشب داكن. وفي الخلفية كان ثمة غروب شمس متعدد الألوان. «جميلة»، قال لك، «إنني أبتاعها». كان لك قد عبر بإيجاز هكذا في غير رؤية، لذا فقد سرّ عندما رفع الرسام من على الأرض لوحة ثانية بدلاً من أن تأخذ هذا وأخذ السوء. «هنا مقابل لهذه اللوحة»، قال الرسام. ربما كان يراد بها أن تكون مقابلاً، لكن لم يكن يلاحظ أقل فرق إزاء اللوحة الأولى، هنا كانت الشجرتان، هنا العشب وهناك غروب الشمس. لكن هذا لم يهم لك كثيراً. «إنها مناظر طبيعية جميلة»، قال، «أشتري اللوحتين وأعلقهما في مكتبي». «يبدو أن الموضوع يعجبك»، قال الرسام وأخرج لوحة ثالثة، «من محسان الصدف أنه لدى هنا لوحة مشابهة أخرى». لكنها لم تكن مشابهة، بل كان الأمر بالأحرى منظر المروج السابق نفسه تماماً. واستغل الرسام هذه الفرصة على نحو جيد لبيع لوحات قدية. «أخذ هذه اللوحة أيضاً»، قال لك، «ما هو ثمن اللوحات الثلاث؟». «سوف نتحدث عن ذلك قريباً»، قال الرسام، «إنك مستعجل

الآن وستنقى على اتصال ولاشك. وللمناسبة، يسرني أن اللوحات تعجبك، وأسأعطيك كل اللوحات التي عندي هنا تحت. كلها مناظر مروج، لقد رسمت مناظر مروج كثيرة. وبعض الناس يرفض مثل هذه اللوحات، لأنها مقبضة، لكن آخرين، وأنت منهم، يحبون المقبض بالذات». غير أنك لم يكن لديه الآن حس لتجارب المهنة لدى الرسام المسؤول. «احزم كل اللوحات»، نادى مقاطعاً الرسام، غداً يأتي خادمي ويحضرها». «لا داعي لذلك»، قال الرسام، «أمل أنتي سوف أتمكن من إيجاد حمال لك يذهب معك حالاً». وانحنى أخيراً فوق السرير وفتح قفل الباب. «اطلع دون وجل على السرير»، قال الرسام، «هذا ما يفعله كل من يدخل إلى هنا». وما كان من شأنك أن يأبه حتى بدون هذا الطلب، بل أنه كان قد وضع قدماً على وسط اللحاف، وهنا نظر من خلال الباب المفتوح وسحب قدمه ثانية. «ما هذا؟» سأله الرسام. «علام تعجب؟» سأله هذا متوجباً من طرفه. «إنها مكاتب المحكمة. ألم تكن تعلم بوجود مكاتب محكمة هنا؟ توجد مكاتب محكمة في كل عملية تقريباً، لماذا عليها أن تغيب هنا بالذات؟ إن مرسومي أيضاً يتبع مكاتب المحكمة أصلاً، لكن المحكمة وضعته تحت تصرفني». ولم يذعر لك كثيراً من أنه قد وجد هنا أيضاً مكاتب محكمة، وإنما ذعر بصورة رئيسية من نفسه ومن جهله قضايا المحكمة. وكقاعدة أساسية لتصرف المدعى عليه بدا له، أن يكون دائماً مستعداً، وألا يدع نفسه يفاجأ فقط، ألا ينظر يميناً دون أي هاجس إذا كان القاضي يقف يساراً إلى جانبه... وبالذات على هذه القاعدة كان يخرج دائماً وأبداً. وامتدت أيامه ردهة طويلة يهرب منها هواء كان هواء المرسم إذا قورن به منعشأً. وكان ثمة مقاعد وضعت على جانبي الردهة، تماماً كما كان الحال في حجرة الانتظار التابعة للمكتب الخص بـك. وبدا أن ثمة تعليمات دقيقة لتأثيث المكاتب. ولم تكن حركة أصحاب الدعاوى شديدة جداً الآن. كان ثمة رجل

يجلس هناك نصف مستلقٍ، وكان قد دفن وجهه على المقعد بين ذراعيه وبدا أنه نائم؛ وكان آخر يقف في الظلمة الوانية في نهاية الرواق. وصعد كـ الآن فوق السرير، وتبعه الرسام وهو يحمل اللوحات. ومالبثاً أن التقى بحاجب من حجاب المحكمة - أصبح كـ يعرف الآن جميع حجاب المحكمة من الزّرّ الذهبي الذي كانوا يحملونه على حلّتهم المدنية تحت الأزرار العادية - وكفّه الرسام أن يرافق كـ باللوحات. كان كـ يترنّح أكثر مما كان يسير، وقد أبقى المنديل مضغوطاً على فمه. وكانت قد اقتربا من المخرج، إذ اندهعت البناء راكضات نحوهما، اللواتي إذا لم يُجذّب كـ أيضاً منها. لكنّ على ما يبدو قد رأين أن الباب الثاني للمرسم قد فتح، فسلك الدورة لكي يدخلن من هذا الجانب. «لا أستطيع مرافقتك بعد الآن»، نادى الرسام ضاحكاً وسط ازدحام البناء. «إلى اللقاء! ولا تفكّر أطول من اللازم!» ولم يلتفت كـ إليه مجرد التفات. وفي الشارع استقلَّ أول عربة اعترضته. وكان يهمه كثيراً أن يتخلص من الحاجب، الذي كان زرّه الذهبي يخزه في عينيه بلا انقطاع، وإن لم يكن أيضاً قد لفت على الأرجح نظر أحد آخر. وتعبيرأ عن رغبته في الخدمة أراد الحاجب أن يجلس على مقعد الحوذى، لكن كـ أنزله طرداً. وكان وقت الظهيرة قد مضى منذ فترة طويلة عندما وصل كـ إلى أمام المصرف. وكان بوذه أن يترك اللوحات في العربة، لكنه خشي أن يجد نفسه، لدى أية مناسبة من المناسبات، مرغماً على أن يثبت هويته بهذه اللوحات إزاء الرسام. لذا فقد تركها تُنقل إلى مكتبه، وحجزها في الدرج السفلي من دراج طاولته، وذلك كي يضعها، على الأقل في الأيام التالية القرية، في مأمن من نظرات نائب المدير.

التاجر بلوك

إخطار المحامي بإلغاء توكيله

وأخيراً عقد لك العزم بالتأكيد على أن يسحب من المحامي توكيله. وحقاً لم يكن بالإمكان إزالة الشكوك فيما إذا كان من الصريح التصرف هكذا، لكن الاقتناع بضرورة ذلك رجحت كفته. وكان هذا العزم قد أخذ منك في اليوم الذي أراد أن يذهب فيه إلى المحامي طاقة عمل كبيرة، لقد عمل ببطء على وجه الخصوص، وتوجّب عليه أن يقى طويلاً في المكتب، وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة عندما وقف أخيراً أمام باب المحامي. وحتى قبل أن يقرع الجرس، فنّغر فيما إذا لم يكن من الأفضل أن يخطر المحامي هاتفياً أو خطياً، إذ أن من شأن المحادثة الشخصية أن تكون بالتأكيد محرجة أشد الحرج. ورغم ذلك لم يشأك أن يستغنى عنها، ولدى كل نوع آخر من الإخطار سيكون من شأن هذا أن يُقبل بصمت أو ببعض كلمات شكلية، ومن شأنك، إذا لم تستطع لني مثلاً أن تستكشف بعض الأمور، ألا يعلم قط كيف كان المحامي قد استقبل الإخطار وما هي نتائج هذا الإخطار التي قد تترتب علىك حسب رأي المحامي، هذا الرأي الذي ليس غير ذي أهمية. أما إذا جلس المحامي مقابلك وفوجئ بالإخطار، فإن من

شأنك، حتى ولو لم يدع المحامي نفسه يستدرج منه الكثير، لأن يتمكن من أن يستنتاج بسهولة من تعابير وجهه ومن سلوكه كل ما يريد. بل أنه لم يكن من المستبعد أن يكون من شأنه أن يقنع بأنه من الخير ترك مهمة الدفاع للمحامي وأن يسحب من ثم الإخطار.

وكان القرع الأول على باب المحامي عديم الجدوى كالمعتاد. «في مقدور لني أن تكون خفيقة الحركة أكثر»، فكر ك. لكن كان أمراً مفيدة إذا لم يتدخل الطرف الآخر، كما كان يفعل في العادة، إن كان الرجل برداء النوم أو أي شخص آخر بدأ يضيق. وبينما كان ك يضغط الجرس مرة ثانية راح ينظر وراءه إلى الباب الآخر، لكن هذه المرة ظل هذا الباب أيضاً مغلقاً. وأخيراً لاحت عينان تنظران من العين السحرية في الباب، لكنهما لم تكونا عيني لني. وفتح أحدهم الباب، لكنه استند عليه إلى حين ونادي إلى داخلي المسكن: «إنه هو»، ثم فتح الباب على نحو كامل. وكان ك قد ضغط على الباب، إذ أنه كان قد سمع كيف يدار المفتاح بسرعة في القفل، خلفه في باب المسكن الآخر. لذا إذ فتح الباب أمامه أخيراً، اندفع اندفاعاً إلى الحجرة الأمامية، ورأى لني، التي كان نداء التحذير الذي أطلقه فاتح الباب موجهاً إليها، تجري بالقميص في المر الذي يفصل بين الحجرات. وتبعها ك هنيهة بنظراته ثم التفت إلى فاتح الباب. كان رجلاً صغيراً نحيفاً ذا لحية، وكان يحمل شمعة في يده. «أنت موظف هنا؟» سأل ك. «لا»، أجب الرجل، «إنني غريب هنا، والمحامي وكيلي ليس إلا، وأنا هنا بسبب مسألة قضائية». «دون سترة؟» سأل ك وأشار بحركة من يده إلى ملابس الرجل الناقصة. «آه، اعذرني»، قال الرجل وأضاء نفسه بالشمعة وكأنه يرى حالته لأول مرة. «لني هي عشيقتك؟» سأل ك باقتصاب. كان قد باعد ساقيه قليلاً وشبك يديه اللتين يمسك القبعة بهما خلف ظهره. حتى مجرد امتلاكه

معطفاً سميكاً شعر أنه متفوق جداً على الصغير الهزيل. «رباه»، قال هذا ورفع إحدى يديه أمام وجهه في حركة صدّ تنت عن ذعر، «لا، لا، ماذا تفكّر إذا؟». «تبدو جديراً بالتصديق»، قال لك وهو يتسنم، ورغم ذلك... تعال». وأشار له بالقبعة وتركه يسير أمامه. «ما اسمك إذا؟» سأله في الطريق. «بلوك، التاجر بلوك»، قال الصغير والتفت لدى هذا التقديم نحو لك، لكن هذا لم يتركه يقف. «هل هذا هو اسمك الحقيقي؟» سأله. «يقيناً»، كان الجواب، «لماذا يساورك شك إذا؟». «ظننت أنه قد يكون لديك سبب لتكلتم اسمك»، قال لك. وأحس أنه حر هكذا، مثلما لا يكون المرء في ما عدا ذلك سوى عندما يتكلّم في الغرابة مع أناس قليلي الشأن، فيحتفظ لنفسه بكل ما يتعلق به شخصياً، ويتحدث في صبر وهدوء ليس إلا عن اهتمامات الآخرين، وهو يقدر بهذا أن يرفعهم أمام نفسه كما يقدر أن يدعهم يسقطون كما يحلو له. وعند باب حجرة عمل المحامي ظل لك واقفاً، ثم فتحه ونادي بالتاجر الذي كان قد تابع سيره بخضوع: «لاتسرع هكذا! أزيه هنا». وفكرة أنه يمكن للنبي أن تكون قد اختارت هنا، وترك التاجر يفتح كل الأركان، لكن الغرفة كانت خالية. وأمام صورة القاضي أسمك لك التاجر من حمالات السروال من الوراء. «هل تعرف هذا؟»، سأله وهو يرفع سبابته إلى أعلى. رفع التاجر الشمعة وتطلع وعيناه ترمزان وقال: «إنه قاض». «قاض ذو مرتبة عالية؟» سأله ووقف إلى الجانب أمام التاجر، كي يراقب تأثير الصورة عليه. وتطلع التاجر إلى أعلى معجبًا. «إنه قاض ذو مرتبة عالية»، قال. «ليس لديك نظرة فاحصة كبيرة»، قال لك، «إنه، من بين قضاة التحقيق ذوي المرتبة الدنيا، الأدنى مرتبة». «الآن أتذكر»، قال التاجر وخفض الشمعة، «لقد سمعت ذلك أيضاً». «لكن طبعاً، نادى لك، «لقد نسيت، لا بد لك أن تكون قد سمعت بالأمر». «ولكن لماذا إذاً، لماذا إذا؟»

سؤال التاجر وهو يتحرك نحو الباب يسوقه ك بيديه. وفي الخارج في المر
قال ك: «إنك لتعلم أين اختبأت لني؟». «اختبأت؟» قال التاجر، «لا، بل إنها
قد تكون في المطبخ وتطهو حساء للمحامي». «لماذا لم تقل هذا على
الغور؟» سأل ك. كنت أريد أن أقودك إلى هناك. لكنك استرجعتني ثانية»،
أجاب التاجر وهو يكاد يرتكب من الأوامر المتناقضة. «لاشك أنك تظن أنك
شاطر جداً»، قال ك، «قدنى إذا!» في المطبخ لم يكن ك فقط، كان المطبخ
كبيراً ومجهازاً تجهيزاً وفيراً. وكان موقد الطبخ وحده في مثل حجم ثلاثة
مواقد عادية، ومن البقية لم تكن ترى تفاصيل، إذ أن المطبخ لم يكن يضاء
سوى من مصباح صغير معلق على المدخل. إلى الموقد كانت تقف لي
بريلية بقضاء كعهدها وتفقس بقضاء في وعاء فوق موقد كحولي. «مساء
الخير يوزف»، قالت بنظرة جانبية. «مساء الخير»، قال ك وأشار بإحدى يديه
إلى كرسي يقع جانباً كان على التاجر أن يجلس عليه، وهذا ما فعله أيضاً.
أما ك فقد ذهب وراء لي مقرباً منها كل الاقتراب، وانحنى فوق كتفها
وسأل: «من هو الرجل؟» وأحاطت لني ك بإحدى يديها، الأخرى راحت
تقلب الحسأء، وسحبته إلى الأمام نحوها وقالت: «إنه إنسان يرثى له، تاجر
مسكين، يدعى بلوك. لا عليك سوى أن تنظر إليه». ونظراً كلامها إلى
الوراء. كان التاجر يجلس على الكرسي الذي كان ك قد أحاله عليه، وكان
قد أططا بالنفح الشمعة التي كان ضوءها الآن غير ضروري، وضغط
بأصابعه على الفتيلة ليمعن الدخان». كتبت بقلمص التوم، قال ك وأدار
رأسها بيده صوب موقد الطبخ ثانية. ولاذت بالصمت. «هو عشيقك؟»
سأل ك. وأرادت أن تمد يدها إلى وعاء الحسأء، غير أن ك تناول كلتا يديها
وقال: «والآن أجيبي!» فقلت: «تعال إلى حجرة العمل، وسوف أشرح لك
كل شيء». «لا»، قال ك، «أريد أن تشرحي الأمر هنا». وتعلقت به وأرادت

أن تقبله، لكنك صدّها وقال: «لا أريد أن تقبليني الآن». «يوزف»، قالت لني ونظرت في عيني لك باستعطاف ومع ذلك بصراحة. «إلا إنك لن تفار من السيد بلوك». «رودي»، قالت من ثم متوجّهة إلى التاجر، «فلتساعدني هكذا، إنك ترى أنه يُشتبه بي، دع الشّمعة». كان في وسع المرأة أن يفكّر بأنه لم يكن يلقى باله، لكنه كان مطلعاً كل الاطلاع. «لا أدرى أيضاً لماذا عليك أن تغار»، قال بقدّر من حضور البديهة. «أنا أيضاً لا أعرف في الحقيقة»، قال لك ونظر إلى التاجر مبتسمًا. وضحكت لني بصوت عال، وانهارت شرود لك لتأطّب ذراعه وهمسـت: «دعه الآن، إنك ترى أي إنسان هو. لقد اعنتـت به بعض الشيء، لأنـه زبون كبير للمحامي، وليس لأـي سبـب آخر. وأنت؟ هل تـريد أن تـتحدث اليوم مع المحامي؟ إنه اليوم مريض جداً، لكن إذا أردتـ، أخبرـه بحضوركـ. أما في الليلـ، فإنـك تـبقـي لدىـ، بكلـ تـأكـيدـ. كماـ أنـكـ منذـ فـترةـ طـوـيـلةـ لمـ تـكـنـ لـدـيـناـ، وـقـدـ سـأـلـ المحـامـيـ بـنـفـسـهـ عـنـكـ. لـاتـهـمـ الـحاـكـمـةـ!ـ وأـنـاـ أـيـضاـ عـلـىـ أـنـ أـعـلـمـكـ مـسـائـلـ أـخـرىـ عـلـمـتـ بـهـاـ.ـ أـمـاـ الـآنـ فـانـزعـ مـعـظـفـكـ أـولـاـ!ـ»ـ وـسـاعـدـتـهـ فـيـ خـالـعـهـ وـأـخـذـتـ مـنـهـ القـبـعـةـ،ـ وـجـرـتـ بـهـماـ لـتـعـلـقـهـمـاـ فـيـ الـحـجـرـ الـأـمـامـيـ،ـ ثـمـ جـرـتـ عـائـدـةـ لـتـكـشـفـ عـلـىـ الـحـسـاءـ.ـ «ـهـلـ عـلـيـ أـنـ أـعـلـمـهـ أـولـاـ بـحـضـورـكـ أـمـ أـنـ أـحـمـلـ إـلـيـ الـحـسـاءـ أـولـاـ؟ـ»ـ.ـ «ـأـعـلـمـيـهـ أـولـاـ بـحـضـورـيـ»ـ،ـ قـالـ لـكـ.ـ وـكـانـ مـسـتـاءـ،ـ كـانـ يـنـوـيـ،ـ فـيـ الـأـصـلـ أـنـ يـتـحدـثـ بـدـقـةـ مـعـ لـنـيـ عـنـ مـسـائـلـهـ وـلـاسـيمـاـ إـلـيـ الـخـطـارـ الـوارـدـ،ـ غـيرـ أـنـ حـضـورـ التـاجـرـ كـانـ قـدـ سـلـبـهـ الرـغـبةـ فـيـ ذـلـكـ.ـ لـكـنـ الـآنـ أـصـبـحـ يـعـتـبرـ مـوـضـوـعـهـ أـكـثـرـ أـهـمـيـةـ مـنـ أـنـ يـجـزـوـ لـهـذـاـ التـاجـرـ الصـغـيرـ أـنـ يـتـدـخـلـ رـبـماـ عـلـىـ نـحـوـ حـاسـمـ،ـ وـهـكـذـاـ نـادـيـ لـنـيـ،ـ التـيـ كـانـتـ قـدـ وـصـلـتـ إـلـيـ الـمـرـ،ـ كـيـ تـعودـ.ـ (ـأـحـمـلـيـ لـهـ حـسـاءـ أـولـاـ)ـ،ـ قـالـ،ـ (ـعـلـيـهـ أـنـ يـنـعـشـ نـفـسـهـ مـنـ أـجـلـ الـحـادـثـةـ مـعـيـ،ـ وـسـوـفـ يـحـتـاجـ إـلـيـ ذـلـكـ)ـ.ـ (ـأـنـتـ أـيـضاـ زـبـونـ الـحـامـيـ)ـ،ـ قـالـ التـاجـرـ بـصـوـتـ

منخفض، وهو جالس في ركته، وكأنه يقرر. لكن هذا لم يُقبل قبولاً حسناً. «ماذا يهمك هذا إذا؟» «قال لك ولني قالت: «سوف تسكت». «فأحمل إليه إذا الحساء أولًا»، قالت لني لك وصبت الحساء في صحن. «لكن يخشى من ثم وحسب أن يغلبه النعاس بعد قليل، إنه سرعان ما ينام بعد تناول الطعام». «ما سوف أقوله له سوف يقيمه صاحياً»، قال لك، وكان يريد أن يلمع إلى أنه ينوي أن يتداول مع المحامي في موضوع هام، وكان يريد أن يسأل من قبل لني عما هو، هذا الموضوع، فيستشيرها عند ذاك وحسب. غير أنها اكتفت بتنفيذ الأوامر المعطاة تنفيذاً دقيقاً. وإذا مرت به وهي تحمل الصينية، لكرته عمداً برفق وهمست: «عندما يكون قد أكل الحساء، أعلمه حالاً بحضورك، حتى أظفر بك ثانية في أقرب وقت ممكن». «اذهي وحسب»، قال لك، «اذهي وحسب». «لتكن أكثر لطفاً»، قالت واستدارت في الباب مرة ثانية استداره كاملة وهي تحمل الصحن.

تبعها لك بنظراته؛ والآن أصبح من المقرر بصورة نهاية أن يعزل المحامي، كما أنه كان من الأفضل أنه لم يتمكن من قبل أن يتحدث مع لني حول ذلك؛ فلم تك تملك نظرة إجمالية كافية عن الأمر كله، وكان من شأنها بالتأكيد أن تتصح بالعدول، كما أنه كان من الجائز أن يكون من شأنها أن تمنعه حقاً هذه المرة عن الإخطار، زكان من شأنه أن يظل في شك وقلق، وأخيراً كان من شأنه بعد بعض الوقت أن ينفذ قراره رغم ذلك، إذ أن هذا القرار كان ضروريأً كل الضرورة. لكنه كلما نفذ عاجلاً، أعيق ضرر أكثر. وللمناسبة، ربما كان التاجر يعرف أن يقول شيئاً عن ذلك.

والتفت لك، وما كاد التاجر يلاحظ ذلك، حتى أراد أن ينهض على الفور. «ابق جالساً»، قال لك وسحب كرسيه إلى جانبه. «أنت زبون قديم للمحامي؟» سألك، «نعم»، قال التاجر، «زبون قديم جداً». «منذ كم سنة

ينوب عنك؟» سأله. «لا أعرف ماذا تقصد»، قال التاجر، «في المسائل القانونية المتعلقة بالعمل - أمثلك متجر جبوب - ينوب عنى المحامي منذ أن تسلّمت المتجر، أي منذ نحو عشرين عاماً، في قضيتي الخاصة بي، والتي تشير إليها على الأرجح، ينوب عنى أيضاً منذ البداية، إنها قائمة منذ أكثر من خمس سنوات». «نعم أكثر بكثير من خمس سنوات»، أضاف من ثم وأخرج محفظة قديمة، «لقد سجلت هنا كل شيء، وإذا شئت، أقول لك التواريخ الدقيقة. إنه من الصعب حفظ كل شيء. وقضيتي قائمة على الأرجح منذ مدة أطول، لقد بدأت بعد وفاة زوجتي، وقد مضى على هذا أكثر من خمسة أعوام ونصف العام». واقترن لك منه. «المحامي يتولى إدانته قضائياً عادلة أيضاً؟» سأله. وبذلك ارتبط المحاكم وعلوم الحقوق هذا باعثاً على الاطمئنان بشكل بالغ. «بالتأكيد»، قال التاجر ثم همس إلى لك: «بل يقال إنه في هذه القضايا أكثر مهارة منه في غيرها». لكنه بدا من ثم أنه ندم على ما قاله، فوضع يده على كتفي لك وقال: «أرجوك كل الرجاء، لانفتشيني». وربت لك على فخذ التاجر كي يهدئي من روعه وقال: «لا، لست تماماً». «إنه محظوظ للانتقام»، قال التاجر. «ضد زبون وفيه هكذا لن يفعل شيئاً بالتأكيد»، قال لك. «أوه، بلـي»، قال التاجر، «عندما يحتاج، لا يعرف فارقاً، وللمناسبة إبني في الواقع لست وفيأ له». «لماذا لا إذًا؟» سأله. «هل علىي أن أتمسك على الأمر»، سأله التاجر مرتاباً. «أظن أن لك أن تفعل»، قال لك. «الآن»، قال التاجر، «سوف أتمكن على الأمر جزئياً. لكن يجب عليك أيضاً أن تقول لي سراً، حتى نعتمد على بعضنا بعضاً إزاء المحامي». «إنك على حذر كبير»، قال لك، «لكنني سأقول لك سراً سوف يهدئي من روعك تماماً. أين يمكن إذاً عدم وفائك إزاء المحامي؟». «لديّ»، قال التاجر متربداً وبلهجة كأنه يعترف بشيء شائن، «لدي بالإضافة إليه محامون آخرون». «إن هذا ليس أمراً رديئاً للغاية»، قال لك وقد خاب أمله

بعض الشيء». «أما هنا فنعم»، قال التاجر الذي كان لا يزال منذ اعترافه يتنفس بصعوبة، لكنه أصبح على ثقة أكثر نتيجة ملاحظة ك. «الأمر غير مسموح به. وأقل ما يُسمح به هو أن يتخذ الماء، إلى جانب ما يسمى محامياً، محامين محتالين. وهذا تماماً ما فعلته، لدلي غيره خمسة من هؤلاء المحامين المحتالين». «خمسة!» صاح ك وقد أثار الرقم دهشته، «خمسة محامين غير هذا؟» وأومأ التاجر برأسه: «وأنا أتفاوض حالياً مع سادس». لكن ما حاجتك إذاً إلى هذا العدد الكبير من المحامين»، سأل ك. «أحتاج إليهم جميعاً»، قال التاجر. «لا تريد أن تفسر لي هذا؟» سأل ك. «برغبة»، قال التاجر، «قبل كل شيء أريد ألا أخسر قضيتي، وهذا هو لأمر بيدهي. وبالتالي لا يجوز لي أن أصرف النظر عن أي شيء قد يمكنه أن يفيدني؛ وحتى عندما يكون الأمل فيفائدة في حالة معينة من الحالات ضئيلاً جداً ليس إلا، فإنه لا يجوز لي أيضاً أن أفقده. لذا فقد صرفت على القضية كل ما أملكه. وهكذا سحبت، مثلاً، من تجاري كل مال، كانت مكاتب متجربي تشغل فيما مضى طابقاً تقريباً، أما اليوم فتكتفي حجرة صغيرة في المبني الخلفي، حيث أعمل مع صبي تدريب واحد. وهذا التراجع لم يسببه طبعاً سحب المال وحده، وإنما سببه أكثر من ذلك سحب طاقة عملي. وعندما يريد المرء أن يفعل شيئاً من أجل قضيته، فإنه لا يقدر أن يشغل نفسه كثيراً في أمور أخرى». «أنت تعمل إذا بنفسك أيضاً لدى الحكمة؟» سأل ك، «بودي أن أعلم شيئاً عن هذا بالذات». «بشأن ذلك لا أستطيع أن أعلمك سوى القليل»، قال التاجر، «في البداية حاولت الأمر أيضاً، لكنني سرعان ما عدلت عن ذلك. إنه ينفك القوى ولا يجلبفائدة كبرى. إن العمل شخصياً هناك والتفاوض تأكد، بالنسبة إلي على الأقل، أنه مجال كلياً. هناك، إن مجرد الجلوس والانتظار هو إرهاق كبير. إنك لتعرف بنفسك الهواء الثقيل في المكاتب». «لماذا تعرف إذاً أنت كنت هناك؟» سأل

ك. «كنت في حجرة الانتظار، عندما مررت». «أية صدفة هي هذه!» نادى ك مأخوذاً كلياً وناسياً كلياً صفة التاجر المضحكه السابقة، «لقد رأيتنى إذاً كنت في حجرة الانتظار عندما مررت. نعم، لقد مررت هنا مرة». «ليس الأمر صدفة كبيرة هكذا؟» قال التاجر، «إنتي هناك كل يوم تقريباً». «سوف يتوجب علىي على الأرجح أن أذهب أيضاً إلى هناك كثيراً»، قال لك، «لكنني لن أستقبل بالكاد بعد الآن بتشريف هكذا مثلكما استقبلت آنذاك. لقد نهضوا جميعهم. لابد أنهم ظنوا أنتي قاض». «لا»، قال التاجر، «لقد حتيانا آنذاك حاجب المحكمة. كنا نعلم أنك مدعي عليه. مثل هذه الأخبار تنتشر بسرعة فاتقة». «كنت تعلم الأمر إذاً»، قال لك، «لكن ربما بدا لك تصرفي متزفعاً. ألم يدل المرء برأيه في ذلك؟». «لا»، قال التاجر، «على العكس. لكن هذه هي حماقات». «أية حماقات إذاً؟» سأله. «لماذا تسأل عن ذلك؟» سأله التاجر متضايقاً، «يدو أنك ما زلت لا تعرف الناس هناك وسوف تفهم الأمر ربما على نحو غير صحيح. عليك أن تفكّر في أنه في هذه القضية يحرّي الحديث مراراً وتكراراً عن أشياء كثيرة لا يعود العقل يكفي لها، إن المرء، ببساطة، تعب أكثر من اللازم، ملئها بأمور كثيرة وتعويضاً يلتجيء المرء إلى الإيمان بالخرافات. إنتي تحدث عن الآخرين، لكنني نفسي لست أفضل أبداً. مثل هذه الخرافات مثلاً أن كثيرين يدعون أنهم يعرفون نهاية المحاكمة من وجه المدعي عليه، ولا سيما من شكل الشفاه. لقد ادعى هؤلاء الناس إذاً أنه يستدلّ من شفاهتك على أنك ستدان حتماً وقريباً. أكترر، إنها خرافة مضحكه، كما أن الواقع تنقضها كلياً في معظم الحالات، لكن عندما يعيش المرء في ذلك المحيط، فإنه من الصعب أن يتفادى مثل هذه الآراء. فكر وحسب كيف يمكن لهذه الخرافه أن تؤثر تأثيراً قوياً. لقد بادرت أحدهم هناك الكلام، أليس كذلك؟ لكنه لم يقدر بالكاد أن يجib. وطبعاً يوجد أسباب كثيرة لأن يكون المرء مرتيناً هناك، لكن

أحدها كان أيضاً مشاهدة شفتيك. وقد روى فيما بعد أنه ظن أنه يرى على شفتيك أيضاً إشارة إدانته الخاصة به». «شفتاي؟» سأل ك وأخرج مرأة جيب ونظر إلى وجهه. «لا أقدر أن أتبين في شفتي شيئاً خاصاً. وأنت؟». «وأنا أيضاً لا»، قال التاجر، «لا، إطلاقاً». «كم يتعلّق هؤلاء الناس بالخرافات؟»، صاح ك قائلاً. «ألم أقل ذلك؟» سأل التاجر. «هل يختلطون إذاً مع بعضهم بعضاً كثيراً هكذا ويتبادلون آراءهم؟» قال ك. «لقد انفردت كلية حتى الآن». «بصورة عامة لا يختلطون مع بعضهم بعضاً»، قال التاجر، «ليس من شأن هذا أن يكون ممكناً، إنهم لكثيرون جداً. كما أنه لا يوجد كثير من الاهتمامات المشتركة. وإذا ظهر أحياناً في مجموعة إيمان بمصلحة مشتركة، فإنه سرعان ما يثبت أنه خطأً جماعياً لا يمكن تحقيق شيء ضد المحكمة. كل حالة تبحث لوحدها، إن المحكمة لها الأكثر دقة. جماعياً لا يمكن للمرء أن يتحقق إذاً شيئاً، الفرد وحده يتحقق أحياناً شيئاً بينه وبين نفسه؛ فقط عندما يتحقق هذا، يسمع به الآخرون؛ وما من أحد يعرف كيف حدث الأمر. لا يوجد إذاً شيء مشترك، صحيح أنهم يتلاقون أحياناً في حجرات الانتظار، لكنهم لا يتحادثون كثيراً. إن الآراء الخرافية قائمة منذ القدم وتتكاثر بمعنى الكلمة من تلقاء نفسها». «رأيت الرجال هناك في حجرة الانتظار»، قال ك، «وقد بدا لي الانتظار لهم عديم الجدوى جداً». «الانتظار ليس عديم الجدوى»، قال التاجر، «ليس عديم الجدوى سوى التدخل المستقل. لقد سبق وقلت، إنه لدى غير هذا خمسة محامين آخرين. ولا بد للمرء من الظن - أنا نفسي ظنت الأمر أولاً - أنه يمكنني الآن أن أترك لهم الموضوع بأكمله. لكن من شأن هذا أن يكون خطأً كل الخطأ. إنني أستطيع أن أتركه لهم أقل مما كان لدى محام واحد وحسب. إنك لا تفهم هذا؟». «لا»، قال ك ووضع يده فوق يد التاجر مهدئاً كي يعيقه عن الكلام السريع جداً، «أود أن أرجوك وحسب أن تتكلّم ببطء أكثر بعض الشيء»،

إنها محض أشياء في غاية الأهمية بالنسبة إليّ، ولا أستطيع أن أتابلك على نحو جيد». «من الخير أنك ذكرتني بذلك؟»، قال التاجر، «إنك لجديد، صغير السن. محاكمتك عمرها نصف عام، أليس كذلك؟ نعم لقد سمعت عنها. محاكمة حديثة هكذا! أما أنا فقد مختصت هذه الأشياء مرات لا تعد ولا تحصى، إنها الأكثر بديهيّة في العالم بالنسبة إليّ». «إنك لمسرور كون محاكمتك قد تقدّمت مراحل هكذا؟» سأله، ولم يشأ أن يسأل مباشرة كيف هي حال مسائل التاجر. كما أنه لم يحصل على جواب واضح. «نعم لقد دحرجت محاكمتي طوال خمس سنوات»، قال التاجر وخفض رأسه، «ليس الأمر إنجازاً صغيراً». ثم لاذ بالصمت برهة. وأنصت ك ما إذا كانت لنبي تأتي في الحال. فمن طرف كان يريد ألا تأتي، إذ كان لديه الكثير مما يسأل عنه، كما أنه لم يكن يريد أن تلقاء النبي في هذا الحديث السري مع التاجر، لكنه من طرف آخر تضائق لأنها، رغم وجوده، ظلت فترة طويلة لدى المحامي، أطّلول بكثير مما كان يلزم لتقديم الحسّاء. «مازالت أذكّر الوقت تماماً»، بدأ التاجر ثانية، وكان ك عظيم الاهتمام في الحال، «عندما كانت محاكمتي تقريراً في عمر محاكمتك الآن، ولم يكن لدى آنذاك سوى هذا المحامي، غير أنني لم أكن راضياً عنه كل الرضي». «هنا لأعلم كل شيء»، فكر ك وأومأ برأسه بخفة وكأنه يقدر بهذا أن يشجع التاجر على أن يقول كل ما هو مهم. «محاكمتي»، تابع التاجر قائلاً: «لم تتقدم، صحيح أجريت تحقيقات، كما كنت أحضر إلى كل تحقيق، وأجمع مواد، وأسلم جميع دفاتري التجارية للمحكمة، الأمر الذي لم يكن حتى ضروريّاً، كما علمت فيما بعد، ورحت أجري دائماً إلى المحامي، كما أنه قدم التماسات مختلفة». «التماسات مختلفة؟» سأله. «نعم، بالتأكيد»، قال التاجر. «هذا يهمني جداً»، قال ك، «في حالي مازال يعمل في الالتماس الأول. ولم يفعل شيئاً بعد. والآن أرى أنه يهملي على نحو

مهين». «أن الالتماس لم ينته إعداده بعد، يمكن أن يعود إلى أسباب مختلفة مشروعة»، قال الناجر، «وللمناسبة، لدى التماساتي تبين فيما بعد أنها كانت عدبة القيمة كلياً. بل إنني، بفضل تساهل أحد موظفي المحكمة، قرأت بمنفسي أحدها. وكانت كلها علم حقاً، لكنها كانت في الحقيقة بلا مضمون. كانت تحتوي خاصية على كثير جداً من اللاتينية، التي لا أفهمها، ثم صفحات كاملة من التوصلات العامة إلى المحكمة، ثم مجاملات إلى موظفين فرادى معينين، صحيح لم يكونوا مذكورين بالاسم، لكن كان لابد للعلیه أن يحدسهم على كل حال، ثم مدح ذات للمحامي، بينما يروح يتذلل أمام المحكمة حقيقة تذلل الكلاب، وأخيراً دراسات عن حالات قانونية من الأيام الماضية يرى أنها شبيهة بحالتي. لكن هذه الدراسات كانت، بقدر ما كنت أستطيع متابعتها، معدة بإتقان كبير. كما أنني لا أرغب بكل هذا لأن أعطى حكماً على عمل المحامي، كما أن الالتماس الذي قرأته كان واحداً من التماسات عديدة، لكن على كل حال، وعن هذا أريد أن أتكلم الآن، لم أستطع آنذاك أن أرى تقدماً في محاكنتي». «أي تقدم كنت تريد أن ترى؟» سأل ك. «إنك تسأل بمحكمة»، قال الناجر مبتسمًا، «لا يمكن للمرء أن يرى في هذه القضية تقدماً إلا فيما ندر. لكنني آنذاك لم أكن أعرف هذا. أنا تاجر وكتبه آنذاك أكثر بكثير من اليوم، كنت أريد أن أحصل على تقدم ملموس، كان على الأمر كله أن يميل إلى نهايته أو أن يصيّب على الأقل ارتقاء مناسبًا. وبدلاً عن ذلك لم يكن يوجد سوى تحقيقات؛ وكانت الأوجبة جاهزة لدى مثل صلاة مكررة؛ وعدة مرات في الأسبوع كان سعاة محكمة يأتون إلى متجرى، إلى مسكنى أو حيث يتمكنون من لقائى، وكان هذا مزعمًا طبعاً (إن الأمر اليوم أفضل بكثير في هذه الناحية على الأقل، فالخابرة الهاتفية تزعج أقل بكثير)، وبين أصدقاء العمل أيضاً لكن لا سيما بين أقاربي بدأت إشاعات عن محاكنتي تنشر،

كان يوجد أضرار إذاً من جميع النواحي، لكن ما من أقل إشارة كانت تدلّ على أن من شأن حتى أول جلسة أن تعقد في موعد قريب. وهكذا ذهبت إلى المحامي وشكوت له. صحيح أنه قدّم لي شروhat مطولة، لكنه رفض رفضاً قاطعاً أن يفعل شيئاً يرضيني، وقال إن ما من أحد يؤثر على تحديد موعد الجلسة، وإن الإلحاد على ذلك في التماس - كما أطلب - إنما هو، ببساطة، أمر فادح لم يسمع به ومن شأنه أن يفسدني ويفسده. وفكرت: ما لا يريده هذا المحامي أو يستطيعه سوف يريده ويستطيعه آخر. فبحثت إذاً عن محامين آخرين. وأريد أن أستبق في الحال وأقول: ما من أحد طلب تحديد موعد الجلسة الرئيسية أو فرضاًها، إن الأمر، نكن مع تحفظ سأتحدث عنه فيما بعد، محال فعلاً، بخصوص هذه النقطة لم يخيب هذا المحامي أ ملي إذاً؛ نكن للمناسبة، لم يكن على أنندم على أنني توجهت إلى محامين آخرين. ولابد أنك سمعت من د. هولد بعض الأمور عن المحامين المتحايلين على القانون، وعلى الأرجح عرضهم لك أوغاداً كباراً وهم هكذا فعلاً. لكنه دائماً، عندما يتحدث عنهم ويقارن نفسه وزملاءه بهم، يرتكب خطأً صغيراً أريد، بشكل جانبي للغاية، أن ألفت انتباحك إليه. إنه يسمى دائماً من ثم المحامين من محيطة، تمييزاً، (المحامين الكبار). وهذا خطأ، وطبعاً يستطيع كل شخص أن يسمى نفسه (كبيراً)، إذا طاب له ذلك، لكن في هذه الحالة لا يليّ في الأمر سوى تقاليد المحكمة وحدتها. إذ أن طبقاً لهذه مازال يوجد بالإضافة إلى المحامين المتحايلين على القانون محامون صغار ومحامون كبار. لكن هذا المحامي وزملاءه هم المحامون الصغار ليس إلا، أما المحامون الكبار الذين سمعت عنهم وحسب ولم أرهم قط، فإنهم يعلون مرتبة على المحامين الصغار بشكل لا يقارن مع علوّ هؤلاء على المحامين المتحايلين». «المحامون الكبار؟» سأل ك. «من هم هؤلاء إذاً؟ كيف يأتي المرء إليهم؟». «لم تسمع بهم إذاً قط»، قال التاجر. «بالكاد يوجد مدعى عليه

ليس من شأنه، بعد أن سمع عنهم، أن يحلم بهم بعض الوقت. من الخير ألا تدع نفسك يُغَرِّر بك إلى هذا، وأنا لا أدرى من هم المحامون الكبار، ولا يمكن للمرء أن يصل إليهم أبداً. إنني لا أعرف حالة واحدة يمكن أن يقال عنها قوله قاطعاً بأنهم تدخلوا فيها. إنهم يدافعون عن بعض الناس، لكن بفضل إرادة ذاتية لا يمكن للمرء أن يبلغ هذا، إنهم يدافعون عن الذي يريدون الدفاع عنه ليس إلا. لكن القضية التي يهتمون بها يجب أن تكون قد تجاوزت المحكمة ذات الدرجة الدنيا. وللمناسبة، إنه من الأفضل عدم التفكير بهم، وإلا فإن الأحاديث مع المحامين الآخرين ونصائحهم ومساعداتهم تبدو للمرء كريهة وعديمة الجدوى، وهذا ما خبرته بنفسي، بحيث يرغب المرء أكثر ما يرغب في أن ينبذ كل شيء ويرقد في الفراش في البيت ولا يسمع شيئاً بعد الآن. لكن من شأن هذا أن يكون مرة أخرى الأكثر حماقة، كما أنه ليس من شأن المرء أن يرتاح طويلاً في الفراش». «لم تفكر آنذاك إذا بالمحامين الكبار؟» سأله. «ليس طويلاً»، قال التاجر وابتسم من جديد، «مع الأسف لا يقدر المرء أن ينساهم كل النسيان، والليل خاصة يناسب مثل هذه الأفكار. لكنني آنذاك كنت أريد نجاحات فورية، لذا فقد ذهبت إلى المحامين المحتالين».

«كيف تجلسان معاً»، نادت لني التي كانت قد عادت وهي تحمل الصحن وطلت واقفة في الباب. كانا يجلسان فعلاً متلاصقين، ولدى أي حركة كان لابد لرأسيهما أن يصطدمما ببعضهما، وكان التاجر، الذي يحيي ظهره أيضاً، فضلاً عن قصر قامته، قد اضطر رك إلى أن يحيي ظهره أيضاً انحناء شديداً، إذا هو أراد أن يسمع كل شيء. «برهة أخرى»، نادى رك لني صاداً برفق، وبنفاذ صبر نفط يده التي كان لا يزال يضعها فوق يد التاجر. «أراد أن أحكي له عن محاكطي»، قال التاجر لبني. «احبك وحسب».

احك»، قالت هذه. كانت تتكلّم مع التاجر بحنان ولكن بتعالٍ أيضًا، ولم يعجب هذا ك؟ كما كان الآن قد أدرك، كان الرجل ذا قيمة ما، كان على الأقل يملّك خبرات يعرف كيف ينقلها على خير وجه. وعلى الأرجح لم تكن لني تقدّره حق قدره. ونظر لك بامتناع إلى لني إذ أخذت الآن من التاجر الشمعة التي كان يمسك بها طوال الوقت، ومسحت يده بغيرها، ثم ركعت إلى جانبه لتكتسّط نقطة شمع كانت قد سقطت من الشمعة على سرواله. «كنت تريد أن تحدثني عن المحامين المحتالين»، قال لك وأزاح يد لني دون أي تعليق. «ماذا تريد إذًا؟» سألت لني ولطمتك برفق وواصلت عملها. «نعم، عن المحامين المحتالين»، قال التاجر ومسح جبينه بيده وكأنه يتأمّل. وأراد لك أن يساعدك فقال: «كنت تريد نجاحات فورية ولذا ذهبت إلى المحامين المحتالين». «صحيح جداً»، قال التاجر لكنه لم يواصل كلامه. «ربما لا يريد أن يتكلّم أمام لني»، فكر لك وتغلب على لهفته لسماع البقية الآن على الفور ولم يلتح عليه بعد الآن.

«هل بلغت بحضوري؟» سأّل لني. «طبعاً»، قالت هذه، «إنه يتظرك. دع الآن بلوك، مع بلوك يمكنك أن تتحدث فيما بعد أيضاً، إنه لباقي هنا». وتردد لك. «ستبقى هنا؟» سأّل التاجر وكان يريد جوابه هو، ولم يكن يريد أن تتحدث لني عن التاجر كما عن غائب، كان اليوم مشحوناً بغضب خفي على لني. ومرة أخرى أحبّت لني وحدتها: «كثيراً ما ينام هنا». «ينام هنا؟» صاح لك، كان يظن أن التاجر سوف ينتظره هنا وحسب بينما سينهي هو الحادثة مع المحامي بسرعة، ثم ينصرفان سوية ويتحدثان عن كل شيء بعناية وهدوء. «نعم»، قالت لني، «لا يسمح لكل واحد، مثلما يسمح لك، يوزف، بالدخول إلى المحامي في أي وقت. ويدو أذلك لا تعجب أبداً من أن المحامي، رغم مرضه، إنما يستقبلك في الساعة الحادية عشرة ليلاً. بل إنك

لتأخذ ما يفعله أصدقاؤك من أجلك بصفته أمراً بدبيهاً. إن أصدقائك أو أنا على الأقل نفعل ذلك عن طيب خاطر. ولا أبغي جزاء آخر كما لا أحتج جزاء آخر سوى أن تجني». «أحبك»، فكرك في اللحظة الأولى، وبعد ذلك وحسب حال في ذهنه: «نعم، إبني أحبها». ورغم ذلك قال مهملاً كل شيء آخر: «إنه يستقبلني لأنني موكله. وإذا كانت مساعدة من الغير ضرورة للذارى، فلا بد للمرء لدى كل خصوة أن يستجدي ويشكر دائمًا في لونته ...»، «كم هو سعيد اليوم، أليس كذلك؟» سألت لني التاجر، «الآن أنا سعيد»، فكرك بل حق تقريراً على التاجر إن قال آخذاً بعدم لياقة لني: «واشخاصي يستقبله لأسباب أخرى، علاوة على ذلك. إن أن حالي أكثر إثارة من حالي. لكن سعادتك هي، فوق ذلك، في بدايتها، وإذا لم تصل على الأرجح إلى مأزق كبير بعد، فيشتغل بها الحامى برغبة. فيما بعد سوف يتغير هذا». «نعم، نعم»، قالت لني ونظرت إلى التاجر ضاحكة. «كم يثرثر! أي أنه لا يجوز لك»، وهنا توجهت إلى ك، «أن تصدقه أبداً. بقدر ما هو لطيف، بقدر ما هو ثرثار. وربما لهذا السبب أيضاً لا يحبه الحامى. وعلى كمال حذل لا يستقبله إلا إذا كان معتدل المزاج. ولقد بذلك كثيراً من الجهد كي أغير هذه، لكن الأمر محال. تصور، أحياناً أبلغه بحضور بلوك، لكنه لا يستقبله سوى في اليوم الثالث بعد ذلك. ولكن إذا لم يكن بلوك جاهزاً للدخول في الوقت الذي ينادى فيه، فإن كل شيء يضيع ويجب الإبلاغ بحضوره من جديد. لذا فقد سمحت لبلوك بأن ينام هنا، ولقد حدث أن الحامى قرع الجرس في الليل من أجله. والآن أصبح بلوك جاهزاً إذا في الليل أيضاً. لكن يحدث الآن مرة أخرى أن الحامى، عندما يدوس أن بلوك هنا، إنما يسحب أحياناً طلبه بداخله إليه». وتطلع ك نحو التاجر متسائلاً. وأوهما هذا برأسه وقال بصرامة كما كان قد تكلم مع ك قبل، ولعله كان منشأ

الفكر بسبب المخجل: «نعم، فيما بعد يصبح المرء خاضعاً جداً لمحامي». «إنه يشكو مجرد المظهر»، قالت لني. «إنه ليحب النوم هنا جداً، كما اعترف لي كثيراً». وذهبت إلى باب صغير وفتحته بعنف. «هل تريد أن ترى غرفة نومه؟» سألت. فذهب ك إلى هناك ونظر من العتبة إلى داخل الغرفة ذات السقف المنخفض والتي ليس لها نوافذ والتي كان سرير ضيق يملؤها كلية. من يدخل هذا السرير عليه أن يرتقي قائمه. عند رأسه كان ثمة تجويف في الحائط رُتب فيه بدقة شمعة ومحبرة وقلم وحزمة أوراق، على الأرجح أوراق محاكمة. «تنام في غرفة الخادمة؟» سأله ك والتفت إلى التاجر. «لقد تفضلت لني وأخلتها لي»، أجاب التاجر، «ولها مزايا كثيرة». وأطال ك النظر إليه؛ إن الانطباع الأول الذي كان قد تلقاه عن التاجر، ربما كان هو الانطباع الصحيح؛ كان ذا خبرات، إذ أن محكمته قد دامت طويلاً، لكنه اشتري هذه الخبرات بثمن باهظ. وفجأة لم يعد ك يتحمل منظر التاجر. «ضعيه في السرير»، صاح في لني التي بدت أنها لا فهمه بحال. لكنه هو نفسه أراد أن يذهب إلى المحامي ويحرر نفسه، بالإختصار، ليس من المحامي وحده، وإنما من لني والتاجر أيضاً. لكن قبل أن يصل إلى الباب، بادره التاجر قائلاً بصوت منخفض: «أيها السيد الوكيل القانوني». والتفت ك بوجه عابس. «لقد نسيت وعدك»، قال التاجر وقطعى انطلاقاً من مقعده نحو ك متولاً، «كنت تريد أن تقول لي سراً». «حقاً»، قال ك ونظر نظرة عابرة أيضاً إلى لني التي كانت تتطلع إليه باهتمام، «اسمع إذاً لكتن الأمر لم يعد سراً تقريباً. سأذهب الآن إلى المحامي كي أعزله». «يعزل»، صاح التاجر وقفز عن الكرسي وراح يدور في المطبخ رافعاً ذراعيه ويصبح مكرراً: «إنه يعزل المحامي». وأرادت لني أن تنهال على ك في الحال، لكن التاجر احترض طريقها فلكلمته بقضيتها. ثم جرت، وهي لازالت تقبض يديها، وراء ك.

لذلك كان قد سبّقها مسافة كبيرة. وكان قد دخل إلى حجرة المحامي حين لحقت به لني. وكان قد أوشك أن يغلق الباب وراءه، لكن لني، التي أبقيت مصراع الباب مفتوحاً بقدمها، أمسكته من ذراعه وهمت بسحبه. غير أنه ضغط معصمها بشدة بحيث اضطرت إلى تركه وهي تطلق زفراً. ولم تجرو على الدخول إلى الحجرة في الحال، لكن ك قفل الباب بالمنفاخ.

«إنني أنتظرك منذ مدة طويلة»، قال المحامي من الفراش، ووضع ورقة كان قد قرأها على ضوء شمعة على منضدة الليل الصغيرة، ووضع نظارة على عينيه، وحذج ك بنظره حادة. وبدلاً من أن يعتذر، قال ك: «سوف أنصرف ثانية بعد قليل». ولم يحصل المحامي بملحوظة ك لأنها لم تكن اعتذاراً، وقال: «في المرة القادمة لن أسمح لك بالدخول في هذه الساعة المتأخرة». «هذا يوافق رغبتي»، قال ك. ونظر المحامي إليه متسللاً. «أجلس»، قال، «لأنك ترغب في ذلك»، قال ك وسحب كرسياً إلى منضدة الليل الصغيرة وجلس. «بدا لي أنك قفلت الباب»، قال المحامي. «نعم»، قال ك، «كان ذلك بسبب لني». ولم يكن ينوي أن يتطرق بأحد. لكن المحامي سأله: «هل كانت لحوجة مرة أخرى؟». «لحوجة؟» سأله ك. «نعم»، سأله المحامي وهو يضحك، وأصابته نوبة سعال وبعد انتهاءها بدأ يضحك من جديد. «لابد أنك لاحظت إلهاجها؟» سأله وربت على يد ك التي كان هذا قد أنسدتها على منضدة الليل الصغيرة وهو شارد الذهن والتي سحبها الآن على وجه السرعة. «إنك لا تعلق أهمية كبيرة على هذا»، قال المحامي إذ لاذ ك بالصمت، «وهذا أفضل. وإلا كان علي ربما أن أعتذر لك. إنها غرابة من غرائب لني، وقد غفرتها لها، للمناسبة، منذ زمن طويل، وليس من شأنني أيضاً أن أتحدث عنها لو لم تقبل الباب الآن، إن هذه الغرابة، وأنت حقاً آخر من يجب علي أن أشرحها له، لكنك تنظر إلي مذهولاً هكذا، لذا أفعل

ذلك، إن هذه الغرابة تكمن في أن لني تجد معظم المدعى عليهم جمiliين. وهي تتعلق بهم جميعاً، وتحبهم جميعاً، كما أنه يبدو أن الجميع يحبونها؛ ولكنني تسلّيني تحدثني من ثم عن ذلك أحياناً إذا سمحت. إنني لست مندهشاً من الأمر كله كما يبدو أنك كذلك. وإذا كان لدى المرأة النظرة الصحيحة في هذا الخصوص، فإنه كثيراً ما يجد المدعى عليهم جمiliين حقاً. لكن هذا هو ظاهرة غريبة من ظواهر علوم الطبيعة على نحو ما. ولا يطراً طبعاً، كنتيجة للادعاء، مثلاً تغيير على الشكل واضح ومحدد بدقة. إن الأمر ليس كما في قضايا أخرى، معظمهم يبقى في طريقة حياتهم العادمة ولا تعوقهم المحاكمة جداً إذا كان لديهم محام ماهر يعني بأمرهم. ورغم ذلك فإن أولئك الذين يملكون خبرة في هذا يقدرون أن يتعرفوا على المدعى عليهم رجلاً رجلاً من بين العامة. بمَّ؟ سوف تسأل. وحوالي لن يرضيك. إن المدعى عليهم هم بالذات الأكثر جمالاً. ولا يمكن أن يكون الذنب هو الذي يجعلهم جمiliين، إذ - هكذا يجب عليّ أنا على الأقل بصفتي محامياً أن أتكلم - أنهم ليسوا مذنبين جميعهم، كما أنه لا يمكن أن يكون العقاب الم قبل هو الذي يجعلهم جمiliين، إذ لن يعاقبوا جميعهم، لا يمكن إذاً أن يكون السبب سوى القضية المقامة ضدهم والتي تلزمهם على نحو آخر. لكن يوجد بين الجمiliين جمiliون بشكل خاص أيضاً. غير أنهم جميعاً جمiliون، حتى بلوك، هذا الدودة البائسة».

كان لك، لما فرغ المحامي، متمالكاً نفسه تماماً. بل إنه كان قد أومأ برأسه للكلمات الأخيرة بشكل ملفت للنظر وأعطى هكذا لنفسه التصديق على رأيه القديم القائل بأن المحامي كان دائماً وهذه المرة أيضاً يبحث عن إلهائه بأخبار عامة لاتخض الموضوع، وصرف نظره عن السؤال الرئيسي عما قام به من عمل حقيقي من أجل قضية لك. ولاحظ المحامي ولا ريب أن

ك إنما قاومه هذه المرة أكثر من المعتاد، إذ أنه لاذ الآن بالصمت كي يعطي ك الإمكانية ليتكلم بنفسه، ثم سأله، إذ ظل ك صامتاً: «هل أتيت اليوم إلي بقصد معين؟». «نعم»، قال ك وحجب الشمعة بيده قليلاً كي يرى المحامي على نحو أفضل، «أردت أن أقول لك إنني اعتباراً من اليوم أسحب توكلبي منك». «هل أفهمك على نحو صحيح»، سأله المحامي، واعتدل في الفراش، واستند على الوسائل بإحدى يديه. «أظن ذلك»، قال ك الذي كان يجلس معتدلاً مشدود القادمة كأنه يقف بالمرصاد. «يمكنا أن نتحدث عن هذه الخطة أيضاً»، قال المحامي بعد برهة. «لم تعد خطة»، قال ك. «قد يكون»، قال المحامي، «لكن رغم ذلك لا ت يريد أن تتسرع في شيء». واستخدم صيغة «نحن»، وكأنه لا ينوي أن يترك ك حراً وكأنه يريد أن يظل على الأقل مستشاره، إذا لم يُسمح له أن يكون وكيله. «ما من شيء متسرع»، قال ك ونهض ببطء ووقف وراء كرسيه، «إن الأمر مدروس بروية وحتى ربما مدة أطول من اللازم. إن القرار النهائي». «إذاً فاسمح لي بعض كلمات وحسب»، قال المحامي، رفع اللحاف عنه وجلس على حافة السرير. كانت ساقاه ذات الشعر الأشيب ترتعشان من البرد. وطلب من ك أن يناؤله بطانية من على الكتبة. جلب ك البطانية وقال: «إنك تعرض نفسك للإصابة بالبرد بغير موجب إطلاقاً». «السبب هام بشكل كاف»، قال المحامي بينما راح يلف النصف الأعلى من جسمه باللحاف ثم ساقيه بالبطانية. «عملك صديقي وأنت أيضاً أصبحت بمور الوقت عزيزاً علي. أعترف بهذا صراحةً. ولا حياء من ذلك». ولم يلق هذا الكلام الحنون أي ترحاب من قبل ك، إذ اضطربت إيضاح أكثر تفصيلاً كان يود أن يتتجبه، وأربكه فوق ذلك، كما اعترف لنفسه بصراحة، وإن لم يكن هذا الكلام يقدر بحال من الأحوال أن يلغى قراره. «أشكرك على قصدك الودي»، قال، «كما أنتي أعترف أنك اهتممت بقضائي غاية الاهتمام قدر إمكانك وكما يدو لك

مفيدةً أي. لكنني اكتسبت في الفترة الأخيرة القناعة بأن هذا غير كاف. وطبعاً لن أحاول يوماً أن أفعلك برأيي، أنت الرجل الأكبر سنًا بكثير رائأك تر خبرة؛ وإذا كنت قد حاولت ذلك أحياناً من غير عمد، فاعذرني، لكن الموضوع هو، كما عبرت بنفسك، هام بشكل كاف، ومن الضروري حسب قناعتي التدخل في المحاكمة تدخلاً أشد بكثير مما حدث حتى الآن». «إني أفهمك»، قال المحامي، «لقد نفذ صبرك». «لم ينفذ صبري». قال لك مغناطساً بعض الشيء ولم يعد يتبه إلى كلماته كثيراً. «أثنى أنك لاحظت لدى زيارتي الأولى، عندما أتيت إليك مع عمي، أنني لم أكن مهتماً كثيراً بالمحاكمة؛ كنت أنساها كلّياً إذا لم يذكرني المرء بها عنوةً نوعاً ما. لكن عمي أصرّ على أن أوكلك في قضيتي، وقد فعلت ذلك مجاملةً له. وكان من شأن المرء الآن أن يتوقع أن تسهل المحاكمة عليّ أكثر من ذي قبل، إذ أن المرء ليوكل المحامي كي يتخلص من عبء المحاكمة بعض الشيء ويلقيه على عاتق هذا. أما ما حدث، فقد كان العكس. فما من يوم قبل ذلك كان لدى هموم كبيرة هكذا بسبب المحاكمة مثلما كان لدى منذ الوقت الذي تدافع فيه عنني. عندما كنت وحدي، لم أقم بشيء في قضيتي، لكنني لم أكن أكيد أحس بها، أما الآن فكان لدى وكيل، وكان كل شيء مهيأً لأن يحدث شيء ما، وبلا انقطاع وبتوتر متزايد كنت أنتظر تدخلك، لكن هذا لم يحدث. لقد تلقيت منك، والحق يقال، أخباراً مختلفة عن المحكمة، ربما لم يكن من شأنني أن أستطيع الحصول عليها من أحد غيرك. لكن هذا لا يمكن أن يكفيوني، إذا كانت المحاكمة تلخ عليّ الآن دائمًا أكثر، في الحفاء بمعنى الكلمة». وكان لك قد دفع الكرسي عنه ووقف منتصبًا وهو يضع يديه في جيبي سترته. «ابتداءً من نقطة ما في العمل»، قال المحامي بصوت منخفض وهدوء، «لا يعود يحدث شيء جديد جوهرياً. كم من أصحاب القضایا هم في مراحل من المحاكمات مشابهة وقفوا مثلك

أمامي وتحدثوا على نحو مماثل». «كان إذاً»، قال لك، «جميع هؤلاء المشابهين على حق مثلي. إن هذا لا ينقضني أبداً». «لم أرد بهذا أن أنقضك»، قال المحامي، «لكنني أردت أن أضيف أنني كنت أتوقع لديك قدرة على الحكم أكثر مما لدى الآخرين ولا سيما أنني أطلعتك على طبيعة المحكمة وعلى عملي أكثر مما أفعل عادة مع أصحاب القضايا الآخرين. وهأنذا يجب علي أن أرى أنك رغم كل شيء لاتثق بي على نحو كاف. إنك لاتسهل الأمر علي». كم يتذلل المحامي لك! دون أي مراعاة لكرامة المهنة، والتي هي ولا ريب حساسة أكثر ما تكون في هذه النقطة بالذات. ولماذا فعل هذا؟ فهو على ما يبدو محام مرهق بالعمل ورجل ثري فوق ذلك، ولم يكن بالإمكان أن يكون، مبدئياً، مهتماً بفقدان أجر أو خسارة موكل. وبالإضافة إلى ذلك كان معتل الصحة وكان عليه نفسه أن يكون حريصاً على أن يؤخذ منه عمل. ورغم ذلك كان يتثبت جداً بك. لماذا؟ هل كان اهتماماً شخصياً من أجل العم أم أنه كان يعتبر محاكمتك فريدة هكذا فعلاً ويأمل أن يتميّز بها إما من أجلك أو - لم يكن بالإمكان استبعاد هذه الإمكانيّة فقط - من أجل الأصدقاء لدى المحكمة؟ من وجده لم يكن يعرف شيء، مهما تفحصه لك دون اعتبار لشيء. وكان في وسع المرء أن يوشك على الظن بأنه إنما كان يتربّط، بوجه كثوم عمداً، تأثير كلماته. غير أنه فسر على ما يبدو صمتك تفسيراً لصالحك أكثر من اللازم إذ استطرد قائلاً: «ستكون قد لاحظت أن لي، صحيح، مكتباً كبيراً، لكنني لاأشغل معاونين. فيما مضى كان الأمر مغايراً، كان ثمة وقت يعمل فيه عندي عدد من الحقوقين الشباب، أما اليوم فإني أعمل بمفردي. من ناحية يتعلق هذا بتغيير عمل مكتبي بأن اقتصرت دائماً أكثر على محاكمات من نوع محاكمتك، ومن ناحية بالمعرفة المتزايدة عمقاً التي اكتسبتها من هذه المحاكمات. ولقد وجدت أنه لايجوز لي أن أترك هذا العمل لأحد، إذا لم

أشأ أن آثم في حق موكلتي والمهمة التي اضطاعت بها. لكن القرار بأن أقوم بنفسي بكل عمل كان له النتائج الطبيعية: اضطررت إلى رفض كل طلبات التوكيل ولم أستطع تلبية سوى الطلبات التي حزّت في نفسي بشكل خاص... وإنه ليوجد عدد كافٍ من المخلوقات، بل على مقربة تماماً، التي تنقض على كل كسرة أرمي بها جانباً. وفوق ذلك مرضت من فرط الإعياء. لكن رغم ذلك لا أندم على قراري، ومن الجائز أنه كان علي أن أرفض توكيلات أكثر مما فعلت، لكن أني تفرغت كل التفرغ للمحاكمات التي تولّيتها، فقد تبين أنه ضروري على أي حال وكوفئ بالتجاهلات. وذات مرة وجدت في كتاب معيناً بشكل جميل جداً عن الفرق بين التوكيل في المحاكمات العادلة والتوكيل في هذه المحاكمات. جاء هناك: هذا المحامي يقود موكله على شفارة إلى الحكم، أما ذاك فإنه يرفع موكله على كتفيه في الحال ويحمله إلى الحكم ودون أن ينزله إلى ما وراء ذلك. هكذا هو الحال. لكن الأمر لم يكن صحيحاً كل الصحة عندما قلت إنني لم أندم قط على هذا العمل الكبير. فعندما يساء تقديره كل الإساءة، كما في حالي، فإنني أندم تقريباً إذاً. بهذا الكلام نفذ صبرك أكثر مما اقتضى. وقد اعتنقت على نحو من الأنحاء أنه يستشفع من لهجة المحامي ماذا كان يتنتظره إذا ما تراجع، سوف يكون من شأن المماطلات أن تبدأ من جديد، والإشارات إلى الالتماس المتقدم، وإلى مزاج موظفي المحكمة المحتسنين، لكن أيضاً إلى الصعوبات الكبيرة التي تعرّض العمل. وبإيجاز، كل هذا المعلوم لحد السقم سوف يستخرج كي يخدعك بأعمال غير معينة ويعذّبه بتهديدات غير معينة. وكان يجب منع هذا نهائياً، لهذا قال: «ماذا تريد أن تفعل في قضيتي إذا احتفظت بالتوكيل». بل إن المحامي رضي بهذا السؤال المسيء وأجاب: «بأن أو أصل ما فعلته من أجلك». «كنت لأعلم ذلك»، قال لك، «لكن الآن كل كلمة أخرى هي زائدة عن اللزوم». «سوف أقوم بمحاولة أخرى»، قال

الحامى وكأن ما أثارك إنما يحدث له وليس لك. «إذ أنه لدى ظن بأنك لأنقري بالتقييم الخاطئ لمعونتي القضائية فحسب، وإنما بسلوكك الآخر أيضاً، بأن المرأة، رغم أنك مدعى عليه، إنما يعاملك معاملة حسنة أكثر من اللازم أو بتعبير أصح يعاملك بإهمال، ظاهرياً بإهمال. هذا الأخير أيضاً له سببه. كثيراً ما يكون من الأفضل أن يكون المرأة مكتبلةً بالأصفاد من أن يكون حراً. لكنني أريد أن أريك كيف يعامل مدعى عليهم آخرون، وربما يتسمى لك أن تأخذ من ذلك درساً. إذ أنني سأستدعي الآن بلوك، افتح الباب واجلس هنا إلى جانب منضدة الليل الصغيرة». «برغبة»، قال لك وفعل ما طلبها الحامى، للتعلم كان دائماً جاهزاً. لكن لكي يتقمى في كل حال من الأحوال، سأله: «لستك أخذت علمًا أنني أسحب توكيلى منك؟». «نعم»، قال الحامى، «لستك ما زلت تستطيع اليوم أن ترجع عن ذلك». واستلقى في الفراش ثانية وسحب اللحاف حتى الذقن واستدار نحو الحائط. ثم قرع الجرس.

في الوقت نفسه تقريراً مع نداء الجرس ظهرت لنى، وحاولت بنظرات سريعة أن تعلم ما حدث؛ لأنَّ كَ كان يجلس هادئاً عند سرير الحامى، بدا لها مداعاة للاطمئنان. وأوْمأت برأسها وهي تبتسم إلى كَ الذي راح يحدّق فيها. «احضرى بلوك»، قال الحامى. لكنها بدلاً من أن تحضره، تقدمت أمام الباب فقط ونادت: «بلوك! إلى الحامى!» ثم تسليت، على الأرجح لأنَّ الحامى ظل منكفاً نحو الحائط ولم يهتم بشيء، إلى وراء كرسي كَ. وراحت تصايقه بأن انحنى فوق مسند الكرسي أو تخللت شعره بأصابعها، لكن برقق شديد وحذر وداعبت خديه. وأخيراً حاول كَ أن يعوقها عن ذلك بأن أمسك إحدى يديها التي تركتها له بعد شيء من المقاومة.

كان بلوك قد حضر على الفور استجابة للنداء، غير أنه ظل واقفاً أمام

الباب وبدا أنه يفكر فيما إذا كان عليه أن يدخل. رفع حاجبيه إلى أعلى ونكس رأسه وكأنه يرهف السمع فيما إذا كان من شأن الأمر بالحضور إلى المحامي أن يتكرر. كان في مقدورك أن يحثه على الدخول، لكنه كان قد عقد العزم على أن يقطع علاقته نهائياً ليس بالمحامي وحده، وإنما بكل شيء كان هنا في المسكن، لذا لم يهد حراكاً. وكذلك لني لاذت بالصمت. لاحظ بلوك أن لا أحد يطردك على الأقل، ودخل على رؤوس أصحابه، متواتراً الوجه، ويداه متقلصتان وراء ظهره. ولم ينظر إلىك مطلقاً، وإنما اكتفى بالنظر دائماً إلى اللحاف العالي الذي لم يكن المحامي حتى يرى تحته، إذ كان قد دفع نفسه حتى التصق بالحائط. لكن هنا شمع صوته، إذ سأله: «بلوك هنا؟» سدد هذا السؤال إلى بلوك، الذي كان قد تقدم مسافة كبيرة، ضربة معنى الكلمة أصابته في صدره ثم ضربة أصابته في ظهره، فترنح وظل واقفاً وقد انحنى انحناء شديدة وقال: «في الخدمة». «ماذا تريدون؟» سأله المحامي، «إنك تأتي في وقت غير مناسب». «ألم أُنادِي؟» سأله بلوك نفسه أكثر مما سأله المحامي، ورفع يديه أمام وجهه للوقاية وكان متاهياً لأن يولي مسرعاً. «لقد نوديت»، قال المحامي، «ورغم ذلك تأتي في وقت غير مناسب». وبعد فترة توقف أضاف: «إنك تأتي دائماً في وقت غير مناسب». ومنذ أن تكلم المحامي، لم يعد بلوك ينظر إلى السرير، بل راح يتحقق في مكان ما في زاوية وينصب وحسب، وكأن رؤية المتكلم تعني الأ بصار أكثر من أن يكون في وسعه أن يحتمله. كما أن الاستماع كان عسيراً، إذ أن المحامي كان يتكلم باتجاه الحائط بل وبصوت منخفض وبسرعة. «هل تريدون سيادتكم أن أصرف؟» سأله بلوك. «أنت الآن هنا. أبق!» قال المحامي. وكان في وسع المرء أن يظن أن المحامي لم يلبِّ رغبة بلوك، وإنما قد هدده مثلاً بالضرب، إذ بدأ بلوك الآن يرتعش فعلاً. «كنت يوم أمس»، قال المحامي، «عند القاضي الثالث، صديقي، وحوّلت الحديث

تدريجياً إليك. هل تريـد أن تعرف ماذا قال؟». «أوه رجاء»، قال بلوك. وإذا لم يحب المحامي على الفور، كـرر بـلوك الرجاء مـرة أخرى وـانحنى كـأنـما يـ يريد أن يـجـثـو على رـكـيـتهـ. لكنـكـ صـاحـ بهـ هـنـاـ قـائـلاـ: «ماـذـاـ تـفـعـلـ؟» وإذا أرادـتـ لـنـيـ أنـ تـمـعـهـ منـ الصـراـخـ، أـمسـكـ أـيـضـاـ يـدـهاـ الثـانـيـةـ. وـلـمـ يـكـنـ ضـغـطـ الحـبـ هوـ الذـيـ يـمـسـكـهاـ بـهـ، كـمـاـ أـنـهاـ تـأـوـهـتـ مـارـاـ وـحـاـولـتـ أـنـ تـنـتـزـعـ يـديـهاـ مـنـهـ. لـكـنـ بـلـوـكـ تـلـقـىـ عـقـابـاـ عـلـىـ صـيـحةـكـ، إـذـ أـنـ المحـامـيـ سـأـلـهـ: «مـنـ هـوـ محـامـيكـ إـذـاـ؟»، «أـنـتـ سـيـادـتـكـمـ»، قالـ بـلـوـكـ. «وـمـنـ غـيرـيـ؟» سـأـلـ المحـامـيـ. «لـاـ أـحدـ غـيرـكـمـ»، قالـ بـلـوـكـ. «إـذـاـ لـاتـبـعـ أـحـدـاـ آخـرـ»، قالـ المحـامـيـ. وأـفـقـرـ بـلـوـكـ بـهـذاـ كـلـيـاـ، وـتـفـحـصـكـ بـنـظـرـاتـ غـاضـبـةـ وـهـرـأـسـهـ نـحـوـهـ فـيـ عـنـفـ. وـلـوـ تـرـجـمـ المرـءـ هـذـاـ التـصـرـفـ إـلـىـ كـلـمـاتـ، لـكـانتـ شـتـائـمـ مـقـدـعـةـ. مـعـ هـذـاـ إـلـنـسـانـ كـانـكـ يـرـيدـ أـنـ يـتـحـدـثـ وـذـيـاـ عـنـ قـضـيـةـ الشـخـصـيـةـ! «لـنـ أـزـعـجـكـ بـعـدـ الـآنـ»، قالـكـ وـقـدـ اـتـكـاـ بـظـهـرـهـ عـلـىـ الـكـرـسـيـ. «اجـثـ أوـ اـزـحـفـ عـلـىـ أـرـبـعـ، اـفـعـلـ مـاـ تـشـاءـ، وـلـنـ أـهـتـمـ بـذـلـكـ». لـكـنـ بـلـوـكـ كـانـ ذـاـ كـرـامـةـ، عـلـىـ الأـقـلـ إـزـاءـكـ، إـذـ أـنـهـ اـتـجـهـ إـلـيـهـ مـلـوـحاـ بـقـبـضـتـيـهـ وـصـاحـ بـأـعـلـىـ صـوتـ تـجـرأـ عـلـيـهـ قـرـبـ المحـامـيـ: «لـاـ يـجـوزـ لـكـ أـنـ تـتـكـلـمـ مـعـ هـكـذاـ، هـذـاـ غـيرـ مـسـمـوحـ بـهـ. مـاـذـاـ تـهـيـنـيـ؟ وـفـوـقـ ذـلـكـ هـنـاـ أـمـامـ السـيـدـ المحـامـيـ، حـيـثـ يـجـريـ تـحـمـلـ كـلـيـنـاـ، أـنـتـ وـأـنـاـ، شـفـقـةـ لـيـسـ إـلـاـ؟ لـسـتـ إـلـنـسـانـاـ أـفـضـلـ مـنـيـ، إـذـ أـنـكـ مـدـعـيـ عـلـيـهـ وـلـدـيـكـ أـيـضـاـ مـحـاكـمـةـ. لـكـنـ إـذـ كـنـتـ رـغـمـ ذـلـكـ مـازـلـتـ سـيـداـ، فـإـنـيـ سـيـدـ مـاـمـاـلـ، إـنـ لـمـ يـكـنـ أـكـبـرـ. كـمـاـ أـنـيـ أـرـيدـ أـنـ أـخـاطـبـ كـهـذاـ، وـبـالـذـاتـ مـنـ قـبـلـكـ. أـمـاـ إـذـ كـنـتـ تـعـتـبـرـ نـفـسـكـ مـمـيـزاـ بـأـنـهـ يـجـوزـ لـكـ أـنـ تـجـلسـ هـنـاـ بـهـدـوـءـ وـتـسـتـمـعـ بـهـدـوـءـ، فـيـ حـينـ أـنـيـ، كـمـاـ تـعـبـرـ، أـزـحـفـ عـلـىـ أـرـبـعـ، فـإـنـيـ أـذـكـرـكـ بـالـحـكـمـ الـقـدـيمـ: الـحـرـكـةـ خـيـرـ لـلـمـهـمـ مـنـ السـكـونـ، إـذـ مـنـ يـلـزـمـ السـكـونـ، يـكـنـهـ دـائـمـاـ، دـوـنـ أـنـ يـعـلـمـ، أـنـ يـكـونـ عـلـىـ كـفـةـ مـيزـانـ وـيـوـزنـ بـخـطـايـاهـ». وـلـمـ يـقـلـكـ شـيـئـاـ، بلـ رـاحـ يـنـظـرـ مـنـدـهـشـاـ وـحـسـبـ بـعـيـنـيـ ثـابـتـيـنـ إـلـىـ هـذـاـ إـلـنـسـانـ الـمـرـتـبـ. أـيـةـ تـغـيـرـاتـ طـرـأـتـ مـعـهـ فـيـ

الساعة الأخيرة وحدها! هل كانت المحاكمة هي التي رمته بمنتهٍ وبسراً ولم تدعه يدرك أين كان الصديق وأين كان العدو؟ ألم ير إذاً أن المحامي إنما كان يذله عمداً ولم يكن هذه المرة يرمي إلى شيء آخر سوى إلى أن يتبااهي بسطوته أمامك وربما إلى أن يخضع لك أيضاً بهذا؟ أما إذا كان بلوك غير قادر على معرفة ذلك، أو إذا كان يخاف المحامي خوفاً شديداً بحيث لم تقدر تلك المعرفة أن تساعدك في شيء، فكيف حدث أنه كان ولاريب حاذقاً هكذا أو جريعاً هكذا، حتى يخدع المحامي ويكتم عنه أنه قد ترك إضافة إليه محامين آخرين يعملون من أجله. ولماذا تجراً على أن يهاجمك، إذ كان هذا يقدر ولاشك على أن يوح بسره على الفور. لكنه تجراً أكثر، فقد ذهب إلى سرير المحامي وبدأ هناك أيضاً يشكو من لك وقال: «السيد المحامي، لقد سمعتم كيف تحدث هذا الرجل معى. يمكن للمرء أن يعدّ ساعات المحاكمة، وهو يريد منذ الآن أن يعطيوني دروساً مفيدة، أنا الرجل الذي يقف خمس سنوات في المحاكمة. بل إنه يشتمني. لا يعرف شيئاً ويشتمني، أنا الذي، بقدر ما تكفي قواي الواهنة، درست بدقة ما يطلبه حسن السلوك والواجب وتقاليد المحكمة». «لاتهم بأحد»، قال المحامي، «وافعل ما يبدو لك صحيحاً». «بكل تأكيد»، قال بلوك وكأنما يشجع نفسه، وجثنا تحت نظرة جانبية قصيرة قرب السرير، وقال: «ها أنا أقف على ركبتي، يا محامي». لكن المحامي لاذ بالصمت. وربت بلوك اللحاف بيده في حذر، وفي السكون الذي ساد الآن، قالت لبني وهي تتخلص من يديّك: «إنك تؤلمني. اتركني. سأذهب إلى بلوك». وذهبت وجلست على حافة السرير، وكان بلوك فرحاً للغاية بقدومها، وتسلل إليها في الحال بإشارات حيوية لكنها صامتة أن تشفع له لدى المحامي. كان في أشد الحاجة على ما يبدو إلى ما لدى المحامي من أخبار لكن ربما لا لهدف سوى لكي يدع محامي الآخرين أن يفيدوا منها. وكانت لبني تعرف على الأرجح تماماً كيف يمكن

مواجهة المحامي، أشارت إلى يد المحامي وزمت شفتيها كما لقبلة. وفي الحال نفذ بلوك قبلة اليد وكررها مرتين أخرىين بناء على طلب لني. غير أن المحامي ظل صامتاً. فانحنت لني فوق المحامي، وتجلّى جمال قدّها إذ مدّت جسدها هكذا، ومسحت، وهي منحنية انحناء شديدة فوق وجهه، على شعره الأشيب الطويل. وأخيراً انترع هذا جواباً منه. «إنني أتردد في إعلامه الأمر»، قال المحامي، وشوهد كيف هز رأسه قليلاً، ربما كي يحظى أكثر بضغط يد لني. وأنصت بلوك مطأطئ الرأس كائناً يخالف بهذا الإنصات أمراً من الأوامر. «لماذا تتردد إذا؟» سالت لني. وكان لدى ك إحساس بأنه إنما يسمع حواراً جرى التمرير على تمثيله، وكثيراً ما كان قد رُدّد وسوف يُردّد كثيراً، ولم يقدر على عدم فقدان جدته سوي بالنسبة إلى بلوك. «كيف تصرف اليوم؟» سأل المحامي بدلاً من أن يجيب. وقبل أن تعرب لني عن رأيها، نظرت إلى بلوك وراقبته برهة وهو يرفع يديه وإليها ويفركهما متوسلاً. وأخيراً أومأت برأسها جادة والتفت إلى المحامي وقالت: «كان هادئاً ومجدداً». تاجر كبير السن، رجل ذو لحية طويلة يتضيق إلى صبيحة صغيرة من أجل شهادة لصالحة. مهما كان لديه من أغراض خفية، فإن ما من شيء كان يمكنه أن يثيره في أعين الغير. لقد كاد يوشك على أن يهين الناظر. ولم يفهم ك كيف أمكن للمحامي أن يفكّر بكسبه عن طريق هذا العرض. وإذا هو لم يكن قد طرده من قبل، لكان قد توصل إلى ذلك بفضل هذا المشهد. هكذا كانت تؤثر إذا طريقة المحامي، التي لم يكن ك لحسن الحظ قد تعرض لها طويلاً جداً، بأن الموكِل نسي أخيراً العالم بأسره وراح يأمل بأن يجرّ نفسه على طريق الضلال هذا وحده إلى نهاية المحاكمة. لم يعد هذا موكلًا بعد، لقد كان كلب المحامي. ولو أمره هذا أن يزحف تحت السرير كما إلى وجّه الكلب وينبع من هناك، لفعل ذلك بلذة. وراح ك يستمع متفرّضاً ومتأملاً، وكائناً كان مكلفاً بأن يتلقى بدقة كل ما قيل هنا ويقدم تبليغاً عنه إلى جهة

أعلى ويضع فيه تقريراً. «ماذا فعل طوال اليوم؟» سأل المحامي. «حتى لا يزعجي في عملي»، قالت لني، «حيسته في غرفة الخادمة، حيث يقيم عادة على أية حال. ومن الطاقة كنت أستطيع من وقت إلى آخر أن أ Finch ما يفعل. كان يركع دائماً على السرير، وكان قد وضع الأوراق التي أعرتها له على حافة الشباك وراح يقرأ فيها. وقد أحدث هذا انطباعاً طيباً في نفسي؛ إذ أن النافذة لاتؤدي سوى إلى مسقط هوائي ولا تكاد تعطي ضوءاً. أن بلوك كان يقرأ رغم ذلك، بين لي كم هو مطبع». «يسريني أن أسمع هذا»، قال المحامي، «لكن هل كان يقرأ بهم أيضاً؟» وكان بلوك أثناء هذا الحديث يحرك شفتيه بلا انقطاع، ويصوغ على ما يدرو الأجوية التي كان يأملها من لني. «لا أستطيع طبعاً»، قالت لني، «أن أجيب على ذلك إجابة قاطعة. لقد شاهدت على كل حال أنه كان يقرأ بعنابة. كان طوال اليوم يقرأ الصفحة نفسها ويحرك إصبعه أثناء القراءة على طول الأسطر. وكلما كنت أنظر إليه، كان يطلق تنهيدة كأن القراءة تتعبه. إن الأوراق التي أعرتها له هي عسيرة الفهم على الأرجح». «نعم»، قال المحامي، «إنها هكذا والحق يقال. كما أني لأظن أنه يفهم منها شيئاً. وليس عليها سوى أن تعطيه فكرة عن صعوبة الكفاح الذي أمارسه دفاعاً عنه. ومن أجل من أمارس هذا الكفاح العسير؟ من أجل - يكاد يكون مضحكاً أن ألفظه - من أجل بلوك. وعليه أن يتعلم أن يفهم ماذا يعني هذا أيضاً. هل درس بلا انقطاع؟». «بلا انقطاع تقريراً»، قالت لني، مرة واحدة فقط طلب مني ماء للشرب. فناولته كأساً من خلال الطاقة. وثم أخرجته في الساعة الثامنة وأعطيته شيئاً يأكله». ونظر بلوك إلى كنظرة جانبية عابرة كأنما يحكى عنه هنا فخاراً ولابد أن يؤثر في ك أيضاً. وبدا عليه الآن أنه يملك آمالاً طيبة، وراح يتحرك بحرية أكثر ويترجح على ركبتيه يمنة ويسرة. لذا كان واضحاً أكثر كيف جمد تحت كلمات المحامي التالية: «إنك تمدحينه»، قال المحامي،

«لكن هذا بالذات يجعل من الصعب عليَّ أن أتكلم. إذ أن القاضي لم يد رأياً حسناً، لا في بلوك نفسه ولا في محاكمته». «ليس رأياً حسناً؟» سالت لني. «كيف يمكن هذا؟» ونظر إليها بلوك في لهفة، كأنما لا يستبعد عليها القدرة على أن تحول الآن الكلمات التي نطق بها القاضي منذ مدة طويلة إلى كلمات لصالحه. «ليس حسناً»، قال المحامي، «بل لم يعجبه عندما بدأ تحدث عن بلوك. (لاتتحدث عن بلوك) قال، (إنه موكلني)، قلت. (إنك تدع نفسك تُستغلّ)، قال. (لا اعتبر محاكمته خاسرة)، قلت. (إنك تدع نفسك تُستغلّ)، كرر قائلاً. (لا أظن ذلك)، قلت. (إن بلوك في المحاكمة مجدٌ دائمًا يجري وراءها. يكاد يسكن عندي كي يتبعها باستمرار. مثل هذا الدأب لا يجد المرء دائمًا. لا ريب أنه شخصياً غير مربيع، لديه آداب سلوك قبيحة وهو قادر، لكن لاغبار عليه من ناحية المحاكمة). قلت لا غبار عليه، وقد بالغت عمدًا. فقال القاضي: (إن بلوك لا يعدو أن يكون ماكراً. وقد جمع كثيراً من الخبرات ويعرف أن يماطل المحاكمة. لكن جهلة مازال أكبر بكثير من مكره. ماذا من شأنه أن يقول، إذا ما علم أن محاكمته لم تبدأ بعد مطلقاً، وإذا ما قيل له إنه حتى إشارة الحرس إذاناً بيده المحاكمة لم تُعط بعد. اهدأ يا بلوك)، قال المحامي، إذ أن بلوك بدأ في هذه اللحظة ينهض على ركبتيه مهتزتين وأراد على ما ييدو أن يتسم بإصاحاً. وكانت هذه المرة الأولى الآن التي توجه فيها المحامي بكلمات مستفيضة إلى بلوك مباشرة. ويعينين متعبتين نظر مرة على غير هدى ومرة إلى بلوك، الذي عاد، تحت هذه النظرة، إلى الجثو ببطء. «ليس لأقوال القاضي هذه أهمية بالنسبة إليك»، قال المحامي، «فلا تفزع عند كل كلمة. وإذا ما تكرر هذا، فلن أبوح لك بشيء بعد الآن إطلاقاً. لا يمكن للمرء أن يبدأ جملة، دون أن تنظر إليه وكأن الحكم النهائي يأتي الآن. فلتخرج هنا أمام موكلني! كما أنك تزعم الثقة التي يضعها فيَّ. ماذا تريد إذًا؟ إنك مازلت حيَاً، مازلت

في حمايتي. إنه خوف لا معنى له! لقد قرأت في مكان ما أن الحكم النهائي في بعض الحالات يأتي من حيث لا يدري من فم ما في وقت ما. مع تحفظات كثيرة هنا والحق يقال صحيح. لكن الصحيح أيضاً هو أن خوفك يقرضني وأنتي أرى في ذلك نقصاً في ثقتك الضرورية. ماذا قلت إذ؟! لقد نقلت أقوال قاض. إنك تعلم أن مختلف الآراء تتراكم حول المحاكمة إلى درجة كثيفة لا يمكن النفاذ إليها. هذا القاضي مثلاً يفترض بهذه المحاكمة وقتاً آخر غير الذي أفترضه. خلاف في الرأي، ليس أكثر. في مرحلة معينة من مراحل المحاكمة تُعطى إشارة جرس طبقاً لتقليد قديم. وحسب رأي هذا القاضي تبدأ المحاكمة بهذه الإشارة. ولا أستطيع الآن أن أقول لك كل شيء يعارض هذا، كما أنه ليس من شأنك أن تفهمه، حسبك أن الكثير يعارضه». مرتبكاً تخلل بلوك بأصابعه فراء سجادة السرير، فقد أنساه لبرهة خوفه نتيجة أقوال القاضي خصوصه الذليل هو إزاء المحامي، وأصبح لا يفكر سوى في نفسه وراح يدبر كلمات القاضي في كل الجهات «بلوك»، قالت لني بلهجة محذرة وساحتها من ياقه سترته إلى أعلى قليلاً، «اترك الفراء الآن واستمع إلى المحامي».

البيت

دون أن يربط بهذا بادئ الأمر قصداً معيناً، كان كـ قد حاول في مناسبات مختلفة أن يعلم أين هو مقر الدائرة الذي صدر منها التبليغ الأول في قضيته. وقد علم ذلك دون صعوبات، فكل من تيمورلي وفولفارت ذكر له ردّاً على سؤاله الأول رقم المبني بالضبط. وفي ما بعد أكمل تيمورلي الاستعلام وهو يتسم ابتسامة كانت دائماً جاهزة لديه عند خطط سرية لا تقدم له من أجل إبداء رأي خبراء فيها، بأن ادعى أن هذه الدائرة بالذات لا تملك أية قيمة، ولا تنطق سوى بما تكفل به، وليس سوى الهيئة الخارجية للنيابة العامة الكبيرة نفسها، لكن هذه لا سبيل إليها بالنسبة لأصحاب القضايا. وقال إنه إذا ما رغب المرء في شيء من النيابة العامة - يوجد طبعاً رغبات كثيرة، غير أنه ليس من الحكمة دائماً التعبير عنها - فإنه يجب على المرء حقاً أن يتوجه إلى الدائرة التابعة المذكورة، لكن لا يصل المرء بنفسه إلى النيابة العامة الحقيقة ولا يوصل رغبته إلى هناك في أي وقت كان.

كان كـ يعرف طبيعة الرسام، لذا فإنه لم يعارض، كما أنه لم يستعمل أكثر، وإنما أوّلأ برأسه وحسب وأخذ علمأ بما قيل. وبذاته مرة أخرى، كما حدث غالباً في الفترة الأخيرة، أن تيمورلي، بقدر ما يتعلق الأمر بتعذيب،

إنما قد حل محل الحامي جداً. ولم يكن الفرق يكمن سوى في أن كـ لم يكن تحت رحمة تيتووريـ كثيراً وفي مقدوره، متى شاء، أن يتخلص منه دون اعتبار، كما أن تيتووريـ كان متبسطاً في الحديث للغاية، لا بل ثرثراً وإن كان ذلك سابقاً أكثر مما هو الآن، وأخيراً أن كـ كان يستطيع من طرفه أن يعذب تيتووريـ.

وهذا ما فعله أيضاً في هذه المسألة، وراح كثيراً ما يتحدث عن ذلك البيت بلهمجة تنتـ عن أنه يكتـ شيئاً عن تيتووريـ، كأنـا أقام علاقات مع تلك الدائرة لكنـ كأنـا لم تنتـ إلى حدـ يمكنـ معه أنـ تعلـ دون خطر، أما إذا حاولـ تيتووريـ أنـ يحيـ على الإدـاء بـعـلـومـاتـ أكثرـ تقـصـيلاًـ، فإنـ كـ كانـ يحرـلـ وجهـةـ الحديثـ فـجـأـةـ ولمـ يكنـ يـعودـ يـتـحدـثـ عنـ ذـلـكـ فـتـرـةـ طـوـيـلـةـ. كانـ يـفـرـحـ بمـثـلـ هـذـهـ النـجـاحـاتـ الصـغـيرـةـ، ومنـ ثـمـ كانـ يـظـنـ أنهـ يـفـهـمـ أكثرـ بـكـثـيرـ هـؤـلـاءـ النـاسـ منـ مـحـيـطـ الـحـكـمـةـ، وأـصـبـحـ فيـ مـقـدـورـهـ أـنـ يـلـعـبـ معـهـ، وـيـوـشـكـ أـنـ يـدـخـلـ نـفـسـهـ بـيـنـهـمـ، يـحـصـلـ عـلـىـ الأـقـلـ لـبرـهـةـ عـلـىـ الصـورـةـ الشـامـلـةـ الـأـفـضـلـ التـيـ كـانـواـ يـقـفـونـ عـلـيـهـاـ وـالـتـيـ أـتـاحـتـهاـ لـهـمـ إـلـىـ حدـ ماـ الـدـرـجـةـ الـأـوـلـىـ لـلـمـحـكـمـةـ. ماـذـاـ يـهـمـ إـذـاـ مـاـ قـدـ أـخـيرـأـ عـمـلـهـ هـنـاـ فـيـ الـأـسـفـ؟ـ فـهـنـاكـ كـانـ مـازـالـ ثـمـةـ إـمـكـانـيـةـ لـلـإـنـقـاذـ، لـمـ يـكـنـ عـلـيـهـ سـوـىـ أـنـ يـنـدـسـ فـيـ صـفـوـفـ هـؤـلـاءـ النـاسـ، فـهـمـ إـذـاـ لـمـ يـكـونـواـ، بـسـبـبـ ضـعـفـ مـرـاتـبـهـمـ أوـ لـأـسـبـابـ أـخـرىـ، قـدـ تـمـكـنـواـ مـنـ مـسـاعـدـةـ كـ فـيـ مـحـاـكـمـتـهـ، فـإـنـهـ كـانـ فـيـ وـسـعـهـمـ أـنـ يـقـبـلـهـ وـيـخـبـئـهـ، لـاـ بـلـ لـمـ يـكـنـ فـيـ وـسـعـهـمـ أـنـ يـمـتـنـعـواـ، إـذـاـ مـاـ تـدـبـرـ كـلـ شـيءـ بـرـوـيـةـ وـعـلـىـ نـحـوـ كـافـ وـنـقـدـهـ سـرـاـ، عـنـ أـنـ يـخـدـمـهـ بـهـذـهـ الطـرـيقـةـ، وـلـاسـيـماـ تـيـتوـوريـ، الـذـيـ أـصـبـحـ الـآنـ أـحـدـ مـعـارـفـ الـقـرـيبـينـ وـمـحـسـنـاـ إـلـيـهـ.

منـ مـثـلـ هـذـهـ الـآـمـالـ وـمـاـ يـشـبـهـ ذـلـكـ لـمـ يـكـنـ كـ يـعـيشـ كـلـ بـوـمـ مـثـلاـ، بـعـامـةـ كـانـ مـازـالـ يـبـتـرـ بـدـقـةـ وـخـذـلـ أـنـ يـتـجـاهـلـ أوـ يـتـخـطـىـ أـيـةـ صـعـوبـةـ، لـكـنـهـ

كان أحياناً - كانت في الغالب حالات من الإعياء التام في الأمسى بعد العمل - يأخذ عزاء من وقائع اليوم الأقل أهمية والمنطوية على أكثر المعاني بالإضافة إلى ذلك. من ثم كان يرقد في العادة على كتبة مكتبه - لم يعد يستطيع مغادرة مكتبه دون أن يستريح على الكتبة طوال ساعة - وراح يضيق ملاحظة إلى ملاحظة في خياله. ولم يكن يقتصر كل الاقتصار على الناس ذوي الصلة مع المحكمة، هنا أثناء الوسن كانوا يتذجون جميعهم، وكان من ثم ينسى عمل المحكمة الكبير، كان كأنه المدعى عليه الوحيد وجميع الآخرين كانوا يتراحمون مثل موظفين وحقوقين في مرات مبني المحكمة، حتى أن أكثرهم بلادة كانوا يخفضون ذوقونهم إلى صدورهم، ويزمرون شفاههم، وينظرون نظرية جامدة وكأنما يتأملون وهو يملكون إحساساً بالمسؤولية. ودائماً كان مستأجرو السيدة غروباخ يظهرون من ثم كمجموعة واحدة، كانوا يقفون معاً برؤوس متقاربة وأفواه مفتوحة مثل جوقة تشکو. كان بينهم كثيرون من غير المعروفين، إذ أنك لم يهتم منذ فترة طويلة بشؤون النزل أدنى اهتمام. لكن بسبب وجود كثيرين من لا يعرفهم لم يكن من المريح له أن يتعامل مع المجموعة عن كثب، لكن الأمر الذي كان عليه أن يفعله أحياناً عندما كان يبحث هناك عن الآنسة بورستن. مرت مثلاً بعينيه مروراً سريعاً على المجموعة وفجأة لمعت نحوه عينان غريبتان عليه كلياً وأوقفتا. لم يعثر على الآنسة بورستن، لكنه إذ بحث من ثم مرة أخرى كي يتفادى كل خطأ، وجدها في وسط المجموعة تماماً، وقد طوقة بذراعيها رجلين كانوا يقفن إلى جانبها. وقد أثر فيه هذا تأثيراً قليلاً بشكل لانهائي، وذلك على وجه الخصوص لأن هذا المنظر لم يكن شيئاً جديداً، وإنما الذكرى التي لاتمحى لصورة شاطئ الاستحمام، التي كان قد رآها مرة في غرفة الآنسة بورستن. وعلى كل حال أبعد هذا المنظر ك عن المجموعة وإن كان أيضاً قد عاد إلى هنا مراراً، فإنه راح الآن يطوي مبني

الحكمة مشياً بخطوات طويلة ويتجول في طولها وعرضها. كان يعرف كل مكان وكل حجرة خير معرفة، مرات ضائعة لا يمكن أن يكون قد رأها فقط، بدت له مألوفة كأنها كانت مسكنه دائمًا وأبدًا، تفاصيل راحت المرة تلو المرة تنضغط في دماغه بوضوح مؤلم أشد الألم، أجنبي مثلاً كان يتمشى في ردهة، كان يرتدي ملابس تماثل ملابس مصارع ثيران، الخصر محزز كأنما يسكاكين، سترته القصيرة جداً التي تلفه وتشدّه، كانت تتالف من دانتيلاً ضاربة للصفرة غليظة الحيوط، وهذا الرجل ترك ك، دون أن يوقف سيره لبرهة، ينظر إليه مندهشاً بلا انقطاع. محني الظهر راح ك يسترق الخطى حوله وينظر إليه مندهشاً بعينين مفتوحتين بجهد. كان يعرف كل رسوم الدانتيلاً وكل الأهداب الناقصة وكل اهتزازات السترة الصغيرة، ورغم ذلك لم يكن قد شبع من النظر. بل إنه كان قد شبع من النظر منذ فترة طويلة أو الأكثر صحة إنه لم يكن يريد فقط أن يرى الأمر، لكن هذا لم يتركه. «أي تنكر تقدم البلاد الأجنبية!» فكر وفتح عينيه أكثر. وظل في صحابة هذا الرجل حتى ألقى بنفسه على الكببة وضغط وجهه في الجلد.

سفرة إلى الأم

فجأة لدى طعام الغداء خطر له أن عليه أن يزور والدته. وها إن الريبع قد أوصى أن ينقضى وبهذا العام الثالث منذ أن لم يرها. كانت قد طلبت منه آنذاك أن يأتي إليها في عيد ميلاده، وكان أيضاً رغم بعض العقبات قد لبى هذا الطلب، حتى أنه كان قد قطع لها العهد بأن يمضي لديها كل عيد ميلاد له، لكنها قد مضى عامان لم يف فيهما بعهده. غير أنه لقاء ذلك أراد الآن ألا يتنتظر لغاية عيد ميلاده، رغم أن هذا كان بعد أربعة عشر يوماً، وإنما أن يسافر على الفور. صحيح أنه قال لنفسه إنه لا يتوافر سبب مخصوص لسفره الآن بالذات، على العكس، إن الأخبار التي كان يحصل عليها بانتظام كل شهرين من ابن خالة له كان يملك في تلك المدينة الصغيرة محلاً تجارياً ويدير النقود التي كان يرسلها من أجل والدته، كانت مطمئنة أكثر مما كانت في أي وقت سابق. صحيح أن بصر الوالدة كان في طور الانطفاء، لكنه كان حسب أقوال الأطباء يتوقع هذا منذ أعوام، ومقابل ذلك كانت حالتها الصحية فيما عدا ذلك أفضل، وكانت عدة أمراض شيخوخة قد خفت بدلًا من أن تشتد، على الأقل تناقصت شكوكها. وحسب رأي ابن الخالة ربما كان هذا يتعلق بكونها منذ السنوات الأخيرة - كان أنه قد لاحظ لدى زيارته بنفسه كارهة تقريباً دلائل خفيفة

على ذلك - قد أصبحت ورعة على نحو مفرط. وكان ابن الحالـة قد وصف في رسالة بشكل جلي للغاية كيف أصبحت المرأة العجوز، التي كانت في ما مضى لا تستطيع أن تتحرك سوى بصعوبة ومشقة، توسع الآن خطاهـا على نحو جيد وهي تتعلق بذراعهـا عندما يقودها إلى الكنيسة أيام الأجدـ. وكان يجوز لــك أن يصدق ابن الحالـة هذا، إذ أنه كان في العادة شديدـ الحوف وكان يبالغ في تقاريرهـ في وصف السـيء أكثر مما يبالغ في وصفـ الجيدـ.

لكن مهما كان الأمرـ، كان لكـ قد قـرـرـ الآـنـ أنـ يـسـافـرـ؛ كانـ مؤـخـراـ قدـ وـجـدـ فيـ نـفـسـهـ شيئاـ غـيـرـ سـارـ، بعضـ النـزـوـعـ إـلـىـ التـوـجـعـ، مـطـمـحـاـ وـاهـيـاـ بالـاسـتـسـلامـ لـجـمـيعـ رـغـبـاتـهـ...ـ وـالـآنـ فـيـ هـذـهـ الحالـةـ كـانـتـ هـذـهـ العـادـةـ السـيـئـةـ تـخـدـمـ عـلـىـ الـأـقـلـ عـرـضاـ حـمـيدـاـ.

تقدـمـ إـلـىـ النـافـذـةـ كـيـ يـجـمـعـ أـفـكـارـهـ بـعـضـ الشـيـءـ، ثـمـ دـعـاـ حـالـاـ لـرـفعـ الطـعـامـ، وأـرـسـلـ الـخـادـمـ إـلـىـ السـيـدـةـ غـرـوـبـاخـ كـيـ يـعـلـمـهـاـ بـسـفـرـهـ وـيـحـضـرـ حـقـيـقـيـةـ الـيدـ الـتـيـ يـرـجـىـ منـ السـيـدـةـ غـرـوـبـاخـ أـنـ تـضـبـ فـيـهـاـ مـاـ يـدـوـ لـهـ ضـرـورـيـاـ، ثـمـ أـعـطـيـ السـيـدـ كـيـنـهـ بـعـضـ مـهـامـ الـعـلـمـ لـفـتـرـةـ غـيـابـهـ، وـلـمـ يـكـدـ يـنـزـعـ هـذـهـ المـرـةـ مـنـ أـنـ السـيـدـ كـيـنـهـ فـيـ عـادـةـ سـيـئـةـ أـصـبـحـتـ دـأـبـاـ، تـلـقـيـ الـمـهـامـ بـوـجـهـ مـوـجـهـ إـلـىـ الـجـانـبـ كـائـنـاـ يـعـرـفـ تـامـ الـعـرـفـ مـاـذـاـ عـلـيـهـ أـنـ يـعـمـلـ وـلـاـ يـتـحـمـلـ هـذـاـ التـكـلـيفـ سـوـيـ رـسـميـاـ، وـذـهـبـ لـكـ أـخـيـرـاـ إـلـىـ الـمـدـيرـ. وـعـنـدـمـاـ التـمـسـ مـنـ هـذـاـ إـجازـةـ لـمـدةـ يـوـمـيـنـ، إـذـ يـتـوـجـبـ عـلـيـهـ أـنـ يـسـافـرـ إـلـىـ وـالـدـتـهـ، سـأـلـهـ الـمـدـيرـ طـبـعـاـ فـيـمـاـ إـذـاـ كـانـ الـوـالـدـةـ مـرـيـضـةـ مـثـلـاـ. «ـلـاـ»، قـالـ لـكـ دونـ إـيـضـاحـ آخـرـ. كـانـ يـقـفـ فـيـ وـسـطـ الـحـجـرـةـ وـقـدـ شـبـكـ يـدـيـهـ وـرـاءـ ظـهـرـهـ. وـرـاحـ يـفـكـرـ وـقـدـ جـقـدـ جـبـيـنـهـ. هلـ كـانـ قدـ تـسـرـعـ رـبـماـ فـيـ الـاسـتـعـدـادـاتـ لـلـسـفـرـ؟ـ أـلـمـ يـكـنـ مـنـ الـأـفـضـلـ الـبقاءـ هـنـاـ؟ـ مـاـذاـ كـانـ يـرـيدـ هـنـاكـ؟ـ هـلـ كـانـ يـرـيدـ أـنـ يـسـافـرـ بـدـافـعـ التـأـثـرـ مـثـلـاـ؟ـ وـبـدـافـعـ التـأـثـرـ

يُحتمل أن يفوت هنا شيئاً مهماً، فرصة لتدخل يمكن أن تجيء الآن كل يوم كل ساعة، بعد أن كانت المحاكمة قد هدأت على ما يبدو منذ أسابيع ولم يكن خبر محدد قد وصل إليه بالكاد؟ وأن يكون من شأنه أن يخيف المرأة العجوز، الأمر الذي لا يقصد طبعاً، لكنه يمكن أن يحدث بسهولة كبيرة ضد إرادته، حيث أن أموراً كثيرة كانت تحدث الآن ضد إرادته. والوالدة لم تكن تطلبه مطلقاً. في ما مضى كانت دعوات الوالدة تتكرر بانتظام في رسائل ابن الحالة، أما الآن فقد انقطعت منذ فترة طويلة. بسبب الوالدة لم يسافر إذا إلى هناك، هذا كان واضحاً. أما إذا كان قد سافر في أملٍ ما بسببه، فإنه كان مجئوناً بالكامل ومن شأنه أن يلقى هناك في اليس النهائي أجر جنونه. لكن كان كل هذه الشكوك لم تكن شكوكه، بل كأنما حاول ناس غرباء أن يأتوا بها إليه، ظل، وهو صاحب معنى الكلمة، على قراره أن يسافر. وفي هذه الأثناء كان المدير، مصادفةً أو ما كان أكثر احتمالاً مراعاةً مخصوصة إزاء ك، قد انحنى فوق جريدة، والآن رفع هو أيضاً عينيه ومدّ يده واقفاً إلى ك وتنى له، دون أن يطرح سؤالاً آخر، سفرة سعيدة.

ثم انتظر ك الخادم في مكتبه، وهو يتمشى جيئةً وذهاباً، وصدّ صامتاً تقريراً نائب المدير الذي دخل عدة مرات ليستعلم عن سبب سفرة ك، وأسرع، إذ حصل أخيراً على حقيقة اليد، على الفور هابطاً إلى العربية المستدعاة من قبل. وكان قد وصل إلى السلم، إذ ظهر في الأعلى في اللحظة الأخيرة المستخدم كوليتش، وفي يده رسالة بدئ بكتابتها، أراد على ما يبدو التماس توجيه من ك بخصوصها. صحيح أن ك أشار إليه بيده رافضاً، لكن بليداً كما كان هذا الإنسان ذو الرأس الكبير الأشقر، أساء فهم الإشارة وانطلق مسرعاً، ملوحاً بالورقة وهو يقوم بقفزات خطيرة على الحياة، وراء ك. وكان هذا ساخطاً على ذلك، بحيث أنه، إذ لحق به كوليتش على

السلم الخاجي، أخذ الرسالة من يده ومزقها. وإذا استدار لك بعد ذلك في العربية، كان كولييش، الذي كان مازال على الأرجح لم يقر بخطئه، يقف في المكان نفسه وينظر إلى العربية التي انطلقت، بينما سحب الباب إلى جانبه قبعته إلى أسفل. كان لك إذاً مازال أحد كبار موظفي المصرف، وإذا ما أراد انكار ذلك، فإن من شأن الباب أن يعارضه. بل إن الوالدة كانت تعتبره، رغم كل اعتراض، مدير المصرف، وهذا منذ أعوام. وفي رأيها لن يسقط، مهما كانت سمعته، في ما عدا ذلك، قد أصيّبت بضرر. وربما كانت علامة طيبة أنه بالذات قبل السفر تأكّد من أنه قد جاز له أن يتّزع من موظف، بل موظف كان ذا صلات مع المحكمة، رسالةً ومزقها دون أي اعتذار. لكن ما كان أحب إليه أن يفعله، لم يكن يجوز له أن يفعله، أن يصفع كولييش صفعتين قويتين على وجنتيه الشاحبتين المستديرتين.

حلم

يوزف ك رأى حلمًا:

كان يوماً جميلاً وأراد ك أن يتنزه. لكنه ما كاد يخطو خطوتين حتى أصبح في المقبرة. كانت هناك دروب اصطناعية جداً متعرجة على نحو غير عملي، لكنه انزلق على درب من هذا النوع كأنه فوق مياه جارفة في موقف معلق لا يتزعزع. وعن بُعد رأى نظره على تلة قبر حفر حديثاً أراد أن يتوقف عندها. وكانت هذه التلة تمارس إغراءً عليه وظن أنه لا يقدر أن يصل إليها بسرعة كافية لإطلاقاً. لكنه كان أحياناً لا يكاد يرى تلة القبر، كانت تحجب عنه برايات تتلوى وتتصطفق بقوة شديدة؛ لم يكن المرء يرى حاملي الرایات، لكن الأمر كان كائناً ثمة تهليل كثير يسود هناك.

وينما كان لايزال يوجه نظره بعيداً، رأى فجأة تلة القبر نفسها إلى جانبه على الدرب، لا بل وراءه تقريباً. وقفز على عجل بين الأعشاب. واذ كان الدرب تحت قدمه القافزة يواصل الانطلاق مسرعاً، فقد تمایل وارتمى على ركبتيه أمام تلة القبر تماماً. كان ثمة رجالان يقفان وراء القبر وهما يحملان بينهما شاهدةً في الهواء؛ وما كاد ك يظهر حتى غرزا الحجر في التراب فانتصب مثل حائط ثابت. وعلى الفور بز من شجيرة رجل ثالث عرفه ك في الحال فناناً. وكان لايرتدى سوى سروال وقميص زُرّ بشكل

رديء؛ على رأسه كان يرتدي طاقية من القطيفة، وفي يده كان يحمل قلم رصاص عاديًّا طفت منذ اقترابه يرسم به أشكالًا في الهواء.

بهذا القلم بدأ الآن في الأعلى على الحجر؛ وكان الحجر عاليًا جدًا، ولم يكن يتوجب عليه أن ينحني، لكن كان عليه أن يميل جسده إلى الأمام، إذ أن تلة القبر، التي لم يشاً أن يطأها، كانت تفصله عن الحجر. وهكذا وقف على أطراف قدميه واستند بيده اليسرى على سطح الحجر. وبحركة بارعة على نحو مخصوص تستوي له أن يخلق بهذا القلم العادي أحراقًا ذهبية؛ وكتب: « هنا يرقد... ». وظهر كل حرف نقىًّا وجميلاً، محفورًا بعمق وبذهب كامل. عندما كان قد كتب الكلمتين، عاد بنظره إلى ك، ولم يكدر ك، الذي كان متلهفًا كل التلهف على سير النقش، يهتم بالرجل، وإنما كان ينظر إلى الحجر وحده. ففعلاً استعد الرجل ثانية لمواصلة الكتابة، لكنه لم يستطع، كان ثمة عائق ما، ترك القلم يسقط واستدار نحو ك مرة أخرى. والآن نظر ك إلى الفنان بالمثل ولاحظ أن هذا كان في حيرة كبيرة دون أن يستطيع أن يقول سبب ذلك. كانت كل حيواناته السابقة قد تلاشت. وبهذا وقع ك أيضًا في حيرة؛ وتتبادل نظرات عاجزة؛ وكان ثمة سوء تفاهم شنيع لم يكن في مقدور أيٍّ منهما أن يزيله. وفي غير وقته بدأ الآن أيضًا ناقوس صغير من كيسة المقبرة يدق، لكن الفنان لوح يده المرفوعة، فانقطع صوت الناقوس. وبعد برهة بدأ يدق من جديد؛ هذه المرة على نحو خافت للغاية، ودون طلب خاص توقف في الحال؛ كان الأمر كأنما يريد الناقوس أن يجرب رنينه. وكان ك حزينًا للغاية على وضع الفنان وطفق ينتصب ونشعر باكيًا فترة طويلة وهو يغطي فمه بيديه. وانتظر الفنان حتى هدأ روع ك، ثم قرر، إذ لم يجد مخرجاً آخر، أن يواصل الكتابة مع ذلك. وكان الخط الصغير الأول الذي خطه خلاصًا بالنسبة إلى ك، لكن

الفنان لم يستطع خطه على ما يedo سوي كارها إلى أقصى درجة؛ كما أن الخط لم يعد جميلاً هكذا، وقبل كل شيء بدا أن ثمة نقصاً في الذهب، وقد امتد الخط شاحباً ومهتزّاً، لكن الحرف أصبح كبيراً للغاية. كان ي، قد اكتمل تقريباً، هنا داس الفنان غاضباً بإحدى قدميه في تلة القبر، بحيث أن التراب تطاير حوله إلى أعلى. وأخيراً فهمه لك؛ من أجل الاعتذار له لم يعد ثمة وقت؛ بكل أصابعه راح يحفر في التراب الذي لم ييد مقاومة تقريباً؛ وبدا كل شيء معدّاً. في الظاهر وحسب كانت قشرة أرض رقيقة قد أقيمت؛ وخلفها تماماً انفرجت حفرة كبيرة، ذات جدران شديدة الانحدار، غاص فيها لك وقد أداره على ظهره تيار خفيف. لكن بينما استقبلته في الأسفل الأعمق غير النقادة والرأس مازال موجهاً نحو الأعلى، انطلق في الأعلى اسمه بزخارف ضخمة فوق الحجر.

مبتهجاً من هذا المنظر أفق.

نهاية

عشية يوم عيد ميلاده الواحد والثلاثين - كانت الساعة تقارب التاسعة مساءً، وقت الهدوء في الشوارع - حضر رجلان إلى مسكن ك. كانوا شاحبين بدينين يرتدي كل منهما سترة طويلة وقبعة أسطوانية ثابتة على ما ييدو. بعد إجراء شكليات صغير عند باب المسكن بسبب الدخول الأول تكرر الإجراء الشكلي في نطاق أكبر أمام باب ك. دون أن تكون الزيارة قد أعلنت له، كان ك، وهو أيضاً يرتدي ملابس سوداء، ويجلس على كرسٍ بجوار الباب، وراح يلبس على مهل قفازاً جديداً شد على الأصابع جداً، كان في وضع من يتوقع ضيوفاً. نهض على الفور ونظر إلى الرجلين نظرة استطلاع. «أنتما إذاً معيتان لي؟» سأله. وأومأ الرجلان برأسيهما، وأشار أحدهما بالقبعة الأسطوانية في يده إلى الآخر. واعترف ك لنفسه أنه إنما كان يتوقع ضيوفاً آخرين. ذهب إلى النافذة وتطلع مرة أخرى إلى الشارع المظلم. كذلك جميع النوافذ تقريراً على الجانب الآخر للشارع كانت ماتزال مظلمة، والستائر في كثير منها مسدلة. في نافذة مضيئة من نوافذ الطابق كان طفلان صغيران وراء حاجز حديدي يلعبان مع بعضهما ويتلقسان بعضهما بأيديهما الصغيرة، غير قادرين بعد على التحرك من مكانيهما. «مثلين ثانويين كبيري السن يبعث المرء في سبيلي»، قال ك في

ذات نفسه وتطلع حوله ليتأكد من ذلك مرة أخرى. «يحاول المرء أن يقوى على بطريقة رخيصة». والتفت ك إليهما فجأة وسأل: «في أي مسرح تمثلان؟». «مسرح؟» سأل أحد الرجلين، وقد ارتجفت زاويتا فمه، الآخر مستشيراً. وتصرف الآخر مثل آخرين يكافح مع الجسم الجموج. «ليسا مهياً لأن يُسألوا»، قال ك لنفسه وذهب يحضر قبته.

وعلى السلم أراد الرجلان أن يشبكا ذراعيهما بذراع ك، غير أن ك قال: «في الشارع فقط، إنني لست مريضاً». لكن قبل الباب مباشرة شبكا ذراعيهما بذراعيه بطريقة لم يسبق لها قط أن مشى بها مع إنسان. أبقيا أكتافهما وراء كتفيه متتصبة بهما، ولم يلويا ذراعيهما، بل استخدماهما ليحيطا بهما ذراعي ك بطولهما كله، وفي الأسفال أمسكوا يدي ك بقبضة استعراضية متمرة لاتقاوم. وسار ك مشدود القامة بينهما، وأصبح ثلاثة يشكلون الآن وحدة كهذه بحيث أنه لو جرى تحطيم أحدهم لتحطموا جميعهم. كانت وحدة كما لا يمكن أن يشكلها سوى ما هو جماد تقريباً.

وتحت المصايح حاول ك كثيراً، مهما كان تحقيق ذلك صعباً لدى هذا الالتصاق الشديد، أن يرى مرافقيه بوضوح أكثر مما كان ممكناً في دُعَش حجرته. لعلهما معنياً أولاً، فكر وهو ينظر إلى لغدهما الضخم. وتقرز من نظافة وجهيهما. ورأى المرء بمعنى الكلمة اليدين المنظفة التي مسحت زوايا أعينهما وحكت شفتيهما العلويتين وتجاعيد الذقن.

وإذ لاحظ ك هذا، توقف، وبالتالي توقف الآخران أيضاً، كانوا عند حافة ميدان فسيح خال من الناس مزدان بحشائش وأزهار منسقة. «لماذا أرسلكم المرء أنتما بالذات!» نادى أكثر مما سأله. ولم يعرف الرجلان جواباً على ما يedo، وانتظرا بالذراع الطليقة المعلقة مثل مرضى، عندما يريد المريض أن يستريح. «لن أواصل السير»، قال ك على سبيل التجربة. ولم

يُكْنِي الرجلان بحاجة إلى أن يجيئا، كان يكفي ألا يرْخِيا أيديهما وحاولاً أن يرْفِعا كَمِ الموضع، لكن كَقاوم. «لن أحتاج بعد إلى كثير من الطاقة، سرف أستخدامها كلها الآن»، فكر. وخظر بياله الذباب الذي يسعى بأرجل مكسورة لاتزان نفسه عن الدبق. «سوف يكون لدى الرجلين عمل شاق».

أمّاهم من شارع منخفض ارتفت الآنسة بورستن درجًا صغيراً إلى الميدان. ولم يكن من المؤكّد كلياً أنها هي، لقد كان الشّبه كبيراً والحق يقال. لكن كَلم يكن مهتماً فقط فيما إذا كانت هي الآنسة بورستن على وجه اليقين، وأدرك في الحال فقط عدم جدوى مقاومته. لم يكن شيئاً بطوليَاً إذا قاوم، إذا سبّ للرجلين مصاعب، إذا حاول الآن في المقاومة أن يتمتع بآخر ومضة للحياة. وتحرك، وانتقل إليه نفسه شيء من الفرحة التي ستبها بهذا للرجلين. وقبلما الآن أنه حدد اتجاه الطريق وحدّده تبعاً للطريق الذي سلكته الآنسة أمّاهم، ليس للحاق بها مثلاً، وليس لأنّه كان يريد مثلاً أن يراها أطول مدة ممكنة، وإنما فقط لكي لا ينسى العضة التي تعنيها بالنسبة إليه. «الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أفعله الآن»، قال لنفسه وانتظام خطواته مع خطوات الآخرين أكّد أفكاره، «الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أفعله الآن هو أن أحافظ حتى النهاية على العقل المخطط بهدوء. كنت دائماً أسعى للدخول في العالم بعشرين يد فوق ذلك لهدف لا يقابل. وكان هذا خطأ، هل على الآن أن أبيّن أن حتى المحاكمة القائمة منذ عام لم تستطع أن تعلّمني، هل علىي أن أنتهي ثقيل الفهم غبياً؟ هل يجوز أن يقال عنّي أنتي في بداية المحاكمة أريد إنتهاءها والآن في نهايتها أريد أن أبدأها من جديد. لا أريد أن يقال هذا عنّي. وأنا شاكر أنتي أعطيت بهذا الطريق هذين الرجلين الأبلهين نصف الآخرين، وأنه ترك لي أن أقول لنفسي ما هو ضروري».

كانت الآنسة في هذه الأثناء قد انعطفت إلى شارع جانبي، غير أن ك استطاع أن يكون في غنى عنها واستسلم لمرافقه. واجتاز ثلاثة، الآن في تفاصيل تام، جسراً يغمره ضوء القمر، وأصبح الرجلان يستجيان الآن عن رضى لكل حركة صغيرة يقوم بها لك، وإذا التفت نحو السور قليلاً استداراً بما أيضاً إلى هناك بكامل جسميهما. كانت المياه المتألقة والمترجمة في ضوء القمر تنقسم حول جزيرة صغيرة تجمعت فوقها كميات من أوراق الشجر والشجيرات وكأنها خضرت حشرأ. تحتها كان ثمة طرق، غير مرئية الآن، مفروضة بالحصى، ذات مقاعد مريحة كان لك رب صيف قد استلقى عليها وتعدد. «لم أكن أريد في الحقيقة أن أتوقف عن السير»، قال لمرافقه وقد تملأه الخجل من طوابعيهما. وبدا أحدهما يوجه للآخر خلف ظهر لك لوماً خفيفاً بسبب التوقف الذي أسيء فهمه، ثم واصلوا السير.

واجتازوا بعض الشوارع الصاعدة التي كان رجال شرطة يقفون فيها أحياناً أو يسيرون، تارةً على بعد وثيرةً على قرب قريب. أحدهم ذو شارب كث، ويده على مقبض السيف، اقترب، وكأنما عمدأ، من المجموعة غير البعيدة كل البعد عن الشبهة. وتوقف الرجال، وبذا شرطي أنه بدأ يفتح فمه، وهنا سحب لك الرجلين إلى الأمام بقوة. ومارأ تلقت خلفه بحدり ليرى فيما إذا كان الشرطي لا يتبعهم؛ لكن إذ أصبح ثمة زاوية بينهم وبين الشرطي، بدأ لك يجري، واضطر الرجال أيضاً أن يجريا معه رغم ضيق تنفس شديد.

وهكذا خرجوا بسرعة من المدينة التي كانت من هذه الجهة تتصل بالحقول دون ما فاصل. كان ثمة مقلع صغير، مهجور ومفتر، يقع بالقرب من منزل مازال من منازل المدن كلياً. وهنا توقف الرجالان، سواء كان هذا

المكان هدفهمما منذ البداية أم كانا منهكـي القوى أكثر من أن يواصلـا السير. والآن تركـا الذي انتظرـا صامتـا، وخلـعا قبـعـيـهـما وجـفـقـا العـرـقـ من جـبـيـهـمـا بـمـنـدـيـلـيـ حـيـبـ، وـهـمـا يـسـتـطـعـانـ المـقـلـعـ. وـفـيـ كـلـ مـكـانـ كـانـ ضـوءـ الـقـمـرـ يـنـتـشـرـ بـطـبـيـعـيـتـهـ وـهـدـوـئـهـ اللـذـينـ لمـ يـعـطـيـاـ لـضـوءـ آخـرـ.

بعد تبـادـلـ بـعـضـ الشـكـلـيـاتـ تـعـلـقـ بـنـ عـلـيـهـ أـنـ يـقـومـ بـالـمـاهـ التـالـيـ، - بداـ أنـ الرـجـلـيـنـ قـدـ تـلـقـيـاـ المـاهـ بـلـاـ تـوزـيعـ - ذـهـبـ أـحـدـهـمـ إـلـىـ كـ وـخـلـعـ عـنـهـ السـتـرـةـ ثـمـ الصـدـيرـيـةـ وـأـخـيـرـاـ الـقـمـيـصـ. وـارـتـعـدـ كـ مـنـ الـبرـدـ لـإـرـادـيـاـ، فـأـعـطـاهـ الرـجـلـ خـبـطـةـ خـفـيـفـةـ مـهـدـهـةـ عـلـىـ ظـهـرـهـ. ثـمـ جـمـعـ الـمـلـابـسـ بـعـنـيـةـ مـثـلـ أـشـيـاءـ سـوـفـ تـسـتـعـمـلـ مـرـةـ أـخـرـيـ، وـلـمـ يـكـنـ أـيـضـاـ فـيـ أـقـرـبـ وـقـتـ. وـلـكـيـ لاـيـعـرـضـ كـ لـهـوـاءـ الـلـيـلـ الـبـارـدـ دـوـنـ حـرـكـةـ، تـأـبـطـ ذـرـاعـهـ وـتـمـشـيـ مـعـهـ جـيـةـ وـذـهـابـاـ، فـيـ حـيـنـ رـاحـ الرـجـلـ الـآخـرـ يـفـتـشـ المـقـلـعـ عـنـ مـوـضـعـ مـنـاسـبـ ماـ. وـعـنـدـمـاـ وـجـدـهـ، أـشـارـ بـيـدـهـ، فـأـوـصـلـ الرـجـلـ الـآخـرـ كـ إـلـىـ هـنـاكـ. كـانـ المـكـانـ قـرـبـ جـدارـ الـكـسـرـ، وـكـانـ ثـمـةـ حـجـرـ مـقـطـوـعـ. وـأـقـدـ الرـجـلـانـ كـ عـلـىـ الـأـرـضـ، وـأـسـنـدـاهـ إـلـىـ الـحـجـرـ، وـوـسـدـاـ رـأـسـهـ فـوـقـهـ. وـرـغـمـ كـلـ جـهـدـ بـذـلـاهـ، وـرـغـمـ كـلـ اـسـتـجـابـةـ أـظـهـرـهـاـ كـ لـهـمـاـ، ظـلـ وـضـعـهـ مـتـكـلـفـاـ لـلـغاـيـةـ وـغـيرـ جـدـيرـ بـالـتـصـدـيقـ. لـذـاـ فـقـدـ رـجـاـ أـحـدـ الرـجـلـيـنـ الـآخـرـ أـنـ يـنـرـكـ لـهـ وـحـدـهـ بـرـهـةـ إـرـقادـهـ، لـكـنـ بـهـذـاـ أـيـضـاـ لـمـ يـصـبـحـ الـأـمـرـ أـفـضـلـ. وـأـخـيـرـاـ تـرـكـاـ كـ فـيـ وـضـعـ لـمـ يـكـنـ حـتـىـ الـأـحـسـنـ مـنـ بـيـنـ الـأـوـضـاعـ الـتـيـ تـمـ التـوـصـلـ إـلـيـهـاـ مـنـ قـبـلـ. ثـمـ فـتـحـ أـحـدـ الرـجـلـيـنـ سـتـرـتـهـ وـتـنـاوـلـ مـنـ جـرـابـ مـعـلـقـ بـحـزـامـ مـشـدـودـ حـولـ الصـدـيرـيـةـ سـكـينـ جـزـارـ طـوـيـلـةـ رـفـيـعـةـ مـسـنـوـنـةـ مـنـ الـجـانـبـيـنـ، وـرـفـعـهـاـ إـلـىـ أـعـلـىـ وـفـحـصـ حـدـتـهـ فـيـ الـضـوءـ. وـمـرـةـ أـخـرـىـ بـدـأـتـ الشـكـلـيـاتـ الـكـرـيـهـ، أـحـدـهـمـ نـاـوـلـ الـآخـرـ السـكـينـ مـنـ فـوـقـ كـ، فـأـعـادـهـاـ الثـانـيـ مـرـةـ أـخـرـىـ فـوـقـ كـ. وـعـرـفـ كـ الـآنـ تـامـ الـعـرـفـةـ أـنـهـ كـانـ مـنـ وـاجـهـهـ أـنـ يـمـسـكـ بـنـفـسـهـ السـكـينـ حـيـنـ اـنـتـقلـتـ مـنـ يـدـ إـلـىـ أـخـرـىـ

هائمة فوقه، ويطعن نفسه بها. لكنه لم يفعل ذلك، بل أدار عنقه الذي كان لا يزال حراً طليقاً ونظر حوله. على نحو كامل لم يستطع أن يثبت جدارته، ولا يتولى عن السلطات كل عمل، وكانت مسؤولية هذا الخطأ الأخير تقع على عاتق الذي كان قد حرمه من بقية الطاقة اللازمة لذلك. ووافت نظراته على الطابق الأخير من البيت المتأخر للملعب. وكما يرق ضوء، انفوج هناك مصراعاً نافذة، وإنسان، ضعيف وتحيل في البعد والعلو، انحنى دفعة واحدة بعيداً إلى الأمام، ومدّ ذراعيه إلى أبعد. من كان؟ صديقاً؟ إنساناً طيباً؟ واحداً شارك؟ واحداً أراد أن يساعد؟ هل كان فرداً؟ هل كانوا جميعهم؟ هل كان ثمة مساعدة؟ هل كان يوجد اعترافات، كان المرء قد نسيها؟ بالتأكيد كان يوجد مثلها. حقيقة أن المنطق لا يتزعزع، لكنه لا يعارض إنساناً يريد أن يعيش. أين كان القاضي الذي لم يكن قد رأه قط؟ أين كانت المحكمة الموقرة التي لم يكن قد وصل إليها قط. رفع يديه وفرج ما بين أصابعه.

لكن على حلقوم ك أطبقت يداً أحد الرجلين، بينما أغمد الآخر السكين في قلبه وأدارها هناك مرتين. بعينين غائتين رأى ك كيف راح الرجال أمام وجهه تماماً مستندين إلى بعضهما بعضاً وجنة إلى وجنة يراقبان الحكم. «مثل كلب!» قال، لكن الأمر كان وكأنما الخجل يبقى بعده.

II - دراسات

١ - الحكم قبل المحاكمة

إذا^(*) وجد أي ثابت أساسي في طبيعة كافكا، فإنه هذا التناقض الذي لا يلغى بين الحاجة المئوس منها إلى علاقة والعجز عن إقامة علاقة، هذا العجز الذي لا يغلب، والذي يتفاقم أحياناً إلى رغبة في وحدة بلا وعي (يومية ١٩١٣/٧/١)، أو إلى خوف من الاتصال، من الانسياب إلى الطرف الآخر. فلا أعود وحيداً فقط (يومية ١٩١٣/٧/٢١)^(**). من هذا التناقض ينشأ لدى كافكا شعور الانفصام المتواصل. بعد أربع سنوات وقبل فسخ خطوبته الثانية مع فيليس باور كتب لها (بتاريخ ١٩١٧/١٠/١): تعرفي أن اثنين يتصارعان في داخلي... وعن مجرى الصراع أطلعت طوال خمس سنوات بالكلمة وبالصمت وبمزيج منهما. إن الازدواج الشخصي ينعكس في اليوميات والرسائل والأثار الفنية بشتى الأشكال: في الرسائل إلى فيليس في عامي ١٩١٥ و ١٩١٦ يقدم كافكا نفسه مختلف المرات طبيعة مزدوجة (أنا - هو)، مثلاً في البطاقة البريدية المؤرخة في ٢٧/٥/١٩١٥ من براغ: العزيزة فيليس، انظري، إنه يقول إنه خائف... للمناسبة لا أريد أن أقول إنه حالياً غير سعيد. في هذه الحالات تقوم الـ

(*) راجع قصة الحكم في المجلد الأول من «الأثار الكاملة»، ص ١٥ - ٣١.

(**) كل ما هو مطبوع بخط غامق هو استشهاد من كتابات كافكا (أ.و).

«أنا» بدور المسجل، «هو» يعني قسم الشخصية الحساس الذي يعاني. وفي اليوميات اللاحقة يصبح تقسيم «أنا - هو» صفة مميزة، بحيث أن ماكس برود جمع أقسام «هو» ونشرها في كتاب تحت هذا العنوان. في الآثار الفنية نجد الأزدواجية الشخصية الداخلية أصبحت موضوعية تمثل في أزواج من الشخصوص متناقضة. ففي مسودة الرواية الأولى التي كتبها كافكا، ولم تصلنا، كان أخان هما الشخصان الرئيسيان فيها. إنهم يصارعان بعضهما بعضاً، فيهاجر أحدهما إلى أمريكا، ويبقى الآخر في سجن في أوروبا. ويظهر الموضوع مرة أخرى في قصة قتل أخي (١٩١٧)، حيث يقتل العازب شمار المتزوج فيه دون سبب، رغم أنه يدوس أنه يحبه. وثمة أشكال أخرى من انقسام الى «أنا» في قصتي رسالة قصصية وفي الرواق.

وعندما يربط كافكا (في يومية ١٩١٢/١١) اسم جيورج باسمه^(*)، فإنه يجب القول هنا تقليداً: إن جيورج يمثل إسقاطاً لقطب الشخصية الذي يقبل على الحياة، ويبحث عن الاتصال، وينهى بالإخفاق نتيجة مواجهته مع شخص الوالد، في حين أن الصديق يعني كافكا العازب الهارب إلى وحدة داخلية بعيدة المثال، والذي يتهرب من المواجهة والاختبار، لكنه لقاء ذلك يستغنى عن التطور الإنساني للبلوغ، كما يلمح تعبير طفل هرم، وتتوضح قرباته النفسية الوثيقة مع جيورج عندما يأخذ عليه الوالد، من دون حق، بأنه إنما تردد في البلوغ. وهذا مأخذ يمكن أن يؤخذ على الصديق بحق...

لاتتضمن المشهد الأخير الذروة الظاهرية فحسب، وإنما يتضمن أيضاً نواة موضوع القصة: الحكم وتنفيذ الحكم. وقبل الحديث عن تناقض حيثيات الحكم، ثمة ملاحظة عن هوية الشخصوص: ما من شخص في القصة

(*) راجع المجلد الأول من «الآثار الكاملة»، ص ٤٦ - ٤٧ (أ.و).

ينطابق مع شخص واقعي. ولا حتى والده جيورج المتوفاة: لقد عاشت والدة كافكا أطول من ابنتها، لكن ما مات هو تمثيلها النفسي. وكما عرض كافكا في رسالة إلى الوالد، كانت الأم، بالنسبة إليه، قد توارت في وقت باكراً، بصفتها شخصاً مستقلأً، خلف شخص الوالد. إن الوالد في الحكم وجیورج متفقان، مع كل خلاف، في إدانة جيورج. إن جيورج لا يعترض على الحكم، وإنما يقوم بتنفيذـه في الحال، وذلك لأن هذا الحكم هو حكمه نفسه على نفسه. والاتفاق الضمني بين القاضي والمحكوم عليه يعتبر عنه أيضاً من خلال الفعل غير المتعمدي «يموت غرقاً»، والذي لا يعني فعلاً يتم عن وعي، وإنما هو حدث قدرـي. وإلى ذلك، فإن موت جيورج هو على ما يبدو موت الوالد أيضاً. وإذا احتاج الأمر إلى دليل على أن جيورج والصديق إنما يقفان في علاقة مراسلة خاصة، فإن هذا المشهد يقدمـه: ففي اللحظة التي يرى فيها جيورج نفسه مهدداً في وجودـه من خلال المنظر المهول للوالد، يرى أيضاً الصديق أمام الانهيار مباشرةً ومتجره مدمرـاً؛ وذلك دون أن يوجد إيضاح واقعي لهذا التوازي. والوالد يتحدث عن الصديق وكأنـما يمكنـه أن يكون ابنـاً مثل جيورج: وهو قمينـ أن يكون ابنـاً يستجيب له قلبي... هل تظنـ أنـي لم أذرف الدمعـ عليه؟ إنـ الأبـ والابـنـ والصديق هم إسقاطـات رمزـية للنزاعـاتـ والاتجـاهـاتـ النفـسـيةـ المـقاوـمةـ لـ الشخصـ وـ الـ وـاقـعيـ واحدـ. وهذا تماماً ما حـدـسهـ كـافـكاـ عـنـدـمـاـ كـتـبـ إـلـىـ فيـلـيـسـ: إـنـ هـذـهـ القـصـةـ مـلـيـةـ بـفـاهـيمـ عـامـةـ دونـ أـنـ يـقـرـ بـهـاـ. وـيمـكـنـ القـولـ بـتـشـدـيدـ أـكـثـرـ: إـنـ شـخـوصـ القـصـةـ هـيـ توـضـعـاتـ نـفـسـيـةـ لـكـافـكاـ.

ومن هنا لا عجب أنـ إـدانـةـ جـيـورـجـ المـتـاقـضـةـ منـ قـبـلـ الوـالـدـ. لـقـدـ كـنـتـ فيـ الحـقـيقـةـ طـفـلاـ بـرـيـئـاـ، لـكـنـ الـأـكـثـرـ حـقـيقـةـ هـوـ أـنـكـ كـنـتـ إـنـسانـاـ شـيـطـانـاـ، إـنـماـ تـعـودـ إـلـىـ الـظـهـورـ فـيـ الـيـومـيـاتـ حـرـفـاـ تـقـرـيـباـ: شـيـطـانـيـ مـعـ كـلـ بـرـاءـةـ

(بتاريخ ١٩١٤/٧/٢٣ ، بمناسبة فسخ خطوبه فيليس). إن كافكا يرى، كما يظهر من مواضع عديدة في اليوميات والرسائل، أن الذنب إنما يمكن في اللاوجود، وعدم النضوج، والتردد قبل الولادة، وضعف العلاقة بالحياة. يعود هذا الذنب، إذًا، إلى ضعف العلاقة إزاء عالم البشر بكامله، لكن على الأخص إلى علاقته بفيليس باور، وذلك لأن كافكا في الحقيقة يعرف منذ البداية أنه عاجز عن الارتباط. بهذا الصدد يسمى كافكا شيطانياً ما يشكل مضمون لاوجوده: الكتابة. في رسالة إلى فيليس بتاريخ ١٩١٣/٨/١٤ يشخص كافكا: ليس لدى اهتمام أدبي، وإنما أتألف من أدب، لست شيئاً آخر ولا أقدر أن أكون شيئاً آخر. وفي رسالة بتاريخ ٥/٧/١٩٢٢ يحكم كافكا أن الكتابة إنما تعني تزيين الجثة بالأأنوار... وعمل ميت.

منذ عام ١٩٠٩ كتب كافكا، العازب، في يومياته أن لديه طبيعة انتحارية. إن حكمه على نفسه هو مثل حكم جبورج: لكتني أنا بالذات أحس قراره نفسي بشدة وأكثر من أن يكون في مقدوري أن أكون راضياً إلى حد ما. ولا أحتاج سوى إلى إحساس هذه القرارة مدة ربع ساعة بلا انقطاع حتى يسيل العالم السام إلى فمي كما يسمى الماء في الغريق.

ومثل جبورج ليس لدى العازب تصرف بالوقت: لايملك العازب سوى اللحظة. في ذلك الوقت، الذي لا يقدر أحد اليوم أن يعرفه،.. فاته الأمر، إذ أحس قرارته، متلما يلاحظ المرء فجأة دقلًا على جسمه. هنا يُلمس موضوع الانساخ: العازب يشعر أنه ليس أفضل من حشرة. ومهما أحس جبورج (وغيره من شخصوص كافكا) بأنه ضئيل القيمة ومذنب منذ البداية، فإن الذنب ليس بناء على فعل قرار حر، وإنما بسبب

الإدانة التامة من قبل الوالد منذ الطفولة الأولى. هذه الإدانة المسقبة حالت دون التطور إلى البلوغ، كما يرى كافكا. وفي غياب البلوغ ثمة ذنب من ناحية أخرى. ويدو أن الحكم لم يأت عن طريق المصادفة قبل المحاكمة.

وبإيجاز: جبورج يجسّد أنا - الأُمنية لكافكا في فترة نشوء الحكم: إنه يقف في الحياة، وهو على وشك اجتياز امتحان الحياة: أن يتزوج. كذلك بصفته الرياضي المتفوق الذي كانه في شبابه مفخرة لوالديه، يطابق أنا - الأُمنية لكافكا: لقد حاول كافكا غير الرياضي أن يحسّن صحته عن طريق السباحة والتجديف وركوب الخيل، لكن بنجاح ضئيل.

إن الصديق هو - إذا تأملناه رمزاً - الأن الأخرى لذلك العازب. وكافكا نفسه لم يكن على يقين من مغزى الصديق، وقد حاول عدة تفسيرات. وهناك نقطة واحدة كررها عدة مرات: الصديق ليس شخصاً حقيقياً بالكاد.

لابد من فهم الاتصال بين جبورج والصديق على أنه محاولة للتكامل الشخصي. في النقطة الأهم وجودياً - محاولة الزواج - يفضي هذا التكامل على ما يedo بالضرورة إلى استطلاع رأي الوالد («الأن الفوقية» بمعنى التحليل النفسي).

من طرف يطلب الوالد من ابنه البلوغ، ويعيب عليه التأخير خطأ وجودي؛ ومن طرف آخر يقف ضد سعي ابنه إلى الاستقلالية والبلوغ، وذلك لأن ابنه يصبح بذلك منافساً له في متجر الحياة. وبهذا المعنى وحده يمكن فهم أن الوالد يصف الصديق *ممتدع اللون* يطرح جانبًا... بأنه قميّن أن يكون ابنًا يستجيب له قلبي.. إن فضل الصديق هو بعده عن الوالد. إنه لن يقدر أن يشكل قط خطراً عليه بصفته منافساً.

وراثياً يمكن أن تُعزى هذه العلاقة إلى علاقة كافكا الحقيقة بوالده،

على فرض أن رسالة إلى الوالد تعرضها على الوجه الصحيح. إن هذه العلاقة تتسم بـ «الاتصال المتناقض»، هذه الظاهرة التي وصفت علمياً بعد نصف قرن من ذلك.

ومن الممكن أن تكون تجارة Kafka في طفولته الأولى قد شكلت القاعدة النفسية الفردية للتناقض الدائم في نظرته إلى العالم وفي مجموع آثاره، لكن فقط كعامل واحد بين عوامل أخرى.

رينهارد مويرر

١٩٨٨

Reinhard Meurer

٢ . المفقود في المجتمع الصناعي

كتب كافكا إلى فيليبس باور بتاريخ ١٩١٢/١١/١١ :

القصة التي أكبتها والتي لا آخر لها هي، كي أعطيك مفهوماً مؤقتاً، بعنوان «المفقود»، وتجري أحداثها فقط في الولايات المتحدة الأمريكية الشمالية. وقد فرغت من كتابة خمسة فصول والفصل السادس تقريباً. وعناوين الفصول هي: I — الوقاد. II — الحال. III — قصر ريفي قرب نيويورك. IV — المسير إلى رمسيس. V — في فندق أوكيدينتال. VI — حالة روبينسون... إنه العمل الكبير الأول الذي أشرع فيه بالراحة منذ شهر ونصف الشهر بعد عناء لا عزاء فيه، باستثناء لحظات، استمر خمسة عشر عاماً.

وواصل كافكا كتابة المفقود طوال شهرين آخرين (مع انقطاع طويل واحد استمر من ١١/١٧ حتى ١٢/٨) كتب أثناءه قصة الانساح). وبعد ذلك وقع كافكا حوالي منتصف كانون الثاني من العام التالي في مصاعب متزايدة أرغمهته بتاريخ ١٩١٣/١/٢٤ على التوقف عن الكتابة في المفقود. وهكذا ظلت الرواية كما هي. وفي آذار ١٩١٣قرأ كافكا المخطوطة مصادفةً، وحكم حكماً لغير صالحها أبداً، باستثناء الفصل الأول. وقد

أعطاه حالاً للنشر، وصدر في أيار ١٩١٣ في كتاب بعنوان **الوقاد** وتحته عنوان فرعي: جزء.

وفي مرحلة إبداع كافكا الثانية، التي امتدت بين منتصف آب وتشرين الثاني ١٩١٤ ، والتي كتب فيها القسم الأكبر من رواية المحاكمة وقصة في مستعمرة العقاب، حاول مواصلة الكتابة في رواية المفقود، وكتب ثلاثة نصوص جديدة يبلغ حجمها نحو ٣٠ صفحة نشرت فيما بعد كملحق للرواية. وبعد ذلك لم يكتب في هذه الرواية قط.

لقد كتب كافكا رواية المفقود دون تخطيط سابق. وبلغ مجموع المدة التي كتبها فيها نحو أربعة أشهر.

* * *

موجز أحداث الرواية:

(الفصل الأول) **الوقاد**^(*):

كارل روسمان ذو الستة عشر عاماً طرده والداه من براغ وأرسله إلى أمريكا لأن خادمة كانت قد أغونته وأنجذبت منه طفلاً. بحثه الشديد للعدالة يقع كارل في نهاية رحلته البحريّة إلى أمريكا في موقف صعب عندما يدفع لدى قبطان السفينة عن وقاد ظلمه كبير الميكانيكيين. ويمثل أujeوبة يُنقذ كارل من الموقف الذي أصبح شيئاً فشيئاً حرجاً بالنسبة إليه: إن حاله ياكوب، الذي كان قد هاجر إلى أمريكا منذ مدة طويلة، وبات رجلاً ثرياً يملك شركة نقل ضخمة، يتواجد بالصدفة في قمرة القبطان حيث يجري التزاع. كانت الخادمة قد أرسلت رسالة إلى الحال أعلمته فيها بما حدث

(*) راجع نص **الوقاد** في المجلد الأول من «الآثار الكاملة» ص ٢٣٧ - ٢٧٢ (أ.و).

وعن سفر كارل بهذه السفينة، والآن يعرف الحال نفسه ويخلص ابن أخته من نزاعات أخرى، ويعادر السفينة معه تاركاً الوقاد لقدرها.

(الفصل الثاني) الحال:

الحال ياكوب، المليونير والستاتور، يأخذ ابن أخته إلى قصره العصري ويعتني به، ويؤمن له تعليماً في مجالات متعددة، دروساً خاصة في اللغة ور كوب الخيل والعزف على البيانو، ويجد في كارل ابن أخت دائمًا في التحصيل يرغب أن يفهم طريقة الحياة في هذا العالم المنظم علمياً كلية، وأن ينجح في صراع الحياة طبقاً لفطرته وميوله. في منزل حاله يتعرف كارل على الضخامة الهائلة والإتقان التقني للحياة الاقتصادية الأمريكية، كما يتعرف أيضاً على قساوة هذه الحياة وانعدام الروح فيها. ويدرك كيف يتجلّى السعي الطموح إلى السلطة والشهرة والربح في الحياة العملية وفي التعامل مع الناس، ويحاول أن يحافظ على شيء من البساطة الطفولية. صديق الحال، رجل الأعمال بولوندر يدعوه كارل إلى قصره الريفي في ضواحي نيويورك. كارل يلتقي هذه الدعوة رغم تحذيرات حاله، غير الواضحة بالنسبة إليه، والذي كان حريصاً حتى الآن كل الحرص على عزل كارل عن العالم الخارجي.

(الفصل الثالث) قصر ريفي قرب نيويورك:

هنا يسود جو آخر غير الجو في منزل حاله. كلارا، ابنة بولوندر، تقوده، عبر مرات وردّهات خطيرة يلقها الغموض، إلى غرفته. هناك يتشارجر الإناث، ويصل الأمر إلى مصارعة ينهزم فيها كارل. لهذا السبب يريد كارل أن يعود إلى حاله في الحال. غير أن صديق العمل غرين، الموجود في منزل بولوندر، يمنعه من الرحيل ويسلمه بعد منتصف الليل رسالة من الحال. يرى

هذا أن كارل، بزيارته لدى بولوندر، إنما قد قطع تعليمه الذي يريد أن يوليه إياه. هذا النزاع الأول بين كارل وخاله يعني في الوقت نفسه نهاية العلاقة من الطرفين. إن كارل يُطرد من قبل خاله. وقبل انتهاء الليل يغادر كارل بيت بولوندر.

(الفصل الرابع) المسير إلى رمسيس:

في مطعم يمضي فيه كارل الليلة الأولى بعد طرده الثاني يلتقي ميكانيكيين عاطلين عن العمل، الإيرلندي روبيسون والفرنسي ديلامارش، وللذين يعيشان في أمريكا منذ طفولتهما، ويتجولان الآن كمسئدين. وينضم كارل إلى الإثنين اللذين يزعمان أنهما في طريقهما إلى بوترفورد لأنهما يأملان أن يعثرا هنالك على عمل. إنه يدعمهما كرميلين، لكنهما يقومان باستغلاله من غير هوادة. فعندما يكون في طريقه إلى ابتياع طعام لهما في فندق المجاور، يقومان بفتح حقبيته. ومن هنا ينفصل كارل عنهما.

(الفصل الخامس) فندق أوّكيدنتال:

لدى تسوقه في فندق أوّكيدنتال في رمسيس تعرف كارل على كبيرة الطباخين في الفندق غرته ميسليباخ. دعوه إلى المبيت وتذمّر له عملاً كصبي مصعد. ولا يكاد كارل يحس ظروف الحياة والعمل التي لاتطاق تقريراً. ويأمل أن يقدر على الارتقاء بالعمل، بل إنه يجد الوقت والطاقة لمواصلة تعليمه.

(الفصل السادس) حالة روبيسون:

بعد أن عمل كارل نحو شهر ونصف الشهر في الفندق، يترك ذات مرة دون إذن ولمدة بعض دقائق مكان عمله إلى جانب المصعد، وذلك كي

يُخفي روبنسون الشمل في سريره في قاعة نوم صبيان المصاعد خوفاً من وقوع فضيحة. ويعلم كبير الثدُل بذلك، فيتهم كارل بمخالفة تعليمات العمل وعدد كبير من الحالات الأخرى، ويُسْرِحه بدون إنذار. ويقوم كبير البوابين بتأديبه بالضرب بوحشية، ويتمكن كارل من النجاة هرباً، لكنه يضطر لترك سترته ونحوه وأوراقه. ولدى مغادرته الفندق يتلقى كارل روبنسون مرة أخرى.

(الفصل السابع) مأوى:

يقود روبنسون كارل إلى ديلمارش. كان روبنسون وديلامارش قد أقاما علاقة سكن وحياة غريبة مع المغنية السابقة البدينة والخاملة برونلدا. والآن يرغمان كارل على الدخول في هذه العلاقة ويستغلانه بلا حياء. يقوم بمحاولة هروب يائسة، لكنها تمنى بالفشل، فيستسلم ويُخضع للثلاثة المقيمين معه في الغرفة. ويروح يأمل أن يجد يوماً ما عملاً يقدر أن ينجز فيه شيئاً وأن يُعترف بإنجازاته.

هنا تنتهي الرواية.

في وقت لاحق كتب كافكا ثلاثة نصوص، الأول بعنوان

مسرح أوكلاهوما الطبيعي:

يقدم هذا النص كارل وقد تخلص من ديلمارش وروبنسون. في بحثه عن عمل يقرأ ملصقات إعلان عن مسرح أوكلاهوما الكبير. إنها تعدّ أن كل شخص مرحب به؛ من يريد أن يصبح فناناً، فليسجل نفسه. يرحل كارل إلى كليتون حيث يوجد أقرب مكتب تسجيل. وهناك يُقبل. ومع بدء وصف النقل إلى أوكلاهوما ينقطع هذا النص.

والنصان الآخران هما من مادة حدت برونلدا. يصف النص الأول مشهداً بعد الاستيقاظ: برونلدا تدع ديلمارش يغسلها، كارل وروبنسون يعدان طعام الفطور. في النص الثاني يوصف خروج برونلدا: كارل ينقلها في عربة يد إلى مبغى، حيث تعمل موسمياً.

* * *

حديث مع مخرج فرنسي

سؤال: متى قرأت كافكا لأول مرة؟

جواب: لم أقرأ كافكا في شبابي. كنت أصغر من أن أقرأه. ما كتبه كافكا لا يصدر سوى عن شاب. لكن حتى يحس المرء على نحو صحيح أو يكتشف ما يكمن في كافكا، لا بد له أن يكون قرب القبر. ثم: إن كافكا غير موجود في اللغة الفرنسية. وليس الأمر نكتة، عندما يقول المرء: إنه من السهل ترجمة هولدرلين أو برشت أو ماركس إلى الفرنسية (أو مالارميه إلى الألمانية)، لكن ترجمة كافكا أمر غير ممكن. كافكا في الفرنسية هو مثل نفق، أما في الألمانية فإنه في غاية الوضوح.

سؤال: ما سبب ذلك؟

جواب: لأن الكتاب يختلفون عن المترجمين اختلاف النهار عن الليل.

سؤال: تعني أنه يمكن ترجمة كافكا مبدئياً؟

جواب: نعم، لكن فقط إلى نقطة معينة لا يقدر المترجم أن يتجاوزها مهما كان كفؤاً. غير أن المترجمين لا يحبون اكتشاف هذه النقطة ولا أن يصلوا إليها في أي حال. وحتى إذا حدسوا النقطة، فإنهم يفعلون كل شيء حتى

يخفوها أو يتجلبها. إن كافكا هو في الحقيقة شاعر واقعي، ومثلكما هو الحال لدى جبل الجليد، لا يظهر فوق الماء سوى القسم العاشر، وهذا القسم قائم على مبدأ الطبيعية. وأصعب ما يمكن فعله في سائر مجالات الفن هو الطبيعية. وهذا لا يمكن نقله في ترجمة.

سؤال: ما هو الأهم في كافكا، الواقعي أم الطبيعي؟

جواب: ما هو الأهم في جبل الجليد، ما تحت الماء أم ما فوقه؟

سؤال: حسب الحالة: إذا رأيته من بعد، لاترى سوى جماله؛ أما إذا اقتربت منه، فإن الأكثر أهمية هو معرفة ما تحت الماء.

جواب: إذا كنت سمكة، فإن الأهم هو ما تحت الماء.

سؤال: هل أنت سمكة؟

جواب: نعم، بالتأكيد.

سؤال: كيف تعرف الواقعية؟

جواب: أظن أنه لا يوجد واقعية دون أن يقلب المرء جبل الجليد على رأسه. يمكن القول إن جبل الجليد إنما يملئ جذوراً حتى يرتفع عشر الجبل عالياً هكذا فوق سطح الماء، لابد من وجود قاعدة عميقة وعريبة تحت الماء. يجب قلب مفهوم الواقعية. من يريد بلوغه، عليه أن يملئ تسعة أعشار جذور، والتي هي قائمة على مبدأ الطبيعية، أي أنها مرتبطة بالطبيعة والمجتمع. المدهش في كافكا أنه عكس ما قيل عنه. إنه أقل ما يمكن ميتافيزيقية ولاواقعية. على العكس، إن كل علاقة لديه هي واقعية عميقة، بل يومية. ثمة تعريف قديم للواقعية: نبش الحقيقة من خرائب البدائيات. قال ذلك شخص يدعى ب. ب (برتولد برشت. 1.و). إن المدهش في

كafka هو أنه كان الشاعر الأول (وحتى الآن الوحيد على الأرجح) لما يسمى المجتمع الصناعي^(*).

سؤال: رغم أنه لا يصف معامل وأماكن عمل بروليتارية، لكنه يصف بيروقراطيات وظروف تبعية...

جواب: نعم، كما أنه يقول: نظام التبعيات هو جزء من الرأسمالية. وما من شاعر آخر وصل إلى أبعد من ذلك. مما يدهش: كتب Kafka رواية المفقود ونشر فصلها الأول الوقاد في عام ١٩١٢ . ولم تكن الأزمة الاقتصادية العالمية قد انفجرت. وعما يدور الحديث في الرواية؟ فقط عن أناس يشعرون باللحوف من فقدان أماكن عملهم. وعجز الناس ليس قدرًا كتب عليهم، وإنما هو شيء أنتجه المجتمع الصناعي. إن Kafka لا يصف المجتمع الصناعي، لكنه يصف أناساً يعانون من المجتمع الصناعي.

سؤال: لكن هناك عدداً لا يحصى من التفسيرات الميتافيزيقية - الدينية للرواية.

جواب: إذ عرفت مثل هذه التفسيرات، لم أقرأ Kafka . وعندما قرأته، لاحظت كم أن كل هذا لا علاقة له به.

سؤال: لا تفسير رمزي إذًا؟

جواب: كلا. ربما اضطر Kafka أن يكافح مع مثل هذه المشكلات. لكن ثمة جملة منه تقول: الاستعارات هي واحدة من الأمور الكثيرة التي تدعني أصاب باليأس من الكتابة. لكن هناك، وأنا أعود إلى السؤال الأول، أمراً آخر قادني إلى Kafka . كتلت لن أجده الطريق إليه لو لم أقرأ

(*) تستخدم الكلمة «شاعر» في هذا الكتاب بالمعنى الأوروبي: مبدع أي أدب رفيع، موزوناً كان أم مشورة، روائياً قصصياً كان أم مسرحياً (أ.و).

بافيسي Pavese (١٩٠٨ - ١٩٥٠) كاتب ومتجمِّع إيطالي نفي من بلاده لأسباب سياسية ومات انتشاراً. و، ثمة أمور مشتركة بين الاثنين. ماتا في السن نفسه. الأول اتحرر والثاني كان يتحدث دائماً عن ذلك. كما أنه يوجد تقارب سياسي بينهما. إن المرأة التي كانت أقرب إنسان إلى كافكا كانت شيوعية.

سؤال: ميلينا.

جواب: نعم. وهذا ليس مصادفة. طبعاً لا أريد أن أعمل من كافكا شيئاً...

من الجائز أيضاً أن يكون الأمر مثل وميض برق، مثلما يوجد لحظات مشابهة كثيرة في حياة إنسان. هكذا كان الأمر بالنسبة إلي. ومن الأفضل وضع ذلك دون تفسير. بعضهم يجد أسباباً، وبعضهم يقول: يا للغرابة! إن الجانب الميتافيزيقي لدى كافكا لم يثر اهتمامي، بل إنه نفرني. طبعاً هذا الجانب حاضر في كافكا، إذ لا دخان بلا نار.

وللمناسبة: كافكا وبافيسي يشتراكان في نقطة أخرى: الوهن والعجز...

أعتقد أن أعظم رواية توجد في العالم هي القلعة.

سؤال: لماذا لم تخترها موضوعاً لفيلم؟

جواب: هذا غير وارد. إنها قائمة بذاتها.

سؤال: يعني أن رواية المفقود غير قائمة بذاتها؟

جواب: هذا أمر مغایر. هنا ما زال كافكا واقعاً. ولو لم أكافح مع المفقود طوال عامين، لما اكتشفت القلعة. لقد تطور كل شيء عبر الورق. إنني

أبحث عن قصص. وقد سمعت الأفلام التي لا تروي شيئاً. كما قلت، إن القلعة هي رواية عظيمة، لكنها أقل قصّاً من المفقود.

سؤال: من هو المذنب في المفقود؟

جواب: الجميع، طبعاً. على المرء أن يملأ الحجرة لقول ذلك. كافكا قاله: شخصي، المذنب والبريء (المذنب هو ك في المحاكمة)... وإذا كان كارل بريءاً، فإن الآخرين جميعهم مذنبون.

وكارل يتمرس منذ البداية، عندما يدافع عن الوقاد. دائماً يقترب مخالفات، ويتجاوز ما يكلف به. إنه يتمرس مثلما يتنفس. وهذا يعني أنه لا يتمرس. إنه يتحرك مثل إنسان حر في مجتمع لا يمكن فيه ذلك. إنه نوع من التجاوز دون ملاحظة أن المرء إنما يتتجاوز. وفجأة يصبح العالم كله ضده. إنه متمرد، بمجرد وجوده. هكذا هو في الفيلم. وهنا تكمن قوة رواية كافكا.

ورغم أنه يحاول دائماً أن يفهم الناس، فإنه لا يحس بأي ازدراء لأي منهم. إنه لا يقدر أن يتصور وجود غilan. هذا غريب عليه.

سؤال: هل جلب هذا معه من «العالم القديم»؟

جواب: هذا ممكن. إذ أظن أن كافكا كان يكره الأميركيين بعض الشيء.

مارتن بفایفر

١٩٨٠

جان - ماري شترووب

١٩٨٢

Martin Pfeifer

Jean-Marie Straub

٣ - من اليوميات: نشوء رواية «المحاكمة»

١٩١٤ تموز ٢٣

شيطاني مع كل براءة.

١٩١٤ تموز ٢٨

عدم قدرتي على التفكير والرصد والكشف والتذكرة والتكلّم
والمشاركة تزداد باستمرار، إنني أتحجر. يجب أن أفرّ بذلك. وعدم
قدرتني تزداد حتى في المكتب. إذا لم أنقذ نفسي في عمل، فإني
سأضيع.

١٩١٤ تموز ٣١

سوف أكتب رغم كل شيء، بالضرورة، إنه كفاحي من أجل
الحفظ على الذات.

٦ آب ١٩١٤

من ناحية الأدب قدري بسيط للغاية. إن الحسن لتصوير حياتي
الباطنية الحلمية أزاح كل شيء آخر إلى الثانوي، وهذا ضمّر على نحو
مخيف ولا يتوقف عن الضمور. وما من شيء آخر يقدر أن يرضيني.

٧ آب ١٩١٤

أمس واليوم كتبت ٤ صفحات. تفاهات يصعب أن يزداد عليها.

١٥ آب ١٩١٤

أكتب منذ بضعة أيام، وأحب أن أحافظ. إنني اليوم لست محمياً كلياً وقابعاً في العمل مثلما كنت قبل عامين، لكنني على كل حال وجدت معنى، وبات حالي المت雍مة، الخاوية، حياة العزووية الجنونية، مبرراً. لقد أصبح في مقدوري أن أجري محاورة مع نفسي ولا أحدق هكذا في الفراغ الكامل. وليس ثمة تحسن بالنسبة إلي سوى على هذا الطريق.

٢١ آب ١٩١٤

بعثل هذه الآمال بدأت والقصص الثلاث كلها صدّتي، اليوم بأكثر شدة. ربما يكون صحيحاً لا يُعمل في القصة الروسية سوى بعد المحاكمة. بهذا الأمل المضحك الذي لا يقوم على ما يبدو سوى على مخلة آلية، أعود إلى البدء بالمحاكمة. وعلى غير جدوى كلياً لم يكن الأمر.

٢٩ آب ١٩١٤

خاتمة فصل غير موفقة، فصل آخر بدئ به على نحو جميل لن أقدر بالكاد أو بالأحرى بكل تأكيد على مواصلته بشكل جميل هكذا، في حين أنه كان من شأن الأمر أن يتم لي آنذاك في الليل. غير أنه لا يجوز لي أن أترك نفسي، إنني وحيد كلياً.

١ أيلول ١٩١٤

في عجز تام بالكاد كتبت صفحتين. لقد تراجعت اليوم تراجعاً شديداً، رغم أنني كنت قد نمت جيداً. غير أنني أعلم أنه لا يجوز لي أن

أتشي، إذا كنت أريد أن أصل، عبر أصغر معاناة للكتاب المعاقة بطريقة حياتي الباقي، إلى الحرية الأكبر التي قد تكون في انتظاري. إن حالة التبلد القديمة لم تتركني كلياً بعد كما أحظ، وبرودة القلب قد لا تتركني قط. ألا أفرع من إدلال، يمكن أن يعني قنوطاً، كما يمكن أن يعطي أملاً.

١٣ أيلول ١٩١٤

مرة أخرى بالكاد صفتان. في البدء ظنت أن الحزن على الهزائم المتساوية والخوف من المستقبل (خوف يدوّلي في الحقيقة مضحكاً وخبيثاً ومؤذياً في آن) سوف يعيقاني عن الكتابة أصلاً. لم يكن الأمر كذلك، كان مجرد انقباض يأتي مراراً وتكراراً ويجب التغلب عليه مراراً وتكراراً. بالنسبة إلى الحزن نفسه ثمة وقت كاف خارج الكتابة.

٧ تشرين الأول ١٩١٤

أخذت إجازة كي أدفع الرواية إلى الأمام. وحتى اليوم – اليوم هو ليلة الأربعاء، الاثنين تنتهي إجازتي – أخفق الأمر. لقد كتبت قليلاً وعلى نحو هزيل. لكنني، للحق، كنت في الأسبوع الماضي في حالة تدهور؛ غير أنني لم أستطع أن أقدر أن الأمر سيسوء هكذا. هل تسمع هذه الأيام باستنتاج أنني غير جدير بالحياة دون العمل في المكتب؟

١٥ تشرين الأول ١٩١٤

١٤ يوم عمل جيد، وجزئياً إدراك تام لوضعي.

١٨ تشرين الأول ١٩١٤

... قرأت وووجدت شيئاً. في وجهين... أخفق^(*).

(*) النقطات الثلاث تعني الكلمة أو الكلمات غير مفروعة في المخطوطة (أ.و).

٢١ تشرين الأول ١٩١٤

منذ ٤ أيام لم أعمل شيئاً تقريراً، دائماً ساعة ليس إلا وبضعة أسطر ليس إلا، لكنني نمت على نحو أفضل، وبهذا زال الصداع تقريراً.

٢٥ تشرين الأول ١٩١٤

توقف العمل توقفاً تماماً تقريراً. ما يكتب، لا يدو شيئاً مستقلاً، وإنما انعكاساً لعمل سابق جيد.

١ تشرين الثاني ١٩١٤

أمس بعد وقت طويل قطعت شوطاً كبيراً، اليوم مرة أخرى لأشيء تقريراً. لقد صنعت الأربعية عشر يوماً منذ إجازتي ضياعاً كاملاً تقريراً -... - كثير من الرضا عن النفس إنما اليوم كلها. والآن خذلان تام لدى العمل. وحتى إنه ليس خذلاناً، إنما أرى المهمة والطريق إليها، وليس على سوى أن أحترق أية عوائق خفيفة ولا أستطيع ذلك.

٣ تشرين الثاني ١٩١٤

لم أعمل شيئاً بعد، وهذا يعود أيضاً جزئياً إلى أنني أحشى أن أفسد موضعًا لأباس به كتب يوم أمس. اليوم الرابع منذ آب، الذي لم أكتب فيه شيئاً فقط.

٣٠ تشرين الثاني ١٩١٤

لا أقدر بعد أن أواصل الكتابة. إنما على الحد النهائي، الذي على ربما أن أعود إلى الجلوس أمامه، كي أبدأ من ثم ربما مرة أخرى قصة تظلمرة أخرى ناقصة. هذا المصير يلاحقني. إنما مرة أخرى أيضاً بارد وخاوي، ولم يبق سوى الحب الشيغوني للهدوء التام. ومثل أي حيوان انسليخ كلياً عن البشر، أهز عنقي مرة أخرى وبوادي أن أحاول الحصول

بين هذا وذاك على فمرة ثانية. وسوف أحاول ذلك فعلاً، إذا لم يعني الغثيان من نفسي.

٢ كانون الأول ١٩١٤

نتيجة اليوم حتى قبل فرفل^(٤): مواصلة العمل على أي حال. حزين كون هذا غير ممكّن اليوم، إذ أني متعب وأشعر بصداع، بدأ قبل الظهر في المكتب تلميحاً. مواصلة العمل على أي حال، ويجب أن يكون ذلك ممكناً رغم الأرق والمكتب.

٨ كانون الأول ١٩١٤

أمس لأول مرة منذ فترة طويلة في قدرة على العمل لا شك فيها. ورغم ذلك لم يكتب سوى الصفحة الأولى من فصل الأم، إذ أني لم أكن قد نمت تقريباً طوال ليتين، وذلك لأن صداعاً بدأ منذ الصباح ولأن خوفاً كبيراً من اليوم التالي قد تملكتني. مرة أخرى أدركت أن كل ما كتب على نحو متقطع وليس على مدى القسم الأكبر من الليل (أو حتى طواله) هو قليل الجودة وأنني محكوم عليّ بقليل الجودة هذا من قبل ظروف حياتي.

١٣ كانون الأول ١٩١٤

بدلاً من أن أعمل — كتبت صفحة واحدة فقط (تفسير الأسطورة) — قرأت في الفصول المتتالية ووجدها جيدة جزئياً. دائمًا أدرك أن كل شعور بالرضى والغبطة، مثلما أحسه مثلاً إزاء الأسطورة خاصة، يجب أن يدفع، وعلى وجه التحديد يجب أن يدفع لاحقاً بآلا يُعنَّى على براحة قط^(٥).

(*) راجع المجلد الأول ص ٤٥ (أ.و).

(**) يقصد بالأسطورة قصة حارس الباب، ص ١٥٧ - ١٥٨ من هذا المجلد (أ.و).

١٤ كانون الأول ١٩١٤

زحف بائس للعمل، ربما في أهم موضع له، هناك حيث من شأن
ليلة طيبة أن تكون في غاية الضرورة.

١٩ كانون الأول ١٩١٤

أمس كتبت «معلم مدرسة الضيعة» بلاوعي تقريراً، لكنني خفت
أن أكتب إلى ما بعد الساعة الثانية إلا ربع، وكان الخوف مبرراً، إذ لم
أنم تقريراً، اجتررت ثلاثة أحلام قصيرة و كنت من ثم في المكتب في حالة
مناسبة.

٢٦ كانون الأول ١٩١٤

مساء اليوم لم أكتب شيئاً تقريراً وربما لم يعد في وسعي أن أوافق
معلم مدرسة الضيعة الذي عملت فيه الآن مدة أسبوع والذي كان من
شأنى بالتأكيد إقامته وتبسيطه وبدون أخطاء خارجية فيغضون ثلاث
ليال انفرغ فيها. أما الآن فإنه، رغم أنه مازال في البداية تقريراً، يعاني من
خطأين لا علاج لهما، وهو فوق ذلك ضامر.

٣١ كانون الأول ١٩١٤

عملت منذ آب، بعامة ليس قليلاً وليس سيئاً، لكن لا من الوجهة
الأولى ولا من الوجهة الأخيرة حتى حدود قدرتي، كما كان يجب أن
يكون الأمر، ولاسيما أن قدرتي حسب كل توقع (أرق، صداع، ضعف
قلب) لن تستمر طويلاً بعد. ما كتب دون أن يكتمل: المحاكمة، ذكرى
سكة حديد كالدأ، معلم مدرسة الضيعة، المدعى العام الأدنى، ويدايات
صغرى. ما اكتمل، فقط: في مستعمرة العقاب وفصل من المفقود،

كلاهما إبان إجازة الأربعة عشر يوماً. ولا أدرى لماذا أعمل هذا الموجز الإجمالي، إنه لا يناسبني أبداً^(*).

٤ كانون الثاني ١٩١٥

رغبة كبيرة في البدء بقصة جديدة لم أستسلم لها. كل شيء عديم الجدوى. إذا لم أقدر على مطاردة القصص عبر الليالي، فإنها تفرّ وتضل طريقها، هكذا أيضاً الآن «المدعى العام الأدنى».

٦ كانون الأول ١٩١٤

تخليت مؤقتاً عن معلم مدرسة الضياعة والمدعى العام الأدنى. لكنني أيضاً غير قادر تقريرياً علىمواصلة المحاكمة.

١٧ كانون الثاني ١٩١٥

أقرّ بأنني لم أستغلّ الوقت منذ آب استغلالاً كافياً. فالمحالات المتواصلة لتسهيل الاستمرار في العمل حتى ساعة متأخرة من الليل من خلال نوم كثير بعد الظهر كانت عديمة الجدوى، إذ استطعت أن أرى بعد الأربعة عشر يوماً الأولى أن أعصابي لاتسمح لي أن أذهب إلى الفراش بعد الساعة الواحدة، إذ أنسني، والحالة هذه، لا أنم بعد ذلك إطلاقاً. ويصبح اليوم التالي لايطاق، وأنا أدمّر نفسي. كنت أرقد إذاً بعد الظهر فترة أطول من اللازم، غير أنني قلماً عملت في الليل بعد الساعة الواحدة، لكنني كنت دائماً لا أبدأ قبل نحو الساعة الحادية عشرة. كان

(*) بالإضافة إلى ذلك كتب Kafka إبان هذه الفترة في رواية المفقود وفي نصي وكيل المدعى العام وخيوط إبرهارد. والجدير بالتنويه أن Kafka كتب كل هذا أثناء هذه الفترة القصيرة في الليالي فقط، إذ كان يوازن على عمله الوظيفي طوال ستة أيام في الأسبوع.

هذا خطأ. ينبغي علي أن أبدأ في الساعة الثامنة أو التاسعة. لا ريب أن الليل هو خير الأوقات (إجازة!)، لكنه بعيد المنال علي.

١٨ كانون الثاني ١٩١٥

غير قادر على عمل طويل مرکز. كما أتنى كنت أقل من اللازم في الهواء الطلق. ورغم ذلك بدأت قصة جديدة، خشيت أن أفسد القصص القديمة. والآن تقف أمامي ٤ أو ٥ قصص متناسبة مثل الجياد أمام مدير السيرك شومان عند بدء العرض.

١٩ كانون الثاني ١٩١٥

مadam ينبغي علي أن أذهب إلى المعلم، لن أقدر أن أكتب شيئاً. وأظن أن ما أحسته الآن هو عجز خاص عن العمل، يشبه ذلك العجز عندما كنت موظفاً في جنراله^(*).

٢٠ كانون الثاني ١٩١٥

نهاية الكتابة. متى سستقبلني مرة أخرى؟ في أي حالة سيئة ألتقي مع فـ! بلادة التفكير التي بدأت فوراً مع ترك الكتابة، عجز عن تهيئة نفسي للقاء، في حين لم أكن في الأسبوع أقدر بالكاد أن أتخلص من أفكار هامة حول ذلك. ليتني أتمتع بالملحسب الوحيد الممكن هنا: نوم أفضل.

٢٤ كانون الثاني ١٩١٥

أيضاً تلوت عليها^(**)، على نحو كريه اختلطت الكلمات، وما من

(*) فرع شركة تأمين إيطالية (أ.و).

(**) فيليس باور.

اتصال مع المستمعة، التي كانت تضطجع على الكتبة وتتلقي الأمر صامتة. رجاء فاتر بالسماح بأخذ مخطوطة ونسخها. لدى قصة حارس الباب اهتمام أكبر وتتبع جيد. هنا وحسب اتضح لي معنى القصة، كذلك هي فهمتها على نحو صحيح، غير أنها بعد ذلك ترغلنا فيها بلاحظات غليظة، وأنا بدأت.

٢٩ كانون الثاني ١٩١٥
مرة أخرى محاولة أن أكتب، بلا جدوى تقريباً.

٣٠ كانون الثاني ١٩١٥
العجز القديم. بالكاد عشرة أيام انقطاع عن الكتابة، والآن رمي الشبكة وجس الأعماق. مرة أخرى تقترب الجهد الكبيرة. إنه من الضروري بمعنى الكلمة الغوص والفرق بسرعة أكثر مما يختفي الأمر.

٧ شباط ١٩١٥
توقف تام. عذاب لانهائي.

٤ - طبعات

كتب كافكا قصة أمام القانون (ص ١٥٧ - ١٥٨ من هذا المجلد) يوم ١٣ كانون الأول عام ١٩١٤ . ونشرها في مجلة أسبوعية في أيلول ١٩١٥ . ونشرت في «كتاب سنوي للشعر الحديث»، صدر عام ١٩١٦ ، وأعيدت طباعته عام ١٩١٧ . ونشر كافكا هذه القصة، التي كانت قد أثارت لديه شعوراً بالرضا والغبطة، ضمن مجموعته القصصية طبيب ريفي، التي صدرت عام ١٩١٧ .

وكذلك نشر كافكا قصة حلم (ص ٢٥٨ - ٢٦٠ من هذا المجلد) عدة مرات في صحف ومجلات، كما نشرها ضمن مجموعة طبيب ريفي.

هاتان القصستان تحويان النواة الفكرية لرواية المحاكمة.

في ما بعد كتب ماكس بروود: «مخطوطة رواية المحاكمة أخذتها إلى في حزيران ١٩٢٠».

في تشرين الثاني ١٩٢١ نشر بروود مقالة في مجلة بعنوان «الشاعر فرانز كافكا»، تحدث فيها عن «أعظم عمل فني لكافكا، ... رواية المحاكمة، التي هي موجودة وقد اكتملت حسب رأيي، أما حسب رأي مبدعها، فإنها

طبعاً غير مكتملة، وغير قابلة للاكمال، وغير قابلة للنشر». ولم يصلنا رد فعل كافكا على هذه المقالة.

بعد وفاته، في عام ١٩٢٤ ، وجد ماكس برود بين أوراق كافكا قصاصتين يرجوه صديقه فيهما أن يتلف مخطوطاته كلها.

في ما بعد كتب الفيلسوف فالتر بنiamين أن صداقت ماكس برود ليست من الألغاز الصغيرة في حياة كافكا. وتتابع قائلاً: «إن تهيب كافكا من نشر آثاره نبع من قناعته بأن هذه الآثار غير مكتملة. ولم يكن قصده إبقاءها سرية. وكونه تصرف بداع من هذه القناعة هو أمر مفهوم تماماً مثلما لم تكن هذه القناعة تصبح بالنسبة إلى صديقه. لقد أدرك كافكا: (الآخر سوف ينقذها، ويخلصني من عذاب الضمير، إما أن أعطي بنفسي تصريحأً بطبعتها أو يجب أن أتلفها) ».«

بعد أيام من وفاة كافكا بدأ ماكس برود بإعداد الإرث الأدبي لصديقه من أجل نشره. وبعد عشرة أشهر صدرت رواية المحاكمة، عام ١٩٢٥ ، في دار نشر في برلين. وقد طُبع منها ثلاثة آلاف نسخة، احتاجت إلى عشرة أعوام حتى نفذ معظمها.

في عام ١٩٢٦ نشر برود رواية المفقود بعنوان أمريكا، وفي عام ١٩٢٧ نشر رواية القلعة.

في عام ١٩٣٥ صدرت الطبعة الثانية من رواية المحاكمة. وقد ظلت هذه الطبعة دون صدى يذكر، إذ ضممت سلطات نظام الحكم النازي (١٩٣٣ - ١٩٤٥) كتابات كافكا إلى «قائمة الكتابة الضارة وغير المرغوب فيها». (في عام ١٩٣٧ تمت طباعة «مجموعة أعمال» كافكا في برابع).

ولم تشتهر روايات كافكا في البلدان الناطقة بالألمانية، وإنما عبر الترجمات إلى لغات أجنبية. فقد صدرت رواية المحاكمة في فرنسا وإيطاليا والبرتغال (عام ١٩٣٢)، وفي بولونيا (عام ١٩٣٦)، وفي بريطانيا والولايات المتحدة (عام ١٩٣٧)، وفي الأرجنتين (عام ١٩٣٩)، وفي اليابان (عام ١٩٤٠). وطبعاً قامت هذه الترجمات كلها على طبعة بروド الناقصة كثيراً.

في عام ١٩٣٨ حاول ماكس برود أن يهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وينشر هناك آثار كافكا، بالألمانية، ويعُسّس أرشيفاً له. وقد أخفق الكاتب الألماني الأشهر آنذاك، توماس مان، الذي كان قد هاجر سابقاً، في مساعدة برود في إنقاذ مخطوطات كافكا. فاضطر برود، عند دخول القوات النازية إلى براغ يوم ١٥ آذار ١٩٣٩ ، إلى الهجرة إلى فلسطين عن طريق البر والبحر. وقد اصطحب معه مخطوطات كافكا. وفي عام ١٩٦١ أودعها مكتبة بودلاين Bodleian الشهيرة والتابعة لجامعة أكسفورد. لكن برود احتفظ بمخطوطة المحاكمة.

في عام ١٩٤٦ صدرت الطبعة الثانية (بالألمانية) من رواية المحاكمة في نيويورك.

في عام ١٩٥٠ صدرت رواية المحاكمة في أول طبعة لها بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك في دار نشر فيشر في فرانكفورت.

وفي عام ١٩٥١ صدرت الرواية في كتاب جيب بيع منه سبعون ألف نسخة حتى عام ١٩٦٣ ، و مليون و ٢٢ ألف نسخة حتى عام . ١٩٨٨

في ذلك العام ابتعات حكومة ألمانيا، في مزاد علني في لندن، مخطوطة المحاكمة بمبلغ ١,١ مليون جنيه استرليني (كان هذا المبلغ يعادل

آنذاك ما يقرب من مئة مليون ليرة سورية). وكانت حكومة ألمانيا قد رصدت مبلغ ٢,٣ مليون جنيه إسترليني لهذا الغرض^(*).

وحفظت مخطوطة المحاكمة، إلى جانب مخطوطة رسالة إلى الوالد، في «أرشيف الأدب الألماني» في مدينة مارباخ (راجع ص ٧٤٥ + ٧٨٥ من المجلد الأول).

في عام ١٩٩٠ صدرت الطبعة «التاريخية - النقدية» لرواية المحاكمة في مجلدين، يضم المجلد الأول نصوص الرواية (باستثناء نص حلم)، ويضم المجلد الثاني الحواشي والملاحظات الكثيرة جداً. وكان ثمن النسخة الواحدة من هذه الطبعة هو ٢٤٨ ماركاً.

في عام ١٩٩٤ صدرت «طبعة الجيب» من الطبعة «التاريخية - النقدية». وتشكل رواية المحاكمة الجزء الثالث من «طبعة الجيب»، المؤلفة من اثني عشر جزءاً. ويبلغ حجم نصوص رواية المحاكمة (باستثناء نص حلم) في هذه الطبعة ٢٦٧ صفحة من القطع المتوسط.

في عام ١٩٩٧ أصدرت دار نشر شترومفلد Stroemfeld «طبعة خط اليد» لرواية المحاكمة كأول كتاب من «الطبعة التاريخية - النقدية للمخطوطات والطبعات الكاملة» من آثار كافكا. وبدئ بتوزيع الكتاب في آخر أيلول ١٩٩٧.

تتألف هذه الطبعة من الرواية من ستة عشر جزءاً، كل جزء في «دفتر» مستقل يضم فصلاً واحداً من فصول الرواية، دون ترقيم الفصول

(*) كان من المتوقع أن يصل ثمن المخطوطة إلى هذا المبلغ (نحو مئتي مليون ليرة سورية). لكن السلطات الألمانية كانت قد قامت بخدعة: انسحب مندوبيها الرسمي لدى وصول المزاد إلى مبلغ ٩٠٠ ألف جنيه. ولم يعد يوجد مزايد، ووقع المزاد على شخص غير معروف عرض ١,١ مليون جنيه. لكن تبين فيما بعد أن هذا الشخص هو أيضاً موقد من قبل السلطات الألمانية.

، تسلسلها. وذلك لأن كافكا لم يحدد هذا التسلسل، ولم ينفع روايته غير المكتملة. وعلى قارئ هذه الطبعة أن يحدد بنفسه تسلسل قراءة فصولها. وتضم الطبعة جزءاً إضافياً هو مقدمة كتبها رونالد رويس Roland Reuss أحد محققي الطبعة.

يرى رويس أن المرء لا يعرف شيئاً عن تسلسل ما يسمى فصول رواية المحاكمة، ولا يجوز له التكهن به. وتقسيم المحاكمة إلى «فصول مكتملة» و«فصول غير مكتملة» هو تقسيم خاطئ، إذ أن كل شيء في المحاكمة هو غير مكتمل، لذا لا يجوز أيضاً تسمية هذه النصوص «رواية».

في كل دفتر من هذه الطبعة نرى صفحة مصورة طبق الأصل عن صفحة مخطوطة كافكا بخط يده، وصفحة مقابلة لها مطبوعة طباعة عادية حرفية، تشمل أيضاً التصححات والإضافات والتشطيطات التي قام بها كافكا أثناء كتابته.

ولا تقدم هذه الطبعة نصوص كافكا بدقة تامة فحسب، وإنما تقدم التعبير واللامع الشخصية المميزة للشاعر من خلال خط يده. يقول رويس: «من يحب كافكا، يتعلق أيضاً بعالم خطه». في هذا الخط تبض حياة، وهو ذو تأثير ممتع ومنعش، يتبع قراءة أخرى يشعر القارئ أثناءها بقربه من الشاعر. يرى، مثلاً، متى كتب كافكا بسرعة، ومتى كتب ببطء. يجد نفسه في أعماق كتابة كافكا، ويقترب من عملية إبداعه.

وضعت الدفاتر السبعة عشر في علبة كرتون، وهي بطول ٢٨ سم وعرض ٢٢ سم وارتفاع ٩ سم. ويزن وزن النسخة الواحدة من هذه الطبعة ٥ كيلو غراماً، وثمنها ٣٩٨ ماركاً (أكثر من ٢٠٠ يورو^(*)).

(*) بعد إعلان دار النشر عن إصدار هذه الطبعة، وصلتها نحو ستمائة طلبية من قراء كافكا لشراء ستمائة نسخة. أي أن دار النشر استلمت من القراء نحو ربع مليون ماركاً قبل الصدور.

كتب ناقد عن «طبعه خط اليد» هذه: «سيمكن أخيراً قراءة كافكا الحقيقي».

وكتب ناقد آخر: «لقد تحددت كتابة كافكا في التوق إلى القانون، الكلمة النهائية، الكتاب، الذي لم يكن سوى كتاب مقدس: فكان لا بد من إخفاق كافكا. وهذه الطبعة تحول خط اليد إلى كتاب مقدس»^(٥).

يمكن القول إن شهرة كافكا إنما تقوم على إخفاقه.

عن «طبعه خط اليد» هذه تمت ترجمة المحاكمة في هذا المجلد من «الآثار الكاملة».

في عام ٢٠٠٠ كان يوجد في المكتبات في ألمانيا واحد وعشرون طبعة مختلفة من طبعات رواية المحاكمة، يتراوح ثمن النسخة الواحدة بين عشر ماركات و ٣٩٨ ماركاً. وكل طبعة تضم مقدمة وملحقاً مختلفين عما تضمه الطبعات الأخرى. وقد صدرت جميع هذه الطبعات بين عامي ١٩٩٠ و ٢٠٠٠. أما الطبعات التي صدرت قبل هذا التاريخ، فيمكن استعارتها من المكتبات العامة (أملك في مكتبي المنزلية خمس طبعات مختلفة من المحاكمة، إحداها «طبعه خط اليد»، ١٠).

(*) يذكر أدونيس كلمة للقديس غريغوار بالاماس، تقول: «لا يقدر أي كلام أن يأمل أي شيء غير فشله الخاص». ويتابع أدونيس: «لكن هل عند الإنسان رهان آخر أعمق وأجمل؟» (النظام والكلام، ص ٧١).

٥ - تسلسل فصول

كتب Kafka رواية المفقود في فصول متعددة كما نشرت فيما بعد. وكان يعتبرها قصة لا آخر لها. ولم يقدر أن يمنعها من التهديد بالفيضان دون الوصول إلى نهاية ختامية.

من هنا حاول لدى كتابته رواية المحاكمة أن يغير طريقة كتابته بتعاقب، وكتب بطريقة جديدة غير مألوفة بالنسبة إليه. لم يتم بتطوير أحداث الرواية في خط مستقيم، وإنما وضع أولاً حبراً الزاوية. فقد كتب الفصل الأول (اعتقال)، ثم كتب بعده مباشرة الفصل الأخير (نهاية)، وراح يكمل ما بينهما. كان يكتب في عدة فصول بالتناوب، وذلك دون خطة ثابتة ودون أن يضع على الورق تصاميم أو مسودات. بكتابته الفصلين الأول والأخير في الوقت نفسه تقريباً وضع Kafka إطاراً محدداً بوضوح. ولا ريب أنه أراد بهذا أن يتتجنب مشكلة الفيضان أو اللانهاية. فوق ذلك كانت مسألة ذنب الشخص الرئيسي ثابتة منذ البداية، وبهذا مسألة العقاب والموت. وأمكن وضع نهاية واضحة، مثلما هو الحال في الحكم والانساض. وأمكن وضع البقية بين البداية والنهاية، بين الاعتقال والإعدام، أجزاء مفردة تُجمع إلى فصول.

لقد أدت طريقة عمل Kafka، عدة مرات، إلى أن يكتب في عدة

فصول في الوقت نفسه. كما أن مشاغله اليومية وعدم تفرغه للكتابة أثرت على عمله، واضطر أكثر من مرة إلى البدء من جديد، ومواصلة الكتابة بعد انقطاع. وهذا ما أدى أحياناً إلى مصاعب. ومن هنا فشلت بعض المقاطع والوصلات، فحذفها دون أن يكتب بدلاً عنها. إن الخطوطة تمثل الكتابة الأولى، التي كان من شأن كافكا، ولا ريب، أن يجري عليها تقييمات، رغم وجود سلسلة من التصحيحات الفورية.

بتركيز هائل، لاميل له، كتب كافكا ثالثي رواية المحاكمة خلال خمسين ليلة، في الفترة الواقعة بين ١١/٨ و ١٠/١٩١٤ (في النهارات كان مضطراً لممارسة عمله الوظيفي لكسب المال، طوال ستة أيام في الأسبوع).

وفي مرحلة ثانية استغرقت ثلاثة أشهر وعشرين يوماً (١٩١٤/١٠/١ - ١٩١٥/١٢) كتب كافكا ما يبلغ حجمه ثلث الرواية. كتبه على نحو متقطع وببعض الصعوبات. لقد غادره «شيطان الشعر»، كما تقول العرب، أو غاب عنه الإلهام (لماذا لا تقول «إله» الشعر؟! و).

كان كافكا قد وضع بنفسه معظم عناوين الفصول، وليس كلها، ورقم صفحات كل فصل على حدة، دون أن يقوم بترقيم صفحات الرواية ككل.

كتب كافكا رواية المحاكمة في عشرة دفاتر، وأحياناً كان يكتب في عدة دفاتر دفعة واحدة. وفي هذه الدفاتر نفسها كتب قصصاً ومحاولات أخرى ويوميات. وفي ما بعد فك الدفاتر إلى أجزاء مفردة، وجمع الورق الذي كتب عليه نصوص المحاكمة في «حزمة ورق كبيرة»، أخذها برود إليه في عام ١٩٢٠.

* * *

في عام ١٩٢٥ نشر ماكس برود رواية **الحاكمة** في عشرة فصول،
اعتبرها فصولاً «مكتملة»، ورتبها حسب شعوره، إذ كان كافكا قدقرأ عليه
بعضها في عام ١٩١٤ . وكانت هذه الفصول كما يلي:

- ١ - اعتقال. حديث مع السيدة غروباخ. ثم الآنسة بورستن.
- ٢ - تحقيق أول.
- ٣ - في قاعة الجلسات الخالية/ الطالب/ المكاتب.
- ٤ - صديقة الآنسة بورستن.
- ٥ - الجلاد.
- ٦ - العم/ لني.
- ٧ - محام/ صاحب معمل/ رسام.
- ٨ - التاجر بلوك/ إخطار المحامي بإلغاء توكيده.
- ٩ - في الكاتدرائية.
- ١٠ - نهاية.

في الطبعة الثانية (عام ١٩٣٥) والطبعات التالية أضاف برود ملحقاً
خاصاًضم الموضع التي كان كافكا قد حذفها، والفصل الذي اعتبرها برود
«غير مكتملة»، وهي:

- إلى إلزا.
- سفرة إلى الأم.
- مدعى عام.

- البيت.

- صراع مع نائب المدير.

- نص حزئي.

* * *

وجاء أول انتقاد لهذا الترتيب للفصول من قبل دارس بلجمكي مختص في الأدب الألماني هو هرمان أوترسبروت *Uttersprot*. فقد نشر ثلاثة كتب في أعوام ١٩٥٣ و ١٩٥٧ و ١٩٦٦ ، وضع فيها ترتيباً حدّه ألمجموع آثار كافكا. وجاء ترتيبه للفصول رواية المحاكمة كما يلي:

١ - اعتقال. حديث مع السيدة غروباخ. ثم الآنسة بورستنر.

٢ - صديقة الآنسة بورستنر.

٣ - تحقيق أول.

٤ - في قاعة الجلسات الحالية/ الطالب/ المكاتب. إلى إلزا.

٥ - الجلاد.

٦ - العم / لني.

نص جزئي.

٧ - في الكاتدرائية.

٨ - محام/ صاحب معمل / رسام.

٩ - الناجر بلوك/ إخطار المحامي بإلغاء توكيه.

صراع مع نائب المدير.

البيت.

سفرة إلى الأم.

١٠ - نهاية.

* * *

في عام ١٩٧٧ تبع عالم أدب ألماني، هو هانز إليما Elema، هذه النظرية معتمداً على «السلسل الداخلي لمجرى الحدث» في الرواية. وأجرى بعض التصححات الطفيفة ليصبح سلسل الفصول كما يلي:

- ١ - اعتقال. حديث مع السيدة غروباخ. ثم الآنسة بورستنر.
- ٢ - صديقة الآنسة بورستنر.
- ٣ - تحقيق أول.
- ٤ - في قاعة الجلسات الخالية/ الطالب / المكاتب.
- ٥ - الجلاد.
- ٦ - إلى إلزا.
- ٧ - مدعى عام.
- ٨ - العم / لني. (نص جزئي).
- ٩ - محام / صاحب معمل / رسام.
- ١٠ - في الكاتدرائية.
- ١١ - التاجر بلوك / إخطار المحامي بإلغاء توكيده.
- ١٢ - صراع مع نائب المدير.
- ١٣ - البيت.

١٤ - سفرة إلى الأم.

١٥ - نهاية.

* * *

في عام ١٩٩٠ صدرت الطبعة «النقدية - التاريخية» بإشراف مالكولم باسلي Pasley في عشرة فصول وملحق مؤلف من ستة مقاطع، على النحو التالي:

١ - اعتقال.

٢ - حديث مع السيدة غروباخ. الآنسة بورستن.

٣ - تحقيق أول.

٤ - في قاعة الجلسات الحالية/ الطالب / المكاتب.

٥ - الجلاد.

٦ - العم / لبني.

٧ - محام / صاحب معمل / رسام.

٨ - التاجر بلوك / إخطار المحامي بـإلغاء توكيه.

٩ - في الكاتدرائية.

١٠ - نهاية.

صديقـة بـ.

مـدعي عـام.

إلى إلزا.

صراع مع نائب المدير.

البيت.

سفرة إلى الأم.

* * *

بعد نشر الرواية كان تأثير طاقة صورها الشعرية كبيراً للغاية، بحيث أنه لم يظهر أي شك في اختيار وترتيب الفصول. لقد كان لتفاصيل مفعول السحر، والكل بـدا غير قابل للإدراك، والتجزء بـدا ثانوياً. وبالتالي تقبل المرء، دون اعتراض، نفي مقاطع هامة وفصول إلى آخر الكتاب بصفتها ملحقة، لأن ما من أحد استطاع إدخالها إلى مجرى الحدث. حتى أن قصة حلم التي نشرها كافكا بنفسه عدة مرات لم تذكر ضمن الرواية، رغم أنها تخص يوزف ك، وتبيّن إمكانية من إمكانيتين لنهاية محاكمةه.

ولأن مخطوطة كافكا، التي جزأها إلى فصول مفردة، لا تحوي إشارة واحدة إلى ترتيب هذه الفصول، فإن ماكس برود اضطر إلى ترتيبها حسب شعوره. وعلم الأدب وثق آنذاك بصديق كافكا. ووقع جيش من المفسرين على آثار كافكا، وكان لديهم عمل كثير. إذ أن شعر كافكا استعصى على فهم المفسرين.

في هذه الأثناء يمكن التأكيد على أن هذا الترتيب للفصول إنما يمنع الفهم ويعقد التفسير. وما دام المفسر يحافظ على ترتيب الفصول الذي قام به ماكس برود، فإنه لن يقدر على إدراك لا مجرى الحدث ولا المعنى الكلي الكامن في الرواية. ولاريب أن فوضى الطبعات الأولى هي سبب النتيجة غير المرضية للتفسيرات الأولى. فعندما يجري تبادل السبب والنتيجة في

حدث ما، فلن يقدر حتى أكبر مفسر إيداعاً أن يقدم تفسيراً منطقياً. وبدلاً عن ذلك سوف يدعى أن الرواية لاتحوي تطوراً ولا تتضمن معنى. وفعلاً يعلن مفسرون كثيرون أن اللامعنى هو معنى رواية المحاكمة، وأن الالتفاسير هو سر شعر Kafka. لكن انعدام النتيجة ليس نتيجة. وتفسير فاشل ليس برهاناً على عدم قدرة حل المهمة والوصول إلى تفسير منطقي.

هذا التفسير قام به كريستيان إشفاييلر Christian Eschweiler وضع في أعوام ١٩٨٨ و ١٩٩٠ و ١٩٩٨ ، ثلاثة كتب تقع في ٧٢٠ صفحة عن المحاكمة، فسر فيها الرواية، وبين أن أحداثها إنما تتطور بشكل منتظم ومقنع، وتقدم معنى كلياً مفهوماً.

وبدلاً عن عشرة فصول وستة نصوص جزئية، ربّ إشفاييلر الرواية في تسعة عشر فصلاً على النحو التالي:

- ١ - اعتقال.
- ٢ - مدعى عام.
- ٣ - الآنسة بورستن.
- ٤ - صديقة الآنسة بورستن.
- ٥ - تحقيق أول.
- ٦ - الجلاد.
- ٧ - في قاعة الجلسات الخالية/ الطالب/ المكاتب.
- ٨ - إلى إلرا.
- ٩ - صراع مع نائب المدير.
- ١٠ - العم/ لبي.

- ١١ - نص جزئي.
- ١٢ - في الكاتدرائية.
- ١٣ - محام/ صاحب معمل.
- ١٤ - رسام.
- ١٥ - التاجر بلوك / إخطار الحامي بإلغاء توكيه.
- ١٦ - البيت.
- ١٧ - سفرة إلى الأم.
- ١٨ - حلم.
- ١٩ - نهاية.

(في هذا المجلد الثاني من «الآثار الكاملة» جرى اعتماد نظرية إشفايلر في اختيار وترتيب فصول رواية المحاكمة ١.و).

* * *

في عام ١٩٩٧ صدرت «طبعة خط اليد» من رواية المحاكمة في ستة عشر جزءاً، كل جزء كتاب مستقل يضم فصلاً واحداً من فصول الرواية، ودون تحديد تسلسل الفصول (راجع ص ٧٨٩ - ٧٩٠ من المجلد الأول وص ٢٩٧ - ٣٠٢ من هذا المجلد».

عن: بايكن (١٩٩٥)
 Beiken
 ميلر (١٩٩٦)
 Mueller
 إشفايلر (١٩٩٨)
 Eschweiler

٦ - شرح مفردات وتعابير

المحاكمة: «التحمل المخطوطة عنواناً. لكن كافكا كان في حديثه يعطي الرواية دائماً عنوان (المحاكمة)». هكذا كتب ماكس برود في مقدمة الطبعة الأولى. وفي يومياته يسمّي كافكا كتابه **محاكمة**. غير أنه ليس من المستبعد أن يكون هذا العنوان هو عنوان عمل، كان من شأن كافكا، ربما، أن يغيّره فيما لو قام بتنقيح المخطوطة. كان من عادة كافكا ألا يعطي عنواناً نهائياً إلا بعد انتهاءه من كتابة النص.

Der Prozess: هذه الكلمة الألمانية تحمل المعاني التالية:

- ١ - **محاكمة:** يعني قضية، تقاض، مقاضاة، نزاع قضائي، دعوى قضائية.
- ٢ - **قضية:** يعني مسألة، مشكلة، شأن (مثلاً قضية طبقية، كما قدمها بيتر فاييس للمسرح اقتباساً عن رواية كافكا، أو القضية الرئيسية... القضية المعلقة بين كافكا ووالده).
- ٣ - **عملية:** يعني مجازي، مثل عملية الكتابة.
- ٤ - عملية تحول كيميائي أو تقني.
- ٥ - طريقة. نسق. نهج.
- ٦ - سير. مجرى. تطور.

كتب دارس: «لا يجوز لهم عنوان الرواية إجراء قضائياً، وإنما كتحوّل. عملية تدريجية لفعل التحوّل». وكتب ثان: «إن ماهية محاكمة ما تظل السر الأكثر خصوصية للفرد المفكر».

اعتقال (ص ١٥): عنوان الفصل هذا ليس من وضع كافكا، وإنما من وضع الناشر.

لهذه الكلمة عدد من المعاني المجازية بعدد التفسيرات التي عرفتها الرواية. هنا يذكر معنى المفردة الذي يناسب «المعنى الكلي» للأثر الفني على خير وجه، وذلك ضمن تفسير الرواية الذي يأخذ أكبر حجم في هذا الجلد: الاعتقال هو صورة شعرية عن يقظة ذهنية؛ وإدراك للمعرفة وللذنب؛ اعتماد على الذات، واتباع نداء العقل؛ إعادة تقييم الحياة وتغيير طريقتها.

يوزف ك (ص ١٥ س ٢): من المرجح أن كافكا يشير إلى اسمه. في عهد قيسar النمسا الأسطوري فرانز يوزف الأول، الذي حكم الإمبراطورية النمساوية طوال ٦٨ عاماً (بين عام ١٨٤٨ وعام ١٩١٦)، كان اسم يوزف نظيراً طبيعياً لاسم فرانز. في يوميات كافكا ثمة جملة ذات دلالة باللغة: رغم أنني كتبت للفندق اسمي على نحو واضح، ورغم أنهم أيضاً كتبوا لي اسمي مرتين على نحو صحيح، فقد كتب على اللائحة في الأسفل يوزف ك. هل ينبغي علي أن أوضح لهم أم أدعهم يوضّعون لي؟

من شأنه (ص ١٥ - س ٣): للدلالة على صيغة غير حقيقة. إذا حذفت بحجة أن أسلوباً جذلاً يقتضي ذلك، فإن معنى الجملة كلها يتغير تغيراً غير طفيف.

كان يرتدي رداء محبوك التفصيل أسود اللون، يحمل مثل بدلات السفر ثنيات مختلفة وجبيباً وبكلات وأزراراً وحزاماً، وبالتالي بدا رداء

عملياً (ص ١٥ س ٩ - ١١): لقد اهتم كافكا دائمًا بملابس شخصه اهتماماً كبيراً. ميدئياً يجب التمييز بين ملابس ضيقة وأخرى فضفاضة. إن الملابس الضيقة تحذر من الحركة وتعيق عن العمل. لا يعود الجسم أداة لصاحبها، وإنما أداة للسلطة. طبقاً لذلك تظهر الملابس الضيقة لدى كافكا وسيلة لتمثيل سلطة غائبة. وكأن قبضة غير مرئية آتية من بعيد تطوق مرتدى هذه الملابس.

جلس معتدلاً في الفراش (ص ١٥ - س ١٢): في معظم نصوص كافكا تتجمّع حول الفراش أحداث حاسمة.

في كل مكان يسود السلام (ص ١٨ س ٧): تلميح ساخر إلى الوضع السياسي في آب ١٩١٤ ، حيث كانت إمبراطورية النمسا قد أعلنت الحرب على صربيا، مما أدى إلى قيام الحرب العالمية الأولى.

والآن كانت المنضدة الصغيرة قد أزيحت من جانب سريرها إلى وسط الغرفة كطاولة محاكمة، والراقب جلس وراءها (ص ٢٤ س ٤ - ٦): إن تغيير وظيفة منضدة الآنسة بورستن وتحويلها إلى طاولة محاكمة يبيّن العلاقة بين الفراش والمحكمة. إن الشؤون الشخصية في آثار كافكا ليست نقضاً للشئون العامة، وإنما تشكّل بصفتها مكاناً للمحكمة الميدان الاجتماعي بعامة.

كانت مجموعة المقهي المداومة... تضم فقط تقريباً قضاة ومدعين عموميين ومحامين (ص ٣١ س ٣ - ٦): تنتهي هذه المجموعة إلى الحياة اليومية المألوفة، ولا علاقة لها بالقضاء الآخر، المجهول، الذي يتعرض له يوزف ك. إن معرفة ك لهؤلاء السادة الكبار والرجال الوجهاء الأقوباء لتنفيذها شيئاً في محاكمته الغامضة. إن الهوة القائمة بين المجالين المختلفين تتصحّح هنا، إذًا، أكثر وضوحاً.

كان مبني في شارع ضاحية بعيد لم يسبق له أن كان فيه قط (ص ٦١ س ١٥): كون التحقيق لا يجري في مبني محكمة مألف يقع في مركز المدينة، يشير إلى أن المحكمة التي تقاضي يوزف ك ليست محكمة بالمعنى اليومي المألف. وسكان الضاحية يعكسون، بمستواهم المتدني، الماهية الداخلية للمحكمة الأخرى.

سيكون من الأفضل أن يحضر في الساعة التاسعة من صباح يوم الأحد، وذلك لأن جميع المحاكم تبدأ عملها في هذه الساعة من أيام العمل (ص ٦٣ س ٣ - ٦). هذا أيضاً هو إشارة أخرى إلى تباين محكمة ك عن المحاكم العادلة.

اختلق نجاراً باسم لانز - خطر له الاسم لأن النقيب، ابن أخي السيدة غروباخ، كان اسمه هكذا (ص ٦٥ س ٢١ - ٢٢): ك يختلط شخصاً ويعطيه، عن طريق المصادفة على ما يبدو، اسم النقيب، وبهذا يص ك إلى حجرة التحقيق. هذا المشهد يؤكّد أن المحكمة والمدعى عليه يجدانهما إلى بعضهما بعضاً بطريقة غامضة. بهذا يتكشف جو التهديد.

لا يستطيع الناس أن يقفوا إلا وقد انحنوا واصطدمت رؤوسهم وظهورهم بالسقف (ص ٦٧ س ٧ - ٨): معظم من له علاقة ما بالمحكمة يتخذ وضعاً مشابهاً.

كان بعضهم ذوي لحي بيضاء (ص ٧١ س ٢٢): اللحية و موقف الانحناء يميزان عدداً كبيراً من الشخصوص التي تنتمي إلى المحكمة أو التي لها علاقة بها.

علي أن أعيش أسرة، وفرانز هنا أراد أن يتزوج (ص ٨٠ س ٧): من الجائز أن يكون هذا القول تلميحاً ساخراً إلى وضع Kafka الشخصي وخططه للزواج قبيل كتابة الرواية.

وبينما راح يتلوى تحتها، راح طرفها يتحرك جيئةً وذهاباً بانتظام (ص ٨٣ س ٤)؛ دائماً عندما يدع كافكا آلة تعذيب تتحرك جيئةً وذهاباً بانتظام، فإنه يعني أيضاً صعود وهبوط سُنْ قلمه على الورق العنيف؛ إنه لا يعني مجرد تعذيب أي مُدان على المستوى الخيالي للحدث، وإنما التعذيب الذاتي الشهوانى الذي يقوم به الكاتب فراز و هو يجلس إلى طاولة الكتابة. وخير مثال على ذلك هو قصة في مستعمرة العقاب.

تقدّم إلى نافذة قرية مطلة على الفناء وفتحها (ص ٨٣ س ٦)؛ تستخدم النافذة، في الرواية، مكاناً للراحة والتحفيظ عن النفس.

صورة خلية (ص ٨٨ س ٢٢)؛ لا يوجد على مكتب قاضي التحقيق كتب قانون، وإنما كتب عقيقة بالية تحوي صوراً خلية. وهذا يطابق توصيف معظم شخصوص الرواية. فيخلفية حدث الرواية بكماله فيجتر بالجنس طاقةً قوية، لكنها غالباً ما تكون خطيرة وسلبية.

أول طالب من طلاب علوم الحقوق التي لا علم له بها (ص ٩٢ س ٢٠)؛ ربما تلميح ساخر إلى دراسة كافكا لفرع الحقوق، التي أنهاها بدرجة متوسط.

وجلس فوق الطاولة (ص ١١٩ س ٦)؛ موضوع الجلوس «غير التقليدي» يظهر أربع مرات في فصل العم / لني. إنه تنويع على فعل يجلس على كرسي عرش. عندما يرفض العم المقدّع الوثير الذي يدعوه ك للجلوس فيه، ويحتل طاولة المكتب، فإنه يستحوذ على منطقة نفوذ ك، وبهذا يستحوذ على الموقف.

الخامي هولد (ص ١٢٥ س ١٢) من معاني كلمة Huld: حظوة، نعمة، رحمة، لطف، أحاسيس خيرية. في مجرى الحدث تُقلب هذه المعاني لتتصبح من باب التهكم.

ولم يكن ضوء الشمعة الصغيرة لينفذ إلى الجدار المقابل (ص ١٣١ س ٨)؛ إن العتمة والغيش هما من صفات كثير من الأمة التي يلتقي كفيها مع مثلي المحكمة.

عاهة (ص ١٣٧ س ٤) يلفت النظر إلى أن كثريين من الشخصوص التي يلتقي بها ك هي ذات عاهات أو مرضية. كاميير، الآنسة مونتاباغ، خادم الكنيسة، المحامي، المدير. كذلك هناك وضع الانحناء الذي يتواجد فيه كل من له علاقة بالمحكمة. إن ك يتحرك في عالم من المرضى والمشوهين... يربط بينهما غشاء يصل إلى المفصل الأعلى للإصبعين القصيريـن... أي مخلب جميل! (ص ١٣٧ س ٦ + ٩)؛ صورة شعرية ترمز إلى حسية لبني.

وراحت تعـض وتقـيل عنقه، بل وعـضـت في شـعـره (ص ١٣٧ س ١٤)؛ في تكرار فعل العـضـ إبراز لحسية لبني.
«الآن أنت لي»، قالت.

«إـلـيـكـ مـفـتـاحـ الـبيـتـ»، (ص ١٣٧ س ١٨ + ١٩)؛ بين الجملتين يجري تجـبـبـ وـصـفـ الـاتـصالـ الـجـسـيـ.

صديق عمل إيطالي من أصدقاء المصرف... حقيقة إن معرفة ك باللغة الإيطالية لم تكون كبيرة جداً، لكنها كافية على كل حال... كان يلم منذ وقت سابق بعض المعلومات في مجال تاريخ الفنون (ص ١٤١ س ٢ + ص ١٤٢ س ٢٠)؛ أول عمل وظيفي قام به كافكا كان في فرع شركة تأمين إيطالية. وقد بدأ آنذاك في تعلم اللغة الإيطالية. وكان قبل ذلك يرغب في دراسة تاريخ الفنون، وقد استمع إلى عدد من المحاضرات، قبل أن ينتقل إلى دراسة الحقوق.

إن الرواية مليئة بمثل هذه الإشارات من سيرة حياة كافكا.

يرجوه... أن يكون في الكاتدرائية.. في نحو الساعة العاشرة (ص ١٤٥ س ١٥). أتى (ك) في الوقت المحدد، فعند دخوله تماماً دقت الساعة الحادية عشرة (ص ١٤٧ آخر سطر): هذا مثال على عدم تنقیح كافكا لروايته. في الطبعات الأولى وتحت ماكس برود الساعتين. لكن بعض الدارسين رأوا أن من الممكن أن يكون كافكا قد استخدم عمداً ساعتين مختلفتين لكي يلمح إلى أن ساعة كـ«الداخلية» لم تعد تطابق ساعة البشر. وهكذا أيضاً أدعى أن كافكا لم يهتم بتعاقب فصول السنة. حيث أن الخريف يأتي بعد الشتاء، إذا أخذنا بترتيب فصول الرواية المعمول به في جميع طبعاتها البالغ عددها واحداً وعشرين طبعة (حتى عام ٢٠٠٠).

منيراً جانياً صغيراً... يقيناً لم يكن في مقدور الواقع أن يرتد خطوة كاملة من الحاجز... كان تكور التبر.. بتقوس على نحو لا يستطيع معه رجل متوسط القامة أن يقف هناك متتصباً، وإنما لابد له أن ينحني فوق الحاجز باستمرار (ص ١٥٠ - ١٥١): يبدو التبر فرعاً للعلية: مكان يرغم سقفه على أن يقف المرء منحنياً.

مذ يده وأشار بسبابته، وهو يخفضها بشكل عمودي نحو الأسفل (ص ١٥٣ س ٢١): تقف هذه الإشارة من يد القس في تناقض شديد مع عرض لبني ليدها. إن السبابة التي تشير إلى موضع محدد بدقة هي واضحة الإشارة، في حين أن يدبني ليست كذلك. إن اليدين تشيران إلى القطبين المتنافرين. إن أفقية «العالم المستنقعي» وعمودية العالم «الذهني» تعادان إلى إشارتي يدين. أي اقتضاب!

لم يعد نهاراً معتماً، بل كان ليلاً دامساً. وما من نقش على الزجاج للنوافذ الكبيرة كان قادراً على أن يقطع الجدار المظلم ولا يرمض. والآن بالذات بدأ خادم الكنيسة بإطفاء الشموع على الهيكل الرئيسي واحدة

بعد الأخرى (ص ١٥٥ س ١٦ - ١٩): ازدياد العتمة حتى تصبح ليلاً دامساً هو تحضير لقصة القس عن القانون وحارسه، والتي يشكل البريق الذي يتدفق من باب القانون ذروتها.

حارس الباب خدع الرجل إذاً (ص ١٥٨ س ٢١): وصف كافكا المقطع الذي يبدأ هنا بأنه تفسير. علماً أن هذا التعبير يأخذ طابعاً يقترب من السخرية، حيث أن هذا التفسير، هو أيضاً، يحتاج إلى تفسير.

مراقبة دفاع (ص ١٦٦ س ١١) يرى بعض النقاد أن مراقبة الدفاع ومذكرة الالتماس والعربيضة إنما قد تعني رواية المحاكمة نفسها.

إنها في حقيقة الأمر العدالة وإلاهة النصر في آن (ص ١٩٩ س ٢٢). بدت الشخصية تتغلغل بشكل خاص، لم تعد تذكر بإلاهة العدالة، كما لم تعد أيضاً تذكر بإلاهة النصر، لقد بدت الآن بالأحرى مثل إلهة الصيد على أتم وجه (ص ٢٠٠ س ٢٠): إن تحول الشخص يوضح موضوعياً بأن الرسام إنما يقوم بإجراء تعديلات على عمله الفني، علماً أنه يجب مراعاة أن أقلام الشمع تعطي صورة أقل وضوح نسبياً. كما أن تبدلاً يطرأ على لوعي ك: يشعر على نحو متزايد أنه ليس مدعى عليه في دعوى شرعية عادلة يدان طبقاً لأحكام القانون السائدة، وإنما يجد لنفسه ضحيةً تطارد.

هل تريد ربما أن تخلع معطفك؟ (ص ٢٠١ س ٢٣): خلع ملابس قد يعني تسليم الذات، وارتداء ملابس قد يعني تصليب الذات. وكان يهم الرسام أن يفسر على نحو ما مزاج ك (ص ٢١٥ س ١٣): هذا هو الموضع الوحيد في المحاكمة الذي يلمع إلى علاقة تجاوب بين ك و أحد الشخصوص المحيطة به. كان رجلاً صغيراً نحيفاً ذاتياً (ص ٢٢٠ س ١٧) التاجر بلوك هو

شخصية موازية لشخصية يوزف ك. ووصف محاكمته يتفق في نقاط كثيرة مع تجربة ك، (مثل: بين أقارب بي بدأ إشاعات عن محاكمتي تنتشر ص ٢٣٠ آخر سطر). لكن محاكمة الناجر هي، من طرف آخر، بالقياس إلى محاكمة ك، قدية جداً هي، إذًا، إسقاط على المستقبل. إن شخصية بلوك توضح التطور الذي من شأن محاكمة ك أن تتخذه إذا استمرت أعواماً.

فولفارت (ص ٢٥٠ س ٤): من الواضح أن مقطع الرواية الذي تظهر فيه هذه الشخصية لم يكتب. وهذا دليل آخر على عدم اكتمال الرواية. **وضغط وجهه في الجلد** (ص ٢٥٣ آخر سطر): في طبعة خط اليد يلاحظ أن كافكا حاول أكثر من مرة تكملة هذا الفصل. وقد كتب صفحتين كاملتين، لكنه شطبهما.

أثار هذا الفصل، بقسميه المشطوب وغير المشطوب، المفسرين على نحو خاص. بل إن أحدهم، بايسنر، اتخذ هذا الفصل بقسميه منطلقاً لتفسير الرواية بكاملها.

«مثل كلب!» قال، لكن الأمر كان وكأنما الخجل يبقى بعده (ص ٢٦٦ آخر سطر): هذه هي الصيغة الثالثة التي كتبها كافكا للجملة الأخيرة في الرواية. قبل ذلك كتب صيغتين آخريتين، ثم شطبهما. الأولى: كان إحساسه الأخير بالحياة هو الخجل. والثانية: حتى آخر نفس لم يُجئ الخجل.

مثل الجملة الأولى في الرواية، عرفت هذه الجملة الأخيرة، لكن الأمر كان وكأنما الخجل يبقى بعده، عدداً من التفسيرات مثلما عرفت الرواية بكاملها. هنا يذكر ثلاثة منها:

١ - «يموت ك وشعور الخجل يتملكه، لأنه أهمل واجبه بأن يغمد بنفسه السكين في قلبه».

٢ - «ماذا تعني الكلمة الخجل هنا؟ لا يمكن قصر الكلمة على المجال الجنسي، لكنها تعني أكثر من «عار»، التي هي مشتقة منه. القاموس يشرح الكلمة Scham بأنها شعور خجل مُقبض يسبّبه الندم أو الانكشاف أو إدراك العجز الذاتي أو شيء خارج عن الحشمة أو شائن. ويبدو أن استخدام كافكا للكلمة إنما يمس الطيف الدلالي الممكّن بحده». إن خجل يوزف ك إنما ينشأ من إدراك للذنب. وهذا الإدراك هو شرط إزالة الذنب، أي التطهير... إن المحاكمة ليست حكماً وعقاباً فحسب، وإنما امتيازاً أيضاً وإنقاذاً ليوزف ك، بتعريفه نفسه لها».

٣ - ك يحس موته «إعداماً. وبالتالي فإنه لا ينفق على نحو آخر سوى كما ينفق كل حيوان. مثل كلب! هكذا جاءت كلمته الأخيرة، صحيح، لكن بهذه المقارنة يعي أيضاً على الفور إخفاقه وهزيمته. لذا فإن الخجل الناجع عن ذلك هو تعبير عن إنسانيته المستరدة وعن الأمل المرتبط بها لأن يبقى بعده. هذه الكلمة الأخيرة للرواية تظل بلا ريب المفتاح لفهمها».

(اعتماداً على هذا المعنى الأخير، وبعد نقاش عدّة مرات مع المفسّر شخصياً، وبناء على نصيحته الملحة، بل ورجائه، أضاف المترجم الكلمة «لكن»، غير الموجودة في الأصل الألماني، إلى الجملة الأخيرة في رواية كافكا، هذه الجملة هي حرفيأ: «مثل كلب!» قال، كان الأمر وكأنما الخجل يقى بعده^(*).

عن: هربرت كون (٢٠٠٠) Heribert Kuhn

ميغائيل ميلر (١٩٩٦) Michael Mueller

كريستيان إشفايлер (١٩٩٨) Christian Eschweiler

(*) ما جاء في هذا الفصل هو مجرد أمثلة. إذ أن شرح معظم المفردات والتعابير في الرواية يضيق عنه نطاق هذا الكتاب، ويحتاج إلى كتاب كامل مستقل (أ.و.).

٧ - من تفسيرات أولى

«مع كافكا نفسه لم يكن في مقدور المرء طبعاً أن يتحدث أبداً عن تفسيرات، حتى لدى أكبر مودة وألفة. وهو نفسه كان يفسر بطريقة تجعل التفسيرات بحاجة إلى تفسيرات جديدة».

هذا ما كتبه ماكس برود عام ١٩٢٥ ، العام الذي نشر فيه رواية المحاكمة.

لكن برود قدّم بنفسه تفسيره الشخصي لهذه الرواية. وبهذا أثار أول وأكبر سوء فهم لهذا الأثر الفني العظيم. لقد حُول برود صديقه كافكا إلى كاتب يهودي، وقال إن روایتی المحاكمة والقلعة إنما تصوران شكلي ظهور الألوهية (يعنى القبالة)، وهما المحكمة والرحمة.

وتحت تأثير برود قام عدد من المفسرين بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٣٥ بتفسير رواية المحاكمة أمثولةً دينية وعرضًا لبحث عن الله.

فيما بعد رفض هذا التفسير من قبل جميع المفسرين الرصينين. مثلاً هارتموت بيتر، الذي يعتبر واحداً من أهم دارسي كافكا والختصين في شعره، كتب في كتابه الضخم عن قصة أيام القانون، الصادر عام ١٩٩٣ ، أنه لا يوجد إشارة واحدة لا في حياة كافكا ولا في آثاره تدل على أنه شغل

نفسه مرة بموضوع القبالة^(*). وعلى مدى نحو ستين صفحة من كتابه يفتقد بيندر ويدحض، على نحو علمي ومقنع، التفسير اليهودي لرواية المحاكمة، ويكتب: «إذا جمعنا كل ما وجب قوله نقدياً عن المحاولات الرامية إلى وضع المحاكمة تحت تأثير القبالة، فلا بدّ لنا من الوصول إلى النتيجة بأن هذه الفرضية إنما تمثل اختلافاً مكشوفاً لا يوجد له أي سند لا في حياة كافكا ولا في آثاره. انطلاقاً من هذه السياقات أيضاً لا يوجد أي داعي لتفسير أمام القانون على خلفية هذا المذهب اليهودي السري».

الكاتب فيلي هاس Willy Haas، الذي كان يعرف كافكا شخصياً دون أن يكون صديقاً له، كتب: «إن المحاكمة هي رواية واقعية، لكن ليس بالمعنى المألوف. وحسناً، إنها رمزية أيضاً، لكن مثلما هي كتابات دوستويفسكي وزولا وستاندال، بل وهو ميروس، وتعني: ضمير العالم المتقطط في روح مفردة. في رواية كافكا تحدث أكثر الأمور غرابة. لكن هذا هو العبرى: كل شيء واقعى كلياً وبدقة متناهية، ودون أن يبدو محالاً أو غير مقنع... بهذه الرواية تملك وثيقة عصرية لفن قص جديد».

وفي كتابه «شخصيات العصر»، الذي صدر عام ١٩٣٠ ، كتب هاس مقالة ثانية عن كافكا جاء فيها: «يبدو أن كافكا يقف على درجة من التطور البيولوجي أعلى من الدرجة التي تقف عليها نحن البشر الآخرون». ويرى هاس في كافكا شخصاً مثل «قديس جديد»، وفي المحاكمة «أثراً فنياً مثل كتاب مقدس».

كان الكاتب إرنست فايس Ernst Weiss صديقاً لكافكا. وقد كتب في عام ١٩٢٥ : «الفرد يصاب باليأس من إمكانية الحياة، من معنى الوجود،

(*) مذهب يهودي سري عرف في أوروبا الشرقية في القرون الوسطى (ابو).

بل ومن معنى السؤال عن معنى الوجود. وما لا يقدر أن يعثر عليه في نفسه، يريد أن يعثر عليه في الجماعة، في صورة من صور البشرية... مع المحاكمة زادت آداب البشرية أثراً فانياً خالداً... إنه أثر فني نموذجي عظيم... إن يوزف ك هو مدعى ومدعى عليه وشاهد وحيد يقوم بمحاكمة نفسه... ليست المحاكمة بكمالها شيئاً آخر سوى محاكمة صوت الضمير الخاص بفرد. وليس هذا الأثر الفني شيئاً آخر سوى رواية بوليسية عن روح فرد. فرد يبحث عن بصمات نفسه. إنه متهم من قبل نفسه، ومدان من قبل نفسه. إنه قاض ومدعى في شخص واحد. وكون الحكم يظهر إلى الملا دون إرادة كافكا، وبعد أن عانى هذا طوال حياته من سرية المحاكمة، يجعل هذا الأثر الفني وثيقة حياة حقيقية تهز أعماق النفس».

الشاعر كورت توكولسكي Kurt Tucholsky نشر عام ١٩٢٦
مقالة وصل فيها إلى نتيجة مفادها أن المحاكمة هي كتاب لا يقدر إنسان بمفرده طوال حياته أن يفسرها تفسيراً كاملاً.

«المحاكمة لكافكا هو كتاب رهيب وجبار أكثر من أي كتاب آخر. وعندما أضعه من يدي، لا أقدر أن أقول ما هي أسباب الرجفة التي خلفها في نفسي. من يتحدث؟ ما هو الأمر؟... إن الكاتب يروي، يروي بهدوء لا يتزعزع... إن مشهد الجناد في الرواية يبين مزيجاً قاسياً من الواقع الأكثروضحاً واللأرضي.. المحاكمة تحتاج إلى محام، وك يجده. لكن هنا غادر الكتاب الأرض كلية تقريباً. إنه مثل مقدوف راح يحوم في الفضاء...»

هل هي رواية ساخرة تهجو القضاء؟ لاشيء من هذا. كما أن مستعمرة العقاب ليست قصة ساخرة تسخر من الأجهزة العسكرية، وكما أن الانساخ ليست قصة ساخرة تسخر من الطبقة البورجوازية. إنها صور إبداعية مستقلة، لن تفسر تفسيراً كاملاً فقط.

طلبت من ماكس برود رأيه في المحاكمة فكتب لي مايلي:
(المحاكمة التي تجري هنا هي المحاكمة الأبدية التي يقوم بها إنسان
مرهف الحس مع ضميره. يوزف ك يقف أمام قضاة الداخلين...
مع كافكا نفسه لم يكن في مقدور المرء طبعاً أن يتحدث أبداً عن
تفسيرات، حتى لدى أكبر مودة وألفة. وهو نفسه كان يفسر بطريقة تجعل
التفسيرات بحاجة إلى تفسيرات جديدة. هكذا كما لا يمكن أن يُستَّ في
محاكمته قط).

وهذه المحاكمة لم تكن قط أمثلة. لقد صُممَت منذ البداية كرمز،
وفي الحقيقة استقل هذا الرمز، وبات يعيش حياته الخاصة به. وأية حياة!...
... في ختام المشهد لدى الرسام يخرج ك من المرسم ليجد نفسه
في دهليز المحكمة. «ماهذا؟» سأله الرسام. «علام تعجب؟» سأله هذا
متعجباً من طرفه. «إنها مكاتب المحكمة. ألم تكن تعلم بوجود مكاتب
محكمة هنا؟ توجد مكاتب محكمة في كل عملية تقريباً، لماذا عليها أن
تغيب هنا بالذات؟».

إنه حلم إذَا! أحس أنه ما من شيء أكثر خطأ من أن نسعى إلى فهم
كافكا بهذه الكلمة المنفخة. إن الموضوع أكثر من حلم. إنه حلم يقظة.
... إن كافكا شاعر من مقاس نادر... يرى العالم مثلما يرى المريض
أدوات الطبيب قبيل إجراء العملية: بنظرية حادة للغاية، وبوضوح تام، ومادياً
ولا ريب. لكن وراء القطع اللامعة ثمة شيء آخر، إن القلق يزأر في مسام
المادة، سرير العملية الجراحية يقف بلا رحمة، الرأفة! يقول المريض، أيضاً
أنت! إن الفراش لغريب، لكنه حليف.

مثل هذه الإرادة تؤسس مذاهب وأدياناً. كافكا كتب كتاباً، كتاباً

قليلة، لا سبيل إليها كلياً، لا يمكن إتمام قراءتها فقط. ولو فكر الخالق على نحو آخر، ولو ولد هذا في آسيا: كان من شأن ملايين أن تتعلق بكلماته تعلقاً، وتتأمل فيها طوال حياتها.

يجوز لنا أن نقرأ، ونندهش، ونفكّر».

في عام ١٩٢٧ كتب الناقد فيلي بويكرت: «لم يعد الإنسان الذي كتب كتاب المحاكمة على قيد الحياة. لقد مات لأنه كان عليه أن يموت. لأنه لم يتحمل المحاكمة التي جرت ضده. وهذا الكتاب هو كل شيء مما يشهد على الآلام التي تجثم على صدره. ومن هنا سوف يجوز أن يُعد من الكتب القليلة التي كان لابد أن تكتب ذات مرة: بعض النظر عما إذا قرئت أم لم تقرأ. الكتب التي يجب أن تكون موجودة. إذ لو لا مثل هذه الشهادات، ستكون الحياة البشرية بلا معنى».

الacasch أوتو شتوسل فستر، في عام ١٩٢٦ ، المحاكمة رواية بسيكولوجية، وقال إن كافكا إنما عرض العزلة الروحية لفرد ومرضى عقلياً عرضاً واقعياً على نحو لا يجارى. «إن التصورات المرضية تعرض على نحو بدائي وصائب، والأحداث تعالج كحقائق لانقبل الجدل. ومتابعة المحاكمة لأنثى كتصور، وإنما كواقع ملخ». .

في عام ١٩٣١ نشرت في مجلة كان قد أسسها سيموند فرويد مقالة مطولة تحت عنوان «جحيم فرانز كافكا» حاول فيها كاتبها هلموت كايزر أن يفسر مجموع آثار كافكا تفسيراً بسيكولوجياً، ورأى الكاتب أن هذه الآثار تصلح خير ما تصلح لمثل هذا التحليل النفسي. «إن آثار كافكا هي مزيج من خيال عريض وواقعية صارمة، وتشابه الأحلام، وتقارب أروع الآثار الفنية بالقوة الحية للغتها ووضوحها المقنع؛ كل هذا يسمح بإعطاء نظرة عن تيارات اللاوعي الذي أنتج هذه الآثار، كما لم يحدث في شعر

آخر.

في ترابط مضمونها الرمزي يمكن مقارنتها بالحكايات الخرافية والأساطير، لكنها تمتاز عنها، بالنسبة إلى الاهتمام البسيكولوجي، بأنها تجسّد الأقدار الداخلية لفرد واحد وتبيّن، من هنا، علاقت تطور شخصية كامل».

يريد كايزر إذاً أن يفتح، من خلال تفسير آثار كافكا، مدخلاً إلى بنية شخصية كافكا، ولا سيما إلى «اللاوعي» الفاعل فيها. «إننا نبحث في طبقة من طبيعته لا سبيل إليها إلا عن طريق التأمل التحليلي، هذه الطبقة التي تظل في الظلام دائمًا لدى معظم الناس».

يدرس كايزر القصص القصيرة بالدرجة الأولى، لكنه يرى أن النتائج التي توصل إليها قابلة للنقل إلى مجموع آثار كافكا. وقد أثبتت هذه المقالة مدرسة تفسير كاملة، وهي ذات أهمية بالنسبة إلى استقبال رواية المحاكمة. يصل كايزر إلى نتيجة بأن يوزف ك إثما يعاني من اضطراب غريرة و«رادع جنسي»، وأنه «تعذب بسبب احتقان الشهوة الجنسية، التي لم تُعط إمكانية لإشباعها».

الفيلسوف فالتر بنيامين Walter Benjamin كتب في عام ١٩٣٤، بمناسبة مرور عشرة أعوام على وفاة كافكا، مقالة مطولة رفض فيها التفسيرين الديني والبيكولوجي لآثار كافكا، وفتر هذه الآثار بناء على مبدأ فلوفي تاريخي. يرى بنيامين أن آثار كافكا تعالج موضوعاً واحداً وحيداً، هو «تشوه الوجود»؛ وأن الشاعر ينظر إلى ماضي البشرية، الذي هو «عالم مستنقعات»، وإلى مستقبلها في آن. يرى في الماضي ذنباً، وفي المستقبل محكمةً. ولا يرى في عصره تقدماً عن البداية الأولية للبشرية. إن

أحداث روایاته تجري في عالم مستنقعي.

ويذكر بنیامین أن نقاشاً محتدماً طويلاً جرى بينه وبين الكاتب المسرحي برتولد برشت حول هذه المقالة وكافكا ورواية المحاكمة. رأى برشت أن مقالة بنیامین تشجع العصبية اليهودية، وتزيد وتنشر الظلام الذي يلفّ شخصية يوزف لك بدلاً من أن تساعد على انتشاعه. المهم، حسب برشت، هو توضيح كافكا، وهذا يعني صياغة المقترنات العملية التي يمكن استقاءها من آثاره. ويجب البحث عن هذه المقترنات في مجرى الظروف العامة السيئة التي تقضي ماضي البشرية الراهنة. وحاول برشت التدليل على انعكاس هذه الظروف في آثار كافكا، ولاسيما في رواية المحاكمة. إنها تعتبر، حسب رأيه، عن القلق من تزايد نمو المدن الكبرى الذي لا يمكن إيقافه. قال برشت إنه يعرف عن خبرة الكابوس الذي يحثم على صدور الناس. إن التبعيات والتشابكات التي يقع فيها الناس في أشكال وجودهم الراهنة تجد تعبيراً عنها في هذه المدن، كما تجد تعبيراً عنها في تطلع الناس إلى «القائد» (قبل عام من هذا النقاش كان الألمان قد انتخبوا هتلر حاكماً لألمانيا وقاداً لهم. ١٩٣٣). ويكتب بنیامین أن برشت سمي المحاكمة كتاباً تنبؤياً.

كافكا في المنفى

في ربيع عام ١٩٣٥ صدرت في برلين «مجموعة كتابات» كافكا في أربعة مجلدات. القصص في مجلد واحد، وكل رواية في مجلد.

الكاتب هرمان هسته Herman Hesse (١٨٧٧ - ١٩٦٢)، الذي حصل على جائزة نوبل عام ١٩٤٦ ، كتب مقالة مطولة عن المجلد الأول، جاء فيها: «بين شهادات عصرنا الممزق والمتآلم سوف تكون آثار كافكا المدهشة خالدة. كان كافكا ذا موهبة للتأمل والمعاناة، ومنفتحاً على

مشكلات عصره، منفتحاً غالباً على نحو تنبؤي، وفي الوقت نفسه كان يملأ في فنه مفتاحاً سحرياً لا ينحنا مجرد حيرة ورؤى درامية، وإنما جمالاً وعزاء».

وعن المحاكمة كتب هسته: «كافكا حيث وسحر كل من قرأ له شيئاً. أما أنا فقد شغلني بشدة منذ أن قرأت له إحدى قصصه السحرية قبل ثمانية عشر عاماً. كان كافكا قارئاً وشقيقاً لباسكال وكيركيجارد. كان نبياً وضحية».

والكاتب كلاوس مان (نجل توماس مان)، الذي كان يعيش في المنفى، كتب بأن هذه الطبعة تمثل أهم المنشورات الألمانية في ذلك العام، وأن شعر كافكا هو الأكثر نقاءً وإثارةً للدهشة في هذا العصر. «هل يوجد فئة قارئة قادرة على ومستعدة لتذوق سحر أدب رفيع وصعب وجود للغاية؟ وفهم نغم خاص وكمال موضوعي لنشر شعري مثل هذا؟ والوقف بإنجلال أمام الرؤيا المؤثرة والحلم بعيد الغور لعيقري تقى؟ مثل هذه الفئة القارئة - إذا وجدت في مكان ما - سوف تكون الشكر لهذه الطبعة، كما أعتبر عنه هنا».

وهذا ما لم يحدث طوال عشر سنوات. وبعد نشر هذه المقالة في تموز ١٩٣٥ منعت السلطات النازية، بناءً على تعليمات وزير الدعاية يوزف غوبيلز، نشر وتوزيع كتب كافكا؛ وذلك باعتبارها كتاباً «ضاراً». بل إن جميع الكتاب المذكورين في هذه المقالة هربوا من ألمانيا، أو من أوطانهم المحتلة، أو لم يسمح لهم بالعودة إليها.

واعتبر كافكا من «كتاب المنفى»، واكتسبت كتبه المتنوعة في ألمانيا راهنية نادرة في خارجها: فقد رأه كثيرون نبياً تنبأ في رواياته وقصصه - وخاصة في المحاكمة - بالتطورات السياسية والاجتماعية المقبلة، وأعلن عن

«الكارثة الألمانية». لقد استأثر الكتاب الألمان المتواجدون في المنفى بكافكا لأنفسهم وعملوا منه ناقداً للفاشية. ورأوا أن «الجو المقبض» الذي يسود في آثاره هو صورة مسبقة عن الجو الذي ساد في أوروبا بعد استلام هتلر للسلطة في ألمانيا. ويدا لهم يوزف ك شخصاً انتابته وتقاذفه المخاوف نفسها التي انتابت وتقاذفت ملايين الملاحقين سياسياً من قبل النظام الفاشي الألماني.

في هذه الفترة استُحدثت كلمة «كافكاوي»، التي عَنْت في بادئ الأمر شيئاً مثل متاهة، مهدداً، مقلقاً. ثم رممت إلى الغامض، غير المفهوم.

في النصف الثاني من القرن العشرين

مع تحول الظروف السياسية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تناقص الاهتمام بكافكا في أوروبا وأمريكا مؤقتاً. كان الوضع في ألمانيا الذي عانى الناس منه ووجوده وضعماً «كافكاواي» قد هزم وزال.

الكاتب الأمريكي أدموند ويلسون أقدم على الإعلان عن «رأي إلحادي في كافكا»: «منذ أن ترجمت رواية المحاكمة إلى اللغة الانكليزية في عام ١٩٣٧ ازدادت شهرة كافكا وازداد تأثيره إلى درجة أخذ فيها في وعي النقاد لدينا مركزاً يسمح بنشوء وهم بأنه كاتب ذو أهمية فائقة». يرى ويلسون أن كافكا عبر في كتاباته عن أزمته الشخصية أكثر بكثير من أن يقدر المرء على اعتبار الموقف الحرج لشخصه غير السعيدة أمثلة لوضع الإنسان بعامة. ويختتم ويلسون حكمه: «ما ترک لنا كافكا هو صرخة غير واضحة لروح مضطهدة تشک في نفسها. إنه من غير المفهوم بالنسبة إليّ، كيف يمكن اعتبار كافكا فناناً عظيماً أو مشيراً إلى اتجاه في مجال

أخلاقي».

إذا اعترف المرء بوجود علاقة بين تلقى كتابات كافكا في بلد من البلدان وبين الظروف السياسية والاجتماعية السائدة في هذا البلد، فإنه يقدر أن يفهم أن «مودة كافكا» إنما قد بدأت تنتشر في ألمانيا بعد الحرب بكل قوتها. في عام ١٩٤٧ كتب ناقد:

«وصف كافكا في رواية المحاكمة وضع الإنسان في أيامنا على نحو تنبؤي... لهذا الأثر الفني مغزى وجودي. عجز الفرد أمام سطوة الجهاز، وعدم فهمه سير عمله الذي يلقيه الغموض، والخضوع الذي يديه الإنسان رغم ظنه أنه أدرك عبشيته. هذه تجارة مألفة لدى الجميع في هذا العصر. كل يقف اليوم عاجزاً على ما يبدو أمامه رهيب لجهاز وجود هائل الضخامة يظهر عبشيته دائماً أكثر، دون أن يجد من الممكن التحرر منه ومن سطوه التي يفرضها على الفرد. إن المعاناة من بيروقراطية الحياة المتعاظمة تثير القوط. إننا نشهد كيف تهدد قيود البيروقراطية الحياة بالاختناق؛ غير أنها نعلم من طرف آخر أن الحياة اليوم في العصر الجماهيري لا تستطيع أن تستغني عن البيروقراطية. ونعلم أن كابوس انتشار البيروقراطية لم يظل محصوراً في ألمانيا. في كل مكان يقع الناس تحت سنابك الجهاز الذي يضيق الخناق عليهم».

وفي خمسينيات القرن العشرين نشأت «مدرسة فلسفية» في فهم آثار كافكا. الدرس هايتر إده Ide Heinz نشر في عام ١٩٥٧ دراسة بعنوان «توضيح الوجود في آثار كافكا»، قال فيها إنه لا يمكن فهم هذه الآثار سوى باستخدام المفاهيم التي وضعتها الفلسفة الوجودية. ويعتقد إده أن ثمة موازٍ جلي بين فكر كافكا وفكرة هайдيغر. كلا الفكرتين يقومان على تجربة القلق في القرن العشرين. وتبعاً لذلك يفسر إده آثار كافكا بمساعدة المفاهيم التي

طورها هайдيغر، وخاصة مفهومي «الكينونة» و«الوجود».

يوضح إده رأيه عن طريق نص حول مسألة القوانين وأمثاله أمام القانون. يقول إن الوجود الإنساني يحسن نفسه وجوداً بلا اتجاه ولا معنى في نفسه. «إن السؤال عن القوانين هو السؤال عن معنى الحياة البشرية»... إن الإنسان يخدع نفسه بمحاهة القانون الحقة. إن القانون يتحكم في الإنسان ويحدده. لكن ليس كما يتصور الإنسان. وحكاية حارس الباب المشهورة في أمام القانون تشرح هذا الخداع. إن الحديث في هذه القصة يدور حول الخداع وليس حول القانون. «لاتخدع»، قال القس. «فيما يمكن أن أخدع؟» سأله. «بالمحكمة تتخدع»، قال القس، «في الكتب التمهيدية للقانون جاء عن هذا الخداع:....».

إن قس السجن يروي له إذاً الحكاية كي يوضح له انخداعه بمحاهة المحكمة. المحكمة والقانون، كلاهما من نوع آخر غير ما يتصوره الإنسان. إنك يعتقد أن المحكمة إنما تحاكم كي تبرئ أو تدين، بينما القس يعلمه: «المحكمة لا تريد شيئاً منك. إنها تفتح أبوابها لك عندما تأتي وتعفيك عندما تذهب». ويقول له هذا: «إنك تسيء فهم الواقع، الحكم لا يأتي دفعه واحدة، إن المحاكمة تنتقل تدريجياً إلى الحكم». إن الحياة هي المحاكمة، والموت هو الحكم، لكن ليس بطريقة يوم الحساب، وإنما كآخر قرار وجودي للوجود في الانفتاح أو الانغلاق أمام الكينونة. إن المحكمة ليست، إذاً، هيئة غريبة، كما يظن مسيء فهم الواقع، وإنما هي نواة ماهية الوجود. ومرة أخرى يجب مع قيام سوء فهم ممكن: ليست المحكمة رمزاً للضمير، وإنما شكل بنية للوجود، فيه وخارجه في آن.

كانت مثل هذه الدراسات تُخضع كافكا للمودة الفكريّة التي كانت سائدة في أوروبا في منتصف القرن العشرين، أكثر مما كانت محاولة أصلية

ووضع أساس فلسفية يقوم عليه تفسير آثار كافكا.

وقد رأى نقاد كثيرون عدم مشروعية هذه «الترجمات» الفلسفية لأنّها كافكة. وأهمّهم فريدریش بايسنر Friedrich Beissner . فقد نشر دراستين مهمتين لبيتر بعنانی: «القاص فرانز كافكا» و«كافكا الشاعر»، يتوجه فيهما ضد المُسلِّم العزيز من الدراسات التي تحاول الاقتراب من آثار كافكا من نواحٍ خارحة عن مجال الآداب. يحلل بايسنر نصوص كافكا بصفتها آثاراً فنية تغوية، ويبررس خصوصاً « موقف القص » فيها. ففي حين يسود في الرواية المعاصرة خلط بين موقف « التقرير » وموقف « المشهد »، ينتفي ذلك لدى كافكا، لأن « موقف القص » في آثاره هو موقف موحد دائمًا. وسبب ذلك هو:

«إنه يغض كافكا عن عالم الواقع الخارجي، ويكتشف الإنساني الباطني موضوعاً لغته الملحمي. وهذا هو عالم شاسع مليء بالإمكانيات، وفوق ذلك هو عالم ذو وحدة متينة لا تقوض. لانتقاض طبعاً يشرط أن يأخذها القاص على محمل الجد، ولا يعتبر نفسه عالماً نفسياً يقف في الخارج وبهتم بالحياة الداخلية لجميع شخصاته، ويكتشف عنها بلا سبب ولا خجل، ويخرج من روح ويدخل إلى أخرى، ويقصّ كما لا يمكن لأمرئ أن يحيط علماً

كafka يقصّ من وجهة نظر واحدة هي وجهة نظر الشخص الرئيسي في الرواية. وليس فقط عندما يكتب بصيغة (أنا)، وإنما أيضاً عندما يكتب بصيغة (هو) .

كل ما يروى في رواية المفقود، شاهده كارل روسمان أو شعر به. ما من شيء يروى بدونه أو ضدّه أو في غيابه. إن القاص لا يعلمنا سوى أفكار كارل، وليس أفكار أي أحد سواه. وهذا هو الحال في روايتي المحاكمة

والقلعة... إن العالم الداخلي بتجاربه ورغباته وأحلامه وأفكاره وأفراحه وإزعاجاته هو موضوع القص الكافكاوي. والقص لا يقف في الخارج كأنه عالم نفساني مراقب، وإنما لا يبقى له مكان آخر سوى روح الشخص الرئيسي: إنه يروي نفسه. يتحول إلى يوزف ك في المحاكمة وك في القلعة. لقد لاحظ المرء منذ فترة طويلة أن هذه التسمية إنما تشير إلى اسم كافكا نفسه، وأن اسم كارل روسمان لا يبدأ بحرف ك عن طريق المصادفة».

يدعم بايسنر نظريته باستشهاد هام من يوميات كافكا، حيث كتب الشاعر يوم ٦ آب ١٩١٤ ، أي عشية البدء بكتابه المحاكمة: من ناحية الأدب قدرى بسيط للغاية. إن الحس لتصوير حياتي الباطنية الحلمية أزاح كل شيء آخر إلى الثانوي، وهذا ضمر على نحو مخيف ولا يتوقف عن الضمور. وفي كتاباته الأخرى يعود بايسنر إلى هذه اليومية مراراً وتكراراً.

ويطبق بايسنر نظريته على رواية المحاكمة، ويكتب: «أدعى مرة أخرى: كافة الشخصوص والأحداث ذات العلاقة بالمحاكمة لا توجد سوى في أحلام ك وأنصار أحلامه. إن كون الجناد يظهر مع ضحيتيه في حجرة سقط المتابع في المصرف، وكون يوزف ك يسعى خائفاً لإخفاء هذا الاكتشاف أمام الخادمين، هو إشارة واضحة على نحو خاص إلى التصور الحلمي. إن ك يعي حفظ سره المؤلم من الانكشاف أمام أي شخص. عممه كارل هو طبعاً كائناً في حقيقة الأمر. لكن العم الذي سمع عن المحاكمة لا يوجد سوى في حلم ك. (رسالة إرنا ليست موضوعاً مفهوماً سوى في الحلم، إذ لم يكن في وسع إرنا أن تسمع عن المحاكمة). لقد ورد عن العم أنه جلس فوق الطاولة، وحشر تحنه دون أن ينظر أوراقاً مختلفة كي يجلس بشكل أفضل. من الواضح أن العم في وضعه المضحك هو ومضة حلم؛ كذلك العم حامل الشمعة — كان يحافظ على توازن الشمعة على فخذه.

وبالتالي فإن المخامي ولني هما طبعاً مجرد صورتين وهميتين لحلم الخوف.

في فصل في الكاتدرائية يجري التحول إلى جو الحلم كحد أقصى مع المكالمة الهاتفية التي وردت من لني (التي هي غير كائنة في حقيقة الأمر). بل قبل ذلك يبدو أن البحث في القاموس عن المفردات الإيطالية وظهور نائب المدير المكروه إنما يحدثان في المنطقة غير الدقيقة للتلخوم بين المجالين كلبيهما. وكل ما يحدث لك من ثم في الكاتدرائية هو حلمي - غير حقيقي.

إن منظور السرد يظل دائماً منظور يوزف لك. وعند البحث الدقيق يتأكد الانطباع الأول الذي ينشأ لدى التصفح الأول للرواية، وهو تراكم التعبير التي تعتبر بشكل فائق الواضح عن أن زاوية نظر يوزف لك هي الوحيدة في الرواية كلها: سمع أحدهما يقول؛... كما أدرك لك الآن؛... كما كان لك يعرف تماماً؛... كما ظن لك أنه يدرك بنظرة جانبية؛... فنظر لك؛... بدا له؛... من شخص آخرين لا يقال مثل هذا فقط».

كتب ناقد آخر تعليقاً على آراء بايسنر: «لقد رَكِّرَ على شكل القص عند كافكا، وكأن هذا الشكل معزول عن الشروط التاريخية والاجتماعية. واقتصر في تأملاته على الطريقة التي جرى بها (تنظيم) الأثر الفني، دون أن يهتم كثيراً بطبيعة الواقع الحلمي في الأثر الفني وعلاقته بالواقع الحقيقي.

هل عنى كافكا بقص لاتاريجي؟ هل كتب دون ارتباط بعصره؟
حتى لا. إن سيرة حياته تقدم علينا لا يستغنى عنه لفهم آثاره».

في عام ١٩٦٠ نشر فيلهلم إميريش^(*) دراسة بعنوان «عالم صور كافكا»، جاء فيها أن كافكا إنما يقوض «المبادئ والشروط التي قامت عليها

(*) راجع المجلد الأول من «الآثار الكاملة» ص ٢٧٦ (أ.و).

حتى الآن لغة الصور الشعرية»؛ وأنه يجب فهم هذا على أنه رد فعل على عصر «تغرب» فيه الإنسان عن عالمه، وانشريخ فيه المجال الذهني - الروحي للإنسان عن مجالات الحياة الأخرى: «إن الأسماء التي يطلقها على الأشياء، والصور التي ينظر إلى الأشياء من تجاهها، تلقى كما صدفة على الأشياء دون أن تصيب حقيقتها أو ماهيتها». إن كافكا «يحاول أن ينظر إلى عملية التغريب ككل».

«بهذا يتوضّح لنا في وقت واحد بنية روايات كافكا. في رواية المحاكمة يُطرح السؤال عن ميرر حياتنا، هذا السؤال الأبدى عن معنى الإنسان. لكن هذا السؤال الذهني يفاجئ يوزف ك كشيء غريب، غير مفهوم، واقعي على نحو رهيب، شيء يقترب حياته المهنية موحدة النمط، ويدمرها. إذ أن هذا السؤال الأبدى عن المعنى، وبارتباط وثيق معه حياتنا الروحية الباطنية أيضاً، ما يسمى حياتنا الشخصية، لا يمكن التوفيق بينهما من طرف وبين عالم العمل المتخصص وموحد النمط الذي نعيشه. كل مجال يلغى المجال الآخر. إن هذا التزاع ظهر في روايات كثيرة منذ رواية «فيلهلم مايسنتر» لغوطه. لكن فيلهلم مايسنتر يحس اقتحام العالم الذهني - الروحي اختراقاً لحياته الباطنية الشخصية كلياً. أما يوزف ك فإنه يعيش هذا السؤال الأبدى عن المعنى الأخير وعن تبرير وجوده سلطةً خطرة غير مفهومة وغريبة عليه على شكل هيئة محكمة غامضة، تداهمه فجأة ذات صباح وتعتقله، رغم أن في مقدوره أن يذهب إلى عمله، ويتحرك في حياته العملية اليومية بحرية. والمحاكمة التي يجب عليه الآن أن يعيشها، تشير اضطراباً في حياته الذهنية والروحية كلها، لا بل ليست شيئاً آخر سوى حياته الذهنية والروحية، لكن على شكل محاكمة قضائية رهيبة لا يفهمها، ويحسّتها متاهة، وهي تشمل وتوقف عالمه الروحي الشخصي وعلاقاته الجنسية، كما تشمل أيضاً عالمه الذهني، فيما يرى يوزف ك نفسه مضطراً

الآن فجأة إلى إقامة حساب عن كامل حياته وصياغة هذا الحساب كتابةً. بالنسبة إلى السيدة غروباخ تبدو محاكمة ك مثل شيء من شؤون ذوي العلم. لكن ك نفسه يقف مضطرباً محatarاً إزاء هذه المحاكمة. إنه يصدّها عنه بقنوط وبلا طائل. صحيح أنه يعطي الحق للسيدة غروباخ في تفسيرها، غير أنه يضيف من ثم: لا أعتبره حتى شيئاً من شؤون ذوي العلم وإنما لا شيء على الإطلاق. يُعلن عن الذهني أنه لشيء في عالم عمل يبدو ذا هموم أكثر إلحاحاً. في ضوء ذلك يضع يوزف ك عالم العمل العصري هذا ضد المحاكمة.

لقد أخذت على غرة، هذا هو الحال، يستطرد ك قائلاً، لو كنت قد نهضت فور استيقاظي... لو تصرفت بحكمة، لما حدث شيء، ولا ختنق كل ما أراد أن يصير شيئاً. لكن المرأة غير مهياً كثيراً. في المصرف مثلاً أكون مهياً، ومن الحال أن يكون من شأن شيء كهذا أن يحدث لي هناك، حيث لدى هناك خادم خاص بي، والهاتف العام وهاتف المكتب أمازي على الطاولة... وقبل كل شيء أكون هناك دائماً في سياق العمل، لذا فإنني أكون حاضر البديهة.

لكن رغم هروب ك إلى العمل الوظيفي، فإن المحاكمة تستمر أيام الأحد وفي الأماسي والليالي، وذلك في الأفنية الخلفية وحجرات السطوح الخانقة ومساكن الإيجار، حيث تجمعت كل أوسع وقمامدة ومهملات وكراكيب المجتمع البشري. لا بل إن المحاكمة تقتصر في آخر الأمر حياة يوزف ك المهنية: لستحضر صورة حجرة سقط المئع في المصرف، حيث يجري جلـد الحراسين فرانز وفيلم، اللذين كانوا قد اعتقلـا؛ يجلدان بطريقـة وحشـية وبلا انقطاع مسـاء بعد مـساء وفي الوضـعية نفسـها، وذلك لأنـ ك قدـم شـكوى ضـدهـما. على الفور صـفقـك الـبابـ وضرـبـ عليهـ بـقبـضـيهـ

وكأنما بهذا يُحكم إغفال الباب. إنه يقطع أخيف، هكذا بساطة. عنده يحاول عزل المجالين. إن الأهوال التي تقطن داخل مجتمعنا وداخل يوزش، كنفسه لا يجوز أن تعلن على الملأ. صحيح

ما كان لك سيقتضي، كان يهمه فعلاً أن يخلص الناس... لكن في اللحظة التي كان فيها فرانز قد بدأ في الصراخ، انتهى كل شيء طبعاً. لم يكن في إمكانك أن يسمع بأن يأتي الخادمان وربما مختلف الناس ويفاجئوك في مفاوضات مع الزمرة في حجرة سقط المتع. هذه التضحية لا يستطيع أحد فعلاً أن يطلبها منك.

من هنا يصدق لك باب حجرة سقط المتع بعنف، حتى لا يسمع أحد الصراخ.

بهذا يتوضّح الترابط بين صور كافكا. ليست المسألة أن العالم الباطني، الذهني - الروحي للفرد يوزف لك إنما يظهر في صور مجسمة، وإنما أن الحقيقة التي تقع في داخل مجتمعنا العصري نفسه يجري عرضها في هذه الصور. إذ لا شيء مما يعتلي في نفس إنسان عصري يمكن عزله عن العالم الخارجي الذي يتواجد فيه. من هنا، فإن المحكمة الغامضة ليست أبداً مجرد جهة ذهنية، أو حتى جهة إلهية، كما جرى تفسيرها كثيراً. إنما، بالأحرى، تعكس وتكشف عن شيء واحد هو روح عصرنا الفاسدة والمعيبة لتطور إيجابي، لكن فقط تحت نقطة نظر تتخطى تصوّرنا المحدود، وتحترق أشكال تفكيرنا ونظرتنا المألفة والتي لا تعود تقدر على فهمها».

في حين اكتشف إمریش، إذاً، في آثار كافكا انعكاساً قوياً للظروف الاجتماعية التي نشأت فيها هذه الآثار، جرى في جمهورية ألمانيا الديموقراطية (الشطر الشرقي من ألمانيا الذي ضم إلى جمهورية ألمانيا الاتحادية في عام ۱۹۹۰. أ.و) وفي الدول الاشتراكية السابقة تصنيف آثار

كافكا بأنها « بعيدة عن الواقع »، وأعيق انتشارها.

في عام ١٩٦٣ كتب المفكر الماركسي النمساوي ارنست فيشر: «إن كافكا هو شاعر يخصنا جميعاً. إن غربة الإنسان التي عرضها في شدة قصوى، بلغت حداً مخيفاً في العالم الرأسمالي، لكن في العالم الاشتراكي أيضاً لم يجر التغلب عليها إطلاقاً. إن التغلب عليها خطوة خطيرة، في الكفاح ضد الدوغماتية والبيروقراطية وفي سبيل الديموقراطية الاشتراكية والمبادرة والمسؤولية هو عملية طويلة الأمد ومهمة كبرى. وقراءة أعمال فنية مثل المحاكمة والقلعة تصلح للمساهمة في حل هذه المهمة. إن القارئ الاشتراكي سوف يجد في هذه الأعمال لمسات من مشكلاته الخاصة به. يجب طباعة كتب كافكا، وبهذا إثارة نقاش على مستوى عال...».

إن ما يصوره كافكا هو السلبي في عصره. وما من كاتب آخر عبر عن هذا السلبي، عن غربة الإنسان الكاملة، بمثل هذه الشدة. ووسيلة كافكا في تصويره هذا هي السخرية الخيالية. مذهولاً يدرك قارئ كافكا العالم الذي يعيش فيه. عالماً ليس حسناً ولا مقبولاً، وإنما عالماً مشوهاً يضيق الخناق^(*).

في عام ١٩٧٩ نشر الكاتب الياس كانيتي Elias Canetti كتاباً يقع في ١٣٠ صفحة بعنوان « المحاكمة الأخرى / رسائل كافكا إلى فيليبس »،

(*) من يعتقد أنه يفهم العالم، لكنه لا يفهم آثار كافكا، يكون مخططاً (أ.و.).
(**) ولد عام ١٩٠٥ في بلغاريا من والدين إسبانيين. بين ١٩١١ و ١٩٣٩ عاش ودرس في مانشستر وفيينا وزبوريخ وفرانكفورت وباريس. بين ١٩٣٩ و ١٩٩٠ عاش في لندن. بعد ذلك عاش في مدinette المفضلة زبوريخ، حيث توفي فيها عام ١٩٩٥ . كتب جميع كتبه باللغة الألمانية. في عام ١٩٨١ حصل على جائزة نobel. يعتبر نفسه تلميذاً لكافكا (أ.و.).

قدم فيه نتيجة قراءته غير العادية لرسائل كافكا إلى فيليبس التي نشرت في ذلك العام (بعد كتابتها بـ ٤٢ - ٤٧ عاماً). يكشف كاتبي في كتابه، طبقة طبقة، عن أن رواية المحاكمة لكافكا هي عاقبة محاكمة أخرى جرت بين فرانز كافكا وفيليبس باور طوال خمسة أعوام. يحاول كاتبي تتبع أثر الخلفيات والأسس التي قامت عليها بعض الأحداث الحاسمة في رواية المحاكمة في وقائع من فترة خطوبة كافكا الأولى.

يجد كاتبي أن واقعتين دخلتا بشكل خاص إلى الرواية، الأولى هي الخطوبة الرسمية في الأول من حزيران عام ١٩١٤ ، والثانية هي فسخ الخطوبة بعد ستة أسابيع. يرى كاتبي أن الخطوبة قدمت شبه نموذج لشهيد الاعتقال في الفصل الأول، وفسخ الخطوبة قدم شبه نموذج لشهيد الإعدام في الفصل الأخير. (كان كافكا قد شبه جلسة فسخ خطوبته بمحاكمة محكمة). ويرى كاتبي أن الآنسة بورستن تمثل غرته بلوخ، صديقة فيليبس، والتي حضرت حفل الخطوبة، وكان كافكا يرغب فيها بشدة. يكتب كاتبي: «إن الموقف المعقّد وغير القابل للحل، الذي كان كافكا يتواجه به عند الخطوبة، قد عولج من قبله في الفصل الأول من رواية المحاكمة بطريقة واضحة على نحو مقبض».

بورغن بورن Juergen Born، المختص في أدب كافكا، ورئيس «معهد أبحاث الأدب الألماني في براغ» التابع لجامعة فوبرتال، وأحد المشرفين على الطبعة «التاريخية - النقدية» لآثار كافكا، يقف من تفسير كاتبي القائم على السيرة الذاتية موقفاً متشكّلاً. فقد نشر في عام ١٩٨٥ دراسة جاء فيها:

«لاريب أنه من المجدى تبيان المواد الواقعية المفردة التي وجدت مدخلاً إلى شعر المحاكمة، مثل طوبوغرافية براغ في مختلف الفصول، وعلاقة

كافكا برئيسه في العمل، والتوافق بين عمره أثناء كتابته المحاكمة وعمر يوزف ك. لكن هذه الجزئيات من الواقع تظل، مهما كانت جديرة باللحظة، ذات أهمية محدودة بالنسبة إلى تفسير رواية المحاكمة. أما ما يكتسب أهمية بالنسبة إلى التفسير، فهو بعض الموضع، في الرواية، التي تتطابق إلى حد ما مع سيرة حياة الشاعر؛ مثل السلوك الاجتماعي، والعلاقات مع البشر، والمسؤولية الذاتية».

في عام ١٩٧٥ أعد الروائي والكاتب المسرحي بيتر فايس Peter Weiss رواية المحاكمة إلى المسرح. وقد كتب في مقدمة مسرحيته^(*):

«كان مبدأ إعدادي لهذا الكتاب للمسرح هو محاولة الحفاظ على النص الأصلي أكثر ما أستطيع المحافظة. وقد بدا لي أنه من العبث إجراء تعديلات من شأنها أن تنقل المادة إلى مستوى يلائم ابتداعاتي أو ينسجم مع آية ظواهر (عصريّة). ففي المرات السابقة التي تم فيها إعداد هذا الأثر الفني للمسرح وللسينما أيضاً، جرت مثل هذه التعديلات التي وصفت الشخصية الرئيسية ك على أنه الرجل الصغير المجهول، أو أنه الإنسان عامة في ترس التكنيك أو السياسة.

إن الكاتب المسرحي هنا يضع نفسه كلياً خلف إبداع كافكا، ولا يبحث سوى عن وسائل مسرحية، يمكنها أن تعطي مضمون الكتاب حقه. وقد أخذت إضافات على النص، عندما بدت هذه ضرورية من أجل مجرىحدث، من يوميات كافكا ورسائله وقطعه التshireة القصيرة. إن التوسيع الوحيد الذي قمت به هو ترتيب الأحداث في إطار تاريخي محدد، وحتى هذا لم يجر سوى في حدود ضيقة للغاية، وله ما يبرره في سيرة حياة

(*) نشرت عام ١٩٨١ في مجلة «الحياة المسرحية» - العدد ١٥ - ١٦ - من ترجمتي، بعنوان « القضية ». راجع ص ٣٠٩ من هذا المجلد (أ.و).

كافكا.

إن الفترة التي تجري فيها المحاكمة، بناء على قصة كافكا، هي الفترة الواقعة بين ٣ تموز ١٩١٣ و ٢ تموز ١٩١٤ ، ابتداء من عيد ميلاده الثلاثين وانتهاء بعشية عيد ميلاده الواحد والثلاثين. يتوافق هذا التاريخ مع اندلاع حرب البلقان وزمن حادثة الأغبيال في سراييفو، التي ساهمت في نشوب الحرب العالمية الأولى. إن وضع المسرحية في هذا الإطار الرمزي المحدد بوضوح يهدف إلى إعطاء المضمون تحديداً أكبر.

كان هذا ضرورياً. إن ما تعرّضه القصة ينبع من عالم ذاتي. وإذا يكمن عمل المسرح في جعل الأفكار مرئية، فإنه كان لابد من طلب الموضوعية. هنا يقف أمامنا الإنسان الفرد الذي يتلئ بالمخاوف والهلوسات والتصورات القسرية. إن ما نحصل عليه همساً لدى القراءة يجب نقله إلى ما هو محسوس. إننا لا نلتقي، بعد، عناصر حلم نحولها في خيالنا، وإنما طرق سلوك، أحداثاً وأعمالاً.

إن كـ هذا يمارس مهنة محددة. يقطن غرفة في بنسيون. يتحرك بين بشر يرونـه ويـحكمـونـ عليهـ. هذهـ الشـخـوصـ تـقاـبـلـ إـنسـانـاًـ مـعاـصـراًـ دونـ أنـ تـكـرـرـ لـلـرـؤـىـ التـيـ يـتفـقـ أـنـ تـتـابـهـ. إـذـاـ ماـ قـدـمـ كـ عـلـىـ خـشـبـةـ المـسـرـحـ،ـ فـيـنـبـغـيـ أـنـ يـحـدـثـ هـذـاـ أـوـلـاـ عـلـىـ أـنـ فـرـداـ مـخـصـوصـاـ يـظـهـرـ فـيـ عـالـمـ حـيـ.

في الرواية يتواجد كـ في زـمـنـ لاـ يـمـكـنـ تـحـدـيـدـهـ.ـ وـهـوـ لـاـ يـتـحـرـكـ سـوـىـ فـيـ بـنـيـةـ مـنـ تـدـاعـيـ الأـفـكـارـ،ـ هـذـهـ الأـفـكـارـ التـيـ لـاـ تـخـضـعـ لـأـيـةـ حـتـمـيـةـ يـمـكـنـ اختـبارـهـ.ـ لـدـىـ قـرـاءـةـ الـكـتـابـ يـقـبـلـ هـذـاـ كـشـيـءـ قـائـمـ.ـ وـلـاـ يـذـكـرـ شـيـءـ آخـرـ مـنـ الـعـالـمـ الـخـارـجـيـ سـوـىـ مـاـ يـوـصـفـ فـيـ لـغـةـ تـحـلـيلـ الـحـلـمـ بـأـنـ بـقـايـاـ الـيـوـمـ.ـ وـيـنـتـفـيـ وـجـودـ أـيـةـ عـلـاقـةـ وـاعـيـةـ بـأـحـدـاثـ الـاجـتمـاعـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ التـيـ تـحـيطـ

بهذا العمل الفني.

لدى ترجمة الحلم إلى لغة الواقع الخارجي - وبالنسبة إلى المترجر يمايل المسرح دائماً واقعاً خارجياً -، تنشأ على الفور أوضاع تتبعية لبعد الزمن. إن المسرح يطلب منطقاً. حتى في منتهی العبيبة تقوم كل خطوة منجزة على خطوة سابقة. لدى القراءة يزول المطلب بمثيل هذه المنطقية. إن اللحظة الحاضرة يعاد خلقها دائماً من جديد. ويجري تحطيم التغرات في الزمن بواسطة الإمعان في التفكير. ليس ثمة انفصال بين ما يقال وما يسمع.

أما لدى تمثيل المضمون، فإن ثمة مسافة تظهر. شيء ما يفتح نفسه أمامنا، شيء خاص، مهم، شيء جرت معاناته مرّة والآن تعاد هذه المعاناة. شيء ماض يعاد إحياؤه ويعرض في مجرى. على المسرح يجري تبيان أثر لك على الآخرين، لك الذي كان - كشخصية في الكتاب - يعتمد على نفسه كلّياً ويكفي نفسه بنفسه.

إن ما لفت نظري، لدى إعادة قراءة الكتاب، هو أن القوى التي تشتدّ إلى أسفل وفي النهاية تقضي عليه هي، على وجه الإجمال، قوى البورجوازية الصغيرة. إن كل ما يعانيه وكل ما لا يستطيع، رغمًا عن جهوده اليائسة، التخلص منه، هو نتيجة للتضييقات الجامدة والقوانين والأوهام التي خلقتها البورجوازية. إن الناس المحظوظين به والمعرض إلى أحكامهم، هم بورجوازيون صغار يعني إثبات وجوده أمامهم ويريد أن يعترفوا به، كما يريد أن يلبي مطالبهم. إنه لا يفكّر بشيء آخر سوى أن يكون عضواً في هذا المجتمع وأن يثبت صلاحيته هنا، في معيشته، في مهنته، في مكان إقامته وأمام الدوائر والسلطات المختصة. في البداية يقف واثقاً من نفسه في التسلسل الهرمي للعادات والأعراف. لكنه عندما لا يحسن القيام بواجباته، بسبب الضغط المتزايد، فإنه لا يحاول الخروج على جميع هذه الواجبات، بل

على العكس من ذلك فإن هذا يزيده رغبة في التصرف كما نقتضي. وهو لا يتمدّد إذ يدرك لا إنسانيتها. إنه يرضخ حتى درجة إلغاء الذات.

إن حالة الذنب التي يتواجد فيها ك، والرغبة المستمرة لترير نفسه، لا تمت بصلة إلى مسائل الدين. إن القوى الغامضة التي يقع تحت رحمتها هي قوى اجتماعية تحافظ، بالابتزاز والتهديد، على نظام اجتماعي قديم. إن مثلي هذا المجتمع يظهرون في كامل وضاعتهم وزيفهم. إن ك يرى كل شيء بوضوح. لكنه يظل دائمًا منجذبًا إلى دعوة التزيف، إلى القضاة، وإلى المحاكم التي تعمل في خدمة الاضطهاد. إن ما يؤلم في عمله هذا هو خداع النفس الذي يستسلم له. لا يظهر له سوى أصغر الموظفين، العمالء، الزبانية، إنه يتسلل لكي يصل إلى جهات عليا يأمل منها عوناً وعدالة، لكن هناك فوق يوجد أوصياء الزيف والقسر الفعليون، الذين يهمهم فعلاً أن يتم استنزافه وإخضاعه. إن ضيق الأفق والمزاحمين الفاسدين الذين يعمل معهم، لا يهمهم لشخصه، إنهم مجرد أدوات للنظام، وهم مثله غير أحرار.

لماذا لا يدير ظهره للقوى المعادية للحياة؟ لماذا لا ينجح في العثور على الارتباط الذي يستشعر وجوده؟ لماذا لا يستخدم بواعث غضبه وشكه لمكافحة ما يريد قمعه؟

لأنه لا يخرج من ارتباطه الطبيعي. كل ما يقوم به يظل سجين المعايير التي قررت مصيره حتى الآن. بل إنه يتولى في هذا المجال، كوكيل قانوني في مصرف، مركزاً كبيراً. لديه مرؤوسون، خدم. تجاههم يظهر نفسه كسيد وامر. النساء اللواتي يقابلنها، يعاملنها بناء على نماذج التملك البطريركي. إنه نفسه يعرض آخرين للإذلال. إن المتهمين الآخرين الذين يقابلهم هم دائمًا أمثاله. إن ك في هذه القضية هو سجين طبقته.

إنه يمر بين بيوت الفقراء والعمال. هو في أعينهم، باعتباره مثلاً للمصرف، عدو. لكن القضية الأخرى التي يحرى هنا التمهيد لها ضده والتي كان يمكنها أن تقربه من الحقيقة، تظل غير مفهومة بالنسبة إليه. إنه يتمسك بموقفه بين مرايا نظامه المشوهة، هذا النظام الذي يعتبره غير قابل للتغيير. بسبب ضعفه هذا يتحطم كـ«.

كما كتب فايس «ملاحظات حول القضية»، تقدم انتباعاً عن نشوء وتطور المسرحية: إشارات، مسودات، تمرينات، خلفيات، تعليقات، منها:

- «القضية.. هذه هي الحياة

المحكمة.... العالم

عجز عن الحب... ذنب».

«في القضية يجري الكشف عن عصر بكامله، عالم بكامله».

- «إن القضية هي قصة مُحكمة لا يمكن نقلها إلى وضع سوى الوضع المعطى من قبل الذات. تعاش القضية من قبل شخص واحد، كل شيء، كل شخصية، كل حدث، كل تغيير، هو في الداخل، في شخص مغلق. إن محاولة خلق صور خارجية وتوصيات لا يمكنها إلا أن تصقل وتبسط وتفسد ما هو هش ومعقد في ماهية هذه القضية.

قرأت صياغة أندريله جيد للقضية (أعدّها في عام ١٩٤٧ للمسرح في باريس. ا.و): هنا أيضاً يتبيّن عبث الجهد، لتقديم هذه الدراما الداخلية للأفكار، هذا الحلم الخارق، على خشبة المسرح».

لقد أخفق تقديم المحكمة على خشبة المسرح إخفاقاً واضحاً، كما

كان تقديمها فيلماً سينمائياً قد أخفق قبل ذلك. إن المسرح، والفيلم، لا يقدر على تقديم الأحساس والأفكار والتداعيات التي يطلقها النص المقرؤ في مخيلة القارئ. إن الشخص على المسرح والصورة في الفيلم، تحصر الشعر في معنى واحد، محدد، مجّسّم - وهذا هو ضد طبيعة الشعر - في حين أن الكلمة تطلق العنوان لخيال القارئ، ليسبح في فضاء الشعر الشاسع^(*).

في عام ١٩٧٧ نشر الناقد تيو إلم دراسة بعنوان «خمسون عاماً من الدراسات عن كافكا»، جاء فيها: «إن القارئ غير المختص، الذي يأمل في قراءته لكافكا بعض العون من الاختصاصيين، يرى نفسه أمام نحو أحد عشر ألفاً - والعدد في ازدياد - من (آراء) الخبراء، الذين يتنافسون على تفسير آثار كافكا؛ فلا يبقى له سوى الحيرة والشكوك». ويرى إلم أن رواية المحاكمة «منفتحة على التفسيرات على نحو دينامي»، وتثير عدداً متفاوتاً لا يحصى من آراء القراء والدارسين.

١٩٩٦/١٩٩٣

ميغائيل ميلر

Michael Mueller

(*) في عام ١٩٨٢ قام بيتر فايس بمحاولة ثانية، وكتب مسرحية «القضية الجديدة». لكنه هنا لم يقتبس من رواية كافكا سوى العنوان وأسماء الشخصيات وبعض أماكن الأحداث. لقد وضع يوزف ك داخل الشركات الرأسمالية الكبرى وأجهزة السلطة الحديثة، وجعله مثال المثقف الذي يفشل في الواقع وبسبب الواقع. قام فايس بنفسه، بالاشتراك مع زوجته، بإخراج المسرحية في استوكهولم، حيث لاقت نجاحاً كبيراً (أ.و.).

٨ - جهاز السلطة المثالي والفرد

هناك، حيث يحكم جهاز السلطة المثالي، يعتقل المرء دون أن يعلم السبب. إن مراقب فعل الاعتقال يقدر حقاً أن يعلم المرء أنه معتقل، لكن لا يقدر أن يعلمه أكثر من ذلك، إذ أن من شأن هذا أن يجاوز صلاحياته. إن اختصاصه هو الاعتقال وحده، وليس شيئاً آخر. إن المراقب في المحاكمة يعلن: لا يمكنني أن أقول لك بأي حال إنك مدعى عليه، أو بالأحرى إني لا أعرف فيما إذا كنت مدعى عليه. أنت معتقل، هذا صحيح، ولا أعرف أكثر من ذلك. ربما ثرثر الحراس شيئاً آخر، فكان إذاً مجرد ثرثرة. يتوجب على أولئك الذين يعتقلونه أن يعطوا الانطباع بأنهم، بعملهم الوحشي، إنما يتتجاوزون صلاحياتهم؛ إذ أن هذا يؤدي إلى أن يبدأ المعتقل بالاهتمام فوراً بجهاز السلطة اهتماماً أكبر. وبهذه الطريقة يجذب إليه. بالوحشية التي يلمسها عن كثب يوحى إليه بوجود هيئة يمكن للمرء أن يستكفي إليها، وبأنها لن تقبل أبداً مثل أفعال البطش هذه، لو هي علمت بها. إلا أن المعتقل لا يعرف من يستلم الشكوى. إن الرؤساء مجهملون، أو غير مرئين أو لا سبيل إليهم. وعن طريق المصادفة فحسب يصبح يوزف ك شاهداً على عقاب اثنين من موظفي الاعتقال، لكن هذا لا يعمر صدره بالرضى، إذ أنه يقال له إن أجر هذين الموظفين ضئيل. ولهذا السبب

يحتاجان إلى تخويف من عليهما اعتقالهم، لكي يتمكنا من سرقتهم أو استخراج نقود منهم لقاء خدمات صغيرة مزعومة. لدى مراعاة دققة للتعليمات لا يجوز أن تحدث أفعال وحشية، لكن إذ أن تعدي التعليمات من قبل صغار الموظفين قلما يعاقب عليه، فإنهم لا يخافون شيئاً بالكلاد. وللمناسبة، إن جهاز التسلط لا يغضض عينه فقط لكي يحصل صغار خدمه على شيء ما، وإنما لكي ينشأ في أنفسهم شعور بالسلطة. ولو لم تراع التعليمات إلى فوق فحسب، وإنما إلى فوق وإلى تحت، فإن صغار الموظفين يصبحون مجرد أدوات تنفيذ، ولا يعودون يستشعرون سروراً ناطنياً كونهم يتحكمون في آخرين. ومن شأن هذا أن يجعلهم عازجين عن تأدية مهامهم على الدوام. وتنتهي فرحتهم بعملهم الذي لا يعود يتبع لهم التمتع بين الحين والآخر لأن يدعوا آخرين يشعرون بسلطتهم.

بعد الاعتقال يتبع التحقيق، بدون بيان أسباب. لو كان المعتقل يعلم التهمة الموجهة إليه، لكنه على ثقة مما يفعل. من شأنه نفسه أن يمثل عامل سلطة، إذ سيكون في ميسوره أن يقدر فيما إذا كانت التهم صحيحة. لكنه لا يعرف التهم. لهذا فإنه مضطر لأن يخمنها، ويحدس فيما إذا كانت المحكمة قد تعرف أم لا تعرف عن تجاوزه لآواب القانون من قبله. وإذا أن جهاز سلطة مثالياً لا يقدّم القانون في صيغة كتابية، فإن الفرد لا يعرف أبداً أية وصايا يمكنه أن يخالف. في مثل هذا الموقف لابد للمعتقل أن يرحب في أن يجري معه تحقيق. هذا يمكنه أن يقدم له على الأقل بعض نقاط الارتكاز عن سبب الاعتقال. كما أنه يؤمن له اتصالاً بجهاز السلطة، ولو كان مع صغار موظفيه. والتحقيق هو طبعاً خطراً أيضاً، إذ في لعبة المسؤول والجواب، التي لا يزال المعتقل لا يعرف فيها التهمة، يقدر أن يقود جهاز السلطة إلى آثار تثبت ذنبه.

يوزف ك يتخلص من التحقيق، الأمر الذي يضعه في أعين جهاز السلطة تحت ضوء سيء، و يجعله مذنبًا بإطلاق. إنه في الحقيقة، بالنسبة إلى جهاز السلطة هذا، مذنب أكثر من أي مذنب آخر. إنه لا يطبع، لا يستشعر الخشوع الضروري. لابد أن تكون قضيته خاسرة منذ البداية.

ولانتهى التحقيقات إلى اتهام. والمعتقل لا يعرف أبدًا التهمة الموجهة إليه. إن المحامي يشرح قائلاً: إذ أن المحاكمة بعامة ليست سرية أمام الجمهور فحسب، وإنما أمام المدعى عليه أيضًا. طبعاً بقدر ما يكون هذا ممكناً ليس إلا، لكنه يمكن بقدر كبير جداً. إذ أن المدعى عليه أيضاً لا يطلع على أوراق المحكمة، ومن الصعب للغاية معرفة هذه الأوراق من الاستجوابات التي تجرى بناء عليها، ولكن لا سيما بالنسبة إلى المدعى عليه الذي يكابد حرجاً ويحمل كل ما يمكن من هموم تشتبّه فكره. والموظفون الصغار أنفسهم لا يعرفون التهمة الموجهة إلى المدعى عليه. إن المحاكمة هي بالنسبة لهم أيضاً سرية... لذا فإنه ليس في مقدورهم... أن يتبعوا المسائل التي يعالجونها متابعة كاملة ويعرفوا مسارها في المستقبل، إن الدعوى تظهر إذاً في أفقهم دون أن يعلموا في الغالب من أين تأتي، وتستمر، دون أن يعلموا، إلى أين تسير. ولدى الاستجوابات لا يجوز محامي الدفاع، بصفة عامة، أن يكون حاضراً. لذا ينبغي عليه أن يستعلم عن الاستجواب من المدعى عليه وذلك على باب حجرة قاضي التحقيق إن أمكن، واستخلاص ما يصلح للدفاع من هذه التقارير الغامضة للغاية في الغالب. ونحن لانعلم فيما إذا كان محامي الدفاع حاضراً لدى المحاكمة، لكن محاكمات بالمعنى الحرفي للكلمة لا تبدو لدى كافكا مقررة. ومن شأنها أيضاً أن تناقض سندًا فكراً جهاز سلطة مثالي. إذ أن محاكمه لا تكون محاكمة إلا إذا وجدت قوانين صيغت على نحو واضح، واتهام مفهوم، وإمكانية للدفاع. لكن مثل هذا لا يمكن لجهاز سلطة مثالي أن يقبل، إذ أنه،

والحال هذه، لن يكون في كامل سلطته، ولن يقدر على التصرف في حرية بالفرد، الذي من شأنه أن يصبح واثقاً بنفسه.

من وجهة نظر جهاز السلطة المثالي يبدو محامي الدفاع مرفقاً زائداً عن اللزوم. وفي نهاية المطاف تفعل المحكمة كل شيء لإقصاء الدفاع ما أمكن، على المتهم نفسه أن يحمل عبء كل شيء. ومن هنا يسأل المرء نفسه، لماذا يوجد محام رغم ذلك. والجواب هو: عليه أن يعمل على إلا ينقطع المدعى عليه عن الاهتمام بقضيته. وإذا أن المحاكمة سرية، فهناك ثمة خطر أن يفقد المدعى عليه إحساسه ويقول لنفسه، فليفعلوا ويفرروا ما يشاؤون. والمحامي يمعن هذه الإمكانية. إن مهمته هي إقامة علاقات خفية بين المحكمة والمدعى عليه. وإذا أنه على اتصال بالموظفين، فإنه يقدر أن يعلم بعض الأمور، وإن كانت تخمينية، عن سير المحاكمة، وينقلها إلى موكله. في أحاديث طويلة يبحث الاثنان أحوال القضية، ويهتممان بهذه الطريقة بأن يقوم جهاز السلطة بتأديبه عمله. إن يوزف ك لا يشارك في هذه اللعبة، يستغنى عن محامي، فيصبح مذنبًا، إذ أنه بهذا التصرف يشكّك، بطريقة ما، في سير عمل جهاز السلطة المثالي.

تألف المحاكمة، بالمعنى الدقيق، من استجوابات. بعد ذلك يتبع الحكم، الذي تصدره هيئة مجهولة من قبل الجميع. إننا نفترض في سذاجتنا أن هذه الهيئة هي مجموعة قضاء، لكن هذا خطأ. إن القضاة لا يناسبون في بنية جهاز سلطة مثالي (قضاء التحقيق أنساب)، إذ أن من شأن هذا أن يعني إدخال عنصر من الاستقلالية. إن الحكم يصدره موظفون كبار. هكذا ببساطة. وعلى طريقة الموظفين يتهربون من إصدار حكم واضح أطول مدة ممكنة. وفي حالة يوزف ك يبدو أنهم لم يضطروا إلى إصدار حكم بالموت، سوى لأنه أراد التملّص من قبضة الجهاز.

لدى جهاز السلطة المثالي لا يعرف المرء أبداً من هو قاضي التحقيق الذي يعد صحيفه الانهام، وفيما إذا كان هو نفسه دائماً. وحتى لا يجرّ جنون المدعى عليه، يتركونه يعتقد أنه بين أيادٍ مختصة وأن هناك إمكانية - على كل حال فيما يتعلق بحالته - للتأثير على جهاز السلطة. لذا فإنه سوف يبحث يائساً عن فرصة لكسب قاضي التحقيق الذي يعالج حالته.

وغالباً لا يعرف المرء حتى في أي مكتب أو قسم توجد الملفات. ولا يقدر أن يأمل الحصول على مساعدة سوى من أناس على اتصال ما بجهاز السلطة، وهذا يعني من خدم المحكمة والمحامين والمحامين المحتالين والنساء اللواتي يتصلن بالموظفين بصفتهم عشيقات لهم، وأخرين مثل رسام المحكمة تيتوري.

والبحث عن مثل هؤلاء الناس يرتبط بالضرورة بكثير من المهنات. وعلى الباحث عن مساعدة أن يفقد كرامته خطوة خطوة. إنه يتحلّ ظاهرياً وباطنياً. إن الناجر بلوك يتتحول إلى **كلب المحامي**.

إن جهاز السلطة المثالي يحتاج بالضرورة إلى الحالة. من طرف تحمي الجهاز من المتطفلين، أي من المدعى عليهم، ومن طرف آخر تعلّمهم ماذا تعنى السلطة.

يشير جهاز السلطة المثالي انتساباً بأنه غامض ولا يمكن النفاذ إليه. إن صاحب العلاقة يتعرف في أحسن الأحوال على موظف صغير. يحدث هنا مرة واحدة في المحاكمة، أثناء التحقيق الأول. لكن في الختام وحسب يدرك يوسف ك أنه لم يلق جمهوراً عادياً، وإنما مجرد موظفين يبنهم عدد من قضاة التحقيق.

من صفات جهاز السلطة المثالي، بعامة، أن موظفيه يريدون أن يُشفق عليهم. يرون أنهم يؤدون واجباتهم بكل دقة، ويفعلون ما يُطلب منهم

(يقول الجلاد: إنني معين للضرب، إذاً أضرب)، رغم أن هناك أموراً كثيرة لا يدركونها ولا تطابق ميلهم.

كل شيء في الجهاز يحيط صاحب العلاقة، والمظهر الخارجي أيضاً. وإذا دخل إلى المكاتب ذات مرة، فلا بد له أن يفقد إحساسه بالاتجاه الصحيح. إن جهاز السلطة المثالي يدع غرف المكاتب تبني بطريقة لا يقدر المرأة معها على التمييز بين غرفة وأخرى. على المرات أن تبدو طويلة على نحو لانهائي من خلال خطها المستقيم وتشابه الأبواب. وعندما يكون المرأة في هذه المرات، فإنه لا يجد طريق الخروج بدون معونة خادم رسمي، حتى ولو كان المرأة يقف أمام المخرج مثل يوزف ك. بالانتظار الطويل، والدعوات المتكررة، وضيق غرف السكريتارية، لا يجري إنهاك أصحاب العلاقة فحسب، وإنما يجري تحويل نظرهم عن هدفهم الحقيقي. إن ساعات الانتظار الطويلة تدفعهم إلى تبادل الخبرات؛ والنتيجة هي أن يتبنى صاحب العلاقة الأحكام المسماة والأراء العامة لدى التعامل الطويل مع السلطات. ومن هنا يمكن تفسير روايي **الحاكمه والقلعة**، بسهولة وبلا تردد، روایات ترية: على يوزف ك وكأنه يتعلماً كيف ينبغي على المرأة أن يتعامل مع جهاز سلطة مثالي، وكيف يخبر المرأة الحياة مع مضيِّ الزمن.

في جهاز السلطة المثالي يبدو أن الموظفين لا يتقدون في السن. وخير مثال على ذلك هو قصة أمام القانون. ففي حين يتقدم الرجل من الريف في السن بشكل ملحوظ، ويموت في النهاية، يظل حارس الباب على حاله دائماً. وبعد موت الرجل، يغلق الباب بحزم، وكأنه لم يقف أمامه طوال سنوات، وإنما فترة قصيرة لا غير. وطبعاً لا يظل الموظفون شباباً إلى الأبد، وإنما جهاز السلطة هو الذي لا يشيخ. وإذا أنه جهاز مثالي، فلا تظهر عليه ظواهر استهلاك.

يرَكِّرُ الرجل من الريف كل اهتمامه على حارس الباب الواحد هذا، وينسى مع مضي الزمن بقية جهاز السلطة بكلمله. ويكتسب قناعة وهمية بأن الأكثُر أهمية هو اجتياز هذا العائق الواحد. وطريقة تصرفه هذه تطابق كل المطابقة ما يهم جهاز السلطة المثالي: على الفرد أن يوجه اهتمامه إلى الجزئيات، حتى لا تسُوّل له نفسه أن يتساءل عن سير عمل الكل.

لدى وصفه جهاز السلطة لا يفترض كافكا وجود نظام مخبرين شامل. ولا يعيش أشخاصه في خوف من المراقبين السريين والمتخصصين. دائمًا يفاجئون بأن محدثهم إنما هو موظف لدى السلطة، الأمر الذي يعترف به هذا علنًا. المحامي يعمل للمحكمة، وخدم الكنيسة يعمل في خدمتها.

يشتَّت جهاز السلطة المثالي تواجده في كل مكان وجبروته بـملاحتته ذوي النفوس الأبية والمعتدلين بأنفسهم والغرباء. كان يوزف كـواثقاً بنفسه وقتًا ما. إنه يرى اعتقاله هجوماً عليه، غير مقبول في دولة دستورية. في أعين جهاز السلطة يظهر يوزف كـلدى التحقيق الأول متربعاً كل الترفع. وهو لا يعترف بالقضية سوى على سبيل الرأفة نوعاً ما. إنه يمسك دفتر قاضي التحقيق، ويدعه يسقط وهو يقول: ليس في الأمر ضير أن تستمر في القراءة أيها السيد قاضي التحقيق. فمن كتاب الذنوب هذا لا أحاف حقاً، وإن كان لا سبيلاً لي إليه، إذ أنتي لا أقدر أن أمسكك سوى بطرفي إصبعين. يضطر قاضي التحقيق إلى رفع الدفتر، الأمر الذي يمثل مهانة بالغة. لكن يوزف كـيذهب أبعد من ذلك. إنه يطمح إلى التحدث عن سوء حال عام حديثاً عاماً. ويتسم الحكمَة بأنها منظمة كبيرة تبدو ذات طابع إجرامي. إنها، كما يقول، منظمة لا تشغُل فحسب حرساً مرتضيين ومراقبين وقضاة تحقيق أغبياء سخفاء هم متواضعون في أحسن الحالات، بل إنها تستخدم، فوق ذلك، على كل حال قضاة ذوي رتب عالية

وأعلى مع حاشية ضرورية من الخدم والكتبة ورجال الدَّرَك ومساعدين آخرين، وحتى جلادين ربما؛ وأنا لا أتورع عن استخدام هذه الكلمة. والغرض من هذه المنظمة الكبيرة، يا سادتي؟ إنه يكمن في اعتقال أشخاص أبرياء وإجراء تحقيق ضدهم لانفع فيه ولا يتمحض في الغالب عن نتيجة كما هو الأمر في حالي. وفي عبث الأمر كله، كيف يمكن تفادي فساد الموظفين الأكثر سوءاً؟ هذا مستحيل، وليس من شأن القاضي الأعلى مرتبة أن يقدر على فعل ذلك حتى بخصوصه نفسه. وبعد قليل يصل يوزف ك إلى النتيجة بأن الأمر إنما يتعلق بعصابة فاسدة.

ولابد لجهاز السلطة من أن يعتبر تصرف يوزف ك تحدياً خارقاً. مثل هذا المحرّض انتهى بالنسبة إليه. لكن إذ أن جهاز السلطة هو جهاز مثالي، فإن ما من موظف فيه سوف يسمى ذنباً يوزف ك بالاسم؛ إن من شأن هذا أن يرهف أحاسيس آخرين، وقد يأخذون برأي ك. لابد من إيقائك في حالة قلق. عليه أن يظل في حيرة من أمره، حتى يدرك بنفسه أخيراً أن وضعه في غاية السوء. والسلطة تملك طبعاً وسائل كافية لاستصغاره. إنها تدعوه إلى تحقيق دون أن تحدد له الساعة. ومع الزمن يضطر إلى إهمال أعماله، لأنه يلاحظ ازدياد الناس الذين يعرفون عن محاكمة (عمه والمحامي وصاحب المعلم آخرون)، ويبدو من الضروري أن يهتم بها بنفسه. إنه يعتقد فترة طويلة أنه في ميسوره إنهاء محاكنته بسرعة - لهذا السبب يحظر المحامي بإلغاء توكيده -، لكن هذا الاعتقاد بالذات ينم عن تقدير خاطئ كلياً لجهاز السلطة. لو أظهر ك خصوصاً، أي لو أصبح تابعاً، كما تنتظر السلطة، وكانت ترتكبه وشأنه. كان من شأن محاكنته أن تماطل، وأن يدعى إلى المحكمة بين الحين والآخر، لكن لم يكن من شأن هذا أن يستتبع نتائج هامة.

إن جهاز سلطة مثاليًا لا يحتاج إلى أن يراعي الفرد. إنه يوجد لذاته وليس من أجل السكان. والفرد لا يعرف الظروف التي تسود داخل الجهاز رلا الضرورات التي تسيطره. وهو لا يقدر أن يقول فيما إذا كان عمل الجهاز يسير على نحو جيد أو سيء. وليس من حقه أن يصدر مثل هذه الأحكام. بل عليه أن يقبل بأن الجهاز هو جهاز مثالي، أي أنه يعمل طبقاً لإمكانياته وحاجاته. ولا يجوز للفرد أن يتطاول مثل يوسف ك ويصدر أحكاماً عامة على الجهاز.

ووجهار السلطة المثالي لا يعترف بوجود حياة خاصة. في المحاكمة ثمة مشاهد لاتخusi تدل على عدم وجود مجال شخصي بالنسبة إلى المواطن. يمكن للمحكمة أن تظهر في كل مكان. ولدهشة ك تصل إليه حتى وهو في الكيسة. على الفرد أن يحصل على الانطباع بأن المحكمة موجودة في كل مكان. عليه أن يكون دائمًا على استعداد لأن يحصل له شيء غير مريحة.

من طبيعة جهاز السلطة المثالي أنه يشير انطباعاً بأنه منظمة لا يسير عملها على نحو جيد كلية. ومن هنا فإن التهاون هو إحدى خواصه. وهكذا فقط ترتبى الفرد على الصبر والتواضع. وسرعان ما سوف يكشف عن التصور بأن الجهاز إنما هو هنا من أجل الفرد. بل على العكس، حين يبدأ الأفراد بتكونين شعور بأن الجهاز أصبح أكثر تسامحاً، وبدأ يوجد من أجل السكان، فإن على الموظفين أن يتدعوا عوائق خاصة لكي يصححوا لهم رأيهم. لكن في آثار كافكا لا يقترب الجهاز مثل هذه الأخطاء، بل يعامل الأفراد من غير هوادة ولا مبالاة.

ويكفي طبعاً أن يحدث أن يستقل الجهاز عن السكان أكثر من اللازم، بحيث يبدأ هؤلاء بأن يصبحوا غير راضين. ويفدو أن كافكا أدرك هذه

المضلة. في المحاكمة يوضع في الاعتبار حالة أن تستقل المحكمة بذاتها على نحو مفروط، ولا تعود تعرف بعامة ماذا يمكنه أن يغضب السكان. وهنا لا بد لها من التوجّه إلى محام يعرف نفسية الرأي العام أفضليـاً مما تعرفها المحكمة، وتطلب منه أن يقدم لها حكمه على هذه الحالة التي تبدو معقدة. والقضاء سوف يطّلعون الخامنئي على الملفـات، التي هي كلها سرية مبدئياً، فقط لكي لا تسيء إلى سمعة المحكمة. لكن مثل هذا لا يحدث، كما يُؤكـد لنا في المحاكمة، سوى نادراً.

كافكا نفسه كان في عمله المكتبي يندهش من أن جهازاً يقدر أن يسير في عمله على نحو باهر رغم تراكم الأخطاء وانعدام الكفاءة والاختصاص. من المعروف أن كافكا نفسه كان يقع على وثائق كثيرة دون أن يفهم منها شيئاً. وكان مما يدهشه أنه كان يوقع بسرور، لكنه كان يوقع - خلافاً للتعليمات - بالأحرف الأولى فقط من اسمه، لكن دون أن يدفع ذلك أحداً للتشكيك في صلاحية الوثائق. وقد وصل كافكا إلى الاستنتاج بأن الأخطاء والثغرات وعدم الاختصاص ليست هي التي تحـدد قوة الجهاز، وإنما الطريقة التي نظم فيها، وكيف يتعامل مع الجمهور، أي كيف يكتـيفه طبقاً لبنيته.

ثم إن جهاز سلطة يكون مثالياً، عندما يملـك المعلومات كافية، بل المعرفة بعامة. وحده يحق له أن يعرف حروف القانون، هذا إذا وجد مثل هذا القانون. وحده يحق له أن يعرف كيف ترتبط الأمور في الحياة الاجتماعية مع بعضها بعضاً. إنه لا يحتاج إلى شيء مثل الصحافة. على الرأي العام أن يعيش سمعاً ومن الإشاعات. على الجهاز أن يسير في عمله مثل الكنيسة اليهودية أو الكنيسة المسيحية في القرون الوسطى، حيث لم يكن لا التلمود ولا الإنجيل في متناول الناس. كان رجال الدين هم القـريبون

من كلمة الله. إذ كان يحق لهم وحدتهم الاطلاع على الكتب المقدسة.

من هنا يشعر السكان بالحيرة لأنهم لا يعرفون الحروف، القانون، كما يرد لدى كافكا دائمًا. إنهم لا يقدرون سوى على وضع افتراضات، لكنهم يعلمون أنها لا توصلهم بعيداً. وطبعاً لا يخطر على بالهم المطالبة بنشر الكتاب. إنهم ليسوا مصلحين، يريدون تغيير السلطة من أساسها. كما أنهم لا يرون وجود إمكانية قط لذلك.

من الجلي أن جهاز السلطة المثالى في منتهى الحساسية فيما يتعلق بالسلطة وإمكانية فقدانها. إن العم يظهر حسًا جيدًا بذلك، عندما يقترح على يوزف ك مغادرة المدينة لبعض الوقت. وإذا يردد هذا بأنه قد يُمنع من السفر، يجيب العم: لأنهن سيفعلون ذلك... إن الخسارة في الفوضى التي تصيبهم نتيجة سفرك ليست كبيرة جداً. إن جهاز السلطة يسمح بكل ما لا يخل به إخلالاً جوهرياً.

يرغب جهاز السلطة في أن يكون دائمًا في المركز من حياة السكان. وشخصوص المحاكمة والقلعة تطابق هذه الصورة إلى أبعد حد. إن تصرفاتها وأحاديثها لها دائمًا علاقة مع جهاز السلطة. وعندما تتحدث كثيراً جداً، فإنها تفعل ذلك لأنها بحاجة إلى نقل ملاحظاتها عن جهاز السلطة لمقارنتها مع ملاحظات الآخرين. إن هذه الشخص تتوارد في موقف مشابه لوقف المرضى في غرفة الانتظار في عيادة الطبيب أو في أسرة المستشفى، الذين ينشدون الحديث عن الأمراض والأطباء وطرق العلاج وسیر العمل في المؤسسات الصحية.

حيث يسيطر جهاز سلطة مثالى، لا توجد جنائز منتظمة. على المنوفى أن يؤول إلى النسيان فوراً. من هنا فإنه من المنطقى حداً أن يمتحن يوزف ك مثل كلب، لا يمكن أن يعمل به شيء سوى الطمر. بهذه الطريقة يطمس

كل أثر له. إن جهاز السلطة المثالي يعرف أنه لا يستطيع الاعتراض على احترام الموتى.

يملك جهاز السلطة المثالي كثيراً من الصفات التي تنسب إلى الله. إنه موجود في كل مكان، قدير، لا سبيل إلى بلوغه، بعيد الغور، خالد، لا يقدر، هذا يعني أن هناك أموراً لا يحسب أحد حسابها، تقارب الأعجوبة (مثلاً أن تكسب قضية يوماً ما)، إنه لا يتجلّى قط في صورة مجسمة، وجهها لوجه، لا يعرف المرء منظره. ولا يوجد قادة، بحيث أنه لا يمكن أيضاً أن توجد تكهنات عن إمكانية تغيير القيادة ونهج سياسة السلطة.

إن تشابه جهاز السلطة مع الله دفع الكثير من المفسرين إلى تفسير الجهاز بأنه هو الله. وربما فكر كافكا بالله فعلاً. وإذا كان قد فعل ذلك، فإنه يكون قد رسم صورة إليه يمارس سلطته مثل جهاز سلطة مثالي، يطلب من الفرد، من المؤمن، خضوعاً مطلقاً وخشنوداً. أي علاقة مباشرة - شخصية معه مستحيلة. إنه أب علوي لا يدرك، لا يمكن لأحد أن يحدس قانونه الذي لا مدخل إليه. ومن المرجح جداً أن يمارس سلطته مثل بوروغرطي.

ماذا يبقى لفرد يواجه جهاز سلطة مثالي؟ في الواقع فقط ما يبقى للمؤمن إزاء الله: الخشوع، والاستسلام لقدر، والإيمان بصحة ما هو قائم، والتماهي مع بني السلطة. يجب عليه أن يدرك أن كل كفاح ميؤوس منه. جاء في المحاكمة إنه لا يجوز للمرء أن يحاول إصلاح كيان المحكمة، إذ أن من شأن هذا أن يؤدي إلى خلل صغير يعرف هذا الكيان كيف يعيش عنه بسهولة في موضع آخر، بحيث أنه يصبح... أكثر ترابطاً وأكثر احتراساً وأكثر صرامة وأكثر شرداً.

إن الفرد مغلوب على أمره دائماً. لا ريب أنه يوجد مخرج، لكن كافكا لا يشير إليه. من شأن هذا الخرج أن يتمثل في مجتمع تضامني. على

يوزف لك أن يتحد مع كل الضحايا والمعدين. عليه أن يقوم بتنظيم مقاومة. في هذه الحال عليه ألا يتورع عن مساعدة الآخرين. عليه ألا يعيق خدم المصرف من دخول حجرة التعذيب. لا يجوز له أن يترك بلوك لوحده الخ الخ. لكن شخص كافكا تفكرا، نفسها، بطريقة بيروقراطية جداً أكثر من اللازم، تفكير في بني سلطة أكثر من أن تكون قادرة على مثل هذا العمل. إنها لم تسمع قط عن مثل أعلى هو مجتمع ينتفي فيه تحكم الإنسان بالإنسان. ربما كان الشيء الوحيد الذي تعلم به هو الانفصال كلياً، كفرد، عن جهاز السلطة، واكتساب حرية كاملة. لكن ماذا يعني هذا؟

في عالم لا يوجد فيه غير الله والمؤمنين، ينبغي على من يمرق أن يصل إلى قناعة بأنه من الآن فصاعداً إنما يقف في لا شيء: وحيد أعزل في فراغ. في هذه الحال تصبح العودة إلى عالم الخشوع والسلطة التي لا تقهقر هي الأفضل.

كارول ساورلاند

١٩٩٠

Karol Sauerland

٩ - كتاب القرن العشرين

أهم كتاب في القرن العشرين؟^(*) إني لا أترى لحظة واحدة. على

(*) وجهت الصحيفة الأسبوعية الألمانية دي تسايت (الucus) سؤالاً إلى عدد كبير من الكتاب والعلماء في العالم، هو: «اذكر أهم كتاب في القرن العشرين أثر في نفسك أكبر تأثيراً».

وقد عنت الصحيفة: كيف ستبدو، في المستقبل البعيد، مكتبة القرن العشرين؟ أية كتب يجب أن تكون فيها بالضرورة؟ وماذا تحدثنا هذه الكتب عن ذلك القرن؟

وطوال عام ١٩٩٩ نشرت الصحيفة كل أسبوع مقالة بعنوان «كتاب قرن»، اختاره أحد الكتاب أو العلماء بصفة شخصية. وبهذا نشأ عصر في مرآة مكتبة، ونواة مكتبة في مرآة عصر.

وفي عام ٢٠٠٠ نشرت هذه المقالات في كتاب بعنوان «كتابي في القرن العشرين».

في هذا الكتاب قدم المؤلفون أربعة كتاب، كلّاً منهم مرتين. وهؤلاء هم: روبرت موزيل التساوي، وسوليشتين الروسي، وبروست وكامو الفرنسيان. أما بقية الكتاب، فقد قدم كلّ منهم مرة واحدة.

أما كافكا، فقد جرى اعتباره «أهم كاتب في القرن العشرين»، وقدّم، وحده، أربع مرات: رواية القلعة مرتان، و«اليوميات» مرة، ورواية المحاكمة اختارها الكاتب الأمريكي لويس باغلي.

الفور أقول: المحاكمة لفرانز كافكا. وإمعان التفكير طويلاً لا يغير شيئاً في اختياري، لكنه يطلب مني دقة أكبر: ما من كتاب واحد وحيد يتبوأ هذه المرتبة وحده. أتواضع وأقول: كتاب المحاكمة لكافكا هو واحد من أهم الكتب في القرن العشرين.

في البدء بسبب جودته الأدبية. إن أسلوب كافكا ذا الخاصية المميزة، بأنه يوفر للمكتوب مدخلًا إلى الخلود، هو نموذج الكتابة عن القرن العشرين المسؤول، هذا القرن الذي تاه فيه العقل فوق الحدود باتجاه الجنون، وأقصى فيه الحرائق والكشافات الضوئية الساطعة النور.

إن سرًا من أسرار أسلوب كافكا يكمن في واقعيته الجافة وفي عينه، منقطعة النظير، التي تقع على تفاصيل كاشفة. إن القارئ مرغم على أن يقبل غير المعقول والغريب والوحشي على نحو لا يحتمل، عليه أن يقبلها حقائق واقعة، وذلك لأن عرض كافكا لها هو عرض واقعي ورزين على نحو صارم. إن حقيقة كافكا لا يمكن للمرء أن يتجنبها. صحيح أن أماكن الحدث في المحاكمة تقع إلى حد كبير في ظلمة وانية عميقـة - المحكمة في العلية، بيت الخامي هولد، والكاتدرائية التي تروي فيها أمثلة القانون - لكن رغم ذلك تبدو الصور التي ابتدعها كافكا مثل صور أخذت تحت ضوء ساطع يعمي الأ بصـار، بحيث أن كل ما كان عليه أن يظل في الظلمة الوانية، يدنو إلى المقدمة، ويثير فينا مزيجاً من الشـمـئـازـ والخـجلـ.

لكن في الموضوع الرئيسي كان سبب وقوع اختياري على المحاكمة هو السبب الذي يوضح أيضـاً لماذا أصبحت كلمة «كافكاوي» كلمة سائرة مثل كلمة «شكـسـيـريـ» و«دانـتيـ». بدقة لم يتقنها مثله أحد من الكتاب المعاصرين له، عبر كافكا في مجموع آثاره، لكن على نحو ملفت للنظر

بشكل خاص في المحاكمة، عن سوء قررتنا وعن الجراح التي أصيب بها الناس والمجتمع في العالم الغربي في القرن العشرين.

في يوزف لك تعرف على أنفسنا. مثله نعاني بوعي قليلاً أو كثيراً من شعور فقدان: لقد فقدنا الثقة بأن نحيا مع أخوتنا من البشر في مجموعة متضادة تومن؛ فقدنا الثقة بقيمتنا وحرمة شخصنا، فقدنا احترامنا للمؤسسات والقوانين، فقدنا الصلة بالله. ونحن نشعر بالخجل، لأننا لا نرى مخرجاً من مأزقنا.

وحتى عندما يكون معاصرتنا قد هبطوا على سطح القمر بسفن فضائية (وأولادنا ستنقلهم على الأرجح سفن فضائية إلى المريخ)، وحتى عندما تبدو الطاقات لتقدم تقني أكثر فائدة لا تنفد، فإننا نشعر مثلك مثل يوزف لك بأن عالمنا إنما يعني، أخلاقياً، من خوف مرضي من الوجود في مكان مغلق. الوحشية واللامبالاة والنفاق هي القواعد السائدة. ولنا لا يبقى سوى فرصة واحدة للخروج من العزلة والوحدة: فعل الجنس مع الحنان الذي قد يرافقه. إننا نشارك في مشاهدة إذلال البشر. وهذه ظاهرة تصعب واضحة في المحاكمة عندما يموت يوزف لك مثل كلب، وفي الانساح عندما يجد غريغور سامسا نفسه وقد تحول إلى حشرة ضخمة، وعندما يظهر كلب أو قرد أو حيوان مجهمول في جحر أو شب من الفران شخوصاً ومثليين مفوضين لمفهومه عن قدر الإنسان.

تبدأ متابعة يوزف لك وأشجاره مثل متابعة أيلوب وأشجاره، دون أن يكون من شأنه قد فعل شيئاً. ذات صباح يعتقل، وسرعان ما يعثر على كشفيين حاسمين.

أولاً: ليس لديه أحد يمكنه أن يتوجه إليه، إنه يقف وحيداً لا معين له.

إن رابطة التضامن، والعادة، وحتى المحبة ليست ثابتة على نحو يكفي لتدوم بعد العباء، هذا العباء الذي يمكن بأن يوزف لك قد أصبح مشتبهاً به.

ثانياً: يلاحظ لك أنه بات مرهف الحس تسهل إصابته بجرح. ليس من المهم أن موظفي المحكمة، الذين يعالجون حالته، فاسدون، أو أن القوانين التي يستخدمونها غير مفهومة وسرية على كل حال. المهم أنه لا يقدر أن يستأنف الدعوى ولا أن يهرب. إنه تحت سيطرة ضرورة لا تقدر. والإذلال والخجل اللذان ينتجان عن ذلك، يسلبان يوزف لك كرامته الإنسانية، ويقضيان عليه في النهاية: والخجل يشمل كل شيء تعلمه عن ماهية وجوده. والخجل يشله بحيث لا يقدر على الدفاع عن نفسه ضد منفذ حكم الإعدام. مثلين ثانويين كبار السن يبعث المرء في سيلٍ. وفي ساعة الاحتضار كان الأمر بالنسبة إليه كأنما الخجل يبقى بعده.

لا أريد الادعاء أن كافكا عندما كتب المحاكمة في عام ١٩١٤ إنما قد تنبأ بأهوال الحرريين العالميين وما بينهما وبعدهما من حروب. بحساسته وذكائه الخارقين استخلص كافكا من مرجل براوغ، الذي كان يغلي عشية الحرب العالمية الأولى، العناصر التي كان يحتاجها لرؤياه وحسب.

في المحاكمة، التي هي رائعة إبداع فني وأسطورة مميزة من أساطير القرن العشرين، منح، بفضل عبقريته، صوتاً لرؤياه هذه.

لويس بغل

Louis Begley

١٩٩٩

١٠ - وعي الذات

لا يهتم المجتمع التراتي بغيرغور سامسا مثلاً. وهذا يعني أن غيرغور سامسا يفشل على نحو كامل بسبب عمله المهني المضني. ياتع الأقمشة المتجلول هذا، الذي يعيش في مجتمع تنتفي فيه الاتصالات الإنسانية... وجد نفسه... ذات صباح... وقد تحول في فراشه إلى حشرة ضخمة. إنه «لم يكن» حشرة. لم يحوله طبيب أو ساحر، وإنما وجد نفسه ذات صباح مخلوقاً غير شبيه بالإنسان. وراح يسأل في الأسرة، وراح يسأل في مكان العمل وفي المجتمع، كما هو الحال في لعبة الأطفال عندما يغلق المرء عينيه: هل أكون؟ هل لا أكون؟ والمجتمع يقول، لأن غيرغور يرفض أن يعمل، لأنه يعلن نفسه عاجزاً عن العمل، رغم أنه ليس مريضاً، المجتمع يقول: أنت لاتكون، أنت طفيلي، أنت لست إنساناً. وأخته تقول الجملة التي يسمعها غيرغور في الختام: لو كان هذا هو غيرغور... لأدرك منذ فترة طويلة أن الكائنات البشرية لا تستطيع العيش مع مثل هذا المخلوق، ولتضى لسبيله طوعاً و اختياراً. يسمع غيرغور الجملة، في حف مرتداً إلى حجرته، ويموت طوعاً إلى حد ما. وعلى الفور ينبع جمال الأخت، وتزدهر الأسرة.

لأن غيرغور يدافع عن الإنساني، لا يعود صالحاً، وسدوا أولاً لنفسه

حضره، ولنالى للمجتمع أصاً، هذا المجتمع الذي غرس في نفسه إدانة الداّس. ب الدفاع عن قيمته، يصبح نفسه غير ذي قيمة.

عن عامة الناسين عمل الوكيل القانوني للمصرف بنجاح على ما سدو الاّن، يوم عيد الميلاد الثلاثين، تبعت هذه الرغبة في تبرير كل شيء، كل ما كان وحا . تبعت هذه الرغبة في أن يرى المرء نفسه مبرراً، لا يعود في الإمكان تنسّبه عنه الاّن أن يضحي بهذه الرغبة بكل ما حققه في الحياة العممه إنه لا يقدر أن يعمل وكيلاً قانونياً في توسيع نفسه في آن. لقد طلب المحكمة إبحار عريضة، يذكر فيها جميع الجوانب الهامة في حياته كلها، يقوم فيما إذا كان يقدر على الالتزام بها. والآن بات يتوجب عليه: همّال حتى أكثر أمور الحياة عادية. إن توسيع حياته يأخذ منه كل رفه لكن السرير لا ينجح مدة ثانية واحدة. وكلما حاول تحقيقه، أخفق هد التبرير على وجه ألم. إنه يحسّد كل الوسائل الممكنة: وسائل القانون - كان لك يعيش في دولة دستورية - واللحامات، والفن - تيتوري - ، والدين - الحوار مع قس لسجن في الكانترائية - لكن جميع هذه الوسائل ثبتت أنها مظهر باطل أمام جدية حاجته الداخلية لتبرير حياته. كلما طور لك ضميره، راد المطلب وزاد بالتالي فتيل لك أمام ضميره. كلما أراد، إذاً، أن يصبح أفضل، بات أسوأ أمام نفسه. كلما أراد أن يفعل أكثر من أجل تبرير نفسه، وجّه عليه أن يedo لنفسه أنه لا يمرّر له أكثر. وهذا يؤدي منطقياً إلى سحب رخصة الحياة. إن الفصل الأخير من رواية المحاكمة ليس شيئاً آخر سوى ديكتيك انتحار، حسناته كلياً حتى النهاية. إنه إعدام ذاتي يقيمه بنفسه. هذه هي، إذاً، العملية الساخرة: من لا يقدر أن يعيش إلا مسّوغاً، عليه أن يقتل نفسه. ومن يقدر أن يعيش بلا ضمير، يسهل عليه أن يعيش طويلاً. لكن هذا ليس صورة، ليس أمثلة، ثُرّكب على نحو ما، عن طريق المصادفة، في مادة روائية ما. يمكن أخذ مواد كافكا الروائية على

محمل الحد، إنها القضية نفسها. كذلك المادة التي تكونت منها رواية المحاكمة هذه، ليست مجرد هيكل أمثلة. إن المدعى عليهم، في هذا الكتاب، ينتمون جميعهم إلى الفئات «العليا». بالتحديد يُقدم لنا التاجر الشري بلوك والموظف الكبير في المصرف يوزف ك. والمحكمة، التي يجب على المرء تبرير نفسه أمامها، تقع في ضاحية المدينة، في حي الفقراء. ما يجتمع في قاعة المحكمة يعطي ك انطباع اجتماع سياسي. إن قسر التبرير يملك، إذاً، أسباباً دنيوية، اجتماعية للغاية. إنه لا يأتي من لا مكان أخلاقي وكل مكان، ولا من جنة ونار، وإنما من حي الفقراء في ضاحية المدينة. وهذا يعني، هنا يجب على ما يبدو أن يبرر نفسه فرد يتبع إلى الطبقة ذات الامتيازات. ومهما استقل نظام المحكمة فيما بعد في منطق كافكا، فلا بد للمرء أن يضلّ طريقه، يائساً إلى حد ما، في هذا النظام، إذا لم يحسن باستمرار هذه المادة من المنصب البورجوازي في المصرف إلى الغرف العمالية فوق الأسطح، التابعة للمحكمة.

وهنا إشارة، أكثر إيجازاً، إلى القلعة. مجرد قاعدة الرواية: كل نشاط يقوم به ك في القلعة يبيّن أن هذا النشاط ليس فقط أنه لا يبلغ الهدف الذي يحدث هذا النشاط من أجله، وإنما يقوم بإبعاد ك عن هذا الهدف. وهذا يعني أن كل ما يفعله ك لإثبات مجرد وجوده في القرية إنما يساهم في الإضرار بهذا الوجود نفسه وفي استحالة هذا الوجود بالذات. أحدهم يقضي على نفسه مجرد كونه يحاول إثبات حقه كإنسان. وذلك إذ يقول، لقد تعلم هذا وذاك ويحب هنا أن يمارسه.

مارتن فالزر

Martin Walser

١٩٧٣ - ١٩٨٠

١١ - فهم القارئ لنفسه

إذ كان على أن أكتب أطروحة دكتوراه، حتى لا أحذب أمل أمري، لم يبق شيء آخر إلا أن أكتب عن المؤلف الذي كان أثناء سنوات دراستي الجامعية قد حال بيني وبين أن أقرأ فعلاً مؤلفين آخرين: فرانز كافكا. لكن حين أردت أن أكتب عنه شيئاً، تبين أنني لم أكن قد فهمته. فرغم أنني كنت قد قرأت الروايات الثلاث والقصص مرتين، ثلاث، أربع مرات، لم يكن في مقدوري أن أكتب ماذا تعني مستعمرة العقاب. كان من شأن تفسير الأنساخ أن يعني بالنسبة إلى آنذاك القول، لا بل إثبات ما هو معنى عمل أدبي تحت كل الظروف. كان المرء قد تربى على الاعتقاد بأن شمة معنى يكمن، إن صح هذا التعبير، في الأثر الأدبي. وعلى المرء إخراج هذا المعنى. الآن أصبحت أتلقي رسائل من تلميذات وتلاميذ، وأعلم منهم أنهم يتدرّبون في دروس الأدب الألماني على اكتشاف معنى الكتب التي كتبها. ويفيدوا أن المدرس يعرف المعنى، لكن لا يجوز له أن يقوله للتلاميذ. وهم يرون أنني أعرف هذا المعنى. ذوو الحيلة منهم يخابرونني مساءً أو يكتبون لي ويسألون: ماذا قصدت بهذا أو ذاك؟ هل صحيح فعلاً، كما يقول المدرس، أن اسم كلاوس بوخ هو اسم ناطق يكمن فيه معنى كلاو دس

بوخ؟ إلى آخره^(*). أجيّب أنه حسّ خبرتي في التعامل مع الأدب لا يوجد ابتكار مميت للمعنى، وأنّ لكل قارئة وقارئ حقّ طبيعي بالشعور الخاص بها/به وبتجربة قراءة. وإزاء مدرسين أضيف: لا يمكن إعطاء درجات فقط بناءً على مدى اقتراب التلميذ من المعنى المخross من قبل المدرس، وإنما أيضاً كيف تقدر التلميذة أو يقدر التلميذ التعبير عن تجربة القراءة الخاصة بها أو به. كما أني أقول: حتى عندما لا تقدر التلميذة أو لا يقدر التلميذ أن تفعل أو يفعل شيئاً بنص من النصوص، فإنّ هذا هو شيء جدير بالعرض والتحليل، ويترنّكثراً، على الأقلّ مثلما يترنّك البحث عن والعثور على المعنى المختبأ فيما يbedo مثل بيض عيد الفصح.

كانت قراءاتي عندما كنت طالباً قراءة «برية» إلى حد ما. ولم تكن هذه القراءة تسير في اتجاه البحث عن معنى أو ابتكار معنى. لم أقرأ كافكاً سوى كما قرأت كارل ماي^(**). لا أقدر إطلاقاً أن أقرأ على طريقتين. إن الجمل التي أقرأها تعيش من أنه يُحاجب عليها في. يُحاجب عليها بتجارب تشيرها هذه الجمل المفروءة، وتعتبتها، وتجعلني أعيها. هنا أستطيع أن أستدعي كل شيء، كل ما عشته ورأيته وفكّرت به وشعرت به وأحببته وكرهته وخفت منه. بشرط أن أستطيع أن أفعل شيئاً ما بالكتاب الذي أقرأه. كل قارئ يجيّب مع نفسه على كل جملة تقف على الورق. إنه يضع هذه الجملة بنفسه في تصوّراته. وما يحدث في داخل الماء يمكن مقارنته بالحلم.

(*) كلاوس بوخ هو أحد شخصيات رواية «جود هارب». كلاو دس بوخ تعني: سرق الكتاب (ا.و.).

(**) Karl May (١٨٤٢ - ١٩١٣) كتب روايات خيالية مشتقة تجري أحدها في الشرق أو بين قبائل الهنود الحمر (ا.و.).

قارئاً لا يعيد المرء إنتاج ما كان لديه وما عاشه، وإنما يتبع برغبة ذاتية وبمعونة نص عالماً لا يوجد في الواقع. ما ينقصنا في العالم الواقعي، يزودنا قراءة، يجعلنا كقراء أقوىاء. ما ينقصنا، يجعلنا منتجين خلائقين. ليس امتلاك الكثير يجعلنا مبدعين، وإنما امتلاك القليل. النقص إذًا، لو لم ينقص العالم الذي نعيش فيه شيئاً، لما قرأنا. ولو لم ينقصنا شيء، لما كتبنا. يقرأ المرء، إذًا، للأسباب نفسها التي تدفع المرء للكتابة.

يمكّنا أن نتأمل ماذا كان ينقصنا عندما كنا في السنة الثامنة من عمرنا وجعلنا نصبح هكذا قراء لكارل ماي. هذه صورة غير كاملة. إن المرء يتبع الضيق، الخطر، الوفاء، الخيانة، اللؤم، الشهامة، الإنقاذ؛ يتبع، مع آثار حوافر الخبل، القلق والأمل. يعيش المرء في نفسه حق الإنقاذ من الخطر الدائم. إن طفلاً يشعر بالأمان، لا يقرأ كارل ماي. وما من شيء في هذه القراءة أكثر غرابة من السؤال عن معنى. لدى كارل ماي ولدى كافكا. لكن هناك السؤال عما إذا كان المرء قد فهم كتاباً. ييدو هذا وكأن الكتاب شيء محدد كلياً، إذا لم يفهمه المرء بصفته هذا الشيء المحدد، يكون المرء قد فهمه فهماً خطأ أو أساء فهمه. إنني أعتقد بالآخرى أنه إزاء كتاب لا يوجد سوء فهم، وذلك لأن كل قارئ، عندما يقرأ كتاباً، لا يفهم بهذا الكتاب دائماً سوى نفسه، ولا يفهم الكتاب. قال بروست^(٤): «الكتاب هو أداة بصرية يمكن للقارئ بمساعدتها أن يقرأ في حياته الخاصة به». إنني أعتبر هذا وصفاً في غاية التحفظ لما يحدث لدى القراءة. حتى إن الإحساس بعدم فهم كتاب ما، لا يجب أبداً أن يقلل من عمق القراءة. إنني، فعلًا، لم أفهم كافكا. لكنني قمين أن أجيب كما أجبت ابنة صاحب الحانة في

(٤) Marcel Proust (١٨٧١ - ١٩٢٢) روائي فرنسي كبير، أهم أعماله رواية «بحثاً عن الزمن الضائع» (أ.و).

«دون كيشوت» القس، إذ سألها عن رأيها في قصة الفارس: «لا أعرف، أيها السيد الموقر،... إنني أشارك أيضاً في الاستماع، وإذا لم أفهم، فإن الأمر يعجبني رغم ذلك». إنني لم أعرف مادا يعني أن تُعمل يوزف ك، ويسمح له رغم ذلك بالذهاب إلى المصرف ومواصلة عمله. لقد شغلني كلّياً، لأنه يبحث عن مساعدة، فقط كما يبحث من لاأمل له الحصول على مساعدة. أود أن أرى قارئ المحاكمة الذي، عندما نقرأ فصول هذه الرواية، المتداخلة مع بعضها بعضاً مثل تدخل أسنان عجلة سمه يسأل نفسه عما يعني كل هذا. يعرف المرء هذا، دون أن يعيه. في اللحظة التي يقرأ فيها المرء كيف يأتي يوزف ك إلى تيتورلي، يتذكر المرء ولا رغب أنه كثيراً ما كان لدى تيتورلي. يعرف تمرء الحجرة الخشبية، والإرتعاشات التي تفسد كل شيء. كثيراً ما كان المرء مضطراً للبحث عن مساعدة ولا يطار مساعدة، وعاش تجربة أن كل بحث عن مساعدة وكل تظاهر لمساعدة إنما يشير رفضاً مطابقاً كل المطابقة لهذا البحث والانتظار، لا بل يتجزأ حقاً هذا الرفض. لا يجب، إذاً، على أحد أن يروي لنا شيئاً عن تيتورلي أو عن فس الكاتدرائية مع أمثلته عن حارس الباب. بهذه التجارب وبالمحاولات المتولدة منها نقوم نحو القراء بإخراج هذه الرواية، وكل رواية، في الحال أنفسنا. دائماً بشرط أن نقدر أن نفعل بكتاب. شيئاً ما. ليس فهم الكتب هو المطلوب، وإنما أن يقدر المرء أن يفعل بها شيئاً. لقد وجد أناساً كتبوا عن رواية المحاكمة كتاباً بمصطلحات نفسانية، أو ماركسيّة، أو وجودية، أو لغووية. وبعد عدة عقود قدم عالم أدب الحساب التالي:

«إن التفسيرات والتحليلات ذات العدد الهائل التي أفردت لكافكا في الخمسين عاماً الأخيرة رادت معلوماتنا عن هذا الشاعر وشعره على نحو لا نهائي، ورغم ذلك ظلت آثاره وكأنها لم تُمس، وبقينا وكأننا لم نقرب من نواة جوهرها. على كل حال لم تصبح في قبضتنا. إن حمود القسر

استخدمت، خلال الفترة الزمنية القصيرة نسبياً البالغة نصف قرن، وأفادت من كافة الإمكانيات المنهجية والإمكانيات المتعلقة بالمضمون: اللاهوت، علم النفس، علم الثقافة، علم الاجتماع، الفلسفة، علم الإشارات، كذلك علم اللغة، علم البلاغة وعلم الاتصالات. ورغم ذلك: إن تعطشنا لتفسير نصوص Kafka ولا يجاد طرق لفهمها، مازال لم يُشعّ. إن الحال هو كأنما هذه النصوص مازالت تنتظر تفسيرها الأول والمبئي ... ويدو أن نصوص Kafka إنما تملك مقاومة خاصة إزاء جميع محاولات التفسير».

ومن ثم ينصح عالم الأدب هذا بتأجيل تفسير نصوص Kafka، ثم يقول إن هذه النصوص هي نموذج الأثر الفني الذي لا يحقق وظيفته سوى فعل التفسير الفردي الشخصي.

الشكر لكافكا لأنه دفع علم الأدب للإقلال عن الإجماع والسماح بالقراءة والفهم كفعل شخصي. بكلمة أخرى: قراءة شيء إلى وفي نص هي أهم من قراءة شيء من هذا النص. ولا يسري هذا على آثار Kafka بالإضافة إلى غيرها من الآثار الأدبية في القرن العشرين فحسب، وإنما يسري على كل أثر أدبي بعامة. إننا نقارن ونوحد ما نقرأه مع وعيينا. ونحن لا نحتاج إلى نظريات، وإنما إلى الخبرة التي تتوضّح تدريجياً أنه يكتب للأسباب نفسها التي يقرأ لها.

حين أردت، لكي لا أختب أمل أمي، أن أكتب شيئاً من مسائل علم الأدب، كان ثمة ما هو مؤكّد كلياً: تجربتي في القراءة لم تكن مطلوبة. لكن يجب أن أعترف أنه لم يكن من شأنني على الأرجح أن أكون قادرًا على صياغة تجربتي في القراءة. لم يكن من شأنني أن أجرو على استخدام تجربتي في القراءة في عمل يعيّ أن يكون علمياً. الآن أستطيع أن أقدّر إلى حد ما أن القراءة هي طريقة حياة. يقدر المرء، لكي يلقى نفسه، أن ينظر في المرأة، إلى صور قديمة وحديثة، لكنه يقدر أيضاً أن ينظر في كتاب. هنا

يلقي المرء نفسه. ليست القراءة مثل سماع موسيقى مثلاً، وإنما مثل عزف. والذات هي أداة العزف. إن المرء يعزف نفسه، يعزف نفسه حسب نotas غوغول، دوستويفسكي، نيتше، هولدرلين. إن التعبير عما يعتمل في نفس المرء لدى ذلك يفترض وجود قدرات على التعبير لم يتطورها المرء لأنها لم تكن مطلوبة. سواء قرأ المرء من نفسه أو قرأ تأديبًا لواحد، عندما يتبعن عليه أن يقول شيئاً عن تجربته في القراءة، فإنه يغادر نفسه أولاً - هكذا تقضي العادة -، ويبحث عن مساعدة لدى تقاليد الفهم، المصطلحات، المناهج، النظريات. لكن أنه هو المهم، أن الأمر يتعلق به أو بها أكثر مما يتعلق بوسائل الإيضاح، هذا ما لم يعد القارئ والقارئة يعرفه. يذهبان إلى تيتوولي، إلى قس الكاتدرائية، ويعلمان أن المساعدة بالذات التي يبحثان عنها غير موجودة. أو يدعان نفسيهما يخدعان. إنهما يشاركان في خداع نفسيهما، ويعملان هكذا كائناً طرق الفهم المعروضة إنما هي طرقهما الخاصة بهما. لم أقدر إذاً أن أقول شيئاً عن معنى نص من نصوص كافكا. كانت تجربتي في القراءة سلسلة طويلة من التفاصيل والحالات النفسية. وحالما غادرت ذلك، وأردت جمع تجربتي في القراءة في صيغة إعلام عامة، ذُمر كل شيء. إن تجربتي في قراءة كافكا ومعاييرتي له سنوات طويلة لم تدخل إلى الدراسة الأدبية المجردة. فعدلت. فطرياً كما يقال. وبدأت بوصف الطريقة، ثم أعطيت الأطروحة عنوان «وصف شكل». لا تفسير، بل مجرد جرد. وبعد نحو عشرين عاماً كان علي إلقاء محاضرات عن السخرية. وهنا كان لابد من قراءة كافكا من جديد. ولتمييز سخريته عن سخرية توماس مان على نحو مناسب، كان من الضروري التعرض لتفسير. وكانت النتيجة: رواية المحاكمة قدّمت نفسها لي قصة انتحار، بدأت نتيجة نقص في إثبات الشخصية. من يحتاج، كي يعيش، إلى تبرير، لا يجده. إنه هالك. كذلك الانساخ تكشفت الآن قصة انتحار. سببها هذه المرة فقدان

القدرة على كسب المال. بفقدان القدرة على كسب المال تُفقد قدرة الإنسان على التمييز، وبهذا آدميته بعامة. إن غريغور يقتل نفسه. وكل محاولة يقوم بها ك في رواية القلعة لإثبات وجوده تفضي إلى إحباطها، الأمر الذي لا بد أن ينتهي في النتيجة إلى الإعياء الكامل.

لا أذكر هنا التطور لنوع من فهم Kafka سوى لأنه ينبغي علي الاعتراف بأن Kafka، منذ أن بت أفهمه، لم يعد في عداد الشعراء الذين أفهم مراراً وتكراراً. مازلت أفهم القلعة أقل ما أفهم، لذا أستطيع قراءتها مرات أخرى. لكن المحاكمة لم تعد تجلب لي شيئاً. في يوم من الأيام تبين لي أنني، عندما أفتح الآن هذه الرواية، أتعرف على الفور على هذا الموضع بصفته المخطة الفلانية على طريق قتل الذات. معنى الموضع يكون حاضراً للتتوّر، وكأن أدلة قياس سلمته. المعنى أدرك. تابع القراءة. هذا يعني أن القراءة باتت مراجعة آلية تقريراً لإشارات معنى. سابقاً، قبل المعنى الموضوع، كانت كل قراءة تجري على نحو مغاير. صحيح أن تجرب قراءة كانت مخزنة هنا، لكن المرء لم يكن من كان أثناء القراءة الأولى، أو من كان أثناء القراءة الثانية. أو لم يكن في هذه اللحظة. الآن لم يعد الأمر يتعلق بحالتي الراهنة، وذلك لأن كل مقطع من المحاكمة يقدم لي الآن وظيفته على طريق قتل الذات، أي معناه. لا أدرى فيما إذا كان التفسير وإيجاد معنى يؤديان بالضرورة إلى مثل هذا التشبيت. أنا على كل حال أعلم أن التفسيرات التي وضعتها لنصوص من Kafka أعادتني عن جمع خبرات قراءة مع هذا الشاعر. عندما يكون المرء قد استخرج شيئاً محدداً من الآثار الأدبية، تفتر الرغبة والقوة لقراءة شيء في هذه الآثار. وأأمل أن تكون حال آخرين غير حال.

مارتن فالزر

Martin Walser

١٩٩٣

١٢ - أمام القانون

نحن أمام القصة

تركتنا قصص كافكا في حيرة بادئ الأمر أكثر مما تفعل أية نصوص أخرى من الأدب المعاصر. ولا تشکل قصة **أمام القانون** حالة استثنائية. على نحو ما نشر، في هذه القصة يتزوج المحدد والمحرد مع بعضهما بعضاً، فيها يتعلق الأمر بعرض أحداث فكرية مجردة يصوغها الشاعر، بقدر ما تسمح المادة، في صور واقع نقدر على تصوره؛ ورغم ذلك نرى أنها لانستطيع أن نفعل بها شيئاً.

نبع النص، وبعد الكلمتين الأوليين فقط تقف أمام لغز كبير: **أمام القانون**. هنا لا يمكن أن يكون القانون الشرعي هو المقصود. إذ أمام مثل هذا القانون لا يقف فقط حارس باب. ففهم بالأحرى مفهوم الرجل من الريف. لا بد أنه يعني إنساناً يأتي بنية طيبة، لا يعرف كثيراً جداً عما تخفي له الأيام، وعلى كل حال لا يتوقع أن يلقى عقبات كبيرة لدى تحقيق ما يتغيه. هنا لدى حارس الباب يعلم الرجل من الريف أن الحارس لا يقدر أن ينحه الآن الموافقة على الدخول. غريب سؤال الرجل من الريف فيما إذا كان إذاً يجوز له أن يدخل فيما بعد. غريب من حيث أن الرجل لا يسأل

لماذا لا يجوز له الآن أن يدخل. فقد كان يعتقد أن القانون لهو مفتوح للجميع ودائماً. ردأ على سؤاله في ما إذا كان يجوز له أن يدخل فيما بعد، يحصل على الجواب المبهم جداً: من الممكن. لكن يقال له مرة أخرى بوضوح: أما الآن فلا. غريب أيضاً أن حارس الباب لا يفعل شيئاً كي يمنع الرجل من الدخول إلى القانون. بل وحدها كلمات إبني قوي. وأنا لست سوى الحارس الأدنى مرتبة تستطيع إيقاف الرجل من الريف عن تحقيق بغيته.

الآن يجري تحويل نظر الرجل من الريف، تحويله عن المدخل وتوجيهه نحو حارس الباب، الذي يبدو أن معطفه من الفرو وأنفه المدب الكبير ولحيته التارتية الطويلة الخفيفة السوداء، إنما تبعث على نحو أو آخر الخوف والرعب أو التحفظ على الأقل، بحيث أنه يذعن لطلب حارس الباب. ورغم ذلك لا يوصف لنا حارس الباب على أنه لا إنساني. إنه يقدم على كل حال للرجل من الريف كرسياً واطلاعًا، كي يستطيع هذا الجلوس إلى جانب الباب متتحيناً. لكنه هناك يجلس أياماً وأعواماً. ويتوضح لنا أنه لا يمكن للأمر هنا أن يتعلق بحدث واقعي، وإنما لا بد له من أن يتعلق بحدث ذهني ليس إلا.

في هذه الأعوام الطويلة يقوم الرجل من الريف بمحاولات كثيرة للسماح له بالدخول، على الأرجح بالطريقة نفسها مثل ما كان قام بمحاولته الأولى. ويروى لنا أنه كان يتبع حارس الباب بطلباته. لكن الأحاديث التي تروى لنا تدور حول أمور عديمة الأهمية لا علاقة لها بالأمر الجوهرى الذي أتى الرجل من الريف من أجله إلى هنا. وثمة لامبالاة ما من قبل حارس الباب تتوضح من أسئلته غير المكتوبة، لكن مهمته من قوله المتكرر إنه لا يزال لا يقدر أن يسمح له بالدخول. والآن يستخدم الرجل من

الريف، لا بل يبتدر ما تزود به لرحلته، وما هو قيم ولاشك؛ والذي كان الغرض منه هو أن يدخل صاحبه إلى القانون، يستخدمه كي يرشو حارس الباب. لكن هذا يفهم الرجل من الريف فقدان الأمل من مثل هذا الفعل، بقوله: أقبله فقط لكي لا تظن أنك فوت شيئاً.

وبازدياد يجري تحويل نظر الرجل من الريف من الباب إلى حارس الباب، بحيث أنه ينسى الحراس الآخرين، ويستسلم للمقادير دائمًا أكثر، لا بل يفعل الأكثر تفاهة والأقل نفعاً، عندما يرجو البراغيث في ياقه معطف حارس الباب لكي تقنع حارس الباب بتغيير رأيه: من الحال، لأن الرجل من الريف ابعد عن مهمته، وراح يهد طاقاته، التي طفت تضعف وتضعف، في موضوع لا يطلب ذلك ولا يستحقه. ويتدفق من باب القانون بريق لا ينطفئ بالنسبة إلى الرجل من الريف الذي يصبح دخوله أكثر استحالة. وما زال الرجل لا يطرح السؤال، لماذا لا يجوز له عبور الباب. عند إشرافه على النهاية يسأل بالأحرى، الأمر الذي كان على الأرجح قد لفت انتباذه منذ مدة طويلة، كيف يحدث أنه في الأعوام الطويلة ما من أحد غيري طلب الدخول. وغريب يبدو أيضاً جواب حارس الباب بأن ما من أحد آخر يقدر أن يحصل على إذن بالدخول، إذ أن هذا المدخل كان مخصصاً لك وحدك. وربما بدا لنا الأكثر غرابة هو أن حارس الباب سينذهب الآن ويعلق المدخل.

حتى بعد قراءة متكررة، وبافتتاح داخلي، لهذا اللقاء، فإنه لا يزال لا يكشف نفسه ولا يوح بسره لنا. إننا نبحث عن مفتاح يفتح لنا مغاليق هذه القصة. هذا المفتاح هو القصة نفسها، في تأثيرها علينا. نحن أيضاً نقف أمام شيء. نقف في حيرة أمام هذه القصة، نبغي الدخول، نريد التفاذ إليها، وهنا ثمة شيء يقول في داخلنا: ليس الآن. ولدينا أيضاً لا يعلو

السؤال: لماذا ليس الآن؟ وإنما السؤال الآخر، فيما إذا كان ممكناً ربما في ما بعد، أن نقدر على كشف سر هذه القصة. في داخلنا نسمع الجواب: ربما في ما بعد، أما الآن فلا. من الجائز أن نرَّكز حواسنا، من ثم، على الصوت الذي نصحتنا بالعدول عن الدخول، نراقب هذا الصوت بدقة تامة، نبحث عنمن يساعدنا عند الحاجة، نبَدِّد طاقتنا، نبددها في المكان غير المناسب. لاريب أن حارس الباب في قصتنا لم يكن قميناً أن يصد الرجل من الريف، لو كان هذا قد تجرأ على محاولة اجتياز الباب الأول! بدلاً عن ذلك آمن الرجل من الريف بسلطة حارس الباب، وخضع لهذه السلطة، ووقف أمام الباب طوال العمر.

مَكَذَا هُوَ الْحَالُ لِلَّذِي قَرَأَهُ قَصْنَةُ كَافِكَا هَذِهِ . لَنْدَعْ جَانِبَّ الصَّوْتِ الَّذِي يَمْنَعُنَا مِنَ التَّعْمِقِ فِي الْقَصْنَةِ، وَلَنْتَوَجِّهْ كُلِّيًّا نَحْوَ الْقَصْنَةِ نَفْسَهَا، فَنَكُونُ قَدْ حَصَلْنَا عَلَى إِذْنِ بَالِ الدُّخُولِ، لَأَنَّوْدَ نَقْفَ بَعْدَ الْآنِ إِزَاءَ حَارِسِ الْبَابِ، وَإِنَّا نَكُونُ قَدْ أَصْبَحَنَا عَلَى تَمَاسِّ دَاخِلِيٍّ مَعَ الْقَصْنَةِ . إِذْ أَنَّ الْبَابَ الَّذِي نَقْفَ أَمَامَهُ لَيْسَ مُخْصِصًا لِآخَرِينَ، لَأَنَّقْدَرُ أَنَّ نَرَاقِبَ آخَرِينَ فِي أَعْمَالِهِمْ لَكِي نَتَعْلَمُ مِنْهُمْ وَنَتَبَعُهُمْ، وَإِنَّا نَقْفَ هُنَا وَهُدُنَا إِزَاءَ حَارِسِ الْبَابِ، وَهُنَا يَتَوَقَّفُ الْأَمْرُ عَلَيْنَا وَهُدُنَا، فِي مَا إِذَا كَانَ نَشَدَ الْقَانُونُ، أَمْ نَبْغِي التَّوَجِّهِ فِي مَسْعَانَا إِلَى حَارِسِ الْبَابِ . إِذَا عَبَرْنَا، فَإِنَّ هَذِهِ الْقَصْنَةَ تَكْشِفُ عَنْ نَفْسَهَا دَفْعَةً وَاحِدَةً . إِذْ أَنَّا نَرَى أَنَّ حَارِسَ الْبَابِ يَذْهَبُ فِي النَّهَايَةِ وَيَغْلِقُ الْمَدْخَلَ، وَنَدْرَكَ مَا لَمْ يُقْلِلُ، لَكِنَّهُ مَنْطَقِي وَلَارِيب: إِنَّ حَارِسَ الْبَابِ وَالرَّجُلِ مِنَ الْرِّيفِ، الرِّيفِ يَتَهَيَّانُ فِي الْلَّحْظَةِ نَفْسَهَا.

مَا نَلَاقِيهِ إِذَا هُوَ، إِذَا اسْتَخْدَمْنَا إِحْدَى صُورِ غُوْتَهُ الشَّعْرِيَّةِ، الرُّوحَانِيَّةِ صَدَرَ الإِنْسَانُ. التَّضَارُبُ بَيْنَ رَغْبَةِ إِنْسَانٍ يَسْعِي إِلَى الْهَدْفِ بِاسْتِقَامَةِ وَبَيْنَ الْعَوَائِقِ فِي دَاخِلِهِ . مِنْ هَنَا يَأْتِي أَخْيَرًا إِخْفَاقُ رَجُلَنَا الْقَادِمِ مِنَ الْرِّيفِ،

من هنا يأتي أيضاً إخفاقنا نحن لدى جهودنا لسبر غور ما هو سر، ما هو كامن. والآن، بعد التغلب على حارس الباب بأن دخلنا عبر الباب دون أن نسمع لصوت الحارس، يمكن أن يحدث حفاظاً أن نقف إزاء حارس آخرين، لكنهم لا يعودوا يبدون أكثر قوة، ونفلح في أن نقوى عليهم، وذلك بأن لأنهم بهم، وإنما نستمر في طريقنا إلى القانون.

إذا تأملنا القصة الآن مرة أخرى، فإنها تنفتح لنا فجأة، ونفهم العالم - أو نظن على الأقل أنها نفهم العالم - الذي يفتحه لنا كافكا بشعره. أمام القانون يقف حارس باب. إنه يقف هنا قبل أن يأتي الرجل من الريف. لكن الرجل من الريف لا يلاحظه إلا حين يقف أمام القانون. إن حارس الباب هو فيما، لكننا لانحسته ولا نحسن سلطته إلا حين نصل بأسئلتنا وبتفكيرنا إلى حيث يقف، أي حين نضطر للمرور به. فيكون الحال، مثل ما هو في قصتنا، هو أننا لاستطاع الحصول من حارس الباب على إذن بالدخول، وذلك لأنه لا يقدر أبداً أن يمنحك إذناً. ما من أحد يقدر أن يصل إلى القانون عبر الباب المفتوح سوى من يقدم على الخطوة. والآن نفهم أيضاً أن حارس الباب لم يتمكن من صد الرجل من الريف سوى لأن هذا آمن بسلطة مزعومة لحارس الباب وترك نفسه يخوّف.

ندرك أنه لا يجوز لنا أن ننهك قوانا في محاولات رشوة، كي نزيل عائقاً من الطريق لا يعنينا سوى لأننا نخاف منه، وندرك أننا لانحتاج إلى سؤال حارس الباب في ما إذا كان يسمح لنا بالدخول. إنه يسلينا وقتنا وحسب باستجواباته عديمة الجدوى وغير المكتوبة. لا نريد أن نطلب مساعدة من البراغيث في ياقه حارس الباب، وإنما ندخل، وذلك قبل أن نرقد رقدة الموت سوية مع حارس الباب فيما.

ما يتصوره القارئ تحت قانون، يظل متراكماً له. هذا المفهوم يمتد من

أصغر إلى أكبر شأن. يمكن للمرء أن يفهم تحت قانون قصة كافكا هذه نفسها. يمكن للمرء، إذا شاء، أن يلمح تحت قانون المشرع الأكبر الذي يقف وراء كل ماهو قائم، الله. ومهما كان الأمر، إن طريقنا إلى هناك يقود عبر أبواب وبابات كثيرة، وفي كل مكان يقف حراس أبواب يبدون لنا أقواء، حراس أبواب يتواجدون فيها أنفسنا. إن الأمر يرجع إلينا لإثبات ما هو أقوى: تطلعاتنا أو ذلك البلغم الملحوظ والمموس تقريراً في داخلنا. إن الرجل من الريف وقع ضحية خداع. وليس حراس الباب هو الذي خدعه. وإنما هو الذي خدع نفسه، وذلك في اللحظة التي رأى فيها حراس الباب، وفترت روحه عن الوصول إلى هدفه، وأخفق في كفاحه مع نفسه.

ينجح كافكا نجاحاً باهراً في نظمه الفني لهذه الأمثلة. في صياغة جديدة يطور لنا صورة الروحين في صدر الإنسان، ويعطينا تفسيراً خاصاً لإدراكه، يعطيه بوسائل الشاعر وليس بكلمات أي معلم أخلاق. لقد أفلح في استحضار أحاسيسه وتصوراته التي تشغل مكون روحه. ويمكن للمرء إدراك ذلك من كون أن كل تفسير لهذه القطعة إنما يوجه صوب الذهني. ومهما تأثرت التفسيرات بتجارب القارئ وطريقة تفكيره وزاوية نظره، فإن كافكا يتوصل إلى أن تدخل تصوراته إلى نفوسنا. ثمة حقيقة معروفة هي أن الكلمات تشير في نفس كل إنسان تداعيات أخرى. إن كافكا يختار مثل هذه الكلمات والمقاهيم، ويدع مثل هذه الصور، التي لا تسمع بظهورها ارتباط مع تصورات أخرى، تنشأ أمامنا. كافكا يدخل المجرد أمثلة إلى تصورنا. وهذا يلفت انتباها الشديد منذ البداية، ويدعونا إلى محاولة التفسير. وفعلاً، إن مفهوم **أمام القانون** يطابق تعابير معروفة في اللغة الدارجة. إن الرجل من الريف يطلب الدخول إلى القانون. ونحن نعرف تعبير «الدخول إلى ملوك السماء»، أو أننا نتحدث أن خريجي المدارس إنما

«يدخلون إلى الحياة». هنا ثمة ارتباط الدخول مع مفهوم مجرد. ومن خصائص الدخول وجود باب، وكيف يمكن أن يدعى الرجل الذي يقف إلى الباب سوى حارس باب!

هذا التجسيم يحافظ عليه حتى نهاية الأمثلة. وما يناسب هذا ولا ريب هو أن يستطيع المرء أن يتصور بوضوح حارس الباب والرجل من الريف. إننا نحسن كيف يضعف بصر الرجل وأنه يموت في النهاية. إن المشهد يظهر أمام عيننا الذهنية على نحو مجسم يكاد يلمس باليد. وما من شيء يبدو لنا بعد الآن مجرداً، ونکاد ننسى أن الرجل من الريف قد انتظر أمام الباب أيامًا وأعواماً. ورغم أن لاشيء تقريباً يحدث في هذه المدة الطويلة، فإن الصورة الشعرية تظل مفعمة بالحركة والحياة.

لا اختيار الكلمة ولا تركيب الجملة يبدو غير مفهوم أو ملفتاً للنظر على نحو أو آخر. كلها بسيط حقاً ومتواضع، ولا يبدو أنه يطلب من قدرتنا على القراءة مطالب خاصة. ما من شيء ملفت للنظر يعطيها نقطة اتهام. اللهم إلا إذا أغري المرء بربط اللحية التاربة بأية تخمينات؛ لكن من هناك لن يصل المرء إلى مدخل يفضي إلى القصة.

مثل ما هو الحال في الأساطير الكلاسيكية يسرد لنا الشاعر باقتضاب، القصة التي تستمر طوال أعوام. ساعياً إلى هدفه، لا يلوى على شيء آخر، يقود القارئ إلى لب الواقع. وحيث يصف لنا أوضاعاً بهجهة الرواية، فإن مثل هذه الأوصاف تشكل جزءاً ضرورياً من الجوهرى. كل هذا يُظهر لنا واقعاً ولا ريب. وأقول حارس الباب المقوله حرفيأً تؤكد هذا الانطباع. لكن مشاعر وأفكار وخلجات نفس الرجل من الريف لا نعرفها سوى من وصف الشاعر لها. إنها تؤثر فينا أبلغ تأثير من خلال عرضها بصيغة الغائب، ولا نشعر بأي نقص كوننا لا نسمع الرجل من الريف يتحدث بصيغة

الحاضر. مرة واحدة فقط، في الختام، نسمع كلماته. ألا تعبر هذه الكلمات عن العزلة الكبرى للرجل من الريف وخيبة أمله التي تهزّ أعماق النفس؟ إننا لنتساءل: ماذا تستطيع كلمات حارس الباب مساعدته؟ إن إرادة قوية للرجل من الريف لم تعد قميّة أن تؤثر بعد الآن على جسده الجامد. لا يبقى له، إذا بقي له شيء، سوى الاستسلام المزلم للمقادير. إن الإدراك الذي يُحَضِّرْ به، وإن اتضح هذا الإدراك اتصاصاً كاملاً له نفسه، لا يقدر أن يساعد، بعد الآن، لأن الوقت أصبح متاخراً. إلى من إذا ثُوَجَّهَ كلمات حارس الباب الأخيرة، إذا كان عليها أن تؤثر تأثيراً جوهرياً؟ إلى القارئ وحده. وهي تقدر أن تساعد، بأن تكون له عظمة بأن يعرف أن يسير على الطريق المنفرد ويختار الباب، الذي لا يمكن لأسوة أو رفقة آخرين أن تساعدنا في عبوره.

تبدو لنا أمثلة Kafka أمام القانون وقد أصبحت الآن مكشوفة ومفهومة. ومع ذلك فإنه أكثر من مجرد معرفة من معارف الحياة، هذا الذي يفضي علينا من رؤيا شاعر موهوب. إن هذا الأثر الفني الصغير يملك حيوية مدهسة. هد: الحيوية التي لانحستها في الحقيقة في قوتها إلا في وقت نرى فيه أنها دللتنا صعوبات فهمه، وأدركتنا معزاه ذهنياً^(٤).

مارتن بفایفر

١٩٩٣/١٩٨١

Martin Pfeifer

(٤) هذه الدراسة هي من كتاب إيضاحات عن المحاكمة، مخصص لطلاب المدارس الثانوية، يقع في ١١٦ صفحة (أ.و).

١٣ - أمام القانون

مدخل إلى عالم كافكا

تروى قصة أمام القانون في موضع بارز من مواضع رواية المحاكمة، وتشكل شرطاً حاسماً لفهم الرواية وبها لفهم الآثار الكاملة لكافكا. وهي من أكثر نصوص القرن العشرين طباعةً وقراءة.

وبطبيعتها الفريدة أثارت هذه القصة الحيرة في نفوس المفسرين. وقد فسرت تفسيرات لاتحصى، لكنها لم تفهم قط فهماً صحيحاً. وساد في تلقي هذا الأثر الفني الارتباك والاضطراب إلى أبعد حد.

على التفسير الصحيح أن يشمل كل أجزاء النص. لكن المفسرين يقرأون انتقائياً، هذا يعني أنهم لا يراعون الظروف الإفرادية في وظائفها، أي كجزء في كل. وبدلًا عن ذلك، فإنهم يأخذون التفاصيل التي تبدو أنها تدعم فهماً محدداً، ويغفلون ما لا يناسب الصورة المحددة سلفاً.

من الجلي أن السمات المميزة لأثر أدبي من ناحية الشكل إنما تشارك في تحديد مضمون هذا الأثر، بغض النظر عما إذا كانت هذه السمات تبدو أنها من وضع المؤلف عن وعي أو أنها من تصنيف القارئ لاحقاً، وهذا ينطبق على قصة كافكا بوجه خاص كلياً. من هنا فإن وصف العلامات

الفارق ل لهذا النص يمكنه أن يساهم في فتح طرق واضحة عبر أدغال محاولات التفسير المتناقضة، بل والتي تبني بعضها بعضاً.

يستخدم كافكا في هذه القصة وغيرها صيغة الحاضر. وبهذا نشأت نصوص خيالية تكمن فرادتها في أنها تُظهر عالمًا مستقلًا عن الواقع اليومي. بمساعدة هذه القصة - المثال أراد كافكا أن يعرض قانوناً داخلياً عاماً.

يوجز كافكا أقصى إيجاز، ويستغني عن كل تعميق وتزويق. ويفغل على نحو كامل كل الملحقات الفرعية الواقعية للحياة البشرية، مثل كسب المال، والتغذية، وبقية الحاجات اليومية، ويركّز تركيزاً كاملاً على المعضلة التي يريد تصويرها، إلى درجة يمكن معها أن يأخذ الحدث صفة عدم الواقعية وعدم الجدارة بالتصديق. صحيح أن قصة كافكا، التي يقضي فيها أحدهم عمره جالساً على كرسي صغير دون انقطاع، هي، في هذا الشخص، من الأمثلة المتطرفة على مثل هذه الصياغة؛ لكنها لا تخرج مبدئياً فقط عن إطار طريقة القص هذه. إن ذلك لهو إشارة إلى المفسر، كي لا يبحث عن معنى النص في تعاقب الحدث نفسه، وإنما أخذ هذا الحدث صورة لأمر آخر.

يحب كافكا عرض الأحداث الداخلية بطريقة غير مباشرة. فبدلاً من أن يقول إن الرجل من الريف يخاف من المظهر الغريب لحارس الباب، فإنه يقدم وصفاً مفصلاً لهذا المظهر يمكن أن ينبعث منه تأثير ما على المراقب. وفي هذا الموضع رأى الكاتب نفسه مُحالةً إلى هذا المنهج، لاسيما أنه لم يكن يرمي إلى إعلامنا بطريقة مباشرة، على شكل تعليق للراوي، عن الشروط الخامسة التي تحدد سلوك الرجل من الريف، وإنما عرضها من منظور صاحب العلاقة. بهذا ينشأ في هذا الموضع المفصلي، الذي يُحسم فيه التصرف المسبق للرجل من الريف، افتتاح دلالي يعطي مجالاً لاستنتاجات متباينة.

تُقدّم أمام القانون قصةً توضح ليوزف ك نوع الخداع الذي يتواجد فيه إزاء المحكمة وممثليها. إن النص يؤدي، إذًا، إذا أراد المرء تصديق القس، أقوالاً عن ذلك القانون الذي ينبغي على ك الظهور أمامه بصفته مدعى عليه. هذا يعني أنه يجب فهم النص ضمن هذا الإطار، وليس خارجه. إن أمام القانون وسّدت، إذًا، في سياق عمل روائي كبير كقصة - مثال. لقد أرادها كافكا قصة داخلية تتلى في الرواية وتفسّر في إطارها.

ثم إنه كان على هذا النص، بناء على مكانته المركزية في الرواية، أن يثير اهتماماً خاصاً لدى القارئ. وقد حاول كافكا بلوغ ذلك بأن أعطى أمام القانون هالة تطوي على أسرار، كما هو الحال في الموضوع الديني مثلاً. كما أنه استخدم مواداً ثثير، مثل السلسلة المتزايدة لحراس الباب الأقوياء، أو البريق الذي لا ينطفئ والمتندق من باب القانون.

إن مجرى أحداث القصة يبيّن أن الرجل من الريف يتصرف بضيق عقل وخمول ذهني، بل وجmod. ويوزف ك، الشخص الرئيسي في الرواية، لا يأتي من الريف وحسب، بل يماطل الشخص الرئيسي في القصة في نقاط كثيرة هامة. وهناك مطابقات عديدة بين الفصل الأول من الرواية وتفسير القصة، وتوازي في أسلوب التصين. كما يوجد مطابقات بين الحراسين في هذا الفصل من الرواية وحارس الباب في القصة. (لكن جهود الرجل من الريف تطابق جهود ك في رواية القلعة أكثر مما تطابق جهود يوزف ك في المحاكمة).

كل تفسير من التفسيرات التي عرفتها القصة يضع واحداً من شخصيتها في بؤرة الاهتمام. ومعظم هذه التفسيرات تركّز على السؤال لماذا لم يدخل الرجل من الريف إلى القانون رغم الحظر الذي نطق به حارس الباب. وبغض النظر عما إذا كانت التفسيرات تبرز الحظر أو تقلل من شأنه

أو حتى تعتبره عديم التأثير، فإنها تصل دائمًا إلى نتيجة مفادها أن الرجل من الريف إنما قد اقترف خطأً أو حتى ذنبًا، الأمر الذي يؤدي إلى إعلاء شأن حارس الباب.

لكن هناك تفسيرات تولي حارس الباب اهتمامًا خاصًا. فثمة تفسير يرى أن القانون يمثل الغريرة الجنسية، وأن حارس الباب يمثل بالتالي مُشقطاً للقهر المدمر الذي يخالف أهداف تحقيق الرغبات الجنسية. والنقد سوكل يرى أن المحاكمة المعروضة إنما تتعلق بعملية نفسية، وأن ك نفسه هو محكمة نفسه، وأن خطأه الوحيد يكمن في أنه لم يجد حلّي التمرد.

في فصل في الكاتدرائية تروي قصة أمام القانون بهدف هو إلقاء المدعى عليه بورزف ك على نوع من التمهيد للقانون، هذا التمهيد الذي ينظم العلاقات بين المتهمين والمحكمة. ومن هنا يجوز الافتراض أن القصة الداخلية والرواية، المترابطتين مع بعضهما بعضاً بطريقة متنوعة، يستخدمان المفهوم نفسه للقانون والهيئات المازمة به. وهذا يصح بشرط الاعتراف أن المحاكمة إنما تشكل نصاً متجانساً ترابط أجزاؤه المفردة مع بعضها بعضاً.

تبين سمات الشكل في أمام القانون أن التناقضات التي تلاحظ في هذا النص وإمكانية تعدد التفسيرات إنما تزيد أن تمنع أن يستند فهم القارئ في العثور على الأمور المعروفة لديه. ولهذا السبب يجب رفض نقل الحدث إلى مستوى آخر، واعتبار مثل هذا النقل أمراً غير سديد. لقد اعتاد المفسرون على اعتبار جميع أجزاء النص غير المفهومة استعارات يمكن إلهاقها، إذا ما نقلت على نحو مناسب، بعالم المظاهر، المألوف، المعقول. لكن هذا غير جائز.

يبدو أن القانون يتوارى، ما دام المرء يسعى إليه. لكنه يتجلّى لمن بات

عجزاً عن بلوغه. قد يمكن القول تقريباً إن كافكا أراد بهذا وصف ما عبر عنه بعد سنوات في الحكمة التالية: من يبحث، لا يجد، لكن من لا يبحث، يعثر عليه.

إن قصة أمام القانون تمنع عن القارئ كل إطلاع على وجهات النظر التي قد يكون حارس الباب استرشد بها في قراراته.

إن نتائج تحليل هذا النص تدحض بالضرورة التفسيرات التي تريد إعلان القصة كبياناً مبنيناً على نحو منطقى، ملتزماً بقوانين المنطق، ويسمح بتخصيص معنى محدد لها.

إن أقوال حارس الباب تحمل دائماً معنى مبهمأً، وتثبت وبالتالي أنها متناقضة في حد ذاتها. علينا، إذأ، أن نفترض أن كافكا أراد أن يعبر، مثلاً، عن وجود إمكانية لدخول الرجل إلى القانون وعن عدم وجود هذه الإمكانية في الوقت نفسه.

مثل هذه التناقضات التي تميز أمام القانون، تميز أيضاً المحكمة التي يُدعى على يوزف ك أمامها. هنا يذكر بضعة أمثلة من حالات وفيرة: يعتقد ك دون أن يكون من شأنه قد فعل شراً. يعقل ويراقب، لكنه لا يزال يملك حرية حركة كاملة، يمارس مهنته، ويتابع حياته السابقة دون إزعاج. أولاً يريد طلب مساعدة من صديقه المدعي العام هسترر، لكن المراقب يفهمه أن مثل هذا السلوك لا يمس المحكمة. في ما بعد يقنعه عمه بتوكييل الحامي هولد، الذي يعمل في القصر العدلي، للدفاع عنه أمام المحكمة التي تعقد جلساتها في العلية على السطح. التحقيق الأول معه يجري في منزل شخصي، ثم يستمر فيه أمام المحكمة. يرى ك أنه مذنب، ويدان، ويُحكم عليه بالموت دون أن يكون من شأنه قد فعل شراً.

يتجنب كافكا، عمداً، وصف المحكمة المليئة بالغموض، رغم أنه يرکز

الاهتمام عليها. وبهذا تحجب المعلومات الخامسة عن القارئ، وتظل سمة التناقض قائمة.

وهناك نشاطات تتعلق من المحكمة تقوم على التناقض ولا بد أن تعطي أثراً سلبياً في نفسك، مثل الأثر السلبي الذي تعطيه أقوال حارس الباب في نفس الرجل من الريف.

إن قصة أمام القانون تبين كيف يتعرض رجل بسيط إلى بلاغات متناقضة في ذاتها لا يفلح في التعامل معها، ويختفي، وبالتالي، هدف حياته. لدى هذا الفهم للقصة، يصبح لشرحها الذي يقدمه القس مهمة هي تعریض قارئ الرواية أيضاً إلى مثل هذا الموقف وإيقائه فيه.

يمكن القول إن كافكا أراد أن يفسر، تلميحاً، الارتباط القائم بين حارس الباب والرجل من الريف، لكنه أراد أيضاً حجمه في الوقت نفسه.

من الخطأ فهم التناقضات، التي تظهر في نصوص كافكا، تعبيراً عن انعدام عالم للمخرج، هذا الانعدام الذي يمثّل جزءاً كبيراً من الأدب الحديث. إن هذه التناقضات هي صور وجود مستلبة لا يسمح بتفسيرات معنى ملديمة، في حين أنها تمثل بالنسبة إلى بوزوف ك ما لا يدرك وما لا يمكن التعبير عنه، والذي يثير الاضطراب في حياته بكمالها ويقضي عليه في النهاية.

ما هي أهمية الحديث الذي يحرّي بين قس السجن وبوزوف ك بالنسبة إلى فهم القصة؟ لقد قدمت دراسات عديدة إجابات متباعدة على هذا السؤال.

من الخطأ كل الخطأأخذ الشروحات التي تقدّم في فصل في الكاتدرائية مقاييساً لتقويم القصة. حتى أنه في مجرى الحديث التفسيري نفسه يحرّي التحذير من مثل هذا المقاييس، إذ يقول القس إن شروحاته هي

مجرد آراء، ولا ينبغي أن تراعي أكثر من اللازم، لأنها غالباً ما تكون تعيرأ عن اليأس.

كما يجب مراعاة أن القس يظهر في هذه الحادثة مثلاً للمحكمة، ولابد للنظر إلى أقواله بالتحفظ نفسه الذي ينظر به إلى أقوال حارس الباب. كما أنه يُشتبه بالقس بأنه إنما يريد خداع ك. إذ أنه بصفته مثلاً للمحكمة يأخذ إزاء ك الموضع نفسه الذي يأخذه حارس الباب إزاء الرجل من الريف. لكن قبل كل شيء يريد Kafka خداع قرائه، عندما يصف أمام القانون بأنها قصة بسيطة. إنها ليست ذلك قط. بل هي تألف من سلسلة من التناقضات والمعانوي غير المحددة، والتي لا بد لها أن تستتبع تعقيدات تفسيرية مماثلة.

إن تحليل فصل في الكاتدرائية يبيّن أن المدار المركزي للقانون معروض بطريقة لاتسمح بتحديّدات تتعلق بالمضمون: إن معنى هذا المرفق لا يمكن العثور عليه إذاً، رغم أنه ذو أهمية حيوية بالنسبة إلى الرجل من الريف. ما يبقى هو لامقولة متعددة الجوانب يتعرض لها الرجل من الريف ويوزف ك والقارئ.

يعتبر Kafka التناقضات التي يعرضها أجزاء من الواقع. وقد أراد، من طرف، أن يتعرض القارئ دون تروّ إلى مصادف علاقات ويعاني منها كما يفعل شخص النصوص، غير أنه يريد في الوقت نفسه أن يدرك القارئ الظروف التي تظهر فيها مثل هذه المواقف.

حقيقة إن Kafka يواجه شخصه بتناقضات لا يمكن حلّها لا من قبل هذه الشخص ولا من قبل القارئ. إن خلفيات هذا الوضع تكمن في سيرة حياة Kafka نفسه. لقد كان يرى نفسه معرضاً دائماً لمصادف علاقات نصبها له والدها. ومن الطبيعي تفسير بعض عناصر إبداعه القصصي كرواية

لتجارب من حياته. ومن المستحسن إعادة التناقضات ومصائد العلاقات التي تكثر في آثاره إلى سيرة حياته.

إن رسالة إلى الوالد لاتخفي تخبيلاً أديباً، وإنما هي رسالة حقيقة. ويمكن القول إن كافكا، الذي ظل مقيماً في منزل والديه حتى عامه الواحد والثلاثين، كان يتعرض باستمرار إلى بلاغات مزدوجة ومعلومات متناقضة. كان يشعر في نفسه بالارتباط بوالده على نحو ظل معه دون استقلالية طوال حياته. ومن هنا كان الوضع الكلاسيكي لمصيدة علاقات معطى دائماً.

وهناك افتراض مبرر يقول بأن استراتيجية الرد على البلاغات المزدوجة ببلاغات مزدوجة أو بتصورات غامضة - متناقضة يمكن أن تصبح عادةً، وتند إذاً لتشمل مضلات علاقات تقع خارج الإطار الأسري.

وثمة شهادات من سيرة حياة كافكا تثبت هذا. وربما كان المثال الأكثر وقعاً في النفس في هذا الصدد يتعلق بوفاته. كانت آلامه لاتطاق. وقد قال لصديقه روبرت كلوبيشتوك، طالب الطب الذي يرعاه في المصحة: **اقتلي، إلا تكون مجرماً!** يرى دارسون هذه الكلمة مثلاً على موهبة كافكا في الصياغة، تبيّن كم كان يعني، وحتى نهايته المرة ودون أن يتأثر بذلك، بفن التناقضات. لكن هدف هذه الكلمة هو في الواقع إغراء الصديق الراعي للوقوع في المصيدة: إذ مهما فعل للتخفيف عن صديقه المشرف على الموت، سيكون خطأ: إذا هو ليتي طلب كافكا، يصبح مجرماً في نظر نفسه، وإذا رفض، يصبح مجرماً في نظر كافكا وهو في لحظات موته، وذلك لأنه لا ينهي آلامه، وإنما يدعها تقضي عليه. ولم يكن لدى الصديق أية فرصة للخروج من هذا المأزق دون تأنيب ضمير وشعور بالذنب.

وبطريقة مماثلة يجب فهم وصية كافكا. لقد عيّن صديقه ماكس برود

لتنفيذها، وأوصاه بحرق كامل إرثه الأدبي، وهو يعلم أن بروド يعتبره أهم كاتب في عصره. وبهذا وضع كافكا، وهو يعرف ذلك، صديقه في وضع لا يستطيع الخروج منه دون ضرر نفسي: إذا هو نفذ وصية صديقه، خالف قناعته بقيمة آثار كافكا، وإن هو لم يفعل، يكون قد رفض آخر رغبة لأفضل صديق له. وما من حل دون مخالفة لمعايير قائمة.

لا يدلّ هذا المثال على أن التناقضات التي أبدعها كافكا تصور، مثلاً، واقعاً مليئاً بالتناقض، وإنما يدلّ على أن كافكا وضع بنفسه المسائل المعقّدة الكامنة في بلاغاته المزدوجة.

ومن المعروف أيضاً أن علاقة كافكا بإبداعه كانت علاقة متناقضة، وعرضة فوق ذلك إلى تقلبات شديدة. كان كافكا شخصاً معذباً لنفسه. وقد تماهى مع ازدواجية العلاقات التي عاشها في أسرته، ووجهها إلى نفسه. بين الكتابة والعمل لكتب المال كان أيضاً ثمة تناقض غير قابل للحل: لا يستطيع ترك عمله الوظيفي إلا بعد أن يكتب عملاً أدبياً كبيراً يدر عليه دخلاً. ولا يستطيع أن يكتب مثل هذا العمل إلا إذا تفرغ له بعد تركه العمل الوظيفي.

ويجوز الافتراض أن كافكا صور علاقته المعقّدة بالجنس الآخر بطريقة تعطي التناقضات حيّزاً كبيراً. كان الرواج بالنسبة إليه وسيلة للتتحرر وتورطاً في آن. ويمكن القول بإيجاز إن كافكا كان معرضاً لتناقضات قوية منعنه من اتخاذ أي قرار في أي مجال من مجالات الحياة.

قبيل نشوء أمام القانون قام كافكا بمحاولة لكتب فيليس باور مرة ثانية؛ ورافقت هذه المحاولة تناقضات لأنزال. والجدير بالذكر أن كافكا تلى القصة على أسماع فيليس، وكتب فيما بعد أنها، هي ذات الفهم الأدبي المتواضع، فهمت النص على نحو صحيح، بل إنه هو لم يتضح له معنى النص سوى لدى هذه المناسبة.

وفي حقيقة الأمر يمكن العثور على أهم التصورات التي تميز أمام القانون في اليوميات والرسائل. والصور الواردة في القصة مأخوذة من سيرة حياة الشاعر.

يكتب كافكا في رسالته إلى فيليبس أنه وقع من خلالها في حيرة، بحيث أنه لم يعد يرى ويسمع شيئاً، وغرق في ظلام، ويفكر بالانتحار. وفي الوقت نفسه يرى في فيليبس الحيوية للدرجة عمي الأ بصار. ويقول إن وجودها إنما قد امتد أمامه من نواة إلهية ثابتة لا تتغير. ويمكن تكملة هذا القول بموضع في اليوميات يفسّر الاتحاد المتبدل حضوراً إليها. بهذه الصور نقترب من صورة البريق المتدقق من باب القانون، هذا البريق الذي يستبيّنه الرجل الجالس في الظلام. ومن طرف آخر يتواجد هذا الرجل في وضع مماثل لوضع كافكا، المتعلقة بفيليبس أشد التعلق في فترة كتابته القصة.

كذلك حالة الجمود التي يخضع لها الرجل من الريف خلال حياته، قد سبق ذكرها في اليوميات. في موضع كتبه كافكا في كانون الأول ١٩١٣ ، يتصور نفسه شحاذًا يقف أمام العتبة وإلى جانب الباب متتحيًا، ويعيي الانظار هناك طوال حياته.

وفي صورة أخرى يعبر لفيليبس كيف يكون من شأنه أن يتصرف إزاءها فيما لو قضى تطور غير محمود لطاقة إبداعه على آخر بقية من بقايا ثقته بنفسه. في هذه الحالة سوف تنشأ داخلياً علاقة قمينة مثلًا أن تطابق الحدث الخارجي بأن لا يكون لدى شيء آخر أفعله سوى أن أنتظرك إلى الأبد أمام مدخل جنبي ليتك، في حين تروجين تخرجين وتتدخلين عبر المدخل الرئيسي.

من المهم هنا أولاً التناظر بين الداخل والخارج، والإشارة الصحيحة إلى

أه يمكن لعلاقات روحية أن تصوّر على شكل أحداث. ومن هنا يمكن الاستنتاج أنه يمكن تفسير بعض أجزاء من الآثار، التي تظهر فيها مثل نماذج الأحداث هذه دون إرشادات إضافية، كإشارات على ظروف نفسانية.

وثمة نقطة ثانية تتعلق بحقيقة أن فيليس إنما تظهر في هذا الموضع سيدة عظيمة لا تلاحظ قط الحبيب المازوشى الذي يتضرر على المدخل الجانبي. وهذا تركيب لم تجلبه مازوشية كافكا، وإنما يقوم على تجربته مع حبيبته بصفتها شريكة مراسلة. إذ أنه كان يشكوا دائمًا أنها لا تستجيب لرسائله، أو أنها ترد عليها بإيجاز أو سطحية أو بشكل رسمي أكثر من اللازم، أو أنها لا ترد قط. كان عدم اهتمامها بشخصه ورغباته يماثل عدم اهتمام حارس الباب، الذي يهين الرجل من الريف بأن يعطيه مكاناً إلى جانب المدخل، ويكتفى بأن يسأله، على طريقة الرجال العظام، أسئلة غير مكثرة.

وأخيراً لا يجوز إغفال أن التطابق بين سيرة الحياة والقصة إنما يشمل صورة الانتظار. كافكا يشرح هذه الصورة في رسالة أخرى يقدم فيها نفسه إزاء فيليس على شكل رجل ينوق عبثاً إلى الدخول إلى مقر سكنها: أبدوا لفسي وكأنني أقف أمام باب مغلق، باب تسكين خلفه ولن يفتح في يوم من الأيام. وما من تفاهم سوى بالطرق، والآن ساد خلف الباب هدوء أيضاً. لكن ثمة شيء أستطيع أن أفعله، هو الانتظار. إن القلق هو بالنسبة إلى مجرد تضيّع وقت الانتظار. والطاقة على الانتظار لاتضعف بهذا، وإن لم تكن طبعاً قوة إطلاقاً، وإنما ضعفاً.

هذا الموضع لا يبرر طبعاً قرار الرجل من الريف أن يتضرر. لكن الموضع الثالثة سوية تبيّن أن الانتظار يتأثر كنتيجة منطقية للعبة ذهنية تظل فيها الحبوبة متعددة المثال.

وبالطبع تجسّد صورة المدخل المغلق، التي تنتظم حولها قصة أمام القانون، وجوهاً أخرى أيضاً من سيرة الحياة. وما يستحق الاهتمام في هذا الصدد رسالة أرسلها كافكا إلى صديقة فيليس، غرته بلوخ، التي كانت امرأة متحررة مستقلة. وكانت قد كتبت له عن تجربة لها كيف دخلت «بالقوة» إلى معرض رسم في فيينا، ورأى أنه لم يكن في مقدوره هو أن يفعل مثلها. وفي رسالته الجوابية يعلق كافكا على هذه التجربة ويدلي إعجابه بها.

في أقوال أخرى يُيرز كافكا أنه أخفق في تحقيق أمانيه وأهدافه بسبب والده، الذي سَدَ عليه الطريق بصفته خصماً. في آب ١٩١٣ كتب كافكا: ماراً به أقدر عند الضرورة، لكن ليس فوقه. ثمة إمكانية للتنحِي إذاً، لكن ليس للتخْطِي. ولا يوجد سوى خطوة صغيرة من هنا إلى الحارس الذي يسدّ الباب. حارس، مثله مثل والد كافكا، يثير الخوف ويُشلّ القدرة بيلاغاته المزدوجة.

إن ضعف الرجل من الريف يؤدي ضمن ما يؤدي إلى أن يروح يراقب خصمه بلا انقطاع، بحيث أنه يلاحظ أيضاً تفاصيل دقيقة تافهة وعديمة الأهمية بالنسبة إلى حل مشكلته وتصرف نظره وحسب. مع هذه الحال ثمة تطابق في سيرة الحياة. كتب كافكا أنه بات يلاحظ على والده، الذي كان ينصب له أفخاخاً، توافة صغيرة بدأ يراقبها ويجمعها ويبالغ فيها.

وفي الختام يجوز الذكر في هذا الصدد أن كافكا يستخدم في شهادات حياته تصور المحكمة كصورة لظروف شخصية مثل علاقته مع فيليس وعلاقته مع والده.

إن التطابقات المذكورة أعلاه بين أمام القانون وشهادات حياة كافكا لا تسهم مباشرةً في شيء لتفسير القصة، لكنها تعلم أكثر مما هو الحال لدى

أي كاتب آخر، على الأرضية النفسية التي كان كافكا يتحرك فوقها في الفترة التي كتب فيها القصة.

إن تفسير أمام القانون يجب أن ينبع من النص نفسه^(٤).

هارتmut Binder

١٩٩٣

Hartmut Binder

(٤) هارتmut Binder هو أستاذ جامعي مختص في أدب كافكا، ويعتبر واحداً من أهم دارسيه، وقد وضع عدة كتب عنه، كان آخرها كتاب صدر في عام ١٩٩٣ بعنوان «أمام القانون / مدخل إلى عالم كافكا».

يتتألف قصة أمام القانون منأربعين سطراً (ص ١٥٧ - ١٥٨ من هذا الجلد). وعن هذه الأسطر الأربعين وحدها كتب Binder هذا الكتاب. هنا يذكر منه مثلاً صغيران على «فصصصة» هذه القصة:

١ - «يُذكر حارس الباب في القصة القصيرة جداً واحداً وعشرين مرة، ويذكر الرجل من الريف تسع مرات، منها مرتان فقط بلقبه الكامل».

٢ - يحلل Binder على مدى صفحتين في كتابه جملة في القصة في حالات ثلاثة، في الأولى تخلو الجملة من فاصلة، وفي الثانية والثالثة تحوي الجملة فاصلة، مرة بعد كلمة، ومرة قبل الكلمة نفسها.

يقع الكتاب في ٢٩٠ صفحة من القطع الكبير، ويحوي أكثر من سبعمائة حاشية، ويتألف من ستة فصول هي: الشكل، الرجل من الريف، حارس الباب، القانون، المعنى، الخلفية.

يعرض Binder في هذا الكتاب جميع التفسيرات التي عرقتها قصة أمام القانون. ثم يقوم بتبيان نواقص هذه التفسيرات وأخطائها، ويفندوها ويدحضها كافة، ولا سيما التفسير اليهودي.

والدراسة أعلاه هي بعض مقاطع من هذا الكتاب تمثل الأفكار الرئيسية فيما يتعلق بمعنى قصة أمام القانون. (ا.و)

٤ - عملية الكتابة

١

في نصوص صغيرة أولى لكافكا يرمز ركوب الخيل إلى الكتابة. وفي مجموعة طبيب ريفي، التي نشرها كافكا بنفسه، نجد هذا الرمز في كل قصة تقريباً. وثمة علاقة وثيقة بين هذه المجموعة ورواية المحاكمة. لقد اقطع كافكا نصين من نصوص الرواية ونشرهما كقصتين مستقلتين من قصص المجموعة، هما أمام القانون، كعصارة للرواية، وحلم، كحلم ليوزف ك الذي يتضاعف في فنان، ويكتب شاهدة قبره بنفسه، ويختصر محاكمة الرواية المستمرة طوال عام في لحظة حلم.

في قراءتي الجديدة للمحاكمة أريد أن أبين أن «الجو المتألم وغير الملموس» الذي يشهد به سارتر للمحاكمة، لا يجب أن يفهم بالضرورة وجودي، وإنما أنه يمكن سجنه على عملية الكتابة أيضاً وتفسير الخطاب الذائي. منذ الجملة الأولى تقيم الرواية توترةً بين الدعوى الجنائية المقامة ضد يوزف ك وكتابه الرواية: لا بد أن أحداً قد افترى على يوزف ك، إذ اعتقل ذات صباح دون أن يكون من شأنه قد فعل شيئاً. بهذا يكون التطور المقصود قد تحدد سلفاً: ك معتقل، لكن يجوز له، على نحو واضح، أن يفعل ما يشاء. «كوني معتقلاً ليس شديد السوء إذًا»، قال ك. إن الكاتب

كafka هو، والحق يقال، سجين دعْتَ كِبْتَهُ، روايته. كلّا هما يظلان، حتى الجملة المترامية، متراجعين مع بعضهما بعضاً أشد اتّباط في نسج واحد

٢

لدى كاتب يقول بنفسه إنه لا يتألف من شيء آخر سوى من الأدب، ولا يرى حياته حقيقةً ومسؤولية سوى هي تفوح الكتابة، على المرء أن يكون مستعداً، أكثر من القدر المألف، على قبول أن هذا الكاتب إنما يقصد الكتابة وعملية الكتابة، عندما يروي عن نفسه وعن العالم. إن امتلاء قصص Kafka بشخصوص تكتب أو تقرأ، وبوثائق وكتب وأدوات كتابة هو المظهر الأكثر بساطة للمعالجة الذاتية الأدبية في هذه القصص.

في البداية يشكوك من إزعاج حياته اليومية بكلمة: «الاجدوى حهه». ومن ثم يسأل المراقب فيما إذا كان يمكنه أن يخابر صديقه، المدعى العام هسترر. يجيب المراقب: «بلا شك... لكنني لا أفهم أي معنى يمكن أن يكون لهذا». هذه الكلمة أثّرت على ما يبدو في كثيراً يحيط أنه ينقلها على الفور إلى عكسها: «أي معنى؟» صاح ك مندهشاً أكثر من أن يكون غاضباً. من أنتم إذا؟ تريدون معنى وتقومون بما لا أقل منه معنى في العالم؟. ويسأل ك: أي معنى خابرة مدعى عام إذا كنت معقلاً كما يقال؟

لا يأتي جواب على هذا السؤال عن معنى. وك بفصل ألا يخابر وفيما بعد أيضاً لا يطرح Kafka أسئلة عن معنى هذه المسطمة الكبيرة، مع الإشارة إلى عبث الأمر كله. وهنا لا يقصد إطلاقاً الإجراءات الخائنة فقط الموجهة ضد يوزف ك والخلافة للأحكام، وإنما عملية الكتابة التي يعمد بها

فرانز كافكا مع نفسه وضد نفسه على طاولة الكتابة. إن معنى ولامعنى المحاكمة الجنائية التي تروى، يكشفان دائماً أيضاً عن حالة عملية الكتابة.

في الموضع العديدة التي يسجل فيها كافكا سمات هذه الإجراءات الخارجية، يحول المنظور إلى الإجراء الذي ينقل فيه ذاته إلى كتابة أدبية. ولا يمكن إرجاع هذه السمات إلى جانب واحد من الجانبين. إنها تظهر دائماً بين بين. محاكمة وعملية.

إن طبعة خط اليد تشهد على صحة هذه النتيجة. تحت عنوان «خط اليد يتكلم» كتب مالكولم باسلي: «إن محاكمة يوزف ك ترتبط في تطورها بطريقة عميقة بعملية نشوء نصوص الرواية. الاشتتان تعلقان بعضهما بعضاً على نحو متبدل، بل إنهمما تتحددان في بعض الموضع على نحو مذهل». يشير باسلي إلى تلك المقاطع التي يضع فيها كافكا مواعيد الإجراءات القضائية أيام الأحد وفي الليالي أو أثناء إجازة، لكي لا يخلّ بواجبات يوزف ك الوظيفية.

من معرفة أن كافكا كتب أولاً الفصل الأول وبعده مباشرة الفصل الأخير، يفهم باسلي السمة الذاتية لقول ك وهو في طريقه إلى الإعدام، حيث يُرجع كافكا النهاية القريبة للمحاكمة الجنائية التي جرى سردها إلى بداية عملية الكتابة: هل يجوز أن يقال عني أنتي في بداية المحاكمة أريد إنتهاءها والآن في نهايتها أريد أن أبدأها من جديد.

هذه الجملة تصبح رهيبة، حالما نعلم أن كافكا كان - حين كتبها - يوشك على إنتهاء المحاكمة الخاصة به وهي في بدايتها، لكي يبدأ عقب ذلك في كتابة اعتقال ك.

في مطلع تشرين الأول ١٩١٤ ، عندما يقدم كافكا طلب إجازة من عمله في المكتب كي أدفع الرواية إلى الأمام، يُدعَّم على نحو خاص

الارتباط السري بين وضعه ووضع يوزف ك، الذي يفكر أيضاً بطلب إجازة. لم يكن بدّ من كتابة الالتماس. وإذا لم يجد له وقتاً في المكتب، الأمر المرجح جداً، فكان عليه أن يكتبه في البيت في الليلالي، فعليه أن يأخذ إجازة. فقط حذار من الوقوف في منتصف الطريق. لم يكن هذا في الأعمال وحسب وإنما دائماً وفي كل مكان كان الأكثر هراء... كان يجب استرجاع الحياة بكمالها في أدق أعمالها وأحداثها، وعرضها ومراجعتها من كل النواحي. وفي موضع لاحق جاء: أية أيام تنتظره! هل من شأنه أن يجد الطريق الذي من شأنه أن يجتاز كل شيء ويؤدي إلى نهاية طيبة؟ وألا يعني دفاع متقن...، في الوقت نفسه، ضرورة اعتزال كل شيء آخر ما أمكن؟ هل من شأنه أن يجتاز هذا بسلام؟ وكيف سيتمكن له إنجاز ذلك في المصرف؟ لم يكن الأمر يتعلق حقاً بالالتماس وحده، والذي قد يكون من شأن إجازة أن تكفيه... كان الأمر يتعلق بمحاكمة كاملة لا يمكن تقدير مدتها. في هذا الموضع كتب Kafka سهواً بصيغة الحاضر: إن الأمر لا يتعلق، مما يدل خفية على المعنى المزدوج؛ كما أن Kafka كتب أولاً بدلاً عن مدتها كلمة طولها؛ وهي كلمة قمينة أن تناسب بالأحرى محاكنته الخاصة به، أكثر مما تناسب محاكمة يوزف ك).

إن هذه التماسات توضح ما يلاحظه القارئ على كل حال في نصف وعي: ذلك الحضور المباشر للكاتب في آثاره، هذا الحضور الذي يميز Kafka، وينجح قصصه حقيقة لا مثيل لها.

ويسرّ يكنفهم إدراكك الذي يسبق هذا المقطع على أنه استحضار ذاتي للكاتب Kafka ولفت نظر إلى التأليف بناء على خطة: الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أفعله الآن هو أن أحافظ حتى النهاية على العقل المخطط بهدوء. كنت دائماً أسعى للدخول في العالم بعشرين يد فوق ذلك

لهـدـفـ لـأـقـبـلـ مـحـصـورـاـ بـيـنـ لـمـصـلـيـنـ الـأـوـلـ وـالـأـخـرـ ؟ـ فـتـرـضـ أـنـ بـحـافـطـ الكـاتـ عـلـىـ عـقـلـ مـخـطـطـ لـكـنـ مـنـ المـمـكـ اـيـضاـ اـخـازـ عـمـلـيـهـ الروـاهـهـ /ـ روـيـهـ حـاكـمـةـ دـوـنـ نـيـفـكـ بـيـنـ اـصـاعـهـ أـوـ تـوقـفـ

إـاـ رـدـتـ وـصـعـ فـامـةـ بـكـلـ المـواـضـعـ لـيـ نـصـحـ فـهـاـ كـافـكـاـ مـحاـكـمـتـهـ،ـ عـمـقـيـاـ وـأـقـيـاـ،ـ عـلـىـ دـاتـيـةـ الـكـتـابـةـ،ـ فـلـاـ بـدـ لـيـ منـ التـوـقـفـ لـدـىـ كـلـ صـفـحـةـ ثـانـيـةـ أـوـ ثـالـثـةـ عـلـىـ أـقـصـيـ تـقـدـيرـ.ـ هـنـاـ مـتـالـ وـاحـدـ فـقـطـ قـبـلـ الدـخـولـ إـلـىـ عـمـقـ الـمـسـأـلـةـ وـالـتـدـلـيلـ عـلـىـ أـنـ الـمـوـضـعـ لـاـ يـتـعـلـقـ بـ «ـالـأـعـيـبـ نـصـفـ شـخـصـيـةـ»ـ،ـ كـمـاـ بـقـوـاـ،ـ باـسـلـيـ،ـ وـإـنـماـ بـمـهـمـةـ الـكـتـابـةـ وـأـهـمـيـتـهـ وـفـهـمـهـاـ.

الـمـثالـ الـذـيـ أـعـيـهـ يـوـجـدـ فـيـ الـكـاتـدـرـائـيـ،ـ بـضـعـ صـفـحـاتـ قـبـلـ أـنـ يـصـلـ قـسـ السـجـنـ وـكـ إـلـىـ ذـرـوـةـ الـرـوـاـيـةـ وـسـرـدـ أـمـامـ الـقـانـونـ وـتـفـسـيرـهـاـ.ـ يـصـلـ الـقـسـ مـنـ كـ أـنـ يـطـرـحـ الـثـانـوـيـ جـانـبـاـ،ـ أـلـبـومـ صـورـ مـعـالـمـ الـمـديـنـةـ،ـ وـبـسـىـ ذـلـكـ الإـيـطـالـيـ الـغـامـضـ،ـ الـذـيـ يـصـعـبـ فـهـمـهـ،ـ وـالـذـيـ كـانـ السـبـبـ الـحـقـيقـيـ لـزـيـارـةـ كـ فـيـ الـكـاتـدـرـائـيـ.ـ وـبـدـلـاـ مـنـ ذـلـكـ عـلـيـهـ أـنـ يـرـكـزـ عـلـىـ الـجـوـهـرـيـ،ـ أـيـ الـحـاكـمـةـ:ـ هـلـ تـعـلـمـ أـنـ مـحـاكـمـتـكـ لـاـتـبـشـرـ بـخـيـرـ؟ـ كـ يـوـافـقـهـ:ـ يـدـوـ الـأـمـرـ لـيـ أـيـضاـ هـكـذـا...ـ لـقـدـ بـذـلتـ كـلـ جـهـدـ،ـ لـكـنـ حـتـىـ الـآنـ بـدـونـ تـوـفـيقـ.ـ غـيـرـ أـنـيـ لـمـ أـنـجـزـ مـذـكـرـةـ الـالـتـمـاسـ بـعـدـ.ـ وـيـأـتـيـ الـقـسـ إـلـىـ الـجـوـهـرـيـ:ـ كـيـفـ تـتـصـورـ الـنـهـاـيـةـ؟ـ جـوـبـ كـ:ـ سـابـقاـ فـكـرـتـ أـنـ الـأـمـرـ لـابـدـ أـنـ يـتـهـيـ نـهـاـيـةـ طـيـةـ...ـ أـمـاـ الـآنـ فـإـنـيـ شـخـصـيـاـ أـشـكـ بـذـلـكـ أـحـيـانـاـ.ـ إـنـيـ لـأـدـرـيـ كـيـفـ سـيـتـهـيـ الـأـمـرـ.ـ هـلـ تـدـرـيـ أـنـتـ؟ـ وـأـخـيـراـ الـقـسـ:ـ لـا...ـ لـكـنـيـ أـخـشـيـ أـنـ الـأـمـرـ سـيـتـهـيـ نـهـاـيـةـ سـيـئةـ.

مـنـ الـوـاضـعـ أـنـ كـافـكـاـ يـرـمـزـ هـنـاـ إـلـىـ إـعدـامـ كـ فـيـ الـفـصـلـ الـأـخـيـرـ الـذـيـ كـيـبـ،ـ وـلـيـسـ هـذـاـ فـحـسـبـ،ـ وـإـنـماـ يـرـمـزـ أـيـضاـ إـلـىـ الـحـالـةـ الـتـيـ وـصـلـتـ إـلـيـهاـ كـيـاـتـ الـرـوـاـيـةـ بـكـامـلـهـاـ،ـ وـالـتـيـ كـانـ يـشـعـرـ أـنـهـاـ أـخـفـقـتـ إـلـىـ حدـ كـبـيرـ.

في نصوص أخرى ابتدع كافكًا شخوصاً عديدة تحت عن معنى وتعانى من مصاعب فهم. الرحالة البخاثة في قصة في مستعمرة العقاب لا يقدر على فك رمز الكتابة الواضحة بالنسبة إلى الصابط. وفي قصة هموم رب البيت نرى أن أودرادك... لا يمسك.

والشيء نفسه ينطبق طبعاً على المحاكمة/العملية، والتي تمنع كل ركود، والتي فوق ذلك ترافقها مصاعب فهم شديدة.

التاجر بلوك، ذو الخبرة الطويلة في مسائل المحاكمة، يلفت نظرك قليل الصبر إلى أنه في هذه القضية يجري الحديث مراراً وتكراراً عن «تبذل كثيرة لايعد العقل يكفي لها». وفي الفصل نفسه تستطيع لني أن تعلم المحامي بارتياح أن الموكّل إنما تصرف تصرفاً نموذجياً لاغبار عليه من ناحية المحاكمة، إذ أنه كان طوال اليوم يقرأ أوراق محاكمه باهتمام كبير. لكن هولد، الغارق أيضاً في القراءة وهو في الفراش، يشك في نجاح القراءة: لكن هل كان يقرأ بفهم أيضاً؟ عن ذلك لا تقدر لني بطبيعة الحال أن تقول شيئاً، على كل حال شاهدته في وضع قراءة متأنية على نحو مفرط، وقالت: «لا أستطيع طبعاً أن أجيب على ذلك إجابة قاطعة. لقد شاهدت على كل حال أنه كان يقرأ بعناية. كان طوال اليوم يقرأ الصفحة نفسها ويحرك إصبعه أثناء القراءة على طول الأسطر. وكلما كنت أنظر إليه، كان يطلق تنهيدة لأن القراءة تتعبه. إن الأوراق التي أعرتها له هي عسيرة الفهم على الأرجح». إن المحامي لا يتأثر من جهود موكله ويشك في نجاح القارئ بلوك. بصفته كاتب الأوراق ييدي رضاه عن الحال فيما إذا أخذ القارئ فكرة عن صعوبة الكفاح الذي يقوم به الكاتب. «نعم»، قال المحامي، «إنها هكذا والحق يقال. كما أنتي لا أظن أنه يفهم منها شيئاً. وليس عليها

سوى أن تعطيه فكرة عن صعوبة الكفاح الذي أمارسه دفاعاً عنه. ومن أجل من أمارس هذا الكفاح العسير؟ من أجل - يكاد يكون مضحكاً أن الفظه - من أجل بلوك. وعليه أن يتعلم أن يفهم ماذا يعني هذا أيضاً.

في فصل في الكاتدرائية تزداد مصاعب الفهم. ويبدو أن كافكا لم يدخل الشخصية الغريبة للإيطالي المولع بالفنون سوى لكي يشير سلفاً إلى موضوع الفهم التأويلي، هذا الموضوع الذي يسيطر في فصل الكاتدرائية بكامله. إذ لماذا يعطى في البداية هذا الحذير، إذا كان في النهاية يُنتحى جانباً من قبل القس بصفته مجرد شيء ثانوي؟ في الصفحة المكرسة للإيطالي يستخدم كافكا كلمة **فهم** لا أقل من عشر مرات (ص ١٤٤ هنا. ١.و). إن الإيطالي يتحدث لهجة جنوب إيطاليا لم يعد لها بالنسبة إلى ك شيء من الإيطالية. وتتناقض إمكانية تفاهمه مع الإيطالي أكثر، إذ أن لغته الفرنسية أيضاً لم تكن لفهم سوى بصعوبة. وما يزيد الأمر سوءاً هو أن شارب الإيطالي الكث كان يغطي حركات الشفتين التي كان من شأن رؤيتها رجعاً أن تساعد في الفهم.

في ارتباكه التأويلي بشأن لا مفهومية الإيطالي يحاول مدير المصرف مواساة ك بطريقة ذات دلالة بالنسبة إلى تفسير الرواية بكاملها. إن كافكا يورد المدير في كلام غير مباشر: إذا لم يفهم الإيطالي على الفور في البداية، فليس عليه أن يُدَهش، الفهم سيأتي بسرعة كبيرة، وحتى إذا لم يفهم كثيراً على الإطلاق، فليس هذا شيئاً في غاية السوء، إذ - والآن يأتي المغزى المفاجئ - أن الإيطالي لا يعلق أهمية كبيرة على أن يفهم. إن تكرار كلمة **فهم** بشكل متضخم - في هذه الجملة وحدها يستخدمها كافكا أربع مرات - يشير إلى تنسيب كبير (من نسبية) للفهم، هذا الفهم الذي يقرب شخصية ك من جديد إلى دور الكاتب، لكنه كاتب، وإن كان

عليه في محاكمته أن ينتبه إلى كل الكلمات، أصبحت كل كلمة بالنسبة إليه ذات إشكال، وعليه أن ينسخ كل كلمة من القاموس: كل هذا دار حول كأنه يدور حول مركزه، في حين كان هو نفسه يجمع الكلمات التي كان يحتاجها، ويبحث عنها في القاموس، وينسخها، ثم يتمرن على لفظها، وأخيراً يحاول أن يحفظها عن ظهر قلب. غير أن ذاكرته الجيدة سابقاً بدت أنها خذلته كلياً، وكان يحتق أحياناً على الإيطالي الذي سبب له بذل الجهد هذا، فيدفن القاموس تحت أوراق وقد عقد العزم بشatas على لا يحضر بعد الآن، لكنه كان لا يلبث أن يرى أنه لن يكون في مقدوره أن يتمشى بصمت مع الإيطالي جيئة وذهاباً أمام الآثار الفنية في الكاتدرائية، فيسحب القاموس مجدداً بحقن أكبر. ما علاقة الإيطالي بالمحاكمة، ما علاقته بالرواية؟ ثمة أمور كثيرة تشير إلى أن كافكا أدخل الإيطالي إلى روايته صورة تخيلية يقدر من خلالها التلميح على نحو غير مباشر وإلى حين إلى حالة عملية كتابته، التي يراها ذات إشكال.

إن محاولة تفسير الإيطالي في هذا الاتجاه يؤيدتها وضع بسيط جداً: ثمة سمة رئيسية للإيطالي تتطبق أيضاً على بدء المحاكمة، الاعتقال، وتطورها: في كلتا الحالتين ليس شيئاً حاسماً جداً أن يفهم الأمر. لقد دعا كافكا صاحبة النزل غروباخ تعتبر عن هذا الوضع: إن اعتقاله، اعتقالك، ليس مثل لص: إنه يedo لي مثل شيء من شؤون ذوي العلم، اعذرني إذا كنت أقول شيئاً سخيفاً، يedo لي مثل شيء من شؤون ذوي العلم، صحيح أنني لا أفهمه، لكن أيضاً لا يجب على المرء أن يفهمه. لا يوافقها ك وحسب، وإنما يزيد عليها. إنه لا يعتبر الأمر حتى شيئاً من شؤون ذوي العلم، وإنما لا شيء على الإطلاق. وهذا اللاشيء لا يمكن فهمه طبعاً ولا يجب فهمه.

في نصوصه لم يقدر كافكا عالياً إمكانية التفاهم والفهم. صحيح أن مركز القارئ في المحاكمة أو في مستعمرة العقاب مشغول، لكن بالأحرى من أجل إظهار لاجدوه جهوده، أو على الأقل لنزع تحديد المعنى تحديداً متسرعاً.

في هذا الجانب يجبأخذ مذكرة كافكا في يومياته بعيد انقطاعه عن الكتابة في المحاكمة، مأخذنا جدياً إلى حد ما: ليس الذي ما أبلغه، أبداً، ولا أحداً. وبالصرامة نفسها فهم أيضاً نصوصه القصصية صفتها محاولات. محاولات بأقل القليل من النجاح. محاولات يمكن بحاجتها في إبقاء كتابته كمحاكمة حاضرة، دون أن تتوقف.

٤

مقتبساً أثر فلوبير وصف كافكا كتابته عذاباً وتعذيباً ذاتياً، لكنها أكثر شهوانية من أن يكون من شأنه أن يقدر على التهرب منها. إن أمل ك بالحياة خارج المحاكمة يظل قابلاً للاستدراك بالنسبة إلى رواية المحاكمة، أما بالنسبة إلى الكاتب كافكا وإلى عملية الكتابة، فإن هذا غير ممكن أبداً، إذ أن المحاكمة تتدخل مع محاكمة الحياة، وعملية الكتابة مع عملية الحياة، التي تسمح بالخارج، في أحسن الأحوال، موتاً.

مراراً وبرغبة أفصح كافكا عن اهتمامه، بل نزوعه الداخلي نحو تخيلات العذاب. مرة أرسلت له ميلينا مشهد تعذيب ترجمته، فأجابها بحماس: إن الأمر ليشير إلى تماثل في الذائقه أنك ترجمت هذا الموضع بالذات. نعم، إن التعذيب هو في غاية الأهمية بالنسبة إلي، إنني لا أشغل نفسي بشيء آخر مثلكما أشغلها بالتعذيب وتلقي التعذيب. إن تعليل كافكا لرغبتة في العذاب يشير مجدداً إلى سياق لغوي، أي، بالنسبة إلى

كافكا، سياق كتابي: لماذا؟... لكي اعرف من الفم الملعون الكلمة الملعونة.

من نص في مستعمرة العقاب نعرف أن هذه الكلمة الملعونة لا تكتب في خط حسن للأطفال، وإنما تحفر في الجسد الدامي. في رواية المحاكمة يصوغ كافكا موضوع الجنس، ذا الوجهين دائماً: الألم والشهوة، بقوة أكثر. من الآنسة بورستر، التي يقبلها ك، كما يندفع حيوان ظمآن بلسانه فوق ماء النبع،... على عنقها حيث الحلق؛ إلى الغسالة الفاسدة، التي استلقت مع طالب على الأرض، لدى التحقيق الأول، وفيما بعد تعرض نفسها على ك أيضاً، إلى البنات الصغيرات المتبرجات اللواتي يحصلن بفراش تيتوري، وتروح كل منهن ترفع في كل مناسبة تورتها القصيرة جداً على كل حال؛ إلى حتى القضاة المغزبين بأنفسهم، والذين ليسوا شيئاً آخر سوى مصطادي نساء، تقدم المحاكمة نوعاً من عالم قسري شهوانى يقوم على الشيء نفسه دائماً وأبداً. في هذا الصدد يهمني فقط ذلك الجانب الشهوانى الذى يتعلق بتصورات العذاب والعقاب الذاتى، وحدث الكتابة. أنَّ كتب القانون العتيقة، البالية، المتسخة، تشمل أيضاً رواية بعنوان «المضائقات التي يجب على غرته أن تتحملها من زوجها» هو أمر معروف. إنني أغفل هنا أيضاً الوظيفة المهمة للمريلة، التي تمسح بها أيضاً الغسالة التراب عن كتب القانون. إنني سأقصص على مشهددين.

في فصل الجlad يفتح ك باباً سمع وراءه تهديدات، فيرى حجرة لسقوط المتاع يقف فيها جlad بملابس جلد سادية ويضرب بسوط الحارسين فيلم وفرانز. هذا الموجز للواقعة ينقل مشهد العقاب على نحو دقيق إلى حد ما، إلا أنه يغفل جزئية أساسية جداً في بناء كافكا للمشهد. إن النظرة الأولى في حجرة سقط المتاع لاتقع على الجlad، وإنما على رموز الكتابة:

مطبوعات قديمة عديمة الفائدة ومحابير فخارية فارغة ملقاة وراء العتبة. إن مرافقة لوازم الكتابة لمشهد التعذيب لا يمكن اعتبارها مجرد مصادفة أو أمراً هامشياً، عندما يتكرر، لدى النظرة الثانية في حجرة سقط المتابع في اليوم التالي، المشهد نفسه بمنتهى الدقة. مرة أخرى يقع النظر على المطبوعات والمحابير الفخارية قبل أن يظهر الجلاد والحارسان. تحت الضرب يطلق الحارس فرانز صرخة بدت - هكذا حرفيأً - أنها لم تصدر عن إنسان، وإنما عن آلة معدنة. لكنها لا تفيد شيئاً، فالجلاد يستمر في الضرب، وفرانز يتلوى على الأرض، تحت العصا، التي راح طرفها يتحرك جيئةً وذهاباً بانتظام.

دائماً، عندما يدع كافكا آلة تعذيب تتحرك جيئةً وذهاباً بانتظام، فإنه يعني أيضاً النزول والصعود المنظم لرأس قلم الكتابة على الورق المعاند. إنه لا يعني فقط تعذيب مدانٍ ما على المستوى التخييل للحدث، وإنما يعني أيضاً العذاب الذاتي الشهوانى للكاتب فرانز كافكا وهو يجلس إلى طاولة الكتابة. إن ما اعترف به كافكا إلى ميلينا في عام ١٩٢٠ يمثل أحد مراكز المحاكمة وفي مستعمرة العقاب، اللتين كتبهما في عام ١٩١٤ . كتب إلى ميلينا: عندما أريد أن أكتب شيئاً مثل التالي، فإن السيف، التي تحيط بي أستتها على شكل إكليل، تقترب ببطء من الجسم. إنه العذاب الكامل على أتم وجه. وسط تأمل مهموم عما إذا لم يكن عليه أن يركز ذهنه وجهه كلياً على محكمته، ويترك وظيفته لفترة قصيرة على الأقل . إن الأمر ليتعلق بمحاكمة كاملة لا يمكن تقدير مدتها . وسط هذه التأملات تلتقي مجدداً أوراق هذه المحاكمة مع تعذيب. إن مكان هذا التعذيب هو، من جديد، طاولة المكتب: نظر إلى طاولة المكتب . — الآن عليه أن يدخل زبانه عليه ويتفاوض معهم؟ في الوقت الذي كانت فيه محكمته تسير

باستمرار، في الوقت الذي كان فيه موظفو المحكمة يجلسون في العالى فرق أوراق هذه المحاكمه، كان عليه أن يقوم بأعمال المصرف؟ ألم يد الأمر مثل تعذيب تعرف به المحكمة وكان يتصل بالمحاكمه ويرافقها؟.

ولذا تأملنا، مضافاً إلى هذا، قول الرسام بأن ليس البنات الفاسدات وحدهن، وإنما كل شيء هو من المحكمة، فإنه يمكن قراءة المحاكمة كشكل شامل أوحت به تصورات قسرية جنسية وتخيلات سلطة لاتسمح بتحديد معانٍ نهائية، وإنما بالعرض كعمليات. إن المحاكمة تصف الهيكل الشكلي والدينامية الباطنية لكل حياة جوهرية. إنها تتبع رغبة تتطبق على الجنس كما تتطبق على العقاب أو السلطة، لكنها تقصد بالمثل أحداث المعرفة والكتابة. إن محاكمة/عملية موظف المصرف يوزف ك تضع البنى الأساسية لأية محاكمة/عملية ممكنة: إنها عملية حياة، كما أنها عملية إدراك نحو حقيقة لا توجد سوى لدى الاقتراب وتذهب من كل تثبت. إنها تصف، بالقدر نفسه، علاقة حب وعملاً بيروقراطياً. تأخذ أشكال محاكمة جنائية أو علاقة خطوبة كارثية، كما أنها تذكر بنفسها دائماً بصفتها عملية كتابة. وعلى محاكمة Kafka أن تكون مرآة لامبالية تعكس تماماً تلك المعاني، بصدق لكن بلا اكترات، المعانٍ التي تعرض عليها. إن المحاكمة تصف شكلًا، شكل كتابة يأخذ شاكراً كل مضمون تقريراً، كما أنه سرعان ما يلقي، بالمثل، كل مضمون. علينا أن نأخذ الجملة اختتامية والمركبة لقس السجن مأخذناً جدياً: المحكمة لا ت يريد شيئاً منك. إنها تفتح أبوابها لك عندما تأتي وتعفيك عندما تذهب.

يصف Kafka عملية تنمو فيها لإلاهة العدالة أجنبية على كعوبها، أي هناك حيث كانت الأجنحة تزين محسوب الفهم في العصور القديمة. ومن ثم تكون الصيغة التأويلية للجملة هي: «النص لا يريد شيئاً منك. إنه يفتح

أبوابه لك عندما تأتي ويعفيك عندما تذهب». إن المحاكمة، بصفتها حركة قص شعرية، تقدم بدأب خلفية ذهنية على نحو مستتر قليلاً أو كثيراً، دون أن تنشر نتائجها. إن المفتاح الذي من شأنه أن يفتح مغاليق المحاكمة إلى آخرها هو غير موجود. كما أنه ليس صحيحاً القول إن المفتاح قد ضاع. إذ أنه في صيغة المفرد هذه لم يوجد قط. من أجل المحاكمة، ولنمكث لحظة في هذه الصورة، يوجد مفاتيح كثيرة، بحيث إن الحديث عن مفتاح واحد يصبح أمراً مشكوكاً فيه. وعلاوة على ذلك، إن استعارة النص «المغلق» ومفتاحه المناسب لتفسير معناه هي من التقاليد التأويلية التي لم تعد تناسب نصوص Kafka. ومرة أخرى يقوم القس، استناداً إلى التراث، بصياغة تعذر الخل التأويلي: المفسرون يقولون في هذا: فهم صحيح لشيء وإساءة فهم الشيء نفسه لا يتعارضان كلياً. هذا يطابق على وجه التقرير تعذر الخل لدى الكاتب فرانز Kafka، الذي يفهم القارئ أنه لن يفهم قط، وفي أحسن الأحوال سيفهم نفسه ومحاكمته الخاصة به وعملية حياته.

١٩٩٠

ديتليف كرمر

Detlef Kremer

١٥ - سحر البداية و«التردد قبل الولادة»

إن التوتر الأساسي لشعر كافكا ينبع من نزاع الحياة والأدب: من الحياة، التي لا تعيش سوى في سبيل الأدب، ومن الأدب، الذي يضع مسافة بينه وبين الحياة لا يمكن تخطيها: كتابة كافكا للرسائل بلا كلل هنا، وكفاحه في سبيل كتابة الأدب هناك، مما وجهان لعملة واحدة. ولم يتخلّ كافكا قط عن هذه النظرة المزدوجة، التي مزقته ووحدته مع نفسه في آن: إن الأمر هو مثل النظرة السيسية إلى تاريخ حياة الذات العصرية، النظرة إلى وجود الذات تحت رحمة معايير وقواعد عالم القوانين القائم بوظائفه الأدائية.

يمكن القول إن تجارب كافكا الروائية إنما تمثل «مراحل على طريق الحياة»: طرد الطفل إلى العالم كذات منفيه (**المفقود**)، يقطة الذات على التخوم بين الحلم والواقع (**المحاكمة**، البحث عن الاعتراف، و«**التعيين**» في المجتمع (**القلعة**). الطفل المغزّر به يرسل إلى قارة شاسعة، والشاب العازب المعتقل إلى متاهة القوانين، والزوج المنفي إلى بنية سلطة. وتصبّ هذه التجارب في ثلاثة أنظمة حياة خيالية: في مغادرة الوطن بطريقة مليئة بالمخاطر؛ وفي التوطين في غربة المأثور ظاهراً بين الحلم والواقع، بين عالم القانون وعالم الحياة؛ وأخيراً في مسح الغربة (أي قياسها) وامتلاكها بمعنى

الاندماج في عملية التنشئة الاجتماعية والتكييف الاجتماعي. لكن الجوهرى في كل هذا هو - على عكس الرواية التقليدية - حقيقة وجود تناقضات عامة في نماذج الحياة هذه، هذه التناقضات التي تؤدي إلى الحيرة وصعوبة الفهم.

إن روايات Kafka تجرب بدايات: تبين الذات في محاولاتها، للتأكد من العالم في بعديه المكاني والاجتماعي. والروايات الثلاث تبيّن توقف هذه البداءيات، تفكّك مكان وزمان الذات: إن حياتي هي التردد قبل الولادة. إنه الطفل، الذي يضيع في العالم؛ إنه الشاب العازب، الذي يدان ويُعدم من قبل هيئة لقانون لا يُشترى؛ إنه الزوج، الذي لا يجد الطريق إلى «الأنت». إن تجارب Kafka الروائية ترتبط بسيرة حياته بطريقة مبهمة، بكتفاحه الذي استمر طوال خمسة أعوام في سبيل علاقته مع فيليبس باور، هذا الكفاح الذي قاده إلى تخيلات تحقيق وإدانة في رواية المحاكمة (الياس كانتي يسمى Kafka على نحو صحيح للغاية «أكبر خبير في السلطة»)، وهذا يصح في المجال الإيروسي الجنسي، كما يصح في المجال الحقوقي؛ وثانياً بكتفاحه في سنوات عمره الأخيرة في سبيل ميلينا ينسنسكا أيضاً، هذا الكفاح الذي يدور في رواية القلعة حول الوظيفة الأدائية للثالث في لعبة التأكيد من الهوية، لعبة السلطة والإيروس.

يجب إقامة أكبر وزن لمفهوم «الولادة»، بصفته تصوراً مصيغاً لتجارب الهوية عند Kafka. وليس هذا بالنسبة إلى الروايات وحدها، وإنما أيضاً بالنسبة إلى محاولات التصوير في قصصه. فقصة الحكم خرجت من المؤلف الكاتب مثل ولادة حقيقة وهي مفطاة بالواسخ والبلغم، وقصة الانساخ تُظهر يقطة الشخص الرئيسي في الكينونة الحيوانية نوعاً من الولادة السلبية.

لكن هذه التصورات لا تظهر في مداها الكامل سوى في الروايات.

في رواية المفقود تبدو فكرة الولادة ذات مفهوم مجازي: كشكل من أشكال اكتساب عالم جديد. يقال إن الأيام الأولى لأوروبي في أمريكا تقارن بولادة، يقول الحال ويشير بهذا في الوقت نفسه إلى الوجه المزدوج مثل هذا الحدث: الولادة كإثبات وجود في عالم غريب؛ لكن الولادة، أيضاً، كضياع في فضاء هائل لا يحيط به البصر، كفقدان للذات المفقودة. وطبعاً ما زالت رواية المفقود، رغم كل شيء، تثبت شكل الإطار التقليدي لرواية الأسرة ورواية المغامرات: رواية طريق الطفولة إلى البلوغ، رواية الخطوة من العالم القديم إلى العالم الجديد.

في رواية المحاكمة يصبح تصور الولادة إشارة إلى ازدواجية وتناقض عالم الحياة نفسه. في هذا العالم يدع طريق الشخص الرئيسي تفهم ولادة في العالم الاجتماعي. وهنا أيضاً يُظهر هذا الحدث وجهاً مزدوجاً: الولادة «كبلوغ» يصبح إثبات وجود؛ لكن الولادة، أيضاً، كإدانة، تؤدي إلى طمس الذات. إن ولادة الشخص الرئيسي، التي تصفها رواية المحاكمة، تظل في حقل التوتر المزدوج والتناقض بين الشخصي والعلني، كما يتجلّى في صياغة العالم البورجوازي. إنه الحالة بين الظلمة والتور، التي تفتح بين الحلم واليقظة، والتي تظهر في المشهد الأول من مشاهد الرواية؛ إنها تثير السؤال الخائف، فيما إذا كان الشخص الرئيسي في الرواية إنما يولد من حلم إلى واقع عالم قوانين، أو على العكس، إنما يتخبط عالم اليقظة ويدخل إلى مجال كوابيس مزعجة؛ إنه سؤال يظل معلقاً حتى نهاية الرواية.

في المفقود يجرب كافنكا ولادة ذات من عالم الطفولة إلى انفتاح المجال الاجتماعي، وفي المحاكمة يُظهر تنشئة اجتماعية ثانوية من خلال حياة مهنية وخطط زواج، وهكذا يبدو أن رواية القلعة تشرع تقريرياً في نوع

«ثالث» من الولادة: ك ترك وراءه الطفولة والزواج والمهنة، ويبحث عن إثبات كفاءته في «مغامرة الغربة»، التي مكانها في الطوبوغرافيا الاجتماعية المزدوجة لقصة القرية والقلعة، في عالم حياة مبهم بين الإيروس والبيروقراطية، ينشأ من ازدواجية «لحظة البداية الحساسة» تلك، التي تحمل معها المظاهر الرائفة لتأسيس معنى: تسمية في عالم اليقظة من طرف، وإغفاء أثناء الكفاح في اللحظة الخامسة من طرف آخر، الأمر الذي يصبح عودة إلى عالم الحلم.

إن روايات كافكا هي روايات غير مكتملة بالضرورة. إنها لا تسرد قصص حياة يمكن روایتها، وإنما تصب اهتمامها على لحظات مميزة للحياة، هذه اللحظات التي تظهر في الضوء المزدوج للبداية والنهاية في آن.

فمن طرف يتوجه الاهتمام في روايات كافكا، مراراً وتكراراً، إلى لحظة الولادة الاجتماعية نفسها: تلك اللحظة الدقيقة من البداية، التي لها مظهر مخيلة أولية، وتشتغل في تفرعات متعددة للمواضيع المعطاة منذ البداية، هذه المواضيع التي تصاب طاقتها المؤسسة للمعنى والترابط بالوهن، ثم تتحلل. هذا المشهد الأولي الذي يستخدمه كافكا يمكن روایته مراراً وتكراراً في ضوء الانتقال من النوم إلى اليقظة، ومن اليقظة إلى النوم. إنه استعادة مشكلة من جديد دائماً، استعادة بداية ليست في نهاية المطاف سوى تردد قبل الولادة، كما يكتب كافكا في يومياته.

ولكن من طرف آخر يتوجه الاهتمام إلى لحظة النهاية، هذه اللحظة القائمة سلفاً في مثل هذه البدايات: تفسير ذلك التحول من اليقظة إلى النوم كطمس للذات. تخيلات بداية ونهاية تتموضع فوق بعضها تدريجياً، تشكل قطبي توتر لميدان تخضع فيه الرواية نفسها إلى مبدأ «الوسط المستغنى عنه». وهذا ينطبق على رواية المفقود، تماماً كما ينطبق على الروايتين

الأخرين. في المحاكمة هي لعنة المرأة للاعتقال في البداية والإعدام في النهاية، هذه اللعبة التي يتظاهر داخلها الجري السريع الواقع للرواية.

هذا التشابك والتوضع تخيلات الولادة والانطفاء هو سر نسراً السائدة لتصوّص كافكا.

إن قصص كافكا تبدأ هناك، حيث تبدأ كل حياة بشرية. في الأسرة، عند الحب الذي تبشر به، والكرابحية التي تخلقها. إن البداية التي تعنيها الأسرة هي، بالنسبة إلى تخيلات كافكا عن الهوية، مثقلة بالعنف المضاعف من الحب والكرابحية، اللذين تبدو قواهما الرابطة على نحو مزدوج متشاركة مع بعضها بعضاً بحيث لا يمكن التمييز بينها.

«كافكا» هي الكلمة تشيكية وتعني: «غраб». ولد فرانز كافكا، الذي كان تاجراً يترقى اجتماعياً، أعاد لاسميه جسم الحيوان الذي يعنيه هذا الاسم، وحوّله إلى ماركة لشركته: وضع الغراب شعاراً على أوراق منجره وفرانز كافكا، الابن، لعب لعبة التحول هذه مرة أخرى؛ وذلك حيث افترض ميدانه الأكثر خصوصية لإيجاد الذات: في الأدب. لكن بهذا نقص الابن لعب الأدب في آن: لم يستحضر اسم الأدب كضمانة للنجاح السحاري كما كان هرمان كافكا قد فعل، بل حوله إلى القناع الذي يحكم لعنة الأدب: لعنة أحرف إذا أخرجت من عالم الملكية والمقايضة. لعبة مستعنة وغريبة في آن. إن قصتي أمام القانون وحلم، اللتين هما لباب رؤية المحاكمة، تؤكدان على نحو نموذجي لعبه القص هذه - نصف المسيرة ونصف المكشوفة - مع الاسم الشخصي. إن جميع آثار كافكا تتضمن هذه اللعبة: بين غربة الأنما التي تخلقها الأسرة، والأنا التي يخلقها الفن من جديد.

من المعلوم أن تجارب الأسماء تتخلل جميع آثار كافكا. وهذه

التجارب تصيب نواة شعر كافكا، وفي الوقت نفسه لا يمكن قراءتها دون النظر إلى العلاقة بين الأب والابن.

إن اللعبة التي يلعبها الأب والابن كافكا هي لعبة قديمة. إنها لعبة بالاسم، الذي هو اسم الاثنين سوية واسم كل منهما وحده في آن؛ لعبة توضح المكان الذي تصطدم فيه الصياغة الأبوية للابن مع رغبة هذا الابن في صياغة نفسه، حيث يعطي الآخر الخاص عنوةً، حيث الصدع القاتل الذي يخترق الذات التي صاغتها الأسرة الصغيرة البورجوازية. إن سداد بصيرة كافكا وإدراكه لهذه العلاقة هو ما يميز آثاره، وهو سبب التقدير بعيد المدى الذي لاقته، بالنسبة إلى أدب القرن العشرين، كما بالنسبة إلى تفهم شروط ذلك القرن الاجتماعية النفسية. إن نصوص كافكا تلعب، على نحو لا يجاري، لعبة الأصل والتأسيس الجديد، القسر والحرية، الصياغة حسب النسب والخلق المستقل، هذه اللعبة التي تطبع عالم الخداثة بطبعها؛ أو - كما يعبر كافكا بنفسه في عنوان قصته الأوليتين - : لعبة الحكم والانساخ، القانون والتحول. وطبعاً لم يعط كافكا قصته هذين العنوانين عن طريق المصادفة، هاتين القصتين اللتين تمثلان، كما فهمهما كافكا بنفسه، عملية اختراق. القصة الأولى، الحكم، تسرد حكم الأب، هذا الحكم الذي يخدم حياة الابن: إني أحكم عليك بالموت غرقاً. والثانية، الانساخ، تبين محاولة الابن للتحرر، عبر تحول ذاتي، من عالم القانون الأبوى، وإخراج نفسه من هذا العالم: من قسر كسب المال إلى حرية الفن. إن قصص كافكا هي حكايات تحكي البداية نهاية، والنهاية بداية: وذلك بالنظر إلى ازدواجية اللغة، التي تقدر - وهي بين نظام الأسرة وعالم الفن - أن تكون أداءً للاضطهاد وأداةً للحرية في الوقت نفسه.

في مثل تخيلات القص هذه يتكتشف ما تقدر كتابة كافكا إنجازه:

تحويل ذلك العباء الورائي، الذي تجدهه الأسرة بلا كمل، وتشغل كاهل الطفل به، إلى لعنة لغوية تحول اسم ابن إلى اسم المؤلف، وتدعه يحيا في حرية الكتابة والخلق الشعري.

انطلاقاً من هذه الشروط الأساسية يجب أن تفهم رواية المحاكمة. وهنا ثلاث نقاط على وجه الخصوص ذات أهمية.

لقد وصلتنا الرواية غير مكتملة، ولا يمكن البت في ترتيب فصولها ترتيباً نهائياً. وهي، بهذا الشكل، لا تقدم «سرداً لحياة»، وإنما سرداً لكتابه. تقدم اللعبة الديالكتيكية من عملية الحياة وفعل الكتابة، من اليقظة من حالة حياة وحلم الدخول إلى حالة أخرى.

ثانياً: إن كتابة Kafka وتخيلاته للحدث لا ترمي إلى عرض حدث روائي مستقيم، وإنما تخضع بالأحرى إلى «النظرة المردودة»: الإذعان لمعايير العالم من طرف، ولعبة التحرير عبر الفن من طرف آخر.

وثالثاً: في الرواية التقليدية ثمة خيط حكاية يصف قصة حياة. أما رواية Kafka فإنها تضع سلسلة من بدايات تجارب تتطور من ديانات البداية والنهاية. ولا ترمي هذه الرواية إلى سرد حكاية، وإنما إلى تبيان استحالة فهم الإشارات. ومن الخطأ صهر نصوصها وتقديمها رواية مكتملة تخضع للقوانين الأدبية التقليدية، وذلك كما حاول ماكس برود في تحقيقه وتفسيره لها. إن هذه الرواية لا يمكن أن تقرأ سوى كتنسيقات تجارب، كسلسلة من لحظات ولادة، تحمل في طياتها منذ البداية بذرة الانهيار والهلاك.

غرهارد نويمان

Gerhard Neumann

١٩٩٠

١٦ - الفراش

إذا ما لخصت مرة أخرى قراءتي لآثار كافكا وتجاري مع نصوصه منذ عقود، فإن ما من شيء يظل بإصرار هكذا أمام النظرة الداخلية مثل حقيقة أن أشخاص كافكا إنما يرقدون في أسرة. غالباً ما يرقدون على نحو مفاجئ وغير مناسب، وبطريقة تجري فيها أحداث في الفراش أو في محبيه تماماً لا تجري في حياتنا اليومية - مثل الاستشارات القانونية والـ^١ الوظيفي - سوى في أماكن أخرى.

يمضي كل إنسان تقريباً نحو ثلث مدة حياته في الفراش، وهي مدة لا يقضى مثلها في أي مكان آخر. إن الفراش هو مكان الولادة، اليوم، العجز، المرض، مكان الهدوء والراحة، مكان الحب والجنس، مكان الإنجاب، مكان القراءة، ومكان الموت.

بوضوح مخالف للمنطق اليومي، يقف الفراش في فضاء الكثير من نصوص كافكا القصصية، والتي غالباً ما ترتبط فيها لوازم الكتابة مع الفراش ترابطًا شديداً. وهذا ما يفتح الباب واسعاً أمام التفسير القائم على السيرة الذاتية. لكن ينبغي على هذا الباب أن يظل طبعاً باباً جانبياً أو خلفياً. ومهما كان الفراش ومكان النوم ملفتاً للنظر في نصوص كافكا، فإن

الاتصالات الجنسية في هذا المكان ليست هي الأحداث الغالبة، وإن لم تكن غائبة.

وأيضاً أشخاص كتاب آخرين يرقدون طبعاً في أسرة، لكن ليس في وضع تغريب بارز كما هو الحال لدى كافكا. في نصوصه يظل ملفتاً للنظر أن أحداً ونشاطات، علنية، بل ورسمية، لها مكانها الخاص «المألف» في حياتنا اليومية، إنما تجري في الفراش أو في جواره مباشرة.

يبدأ هذا في المحاكمة منذ الجملة الأولى بالاعتقال الصباحي في الفراش، علماً أن غير العادي يظل هنا محصوراً في أضيق حدود من حيث أن الاعتقال عند مطلع الفجر هو في جميع المجتمعات تقريباً ممارسة غير قابلة للاستصال. وإذا تأملنا ذلك المشهد الذي يجد فيه غريغور سامسا نفسه ذات صباح وقد تحول في فراشه إلى حشرة ضخمة، فإنه يصبح جلياً أن بداية المحاكمة وبداية الانفصال إنما ترويyan «مشاهد أولية»، مشاهد من ولادة ما هو جديد كلياً ومتغير (كما يقول نويمان).

يوزف ك سوف يتحدث فيما بعد في الرواية عن تلك المداهنة في الفراش في الصباح الباكر، التي ينتقل فيها الاعتقال بعد لحظات قليلة إلى الحجرة المجاورة، حجرة الآنسة بورستن، وبشكل محدد مرة أخرى إلى جانب سريرها. والنادلة إلزا، التي يزورها يوزف ك بانتظام، لاستقبال ضيوفاً إلا وهي في فراشكها. في مبني الإيجارات في ضاحية المدينة، الذي يُستدعي إليه يوزف ك أمام قاضي التحقيق يوم الأحد، يسجل ك: في جميع الغرف كانت الأسرة مازالت في الاستعمال، كان يضطجع فيها مرضى أو نائم أو أناس تددوا علاماتهم. وزوجة حاجب المحكمة تحدث يوزف ك كيف وقف قاضي التحقيق ليلاً إلى جانب فراشكها. إن الموظفة الشابة الجميلة تقول لجوزف ك أثناء زيارته الثانية لمكاتب المحكمة: لدينا هنا مسكن مجاناً، لكن يتوجب علينا إخلاء الحجرة أيام الجلسات. إن الأمر

هو مزاج سوريالي من الفراش والحكمة، من قميش النوم والقضاء، من الحشية والقانون.

رافقاً في فراشه يقوم المحامي هولد بتقديم استشارات قانونية إلى موكليه، ومحاطتهم، وإذلالهم. ولدى الرسام تيتورلي يصبح الفراش قطعة أثاث مركبة حقاً، يدفع الرسام يوزف ك إلى عمق الوسائل واللحف عليه، وعبره يفضي الطريق إلى مكاتب المحكمة ومنها. تحت هذا الفراش، الذي يملك صفة هيكل متزلجي، يبحث تيتورلي عن لوحاته، وفوقه ينبعي على يوزف ك أن يغادر المكان.

إن التشابك بين الفراش والمحاكمة يصل إلى مهزلة خيالية لا مزيد عليها، وذلك في العلاقة بين المحامي هولد، الذي يمارس عمله وهو راقد في الفراش، وبين الناجر بلوك الذي يُنذَلَّ من قبله، بلوك الذي يعُد لنفسه في محيط المحامي فراشاً بصفته مركزاً لعالم محاكمته، ويفقد أمام فراش المحامي البقية الباقيه من كرامته، ويتحول إلى كلب المحامي.

في قصة الحكم يشكّل الفراش منصة سلطة للوالد وعرش قاضيه له. وهذه إشارة إلى أهمية الرمز الأساسي في عالم إشارات كافكا. هذه الظواهر الواضحة جداً في آثار كافكا تعطي إشارة إلى أسئلة معلقة تقصصها أجوبة.

إن نصوص كافكا تقدم مادة كافية للمراقبة والتأمل. ويدو الفراش في هذه النصوص نوعاً من الأساس، قاعدة حياة وعمل وحكم الشخص، نوعاً من المرفأ الآمن والملجأ، الذي تكون فيه الشخص أقرب ما تكون إلى ذاتها، منطقة حماية وحصناً يمكنها أن تنسحب إليه وتتحصن فيه. هكذا تدافع مثلاً الآنسة بورستر عن هذه المنطقة في حجرتها بصفتها حصناً جنسياً، الأمر الذي يشبه الهجوم شبه الحيواني الذي يقوم به يوزف ك في نهاية الفصل.

إن الفراش، الذي هو مكان أكثر الأمور شخصية وخاصة، يتجلى أكثر ما يتجلى لدى المحامي هولد ولدى الرسام تيتورلي أرضاً للشؤون العامة والرسمية، ومكاناً للاستشارات القانونية والإرشاد الحقوقي والمحادثات الهامة.

في روايات كافكا نلقى الفراش من طرف نوعاً من الحصن تتحصن فيه السلطة، ومن طرف آخر فراش مرض، وبهذا تعبير عن وهن هذه السلطة. القوة والضعف، الطاقة والحمول، السلطة والمرض، النشاط والإعياء، يبدوان كأن الواحد منها يلغى الآخر. إن ديلكتيك العجز والسلطة، الشؤون الشخصية والشأن العام، يصبح إثارة ممزة لدى قارئ نصوص كافكا. إن مجالات الشخصي والرسمي، الخاص والعلني، المهم والهامشي، تبدأ بالاهتزاز وتفقد استقرارها في وعي القارئ أيضاً. وتكون النتيجة نوعاً من دوار البحر، تخلخلأ في التوجه يقرب من الدوار لدى القارئ، ناشئاً عن تخلخل مجالات الحياة وزحزحتها من مناطقها المتواترة و«العادية». كتب كافكا: لدى تجربة، وليس مزاجاً عندما أقول إن الأمر دوار بحر على اليابسة. إن آثار كافكا هي سجل السفينة لهذا الدوار، الذي يدل على أن اليابسة ليست ثابتة. إن ما نعتبره لا يتزحزح، يتدرج مع توجّات الحياة في قمم الموج^(*).
حين يسبب الهواء الرطب في علية المكاتب دواراً ليوزف ك، يتولّد

(*) «ولست واثقاً / أن اليابسة أقل تمواجاً من البحر». أدونيس في قصيدة «تقويم للfolk ٢٠٠١»، التي كتبها بتاريخ ١١/١/٢٠٠١، ونشرها بتاريخ ١٠/١/٢٠٠١، والتي قرأتها في اليوم نفسه، الذي ترجمت أثناءه هذه الأسطر. والجدير بالذكر جداً أنه يمكن وضع كتاب كامل يقارن فيه كافكا وأدونيس. أي أن هناك عملاً كثيراً للنقاد العرب ولغروع الأدب المقارن في الجامعات العربية.
(أو).

لديه هو أنصاًً هذا الشعور الكافكاوي المميز: كان مثل مصاب بدورار البحر. وطن نفسه على سفينة تتواجد على أمواج مرتفعة. كان يشعر كأن الماء يرتطم بالجدران الخشبية، وكأن هدراً يأتي من أعماق الماء مثلما يصدر عن مياه متلاطمة، وكان المرء يتارجح عرضاً فيهبط أصحاب القضايا المتظرون ويصعدون على الجانبين. إن يوزف ك يتصرف هنا وكأنه قرأ كافكا. إنه يعيش دوختنا لدى قراءة نصوص كافكا.

في مقطع محدود من المحكمة يعبر يوزف ك: قال لي أحدهم، لم أعد أذكر من كان، إنه لمن الغريب أن المرء، حين يفيق باكرأً، يجد كل شيء، بصفة عامة على الأقل، في الموضع نفسه دون زحزحة كما كان في المساء. دون زحزحة أو زحزحة تظهر هنا في علاقة مع حافة الفراش كواحدة من قطب الرحي لنصوص كافكا. إن المعنى النفسي للكلمة موجود هنا مثله مثل الظاهرة بأن نصوص كافكا إنما تملك بصمتها ومحورها تماماً في أن عالماً يومياً عادياً ومبتدلاً تقريباً يدو وقد تحرك وتزحزح قليلاً، وبهذا تحرك تحرّك حاسماً وتزحزح زحزحة حاسمة عن مجرى الأمور العادية واليومية واستقامتها، ومال مقدار زاوية ضئيلة، لكنه لدى استمرار الظاهرة يكتسب بازدياد امتداداً كونياً. إن أضلاع الزاوية تبتعد عن بعضها شيئاً على الدوام إلى اللانهائي.

إن تبديل مجالات الحياة فوق حافة الفراش هو مبدأ. في كل مكان لدى كافكا نظر على زحزحة المجالات وتقاطعها على نحو متصلب وخاصة مجال الشخصي وال رسمي. إن اليوم الأول الذي يعلن ليوزف ك من أجل التحقيق معه هو يوم أحد، يوم العطلة الأسبوعية - وهذا هو أمر غير مأثور بشكل كاف -، الأمر الذي يرستخ في ذهنه أن يذهب يوم الأحد التالي، دون أمر، إلى الموعد المفترض، والذي من الجلي أنه وضعه بنفسه،

والذي على كل حال لم تحدده المحكمة من أول الامر لكنها طبعاً تأخذ به طبقاً لمبدأ العذاب المتزايد بوضوح بين المحكمة والمعتقل. إن مكان مكاتب المحكمة هو كل شيء آخر غير مكان رسمي. يقع في ضاحية فقيرة من ضواحي المدينة، في مبنى متواضع من مبانى المسالك الشعبية، مليء بالأسرة التي مازالت في الاستعمال، والتي يمكّن بها يوزف ك ويروح يسأل على نحو غرائبي حتى يصل إلى مكاتب المحكمة. والظاهر كلياً أن المجال هنا هو أيضاً منطقة يسود فيها الجنس والخلاعة في الخفاء حيناً والعلن أحياناً أخرى.

إن إدراك الرمان والمكان قد تزحزح أيضاً من المألوف على نحو واضح، مثلما ترhzحت العلاقة بين العام والخاص.

هذا المبدأ الذي يصيب بدور البحر على ما يبدو أرضاً ثابتة، يلاحظه أيضاً الشخص الرئيسي في رواية القلعة: لم يكن لك قد رأى في أي مكان آخر الوظيفة والحياة متشابكتين هكذا مثلما رأهما هنا، متشابكتين هكذا بحيث بدا أحياناً أن الوظيفة والحياة إنما قد تبادلت مکانيهما. هذا هو «منطق الحلم» في نصوص Kafka وفي لوحات معاصره شاغال، هذا المنطق الذي يحيرنا: أن العناصر معروفة ومألوفة، لكن ليس في مكانها، على كل حال ليس في المكان الذي تخصصه لها تجربتنا في الحياة اليومية؛ أن اليابسة إنما تتماوج في حركة أمواج البحر. إننا نحس متوج الأرض الثابتة، التي ليست ثابتة كما هو جلي.

إن تبادل المكان بين العناصر يسمح بإمكانيات تفسير متنوعة: عندما يقدم المحامون وهم في الفراش مشوراتهم إلى موكلיהם، وعندما تكون كتب القانون كتاباً خلاعية، وعندما يصل المرء إلى مكاتب المحكمة عبر وفوق فراش تيتورلي؛ فإنه يمكن الحديث، إيجاباً من طرف، عن أنسنة نظام القضاء، وسلباً من طرف آخر، عن فساد هذا النظام وقيامه بالإفساد. وفي

الحاكمية تسود هذه الناحية السلبية منذ الصفحات الأولى، ويمكنها أن تظهر بمحاجة في بعض النقاط، لتشكل مزيجاً سيناً.

لدى كلايست أيضاً^(٤) نجد الفراش مكاناً لأضياع حلم، هو ميدان رحمة وتشويه وخلط. الحلم يشوه، بطريقته، تراتب الشخصي والعام. يضع الرسمي في الفراش، ويعزى العام.

وفرويد حول الكنية إلى مكان الإزاحة التحليلية. وهائز غرد كوخ وجد الكتبة مكاناً من أمكنته الإزاحة والتشويه لدى كافكا^(٥). بالنسبة إلى مارسيل بروست كان الفراش مركزاً للحياة والعمل، كان المكان الذي نشأ فيه محضر لعصر^(٦). إن الأفقية في الفراش أو «الاندلاق» من العمودية، الموقف اليومي المألوف المنطقى، يتبع على ما يبدوا أكثر آفاق التغيريات خصباً ورعاً.

إن الرائد في الفراش - وليس الرائق فقط - يقع لدى كافكا في وضع ولادة متواصل، وضع يلد المرء فيه كما يولد أيضاً، وضع رحم ينشأ منه نوع جديد من واقع البص. غرهراد نويمان يتحدث عن ذلك «المشهد الأولى» الكافكاوى، والذي هو «في ضوء الانتقال من النوم إلى اليقظة، ومن اليقظة إلى النوم»... ليس أكثر من «التردد قبل الولادة». وهكذا يجب قراءة الحكمية «كسلسلة من لحظات ولادة». إن كلاماً من غريغور سامسا ويوزف ك يولد في لحظة الاستيقاظ داخل وجود آخر وجديد، في وجود فاجعة، في

(٤) Heinrich Kleist (١٧٧٧ - ١٨١١) مسرحي وقصاص ألماني كبير، مات منتحرًا.

(٥) راجع المجلد الأول من «الآثار الكاملة»، ص ٢٧٦ و ٣١١ .

(٦) المقصود رواية «بحثاً عن الزمن الضائع» التي كتبها بروست بين ١٩٠٩ و ١٩٢٢ (أ.و).

حياة ثُمِيت، وهي طبعاً الحياة الوحيدة والحقيقة التي نعرفها ونحاجها. إن اللحظة الأولى للولادة تحسّ سُنّ السكين التي تغرس في القلب. ولا يمكن الحصول على حياة أخرى. وكل استيقاظ، وكل نهوض، وكل جلوس على حافة الفراش هو لحظة قرار للولادة إلى موت مقترب. وبالنسبة إلى محظتنا الوجود كليهما، البداية والنهاية، يظل الفراش وعاءً للحياة يضم فترتنا الزمنية بكاملها. من هنا عليه أن يكون مركزاً في آثار كافكا، ولهذا السبب يجب على أرضية الاستلقاء في تلك الآلة الكاتبة التي تكتب الموت في الجسد في قصة في مستعمرة العقاب أن تسمى السرير. حسب رغبة صانع الآلة يجب على المعدّب هناك أن يسخر بصره في إدراك تلك الحقيقة التي تُغرس في جسده في بهاء مُمحَّص وخط جميل. إن الحياة نفسها هي تلك الآلة، آلة الكلمة والكتابة، التي تكتبتنا وتملئنا كتابة. وفي النهاية سنكون موسومين كلياً بيسيم الحياة، تلك التركيبة الجهنمية. إذا كانت ورقة مكتوبة بالتمام والكمال، مكتوبة أيضاً من قبل تخيلات العقاب والانتقام التي تحول في رؤوس إخوتك البشر، فإنك تصبح ناصحاً للموت. إن الكتابة والتتعديل وأن يكتب المرء هي شيء واحد. وهذا يتضمن أيضاً أن الكتابة لدى كافكا متطابقة مع عذاب الحياة.

إن الراقدين في الأسرة غير المرتبة مجردون من وقارهم الرسمي بطريقة درامية، مثل الأب في قصة الحكم أو المحامي هولد في رواية المحاكمة. ويبدون وقد أزيفوا عن الوضع المألف «المعقول» إزاحة طفيفة ظاهرياً لكنها حاسمة ضمن نصوص كافكا.

يمكنا أن نقوم بتجربة أفكار وتطبيق التجربة اليومية على المثال الكافكاوي، وذلك بأن نتخيل أن أحداً رسمياً وعاملاً، مثل جلسات هيئات، ومؤتمرات، واجتماعات برلمان وحكومة، واستشارات، ومحادثات

تجري بطريقة يضطجع فيها جميع المشاركون أر على الاف . . . مباب الحياة العامة مثل القضاة والمحاضرين والخبراء من كل الأصناف في أسرة: من شأن هذا أن يكون إزاحة كاملة، ومن شأن عالمنا أن يهتز ويخرج من نظامه، نظام تلك الاستقامة العمودية التي ندير بها واجهاتنا الشريفة إلى بعضنا بعضاً، هذه الواجهات التي تسقط في نصوص كافكا.

ينزع كافكا الصفة الرسمية عن أصحاب المناصب، بوضعهم في أسرة. وتعطل سقالات وأنظمة توجهنا اليومي. وتكون الحصلة دوار البحر، ذلك الدوار الوجودي، الذي يداهم يوزف لك في مكاتب المحكمة المتواجدة في العليات الرطبة والتي يشعر المرء فيها كأنه داخل سفن خشبية. إنها غياه布 شبيهة بالقمارات، التي ينام فيها أيضاً الموظفون. في القلعة نرى أن على لك، بصفته بواب مدرسة، أن يسكن وينام في غرفة الصف في مدرسة الضيعة. مثله في ذلك مثل حاجب المحكمة وزوجته في المحاكمة، اللذين ينبغي عليهم إخلاء مسكنهما للمحكمة أيام المحاكمة. إن إمكانية تبديل مكان المبيت والمدرسة، وتضاؤل التمييز بين السرير ومكان المحكمة، يشيران إلى نزع الخاصية العقلانية عن الواقع، وإلى خلخلة أشخاص النص المعرضين مثل هذه المواقف، ومعها القارئ أيضاً. إن اتساع النص الكافكاوي بصفته فضاء أسئلة لشخصه، يطابق فيضان الدراسات عنه بصفتها فضاء أسئلة لمفسريه. ومثلاً يربو عدد المفسرين على عدد الشخص في مجموع آثار كافكا، فإن حجم الدراسات يزيد أضعافاً مضاعفة عن حجم الآثار الكاملة لكافكا. لكن الأمر يظل ظاهرة كمية وليس نوعية.

في مثل هذا الوضع الذي يقع فيه الفهم في موقف حرج في كل مكان وعلى كل المستويات، تظل بقية من المعقولة للافتراض القائل بأن ما يجري زعزعته في نصوص كافكا انطلاقاً من الفراش هو نظام الإدراك

والمعرفة نفسه، وبالتحديد نظام الميلسوف كاتب Kant (فالتر سوكول أشار إلى عناصر من فلسفة كانت في نصوص كافكا).

من المعلوم أن كافكا كان يعرف فلسفة كانت، وذلك من حلقة فلسفية كانت تعقد أسبوعياً في صالون أدبي في براغ في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى. وكان كافكا يحضر بانتظام هذه الحلقة، التي كان يشارك فيها العالم الفيزيائي ألبرت أينشتاين الذي كان يدرس في جامعة براغ.

لقد درست تأثيرات كانت على كافكا وخاصة في القلعة، وتم التوصل إلى نتائج مثيرة. ومنها ينشأ الافتراض بأن مركز القانون والحكمة، هذا المركز المنبع على الدخول إليه، إنما يمثل، بعد ذاته، ذلك الموضع من الأشياء التي لا تدرك. وهذا الافتراض قمين أن يدع الأمر يبدو منطقياً وضرورياً وحتمياً أنه من الحال على يوزف ك أن يقدر على الوصول إلى مركز الحكمة والقانون، إلى هناك حيث يثبت ذنبه ويقضى ويحكم. ذنب لابد ل Maher ونوعيته أن تعصى مبدئياً على الإدراك. إن العالم البروفراطي للهيئات والمكاتب والقضاء والمحامين - على كل حال مجرد الحاشية الدنيا للجهاز - كذلك مجال المصرف والنزل، كلها تتسمi، طبقاً لذلك، إلى عالم الظواهر، هذه الظواهر المنظمة في ظهورها من خلال الرؤية والمكان والزمان ومفاهيم الفهم أو المقولات. إنه العالم «العادي» لبني الحياة الاجتماعية القابلة للفهم والاستبطاط منطقياً. إنها، حسب كانت، ظواهر لما لا يظهر بنفسه، مُقينة للأشياء الواقعه وراءها والتي لا تدرك. وتبعداً لذلك، فإن يوزف ك لا يقدر مبدئياً أن يتغلغل إلى هذا المركز، هذا القاع لكل الظواهر، الذي لا يتحدث إلينا قط دون تمهد، وإنما بالضرورة عبر مرسليين وحسب. والظواهر هي هؤلاء المرسلون. وهذا يوضع في آن ماذا لا يمكن يوزف ك

من الاتصال، هنا وهناك، سوى مع ذوي المراتب الدنيا، هؤلاء الذين هم الظواهر والأشياء التي تواجه حواسنا، والتي لم تظهر بنفسها، وذلك لأن جهاز إدراكنا لا يطابقها...

إن فلسفة كانت الجمالية تبرز آثارها في رواية المحاكمة، وذلك في تأثير تلك الصور الغامضة لأشخاص القضاة ولوحات تيتورلي وفي «جمال» المدعى عليهم الأكثر غموضاً... وثمة دارسون يعلنون المحامي هولد مثلاً عالم الظواهر لدى كانت. إن العلاقة الصحيحة الوحيدة - حسب كانت - بين عالم الأفكار والوعي تكتشف بالنسبة إلى يوزف ك إلى ذلك الذنب غير المميز، والكلي والقائم في كل مكان، والذي هو ليس أقل من ذنب الحياة. فقط على هذه الخلفية الفكرية الكاتانية يصبح من المفهوم، لماذا لا يمكن لهذا الذنب أن يتحدد نوعياً: إنه ذلك الضغط الكلي المستمر للواجب، هذا الواجب الذي يفوت يوزف ك أن يؤديه مثلما يفوت كل شخص.

إن عالم الظواهر المنظم عقلانياً من قبل الوعي هو، من طرف، دائماً شفاف على عالم الأشياء في حد ذاته - وهذا ما يكون الحضور الكلي للمحكمة غير المرئية في الرواية، هذا الحضور الذي يعطي لكل ظاهرة قيمتها النسبية - ومن طرف آخر فإن عالم الظواهر هذا هو، في شفافيته بالذات، غير كاف وغير كامل. وهذا ما يحسن به يوزف ك والقارئ في كل خطوة، مثلما تفتح تلك الحفر في أرضية مكاتب المحكمة، وتتدلى منها أطراف المحامين في الطابق الأسفل. إن العالم الذي يرسمه الوعي في الإدراك هو كثير الثقوب في كل مكان، وغير كامل، وغير مثالي. ويصبح دليلاً على ذلك الإزاحة اللامعقولة للمجالات، التشابك بين القضاء والجنس، رداء النوم ورسوم المحكمة، غرفة الجلوس وديوان المحكمة.

إن الفراش، في نطاق القضاء، يبيّن على نحو مجسم خير تجسيم أن

شيئاً حاسماً ما إنما يقع بالغرض بكل معنى الكلمة ويخترق العقلانية الرسمية، التي ينتهي إليها هذا القضاء وهيئاته كما يُزعم. إن الرقاد بالغرض في الأسرة، وسط عالم الظواهر المنظم شكلياً، عالم المكاتب والمصرف والنزل، يستبِّد دوار البحر الذي يدلّ على نوافص العالم «العقلاني». إن الأسرة وملابس النوم في المكان غير المألف هي الهدم الفوضوي لتلك العقلانية الشكلية للظواهر، هذه العقلانية التي يجب على المرء أن يثبت نفسه فيها عند استيقاظه في الصباح، أو لا يقدر على الاندماج فيها بعد الآن، كما يحدث في بداية المحاكمة والانساخ. إنها عملية انفكاك تدرِّيسي عن المجال «العقلاني».

كانت نظرية المعرفة للفيلسوف (كانت) هي النظرية التي طابت نظام نيوتن في الفيزياء الكلاسيكية، والتي تُفضِّل من طرفها صالح فيزياء جديدة في الوقت نفسه الذي نشأت فيه آثار كافكا. إن نشوء فيزياء الكتم والنظرية النسبية لأينشتاين، الذي كان كافكا على اتصال شخصي به، سبب في آلية الفيزياء الكلاسيكية تماماً ذلك الاضطراب، تلك الخلخلة، دوار البحر ذاك، الذي يظهر في نصوص كافكا من خلال وجود الفراش في كل مكان فيها في غير موضعه. كما تخلخلت وتحللت إمبراطورية الدانوب في ذلك العصر، تخلخلت وتحللت الفيزياء الكلاسيكية ونظرية المعرفة والفلسفة، وظهرت في الفنون والأداب تصورات ومشاريع جديدة عن الزمان والمكان. في مثل هذا العالم المتهدّم يجدو لدى كافكا أن المكان الأقل تعرضاً للخطر نسبياً، وقاعدة الحكم الأكثر أماناً نسبياً، هو الفراش، ومغادرته قد تلقي الإنسان في اضطراب شامل وغير قابل للتصحيح والعلاج.

إن الحياة تقع على نحو متقطع مع الواقع السطحي لأنظمة النظر

والفهم. إن مكان الحياة، الفراش، يصبح مكاناً مضاداً لعالم المفاهيم والأنظمة والمكاتب. الفراش مكاناً فوضوياً - أيضاً مكاناً للصورة الأولى لحياة ما بعد الموت أو ما قبل الولادة - هو مكان تلك الحياة المتعددة على الإمساك بها، والتي تُعقل وتسجن في النظام العقلاني، تلك الحياة التي تقدم إلى المحاكمة حتى الموت. هذا التضارب بين الفراش والمكتب، بين الحيوية وال فكرة، هو عملية الحياة. والحكم الذي ينفرد في النهاية هو خبر الجملة الطويلة المتواصلة طوال الرواية، والمؤلفة من ذات - يوسف ك - موضوع - الظروف -. إن الحكم المنفرد هو، أيضاً بالمعنى الكاتني، خبر الجملة. وبظل السؤال معلقاً، فيما إذا كانت السكينة المداربة في القلب إنما تُنهي وتنتهي منذ البداية حكماً يزيد المعرفة، ويضيف شيئاً لا يتضمنه مفهوم الموضوع؛ حكماً يتجاوز، وهو مستقل كل الاستقلال عن خبراتنا كافة، سائر مفاهيمنا عن واقع حياتنا. بهذا المعنى وحده سوف تتفتح، لدى كل خجل يبقى بعدهنا، أعيننا، حين ندرك ما هي في الحقيقة ماهية الأشياء في حد ذاتها، وما هي الذنب وقانون الحياة.

كلاؤس نزيور كوفسكى

١٩٩٠

Klaus Jeziorkowski

١٧ - العالم كمحكمة

مفهوم الذنب

إذ جهل القانون هو ذنب كـ.

يكون الذنب في كـ نفسه، أو في كونه يعتبر نفسه بلا ذنب.

كارل روسман يعرف عن القانون الداخلي للكيونة البشرية أما يوزف كـ فإنه أخفى نفسه، واستسلم لعالم العمل حيث يغدو منصباً مرموقاً في مصرف. إنه، على عكس كارل روسمان، يقع تحت تأثير مجال العمل والناس كلياً. إنه يمثل المواطن العادي في المجتمع العصري. ولهذا السبب هو مذنب، دون أن يعلم ذلك. ولهذا السبب أيضاً يصرّ بعزم على براءته. ما من مواطن يحدس أن حياته المواطنية فقط هذه هي ذنبه الحقيقي.

إن الوجود الأرضي بكامله هو كيان عضوي ضخم للمحكمة..

يظل على نحو ما في حالة معلقة إلى الأبد. لكن المحاكمة التي تجريها هذه المحكمة لا تخص أحداً ولا يتورط فيها أحد سوى المذنبين، أي أولئك الذين لا يعرفون شيئاً عن مثل هذه المحكمة، ولا يعرفون القانون الداخلي، ويعتبرون أنفسهم أبرياء. ليس بالإمكان قط تبرئتهم تبرئة حقيقة، ولذلك لأنهم يريدون على الدوام أن يبرهوا على أنهم أبرياء، إذ أن المحكمة لانفع معها الحجج. إن الحجج بالذات تبرهن على الذنب. إن البريء متـ

لا يرجى إلى مساعدة أمام المحكمة. ومن هنا، فإن التبرئة الحقيقة تعني إلغاء الدافع بأكملها: ملفات القضية... تخفي كلياً من الدعوى، وليس الإدعاء وحده، وإنما المحاكمة أيضاً وحتى حكم البراءة يتلف، كل شيء سلف. وهذا يعني أن الحياة الواقعية بكمالها تتلف.

الحياة كمحكمة

حين يكون كل شيء، بعامة، من المحكمة، فيكون كامل واقع حياة الإنسان، إذًا، محكمة.

عندما يعقد يوسف ك العزم في مرحلة متاخرة من محاكمته على أن يسحب توكيله من المحامي، يدرك أن الالتماس الذي يخطط لكتابته وتقديمه إلى المحكمة لن يكون مجدياً ومؤثراً إلا إذا تم فيه استرجاع الحياة بكمالها في أدق أعمالها وأحداثها، وعرضها ومراجعتها من كل النواحي. إن يوسف ك يحس أن الأمر يتعلق لدى هذه المحكمة بتبرير شامل للحياة. عليه أن يصف حياته خطياً، ويعللها.

غير أن مثل هذا الالتماس يفوق طاقة الإنسان. إذ ما من أحد يقدر على أن يرى الصورة الشاملة للحياة بكمالها وأن يتم له مراجعتها من كل النواحي. وفوق ذلك، فإن تثبيت مثل هذا الالتماس كتابة كفيلة أن يلتهم وقتاً لا نهائياً بحيث أن من شأن يوسف ك أن يفقد قوام حياته، ويضطر إلى التخلص كلياً من مهنته وحياته الخاصة. إن الوعي الكامل للحياة يلغى الحياة نفسها.

ومن طرف آخر لا يقدر الإنسان أن يحيا بلا مسوغ، وهو مسؤول عن كل ما هو وعن كل ما يحياه. بهذا التناقض يسوء ك بالفشل.

لا تمثل هذه المحكمة شيئاً آخر سوى واقع الحياة بكل مهملها. وليس شئ آخر سوى صورة عن الآراء الالانهائية، المتضاربة والمتباعدة على الدوام، التي يرها الناس عن بعضهم بعضاً. وكذلك القضاة الكبار هم في حقيقة الأمر بشر عاديون جداً، إنهم مثلاً يجلسون على كرسي مطبخ كومت فوقها لبادة عتيقة. ولم يجلسوا قط على كرسي عرش قضائي. هذا كله هو اختلاف. ثم إن كلّاً منهم معجب بنفسه على نحو جنوني، ومحب للانتقام دائمًا.

إن موظفي المحكمة هؤلاء يمثلون سلطة الحياة والواقع حتى تجري الحياة الأرضية - الحسية. وسلطتهم هي سلطة الحياة نفسها، والتي لا يقدر مفكراً أن يفلت منها أو يسبرها وينفذ إليها. في هذا تكمن قوة جاذبيتهم السحرية على النساء. إنهم يمثلون الحياة المعاشرة على نحو حتى خالص. لكنهم في الوقت نفسه - وهنا تكمن كليتهم المتناقضة على نحو تام - غارقون في عمل لا ينقطع، ويعيشون في مجال تجريدي معرض عن الحياة. إن الموظفين ينقصهم الارتباط مع السكان... إزاء الحالات البسيطة جداً... غالباً ما يكونون في حيرة من أمرهم، ولأنهم محشورون في قانونهم على نحو متواصل ليلاً نهاراً، فلا يملكون الحس الصحيح للعلاقات الإنسانية.

إنهم ليسوا أفراداً، ليسوا أشخاصاً غير رسميين، وإنما يجسدون قوانين الحياة والتفكير العامة التي تعبّر الإنسان؛ لذا فإنهم لا يملكون الحس الصحيح للعلاقات الإنسانية.

المحاكمة صورةً منعكسة لنفسيةك

لكن بالمعنى الدقيق يجري في نفسك مع بدء الاعتقال التفريق بين

الحسية والوعي. إن المحكمة وموظفيها ليسوا شيئاً آخر سوى انعكاسات ذلك الحدث الذي يبدأ في نفس كل إنسان يُدفع فجأةً إلى السيطرة على حياته وتبريرها. إذ أنه يجري في هذه اللحظة اختراق وخروج على قواعد الحياة والوعي المألوفة، التي كان قد تمّ بها تسوية وصقل وتأمين الحياة الإنسانية. إن ظاهر النظام يتحطم، ويظهر الوجود الإنساني بكامله في بادئ الأمر شيئاً غير قابل للفهم والإدراك على نحو مخيف، يتحرك في تناقضات لأنفسهم بأبي، تأمل ولا تسبر بأبي وعي أو إحساس حي. ومن هنا تظل هيبات المحكمة وكل ما يحيط بها غير مفهومة أبداً بالنسبة إلى يوزف ك.

غير أن يوزف ك يحس عنده نحو عامض لدى اعتقاده أن هذه المحكمة هي في الواقع تمسّر عن حالته الباعية الخاصة به. إذ بدا عليه طوال لحظة كأنه يحمل الجميع على كتميه أن كل تناقضات المحكمة وإيمانها معللة في ذاته. وليس عليه في هذه المحكمة سوى أن يفكر في نفسه، كما ينصحه المرافق. إن هيئة المحكمة التي تبدو غير معقولة ولا يسرّ غورها ليست شيئاً آخر سوى واقع الحياة الأرضي الخاص يوزف ك، الذي كان مذاك غريباً عليه نفسه، والذي - لهذا السبب - بات الآن يتّظر إليه فجأةً، وقد أصّب بذعر، مثل شيءٍ غريب عنه.

المحكمة الأرضية والمحكمة العليا

عن هذه المحكمة الأرضية المحددة، التي يقدر يوزف ك مثلاً أن يصرّ مدبر الديوان فيها، تتميز المحكمة العليا، التي هي مستحيلة المنال كلياً بالنسبة إليك وإليني وإلينا جميعاً. ونحن لانعلم كيف يبدو الحال هناك ولا نريد أيضاً، على فكرة، أن نعلم. في هذه المحكمة العليا يمكن القانون الأكيد، الذي يخرج من دائرة الحكم البشري.

إن هيئات المحكمة التي تمثل شمولية الحياة كأئمها وضعت من أمام المحكمة العليا. هذه الهيئات نفسها لا تعرف القانون المطلق. جاء عن الموظفين: هم أنفسهم لا يعرفون شيئاً. غير أنهم يُظهرون أن العالم الأرضي إنما يتبع قانوناً داخلياً لا يُلغى، وليس بالإمكان تغييره أو اختراقه. من هنا فإن أية إصلاحات، كما يطالب بها كل مدعى عليه، هي غير ممكنة وبلا جدوى. يجب فهم أن هذا الكيان العضوي الضخم للمحكمة إنما يظل على نحو ما في حالة معلقة إلى الأبد، وأنه يمكن للمرء حقاً، إذا ما غير في مكانه شيئاً ما بشكل مستقل، أن يسحب الأرض من تحت أقدامه ويسقط بنفسه، بينما يَوْضِعُ الكيان العضوي الضخم لنفسه الخلل الصغير بسهولة في موضع آخر – كل شيء مترابط – ويظل كما هو، إذا لم يصبح، وهذا مرجح، أكثر ترابطاً وأكثر احتراساً وأكثر صرامة وأكثر شرّاً.

إن منظمة المحكمة هذه ليست، إذاً، حسنة أبداً أو حتى إلهية. إنها العالم السيء. لذا، فإنه من العبث اعتبار موظفيها كائنات إلهية، وحتى تفسير مطالبهم ورغباتهم الجنسية وصايا دينية عليا ترفع عن كل أخلاق أرضية^(*).

أمام القانون

هيئات المحكمة الدنيا هذه تُقارن بالأحرى على نحو واضح بحارس الباب الذي يقف أمام القانون وليس في القانون. إذ عندما يشتكي يوزف ك إلى القس من المحكمة التي تبدو له عصابةً فاسدة من مصطادي نساء، يقول له القس: بالمحكمة تخدع، في الكتب التمهيدية للقانون جاء عن

(*) هذا الرأي نشره ماكس برود، وأخذ به مفسرون آخرون.

هذا الخداع: أمام القانون يقف حارس باب. إلى حارس الباب هذا يأتي رجل من الريف ويلتمس الدخول إلى القانون... إن هيئة المحكمة الدنيا تُقارن، فإذا، هنا بحارس الباب. وانخداعك والرجل من الريف بحارس الباب هذا يكمن في أن كليهما يعتبران ما يقوله حارس الباب أو ما تمثله المحكمة الدنيا حقيقة، بدلاً من اعتباره ضرورياً وحسب. رأي كثيف، يردك قائلًا، الريف يعمل نظاماً للعالم. في جلاء ووضوح يمثل حارس الباب بأقواله، فإذا، نظام العالم، هذا النظام الضروري حقاً، لكنه ليس الحقيقة المطلقة.

.. فقط العالم ونظمته نسد على الإنسان باب الدخول إلى القانون، الدخول إلى الحقيقة. وفي للحظة التي يتجاهل فيها حظر الدخول، يحيا في القانون.

وهنا ينبغي تدبر أقوال القس بكل دقة. إنه يقول عن حارس الباب إنه ليس دائماً شخصاً رسمياً. فعلى الفور في اللحظات الأولى يمزح بأن يدعو الرجل للدخول رغم الخطر القائم بشكل واضح. إنه يقول وهو يوضحك: إذا كان الأمر يغريك هكذا، فلتتحاول أن تدخل رغم حظري. لكن انتبه: إبني قوي.

هذا التمييز بين الشخص الرسمي والشخص غير الرسمي هو أمر جوهرى لفهم كل أشخاص الموظفين لدى كافكا. فهم، من طرف، يشعرون أنهم دون الرجل الطلاق. ومن طرف آخر يهددون هذا الرجل الحر، المتفوق عليهم دون أن يعلم ذلك، بقوتهم. وهم في الحقيقة، على ضوء هذه القوة، فوق هذا الإنسان. لا يجوز للمرء أن يعتقد أن حارس الباب إنما هو تابع للرجل. إن ارتباطه بحكم وظيفته ولو كان بمدخل القانون وحده فهو أكثر بشكل لا يقارن من الحياة في العالم حياة طلاق.

إن الرجل يأتي إلى القانون ليس إلا، وحارس الباب هناك من قبل. إنه معين في الخدمة من قبل القانون، والشك في جدارته من شأنه أن يعني شكًا في القانون.

انطلاقاً من هنا تتصفح كافة التناقضات الظاهرية في . . وابي اخنحمة والقلعة. إن ك في كلتا الروايتين هو فوق وتحت الموظفين. بصفته رحلاً طليقاً يملك وحده الإمكانية لاختراق القانون الداخلي للعالم والوصول إلى داخل القانون الحقيقي. هو وحده - وليس حارس الباب - يرى البريق الذي يتتدفق من باب القانون لainطfce. لكنه تابع للموظفين من سرف آخر. وطالما يحاول أن يوجد على الأرض، فإنه يقف في علاقة تبعية لهم، بل إنه يعتقد أن في مقدوره أن يدخل إلى القانون بمساءتهم. إذ أنهم معيتون حراساً من قبل القانون، وهم يخدمون القانون. إن قانونيتهم صادرة من أعلى هيئة. ومن هنا فإنهم يتتفقون على الإنسان الطليق الذي يحيا بلا قانون. ومن هنا أيضاً يبحث هذا الإنسان «الفوضوي»، الغريب، عن موضع قدم داخل منظمة العالم؛ ويحاول الاندماج فيها، وفهم معناها؛ يسعى إلى كسب عطف الموظفين ووعنهم رغم كفاحه ضدتهم. في هذا المعنى المزدوج تكمن صعوبات الروايتين، كما تكمن أيضاً حقيقتهما الداخلية.

ومن تفسير القس تظهر ناحية جوهيرية أخرى. صحيح أن حارس الباب يمنع الآن الدخول إلى القانون، لكنه يؤمّل الرجل في إمكانية للدخول مستقبلاً. لكن إذ أن الباب إلى القانون مفتوح... دائمًا... دائمًا يعني مستقلاً عن مدة حياة الرجل الذي خُصص له، فإن حارس الباب أيضاً لن يستطيع أن يفلقه. صحيح أن حارس الباب يريد إغلاق الباب، غير أنه هنا يتواجد في حالة خداع أكثر شدة. وفي الحقيقة، إنه لا يستطيع إغلاق الباب.

هنا يلمح إلى إمكانية بأن الرجل من الريف يستطيع الدخول بعد موته؛ لا بل يوضع في الاعتبار أن الرجل كان قميّاً أن يدخل حتى إبان حياته، وذلك لو كان قد طرح السؤال، عمن مخصص له الباب، ليس عند إشرافه على الموت، وإنما قبل ذلك. وفي هذه الحالة كان سيأتيه الخبر المتقدّ. وهذا يعني إذاً إن الاختراق المتقدّ لقانونية العالم هو ممكّن دائمًا، وذلك حين يسأل الإنسان عن تقرير مصير حياته الخاص به، بدلاً من التحقيق، وكأنه منّوم مغناطيسياً، إلى تفوق العالم وسلطته المهدّة. إن الخلاص من «العالم» قمّين أن يكون ممكّناً إبان الحياة في العالم.

بهذا تكون البنية الذهنية لرواية المحاكمة قد توضّحت مبدئياً، وبات من الممكّن فهمها في كل تفاصيلها.

معنى الاعتقال

تعتقد يوزف ك صباح يوم عيد ميلاده الثلاثين، وهو ما زال راقداً في سريره. إنه يتواجد، إذاً، في حالة من شروق الفكر ونسيان الذات والانتعاش من العمل المأجور وحالة نصف الأحلام، هذه الحالة التي يتواجد فيها جميع شخصوص كافكا عندما تُقذف من حياتها اليومية المنظمة وتوضع خارج شعنا. خارج بشريتنا. في موضع محدود يشير كافكا بشكل واضح إلى هذه اللحظة الخطيرة أكثر من أية لحظة أخرى عدد الاستيقاظ من النوم. وعلى الأرجح حذف كافكا هذا الموضع وكل موضع آخر قد يشير إلى أن الأمر قد يتعلق بحلم.

إن اعتقال يوزف ك هو واقع لا مفرّ منه، وليس وليد حلم. وفوق ذلك، إن صباح يوم عيد ميلاد الثلاثين هو لحظة ميزة على نحو خاص تدفع الإنسان إلى محاولة توسيع حياته التي عاشها حتى الآن والتي سيعيشها

أيضاً. وعلى نحو مشابه يعتقد التاجر بلوك بعيد وفاة زوجته، وهذا يعني في لحظة تضطرب فيها حياته المألوفة، المنشطة، ويبدأ التأمل وتركيز الفكر في الحياة والموت.

لكن من الحاسم أن يوزف ك يحسّن هذا التأمل قوّة غريبة مزعجة، ومن هنا يوصف حدثاً مواجهها له موضوعياً، وليس انعكاساً داخلياً.

اللعبة المتبادلة

في أمم القانون ثمة علاقة متبادلة بين الرجل من الريف وحارس الباب. العلاقة المتبادلة نفسها تظهر منذ مشهد الاعتقال: يوزف ك يعتقد، فهو، إذأ، تابع للحراس ينفذ أوامرهم. لكنه من طرف آخر كان يلعب معهم... شعر باستقلالية أكثر فأكثر عن جميع هؤلاء الناس... بدا عليه طوال لحظة كأنه يحمل الجميع على كتفيه. إنه يقف إزاءهم حراً وغير حر. يستذكر الاعتقال، يحسّنه مررّاً ويشدده في آن: كان ينوي أن... يعرض عليهم اعتقاله. إنهم مجرد صور منعكسة لداخله، كما أنهم، في الوقت نفسه، شيء غريب يستعبده.

إنه يعتبر الأمر كله ملهاة، مزاحاً ولعباً، وفي الوقت نفسه واقعاً قاتلاً. في طريقه إلى الإعدام يسأل قاتله: في أي مسرح تغلان... لعلهما مغنا أوبرا، فكر وهو ينظر إلى لغدهما الضخم. وتفرز من نظافة وجهيهما. ورأى المرء بمعنى الكلمة اليد المنظفة التي مسحت زوايا أعينهما وحكت شفتיהם العلوين وتجاعيد الذقن... ممثلين ثانوين كبيري السن يبعث المرء في سيلي.

إن المحكمة بكمالها هي ذات معنيين: مسرحاً وواقعاً رهيناً. إنها ملهاة

بدمى تنفذ أوامر بتبدل، ولاريپ أن ك يعلو عليهم. لكنهما في الوقت نفسه يمسكان ك بقبضة استعراضية متمرة لاتقاوم. كل شيء في مسرح الهيئات الرسمية في العالم هو محدث، متدرّب عليه، مدرسي، هو اللعبة الواحدة الأبدية لهذا العالم، هو جماد كل الجماد.

هذا هو من نقد كافكا للعالم. إنها «ملهاة عالمية».

غير أن لعبة الملاهاة تنتقل إلى يوزف ك نفسه. مساء يوم الاعتقال يقوم مرة أخرى بتمثيل مشهد الاعتقال كله أمام الآنسة بورستنر. يتحول نفسه إلى مثل: والآن يبدأ الأمر إذاً فعلاً. المراقب يصبح كأنه ينبعي عليه أن يوقظني، يصرخ حقاً، ينبعي على، إذا أردت إفهامك الأمر، أن أصرخ أيضاً... يوزف ك! حول إيقاظ نفسه يدور الموضوع في هذه التمثيلية. ثم تتحول الملاهاة إلى جدّ خطير، إذ أن الداء يتبعه ذعر.

وقياساً على ذلك تقع أيضاً كل المعاني المزدوجة للهيئات الرسمية في يوزف ك نفسه.

دور النساء

في المركز تقف المرأة بالضرورة. إذ تبدو أنها تملك اتصالاً أكثر عمقاً بالحياة مما يملك الرجل. في ميسورها أن تكشف له سر الحياة، وهذا يعني أن تعرفه بمحاهية منظمة المحكمة المخبوعة تلك، الباقية في حالة معلقة إلى الأبد، والتي تعتبر رمزياً، بالنسبة إلى كافكا، عن الحياة نفسها.

يلتقي يوزف ك ثلث نساء: الآنسة بورستنر، زوجة حاجب المحكمة، ولني. وهن يمثلن ثلث إمكانيات لسلوك المرأة مع المحكمة: ١ - الوقوف خارج المحكمة، ٢ - الحياة في نزاع معها، ٣ - الاستسلام لها كليّة.

إن الآنسة بورستر هي المرأة الحرة المستقلة. إنها في غاية الأهمية بالنسبة إلى المحاكمة بكمالها.

ليس لديها خبرة كبيرة بأمور المحاكمة، غير أنها تحب أن تعرف كل شيء عنها، وأمور المحاكمة بالذات تهمني بشكل بالغ. إن المحكمة تملك قوة جاذبية مميزة، أليس كذلك؟ لكن إزاء الآنسة بورستر بالذات يفشل ك. في الواقع كان عليه هو أن يرشدها إلى المحكمة. لكنه هو نفسه لا يعرف ما هو الموضوع لدى المحكمة. من هذا أصيّت الآنسة بورستر بخيبة لاحقة لها. حين لا يكون لك حراً مع نفسه ولا يصل إلى محكمته هو، فلا يمكن له أيضاً أن ينشئ علاقة حب حقيقة مع ذات أخرى حرّة ترغب أن تعرف كل شيء عن المحكمة ذات الجاذبية المميزة. فيما يهرب لك أمام نفسه، فإنه لا يمكن إقامة جسر إلى الأنت، ولا يمكن أن ينشأ حب. هذه الآنسة بورستر غير المتزوجة التي تقف بتشوق، وهي بدون خبرة كبيرة، أمام سر الحياة والحب، لأنقدر أن تصل إلى لقاء حقيقي معك، إلا إذا كان هو نفسه شخصاً بالمعنى الكامل، هذا يعني أن يكون ذاتاً حرّة تقف في المحكمة وفوق المحكمة في آن، وليس شخصاً يظل متورطاً في قوى الحياة المبهمة. إنك يستسلم لهذه القوى المجهولة والتي لا يملك زمامها، بدلاً من إثبات ذاته. يوزف لك يتحول إزاء الفتاة إلى حيوان ظمآن يبحث، في نهم، عن ماء النبع. بهذا يكون قد نطق بحكم الموت على نفسه. وأخيراً قبلها على عنقها حيث الخلق، وهناك ترك شفتيه فترة طويلة. إن قبلته هي تهديد قاتل للشريك، إنها كارثة الحب، ترسم هلاكه سلفاً، أي ذلك المشهد الأخير حيث أطبقت أيدي قتلة لك على حلقومه.

ك نفسه يعرف هذا: حين يلمع الآنسة بورستر في ليلة إعدامه، يدرك عدم جدوا مقاومته. وأراد أن لا ينسى العضة التي تعنيها الآنسة

بورستن بالنسبة إليه. إن هذه العضة تكمن في أنه ترك لي أن أقول لنفسي ما هو ضروري، أي تنفيذ الحكم بنفسه. عرف ك الآن تمام المعرفة أنه كان من واجبه أن يمسك بنفسه السكين... ويطعن نفسه بها. لكنه لا يملك القوة حتى لفعل ذلك. تقضي عليه كومبارس ودمى يشكل معها ما هو جماد. حيث يفشل لقاء الحب الحر المفكري، فلا يسود سوى الجماد المتحجر.

لكن هذه العضة الإيجابية التي تعنيها الآنسة بورستن بالنسبة إليه، تملك أيضاً معنى آخر. كانت الآنسة بورستن بعد اللقاء الليلي الأول قد أعرضت عنه على نحو قاطع، وأعاقت بشدة كل محاولة من ك للاتصال بها مرة أخرى. وبهذا أحالته إلى نفسه. وهذا الرفض بالذات لكل مساعدة كان المساعدة الحقة والوحيدة. كان العضة التي لا ينساها، والتي تبيّن له وهو في طريقه إلى الإعدام، أين تكمن المساعدة: في القرار، أن أقول لنفسي ما هو ضروري.

على العكس من الآنسة بورستن غير المتزوجة، تقف زوجة حاجب المحكمة في وسط المحكمة. إنها تدلّ يوزف ك على الطريق الأول إلى قاعة المحكمة، وتبدو له هنا شابة ذات عينين سوداويين لامعتين كانت تغسل ملابس أطفال في دلو. لكنها في نزاع مع المحكمة: إن الأمور هنا كريهة للغاية. عليها أن تسلم نفسها طالب المحكمة ولقاضي التحقيق، إذا ما أراد زوجها الحفاظ على وظيفته. إذ أن المحكمة قوية. إن زوجة حاجب المحكمة تأمل أن يخلصها. ليته يأخذها معه، أذهب معك إذا أخذتني، أذهب حيث تشاء... وسأكون سعيدة إذا ابتعدت عن هنا أطول مدة ممكنة، بل إلى الأبد. إنها تأمل منه تحقيق إصلاح المحكمة بكمالها. وكذلك زوجها يعتقد أنه لا أحد سوى رجل مثل ك قمين أن يحطم سلطة الطالب ويجرؤ

على أن يوسعه ضرباً ويتزعز منه زوجته له. وذلك لأن ك مدعى عليه. إن المدعى عليهم، وحدهم، يقفون أحراراً إزاء المحكمة. إنهم ليسوا في إمرة هذه المنظمة.

وطبعاً لا يقدر ك أن يفهم هذا. إنه يرى أن على المدعى عليهم بالذات أن يخافوا أكثر من غيرهم من سلطة المحكمة، التي تتعلق بها نتيجة محاكماتهم. «نعم، بالتأكيد»، قال حاجب المحكمة، وكان رأي ك كان صحيحاً تماماً مثل صحة رأيه هو.

مرة أخرى تظهر هنا حقيقة رأين يتعارضان. وكذلك زوجة حاجب المحكمة تواجد في تناقض ذاتي. فعندما يحملها الطالب ويأخذها إلى قاضي التحقيق بناء على أمره، يصرخ ك: «وأنت لاتريدن أن تُحرّري... لا»، قالت المرأة بصوت عالٍ وصَدَّتْ ك بكتنا يديها، «لا، لا، ليس هذا، فيم تفكِّر إذَا من شأن هذا أن يعني هلاكي».

لكن ك يشعر بوضوح أنه كان ينبغي عليه أن يحررها رغم ذلك. فقد استبد به الغضب من جراء خيبة أمله... وأدرك أن هذه كانت الهزيمة الأولى المؤكدة التي لحقت به من هؤلاء الناس. إن التناقض غير قابل للإزاله. وتحرير المرأة كان قميئاً أن يكون هلاكها فعلاً. لكن فيما لا يجرؤ على تحريرها، فإنه يقع أكثر تحت سلطة المحكمة، بدلاً من الحصول على المساعدة المأمولة. إن الخلاص غير ممكن، كما يرى حاجب المحكمة، سوى في الحلم

والإمكانية الثالثة تمثلها لني، التي تتماهى مع المحكمة كلية، وتدعو يوزف ك: لاتكن صعب المراس هكذا بعد الآن، هذه المحكمة لا يمكن صدّها، على المرأة أن يتقدم بالاعتراف. لاتريد أن تُحرّر، وإنما على العكس تبغي أن تخضع كل مدعى عليه ونفسها إلى المحكمة. إن ك يُسحب إليها.

«الآن أنت لي»، قالت... فاحت منها رائحة حادة مثيرة كأنها رائحة فلفل. إن يدها، التي تشعرها بنوع من الفخر، تبدو مثل مخلب جميل، لأن غشاء يربط بين الإصبع الوسطى والبنصر ليدها اليمنى... ويصل إلى المفصل الأعلى للإصبعين القصرين.

مخلب وغشاء^(*) هما من وسائل الارتباط بالحياة ارتباطاً كاملاً. إن وسيلة حياة لني هي السباحة مع التيار وسحب كل من هو صعب المراس إليها بخالب. إذ لاشك في أن صورة الغشاء تملك هذه الخلافية.

إن قبلاتها هي عضات في الوقت نفسه. والحب لديها هو عملية استبدال. إنها تريد أن يستبدل كعشيقته إلزا بها. لكنها لا تعتبر عن رغبتها هذه إلا بعد أن تعلم منه أن إلزا ليست قمينة فقط أن تصحي بنفسها في سبيله. هنا يظهر الموضوع القديم في الحكايات عن خلاص رجل مسحور ومعتقل، بأن تقوم فتاة محبة بالتضحية بنفسها في سبيله. لكن هذا الموضوع مقلوب هنا إلى عكسه. ما منأمل في خلاص مدعي عليه يبحث عن مساعدة من الخارج. وهذا يشجع لاستغلال من فقد أمره. إن لني لا تفكر بالتضحية. إن قبلتها التي كانت قبلة بلا هدف أصابته على ظهره أثناء الانصراف. إنها لاستسلام سوي إلى المدعى عليهم، وهي تجد معظم المدعى عليهم جميلين، وذلك لأنهم يقفون في الخارج، موسومين بعلامة قابين، علامة الذنب التي تجعل الضائعين في غاية الجاذبية، وتبشر بذلك السيادة لذلة غير مألوفة. وفوق ذلك، لقد تمرنت لني على خير وجه وفترة طويلة على اللعبة الجنسية كلها مع هؤلاء الخاضعين الجميلين، تمرنت عليها مع محاميها هولد الذي تحدثه عن ذلك تسلية له. وكان لدى كإحساس بأنه إنما يسمع حواراً جرى التمررين على تمثيله، وكثيراً ما كان قد ردّ

(*) يستخدم امريش الكلمة «غشاء» المستخدمة لدى طائر الماء. (ا.و).

وسوف يردد كثيراً، عندما يُرغم التاجر بلوك على إذلال نفسه أمامهما بطريقة مازوخية. إن لني تشارك في التمثيل في الملهاة العالمية الريتية لهذه المحكمة. كانت ذات وجه مستدير مثل وجه دمية.

لكن نظراً لمثل هذا الاستعباد يمكن ليوزف ك أن يدرك أنه ينبغي عليه أخيراً أن يعالج أمر محاكمته بنفسه، ويستغني عن كل مساعدة غريبة، وبلغى توكيه للمحامي، ويتخلص منه ومعه مرضته الغريبة.

لكن رغم ذلك، فإن هذا لا يستوفي المعاني التي تحملها لني ويحملها المحامي. إنهم يمثلان، بالأحرى، طبقة من طبقات وجودنا لا بد من إضاعتها حتى يمكن فهم المقصود الأخير لكافكا وروايته.

المحامي هولد

يصور المحامي هولد دوره كما يلي: ذات مرة وجدت في كتاب معيناً بشكل جميل جداً عن الفرق بين التوكيل في المحاكمات العادلة والتوكيل في هذه المحاكمات. جاء هناك: هذا المحامي يقود موكله على شفاعة إلى الحكم، أما ذاك فإنه يرفع موكله على كتفيه في الحال ويحمله إلى الحكم دون أن ينزله إلى مأواه ذلك. إن يوزف ك يتحمل كلياً من قبل هذا المحامي، على تقدير الحال في البداية، حيث كان يحس أنه يحمل المحكمة بكاملها على كتفيه. إن المحامي ينتهي ك ويأخذ مكانه على نحو كامل. يرى هولد أن من يستسلم لمحامي، لا يعود في مقدوره أن يحافظ على نفسه، ومن هنا لا يقدر أيضاً أن يسحب محاكمته من المحامي. إن المحامي يحمل بالنيابة العباء بكامله، ولذا فإنه يوصف رجلاً مرهقاً مريضاً باستمرار، ساقاه... ترتعشان من البرد. ويجب على عشيقته، مرضته لني

أن تدفعه وترعاه. إنه يقف على العتبة بين المدعى عليهم والمحكمة ويتوسط بينهما.

من هو، إذاً، هذا المحامي هولد؟

كيفما تفسّر خلفيات شخصي هولد - لني، فهناك أمر مؤكّد: لقد صور كافكا في هذين الشخصين عاقب كل مآل إلى وسطاء وكلاء، ورفضه القاطع لكل مساعدة غريبة مهما كان مصدرها. إنه يؤثّر أن يكافح بنفسه. من المميز أن يوزف ك يُحضر إلى المحامي هولد من قبل عمه، ذلك العم المتغفل بفظاظة، الذي يروح يشكّو من أن محاكمة ك إنما تعود بالعار على الأسرة بكمالها، ويُجّرف جميع الأقارب أو على الأقل يذلّون حتى يصلوا إلى الحضيض. هنا ثمة إشارة إلى نزاعات كافكا مع أسرته، التي كان دائمًا يضع حداً فاصلاً بينها وبين عالمه الداخلي، وحيث كان أيضًا على العكس يحس أن قضيته الداخلية، كتابته العج، إنما هي عار وتهديد للوجود الأسري. وفوق ذلك كان يدرك أن مثل أفراد الأسرة هؤلاء لا يعرفون أبداً نصيحة أفضل من الذهاب إلى أية هيئات توسيط معترف عليها اجتماعياً، علمًا أن هؤلاء الوسطاء أنفسهم لا يقدرون أن يوصوا بشيء آخر سوى الخضوع للمعضى.

أنَّ الأمر الصحيح الوحيد هو التواجد مع الظروف القائمة. حتى ولو كان من الممكن إصلاح جزئيات — لكن هذا هو خرافه غير معقوله — يكون من شأن المرء في أحسن الأحوال أن يحقق شيئاً للحالات القادمة، لكنه أضرّ نفسه ضرراً لا يمكن تقديره، كونه أثار انتباه الموظفين المحتين دائمًا للانتقام. لا إثارة فقط للانتباه! للتزام الهدوء، حتى ولو سارت الأمور خلاف تصور المرء كل الخلاف! محاولة فهم أن هذا الكيان العضوي الضخم للمحكمة إنما يظل على نحو ما في حالة معلقة إلى

الأبد... إن المرء ليترك العمل للمحامي، بدلاً من الإخلال به. هذه هي نصائح هولد. إنها نصائح القوى الموطدة.

تجاوزاً لكل التفسيرات المفردة يكتسب هولد ولني معناهما: تعكس لني، بعامة، ذلك النموذج من النساء اللواتي يستسلمن إلى مبادرة إحساسهن بالحياة، ويرين في ذلك الخلاص أيضاً بالنسبة إلى أزمات الرجال الروحية. إنهم يخلّصن فيما يقدمون الحياة هدية مباشرة إلى الرجال. إن عرض المساعدة الذي يقدمنه هو الأكثر انتشاراً في عصرنا.

يعكس هولد، بعامة، كل مسعى من مساعي العصر لانتزاع كل تفكير وإرادة و فعل من الفرد، والقيام بالتفكير والإرادة والفعل نيابة عنه ومن أجله. وهذا هو أيضاً من أكثر ظواهر العصر انتشاراً.

إن لني وهولد هما زوج لا يفترقان. وعرضهما هو في الواقع العرض نفسه. العرض على الإنسان مساعدة في حياته الدنيوية،مهما اختلفت أشكال هذا العرض، فقد يكون في شكل هناء في الجنس، أو في إطار قوى تعفي الإنسان من كل تساؤل وبحث، وتنظمه في مجموعات سياسية أو اجتماعية أو عقائدية تعد بأن تحمل بنفسها «عبء» كل عمل وكل مسؤولية.

مثل جميع شخصوص كافكا، لا يمكن مطابقة المحامي هولد مع عقيدة تاريخية محددة معطاة أو مع مذهب أو جماعة دينية. إنه بالأحرى الصورة التي تظهر في كل مكان، صورة هيئات الحياة الدنيوية التي تضع نفسها مكان المحكمة التي لاسيل إليها. وما له دلالة أن التاجر بلوك، مثلاً، يستشير، بالإضافة إلى المحامي هولد، محامين آخرين يقدمون الوعود نفسها. في متأهلات عصرنا يبحث الفرد، دون تمييز، مرة عن هذا الحل التعويضي ومرة عن ذاك، مرة عن هذه المساعدة، ومرة عن تلك. والعروض التي

تقديمها شتى المذاهب والعقائد والجماعات والمجموعات والمنظمات هي عروض لا تعد ولا تحصى، وعدد «المحامين» لا يقدر. لكن كل «محام» هو غير من الآخرين. بكل خوف يضطر بلوك إلى إخفاء علاقاته مع المحامين الآخرين أمام هولد. ما من أحد يقبل مساعدة الآخر. كل محظي، يريد وحده أن يحمل زبائنه.

كذلك مما له دلالة أن هولد يرغم زبائنه على قراءة الأوراق نفسها دائماً وأبداً، طوال اليوم الصفحة نفسها. وهو يعرف تماماً أن زبونه لا يفهم شيئاً من هذه الأوراق فقط. إن الأوراق التي أعرتها له هي عسيرة الفهم على الأرجح، ترى لني، «نعم»، فالمحامي، «إنها هكذا والحق يقال. كما أنت لا أظن أنه يفهم منها شيئاً. وليس عليها سوى أن تعطيه فكرة عن مسؤولية الكفاح الذي أمارسه دفاعاً عنه. ومن أجل من أمارس هذا الكفاح العسير؟ من أجل — يكاد يكون مضحكاً أن ألفظه — من أجل سرتك وعليه أن يتعلم أن يفهم ماذا يعني هذا أيضاً. هل درس بلاقطاع؟

إن المحامي نفسه لا يؤمن بجدوى أوراقه. وهي في الواقع سواء لديه. ولا غرض لها سوى إخضاع الزبائن له، وإعطائهم فكرة بأن كل شيء في العالم إنما هو بطبيعة الحال غير قابل للإدراك ولا سبيل إلى النفاد إليه، وأن ما من أحد يقدر أن يعلم في أيه مرحلة تتوارد فيها محاكمته، في ما إذا كانت قد بدأت أو حتى ربما يكون الحكم النهائي قد صدر. في هذا الخوف والخيرة، اللذين يُعيثان في نفس الزبون، عليه أن يكسب ثقة المحامي الضرورية ويسلم نفسه له كل التسليم وبلا قيد ولاشرط.

إن المحامي هولد هو مثل كل القوى الدنيوية التي تبغي حل الغاز الموحود بأن تطلب الإيمان بها (القوى) ومنحها الثقة، وذلك بغض النظر

كلياً إذا كانت الأوراق التي تكتبها قابلة للفهم أم لا، صادقة أم غير صادقة، صحيحة أم باطلة، قائمة على جوهر ذهني أم لا أساس لها. إن الشك يقطع، وذلك بتضعيده إلى درجة لا تحدّها حدود، إلى درجة كثيفة لا يمكن النفاذ إليها. في هذا التناقض يمكن فعلاً جوهر العقائد والإيديولوجيات العصرية. إنها تنزع التفكير من الإنسان، فيما تُظهر حدود كل تفكير. وكل انشقاق ذهني يعتبر نقصاً في ثقتك، ويجب معاقبته. إذ كيف يمكن لأحدthem أن ينشق، إن التفكير ليختلط دائماً على كل حال، والضمانة الوحيدة للحفظ على حياة الشعب أو البشرية لا توجد سوى في الزعيم أو الحزب أو المنظمة أو الجماعة. وبها وحدها يتحمل الفرد إلى مستقبل أفضل.

إن سلطة هذا المحامي هولد تملك حقاً مدي هائلأً يصعب التغلب عليه. إذ بدون وساطات لا يقدر إنسان أن يعيش. ومن الحال تحمل المسؤولية الكاملة عن العالم، إذ أن المحاكمة كـ لاتتجه إلى المسؤولية عنه نفسه وحسب، وإنما عن كل شيء: ولو كان وحده في العالم، كان في مقدوره أن يتغافل المحاكمة بسهولة، لكن وإن كان من المؤكد أيضاً أن المحاكمة لم قامت من ثم إطلاقاً.

لكن كيف على كـ أن يقدر على تولي أمر هذه المحاكمة وتحمّلها؟ بحق يشير المحامي هولد إلى أن كـ لا يقدر أن يحافظ أساساً على نفسه أبداً بدونه. لابدّ ليوزف كـ أن ينهار تحت ثقل محاولاته لتقديم أدلةه والتماساته. ليس في مقدوره قط إخطار المحامي دون أن يهلك. إن كـ يدرك هذا بنفسه: وبدأ له الآن قراره بأن يتولى بنفسه الدفاع عن نفسه أكثر أهمية وخطورة مما كان يفترض في الأصل... أما الآن... فلا بدّ له أن يعرض نفسه للمحكمة أولاًً وآخراً. هذا يعني أنه يتوجب عليه أن يكرس كامل حياته

إلى المحاكمة، ويستغنى عن كل عمل آخر، وبهذا يدمر وجوده بالضرورة. إنما أن يستسلم، إذًا، إلى المحامي. وفي هذه الحالة يستطيع أن يعيش، وإن كان ذلك على شكل خضوع. أو أنه يتحمل المسؤولية بنفسه. وفي هذه الحالة لا يستطيع أن يعيش.

إن خطته لإلغاء توكيه للمحامي، هذه الخطوة التي لا تُنفَّذ في الرواية - إن الفصل ينقطع قبل تنفيذ الإخطار فعلاً - هي الخطوة الخامسة لتحرير الذات، كما أنها أيضًا الخطوة الخامسة إلى قضاء ك على نفسه.

إن التناقض بين الحرية والوجود المحدد لا يمكن إزالته.

ثمة إمكانية ثالثة تنشأ من اللقاء مع الرسام تيتورلي. في هذا الفنان يُرى تجاوز التناقض.

إمكانية التحرير عن طريق تيتورلي

آ - الحرية في المحكمة

إن تيتورلي هو موضع ثقة المحكمة. يرسم صور أشخاص القضاة الذين يأتون إليه. ومرسمه يتصل مباشرة بمحاتب المحكمة، ويسود فيه الهواء الخانق نفسه والحرارة المشبعة بالرطوبة نفسها التي تسود فيها. وهو يملك علاقات شخصية وثيقة مع القضاة يمكن بها بالذات توجيه القضاة بسهولة. ومن طرف آخر هو شخص غير رسمي، أي أنه ليس موظفاً محشوراً في أوامر القانون وفي عمل المحكمة. كما أنه لا يملك أية وظيفة قضائية، فهو ليس محامياً، وليس مدعى عليه، ليس حاجباً، ولا حارساً للمحكمة. إن مهنته رساماً وكونه موضع ثقة المحكمة ليسا وظيفة معترف بها علناً، لكنها لهذا السبب بالذات أكثر تأثيراً من الوظائف المعترف بها.

لأن تيتورلي شخص غير رسمي، يشعر يوزف ك إزاء أنه حر وغير معاقد، لا يُرتاب فيه ولا يُراقب: والرد على هذا السؤال أثار البهجة في نفسه حقاً، ولا سيما أنه جاء إزاء شخص غير رسمي، أي بدون أية مسؤولية. ك يشعر أنه لم يكن تحت رحمة تيتورلي مثلما هو أمام المحامي، وكان في مقدوره، متى شاء، أن يتخلص منه دون اعتبار، الأمر الذي كان غير ممكن لدى المحامي.

هنا إذاً تمهيأ له مساعدة لاتربطه بالمعين. إن يوزف ك والرسام يقانن إزاء بعضهما بعضاً كرجلين حرين ندين في علاقة متبادلة متوازنة. إذ أن ليس تيتورلي وحده هو المانع، العين، الناصح، وإنما يوزف ك أيضاً هو بالنسبة إلى تيتورلي أحد معارفه المقربين ومحسناً إليه. بين الاثنين يُمهد الطريق لعلاقة صدافة حقيقة. إن المساعدة التي يعرضها الرسام على يوزف ك لا تكمن في أن يحمله أو يكتب التماسات في سبيله، وإنما أن أصطحبك نفسك إليه (إلى القاضي). فسيكون عليك إذاً أن تأتي مرة معني.

إن تيتورلي هو، إذاً، الشخص الأساسي الحاسم. إنه يحيا في المحكمة، ورغم ذلك يحافظ على شخصيته غير الرسمية. وهو ليس شخصاً من الخارج غير عالم مثل يوزف ك، ولا واحداً من الموظفين الذين غالباً ما يكونون في حيرة من أمرهم،... لأنهم محشورون في قانونهم على نحو متواصل ليلاً نهاراً. هذا يعني أنهم لا يقدرون أنفسهم على سر الحتميات التي يعيشونها ويسجلونها بلا توقف، الأمر الذي يؤدي أيضاً إلى أن نتائج عملهم كافة تتراجح باستمرار من هيئة إلى أخرى، دون أن يمكن أبداً اتخاذ قرار نهائي، هذا القرار الذي يظل طبعاً من اختصاص المحكمة العليا التي لا سبيل لأحد إليها.

ب . القضاة وصورهم

نتيجة حرفيه في صييم المحكمة يملّك تيتورلي الصلاحية لأن يرسم القضاة، إلا أنه لا يرسمهم كما هم فعلاً أو كما يبدون، وإنما يرسم أهميّتهم القضائية العليا ووظيفتهم كما رسم قدماء القضاة الكبار. بخصوص صورة القاضي المعلقة في حجرة مكتب الحامي هولد، هذه الصورة التي كانت صورة القاضي في مرسم تيتورلي شبيهة بها بشكل ملفت للنظر، جاء: الصورة تعود إلى أيام شبابه (شباب القاضي)، لكن لا يمكنه أن يكون قد شابه الصورة قط مجرد مشابهة، إذ أنه صغير جداً تقريباً. كما أنه في حقيقة الأمر لا يجلس قط على كرسي عرش، وإنما على كرسي مطبع كومت فوقها لُبَادَة عتيقة. والشيء نفسه يقوله الرسام عن القضاة الذين يرسمهم. إن وضعيتهم القضائية الوقرة هي مجرد اختلاف. لم أر الشخص ولا كرسي العرش. ومن شأنك أن تفقد كل احترام للقضاء، لو سمعت اللعنات التي أستقبله بها عندما يتخطى سريري، لكي يرسم.

من هذا يتضح أن القضاة هم في حقيقتهم أناس عاديون جداً، كما أن كل شيء هو من المحكمة، كما يقول تيتورلي. غير أن على الرسام مهمة هي أن يظهر فنياً الماهية الحقيقة ووظيفة وأهمية منصب القاضي، هذا المنصب غير المرئي في الحياة اليومية. وهذا يعني أنه يمنع القضاة أصلاً وأولاً وعي منصبهم وتساميهم. إنه هو الذي يوضح أصلاً وأولاً قضايا الحياة اللاواعية.

والأمر الخامس هنا هو أنه لا يجوز لتيتورلي أن يرسم حسب اختياره الفردي الخاص به، ويحور ما يسمى المظهر الحقيقي للقضاة. بل ينبغي عليه أن يرسمهم كما رسم قدماء القضاة الكبار. لقد حدد لكل منهم كيف يُسمح له أن يرسم. وهو يحتاج لهذا الأمر إلى إذن سام. وكذلك للرسام

حدّد... ما ينبغي علي أن أرسمه... بهذا أتبع أصحاب الطلب.

هذا يعني أن ماهية ووظيفة منصب القاضي هما معطياتان، محددتان. إنهما مغروستان في نظام العالم، لا يمكن تغييرهما اعتباطياً، بل إنهما سواء. إذ في كل اللوحات يتواجد القضاة في الوضعية نفسها، فقط أشكال الحسم ووسائل العرض ومراتب الموظفين تتتنوع. إن الفنان لا يملك السلطة الكامنة لكي يعدل بنفسه منصب القاضي ويشكله على نحو آخر عما كان عليه دائماً وعما هو. من هنا فإن وظيفة... رسام محكمة... لا يمكن أن يحتاج لها أناس جدد. بل إن هذه الوظيفة تُورّث دائماً... أبي من قبلي كان رسام محكمة... من أجل رسم مختلف مراتب الموظفين وضفت قواعد كثيرة متوعة وسرية قبل كل شيء، بحيث أنها لا تُعرف إطلاقاً خارج أسر معينة. لكن تيتووري وحده يعرف كيف رُسم قدماء القضاة الكبار. ومن هنا فإن مركزه ثابت لا يمكن زعزعته.

ج . معرفة المحكمة

بكلمات أخرى: إن تيتووري مطلع تقليدياً على أسرار النظام القضائي في العالم. لذا فإنه يقدر أن يكون موضع ثقة المحكمة.

يعلن تيتووري ليوزف لك: أبداً لا يمكن صرف المحكمة عن هذا، أي عن قناعتها بأن المدعى عليه هو مذنب دائماً. ولا يوجد تبرئة حقيقة سوى في الأساطير. في حين أن المحامي هولد لم يكن يفعل شيئاً سوى وصف الإجراءات الرسمية والفوضى السائدة فيها وعدم إمكان النهاز إليها، ويعطي... بعض التبيهات الفارغة في تبادل مستمر بين الإذلال والتشجيع، كان تيتووري يقول، بصراحة عارية، الحقيقة الكاملة القاتلة.

على لك أن تواجهها. إن تيتووري يعرف سر المحكمة، يعرف الحكم

نفسه والتبرئة وعدم التبرئة. على العكس منه لا يتواجد المحامي سوى في الفتاء الأمامي للمعرفة، في موقف الذي يريد أن يدافع عن موكليه، والذي كان يشير بالأمل بـ هولد^(*)، التي قد يمكنها أن تقع، على نحو لا يدرك، رغم - أو بسبب - غموض كل الإمكانيات الأرضية للمساعدة، تقع متتجاوزة كل حكم. بهذا بالذات أخضع هولد موكليه وهو يجعلهم بين الخوف والأمل، ويوقعهم في جهل مرؤٍّ، بل وهو يسخر بهذا الجهل. إن هولد وموكليه يجسدون البشرية الثانية في متأهات الوجود، والباحثة مرة هنا ومرة هناك عن نجادات وأمال، وفي هذا ترخص للمتاهة أكثر وتقع فريستها. أما تيتورلي فإنه يمنع جلاء النظرية. إنه يجعل الإنسان حرًا.

بناء على الحديث معه يدرك يوسف ك ذاته، ويدرك أن كل إجراء على الأرض إنما يمنع التبرئة الحقيقة... «لقد أدركَتْ جوهر القضية»، قال الرسام بسرعة. بهذا يصبح ك ناضجاً لإدانة الذات إدانةً حرة وطوعية. غير أن هذا النضج لا يمكن أن يتم فجأة. هذه المحادثة مع تيتورلي يعقبها، على نحو منطقي، القرار بإلغاء توكييل المحامي هولد نهائياً. في النص الجزئي المهم البيت تُفتح من ثم إمكانية خلاص أخرى عن طريق تيتورلي.

د . الفن

يعرف تيتورلي الحقيقة الخفية للمحكمة، ويعرف استحالة التبرئة الحقيقة؛ لكنه يأخذها كشيء معطى، كما ورث قواعد الرسم السرية من والده، ولم يدعها بنفسه. وهذا يعني أنه يرسم، دون أي تحير، يرسم الحياة هكذا كما كانت دائماً، وكما سوف تكون، وذلك دون أي تفاوت أو تحوير من طرفه. بل عندما يرسم بشكل شخصي، دون تكليف من المحكمة،

(*) (رحمه. حظوة. راجع ص ٣١٣).

تسقط أيضاً جميع التمييزات المفروضة من قبل المحكمة على شكل مختلف مراتب الموظفين. إن اللوحات التي يبيعها، أي التي لا تخص المحكمة، تمثل مناظر طبيعة صامتة، مناظر مروج، وكلها تمثل المنظر نفسه تماماً.

يعتقد تيتورلي نفسه أن لوحاته متشابهة وليسوا واحدة. «هنا مقابل لهذه اللوحة»، قال الرسام. ربما كان يراد بها أن تكون مقابلة، لكن لم يكن يلاحظ أقل فرق إزاء اللوحة الأولى. واللوحة الثالثة أيضاً تمثل منظر المروج السابق نفسه تماماً. إن الرسام، الذي يقيم في وسط المحكمة، لا يقدر أن يرسم شيئاً آخر سوى اللوحات الواحدة دائماً. إذ أن الرسم الفني يضيع في معظمها، كما يقرّ الرسام، بسبب مخالطتي المستمرة لرجال المحكمة. من يسرّ القانون الداخلي لكل ما هو أرضي، هذا القانون الذي لا يغفر منه، والجبرية التامة التي لا تسمع بغيرات حقيقة؛ فإنه لا يستطيع أيضاً أن يدع فروقاً فردية.

بل وربما يمكن تفسير لوحة منظر المرج رمزاً للوجود الأرضي بكامله. كانت تعرض شجرتين هزيلتين تتصبان متباينتين عن بعضهما في عشب داكن. وفي الخلفية كان ثمة غروب شمس متعدد الألوان. روعة الألوان غاربة يقف أمامها كائنان منعزلان عن بعضهما في عشب داكن: هذه هي المحكمة التي تحكم على كل ما هو حياة: في مواجهة موت لا يغفر منه، رغم كل روعة الكون، يقف كل إنسان وحيداً في عشب الأرض الداكن. إذ - كما يكتب Kafka في مكان آخر - أن الصفة المميزة بحسب لهذا العالم هي كونه إلى زوال. بهذا المعنى لا تتميز قرون عن اللحظة الراهنة في شيء. إن استمرارية الفناء لا تقدر إذاً أن تقدم عزاءً. والقول إن حياة جديدة إنما تنشأ من الأنفاس، يرهن على دوام الحياة أقل مما يرهن على دوام الموت.

الإيروس والمحكمة

بهذا توضيح، أيضاً، العلاقة بين الرسام والبنات المتعجبات والمحيطات به. إنهن يظهرن جماعات وليس فرادى. إن تيتورلى لا يقدر أن يرى الجنس الأنثوي سوى جماعياً، وفي مزيجه الأبدى من السذاجة والجنسية.

إن التي تتولى قيادة البنات هي حدباء، لم تك تبلغ الثالثة عشرة من عمرها، بنت بائسة، لكنها نهمة إلى الحياة. إنها تصفع شفتيها بلون أحمر بالفرشاة... لم تبتسم، بل نظرت إلى ك بعد نظرة حادة تتم عن دعوة.

لابد ليوزف ك، الفرد المكافح والباحث، والذي سقط من قوى الحياة، أن يبدو منفراً وقبيحاً بالنسبة إلى جميع هؤلاء البنات اللواتي تهفو أنفسهن إلى أن يُقدّن إلى الحياة: رجاء لاترسمه، إنساناً قبيحاً هكذا. إنه جسم غريب في مجرى الحياة الجماعي.

إن الاختلاف بين هؤلاء البنات والنساء الأخريات في المحكمة يُيزِّ بشدة: إن زوجة حاجب المحكمة تزيد أن تخلص من القسر الإيروسي الجماعي. لذا فإنها تحب عيني ك الجميلتين، ونظرته التي تأمل منها إنقاذاً باكتسابها لفرديتها. ومن طرفه يعتقد ك أنه يقدر على الوصول إلى المحكمة عن طريقها. لذا تنشأ علاقة تأثير متبادل. كل منهما يحتاج إلى الآخر، الأمر الذي ينشأ منه طبعاً سوء الفهم المتبادل بينهما.

أما لني، التي كانت ذات وجه مستدير مثل وجه دمية، فإنها تحب جماعياً المدعى عليهم كافة؛ إذ أنها تقف وسط قوى الحياة الإيروسية. إنها لاتجد أعين المدعى عليهم ونظراتهم جميلة، وإنما ترى عجزهم جميلاً. إن القضية المقامة ضدهم تجعلهم جذابين وجميلين بالنسبة إليها. عمداً قدفت صحتناً على الحائط حتى تخرج ك من محادنته مع المحامي ومدير الديوان. وهذا يعني أن حتى دفاعات محاميها تبدو لها في حقيقة الأمر جهوداً لا

فیلهلم امریش
Wilhelm Emrich

1974 - 190V

١٨ - الذات - الواجهة والذات النقية

المحاكمة^(*) هي أثر فني معقد ذو طبقات متعددة. في واقع الأمر يمكن التمييز فيه بين ثلاثة بني، وهكذا يمكن الحديث عن ذنب يوزف كثلاث مرات.

هناك أولاً تعميق للميل المعاطة في الحكم والأنساخ. ثمة نزاع مع سلطة في نفس الشخص الرئيسي، هذا النزاع يعترضه ميل مضاد عميق، ميل للخضوع وعقاب الذات. إن يوزف ك هو مذنب هنا إزاء المحكمة وإزاء أسرته وإزاء أناه النقية. ومثل الأشخاص الرئيسيين السابقين في قصص تخيلات العقاب، يعاقب هنا بسبب التورط الدنوي والتمرد والغرابة عن الذات. هذه الطبقة تسود في فصل الآنسة بورستر وفصل تحقيق أول - لقاء ك مع المحكمة - وفي علاقته بأسرته، التي تقوم بدور أساسي في الرواية.

في طبقة ثانية تقترب المحاكمة كل الاقتراب من قصة في مستعمرة العقاب. هنا يجمع ك شخصياتي الضابط والرحلة في شخصية واحدة. هنا

(*) هذه المقالة هي مطلع دراسة تقع في ٢١٦ صفحة عن المحاكمة ضمن كتاب يقع في ٦٤٠ صفحة من القطع الكبير بعنوان: «فرانز كافكا/أمساة وسخرية». وفي نهاية المقالة ثمة بضعة استشهادات من قسم الدراسة الأخير (أ.و)

لا تكون المحكمة على حق، أو بالأحرى أن تمرد ك ومقاؤته مبرران. غير أنه يصبح مذنباً لأنه يخون تمرده ويتخلّى عن نفسه. إنه يتحوّل إلى كلب. يصبح مذنباً بحق كرامته الإنسانية وبحق أخوته البشر. هذه الطبقة تتشكّل، قبل كل شيء، في فصول الجلاد، التاجر بلوك، في الكاتدرائية.

وترتبط الطبقة الثالثة ارتباطاً وثيقاً بقصة طبيب ريفي. هنا يتخذ حدثاً الآنسة بورستن ¹ نيتها لي ² بية. ك يصبح مذنباً بحق الفتاة التي تعيش في جواره، وبحق الحياة التي تغريه والتي يخونها. هنا يكون ذنبه عكس ذنب جيورج بندمان. لا يُعدم لأنّه عقد خطوبته، وإنما لأنّه لم يتأتّ له إقامة علاقة إنسانية. بهذا يصبح في نهاية المطاف مذنباً بحق جسمه، بحق واجهه البيولوجي للحفاظ على الذات، بحق الموت.

والطبقات الثلاث منسوجة، طبعاً، مع بعضها بعضاً بمهارة بالغة. ولكن فقط عندما تميّزها عن بعضها بعضاً، يمكننا أن نصل إلى التقدير الكامل للتوتر وتتنوع المعانٍ اللذين يجعلان هذه الرواية واحدةً من أكثر الآثار الفنية في الأدب العالمي فرادةً وأخذناً للنفس.

* * *

في بنيتها الأساسية تتطلب المحاكمة تمام المطابقة مع تخيلات العقاب التي نشأت في عام ١٩١٢: الحكم وخاصة الانساح. وكيل قانوني في مصرف، يوزف ك، ناجح في عمله، عازب، يداهمه حدث مفاجئ خطير النتائج. محكمة مجهرولة بالنسبة إليه ولا علاقة لها بالمحاكم المألوفة، تعاقله. لكنه يستطيع الاستمرار في مزاولة مهنته. بعد عام يُعدم، دون أن يعلم ما هو ذنبه وما هو سبب الاتهام.

مثل اننساخ غريغور سامسا تداهم المحاكمة يوزف ك في لحظة الاستيقاظ، ويقبل أن يتاح له صدّ الهجوم بوعيه الكامل في النهار. في مقطع

حذفه كافكا بسبب وضوحه يدع بوزف ك يقول إن لحظة الاستيقاظ هي اللحظة الأكثر خطورة في اليوم. وإذا ما اجتازها المرء دون أن يجذب من مكانه إلى مكان ما، فإنه في وسعه أن يكون مرتاحاً طوال اليوم. وفي مقطع غير محدود يقول بوزف ك إن مثل هذا الاعتقال لا يمكن قط أن يحدث له في المصرف، لأنه يكون هناك دائماً مهياً. إن قدر الاعتقال يأتي إذاً من إرادة خافية عليه تخالف إرادته لإثبات وجوده ونجاته. هذه الإرادة تدفعه إلى الرهد والابتعاد عن العالم، وذلك مثلما يدفع اتحاد الأب والصديق جيورج بندمان في الحكم، وكما يدفع الانساخ غريغور سامسا، وكما تدفع آلة العقاب الحكم علىه في مستعمرة العقاب في هذا الاتجاه، قبل أن يعدموا. إن أول ما يحدث لبوزف ك هو أن يتزعز منه طعام فطوره وما يملكته: رداء نومه الأنثيق وملابسها الداخلية الجميلة. بهذا تبدأ إشارة قاطعة نحو الرهد، كما يلقى المحكوم عليهم وهم على آلة العقاب. هذا الهجوم يصيب أيضاً الحسية العادية وال حاجات المألوفة والحس الموطنى للملوكية والاعتبار.

على المدعى عليه أن يشغل كل أوقات فراغه، في الأيام والأحد، في محاكمته. بدلاً من التسلية والترفيه، عليه، إذاً ما أخذ المحاكمة مأخذ الحد، أن يركز نفسه على جوهره ولبابه، على أنه، إذ ينبغي عليه أن يدافع عن نفسه ضد ادعاء يتعلق بحياته بكلامها. وإذا ما أخذ الادعاء مأخذ الجد، فإن المحاكمة تعني حياة تهم بصرامة وبلا هواة بتمحيص الذات والخلاص، بحيث لا يتبقى لحياة الطيش والمحبون وقت ولا طاقة. لكي يقوم بوزف ك ب الدفاع على نحو صحيح، يتوجب عليه أن يبني شكل وجود الأنانية. في هذه الحالة تحتاج المحاكمة إلى فحص دقيق للذكريات، مثلما يتوجب على المرء أن يفعل لدى تحليل أعمق، أو كما يرفعه القديس

أوغسطين إلى الله. كلا المثالين صحيحان، ويشيران إلى تكليف المدعى عليه بالتحول جذرياً وكلبًا نحو داخله. بالذات لأن مضمون صحيفة الاتهام يظل مجهولاً بالنسبة إلى المدعى عليه، بحيث أنه يمكن للادعاء أن يتطرق بكل شيء، بكل حياة المدعى عليه، فإنه يرغمه على أن يتعرف ويعرض ويراجع حياته في أدق أعمالها وأحداثها.

هذا هو الالتماس الذي يخطط يوزف لككتابته. إنه عرض شامل لحياته، سيرة وجوده الباطني. مثل ذلك فعل كل من أوغسطين وباسكار وكبير كيجارد... إن المحاكمة هي مسألة تشغل كامل الوجود. ومثلها انتظار الرجل من الريف أمام القانون، وتجربة جوع الكلب في قصة أبعاث كلب، وجوع فنان في قصة فنان جوع.

إنأخذ المحاكمة مأخذ الجد يعني، على كل حال، السير على طريق الأنـا النـقـية، التـوـحـد مع الذـاتـ، الوـحدـانـيـةـ، الـلـاحـسـيـةـ، الرـهـدـ، رـفـضـ كلـ ماـ يـلـهـيـ، وإـهـمـالـ كلـ المـطـامـعـ الـبـيـوـمـيـةـ، والتـخـلـيـ عنـ كلـ منـصبـ فيـ العـالـمـ. إنـ كتابـةـ مـذـكـرـةـ الـالـتـمـاسـ، الـعـرـيـضـةـ، لاـ تـرـكـ لأـيـ شـيـءـ آخـرـ وـقـتاـ ولاـ طـاقـةـ. منـ شـأنـ يـوزـفـ كـ أـنـ يـضـطـرـ إـلـىـ الـاسـتـغـنـاءـ عنـ النـومـ وـالـعـمـلـ فيـ المـذـكـرـةـ طـوـالـ الـلـيـالـيـ، سـاعـيـاـ إـلـىـ إـدـرـاكـ وـجـودـهـ. إنـ الـالـتـمـاسـ فيـ المـحـاكـمـةـ يـطـابـقـ فعلـ الكـتـابـةـ لـدـىـ كـافـكـاـ. لـقـدـ تـخـلـىـ عنـ كـلـ لـهـوـ وـتـسـلـيـةـ وـعـنـ الـوـجـودـ الـطـبـيعـيـ كـمـاـ يـتـحـقـقـ فـيـ الزـوـاجـ، وـكـرـسـ الـلـيـالـيـ وـأـيـامـ الـعـطـلـ لـلـكـتـابـةـ. كـتـابـةـ تـرمـيـ إـلـىـ استـرـجـاعـ الـحـيـاةـ يـكـامـلـهـاـ فـيـ أـدـقـ أـعـمـالـهـ وأـحـدـاثـهـ، وـعـرـضـهـاـ وـمـرـاجـعـهـاـ منـ كـلـ الـتوـاحـيـ، الـأـمـرـ الـذـيـ كـانـ يـوزـفـ كـ يـبـغـيـ تـحـقـيقـهـ منـ خـلـالـ مـذـكـرـةـ الـالـتـمـاسـ.

ليس يوزف لك على استعداد لتنفيذ خطته. إنه لا يستطيع إقناع نفسه بتقديم التضحيات التي يتطلبها «التحول» إلى الأنـا النـقـيةـ.

وكم هو محزن كان مثل هذا العمل فضلاً عن ذلك. ربما كان يصلح لأن يشغل، ذات مرة بعد الإحالة إلى التقاعد، العقل الذي أصبح خرفاً ويساعده في قضاء الأيام الطوال. أما الآن، حيث كان كـ يحتاج إلى كل الأفكار من أجل عمله، وحيث كانت كل ساعة، إذ كان ما زال في طريق الصعود والترقي وكان يعني تهديداً حتى بالنسبة إلى نائب المدير، قضي بأقصى سرعة، وحيث كان يريد أن يتمتع بالأمسيات والليالي القصيرة وهو شاب، الآن عليه أن يبدأ بتأليف هذه العريضة. ومرة أخرى انهى تفكيره إلى الشكوى.

هنا يتبيّن بكل وضوح لماذا سيخسر كـ محاكمته بالاعدام الوشيك. إن من الحال عليه اختيار أحد الميلين الذي يتمزق في صراعهما. مثل فاوست يتعلق بالعالم، بالحياة التي يريد أن يقبض عليها بعشرين يد؛ ومثل فاوست يسعى إلى الأعماق اللانهائية المفعمة بالأسرار، هذه الأعماق التي تفتحها له المحاكمة. لكنه، على خلاف فاوست، لا يقدر على بلوغ أي من المجالين. إنه منقسم كلياً، وبلا أمل، بين الاستمتاع بالحياة والتوق إلى النقاء. هذا التوق دعاه منذ البداية يختار المحاكمة. غير أنه يرفض التصرف طبقاً لنتيجة هذا الخيار المنطقية والضرورية. لقد قبل تحدي المحكمة، لكنه لا يستطيع السير على الطريق الوحيد الجدي. إنه لا يريد أن يخسر العالم من أجل المحاكمة. وهكذا سوف يخسر في النهاية كل من المحاكمة والعالم.

تُظهر مذكرة الالتماس بصفتها تعبيراً وجودياً عن الأنوثانية تشابهاً كبيراً مع الدين. كما أنه يمكن مقارنتها مع تحليل نفسي أو مع نوع الاستقصاء الذاتي الشعري الذي كان كافكا يقضي لياليه معه. لكن كل هذا هو مجرد تشابهات، ولا يجب الخلط بينه وبين المسألة نفسها. هذه التشابهات تبيّن مجال التداعيات الواسع الذي تقدمه رواية كافكا...

الادعاء يوجه إلى يوزف ك من الأسفل؟ أفراد من الفئات الدنيا ينقلونه إليه. رجال بسطاء من الشعب هم حراسه الذين يعتقلونه. ثلاثة من مرؤوسيه في المصرف الذي يتقدّم فيه منصباً كبيراً، هم، بطريقه مبهمة، شهدوا اعتقاله. كذلك على طريقه إلى التحقيق الأول يلتقيهم، وذلك دون أن يجري تقديم إيضاح لظهورهم الغريب.

ومن الغريب أنه التقى، رغم أنه لم يكن يملّك وقتاً كثيراً للنظر حوله، بالمستخدمين الثلاثة ذوي العلاقة بمسأله، رابنشتاينر وكوليش وكاميير. كان الاثنين الأولان يركبان حافلة كهربائية تقطع طريق ك، أما كاميير فقد كان يجلس في شرفة مقهى، وقد انحنى بفضول فوق السور عندما مرّ ك. ولاشك أن الجميع تابعوه بأبصارهم وتعجبوا كيف كان رئيسهم يجري؛ كان ثمة عناد ما قدّم مع ك من أن يستقل حافلة.

إلى المحكمة التي تدعى عليه، يجري يوزف ك تحت بصر أولئك الذين يستطاع أن يأمرهم في المكتب. وهو يجري! إنه يمكّنهم، ويمكن كل الناس، من أن يروه وهو في وضع مذلٍ. لكن هذه الأفكار تمسّ وعيه محظوظ، تظهر على نحو عابر، ثم سرعان ما تنسى ثانية. لكن في اللحظة، في الوضع الفيزيائي، يبلغ الكامن في هذه الأفكار تعبيراً مجسماً واضحاً. إن الكامن يتحول هنا إلى حدث.

في فصل سفرة إلى الأم يتجلّى بكل وضوح حقد يوزف ك العميق على هؤلاء الأشخاص التابعين، كما جاء في مقطع طويل محدود:

... إذ أن ك يمكّن كوليش وليس كوليش وحده، وإنما رابنشتاينر وكاميير. وهو يعتقد أنه كان دائماً يمكّنهم. صحيح أن ظهورهم في حجرة الآنسة بورستر لفت نظره إليهم أول ما لفت، لكن حقده هو أكثر قدماً. وفي الفترة الأخيرة بات ك يعاني تقريراً من هذا الحقد، إذ

ليس في مقدوره أن يشبعه؛ إنه لا سبيل إليهم. إنهم الآن أدنى الموظفين، وكلهم ضئيلو القيمة، ولن يتقدموا، إلا تحت ضغط سنوات الخدمة، وهنا كذلك بطيء أكثر من أي شخص آخر، وبالتالي فإنه من الحال تقريراً، وضع عائق في طريقهم؛ وما من عائق تضنه يد غريبة، يمكنه أن يكون كبيراً كبر غباء كوليș وحمل رابنشتاين وتواضع كاميير، هذا التواضع المقيت المتذلل. والأمر الوحيد الذي يمكن للمرء أن يفعله ضد هم هو العمل على تسريحهم، بل إن من شأن هذا أن يكون من السهل تحقيقه، إذ من شأن بعض كلمات منك أمام المدير أن تكتفي، غير أنك تورع عن ذلك. وقد يكون خليقاً أن يفعل ذلك، إذا كان من شأن نائب المدير، الذي يؤثر عليناً أو سرّاً كل ما يكرهه لك، أن يشفع لهم، لكن من عجب أن نائب المدير يعمل هنا استثناء، ويريد ما يريده لك.

إن نائب المدير، القطب المناقض للمحكمة، الأنأ - الواجهة، أنا الصفات والأعمال الجارية، الأنأ التي لا تعرف شيئاً عن المحاكمة، يتفق هنا معك. في حقد البورجوازيين الطموحين على المتخلفين، ذوي القيمة الأدنى، الذين يمثلون له اتهاماً أبداً، ويضعون، بعيائهم وحملهم وتواضعهم، كافة قيمه وفضائله البورجوازية، مثل الشطارة والخذلان والطموح، موضع المساءلة؛ في هذا الحقد يوافق لك نائب المدير كل المواقف. غير أنك منقسم على نفسه، فهو بالإضافة إلى حقده على المستخدمين الصغار، فإنه لا يطبق كذلك نائب المدير الناجح.

من هذا الموضع نرى بوضوح كبير أنك منقسم على نفسه كل الانقسام. إن القسم من أناء الذي يكره التابعين ضئيلي القيمة، يجري اتهامه من قبل هؤلاء. إذ أن هؤلاء الثلاثة المسؤولين المكرهين هم الذين يأتون لاعتقاله وهو مازال في رداء النوم. في الحال الشخصي كلياً، الخصوصي،

غير الرسمي، يمثلون له أكبر تهديد، ويقومون بتحديه، قبل كل شيء، في ميدان الجنس. في حجرة الآنسة بورستن، الفتاة التي يبدأ يوزف ك الآن الاهتمام بها، يجري استجوابه، والثلاثة ضئيلو القيمة يثيرون أكبر فوضى في هذه الحجرة، ويدفعون ك إلى الاعتذار لدى الآنسة بورستن. فيما يكره يوزف ك المؤوسين، يكون متفقاً مع نائب المدير. لكنه بقسم آخر من ذاته يكره من طرف آخر نائب المدير الطموح الشاطر، الذي يجسم كل الفضائل البورجوازية المتعلقة بالترقى في العمل، والذي هو كل ما لا يستطيع ك أن يكون سوى نصفه. إن جزء آناه الذي يكره نائب المدير، يقف إزاء الجزء الآخر من آناه الذي يتفق مع نائب المدير، والذي ينظر إلى المؤوسين من على، موقفاً اتهاماً.

في مجال الجنس قبل كل شيء يجري التعبير عن النزاع بين الذات التالية والذات - الواجهة، بين الرهد بالعالم والسعى إلى التفوذ وإثبات الوجود. بمثلث يوزف ك والنساء والمحكمة تمثل المحاكمة أولاً شكلاً مميزاً وتتوياً ناجحاً على البنية الأساسية لتخيلات العقاب التي أبدعها كافكا في عام ١٩١٢ ...

* * *

في قصص الحكم والوقاد والأنساخ يُضحي من أجل شيء خارج الذات، من أجل آخرين، أو من أجل مبدأ إحسان وبر. أما يوزف ك الحال (في قصة حلم)، فإنه يضحي بنفسه من أجل ذاته التالية، من أجل إضاعة اسمه الساطعة. يُضحي بنفسه من أجل اسمه.

إن الاسم هو ما يتبقى له بعد استبعاد كل ما يشاركه الجمهور. هذا اللباب، هذا الجوهر المجرد، هو الذات في نقاءها المطهر. على هذه الذات المجردة أن تصيء الآن العالم. لن تكون مرتبطة بالناس، مثل الكلب يوزف

ك. بل إنها لا تفكّر بالناس، إنها ترقد غارقة في نفسها بوجوده. هكذا يرقد رابان على سريره، وهكذا يرقد الحيوان في قصة البناء، عندما يظهر العدو وهو يفتح. ومثلاً يضحي يوزف ك بحياته، كي يضيء كإسم؛ هكذا يتزع رابان شكله البشري عن ذاته، كي تستطيع ذاته الحقيقية، إرادته هي أعمق وأعماق، أن ترقد متحركة في الحجرة الباردة مثل يوزف ك في القبر البارد.

في حلم يبيّن الفن ليوزف ك الطريق إلى قبره...

في حلم يملك ك علاقة إيجابية وجوهرية بالفن. إنه ينتحب، لأن الفنان لا يستطيع مواصلة الكتابة وإناء أثره الفني. إن تحقيق وجوده مرتب بالفن... إن الفن هو، بالنسبة إليه، فَلَّا وتحقيق ذات...

في حلم يعيش يوزف ك وحدة كاملة مع ذاته. إنه يفهم الفنان...

إن دفن يوزف ك معدّ مثل إعداد تمثيلية على خشبة مسرح. ويشير المسرحي إلى ما يشرع يوزف ك نفسه في فهمه تدريجياً أنه قدره...

من يكون حريصاً على سمعته لدى الآخرين، لا يملك قيمـاً ولا إرادة شخصية. في حلم ليس رأي الآخرين، وإنما الجوهر النقـي هو الذي يضوـي فوق الشاهدة في خط جميل. إن الاسم هو هنا إرادة ك الأخص، صبوـته الكـبرى إلى أن يجري التـبشير به أثـراً فـنيـاً صافـياً.

فالتر سوكـل

Walter Sokel

١٩٧٦

١٩ - الخجل الأخير

عشية عيد ميلاده الواحد والثلاثين يتنظر يوزف ك نهاية محكمته. لقد مضى عام كامل منذ اعتقاله. إن الدائرة تغلق، و ك على استعداد لأن يدعها تغلق. آنذاك أصرّ الحارسان على أن يرتدي سترة سوداء، ونقذ أمّهما رغم اعتراضه: لكن ليست هذه الجلسة الرئيسية بعد. أما الآن فقد ارتدى طوعاً ملابس سوداء. وبالإضافة إلى الملابس الاحتفالية، يلبس قفازاً جديداً شدّ على الأصابع جداً، لا يذكر بتشريف ضيف كبير، وإنما بتحضيرات حزاج لعملية جراحية. يبدو في الحق جاهزاً لكل شيء، ويحافظ، طوال العمل بكلمه، على ضبط نفس إنسان هياً نفسه لكل شيء.

أنتما إذاً معيتان لي؟ يسأل الرجلين اللذين يحضران على غير موعد. إن كلمة إذاً هذه تأتي من مزيج غريب من الإنهاك والإمتثال والاشمئزاز الذي يملأه الآن. ويظل خافياً في ما إذا كان هذا الاشمئزاز موجهاً ضد مرتبة الرجلين الدنيا أم ضد ملابسهما وحركتاهما. إلا أنها نعلم أن سمات الدمى والهزلية إنما تملؤه بعدم ارتياح يبلغ حد الاشمئزاز. مثلين ثانويين كبيري السن يبعث المرء في سيلبي. وهنا لا يباح بهدف الإرسال. هل حضرا كي يقوداه إلى الجلسة الرئيسية، أم إلى قتله، أم إلى تحريره؟ مازال

لا يعرف الأمر. لعلهما مفنياً أوبرا، فكر وهو ينظر إلى لغدهما الضخم، علماً أن اللغة التي تعطي هذين الشخصين لغداً واحداً (بصيغة المفرد) تقوم بقفزة عفريتية. ويسأل: في أي مسرح تغلان؟ الأمر الذي يضع الرجلين في حالة من الدهشة والملجلجة.

من طبيعة بنى كافكا القصصية أنه لا يمكنها أن تنتهي إلا في شكل رهيف من أشكال المسرحي. فإذا لم يكن بالنسبة إليه أن توجد نهاية مطلقة، أو يوجد هلاك مطلق أو خلاص مطلق، وإنما سلسلة لانهائية من لحظات القلق واليأس المفعمة والناجمة عن فقدان مثل هذه التحديدات، فإنه ينبغي عليه أن يلتجأ إلى وسائل مناقضة لأسلوبه أياً مناقضة. فحين يعيي الوصول إلى خاتمة قصص هي قصص لانهائية بطبيعتها، فإنه لا يستطيع شيئاً آخر سوى اللجوء إلى الفناء والرثي التنكري.

بغاية وضع كافكا في اعتباره ثلاثة حلول ختامية متعددة لرواية المحاكمة. قصة حلم (ص ٢٥٨ - ٢٦٠ من هذه الطبعة. ١.و) تدع يوزف ك يصبح شاهداً رئيسياً على دفنه ومشاركاً في هذا الدفن. رجلان، يذكران بالرجلين اللذين حضرا في الفصل الأخير لاقتاده، يحملان بينهما شاهدةً في الهواء، بدأ فنان، تذكر رثاشه وغرابته بيبيورلي، يكتب اسم ك عليها. هذه الدعوة تجذب ك بصرامة رقيقة إلى الأعمق غير النفاذه لقبره، بينما انطلق في الأعلى اسمه بزخارف ضخمة فوق الحجر. مبهجاً من هذا المنظر أفق.

البيت، أحد الفصول غير المكتملة، يبحث عن الحل في الخيالي والرؤى (ص ٢٥٣ - ٢٥٠ من هذه الطبعة. ١.و).

هنا صادق ك الرسام. في حلم يقظة يتوصل إلى أن يقوم الرسام بمرافقته إلى المحكمة. في وصفه للمحكمة يلتجأ كافكا إلى رموز الماء. لكن

في حين أن الأمواج كانت تهدد بابتلاعه في نهاية زيارته لمكاتب المحكمة الخالية، فإن الأمواج تبدو هنا أنها تحمله فوق قممها: في الحال كانا في مبنى المحكمة، وراحَا يسرعان الخطى على الدرج، ولكن ليس صعوداً فحسب، وإنما ارتفاعاً وانخفاضاً، دون بذل أي مجهد، وبسهولة مثل قارب خفيف في الماء. وبالذات، إذ لاحظ لك قدميه وخلص إلى أن نوع الحركة الجميل هذا لا يمكن بعد الآن أن يخص حياته السابقة الدنيا، الآن بالذات، فوق رأسه الذي خفضه حدث التحول. والضوء الذي كان يسقط حتى الآن من الوراء، تبدل وتتدفق باهراً على حين غرة من الأمام. هذا التحول المفاجئ للضوء لا يمكنه أن يعني شيئاً آخر سوى تحول في مغزى المحكمة. لقد حقق لك الاختراق إلى القانون. الأعجبية وقعت. وعلى وجه المدعى عليه تنحال هالة الغفران ضوءاً ساطعاً.

مهما كانت لغة الصور في هاتين الخامتين قوية الأثر، فإنها تظل لغة حلم رمزية. وقد استغنى كافكا عنها عند وضع خاتمة الرواية. واختار «فوق الواقع» ذلك، الواقع الإضافي، المركب من عناصر الواقع، هذه العناصر التي حاول أن يحافظ عليها أثناء مجرى الرواية كذلك. (لو اتخد خياراً آخر، لأصبح في خطر أن يرى المحكمة بكلاملها ثفسّر حلمَ به بوزف لك). بكل معنى للكلمة توجب عليه أن يقوم بإخراج عملية إعدام لك، بأن استعار لوازم عالم غريب عنه، هو التمثيل المسرحي. لكن اتباعه هذه الطريقة يعني أنه بات طرفاً في محاكمتك. إن محكمة يشابه جلادوها مغني أوبرا ويعتبران أعضاء بلهاء في مجموعة مسرحية، تحكم على نفسها بنفسها. والأش茅زار الذي لابد لإعدام أن يشيره، يزداد لعدم اختصاص الجنادين، ويتحول إلى كابوس عليه أن يدع القاريء يترك الرواية من يده. لقد أتى هذا، المأموران لاغتيال لك وليس لتنفيذ حكم. إن المحكمة التي بعثت بهما،

ُفضح من جديد من قبل الوسطاء الذين أرسلتهم. والقضاء الذي يحتاج إلى المسرح في أكثر أشكاله ابتداؤاً، لكي يعرض نفسه في عمله الحاسم، لا يمكنه أن يكون بريعاً من الذنب الذي يقتل ضحيته من أجله.

لذا فإنك يتقرّز من بدانة زائريه وصمتهم، ويُتقرّز قبل كل شيء من نظافة وجههما. ورأى المرء بمعنى الكلمة اليد المنظفة التي مسحت زوايا أعينهما وحكت شفتيهما العلوتين وتجاعيد الذقن. إذ خلف هذه النظافة يقع كل وسخ ووجه موظفي المحكمة، وخلف اكتنار وجهيهما يتوارى ارجاف العنة للمحامي هولد، وابتسامة الرسام تيتورلي الخالعة. ومثلاً لم يقم ضوء القانون سوى بتعزيق الظلمة التي كانت تحيط بك، فإن نظافة الرجلين تزيد فحسب الوسخ الذي دخلها منه إلى مجال بصرك. في جلاديهما تبدو المحكمة مغسلة، لكنها لا تبدو نظيفة. وكـ، هذا الرجل من الريف، تـيرـ الآن ما يـكـفي من ماهية المحكمة وفسادها، كـي يـدرـكـ، فـي تـناـقـضـ هـذـاـ الوـسـخـ المـنـظـفـ، وـظـيـفـةـ وـمـقـصـدـ جـلـادـيـهـ. يـتـوقـفـ وـيـنـادـيـ: لـمـاـذاـ أـرـسـلـكـمـ الـمـرـءـ أـنـمـاـ بـالـذـاتـ! إـنـ ماـ يـقاـومـهـ كـ لـيـسـ التـهـاـيـةـ، وـلـمـاـ المـرـيـعـ المـخـجـلـ منـ النـظـيفـ وـالـلـانـظـيفـ الـذـيـ تـمـتـ فـيـ التـهـاـيـةـ وـيـجـبـ أـنـ تـتـمـ، وـذـكـ لأنـ هـذـاـ التـنـاقـضـ إـنـمـاـ يـعـتـبرـ عـنـ طـبـيـعـةـ الـمـحـكـمـةـ.

غير أنكـ، إذ أـدـركـ فيـ هـذـاـ التـنـاقـضـ الـمـحـكـمـةـ وـصـرـامـتـهاـ المـقـبـضـةـ، يـقرـرـ أنـ يـتـخلـىـ طـوـعاـًـ عـنـ كـلـ مـقاـومـةـ. إـنـهـ يـسـتـغـنيـ عـنـ الـحـوارـ وـمـحاـولـةـ الـإـقـاعـ وـعـنـ الـإـصـرـارـ عـلـىـ بـرـاءـتـهـ. وـيـقـابـلـ مـيلـودـرـاـمـ إـعـدـامـهـ بـيـسـاطـةـ مـتـاهـيـةـ.

قبل مغادرته البيتـ، فيـ بـداـيـةـ الـفـصـلـ، ذـهـبـ مـرـةـ أـخـرىـ إـلـىـ النـافـذـةـ. فـيـ نـافـذـةـ مـضـيـةـ عـلـىـ الـجـانـبـ الـآـخـرـ لـلـشـارـعـ كـانـ طـفـلـانـ صـغـيرـانـ وـرـاءـ حاجـزـ حـديـديـ يـلـعبـانـ معـ بـعـضـهـمـاـ وـيـتـلـمـسـانـ بـعـضـهـمـاـ بـأـيـدـيهـمـ الصـغـيرـةـ، غـيرـ قـادـرـينـ بـعـدـ عـلـىـ التـحـركـ مـنـ مـكـانـهـمـاـ. إـنـهـمـاـ يـشـكـلـانـ الـمـقـابـلـ التـامـ

للعجزين اللذين كانوا قد تابعا من نافذتهما حدث اعتقاله. لكن ذكرى اعتقاله باتت بعيدة وراءه مثل بعد هذا المشهد الذي يمتد فيه مخلوقان غير ناضجين، غير قادرين على الحركة، أيديهما عبئاً إلى بعضهما.

الآنسة بورستن تظهر ثم تمضي. ولا يقدر أن يتحقق في ما إذا كان هذا الظهور حقيقة أم مجرد ذكرى الليلة الخائفة بعد اعتقاله. أما إذا كانت المحكمة قد أخرجتها عن طريق السحر كي تثير في نفسه مشاعر الذنب القديمة، فإن هذه الشعوذة لا تتحقق غايتها لديه. صحيح أنه كان قبل عام قد عمل منها وعاء لخوفه وأهانها مثلاً يصب الماء غسالة في دلو. أما الآن فإن ك على استعداد لتحمل المسؤولية عن نفسه على وجه رجولي وكامل. الآن يستطيع ك أن يكون في غنى عنها. إنه يدعها تغيب عن نظره.

منحشرًا بين جلاديه يتحرك مواصلاً السير وقد انتقل إليه نفسه شيء من الفرحة التي سببها بهذا للرجلين. إنه يستغنى عن الفرصة السانحة للتخلص من الرجلين والاستجاد بشرطٍ اقترب منهم. ليس هذا فحسب، وإنما هو نفسه الذي يسحب مرافقه معه، إلى درجة تتلاحم معها أنفاسهما. لقد تسلّم القيادة لأول مرة، وعقد العزم على ألا يدعها تفلت منه بعد الآن.

ما له دلالة أن إعدام ك إنما يجري على مشارف المدينة، بعيداً عن المكتب وعن المحكمة، وقريباً من ذلك الريف المفتوح، الذي يتواجد فيه الرجل من الريف عند موته. فوق رأس ك ينالو الحلاقان السكين ببعضهما بعضاً: وعرف ك الآن تمام المعرفة أنه كان من واجبه أن يمسك بنفسه السكين حين انتقلت من يد إلى أخرى هائمة فوقه، ويطعن نفسه بها. لكنه لم يفعل ذلك... على نحو كامل لم يستطع أن يثبت جدارته، ولا يتولى عن السلطات كل عمل، وكانت مسؤولية هذا الخطأ الأخير تقع على عاتق الذي كان قد حرمه من بقية الطاقة الالزمة لذلك. لأن بوزف

ك وجد في نهاية المطاف مسؤوليته عن نفسه، فإنه يستطيع أن يسبغ غور اللعبة التي لعبت معه منذ اعتقاله. إن القانون يتضرر تضحيه تبدو له انتحراراً وتهرباً^(*). بالنسبة إلى المحكمة لابد أن تبدو التضحية واجباً واحتياراً، وعدم التضحية خطأ، لا بل ذنبًا، يجد فيه كل ذنب سابق له تبريراً له. غير أن يوزف ك، بمسؤوليته عن نفسه التي اكتسبها من جديد، يلقي المسؤولية عن هذا الخطأ الأخير أمام عرش قاضيه الأعلى. في رفض يوزف ك أن يقتل نفسه يجري التعبير عن الحفاظ على الذات لإنسان يتصرّ بقوه ضعفه على خصم متّفق، وذلك في اللحظة الأخيرة من الصراع.

إنه يموت على التخوم بين الورع الرائد والتشكّل الرائد. وطوال ما يقدر على التفكير والكلام، تروح كلماته تومض باضطراب بين هذين الطرفين. إذ أن اللغة لا تصل إلى هذه التخوم، ولا تقدر أكثر من الإشارة إلى الاتجاه، وذلك بأن تطرح أسئلة. فقط الكلمة المنطوقة على معان متعددة تقدر على رفع إطار الصمت عمّا لا يمكن التعبير عنه. وبقية الرواية هي أسئلة وكلمات تحتمل معان متعددة.

تخطر الأسئلة ليوزف ك حين تقع نظراته على الطابق الأخير المتاخم لمكان الإعدام. وكما ييرق ضوء، انفوج هناك مصراعاً نافذاً، وإنسان، ضعيف ونحيل في البعد والعلو، انحنى دفعة واحدة بعيداً إلى الأمام، ومدّ ذراعيه إلى أبعد. من كان؟ ويتوالى سرد بحق وتحقيق لأسئلة تفضي من الفرد (إنساناً طيباً؟ واحداً شارك؟) إلى الجموع (هل كانوا جميعهم؟)، وتتصبّ أخيراً في الصرخة: أين كانت المحكمة الموقرة التي لم يكن قد

(*) ان التوازي بين هذه الخاتمة وخاتمة الحكم جلي. كما أن ما يلفت النظر هو طبعاً الفرق بين جيورج بندمان، الذي يخضع للسلطة، ويوزف ك، الذي يحاول، على الأقل في اللحظات الأخيرة من حياته، الرجوع عن هذا الخضوع.

وصل إليها فقط؟ فقط في شكل اللغة البشرية الأكثر غموضاً، في شكل سؤال ذي معندين، أمكن الإمساك بإمكانية التفكير بأن هناك المحكمة نفسها؛ ضعيفة ونحيلة في البعد، تمد أيديها إلى الإنسان، الذي عليها أن تقتله، لأنها لا تقدر لا أن تحضره ولا أن تبرئه. من لعنة الرموز الخفية التي يتقنها كافكا تحصل إمكانية هذا التفسير على قسط من التأييد. إن مصراعي النافذة اللذين يرقدان هناك مثل ضوء، يذكران طوال لحظة حافظة بالبريق الذي يتدفق من باب القانون لا ينطفئ، وبالبريق الباهر الذي يصيّب وجهك في حلمه بالخلاص. ومهما كان الأمر، حين يصل يوزف لك إلى نهاية أسئلته، يقوم بحركة: رفع يديه وفرج ما بين أصابعه.

في هذه الحركة تتسلق الأسئلة إلى ثنائية معنى. إن الأصابع المنفرجة هي، من طرف، إشارة الدفاع، تعبير عن التراجع والصدّ، وتتمثل رمزاً للدفاع عن النفس، رمزاً متنعاً إلى أقصى حد. من طرف آخر يقوم المبارك أيضاً بفرج أصابعه، حين يدّ يديه للتقديس. هكذا يقدر يوزف لك هنا أن يقبل الحكم ويوافق عليه، ويرحب بالموت من أيدي المحكمة.

وثمة ثنائية معنى باللغة تكمن كذلك في الجملة الأخيرة للرواية. «مثل كلب!» قال: كان الأمر وكان الخجل يقى بعده. خجل من، وخجل مم؟ الخجل من أنه على لك أن ينفق مثل كلب، أو من أن المحكمة كانت تحتاج إلى أن تقتله مثل كلب؟ خجل الإنسان الذي خسر دعواه، أم خجل المحكمة التي فاتها أن تثبت ذنبه؟ التي دعته يتعلم المسؤولية لكي تثبت استهتارها؟ هل هو الخجل الأولى للإنسان من عريه أمام القانون؟ (كذلك جسم لك يقع نصف عار تحت جلاديه). أم أنه خجل يوزف لك «من أجل» المحكمة، هذا الخجل الذي كان قد استشعره في مرسوم تيمورلي، حين أدرك أنه لا وجود لتبرئة حقيقة؟ خجل من أجل سلطة تلجم إلى الجريمة، لأن

الإنسان برفض القيام بالانتخار؟ من أحل عدالة إلهها هي إلهه الصيد؟ هل الخجل الذي يبقى بعد ك هو خجل الإنسان من أجل انعدام رحمة القانون وكون البريق، الذي مازال يُقدّس بصفته إلهياً، بريقاً ميتاً؟

إننا لانعرف الأمر، وذلك لأن كافكا نفسه لم يكن يعرفه. مثله مثل المحكمة لا يقدر أكثر من أن يدعى على. منه مثل ك لا يستطيع أن يرد على الداعي إلا بدعوى مصادرة. إن قوة الاقناع تطل ممتنعه عليه. في هذا الموضع يصبح كافكا الرجل من الريف، والقارئ معه. هدا يثبت كافكا فظاعة المحكمة، كما يثبت عظمة المحكمة الهائلة التي كان قد رفع دعواه عليها.

هاینریخ پولیتسر

١٩٧٨

Heinz Politzer

٢٠ - أحداث خارجية وداخلية

يبدو أن كافكا يغوي في كل حملة، في مجموع آثاره، أن يشير إلى أنه يرى أن اللغة قاصرة عن أن يخلق منها عالم الصور الشعري الذي يطوف بخيالته. إن تجربته الأساسية هي أنها لا تملك لغة لأمثالنا. هنا يتجلّى التفاصق الكبير للمعضلة العصرية: التعبير عن الواقع بلغة.

في نص عن الأمثلولات يقول كثيرون: قد توجد أمثلولات، لكن قبل كل شيء يوجد الواقع، ولا يخلط بينه وبين عالم الأمثلولات. والشخص العملي لا يقدر أن يأخذ شيئاً لخبرته العملية من الأمثلولات غير المفهومة أبداً.

لا يوجد شيء آخر سوى عالم ذهني؛ ما يسمى عالماً حتىّاً، هو الشر في الذهني. هذه الجملة التي كتبها كافكا في عام ١٩١٧ تعني أنه في نهاية طريق كافكا في النصوص الشعرية القصيرة لا يوجد سوى عالم تكون رمزاً باستمرار. وفوق ذلك، تندو هذه الجملة أنها تشير إلى تطوير البيبة الروائية لدى كافكا. لكن من المؤكد أنه يمكننا أن نصف ذلك البعد في الروايات الذي تقدمه رمزية كافكا بأنه «العالم الذهني» فيها، الأمر الذي يعني في الوقت نفسه أن هذا العالم إنما يبتعد عن الإدراك المفهومي ولا تملك معادلاً له في الواقع السجراسي. لكن كيف تقدر العالم الحسي أن يدخل إلى العالم الذهني، ويكون السر فيه، فإن هذه لمسألة تظل معلقة إلى حين.

إن «الذهني» في عالم روايات كافكا يعني مفهوماً معاكساً للفرد في تمييزه. في لغة كافكا غالباً ما يسمى العالم القانون. إن عالم كافكا الرمزية هي أيضاً مجال حيوي مشترك لكثيرين، في حين أن الفرد يوجد في توتر ذهني مع العالم الرمزي.

* * *

إن موظف المصرف يوزف ك، الذي يدخل نفسه إلى محاكمة غير مفهومة أبداً، يوجه إليه الطلب: اتبع الأمثلات! بالمعنى الحرفي. إذ لكي يصحح حكمه على المحكمة، التي لا يعرفها أحد، وبهذا يصحح سلوكه بكامله، تروى له أمثلة أمام القانون. إن الخداع الذي يتحدث عنه القس في البداية، لا يمكن أن يكمن سوى في أن ك لا يدرك الاعتقال على أنه باته المخصص له وحده للدخول إلى القانون، وفي أنه يقتيم المحكمة ويتعامل معها على نحو خاطئ مثلاً ما يفعل الرجل من الريف مع حارس الباب. كل من الرجل ويوزف ك قام بخطوة في عالم غريب، ذهني - ك باعترافه أنه معتقل -، لكن كليهما يستمران في التفكير والعمل كعادتهما في عالم الحياة اليومية، وبهذا يفسدان حياتهما وموتهما موتاً ذا جدوى.

يسود الرأي القائل بعدم وجود تلميح، لا في أمثلة أمام القانون ولا في المحاكمة، إلى بديل، أو إن أي بديل لابد أن يفضي إلى النتيجة نفسها المخيبة للأمال. هنا يردد على هذا الرأي بإشارتين:

١ - في الفصل الأخير من الرواية يكاد يتم ليوزف ك تنفيذ ذاتي للحكم مثلما تم لحيورج بندمان. في تفاصيل تام مع جلاديه، اللذين تعرف عليهما على الفور على أنهما معينان له، يختار ك جسراً - استخدم كافكا صورة الاجتياز نفسها في موضع مماثل في قصة الحكم - ويقدم الرجلين

على طريق اختاره بنفسه. لكن تبعاً للتزامن المتناقض بين الطاعة والمقاومة، يحدث في اللحظة الأخيرة تحول مرة أخرى: إن ك غير مستعد، كما كان من واجبه، أن يعطي الموت لنفسه، ويموت وبالتالي مثل كلب.

٢ - مقابل هذا الموت الفعلي المحقق وضع كافكا موتاً تخيلياً مكتملاً. في نص حلم، الذي كان كافكا قد نشره في المجموعة القصصية طبيب ريفي، يجذب ك بلاوعي من قبل تلة قبر وفنان يبدأ في كتابة نقش على الشاهدة. وحين يدرك ك فجأة، بعد بعض الصعوبات والمحيرة، أن موته مطلوب منه، ينفذه دون أي تردد، الآن مثل جيورج بندمان تماماً. غالباً في الأرض، يحمله تيار، يرى فوقه كيف انطلق اسمه بزخارف صخمة فوق الحجر، كما فوق الجسر الذي يدع جيورج بندمان نفسه يسقط إلى النهر، حيث سرت حركة مرور لامتناهية حقاً.

لماذا لا يأتي ك أن يفعل في القيقة ما يحلم به على هذا النحو الكامل؟ يقوم الجواب على الفرق في الصنف الأدبي. في النصوص القصصية والقصص الرمزية يستغني كافكا غالباً عن تنوع الحياة الاجتماعية، ويعرض المسائل الأساسية للوجود الإنساني في أمثلات نقية. هنا يمكن الوصول إلى اعتراف بالذنب وإصدار حكم بوضوح وتنفيذ طوعي للحكم. أما الرواية، التي تتطلب إدخال شمولية العالم، فإنها تقدم لدى كافكا وجوداً اجتماعياً كلياً، عالماً يبدو فاسداً بحيث لا يوجد هناك تنفيذات مباشرة لا في الحياة ولا في الممات.

وكيف وضع الآن التشكيل الواقعي والتشكيل الرمزي، أي العالم التجريبي والعالم الذهني، في علاقة بين بعضهما بعضاً في المحاكمة؟ إنهم يشكلان، من النظرة الأولى على كل حال، طابقين يقعان فوق بعضهما

بعضًا في بناء واقع الرواية بكامله. يتالف الطابق الأول من العالم التجرببي، اليومي، الواقعي للشخص الرئيسي في الرواية. وهذا العالم يسهل تحليله على نحو منطقي. فيه تؤثر على يوزف ك ظروف اجتماعية محددة للغاية. في هذا العالم نرى بوضوح كافٍ كيف كان يوزف ك يتصرف حتى الآن، وما زال يتصرف، في مكان عمله المهني، في المصرف الكبير مع التراتب الهرمي فيه؛ كما نراه في حياته الخاصة، كيف كان يعيش في النزل وما زال يعيش: إنه شخص متوسط يعيش حياة متكتفة، ناجح نسبياً في مهنته نتيجة جده ومعرفته لمصلحته. لكنه من الناحية الإنسانية منعزل ومفتقر.

منذ الجملة الأولى في الرواية يضاف إلى هذا الواقع الأرضي طبق أعلى بكل معنى الكلمة. إذ بالاعتقال يحدث على الفور انقسام العالم والأنا إلى مجالين، الأول هو المجال الواقعي، والذي كان حتى الآن المجال الوحيد بالنسبة إلى يوزف ك. والثاني هو المجال الذهني، الذي يدور فيه الموضوع عن ذنب العرد أو لاذنه، والذي يجري إظهاره في العالم الرمزي للمحكمة مع تراتيبها الهرمي، وقضاتها، ومحكماتها، ومحاميها، وشهودها، وجمهورها.

يمكن التمييز بين حدفين، حدث خارجي هو سلوك يوزف ك مع الناس المحيطين به في السكن والعمل، وحدث داخلي هو الاعتقال والمحاكمة. والشخص من كلا المجالين تظهر على مسرح واحد، بل وهناك علاقات واتصالات بين المستويين. وهذا مما يعقد التفسير بالنسبة إلى القاريء. لكن رغم ذلك، فإن الحدود بين المجالين واضحة تماماً. وإن كان التفاعل بينهما يستعصي على التفسير. وفي كلا المجالين نرى أن يوزف ك هو الشخص الرئيسي. وهو يتصرف في المجالين على نحو واحد، ولا يكاد في البداية يلاحظ الفرق بينهما. لكن الغريب والمتناقض هو فقط أن يوزف

ك إنما يقبل الاعتقال، أو أن هذا إنما يحدث له. إن وقوع الاعمال يعني أن شروطه قائمة في نفس ك. ورد فعل ك على اعتقاله هو قوله وكأنه حدث من أحداث العالم التجربى.

في هذا التناقض يتجلى مأزق الفرد لدى كافكا، هذا المأزق الذي لا يمكن إزالته. إن الفرد لا يصبح فرداً سوى عن طريق حدث كما نصفه بداية الرواية. قبل ذلك كان واحداً من «كثيرين» لا يحدث لهم مثل هذا، إنهم يمارسون وجودهم المستلب، دون أن يكون لديهم حاجة أبعد من ذلك، لكنه هو لا يظل فرداً سوى إذا لم يخضع ¹¹أمام، بعد مثل هذا التغيير للحياة مثل اعتقال ك. وبهذا يصبح موقف الكفاح الجذري، الجوهرى، الذى يسود في المحاكمة والقلعة، معنى.

إن قول تيتوسلي إن كل شيء هو من المحكمة يثبت أن المحاكمة ك إنما هي حياته. وهنا يقوم السؤال فيما إذا لم يكن بالإمكان تقديم عالم الرواية كله على نحو رمزي. وربما كان كافكا قد سأل نفسه هذا السؤال فيما بعد، إذ أن رواية القلعة تقدم جواباً غير مباشر على هذا السؤال.

إن الجديد والمدهش في رواية القلعة هو أنها لا تحتوي سوى على عالم رمزي واحد، وأن ك، وإن بدا أنه لم يتغير كثيراً، إنما يدخل إلى هذا العالم حالاً وعلى نحو لارجعة فيه. إن الجسر الذي نجده في نهاية قصة الحكم وفي نهاية رواية المحاكمة كإشارة على الانتقال الهائى إلى الحان الآخر نجده في رواية القلعة منذ البداية. إنه يفصل حياد ك اليومية السابقة التي حلفها وراءه عن محال القرية والقلعة الجديد

في كل رواية من روايات كافكا الثلاث تقوم الشخص الرئيسي بحركة، هي حركة انتقال من العالم اليومي المألوف إلى عالم دهسي - عالي

وفي الوقت نفسه تعني «الحركة» التي يقوم بها كافكا من المفقود (أمريكا) عبر المحاكمة إلى القلعة تجذيراً واستكمالاً للنقد الذي يوجهه إلى الواقع الاجتماعي - الاقتصادي في مطلع القرن العشرين. هذا الواقع يظهر في المحاكمة عالماً حسياً. لكنه في القلعة لا يعود حديراً بالظهور كعالم. إنه يفتقد إلى كل الشروط التي تتيح حياة طبقاً للحاجات الإنسانية، هذه الحاجات التي تظهر، بوعي وبلا وعي، في نفسك. لكن شر ذلك الواقع الاجتماعي يجعله الفرد معه في شكل وعيه وطريقة سلوكه أثني ذهب. بل إن الشر نفسه يظهر في مرآة عالم أمثلة القلعة والقرية، هذا العالم القائم، أيضاً، على نموذج إقطاعي. وليس من شأن كافكا أن يقدر أن يحكم على عصره بسلبية أكثر.

أولريش فولبورن

١٩٧٨

Ulrich Fuelleborn

III - «المحاكمة» الصحيحة

كريستيان إشفايلر

رسالة كافكا غير المدرَكة
«المحاكمة» الصحيحة

١٩٩٨ طول

«من يريد اتهام مؤلف بالغموض، عليه أولاً فحص دخلة نفسه ورؤيه فيما إذا كان الأمر هنا أيضاً في غاية الوضوح؛ في الغضق تصبح الكتابة الواضحة جداً غير مفروءة».

«ثمة فرق كبير بين أن أقرأ للمتعة والإثارة أو أن أقرأ للمعرفة والتعلم».

يوهان فولفغانغ غوته

ملاحظة أولى

١ - إشارة من أجل قراءة خلقة

لم يؤثّر شاعر في آداب القرن العشرين مثلما فعل كافكا. وتقوم شهرة كافكا العالمية على رواية المحاكمة في المقام الأول. في عام ١٩٢٠ سُلم الشاعر إلى صديقه ماكس برود مخطوطة هذا الأثر الفني على شكل حزمة ورق كبيرة ذات فصول مكتملة وأخرى غير مكتملة. وجلّي أن المجموع كله إنما ظلَّ نصاً جزئياً يُظهر ثغرات كبيرة ولاسيما في النصف الثاني. لكن من المؤكد بالمثل أن قصة حلم، التي نشرها كافكا بنفسه وضاعت مخطوطتها ولم ترَع حتى الآن، إنما تتنظم في سياق أحداث الرواية.

ولاريب أن كافكا قد أَلْفَ روايته في فصول مفردة. حتى أن الفصل الختامي المكتمل نشأ باكراً نسبياً. وبالتالي وجب على الشاعر في آخر الأمر أن يمزق دفاتر المخطوطة الأصلي إلى أقسام مفردة، إذ أن تسلسل نشوء فصول الرواية لم يكن يطابق أبداً أهمية مواضع الفصول في مجرى أحداث الرواية المراد كتابته.

إن الترتيب الصحيح للفصول المفردة في مجموع الرواية هو، حتى اليوم، المشكلة المعلقة لجميع الإصدارات. وقد أشارت دراسات عديدة إلى

البيانات الجلية في مرور الزمن وتعاقب الفصول، لكن هذه الإشارات ظلت دائمًا، مع الأسف، دون تأثير. غير أن النتيجة الأكثر خطورة بكثير هي أن السبب والسبب يظلان بهذا متادلين، ولا يمكن، وبالتالي، لا اكتشاف تطور مطهي ولا معنى مفهوم في سياق الحدث. وعلى العكس من ذلك، فإن تغير موضع المصطلح يزيل بالضرورة هذا الوضع السيء. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذا التغيير يخلق الشروط الحاسمة لفهم الرواية ككل واحد في بنية معناها. إذ تبعاً لذلك وحسب يتوضّح سلوك يوزف ك في منطقته الداخلية. وطبقاً لذلك وحسب تتضح أخطاؤه وأغلاطه بفضل الثقة المتزايدة في التعامل مع المعطيات الجديدة. إن التطور المتواصل باستمرار لآرائه يجده في آخر الأمر تعبيه الأكثر إقناعاً في القسم الأول من الفصل الختامي، حيث يستطيع يوزف ك أن يستخدم خصوصمه، الذين كانوا يبدون سابقاً في غاية القوة، مثل دمى طيّعة.

إن هدف الشروحات التالية هو إضاءة عالم صور Kafka الشعري في ترابطه المُقنع وتفصيلاً تبيانه كمحاور مواضيع متكاملة يجب أن يفهمها الإنسان العصري ويتباها صفتها تحدّياً فكريأً. إن كل قرارات يوزف ك هي تعبير عن حريته. لكن هذه القرارات تقابل أيضاً على الفور وثيقاً عبر ردود فعل الطرف الآخر. وهذه الانعكاسات العاجلة تبين له عواقب سلوكه الضرورية، وتعني في الوقت نفسه إدانة النتائج. وتبعاً لذلك يقف يوزف ك، بعد اعتقاله، في جميع مجالات الحياة، دائمًا وأبداً، أمام السؤال الحاسم نفسه: هل يتصرف الإنسان طبقاً لتميزه الفكري؟ هل يفلح في تحمل مسؤولية حريته، بأن يدرك حياته رسالةً عَهَدت إليه وإن يتحققها بعد أن تمحّلها معنى.

يجيب Kafka على هذه الأسئلة من زاوية نظر وكيل قانوني لمصرف

كبير. هذا الرجل البالغ من العمر ثلاثين عاماً يبدو مؤهلاً بشكل خاص لأن ي Finch حياته حتى الآن من جديد كلّياً تحت عدسة رسالته وسموّه الذهنيين، ولأنه يضع هذه الحياة موضع تساءل. لذلك تبدأ محاكمه يوزف ك صباح يوم عيد ميلاده الثلاثين، وتنتهي في الليلة التي تسبق عيد ميلاده الواحد والثلاثين. إن الحدث مبني فنياً، إذًا، كتعاقب سنوي. إنه يبدأ في نهاية فصل الربيع، ويشير في حياة يوزف ك تغييراً جذرياً مفاجئاً، مثقلًا، وغير قابل للفهم كما يبدو. وفي نهاية فصل الربيع التالي يكون قد أغنى بخبرات جوهرية تكشف له معرفة ودرأية شاملة وعميقة ولو لم تكن نهائية أبداً؛ إذ أن الهدف الأخير للحياة الإنسانية يظل بالضرورة معلقاً في الشكوك. إن النهاية تماثل بالأخرى تغييراً. يوزف ك يعرف ماذا يريد وما من شأنه أن يفعل. وحين يفشل رغم هذا، فإنه يخرج من ذلك ويموت ليس بدون أي أمل. إن آخر كلمة للرواية هي يبقى بعده.

إن شعر Kafka هو المحاولة بعيدة الغور لطرح مسائل الوجود الجوهرية للإنسان العصري والإجابة عليها. بنفاذ بصيرة يجري هنا تبيان أن خطأر الحياة المباشرة وإمكانيات التغلب عليها. بينما يستشف الشاعر أعمق الخطايا والضلالات في الحياة اليومية ويحذر من نتائجها المحتومة، فإنه يشير في الوقت نفسه إلى حلول أفضل. يصبح مرشدًا إلى الطريق معيناً كيف يمكن نشدان تحقيق الذات الممكن في الحياة البشرية بأن يجري اكتشاف المعنى الكامن.

من يريد تجاوز التأثير المباشر لعالم صور Kafka الشعرية وينفذ إلى هذه الخلورية الكامنة، عليه أن يتبع تسلسل فصول رواية المحاكمة الجديد. هذا التسلسل وحده يضمن أنه يمكن إدراك هذا الأثر الفني العظيم كمعنى كلي، وإن لم تكن مخطوطته مكتملة. إن الشروحات التالية قائمة على هذه

القناعة وتضيء، بهذا، على نحو معقول وكماشف التطور المنطقي للحدث بصفته رسالة كافكا غير المدركة حتى الآن. ومن أجل اكتشاف معنى هذه الرسالة، يحتاج الأمر إلى قراءة خلقة لابد أن ترمي، حسب سارتر، إلى تحويل التعبير الشعرية المفردة إلى صفيحة علائق مفهومة ومتراقبة.

هذا التقدير الجدير لرواية كافكا الشهيرة قد حلّ أجله وأكثر، بعد موت الشاعر بثلاثة أربعين قرن.

٢ - تسلسل الفصول الصحيح

في نظرة عامة

القسم الثاني:

١ - في الكاتدرائية

٢ - أمام القانون

٣ - محام

٤ - صاحب معلم

٥ - رسام

٦ - الناجر بلوك

٧ - إخطار الحامي

بإلغاء توكيه

٨ - البيت

٩ - سفرة إلى الأم

١٠ - حلم

١١ - نهاية

القسم الأول:

١ - اعتقال

٢ - مدعى عام

٣ - الآنسة بورستنر

٤ - صديقة الآنسة بورستنر

٥ - تحقيق أول

٦ - الحلاد

٧ - في قاعة الجلسات الخالية/

الطالب/ المكاتب

٨ - إلى إثرا

٩ - صراع مع نائب المدير

١٠ - العم/النبي

١١ - نص جزئي

(يجري ترح معاني الفصول المفردة في التسلسل المذكور، وتتوسط

الفصول، بشكل منطقي، في المعنى الكلّي طبقاً لتطور الحدث. وفي تسلسل درجات متضاعدة تقترب الفصول من النهاية المختومة، ساعيةً إلى غايتها ومفهومها).

I - دون وعي الحرية والمسؤولية تفشل الحياة الإنسانية والاجتماعية

١ - الدعوة إلى تأمل جديد واع

- الاعتقال -

لماذا من شأن يوزف ك أن يكون، فجأة وبلا داع لكن بما لاشك فيه، معتقلًا؟ يوزف ك، الوكيل القانوني لمصرف كبير، التزمه والجدّ والناجح، السيد الطيب جداً والعادل، العازب غير الملفت للنظر، المهدب، حتى الضمير، شرف أسرته، أفضل وأحب مستأجر لدى السيدة غروباخ؟ صحيح أنه لا يلقى القبض عليه مثل لص ويقاد إلى السجن، بل إنه يظل حرًا مطلق الحرية، يستطيع ممارسة مهنته ومواصلة طريقة حياته المألوفة حتى الآن، دون عائق؛ لكن كل هذا لا يغير شيئاً من حقيقة الاعتقال. ومن المؤكد كلياً أن يوزف ك لم يرتكب ذنباً يمعنى حقوقى للذنب، لكن ألا يوجد أيضاً ذنب آخر، ذنب أمام الذات، أمام رسالة الحياة الشخصية، إثم في حق المصير الشخصي، في حق الإمكانيات المتنوعة لكونية الإنسان؟ إن الحارسين يأخذان على ك في نهاية الأمر بأنه حتى لا يعرف القانون الذي أذنب أمامه

على ما يبدو. بل إن الأمر يعني بالنسبة إليهما تناقضاً لأن ك لا يعرف القانون ويدعى في الوقت نفسه أنه بريء. أي قانون أهمله ك إذاً على نحو آثم، وأثار بهذا مثل هذه المحاكمة الهامة والخانقة وكثيرة التكاليف؟

الإشارة الأولى تعطيها، ولاريب، الظروف الخاصة، أي مكان وزمان الاعتقال. إن يوزف ك لايزال بعد استيقاظه يمكث في فراشه ويتردد في النهوض، لأن مجراه اليومي المألف ينقطع لأول مرة. إن اللحظات القليلة لتلاؤه بدون شغل تصبح فجأة باعثاً وتربة خصبة لتبخر جذري في حياته. وفي ما بعد يكون ك واثقاً من أنه ما كان من شأن أقل شيء أن يحدث فيما لو كان قد نهض فور استيقاظه. وهو يشير بوضوح إلى أن مثل هذا الافتتاح لا يمكن أن يحدث في سياق عمله في المصرف. وما له معنى عندما يعتبر ك هذا الارتباط الكامل بالروتين اليومي حضور بدبيه، رغم أن هذا الارتباط لا يدعه يأتي إلى التأمل وبهذا المعنى إنما يعني بالأحرى غياب الفكر. وعلى العكس من ذلك، فإنه من الجلي أن اعتقال ك إنما يفترض إمكانية انطلاق الطاقات الشخصية، التفرغ وراحة البال، لحظات إذاً ينطلق فيها من المجرى اليومية المألوفة، يعود إلى نفسه، ويصبح بهذا مفتاحاً ومتاهياً لاستقبال ما هو فوق المألف.

فوق المألف هذا يدعه يصبح حتى في محيطة السابق مثار فضول. يصبح تدريجياً لامتمياً يتمتع ببارادة ذاتية في المجتمع والأسرة والمهنة، وذلك رغم أن الأمر في محاكمته إنما يدور، ظاهرياً، حول شيء من شؤون ذوي العلم يتعلق بسعادته الشخصية، كما تقول السيدة غروباخ بسذاجة لكن بحصافة. ما من شك إذاً أن التغيير المفاجئ في حياة يوزف ك إنما هو حدث داخلي يوضحه الشاعر ويحيطه مجازاً، وهي جديدة يتطلب من ذي العلاقة إعادة تقييم كامل وجوده حتى الآن. على كل العادات والتوجهات

العمياء في حياته المباشرة، وكل بديهييات الحياة اليومية، والاهداف المشودة بنجاح، والأصدقاء والمعارف، أن يُكشف عليها من جديد وتمحّص تحت عدسة القَدْر الذاتي الأعلى. وإنه لمفهوم كل الفهم أن يوزف كي يحاول أولاً أن يقاوم هذا العبء الضخم الذي لا يقدر والذي ينفل كاشهله على الفور كاختبار.

لكن جميع جهوده ومطالبه وأدلة وجهجه واتهاماته هي غير مجدهية. إن القوة الجديدة عتششت في حياته على نحو ثابت ومنيع، وأصبحت من الآن فصاعداً تحدد وعيه. إنها تنتشر أمامه كما على نحو بديهي، وتبدو في صورها الخارجية - إذا نظر إليها بدقة - مفيدة بشكل ملفت وعملية بشكل خاص. وما يطابق جسدية الحارسين المبرزة وبدانتهم أنهما يتناولان طعام فظوره في تلذذ ويأملان بالحصول على ملابسه. لكن إذ أن الرأس الحاف لكل منهما يقف في حالة عدم تناسب ملفته للنظر مع جسمه البدين، يدرك يوزف كي: **وثوّقهما غير ممكِن لولا غبائهما**. إنهم هنا ببساطة وينقدان مهمة؛ هذا واجبهم الذي يؤديانه على نحو عملي. لكنهما أكثر من هذه الغاية في ذاتها لا يعرفان شيئاً. إنهم لا يملكان وعياً عن كلفهما ولا عن سياق معنى أعلى، وإنما هما مجرد جزء من العالم الظاهري الطبيعي غير الوعي.

من يطرح عليهما أسئلة، لا يستطيع الحصول على جواب ويتصرف تصرفاً خاططاً. وهذا ما يعلمه يوزف كي مراً وتكراراً عندما لا تسمع أسئلته أو لا يجاوب عليها. إن مهمة الحارسين تقتصر على إحالة المعتقل على نفسه أو - بصورة شعرية - إيقائه في حجرته. عليه أن يصغي إلى نفسه كي يبحث في دخلية ذاته عن أجوبة على أسئلته. إن الإنسان العصري لا يقدر أن يوجد الحقيقة سوى في نفسه. اعتقاده يعني، شعرياً، الدعوة إلى تأمل وإدراك

الذات. وعندما يتبع يوزف ك هذه الدعوة، ويتصرف بهذا في أعين الحارسين تصرفاً عاقلاً، فإن الفاحشة الحمilla، التي يتناولها الآن في حجرته بصفتها فطورة الوحيد، تصبح رمزاً موجهاً. إن الإشارة إلى الثمرة من شجرة المعرفة هي إشارة واضحة.

بهذه المعرفة يصبح الإنسان واعياً قبل كل شيء أنه سيموت. هذا يوضح ضرورة اللباس الأسود، عندما يتوجب على كأن يحضر إلى المراقب كي يعلم على نحو نهائي لارجعة فيه نتائج اعتقاله الحتمية وخطورة المحاكمة المترتبة على هذا الاعتقال. إن المراقب ينادى المعتقل أن يصبح من الآن فصاعداً أكثر جوهريّة، وأن يعترف بأخطائه، وأن يفكّر بعنابة أكبر بنفسه ومستقبله، وأن يقلل من الضجة التي يثيرها بإحساسه ببراءته الملوهومة. إذ في هذا الصدد يتوجب على كأن يجد أن يتعلم أن يضع معياراً آخر وأعلى. باعتقال ك تعرف كينونته السابقة تقليماً جديداً يهدف إلى قدر أكبر من الإنسانية. على كأن يدع نفسه يُسأل، فيما إذا كان يعطي تميزه حقه نتيجة المعرفة، فيما إذا كان وجهه تصرفه وأفعاله طبقاً لإمكانيات قدره العقلي ويقدر أن يتحمّل مسؤولية ذلك أمام محكمة عليا. هذه المحكمة تفحص وتحكم فيما إذا كان الإنسان قد أثبت أنه جدير بإنسانيته.

يجب أن يشار مرة إلى أن يوزف ك لا يوصف جسدياً في أي موضع في الرواية بكمالها. إن مظهره الخارجي هو، ببساطة، غير ذي أهمية. كل شيء يتعلق بسلوكه الداخلي وحده دون غيره، هذا السلوك الذي يُقْئِم بعد الاعتقال ودائماً وفي وقت واحد في نتائجه أيضاً. وهذا الوعي لا يغادر ك بعد الآن. في المصرف يلاحظ قليلاً طفيفاً غير ضروري وحيرة داخلية، وفي المسكن يخشى، خاطئاً، فوضى كبيرة. وإن لم يترك، إذ، الاعتقال ظاهرياً

آثاراً مرئية، فإنه يظل من المستحيل إلغاء ما حدث. إن الإنسان لا يخرج، بعد الآن، من هذه المحاكمة دون أن يلغى إنسانيته الحقيقية. إذ أن الإنسانية تعني أن يقدر الإنسان أن يختار بحرية. لكن القرار المتخذ يجب دائماً وفي الوقت نفسه أن تتحمّل تبعاته. بالمحاكمة تبدأ، طبقاً لذلك، الحياة الوعائية التي يجب فيها على الإنسان أن يكتشف أولاً قانون عقله. وفقط بإمعان التفكير في هذا القانون وتمحيصه يشارك الإنسان في معنى الخلقة الكلي المليء بالأسرار، ويكتشف المهمة المفعمة بالمعنى لحياة لائقة بالإنسان. هذه المهمة تصبح مقياس تقييم شخصيته.

٢ - الخطايا اللاواعية في الحياة المباشرة

- المدعى العام -

في مجزري حدث الفصل الأول تذكر في موضع معزون بشكل واضح الاستراحات الشخصية الصغيرة التي كان ك يمنحها لنفسه دائمًا في السابق بعد انتهاء يوم العمل المتعب. كان يجلس في معظم الأحيان حتى الساعة التاسعة في المكتب. إنها نظرة قصيرة إلى الوراء، إلى وقت فراغه قبل الاعتقال، هذا الوقت الذي يوصف بالتفصيل في فصل مدعى عام. (لذا يجب قراءة الفصل بترتبط مع هذا المقطع. ونظراً لأهمية الفصل ذات الدلالة الكبيرة، فإنه يمكن بلا تردّد التعاضي عن التداخل الطفيف). إن الحقائق المعروضة تبيّن تصورات القيم المختلفة، لا بل المتناقضة في الجموعة التي يحيط بها ك نفسه في حياته الخاصة. في اللحظة التي يبدأ فيها إمعان الفكر في هذه التوترات والأحوال السيئة يجري اعتقاله. إن محاكمته تبدأ، وترجممه على أن يرصد بدقة أكثر، ويحدد أهمية الأمور، ويقيّم، ويقرر. إنه طريق صعب تهدده أخطار وأخطاء كبيرة.

إن الجملة الأولى في الفصل تشير حالاً إلى التناقض بأن ك رغم فراسته في الناس وخبرته في الحياة، يعتبر، خطأ إذا، أنه شرف كبير له أن

ينتمي إلى مجموعة مفهوى مداومة معتبرة جداً ومعروفة. لكن لدى تدقير النظر ينكشف الجامعيون ذوو العلم كمدعى أهمية معورين ومتغرين لا يعاملون حتى أمثالهم، من الذين مازالوا في مراكز صغيرة، سوى بسخرية وازدراء؛ في حين، على العكس من ذلك، كان هؤلاء المهاهون يقدمون لهم باستكانة أكبر احترام. إن الأكثر أهمية في هذا المجتمع أن يميز المرء بشكل صحيح بين تدرج مراتب السادة أكثر من أن يتحلى بقيم إنسانية. إن المدعى العام القوي هستر يتسم بتصرف ماحك بشكل خاص وغير مراع يخوّف به خصومه ويسكتهم بازدراء. وبالذات في دائرة نفوذه يقع لك، بل ويحوز له أن يسمى نفسه صديقه.

بناء على هذه الصدقة يأخذ أيضاً فكرة ذات دلالة كبيرة عن المحيط الخاص لهستر الذي يخص **ولعه الشديد الطعام والشراب** و معارفه من النساء المتعددات. و بمثال منفر بشكل خاص توصف علاقة جنسية غير لائقة بين المدعى العام وأمرأة بدائية قليلة الحياة يدعها تقيم في مسكنه لا شيء آخر سوى لإرواء غريزته وحسب. وعندما يسام منها فيما بعد، يطردها ببساطة. وحين يتأخي لك في آخر الأمر، وهو يكاد يحس بحدّر بعض الشيء نتيجة التدخين والشرب، مع مثل هذا الرجل، فإن ذلك يكون علامه واضحة على خطر السقوط في هذه المهاوي المنفرة. إن سلطة المدعى العام وسمعته في المجتمع لا يمكنها أن تخدع عن الدرجة البدائية التي بقيت عليها كينونته الإنسانية.

تماماً في هذا الدرك الأسفل يخلق كافكا من مدير المصرف نقضاً وقولاً ذا إحساس بالمسؤولية. مذعوراً من الصدقة مع المدعى العام يقطع المدير حتى حديث عمل كي يلتفت نحو لك شخصياً في اهتمام بخير لك ومستقبله. وهو لا يغفي أبداً أن يصبح بطريقة منافية على درجة واحدة مع

ك، وإنما يعني به عنابة أبوية تقريباً كما مع طفل أو مع شاب جاهل. في هذا الاهتمام الصادق والمحبت يحس ك بالسكينة. يدرك أنه بحاجة إلى مثل هذه الحماية، وهو مستعد أن يفهم الصراوة العاتية لكلمات المدير كإشارة تحذر من صداقته المريبة مع المدعى العام رديء السمعة.

إن يوزف ك يقف أمام طريقين. إنه مدعو إلى تأمل حياته السابقة من جديد. والمهم هنا هو فرض القيم الحقيقة للإنساني مقاييساً. على الإنسان أن يثبت جدارته بإمكانياته الأعلى. إن الصراع المستمر للفرد ضد الإلهاءات والغربيات والمخاطر من قبل الحياة المباشرة، وكذلك إثبات القدر الشخصي في الحرية والمسؤولية عن القرارات، كل هذا يعني المحاكمة مدى الحياة، هذه المحاكمة التي وضعت في صورة شعرية هي الاعتقال.

٣ - وحدة الحسية والحس المهدّدة

- الآنسة بورستن -

إن أهمية العلاقة بين الرجل والمرأة بالنسبة إلى كافكا تعكس في حقيقة أن يوزف ك يعلم أمر اعتقاله في حجرة جارة له في السكن. هذه الشائبة أثارت اهتمامه وتطغى في الوقت نفسه على الزيارات الأسبوعية لنادلة كانت تستقبله سابقاً، بقصد واضح، وهي في فراشها. إن كافكا ييرز جديّة اللقاء الجديد بأن يحوّل الحرفين الأولين من الاسم الأول واسم الكنية لخطيبته فيليس باور Felice Bauer إلى اسم الآنسة بورستن Frauelein Buerstner. مما لا ريب فيه أن يوزف ك إنما يقف أمام أول اختبار.

إنه لا يقدر على الاقتراب من المرأة سوى نتيجة لاعتقاله. وليس الرجل، وإنما المعتقل يبعث فيها ثقة وبشير فضولها، إذ أن أمور المحاكم بالذات تهمها بشكل بالغ. لذا فهي مستعدة للسماح له بالدخول إلى حجرتها، وتنتظر منه أن يثبت جدارته بهذه الثقة ويحترمها في شخصيتها. بل إن الآنسة بورستن تريد أن تصبح صاحب مشورة ليوزف ك، لكي تسبر، بالاشتراك معه، أعمق الحياة الإنسانية الملية بالأسرار. إن اعتقاله

يعني بالنسبة إليها شيئاً في المعرفة تؤدّي أن تشارك فيه. لكن بدلاً من أن يفيد من هذا المفهوم ويتعقّل أكثر في جوهر كينونته الإنسانية لصالح محاكمته، يُظهر لك جهله بسذاجة من جديد. يأخذ من اعتقاله ثقل أهميته، يداعب هذا الحدث ليس إلا، وذلك كي يُثير الآنسة بورستن. وبهذا تفقد زيارتها لها جديتها، وتتسطّع متحوّلة إلى مناوشة مألوفة لغامرة غرامية عادية.

وفي حين يمثل لها اعتقاله والامتياز المرتبط به متخدّلاً منه مطيبة، متقصّساً من قيمته، تكتشف هي القصد السطحي لجهوده. إن النداء الذي أتاه كي يوقظه حقاً عند الصباح، لكنه أخطاء، يصبح الآن بالنسبة إليها نقطة تحول. وبينما يستسلم إلى جاذبية وسحر أنوثتها ويصبح لوحجاً، ينصب اهتمامها على التخلص من الزائر الذي أصبح في هذه الأثناء شهوانياً مزعجاً ليس إلا. حتى أنه لا يلاحظ كم هو مهمٍّ ومسيء لها حين يريد الآن أن يحمل عنها كل مسؤولية دون أن يدع وسيلة إلا لها إلىها. بفخر واعتزاز بالنفس تتبع هدفها لإبعاد المنطفل غير المحترم من حجرتها نهائياً.

متحررة منه كلياً في قراره نفسها ومعرضة عنه، تتحمّل - في حجرتها الأمامية - ظاهرياً وبدون اهتمام ملاطفاته التافهة، كي تتقدّم نفسها منه نهائياً وقد خاب ظتها. وعلى العكس، يظن كأنه حقّ هدفه، ويعجب من أنه لم يكن أكثر رضى. ورغم أنه يتصرّف مثل حيوان ظمآن ونسبي اعتقاله كل النساء، فإنه لا يعي فشله الإنساني. كانت شهوانيته قد أصبحت بالنسبة إليه، على نحو غير ملحوظ تقريرياً، هدفاً في حد ذاته، وصرفت بهذا اهتمامه صرفاً تماماً عن أي انشغال أسمى. لكن مثل هذا الإلهاء يعني بالنسبة إلى كافكا الشر بعامة؛ إذ أنه يرى أن الإنسان إنما يخطئ في حق تكيره وقدره العقلي، إذا لم يفلح في تطهير حسيته الطبيعية والسمو بها إلى الحب. وبالذات في الحب يتجلّى له معنى قانون الحياة المليء بالأسرار. لكن

الإنسان يتخلّى عن هذه الإمكانية السامة لكيونته الإنسانية، إذا استسلم إلى مباشرة شهواته الغريزية ليس إلا وبقي على درج الحيواني الأكثر انخفاضاً.

- صديقة الآنسة بورستن -

على العكس من يوزف ك أدر كت المرأة المخطوب وَهَا إدراكاً واضحاً فشله، ورفضته بالضرورة لهذا السبب. وهذا الموقف الحازم يحبط بادئ الأمر كل المساعي الأخرى التي يقوم بها العاشق الذي يحب سدي. وفي آخر الأمر تقعده، ثم ترغمه على الإدراك. هذا التطور المنطقي يحدد مجرى الحدث في الفصل الرابع الحالي، الذي يتعرض لحدث الزيارة لدى الآنسة بورستن مساء يوم الاعتقال، ويتابع الحدث ويختتمه.

في حين يكسر ك، بعد اللقاء الأول، كل لحظة من وقت فراغه للمرأة المغوب فيها، تعرف هي، بإصرار أيضاً، كيف تتتجنب كل لقاء. في آخر الأمر يتذلل للدرجة الإسلام، ويعرض خصوصه النام؛ لكنها لا تلين في موقفها الثابت. وبدلأً من ذلك تخلق حقائق واقعة بأن تحول ك إلى صديقة لها تنزلها بشقة في حجرتها مثل جزء من نفسها. بعْرَجها تبدو معلمة اللغة هذه، الهزيلة والشاحبة، وقد رُسمت واصطفت بمعنى إنجيلي كي توضح له خطاياه وتدعه يعيها.

وإذ تتوارى الآنسة بورستن عن عيني ك، فإنها لا تقدر ظاهرياً على تحويل أنظاره. وعلى العكس من ذلك، فإنها من خلال الآنسة مونتاغ تعتبر عن قناعتها الداخلية. إن الصديقة تصبح أنها الأخرى وتوضح لـ ك، وقد نصبَ رأسها على نحو غير مألف، ضرورة صدّه. ولتعليل ذلك تتهمه

بتصرف عبتي وقائم على المصادفة. في حين أن الآنسة بورستن تتعالى على مثل هذه العلاقات العابرة والسطحية.

لابد لك من إدراك هزيمته. صحيح أنه رغب في المرأة الجذابة، لكنه لم يثبت إطلاقاً جدارته بها، وذلك لأنه لم يقدر أن يضيف إلى الفتنة المغرية احترام حب شخصي وإقامة علاقة روحية - فكرية مشتركة. بهذه يحطّ من قدر نفسه، كما يحطّ من قدر الرفيقة. بـ الاعتقال كان عليه أن يعي المسؤولية عن حياته. لكنه حول هذا التحدى الجدي إلى لعبة سطحية خنقته فيها حاجاته الطبيعية مهمتها العقلية. من يلقي بنفسه في أحضان امرأة شهوةً وحسب، لا يمكنه أن يتوقع تحقيقاً حقاً لحبه.

كان من نتيجة قوة خلق الآنسة بورستن أنها كشفت أن انشغالك عن الاعتقال إنما هو محاولة هروب لا جدوى منها. وعندما يقتحم، في نهاية الفصل، حجرتها مرة أخرى، يضطر إلى إدراك خداعه لنفسه. فنتيجة فعله تظل الآنسة بورستن بالضرورة لاسبيل إليها بالنسبة إليه. وإدراك سلوكه الآثم يعلن عن نفسه في الشعور بأنه إنما يُذنب ويُفعل فوق ذلك ما لا جدوى فيه. إن الحديث مع الآنسة مونتاغ يتآيد ويظهر مفعوله؛ إذ دون أن يكون من شأنه بالمعنى المألوف قد فعل شرًا - كما جاء في بداية الرواية -، يشعرك لأول مرة أنه مذنب على نحو شديد. لذا يسرع الآن طوعاً كي يذهب إلى حجرته. يعني اعتقاله يقف الآن بهذا أمام تأمل جديد واع، ويخلق بهذا، في الوقت نفسه، الشرط اللازم لسير الحدث في فصل تحقيق أول (أثناء مساعيه التي لم تعرف الكلال حول الآنسة بورستن لم يكن لديه لحظة من الوقت من أجل هذا التأمل).

ينص النظر كلياً عن أن يوم الأحد الثاني بعد الاعتقال قبل نحو عشر أيام يمكنه الان وحسب في الحدث أن يتبع يوم الأحد الأول بعد

خمسة أيام، فإن قصة الآنسة بورستن تشكل وحدة فنية مترابطة لاتتجزأ. وهي تعني بالنسبة إلى يوزف ك اختباراً لا ينجح فيه. لكن لهذا السبب بالذات تظل الآنسة بورستن بالنسبة إليه حتى الفصل الأخير العطلة، الدعوة لكي ينهج فعلاً حياة ذات معنى خليبة بالإنسان.

٤ - مسؤولية الفرد إيماناً بكرامة الإنسان

- تحقيق أول -

قياساً إلى ما يقضيه الاعتقال أخفقت مغامرة يوزف ك الغرامية. غير أنه، إذ يعي في الوقت ذاته سبب فشله الذي يعود إليه، يرى نفسه مضطراً إلى إنعام الفكر في سلوكه السابق: كانت المحاكمة قد بدأت؛ وحدد يوم الأحد القادم موعداً لأول تحقيق شامل. ولكي يقدر على مواجهة هذا الجهد، ينبغي عليه أيضاً أن يرفض دعوة مشرفة من نائب المدير، منافسه المهني الأكثر شراسة، وبهذا يرفض في الوقت نفسه جماعة نائب المدير التي تتميز أخيراً وليس آخرأ بأنها تضم المدعي العام المريض هستر. إن قرار يوزف ك بمواجهة محكمته يمنعه على الفور من تحقيق منافع مهنية واجتماعية أخرى. إنه لا يقدر ولا يريد بعد الآن أن يستغل الترلف (الدعوة)، هذه المهانة لنائب المدير، لنفسه ولصعوده في المصرف. إن السمعة الاجتماعية والترقي في العمل الوظيفي يفقدان من الآن فصاعداً قيمتها المركبة التي كانت لهما حتى الآن. ويكتشف القناع عنهما ويصبحان، دائماً أكثر، ثانويين وعدبيي الأهمية قياساً إلى مسائل المحاكمة العميقه والشاملة. ويظل المجالان كلاهما مستبعدين من مجرى الحدث حتى الفصل

الأخير. لذا فإن إبعادهما التدريجي هو أيضاً مقياس وثيق للتطور المنطقي لمجرى الحدث ولترتيب تسلسل فصول الرواية ترتيباً جديداً سليماً.

مع بدء محاكمته تجاوز يوزف ك قمة نجاحه الاجتماعي والمهني الخارجية؛ إذ أن اتجاه نظره السابق يجري تغييره فجأة. فبدلاً من السادة الكبار والأقواء الجدiresin بالاحترام ظاهرياً الذين كان يتحذهم قدوة، يتقدم الآن إلى مجال رؤيته أفراد، ناس صغار، مثل مستخدمين من مرتبة صفيرة، من المصرف لم يكن يقدرهم حتى الآن. كانوا حاضرين لدى اعتقاله ويلتقى بهم أيضاً في الطريق إلى التحقيق الأول معه في شارع ضاحية بعيد لم يسبق له كأن كان فيه فقط. إن المهم الآن على ما يبدو هو إخراج المعتقل من ارتباطات وإعماءات وقوانين الصعود الاجتماعي الباطنية وجذب انتباذه إلى كينونة الإنسان الأصيلية والبساطة. شخصياً وبشكل مباشر يتطلب من يوزف ك بصفته إنساناً إنجاز يحتاج إلى كل طاقة وجهد خاص. لذا فإنه يستغنى عن كل مساعدة ولا يريد أن يشغل أحداً. يذهب سيراً على الأقدام، ويراقب كل شيء على وجه التحديد، يتمهل ويحدد الهدف. وأنه يريد مواجهة محاكمته، فإنه يصدق الآن أيضاً إشارة الحارس بأن المحكمة إنما يجدها الذنب، وهو مقتنع أنه على الطريق الصحيح.

في الحقيقة إن كل الأبواب تقريباً مفتوحة له ك تعطيه إمكانية للنظر إلى داخل غرف صغيرة ذات نافذة واحدة، يعيش فيها أناس سطحيون. جميعهم يقابلونه بلفظ وصدر رحب، ويقدمون له معلومات عن طيب خاطر، ويفتحون له المبني كله من غير عمد. وفي آخر الأمر لم يعد بالكاف ينبعي على كأن يسأل بنفسه، وإنما راح يُجذب بهذه الطريقة عبر الطوابق. وأمام الطابق الخامس يعتقد أنه رأى ما يكفي ولا يحتاج إلى مرافقة أخرى. الآن يتعلّق كل شيء بالاستنتاج الصحيح، الشخصي. بينما

يقاوم لك إغواء التخلّي محبّطاً، ويتمسّك بحزم بجدوى جهوده، فإنّه يبلغ بفاعلية مستوى أعلى يوسع نظرته. ولأول مرة تفتح له الآن حجرة متوسطة الحجم ذات نافذتين. فيها يعتقد فعلاً أنّ اجتماع المختص بـالتحقيق الأول في محاكّمته. إنّ لك يقف أمام تحديه التالي. هل سيمكّن من إثبات أهليته كذلك على هذه الدرجة الأعلى أيضاً؟

على العكس من الحياة المضطربة والمباعدة في الغرف البسيطة كان يجتمع في المكان الأكثر اتساعاً وعلى شرفته عدد كبير من الرجال على شكل اجتماع سياسي. وبينما تزدحم عامة الجمّهور في الأعلى في الغبش والشبورة والغبار بملابس أسوأ، تقسّم القاعة إلى حزيبيين متباينين، لكن أفراد كلّ منها يرتفعون عن الحياة اليومية بملابس عيد سوداء. وهذا يبرّز جدية وأهمية اجتماعهم، ويوضح متّأخراً لماذا كان على لك أيضاً أن يرتدي حلّة سوداء عند اعتقاله. إنّ هذا الاجتماع يبدو أنه يسعى لترتيب حياة الناس. لذا يجب وضع علاقة الفرد بالجامعة على منصة الاختبار. وفقط عندما يدرك الفرد بنفسه قدره الشخصي ومسؤوليته الشخصية إدراكاً جلياً، يمكنه أن يصبح أيضاً جزءاً قيّماً من أجزاء المجتمع. لذا فإنّ يوزف ك يتصرّف على نحو سليم عندما يعقد العزم في بادئ الأمر على أن يراقب أكثر ما يتّكلّم، في حين يعاب عليه تصرفه الخاطئ سابقاً بصفته تأخيراً، خطيئة إهمال وعدم فاعلية. إنّ هدف الاجتماع هو دراسة قيم الفرد الإنسانية الجوهرية وأهميتها بالنسبة إلى مجتمع سليم، وجعل هذه القيم مدرّكة. وهذا ولاريب هو مهمّة في غاية الصعوبة.

لكن في الزحام المكتظ للمجموع، في التباينات والتناقضات المتلاطمة بين الأخذ والرد، بين الإيجاب والسلب، بين اليسار واليمين، يظل في نهاية الأمر ثمة طريق ضيق حال، يقرّ للفرد فرصته الشخصية

ومشاركته. ولكن هذا الفرد لن يستطيع تحقيق هذه المهمة في المجتمع على نحو سليم سوى عندما ينضج قبل ذلك ويصبح شخصية ويكون على استعداد للسلوك طبقاً لمقامه. إن حجرة الإنسان هي، شعرياً، الحجرة الداخلية الفريدة للتأمل في الذات والإيجاد الذات، الأمر الذي عليه أن يكشف للإنسان الجوهرى، أي ماهيته الحقيقية. وتبعاً لذلك كان لابد ليوزف ك أن يُظهر موقعه الذهني، عندما يسأله قاضي التحقيق بلهجته تقرير: أنت رسام حجرات؟ لكنه بدلاً من أن يثبت تكوينه الداخلي، يصر بجوابه، الذي يدل على غرور، على مركزه الاجتماعي والمهنى، إذ يقول بأنه وكيل قانوني لمصرف كبير. ليس لديه ما يواجه به الكيان الداخلي المطلوب سوى مظاهر تافهة. لذا فإن جوابه يثير أمام الخلفية الأكثر عمقاً لمحاكمته فقهية حطرة توقعه في سوء فهم خطير النتائج وسلوك خاطئ وخيم العواقب.

وعلى خلاف نيته السابقة، الجدية وبعيدة النظر، يأخذ الكلام فجأة، يشئ، برفع، ببضعة مظاهر عديمة الأهمية، ينخدع بتأثير كلمته التي تدل على شيء من عدم التوازن، يدفع جانباً بتهاون كامل الدعوى المفتوحة ضده، يتوارى وراء آخرين كثريين لا يستيعهم، ويريد، في سبيل هؤلاء وليس في سبيل نفسه، التحدث عن سوء حال عام حديثاً عاماً. لكن لا يوجد حسب قناعة كافكا إثم بحق العقل أكبر من ترك رسالة الفرد الشخصية في الحياة تزول في رتابة العامة. إن مثل هذا التعميم يلغى كل إمكانية حياة ذهنية. وبدون توجيه ذهني وارتباطه تنحل بنية المعنى العظيمة للكون البشري، وتحول إلى فوضى أجزاءها، إلى عسف الشر. لذا فإن يوزف ك يصل بالضرورة إلى النتيجة التالية: في عبث الأمر كله، كيف يمكن تفادي فساد الموظفين الأكثر سوءاً؟ هذا مستحيل، وليس من شأن

القاضي الأعلى مرتبة أن يقدر على فعل ذلك حتى بخصوصه نفسه. إنه يرسم الصورة المليوسة منها لعالم شاذ تنتفي فيه الآداب والأخلاق، وحتى الموت فيه ينفرد من قبل جلاد على نحو عبشي. وأمر منطقي ولاريب ويتواءم مع هذه الصورة، عندما يقوم شاب وشابة بإبراءة غرائزهما، علناً ودون عائق، على نحو حيواني لا خجل فيه، ويقدمان للغوغاء تسلية بدائية. هنا وحسب يداهم كأخيراً الشعور كأن المرء يحدّ من حريته، كأن المرء ينفذ الاعتقال. لكن سوء الفهم لديه نفسه هو السبب الحقيقي للحطّ من قدر الإنسان وأخضوعه لهذا الاستعباد. هذا هو ذنبه الشخصي.

من يذكر القَرْ العقلاني للإنسان يسلبه كرامته. وهو نفسه يخلق شرط وجود العصابة الفاسدة، التي يظن خطأً من ثم أنها تهدده وتعتقله، لأنَّه أغفل الإمكانية الأساسية لكيوننة الإنسان. وفي نهاية الفصل يجب على يوزف ك أن يُلام بأنه، بتدخله المتسرع والقاصر عن الفهم، إنما تسبّب نفسه في الأفعال اللاإنسانية التي يتظلم منها في الوقت ذاته. وتوضيح هذا له هي المهمة الفنية لفصل الجناد، الذي يجب عليه، بناء على ذلك، شكلًا ومضمونًا، أن يطبع فصل تحقيق أول.

- الجناد -

إن الإحساس المسبق اللاواعي بأن على الإنسان أن يكون مسؤولاً عن سلوكه أمام قانون أعلى خفي، هذا الإحساس يؤدي إلى الاعتقال والمحاكمة. ولأن يوزف ك لا يقدر الآن بأي حال أن يكون راضياً عن نتيجة عراكه الأول في المحكمة، فإن قلقه الداخلي لا يفارقه بعد ذلك أيضاً. ولا يعود في مقدوره إقصاء هذا القلق كلياً حتى من حياته العملية التي كان يظنها آمنة. فما يكاد ينهي عمله الوظيفي، الذي زادت مشقتَه، حتى تصبح

الحكمة حاضرة. حتى في حجرة سقط المثال في المصرف يواجهك، وهو في طريقه إلى البيت، بمشهد تعذيب مخفف سيئه بنفسه على ما يedo، ولذا ينبغي عليه أن يتحمل مسؤوليته أيضاً.

والسبب هو المعاقة الضرورية للحارسين اللذين وصفهما لك علناً، بسبب مخالفاتهم المغرضة وهم في خدمة المحكمة، بأنهما صعلوكان بلا أخلاق ولا أدب، وشكاهما بحق. إنهم ولاريب جزء من تلك العصابة الفاسدة التي شَهَرَ بها لك ككل، وذلك لأن كل فرد فيها لا يهتم سوى بمنافعه الشخصية الأنانية. ومن ثم تكون هنا جميع الوسائل والطرق جائزة: إن الحارسين يكذبان بلا وازع، وكل منهما يغدر بالآخر ويسيء استخدامه دون حرج؛ ويعلنان جشعهما الإجرامي بغير سوء السمعة، وحسدهما يغريهما إلى السرقة بسرعة. وبينما يذلان نفسيهما بلا كرامة من طرف، فإنهم يطمحان من طرف آخر إلى تولي حتى الوظيفة الأكثر وحشية، وظيفة جلاد. في مثل هذا العالم الوضيع والذميم تبدو كل عقوبة مثل وحشية سادية. إذ تنفي هنا العدالة، لأن من يُضبط فقط يعاقب، لكن ليس الظلم مبدئياً. لكن بدون نظام أعلى كقاعدة ومقاييس تقع كل جماعة بشرية في الفوضى وحق الأقوى وتظل بهذا في حالة الحيواني البدائية. وكنفسه لا يقدر أن يتخلص من هذا كلياً. عندما يطلق أحد الحارسين المعاقبين صرحة مخيفة لاتبدو أنها تصدر عن إنسان وإنما عن آلة معدّة، فإن لك يوضح لخادمك المصرف إنه مجرد كلب يعود في الفناء. إنه يكذب إذاً مزديراً بالبشر لكي يحافظ على سمعته في المجتمع، وبهذا يسوء بالفشل من جديد أمام القانون الأعلى الذي يلزمك بسلوك إنساني. وعندما يأمر لك في يأس بإخلاء حجرة سقط المثال لكي لا يغرق في الأوساخ، فإنه لا يظن بأنه بالنظام الخارجي إنما سيجد سلامه الداخلي أيضاً.

في فصل الجلاد يفضح كافكا حياة البشر التي تفتقد مركز المعنى. بدون نزوع نحو نظام قيم أعلى يمكن للإنسان أن يعرفه بتميزه العقلي، تفقد رسالة وغاية حياته معناها. في عبث الأمر كله هذا يتسطع الوجود الأرضي بالضرورة إلى هدف سطحي يراد لذاته وتقوم المنفعة الراهنة وحدتها بتحديد السلوك. ولذا تحول علاقات البشر مع بعضهم بعضاً إلى صراع الكل ضد الكل في مجتمع التدافع بالمرافق الأنانية. لكن دون عدالة يتحول حتى الحق إلى لإنسانية والخامي الناجح إلى مجرم. غير أن هدف كافكا يظل دائماً: الإنسانية. وعلى هذا الطريق مازالت مهام كثيرة وصعبة تتطلب يوزف ك.

٥ - المحكمة كصورة منعكسة للإمكانيات البشرية

- في قاعة الجلسات الخالية/ الطالب / المكاتب -

إن نظراتك الأولى في محكمته أربكته في نهاية المطاف، ودفعته إلى استنتاجات خطأه. إن النتيجة غير المرضية وقبل كل شيء النتائج غير الإنسانية التي يبيتها فصل الجلاد لاتركه وتشغله باستمرار. لهذا فإنه يتمنى من تلقاء نفسه اللقاء مجدداً، يقصد هدفه ويصل على الفور إلى المكان الصحيح. وإنه لأمر معين أنه لا يلقى هنا سوى المرأة التي كانت في المرأة الأخيرة قد لفتت انتباذه بسلوكها الفاحش والحياني. وهي وحدها تكفي على ما ييدو لتبيح له النظرة الفاحصة الضرورية الأخرى في المحكمة حيث تلم المرأة، بصفتها زوجة حاجب المحكمة، بكل شيء على المستوى الأدنى على الأقل، إذ أنها تعيش مباشرة في هذا المحيط. وهذا يعني أولاً أنها فريسة جنسية لكل من يملك سلطة ما في هذا المجتمع. وقد خضعت لهذه المعطيات وكأنها قانون طبيعة ضروري رغم أنها تجد ذلك ولاريب أموراً كريهة. لا بل إنها تتمتع بأن الطالب الطموح يستهينها، وأن قاضي التحقيق ذا النفوذ المزعوم يقدم لها هدايا لقاء خدماتها اللطيفة. وزوجها عاجز أمام

هذه الخاتمة الظاهرية وتواجد مع الأمر؛ وعليه أن يتحمله إذا ما أراد الحفاظ على وظيفته.

إن وعيك، الذي تيقظ بـ الاعتقال، يلزمك بالتدخل هنا، وذلك من أجل الحفاظ على كرامة الإنسان. هذا من مكارم الأخلاق. لكن هل يقدر أيضاً أن يرفع زوجة حاجب المحكمة من قيungan وجودها الحيوانية؟ صحيح أنها تقدر أن تريه الوسخ وال حاجات البدائية ومشاق حياة سطحية، تملاً على أدنى مستوى كتب هذه المحكمة. لكن زوجة حاجب المحكمة لا تستطيع أن تقدم شيئاً آخر. وعندما يرفض تقاريرها الجنسي وبهذا المساعدة المعروضة، ويعتبر ذلك عديم الأهمية، يدرك أنها أضعف من أن ترغب في حياة أسمى وأكثر جدارة بالبشر. وبرود ينتقد الفرق الجوهرى مع هدفه الخاص به بالكلمات التالية: إنك تنترين إلى المجتمع الذي يجب علىي أن أكافحة، غير أنك تشعرين بالراحة فيه. بينما تستغنى المرأة عن السعي إلى قيم أسمى، فإنها تراعي الحاجات المباشرة والمعطيات وظروف السلطة، وتحضن لها تلاؤماً، تأخذ تحت هذه الظروف من الشيء أحسنها ولا تزيد بأي حال أن تُحرّر. في ما يتعلق بإمكانية حرية الإنسان تشعر أن ذلك فوق طاقتها. من شأن هذا أن يعني هلاكى.

على خلافها، تعني الحرية بالنسبة إلى يوزف لك التمرد على العادات المريحة والأآلية. تعني له كفاحاً ضد تسطيحات الحياة اليومية الخطرة، كفاحاً ضد الرشوة، ضد الجن والكسل والنسيان، ضد النطاول وشهوة السلطة. لكنه يعلم أيضاً مدى صعوبة هذا الكفاح ضد عادة خاملة متبلدة الذهن. ورغم أنه يظن أنه في البيت متتفوق بحق ألف مرة على كلٍ من هؤلاء الناس، فإن الواقع في الخارج يبيّن له عجزه الميؤوس منه حقاً. ففي صراعه

في سبيل المرأة ضعيفة الإرادة يُهزم بلا أمل أمام الطالب المتفوق جسدياً، ويدرك مضطراً أن هذه كانت الهزيمة الأولى المؤكدة التي لحقت به من هؤلاء الناس. ومن غير المتوقع أن يمنحه الأمر عزاء حقاً عندما يريد أن يستعيض عن ذلك لدى عشيقته المشكوك فيها ويقارن نفسه لديها لصالحه مع الطالب. بهذا يهبط وحسب إلى الدرجة الواطئة نفسها.

من وجهة نظر الحياة اليومية والسائل السطحي تبدو الحرية غير صالحة لعامة الناس. يقول الطالب رداً على تحديات ك: ما كان ينبغي أن يترك يتجلو بحرية هكذا... كان ينبغي حجزه في حجرته على الأقل. إلا يمكن إذاً تحقيق الحرية بعامة؟ ألا توجد سوى في الخاص وفي المفرد؟ ما من شك أنها امتياز الإنسان الفرد. لكن من يحسن استخدامها؟ نظراً لسوء العالم وفساده يراود ك في هذه الحياة أن يكون راضياً بتجاهله المهني ورخائه الاجتماعي واستقامته الشخصية، لكنه يتمكن، دون مشاركة ومن مسافة مناسبة، أن ينظر من أعلى عبر زجاج نافذة كبير إلى صخب السوق في الأسف. لكن ألا يقود دور المراقب هذا بالضرورة إلى المعرفة، وألا تلزم المعرفة بفعل مطابق لها؟

في حديثه مع حاجب المحكمة يعلم ك هموم هذه الشخصية وأمانيتها الخفية. وغيره ك نفسه تدعه يشعر بشعور هذا الرجل ويفهم المهامات التي لحقته ودفعته، وهو يتفضض غضباً، إلى أن يحلم بأخذ الثأر الأكبر وحشية بخصمه. غير أن آماله تظل مجرد حلم، وذلك لأنه يستسلم، متخوفاً ومن غير اعتراض، لظروف السلطة الراهنة. حتى تمرّد الداخلي المعطل يزعجه ويظهر ضعفه. وعلى العكس من ذلك، فإنه مقتنع أن مدعى عليه، أي معتقل مثل يوسف ك، يمكن أن يكون لديه أمل بالنجاح. وطبقاً لذلك، فإن الإدعاء يعني تمرداً على الحتميات الشكلية المفتعلة، يعني وعي الحرية وسط

الضرورات. لكن الادعاء يعني أيضاً العراق الفعال مع المعطيات، يعني كفاحاً مستمراً وجهداً مستمراً.

إن زيارة يوزف لك اللاحقة لمكاتب المحكمة - صعود إلى مستوى أعلى - توفر له إطلاعاً أكثر دقة على الأخطار التي يظل المدعى عليهم معززين لها بعد اعتقالهم. وأول ما يلفت النظر هو أنه لا يراعي أحد منهم إطلاقاً. إنهم يقفون متظرين في المرات المظلمة التي يدخل إليها بعض الضوء عبر قضبان خشبية. وكانوا جميعهم يرتدون ملابسهم بإهمال، لكنهم، على ما يبدو، إنما يتعمون إلى الطبقات العليا. ورغم ذلك كانوا يعاملون وينزلون مثل شحاذين. صحيح أن محاكمة هؤلاء الناس مع الادعاء عليهم أثار تغييراً في القيم، لكنهم يقفون عاجزين وفي حيرة من أمرهم إزاء الأسئلة التي يطرحها هذا الادعاء وهذه المحاكمة حول المعنى الجديد لحياتهم. وهذا يصيب حتى إنساناً ذا خبرة بالحياة بالارتباك والاضطراب الكامل، وفي آخر الأمر بخوف وحسب. دون أن يقوم المدعى عليهم بشيء، ينتظرون في بأسائهم أن يحدث شيء ما من الخارج. لكن هذا الانتظار لا يظل بلا جدوى وحسب، بل إنه يزيد أيضاً التبعية وعدم الاستقلالية ويزيد بهذا في الوقت نفسه سطوة السلطات في الطرف الآخر (بصیر التاجر بلوک، الذي يتواجد بين هؤلاء المتظرين ويربطه بهم شعور النحن، يجري في ما بعد تبيان مدى العبودية التي يؤدي إليها هذا السلوك الخاطئ).

وقد ضاق صدره كفايةً مما كان قد شاهده حتى الآن، يشعر ك بصواب رأيه أن مخبر هذه المحكمة إنما هو مُقرف مثلكما هو مظهرها. ومع أنه لم ير كل شيء بعد وبهذا لا يقدر أن ينصف المحكمة مطلقاً في كامل أهميتها، مع أنه حتى يخشى أن يصل الطريق الصحيح من بين الإمكانيات الكثيرة، فإنه لا يريد أن يرى أكثر. «لا، لا»، قال لك. وسلوكه الحازم لا يظل

دون تأثير على الطرف الآخر ويحتاج إلى شركاء آخرين. لذا يظهر مكان حاصل الحكم الفتاة ومقدم المعلومات. إنه يعطي الأطراف المستترة كل المعلومات التي تحتاجها... إنه يعرف جواباً على كل سؤال. وعلى عكس الانتظار غير الفعال وغير المجدى تشير المبادرة الفردية الفعالة، على الفور، حركة في السلطات. لكن هل تجلب منفعة أيضاً؟ في هذا الموضوع لا بد من نفي السؤال نفياً قاطعاً.

متعباً ومرهقاً ومرتبكاً من انطباعاته عن محكمته يصاب كبنوبة ضعف تمع تحولاً كبيراً ما معه يبدو وشيك الواقع. يجب الآن الحيلولة دون ذلك، لأنه لا يريد أن يتبع الدخول ولا أن يدخل به أكثر. ويدرك أنه كلما دخل أكثر كان لا بد أن يزداد الحال سوءاً. إنه يخاف فجأة من الصعوبات المتزايدة لدى التغلغل في ماهية الحكم وسبر سرّها العصي على النهاذ. لذا بدلأ عن الاختراق المحتمل يتبع الآن انهياره. هذا الانهيار يعتبر عن عدم قدرة كـ الراهنـة أن يوقـق بين المطالب العليا التي تطلب منه منذ اعتقالـه وبين حياته السابقة المألوفـة. لكنـه بهذا يفقد بالضرورة استقلاليـته وحرـيته؛ يصبح مرتبطـاً بمثـليـ السلطاتـ، ويـشعرـ أنهـ تحتـ رحـمـتهمـ مثلـ شيءـ، مثلـ لوحـ منـ خـشبـ يـخـضعـ لـضـرـورـاتـ قـانـونـ الطـبـيعـةـ. إنـ حـالـتـهـ الحرـجةـ تعـكـسـ شيئاًـ فيـ الصـورـةـ التـالـيةـ: كانـ كـ يـحسـ خطـواـتـهـماـ المـتنـظـمةـ دونـ أنـ يـشارـكـ فيهاـ، إذـ أنهـ كانـ يـحملـ منـ خـطـورةـ إـلـىـ خـطـوةـ تـقـرـيـباًـ. هـذـاـ التـخـليـ القـاتـلـ عنـ الذـاتـ يـطلـقـ فيـ الحـكـمـ بـكـامـلـهـ إـشـارـةـ إنـذـارـ مـذـعـورـةـ، صـوتـاًـ يـطـغـيـ علىـ كلـ شيءـ آخرـ، ضـوـضاءـ كـانـتـ تـمـلـأـ كـلـ شيءـ، وـالـتـيـ نـفـذـتـ منـ خـلالـهاـ نـغـمةـ عـالـيةـ غـيرـ مـفـهـومـةـ بـدـتـ تـدوـيـ كـأنـهاـ منـ صـفـارـةـ. إـنـهاـ صـرـخـةـ الرـعـبـ التيـ تـجـبـ بـهـاـ الـمـحـكـمـةـ عـلـىـ العـجـزـ المـطـلـقـ لـلـإـنـسـانـ.

إنـ نـهـاـيـةـ الفـصـلـ تـبـيـنـ يـوزـفـ كـ يـرـيدـ أنـ يـخـرـجـ منـ مـحاـكـمـتـهـ. إـنـ يـوـدـ

أن يتخلص من المهام الصعبة التي أقيمت على عاتقه مثل عبء ثقيل، وذلك بتميزه من خلال المعرفة وحرية عقله. يعني أنه ملزم بتبرير سلوكه الذي أثاره فيه اعتقاده. وعلى هذا الوعي أن يُطمس الآن ثانية، وذلك كي تعود الحياة المباشرة إلى الظهور وتأخذ مكانه كما كان الحال في السابق، هذه الحياة التي لا تسمح حتى أشغالها بالتفكير. وعلى العكس من ذلك يجب على الحكمة أن تنهار في مثل هذا العالم، إذ أن حرية العقل تبادل فيه بالحرية نحو كل الجهات، هذه الحرية التي لا يعطيها Kafka، في سياق آخر، سوى للحيوانات. وبالتالي لا يوجد أيضاً في العالم معاناة للعقل، وإنما للجسد وحده. ومن أجل هذا يذهب المرء إلى طبيب، ومن أجل المتعة الجسمية يذهب المرء إلى النادلة إنرا.

إلى إلزا

في النص القصير إلى إلزا يجري، على نحو سريع، فحص القرار بعدم الاكتراش بعد الآن بالتحديات المقبلة للمحكمة واستخدام وقت الفراغ بشكل أفضل. إن الترابط المباشر مع الفصل السابق واضح جلي. صحيح أن المحكمة تبرز مجدداً الإرادة الحرة للإنسان وبهذا حرية قراره، لكنها تشير بقوة في الوقت نفسه أنها لاتدع يُسْخَر منها، وهذا يعني: إن حرية العقل تترافق دائماً بالضرورة مع المسؤولية وعليها باستمرار أن تبرر نفسها. ومن يسيء استخدامها مستهراً، يلغى بنفسه قدره العقلي. لا يعود في النهاية يسمع صوت عقله، الصوت الذي حَفِّتْ ثم تبَدَّد؛ وبهذا يسلب الإنسان تمييزه الممكن، دون أن يلاحظ شيئاً بادئ الأمر على نحو واضح.

ومن الآن فصاعداً نسي ك المحكمة، وببدأ التفكير بالمصرف يملأه ثانية كلية كما كان الحال فيما مضى. إن ك يلقى بنفسه إذاً في غمرة الحياة اليومية الحالية من التفكير والمتعلقة بالمهنة، ويتسلى للراحة لدى نادلته خفيفة الظل. وقد يكفي هذا لإلهائه مؤقتاً. لكنه لن يكفي لمنع حياة إنسان جديّ معنى على الدوام، لهذا يمكن تقدير متى سيوقظه صوت عقله ثانية ويطلب تبرير هذا العقل.

٦ - الآمال الخدّاعة والانحرافات الممكنة

- صراع مع نائب المدير -

إن قرارك بعدم الاكتئاث بمحكمته بعد الآن يدعه يظن برعونة أنه يستطيع بطريقة ما أن يمحو هذه المنظمة الكبيرة التي لا يحيط بها البصر أبداً، وأن يعود ثانية إلى حياته السابقة الناجحة والخالية من الهموم. مُعززاً بخداع النفس هذا يُقدم لك مرة أخرى على قياس نفسه بنائب المدير، الذي هو أكبر منافس له في الصراع حول المنصب والاعتبار في المصرف. لكن بعد اعتقاله وما سببه هذا الاعتقال من تغير في القيم ومن إرباك في حياته، فإنك لم يعد في هذا المجال قادراً على المنافسة حقاً. ولا سيما ليس إزاء خصم يلقاء كثفوج من تأدية الواجب ولا يمكن أن يلهي عن المسألة الرئيسية التي تتعلق بالعمل! مثل تلميذ ثفوجي يدخل نائب المدير بأجوبته في الأسئلة، لأنه وضع حياته في خدمة وظيفته وحدها دون غيرها، ويكترس، حاضر الذهن والبدية، وبتصمييم، كل طاقته للموضوع وحده^(*). لذا فإن النصر في صراع المنافسة مضمون له، كما أن الهرمية

(*) الاستشهادان الأخيران هما من مقطع ممحوظ في المخطوطة (أ.و).

مضمونة لـ ك. لكن هل يمكن للنجاح المهني، لشخص لا يطمح سوى إلى التقدم في سلم الوظائف، أن يشكل حقاً الهدف الوحيد للحياة الإنسانية؟ ألا يتحقق الصعود الفظّ في مجتمع التدافع بالمرافق، دائماً، بقدر مخيف من الإنسانية، يدع الإمكانيات التي تسمى بالإنسان فعلاً تضمر وتذبل بلا رادع؟ إن ك الذي تقلقه الهموم الداخلية، الأمل أم اليأس، هو، ولا ريب، الإنسان الأكثر ثراء داخلياً والأكثر قيمة، لكن ينبغي عليه أن يتواجد مع واقع في العالم الخارجي أن كل شيء كان دائماً وعلى وتيرة واحدة كلياً يهدد أن يجري لغير صالحه.

في مقطع محدود من هذا الفصل يوضح كافكا صراع الخصمين غير المتكافئ بثنال صداع كليهما. في حين أن نائب المدير يحس آلامه، بواقعية وقوة إرادة، تحدياً جسدياً، ويغلب عليهما حقاً بطريقة مثالية، بحيث أنها لاتعيقه أقل إعاقة في تفكيره العملي، فإن ك يشعر أن هذه الآلام بالذات إنما توهن وتجففه. إذ أن معاناته لا تعود إلى سبب جسدي؛ إنها تتجذر بالأحرى في أعمق همومه، هموم إثبات الوجود الذهني، كما يكتب كافكا مرة في موضع آخر. هذه الهموم تقضي عنه كل شيء آخر وتسبب من جديد دائماً وأبداً متاعب الرأس، التي تدعوه يدرك حياته مهمة عميقة الغور ورسالة مفعمة بالأسرار.

في نهاية الفصل يبيّن، في صورة شعرية لسارّي حدث لا يمكن التوفيق بينهما، أن ك لا يقدر بعد الآن بلوغ خصمه في المصرف. بينما يقوم نائب المدير بعمل يدوّي أثار همته وينهي في آخر الأمر بمساعدة كامل ثقله، فإنه بهذا العمل بالذات يسبّب الضرر المادي الذي أراد أن يزيله كما يزعم. إن حركته النشطة، لكن التي لانفع فيها، تدع ك يدرك أنه لم يعد يملك شيئاً مشتركاً مع هذا الرجل، ولذا أنه لم يعد عليه أيضاً أن يقيس نفسه به.

إن أمله الأولي باستعادة أهميته السابقة في المصرف عن طريق اقتراح جديد كل الجدة قد تحطم بهذا نهايًّاً. لكن على هذه الهزيمة، في الوقت نفسه، أن تفتح له عينيه على أن الأمر لم يعد يجزي أن يبحث المرء عن غاية حياته ورسالتها في صراع المنافسة في الحياة المهنية. وسوف يتوجب على كأن يواجه تحديات أكثر أهمية وجوهية.

(مع الأسف لا يمكن ترتيب الفصل ترتيباً خالياً كلياً من التناقض. لكن من المؤكد أنه يأتي في أواخر النصف الأول من الرواية. ومن ناحية المضمون يأتي خير ما يأتي قبل فصل العم/لنني).

- العم / لنني -

إن ضرراً يلحق بحياة ك المهنية لابد أن يثير قلقاً لدى أسرة ك، التي تعتبر ابنها شرفاً لها. لذا فإنه يتضرر أيضاً عمَّه أبربت بصفته وصيًّا عليه سابقاً (كافكا يسميه في المرة الأولى، سهواً، كارل). إن ك يخشى نشاط عمَّه المتسلط بغير مبالاة، كما يخشى مباشرته الطبيعية التي يستحوذ بها على كل شيء، والتي جلبت له لدى ك اللقب المميز الشبح القادم من الريف. (إن التفسير اللاحق لنص أمام القانون سوف يحصل من الرجل القادم من الريف على بعض الإشارات التي لها هنا أيضاً دلالة كبيرة). إن إصابة علاقة ك بأسرته بضعف، يجري تبيانه بمثال ابنه العم، التي هي تلميذة مدرسة ثانوية صغيرة السن في الثامنة عشرة. إننا تختلق هدية شوكولاتة، تختفي في النزل على الفور، أي أنها لا توجد قط. إن إرنا تفعل ذلك كي تخفي ابن عمها، الذي نسي تماماً عيدي اسمها وميلادها، أمام العم وزوجته. لكن بالذات هذا الضمور للرابطة العائلية يصبح السبب لأن يعلم العم بضائقة ك ويتدخل طبعاً على الفور بغير رادع.

وهو مازال في دور الوصي إلى حد ما، يريد العم أن يتولى عن ابن أخيه اتخاذ جميع القرارات، وهو مقتنع أن إجازة في الريف سوف تقويه. وإن أن القضية لاتتعلق بالمصرف وليس أبداً محاكمة أمام المحكمة العادلة، فإن العم يدرك مصاعب ك المستحکمة، ولذا يريد أولاً أن يقربه ثانية من الحياة الطبيعية المباشرة في الريف. على الطبيعة السليمة أن تصد وتنزيل ما يعرض العقل للأخطار. هو نفسه في خشونته مثال، بكل تأكيد، على هذا النجاح المريب: في الريف تخفّ دقة الحدس لما هو بعيد الغور ورهيف! غير أن ك يعارض هذا الاقتراح المضلّ الذي من شأنه أن يفقده إحساسه كإنسان، ويريد ملاحقة الموضوع بنفسه بكل قوة، هذا الموضوع الذي هو من أخص خصائصه. صحيح أن العم أيضاً يرى على الفور أن هذا أفضل بكثير طبعاً، لكنه لا يفكر بأي حال أن يترك لابن أخيه أقل قرار. إن هذه الوصاية المستمرة تسلب ك، بالذات، الحرية والمسؤولية اللتين استدعتهما المحاكمة إلى وعيه.

إن الحركة والعجلة اللتين تميزان العم، لاتدعانه يثوب إلى نفسه. لكن الرشد يعتبر شرطاً هاماً وحاسماً لأن تأخذ المحاكمة مجرى سليماً. إن ك يعرف: كلما زاد هدوئي، كان الحال أفضل بالنسبة إلى النتيجة. أما بالنسبة إلى عمه، فإن ما هو أكثر أهمية الآن هو عدم إضاعة وقت. بهذا المعنى يصبح نشاطه الدائم هدفاً لذاته، هدفاً سطحياً بشكل مباشر. فعندما يياugt ابن أخيه دون أن يُسأل، ويجرّه بسرعة مألوفة إلى محامٍ لكي يدعاه يساعدته عن طريق معارفه الكثيرين ذوي الفوْد، فإن هذا يوافق، بالإضافة إلى ذلك، افتراضه الخاطئ بأنه يمكن إنجاز كل شيء من الخارج بفاعلية وحركة. لكن المساعدة التي يوفرها، تصبح بهذا على الفور مريبة ومشبوهة؛ إذ أن يوزف ك يقع وحسب في تبعيات ووصيات جديدة، لكنها في هذه

المرة تمس مستوى المحكمة، وتدعى وبالتالي لسبر غورها. إذ أن المحكمة تعكس دائمًا وضع ك في ضوء أكثر وضوحاً وتدعه، من ثم، يدرك هذا الوضع على نحو أفضل.

يبينما يترك لك كل شيء - وإن كان ذلك سبب له انزعاجاً - للعم، الذي يتفاخر بعلاقاته مكشراً عن أسنانه، فإن الناجر بلوك يعطي انطباعاً أولياً عن نفسه، إذ يقول بصوت متخفف للغاية الملاحظة الغائمة نفسها التي تكررها لنبي بعيد ذلك حرفيًا والتي قالتها له سابقاً على ما يبدو: السيد المحامي مريض. في الظلمة الوانية التي تسود في مسكن المحامي المضاء إضافة حقيقة يقابل لك من ثم شبكة غريبة من التبعيات. فكما يخضع هو لعمه، وبلوك لنبي، يذعن العم، من غير ا反抗، لكل ما يقوله المحامي، وهذا بدوره يقدم خدماته بانحناء رأسه وباتسامة خضوع إلى مدير الديوان، الذي استلم بعد ذلك على الفور ناصية الحديث. إنها مجموعة تمثل مجتمعاً يسود فيه دائماً الأفوى سيادة غير مقوصة وبلا حدود، بينما يضطر الضعيف المغلوب على أمره إلى أن يرتضي كل شيء بإجلال وخشوع. هذه المجموعة، في تدرج مراتب أعضائها، تشابه ولاشك مجموعة المقهى المداومة التي انضم إليها لك سابقاً، لكنه الآذ يراقبها ويقيّمها نقدياً أكثر ومن مسافة أبعد... على مستوى المحكمة إلى حد ما: مشهد يشع! هكذا يقضي حكمه الأخير. ورغم أن الأمر كله يدور حول قدرك الشخصي، فقد أهمله مدير الديوان كلياً بل وربما عمداً وتحول إلى مجرد مستمع إلى الرجال كبار السن. إن تصرفهم المتكتير يطمسه بكل بساطة بصفته شخصية مستقلة. وبهذا يهان إنسانياً. فيستسلم عن رضى حاطر أكثر إلى غواصه الطبيعية.

مadam المحامي يظن أن زميله في المدرسة إنما يقوم بعيادته مريضاً، فإنه

يضع مرضه القلبي في المقدمة. لكنه حالما يتنتسم صفة مع زبون جديد، فإنه سرعان ما يتيقظ كلياً ويصبح قوياً. لكن هل يمكن أصلاً توقع مساعدته من مثل هذا الإنسان المريض مرضاً شديداً؟ أليس المرض بالأحرى تعبيراً عن العجز والخيرة إزاء المصاعب الشخصية للإنسان آخر؟ في موضع آخر يقول كافكا نفسه ذات مرة: إن فكرة الرغبة في مساعدتي هي مرض يجب شفاؤه في الفراش. هنا تجوز الإشارة مرة إلى أن المحامي إنما يغادر فراشه بعد أن أحضره لك وألغى توكيله له. إن مرض المحامي يعني إذاً في الواقع التطاول المزدري بالبشر وتحويل الهموم والمتاعب العقلية - الروحية للإنسان آخر إلى صفة مثمرة، أي استغلال آلام الآخرين بشكل لا يرحم. يجب التحذير من مثل هذه التجارة بالخوف. يجب فضحها والتشهير بها! إن لعنة مرض القلب، هذه اللعبة متعددة الجوانب شعرياً، هي مثال معتبر من أمثلة في التعبير اللغوي لدى كافكا.

ومن يقع بصفته زبوناً تحت رحمة المحامي، يستسلم أيضاً بالضرورة إلى الإغراءات الجنسية خادمه. إذ أن من يستغني عن حرفيته واستقلاليته، يتبع بالضرورة التوجيهات الغرائزية ل حاجاته الطبيعية. إنه يستسلم، من غير اعتراف، لقوابين الطبيعة ويخضع لضروراتها. هذا تماماً ما يقصد عندما توضح لني: هذه الحكمة لا يمكن صدّها، ولذا تأخذ عليه عناده وتشدده وتعتبر ذلك خطأه الرئيسي. وعلى العكس من ذلك، فإنها هي نفسها ترى كل مدعى عليه وزبوناً للمحامي جميلاً ومرغوباً فيه. إنها تنام مع كل منهم، وتريد منك أن يستبدل بها عشيقته، النادلة إلزا. إن عجز لني عن الرواج كرملة شخصية يعبر عنه كافكا شعرياً بصورة عاهة: بين الإصبع الوسطي والبصري ليدها اليمنى يتد غشاء يصل إلى المفصل الأعلى، بحيث أنه من غير الممكن حمل خاتم زواج. إن لني هي امرأة متعة، مطيعة،

ذات وجه مستدير مثل وجه دمية، ترید، بخفة وحب للحياة، أن تُبعد المدعى عليه عن التفكير بالمحاكمة. ليس عليه سوى أن يشارك ويترك نفسه للعبة الطبيعة، وهنا لن يترك مخلبها الجميل ضحيته مسلوبة الإرادة. الآن أنت لي، تقول لني بعد أن سجنته إلى السجادة. كافكا يضيف في هذا الموضع من مخطوطته كلمة نهاية.

لاشك أن لني توضح للمدعى عليه يوزف ك وضعه الخاص به، متتجاوزة الحاجة الجنسية. إنه يدرك كيف جرى تأثير حجرة مكتب المحامي بظواهرها الضخمة من أجل التأثير على موكله محامي الفقراء وتخويفهم. هذه المباهاة بالسلطنة الظاهرية مع ادعاء الأهمية تبلغ ذروتها في صورة كبيرة... تمثل رجلاً في رداء القضاة الرسمي... يجلس على كرسي عرش عال. يعلم ك من لني أن الرجل صغير جداً تقريباً، وهو مجرد قاضي تحقيق صغير معجب بنفسه على نحو جنوني، مثل الجميع هنا، ترك نفسه يُرسم في وضعية حاكم مثيرة للرعب. إن خواص حركة التهديد، التي هي اختلاق، تدل في الوقت نفسه على نقص في الهدوء والوقار، الأمر الذي يكشفه ك، كما يكشف ثرثرة الشیوخ في حجرة المحامي المريض. ورغم أن ك يدرك بشكل صحيح ولاريب، هذه المعطيات، فإنه يثابر أولاً في تبعيته للمحامي وخادمته، وهو مكتوف اليدين. ولو استمر هذا الحال دون تغيير، لكان ك قد تنازل عن همومه العقلية - الروحية الشخصية إلى إله وشی مريض، لكي يتمكن من تحقيق رغباته الجسدية. كان من شأنه أن يدفع للمحامي أجره، وأن يدع لني تلهيه. من شأن الإنسان، بهذا، أن يذلّ نفسه بنفسه إلى درجة الحيوان. وهذا خليق أن يكون فعلاً نهاية كل كرامة إنسانية.

- نص جزئي -

كان لا يمكن للرواية أن تستمر، لو لم يتحرر يوزف ك من سائر التطبيقات والمحصارات التي تخنق كل ما هو إنساني. حتى أن مباشرية لبني كانت في آخر الأمر قد حكمت على الرجال في حجرة الحامي بالصمم؛ إذ كان يوزف ك قد استسلم طوعاً للإغراءات الجنسية، وترك نفسه يُشغل كلياً عن همومه التي تعني صفةً بالنسبة إليهم. صحيح أن العم يتحدث عن لبني بصفتها فتاة صغيرة قدرة، لكنه يراها أيضاً عشيقة الحامي، ويخشىها من ثم لأسباب أخرى غير ك، الذي يتوق إلى الآنسة بورستن، وقد ثارت في نفسه فجأة الحيرة والكآبة. هذا التوقي إلى المرأة كشخصية مستقلة ذات إحساس بالمسؤولية يتحكم في الحدث في النص الجزئي المؤلف من صفحة واحدة، والذي يجب أن يتبع الفصل السابق مباشرة، ويختتم النصف الأول من الرواية. مشمراً من كل ما أثاره العم وفعله، يبذل ك الآن كل ما في وسعه لكي يتخلص منه بأسرع ما يمكن. هنا وحسب تفتح له ثانية إمكانيات جديدة تؤمل بحلول أكثر جدارة بالإنسان، والتي تعتبر الآنسة بورستن رمزاً لها وعظة. هذه الحلول سوف تسيطر على النصف الثاني من الرواية.

II - تحقيق الحياة

لابيستر سوى للشخصية المستقلة

١ - حرية القرار بالسلوك الصحيح

- في الكاتدرائية -

كانت تجارب ك حتى الآن مع محكمته قد وصلت إلى طريق مسدود. كان من شأن نصائح العم العملية في ظاهرها أن تؤدي من الوصاية إلى الحرمان من الحقوق. وكان من شأن كأن يستسلم روحياً للمحامي وجسدياً للنبي. ومن حسن حظه أن توقه إلى الآنسة بورستر، الذي جاء في الوقت المناسب، يقيه من هذه النهاية المهينة. هذا التمرد يدفعه يعود ثانية إلى نفسه، إلى احترام الذات. وفصل في الكاتدرائية يدلّه على مخرج العجالة. إنه يفتح التحول الموجّه... تماماً في منتصف المحاكمة التي استمرت عاماً واحداً.

بينما يجري الاعتقال صباح يوم من أيام الربيع، ويجري تنفيذ الحكم مساء يوم بعد عام من ذلك، يقع الحدث الحاسم الآن عند الظهر وفي طقس

خريفى مطر. وعندما يتحول هذا الطقس في منتصف النهار إلى ليل دامس وزرعة خطرة، فإنه يوضح لك مدى ضلاله، ويستحضر ضرورة رجوعه. لذا فإن فصل في الكاتدرائية هو، مضموناً وفياً، وبلا أدنى شك، الفصل المحرري في الرواية؛ ومكانه هو، بالضرورة، في منتصف الرواية ومركزها.

في نصفها الأول يتجلّى تقدّم تحلّل قوّة العمل من خلال المحاكمة. إن الوكيل القانوني التي تلّع عليه همومه لا يستطيع أن يحفظ سمعته في المصرف سوى بجهد كبير. بإحساس مسبق يرى سلفاً كيف سيختبر حتماً زبائن عمل أصدقاء ويكسّبهم خصمه. ويعرف يوزف لك بقلقه لأول مرة. صحيح أن هذا القلق يضيره في عمله ويحرمه من طاقته، لكنه يوقظه أيضاً شخصياً من سباته، ويرغمه على توجيه انتباذه إلى ما هو أهم من العمل اليومي. إنه القلق المفعم بالحدس والذي يقطع الدماغ، الذي يقول عنه كافكا أنه أفضل مالديه، وذلك لأن توقه إلى ما هو أسمى إنما يتتجذر في هذا القلق. وإلى المدير المتفهم والمعاطف يعود الفضل ولاشك في إتاحة الفرصة لوكيله القانوني في زيارة الكاتدرائية أثناء العمل. بهذا يمكن ربط العملي والشخصي بشكل لا يكاد يُحسّن به. إن الصديق الحق يجد إذاً حتى في صراع المنافسة اليومي الذي لا يرحم فرضاً يكون فيها إنسانياً ويساعد فيها إنساناً آخر.

إن م.ى. يتمـ. يوزف لك، مهنياً، على رئيسيه في هذا الوقت، يوضّحه كافكا بمثال معرفة لك باللغة الإيطالية. لقد كلف بأن يُري بعض الآثار الفنية لصديق عمل إيطالي. في بينما يرى المدير أن لك سوف يقوم بالأمر على خير وجه، لأن لغته الإيطالية جيدة بشكل مفاجئ، يلاحظ هو بازدحام كبير أنه لا يفهم الإيطالي سوى جزئياً. وعلى خلاف ذلك، فإن المدير يتقن لغة صديق العمل بما كانت لهجتها. وإذا يدرك متاعب لك، يفهمه من

خلال ملاحظات اعترافية قصيرة، وفي فطنة ورقه، كل ما هو مهم. لا بل إنه يقلل من قيمة الضيف من ناحية العمل، وذلك كي يساعدك في ضيقه. إن هذا الانسجام الودي يتميز، بشكل مريح، عن الإزعاجات والعداءات في بقية عالم العمل، الذي لامكان فيه لهموم شخصية.

مثال لعة شريك سهل بين كافكا كم أثقلت المحاكمة على عملك في المصرف في هذه الثناء. وبهذا تحققت المهمة الفنية للإيطالي، وانتهى دوره. وأذ أنه، فوق ذلك، بصفته مولعاً بالفنون، قد أيقظ من جديد معلوماتك السابقة في مجال تاريخ الفنون، لكنه لا يظهر بعد الآن من أجل مشاهدة الكاتدرائية، فإن السبب المباشر المتعلق بالعمل يتناسى ويُقصى كلياً؛ إن الكاتدرائية تصبح تحدياً شخصياً بالنسبة إلىك! وإذا هو قبل هذا التحدي، فإنه ينبغي عليه أن يسمو نحو هدف أعلى. وهذا يعني بالنسبة إليه مهمة ذهنية مستمرة وبهذا، في الوقت نفسه، رفض الحياة المباشرة المعطاة من الطبيعة أو، بلغة الشعر، الاستغناء عن لبني. إنها عدمة التفهم إزاء زيارته للكاتدرائية. تزيد طبيعة بدل عقل، سعادة متناهية بدل توق لامتناه. لذا فإنها تحدث على الفور أرك يوشك أن يفلت منها.

لكي تُترك الكاتدرائية تحدث أثرها بشكل كامل، يجب إزالة كل ما هو غير جوهرى من الطريق. جميع ستائر التواجد... كانت مسدلة، وكان ميدان الكاتدرائية خالياً كلياً، وفي داخل الكاتدرائية كان يعم ظلام تام: لأشياء يمكنه أن يلهمي لك عن الجوهرى، بحيث يضطر إلى توجيه انتباذه بкамله إلى الهيكل الرئيسي وصورة الهيكل، إلى المنبر الكبير، وأخيراً إلى منبر جانبي صغير. إن الأمر يحتاج إلى تأمل طويل وإلى ضوء مصباح جيب خاص - إن الضوء الأبدى المألف يبدو أنه يرتعج بالأحرى - لمعرفة ما تقوله صورة الهيكل ويدعو للاستغراب: إن الإنسان المدرع والمسلح يراقب،

صحيح، باهتمام... مشهد دفن المسيح والأمل المألف الذي يعبر عنه، لكنه في آخر الأمر يعجز عن الاقراب من هذا السر. ربما ينبغي عليه أن يكتفي بأن يأرق، وهذا يعني أن يراقب بنيقظ ويستنتاج لنفسه استنتاجاته. إن يوزف ك يحدس جيداً أنه يمكن لتفسيره أن يحتاج إلى مساعدة. لذا فإن نظره يقع على النبر الكبير للكاتدرائية كمكان للتتوسط بين الإنساني والإلهي. لكن كافكا يعلم أن التفسيرات العامة والساربة بالنسبة إلى الجميع لا تحدث، في هذا العصر، تائياً مقنعاً. إن الإنسان العصري يشعر قبل كل شيء أنه فرد يريد أن يفهم، طبقاً لخاصيته، فرداً فريداً من نوعه. هذا هو معنى الوعظ الشخصي من النبر الجانبي الضاء الذي يُغيّر عن أهميته الفائقة بالقول إنه مخصص لاستقبال قمثال قديسين^(*)، أي سمو الفرد المسعد. ويلاحظ لك، وقد أدركه التأثر، أي هدف يمكن بلوغه وأن ضخامة الكاتدرائية تبدو وقد بلغت تقريباً حدود ما يحتمله البشر. ويدرك أخيراً أن كل شيء حقاً وفي غاية الموضوع معدّ له وحده دون سواه. إن القس لا يتوجه إذاً إلى طائفة، ونداؤه لا يخص سوى لك وحده. بهذا يتكرر هنا حرفاً النداء الذي ثبتت به المراقب الاعتقال وافتتح المحاكمة في الفصل الأول. يجب الآن أن يظهر فيما إذا كان لك قد أصبح في هذه الأثناء أكثر حكمة، فيما إذا كان يدرك الآن الإمكانيات والمعونات التي تقدمها له محكمته ويستخدمها استخداماً مجدياً.

في منتصف الفصل تماماً يلتقي لك القس. إن مرکزه بصفته قس السجن يثبته على الفور معيناً للمدعى عليه، الذي يستطيع أن يتوقع منه إشارات حاسمة. وفعلاً يؤكّد القس أن حلول لك في الكاتدرائية يتفق مع توجيه من محكمته: لقد ترکتك تدعى إلى هنا... كي أتحدث معك. كل

(*) كلمة قديسين مشطوبة في مخطوطة يد كافكا (ا.و.).

شيء آخر (مثل السبب الظاهري المتعلق بالعمل مثلاً) لا يقام له وزن بعد الآن. دع الثانوي، جاء في الأمر الموجّه، لكي يرتكز فكره على الجوهرى في سعادته، ويطرح على نفسه السؤال عن المعنى الحقيقي لحياته. ولا يمكن في آخر الأمر الإجابة على هذا السؤال سوى انطلاقاً من الهدف. ولذا فإن السؤال الذي يحسّم كل شيء يجب أن يكون: **كيف تتصور النهاية؟** وجواب على هذا السؤال عن معنى الموت، يعني بالنسبة إلى كافكا، دائماً في الوقت نفسه أيضاً الجواب على السؤال عن معنى الحياة. فقط الأمل المليء بالأسرار بموت ذي معنى يقدر أن يحقق الحياة البشرية وينحها سمواً. لاشك أن كافكا لا يبعد في أي مكان بخلاص، ورغم ذلك فإنه يحلم به، ويسعى قبل كل شيء إلى أن يشكل حياته بحيث أن يكون في كل وقت جديراً به ويستحقه. هذه القناعة اتمنها الشاعر كافكا يومياته. إنها المبدأ والقاعدة لكامل السلوك الخلائق بالإنسانية.

وقبل أن يروي القس ليوزف لك المثل ذا الدلالات الكبيرة، والذي يستطيع فيه، كما في مثل مرآة، أن يدرك سلوكه الخاطئ حتى الآن، يهيئة إلى ذلك من خلال بعض الإشارات المبدئية. من يستند مثلاً إلى مقوله القدر المشتركة للبشر جميعهم، فإنه يخطئ في تقدير التمييز الشخصي لكل فرد. وعندما يحاول أن يندمج وسط الجمهور العام، فإنه يسلب نفسه كل إمكانية حياة ذهنية، هذه الحياة التي لا يمكن تشكيلها وتحقيقها سوى عن طريق حرية الشخصية المستقلة، وحدتها دون غيرها. من يعلن إذاً: **كيف يمكن إذاً لإنسان أصلاً أن يكون مذنبًا.** إننا هنا جمعينا لبشر، على حد سواء، عليه أن يقبل الرد: هكذا اعتاد المذنبون أن يتحدثوا. أو من يستسلم لغائزه الطبيعية وهو مسلوب الإرادة، أو يسلم نفسه للنساء دون تمييز، فإنه يذلل نفسه إلى درجة الحيوانية ويغرق في ظلمتها. إن السقوط الوشيك،

الناتج عن ذلك، في قيungan اللإنساني، يطلق صرخة غضب القدس التي تهزّ
ألا ترى إذا على بعد خطوتين؟ ويدرك ليوزف كنية القدس الطيبة، ويضع
ثقته فيه، وبهذا يستقبل أيضاً حالاً المصباح الصغير، الذي يقدر أن يجلب
بعض الضوء إلى ظلمته. ويعلم أول ما يعلم أن أمله بأن يتمكن من أن يحيى
خارج المحاكمة، أي أن يتتجاهل التحدي الذي دخل إلى وعيه بالاعتقال،
إنما يعني خداعاً وخيم العواقب وإساغة فهم المحكمة. ولكي يشرح له القدس
هذا، يكشف له عن الكتب التمهيدية للقانون، الذي يحدّد فيه، بشكل
واضح جلي، ماهية ومصير الإنسان في بنية معنى الخلقة المليئة بالأسرار. إن
الأخطار التي يتعرض لها الإنسان في هذا، يستحضرها مثل أمام القانون.
من نهاية التي تحسم كل شيء يوضح ليوزف كسلوكه الخاطئ حتى الآن
ويرغمه على تغيير موقفه.

- أمام القانون -

في الأمثلة يوصف قدر إنسان جرى اختياره ولاري إلى ما هو
أسمى، لكنه، تقصيرًا منه نفسه، يخطئ الهدف الذي يمكن بلوغه. في
وجوده المباشر والطبيعي يكتشف الرجل من الريف، فجأة، قانون حياته
المسيطر على كل شيء. يعيه أولاً في صورته الخارجية، والتي تبدو مرشدًا
وعائقاً في آن. في رمز حارس الباب بين كافكا العتبة التي يجب على
الإنسان أن يتجاوزها حتى ينكشف له السر العميق للكلّ. هذه العتبة تعني،
من طرف، الواقع المرئي وسلطة الطبيعة في ضرورتها وفنائها، ومن طرف
آخر توقف، في آن، الأمل بتخطيها الممكن، بخطو عبر الباب المفتوح. هل
يمكن وسوف يمكن أن يتم للإنسان أن يدرك بنية معنى الخلقة، أن يتصير
اللانهائي في النهائي؟ هل سيمكن، وهو في تناهيه الأرضي، أن يشارك في

عظمة وروعة الكل التي لا تدرك؟ لاريب أنه يملك في طاقات عقله مفتاحاً لهذا الأمر. لكن كيف يجب استعماله؟ ماذا ينبغي على الإنسان أن يفعل لكي يتصرف تصرفاً سليماً؟

إن الرجل من الريف ينصل، بالتماسه الدخول إلى القانون، إلى حارس الباب صلاحية الموافقة. ورغم أن حارس الباب يصدّ فوراً عن الدخول، فإنه لا يستطيع أن يستبعد أبداً إمكاناته. وحين يلاحظ فضول الرجل وتوجه المصمم، يتوجب عليه حتى أن ينتهي جانباً ويفسح له المجال للنظر إلى الداخل، داخل القانون، الذي يابه مفتوح مثلاً هو دائماً. لكن حارس الباب لا يترك أيضاً أدني شك بأن صعوبات متزايدة إنما تنتظر ذلك الذي يريد أن يسلك هذا الطريق. لكن من لا يفرغ من ذلك ويندفع إلى الأمام، يسلب حارس الباب سلطته ونفوذه ويحكم عليه، بنجاح، بالصمت، كما جاء في مقطع محدود عن الأسطورة. إن الإنسان المتطلع إلى تحقيق هدفه يتبع صوت عقله. إنه يفهم حياته كمهمة ويعدّها بمعنى القانون المليء بالأسرار. هذه هي رسالته الشاقة والثقيلة، لكنها رسالة مجرية ومفعمة بالأمل.

لكن الرجل من الريف يفرغ من سلطة حارس الباب ومن العقبات المتزايدة إلى ما لا يُعرف مداه. إنه يخشى الكفاح الذي لانهاية له والإجهاد الدائم اللذين تجلبهما حياة العقل معها. فبدلاً من أن يعمل بلا راحة، يقرر أن ينتظر حتى يحصل على الموافقة للدخول. على تقىض فاوست ورهانه، يتخذ القرار وخيم العواقب، بأن يرقد فعلاً على الكتبة ويتناظر، دون فعل، وحياناً ذاتياً للقانون. لكنه بهذا يتنازل عن طاقاته الذهنية، ويستسلم للحاجات المباشرة لطبيعته. وهذا يعني أنه يحيد عن غايته الحقيقة، ولا يعود يشغل نفسه سوى بحارس الباب الأدنى مرتبة، الذي يصبح بهذا هدفاً يُراد

لذاته؛ يبدّد كل طاقته فيه ويعثر جهوده بلا جدوى في لسطحي والمكشوف. ولا يقدر نشاطه الظاهري أن يخفى حقيقة أن لا شيء إطلاقاً يحدث في الواقع: مشغولاً عن كل ما هو جوهري، يلبث جالساً بخمول على كرسيه الواطئ إلى جانب الباب متحيناً، يجلس هناك أياماً وأعواماً ويائماً بحق الرسالة الذهنية لحياته. وعندما يدعه كافكا في آخر الأمر يرجم البراغيث في ياقه حارس الباب أن تساعدته، فإنه يسخر بشكل واضح بالسلوك الخاطئ للرجل الذي أصبح يخرف. بهذا يمهد الطريق هنا للحكم القاتل الذي يتنتظره في نهاية حياته.

إن المقطع الأخير للأمثلة يهتم بالموت وحده. بالقياس إليه يصبح كل ما عداه عديم الأهمية ويفرق في الظلام. في نهاية الحياة لا يقام وزن سوى للسؤال الخامس عن معنى الموت، عن علاقة النهائي باللانهائي. إن كافكا لا يترك أي شك بحقيقة الأبدى، عندما يدع المحتضر يرى بريقاً يتأفف من باب القانون لainstinct. لكن يظل السؤال المعلق فيما إذا كان الإنسان يستطع بعد موته أن يغرق في الروعة الصافية لهذا الضوء الأبدى؛ إذ يحدمه كل امرئ ولاري بخلاص ممكناً: إن الجميع ليسعون إلى القانون. ينبغي على كافكا، طبقاً للحقيقة، أن يتتجنب جواباً واضحاً. لكنه مقتنع أنه يجب على الإنسان أن يكون جديراً بخلاصه. وهو يكتسب حق الأمل بأن يوجد حياته نحو هذه الغاية، بأن يسعى بلا كلل لأن يكتشف في نفسه قدره، روح القانون، وأن يتصرف طبقاً لذلك. وحدها الحياة الخلية بالإنسانية هي ذات قيمة وقدرة على المشاركة في السامي.

كل إنسان يملك الحرية والإمكانية لتشكيل حياته على نحو خلية بالإنسانية. هنا يجب عليه أن ينصف فرادته الشخصية. كافكا نفسه يعبر مرّة عن ذلك: لكل إنسان خاصيته، وهو مدعو للعمل والتأثير بمقتضى

هذه الخاصية. نظير ذلك يحق له، في الأمثلة، المدخل الخصص له وحده. هنا لم يكن أحد آخر يقدر أن يحصل على إذن بالدخول. إذ لا يستفيد منه الرجل من الريف، فقد أضاع فرصته، وأصبح مذنبًا. لقد أثُم في حق قدره الأعلى، وبهذا أبعد من القانون. إن مهمة كل فرد هي ملء حياته بمعنى القانون، وتوجيهها إلى عالم أسمى. من يتهرب من هذه المهمة، يخفق ويتسرب نفسه في قوط موته. وكان لابد للأمثلة أن تفتح عيني يوزف ك.

وفعلاً تأثر ك على الفور، لأن القصة شوّقته تشويقاً شديداً. إن المقارنة مع تصرفه السابق واضحة. ورغم ذلك فإنه ما زال أبعد من أن يفهم كل إشارات الأمثلة فهماً صحيحاً، حتى يستتتج لنفسه الاستنتاجات الضرورية. ويبين قصوره عن الفهم أولاً في ردود فعله المنفلترة والمتسرعة. لذا يحتاج الأمر إلى التوسط الهادئ والموضوعي من قبل القس، الذي ينصح المدعى عليه، بشدة، أن يتأمل ويفحص بدقة أكثر، وخاصة لا يقتصر في تقدير الكتاب تقديرًا مهيباً. في مركز سائر التأملات يقف تقييم وتفسير رمز حارس الباب على نحو جدير به. ويصبح هذا الرمز مقياساً للفهم. كصورة خارجية مرئية. للقانون المليء بالأسرار يصبح حارس الباب تحدياً للإنسان المدرك المكلَّف بالوجود الأرضي مع كل معطياته كمهمة. وبينما يسعى أجهاداً للكشف في هذا الواقع الطبيعي عن المعنى الكامن للقانون، فإنه يتحقق مصير حياته العقلي. في هذه الرسالة الشخصية يكمن الامتياز المنشقق للإنسان.

إن حارس الباب هو ولاريوب جزء من القانون، ويؤدي واجباته طبقاً لطبيعته وعن طيب خاطر. لذا فإن مسذاجة وتكتراً يحيزان ضرورات عمله. (عند اعتقاله لا يستطيع يوزف ك أن يفسر وثيق حارسيه سوى أنه نتيجة

غبائهما). عن داخل القانون لا يعرف حارس الباب شيئاً. إنه الطريق، لكنه لا يعرف الهدف. ينقصه الوعي. قياساً إلى هذا الوجود المقيد، فإن المدعى عليه يعي حرية عقله. لكن حرية الفرد الشخصية هذه هي في الوقت نفسه مصدر لكل سوء فهم وتفسيرات خاطئة ممكنة. ولهذا السبب فإنها تظل مجال العمل الذي لا ينفذ مدى الحياة للإنسان الذي لا يمكّنه، في وجوده الأرضي المحدود، أن يحصل على يقين نهائي: إن الكتاب لا يتغير والآراء غالباً ما تكون تعبراً عن اليأس من ذلك ليس إلا. لكن كافكا لن يكون نفسه لو لم يقرّ حتى للرجل من الريف، المنبوذ على ما يedo، والذي على كل حال يرى في نهاية حياته بريقاً يتدفق من باب القانون لا يتطفئ، يقرّ له ببارقة أمل صغيرة: كافكا يترك السؤال معلقاً، فيما إذا كان حارس الباب يستطيع فعلاً أن يغلق الباب. إن الحياة حقيقة لامحیص عنها، صحيح أن الإنسان لا يستطيع أن يلغيها، لكنه يقدر أن يسبر غورها. إن تصرفه في إطار هذا الإدراك طواعاً وعلى نحو معقول، يفتح له مجال حريته ويعطيه الأمل بموت ذي معنى.

لكن من يتثبت بضرورات وفناء العالم الطبيعي، من يعتبر السطحي والمُؤقت هدفاً وموته النهاية النهائية، لابد وأن يصل إلى رأي كثيف بأن الريف إنما يُعمل نظاماً للعالم. غير أن كي يعلم أن هذا الادعاء البائس لابد أن يكون خطأ ولا يمكّنه أن يطابق الحقيقة. إن نزاعه الأول، الجدي فعلاً، مع تحديات محكمته، تركه يحدس الصعوبات الهائلة التي تنتظر المدعى عليه. كانت القصة البسيطة قد أصبحت غير متناسبة. كانت آمال قد لمعت وغرقت في الظلمة ثانية، كان المصباح في يده قد انطفأ منذ فترة طويلة. إن كي متعب، مرهق وفي حيرة من أمره؛ في بادئ الأمر لا يستطيع أن يجد وحده طريقه في الظلام. لكنه إذ يريد، لذا، أن يعود إلى المصرف، يدرك

على الفور هذا المخرج الصوري محاولة هروب عديمة الحدوى. إذ أن المحكمة لا تزيد شيئاً منك. إنها تفتح أبوابها لك عندما تأتي وتعفيك عندما تذهب. لقد أثبتت المحاكمة نفسها توقاً داخلياً لتخطي الحياة اليومية المباشرة. لكن من يتبع، مرة، هذه الرغبة وهذا الظماء، لن يتمكن قط بعد الآن أن يكتفي بالحياة السطحية والمكشوفة. إن النغمة الحيفة لصوته الداخلي أيقظته وهزّته وملأته بالقلق، لكن هذا القلق يعني، حسب كلمات كافكا، ماهيته وأفضل ما لديه. إن طاقة هذا الصوت أكثر جاذبية وقوة من الخوف من الصعوبات الهائلة التي تحملها معها المهام وتلقيها على عاتق ذي العلاقة.

إن تجربة يوزف لك في الكاتدرائية سوف ترشده في المستقبل. إلى جانب محكمته يصبح كل شيء آخر، من الآن فصاعداً، غير ذات أهمية. سوف يكشف عن أخطائه السابقة ويزيلها، لكنه مقابل ذلك سوف يسير على طرق جديدة، والتي تبدو له أكثر جدوى وأملاً. إن النزاع مع تحديات محكمته سوف يحدد وحده مضمونين جميع الفصول القادمة.

٢ - التأثير المتبادل بين الإدراك الصحيح والسلوك طبقاً لذلك

- محام -

بعد الطقس الخريفي الممطر في فصل الكاتدرائية، يأتي الآن فصل الشتاء، حسب تسلسل الفصول الصحيح. إن طاقة عمل يوزف ك في المصرف تناقصت أكثر، لأن تفكيره في المحكمة يسيطر عليه كل السيطرة في جميع الأحوال. يشعر أنه مدعى ومؤهل لإمعان الفكر ثانية في كل وجوده حتى الآن وتبرير كل تصرف في ما بعد ما أمكن التبرير أو إيضاحه على الأقل. بعقل مرافعة الدفاع هذه يعتقد أنه يقدر أن ينبعح أمام المحكمة؛ إذ أنه يستشعر فجأة اليقين بأنه في مقدوره نفسه أن يطرح الأسئلة الضرورية كلها، وذلك لأنها موجهة إلى مسؤوليته الشخصية عن معلوماته وقراراته وأفعاله. كل إنسان يملك إمكانية تشكيل حياته بحرية. وبهذا يضطلع بمهمة إعطاء هذه الحياة هدفاً واتجاهها نحو الأعلى. لكن يجب عليه أيضاً أن يدع نفسه يقاس بالقيم التي استهدفها.

كان القس قد حذر بصورة خاصة من مساعدات كاذبة، كما أنه يبن ليوزف ك كيف وصل هذا، لدى تفسيرات للأمثلولة، باستنتاجاته المتسربة

والتهمة، إلى نتائج باطلة. وقد أثارت كلتا الإشارتين اهتمام ك، وترغمانه الآن على إعادة النظر في مساعدة المحامي المزعومة، هذا المحامي الذي ليس محامياً لا اعتراض عليه وفي قوله واستدلالاته. وبالفعل يستطيع ك الآن أن يكشفها بصفتها تبيهات فارغة وخطباً عديمة الجدوى مثلما هي مللة. إن العمل الذي يُرّعى أنه مكلّف ومتعب، يعني بالنسبة إلى المحامي تجارة رابحة تستغل خوف المدعى عليه، لكن هذا العمل لا يقدر أن يساعد المدعى عليه، لا بل يلهيه وحسب عن كل ما هو جوهرى إلهاء وخيم العواقب. إن ما يعد د. هولد بتقاديمه، هو في الواقع تطاول وادعاء أهمية. كيف يمكن أيضاً لغريب أن يبتلى الهموم الشخصية لفرد آخر أو حتى أن يتحمل مسؤوليتها؟ إن كرامة الإنسان ذي العقل تقوم، حقاً، بالذات على حرية تصرفه وعلى المسؤلية الشخصية عن هذا التصرف!

والمحكمة لا تترك شكّاً في تقييم المحامين: إنها تهين هيئة المحامين كلها، وتحتقرها، وتجعلها أضحوكة لاسيما أمام المدعى عليهم، حيث أنها تريد إقصاء هذا الشكل من الدفاع ما أمكن، على المتهم نفسه أن يحمل عبء كل شيء. ولكن رغم هذا الإقرار الواضح والحكم القاتل عن انعدام أهمية المحامي انعداماً كاملاً في مثل هذه المحاكمة، لاستطاع المحكمة أن تمنع أن يقوم مدعى عليه، في ملتماته، بالتمسك طوعاً بمثل هذا المعين المزيف. لأنه يشك في طاقاته الخاصة به، أو لأنه يخشى العباء الثقيل لمهمته الشخصية، يصبح على استعداد لتقبل الوعود الجوفاء للمتاجرين المربين يدعون أنهم يقدرون أن يتحملوا عنه هذا العباء. ورغم أن المحامي، لدى الإيمان في سؤاله عن تقدم ونجاح عمله، يضطر مراراً وتكراراً لإظهار عجزه والاعتراف بفشلها، فإنه لا يكمل في الوقت نفسه عن إثارة آمال جديدة لدى

موكله. وهنا يؤكد خاصية على تأثير العلاقات الشخصية، ورغم ذلك لا يمكن للمرء طبعاً، عند الضرورة، أن يفعل شيئاً ضد عشوائيتها. لكن عندما تضم المحكمة عاملين مقصرين في واجباتهم ومرتدين، ويكون هؤلاء هم معقد الآمال، وعندما لا يعرف حتى كبار الموظفين سوى الجزء المحدد لهم من المحاكمة، ولا يعرفون شيئاً عن مجموعها، فإن هذا الكيان العضوي الضخم للمحكمة إنما يظل على نحو ما في حالة معلقة إلى الأبد. إذ أن كل شيء يتحرك على السطح وحسب، بلا جذور ولا مسؤولية، وذلك بسبب غياب مركز المعنى الذهني. لكن بدون هذا التسامي لا يوجد مبادئ مرشدة ولا نظام قيم ذو معنى. كما لا يمكن إذاً تغيير شيء أو حتى إصلاح شيء. وأن المحامي بالذات هو المنتفع من هذه الظروف القائمة، فلا بد له أن يكون حريصاً على المحافظة عليها. لذا فإنه ينادى موكله بالإشارة الملحة، أن الأمر الصحيح الوحيد هو التواجد مع الظروف القائمة لكنه، بهذه القناعة، يفضح نفسه أمام مراقب انتقادي بصفته بشيراً للفوضى.

وفعلاً لا يخشى د. هولد شيئاً أكثر مما يخشى أن تتنزع منه فجأة المحاكمة. وهذا هو ولاشك أسوأ ما يمكن أن يحدث لمحام، إذ أن هذا يهدد أساس وجوده الدائم. غير أنه لا يتوقع هذه الطاقة من موكل. من سلم نفسه مرة، خوفاً على حياته، إلى محام كمعين موهوم، يظل مرتبطاً به. ورغم ذلك لا يستطيع د. هولد إنكار إمكانية الاستقلال والحرية. فهو يضطر للاعتراف بأن المحاكمة تأخذ اتجاهًا حيث لا يعود يسمح للمحامي أن يأتي معه... وحيث أيضاً لا يعود المحامي يستطيع الوصول إلى المدعى عليه. في هذه المرحلة العليا تنكشف معونات المحامي أكاذيب والمذكرات الكثيرة التي وضعها قصاصات عديمة القيمة. بالمعنى الذي ترمي إليه المحكمة،

يصبح المدعى عليه، أخيراً، يعتمد على نفسه، ويعي حريته ومسؤوليته الشخصية. وهاتان هما شرط ومقاييس تبرئته أمام المحكمة العليا المفعمة بالأسرار.

يدرك يوزف ك أن الدفاع عنه ليس دفاعاً جيداً. وينكشف له كم يعتمد د. هولد تخدير أعصاب المدعى عليه وإيقائه في حيرة من أمره، وذلك كي ينقذ، بهذا، سلطته هو وعمله. إذ أن المحامي المرهق بالعمل كما يزعم، ينبغي عليه في الواقع أن يظل متعطلأً عن العمل ولا يستطيع تحقيق أي شيء، وذلك لأن كل شيء يتعلق بالمدعى عليه نفسه دون غيره. وهذا ما أدركه ك في هذه الأثناء، ولذا فإنه يفكّر لأول مرة بإخطار المحامي بـإلغاء توكيه. وهذا التفكير يعني، ولاشك، تقدماً حاسماً في موقفه الداخلي من محاكمته. ومن الآن فصاعداً يعم عزماً أكيداً على أن يعمل في مسأله الشخصية بكل ما وسعه من قوة أتاحت له حتى الآن بمحاجة في عمله المهني. إنه مستعد أن يعمل ليلاً نهاراً في مرافعة الدفاع الخاصة به، لا بل أن يضحي، عند الضرورة، بأفضل أوقات العمل في سبيل ذلك. بينما كان في فصل الكاتدرائية لا يستطيع أن يحفظ سمعته في المصرف سوى بجهد كبير، فإنه لم يعد الآن يُعني بذلك، وينتحي كل تردد بغير مبالاة. وبينما كان هناك يخشى أن يسلبه منافسه زبائنه، فإنه يسوقهم الآن إلى يده عن طيب خاطر. إن يوزف ك يعلم أن المرأة سوف يستغلّ صدّه ضعفه الحالي في المصرف بلا مراعاة لأية زماله وإنسانية. لكن نتيجة تبصره الجديد، تفقد وظيفته أهميتها بالنسبة إليه على نحو متزايد. إن الصورة الشعرية التي يفتح فيها ك النافذة بصعوبة كبيرة ويكسر ضيق مكتبه، هي صورة ذات دلالة كبيرة: ضباب مختلط بدخان يتسرّب إلى الحجرة تدريجياً ويمؤها براحة حريق خفيفة. لاريب أن الأهميات في حياته قد تبدلت. لكن هل

يكفي هذا التقدم لكي يحقق شيئاً لدى المحكمة؟ ألا يزال لك يخطئ، عندما يعتقد أنه ينبغي عليه أن يرفض منذ البداية كل فكرة بذنب محتمل.

- صاحب معمل -

لو كان وحده في العالم، لما كان يمكن لمحكمته أن تنشأ أصلاً. إن الذنب الذي يحاول لك أن يقاومه بكل قوته، يتعلق إذاً قبل كل شيء بعلاقته بأخوته البشر. لكن من يمارس هذه العلاقة بصفتها صفة كبيرة ولا يحدها هنا سوى فكرة الفائدة الشخصية، فإنه لا يتصرف حتماً تصرفاً جديراً بالإنسانية، ولهذا لا يستطيع أيضاً أن يظل بلا ذنب. رغم بعض المعارف الصحيحة، مازال لك بعيداً كل البعد عن الحقيقة الكاملة في محكمته. وفي طريقه إلى هناك يحتاج الأمر إلى مزيد من الإدراك ود الواقع للتفكير.

أليست إشارة ذات دلالة عندما يخسر لك صاحب المعمل شريك عمل هاماً لصالح منافسه القاسي واللامساني، نائب المدير، لكنه مقابل ذلك يكسبه لنفسه إنساناً؟ بعد عقد الصفقة الناجحة يظهر صاحب المعمل ثانية لدى لك كي يعطيه، بتفهم وتعاطف، نصيحة لمساعدته في مصاعبه الشخصية في محكمته: إنه يلفت انتباذه إلى الأهمية الممكنة للفن في حياة الإنسان. رغم أنه نفسه لا يملك أكثر من علاقة سطحية بفن الرسم، ولا يتبع سوى لوحات لطيفة، تتمثل مناظر مروج وما شابه، فإنه ولاشك يدعم الفنان بهذا الشراء بل ويعلم عرضاً شيئاً عن المصدر الرئيسي لدخله، وهو عمله للمحكمة. بينما يقف تيتورلي إذاً في المجتمع السطحي المكشوف، من طرف، وهو يكاد يكون متسللاً، تنفتح له، من طرف آخر، مدارك في ماهية الإنسان بعيدة الغور وماهية المحاكمات التي انبعثت من ذلك.

وعلى الغور يعتقد كأمله على اللقاء مع الفنان ويمتئن نفسه بمدارك تبشر بالخير. لهذا فإنه يدفع جانباً عمله المكتبي بкамاله بلا أي لف أو دوران ويدون أدنى تردد، ويغادر المصرف في غير إرجاء ولا إبطاء وهو يكاد يكون سعيداً لأنه يستطيع أن يكرس نفسه مدة ما لقضيته على نحو أكثر شمولاً. إن المعالجة التي يسعى إليها باختياره مع الفنان والفن، والتي تنتقل الآن إلى المقدمة تقف، من ثم، في علاقة مباشرة مع الهموم والأسئلة التي أثارتها محاكمةه لديه. وهنا يفترض تكريس اهتمام خاص قبل كل شيء بالسؤال غير المتضح بعد عن الذنب.

(اقتصر بعض الدارسين تقسيم الفصل الطويل بشكل غير مأثور في هذا الموضوع، وإعطاء النصف الثاني، الذي يدور فعلاً حول تيتووري وحده، عنواناً خاصاً به. ولاشك أن من شأن مثل هذا التقسيم إلى حدٍ قراءة أن يكون أمراً معقولاً^(٥)).

(*) في مخطوطة كافكا غير المنسقة، وفي جميع طبعات المحاكمة، يبلغ حجم فصل محام/ صاحب معمل/ رسام أكثر من خمس حجم الرواية (ا.و).

٣ - الحياة الثقافية كتسلية اجتماعية وتجارة أم سموّ شخصي وإدراك

- رسام -

يقيم الرسام في منطقة تبدو أكثر فقرًا وظلمة ووسخاً من منطقة مكاتب الحكماء. لذا تبدو جميع حاجات الإنسان الضرورية وجميع طبائعه الفطرية متمثلة هنا بوضوح أكبر. يتوجب على يوزف لك أن يختار هذه القيعان بمثابة وقطع الطوابق واحداً بعد الآخر. لكن كلما ارتفع، أصبح طريقه مرهقاً أكثر، كان الدرج كما كانت الطوابق ذا علوّ مفرط، والمفروض أن الرسام كان يسكن في علية تقع في أعلى المبني. ورغم ذلك لاتمنعه صعوبة ولامشقة عن الصعود بحزم وتصميم إلى مستوى الفنان.

والبنات الصغيرات اللواتي يرافقن لك ويقدنه على القسم الأخير من هذا الطريق يعطين فكرة ذات دلالة عن علاقة الرسام بمحبيه المباشر. في بينما يتتجاهل لك محاولات التقرب منه من قبل الغاويات الصغيرات اللواتي يبدون له مثل مزيج من الطفولية والخلاعة، فإن تعامل الفنان معهن كان

يبدو وكأن كل شيء إنما يجري في وفاق ودي. إنهم يلاحقون الرسام لكي يميزَنَ من بين الحياة اليومية ويرسمُنَ، وفي الوقت نفسه يُسيئَ استخدام مرسمه ويترَيَّنَ فيه على نحو مغري من أجل هذه الحياة اليومية. إن هذا يطابق إمكانيات الجنس الأنثوي المتنوعة والمتناقضة، هذا الجنس الذي يمكنه أن يقول، كما يمكنه أن يغوي، يرفع ويذل. لذا فإن المرأة هي بالنسبة إلى كافكا، كما كتب مرة، **مثلة الحياة**، التي عليك أن تتعامل معها. لكن على الفنان أن يكون ملماً بكمال مجال الحياة، إذا كان يطمح إلى الوصول إلى الحقيقة عن طريق فنه.

في حين أن المحامي يقيم في الطابق الأرضي لدى أول باب في حجرات معتمة يمكن الوصول إليها دون مشقة، فإن الصعود إلى الرسام ليس مرهقاً للغاية فحسب، وإنما يقود أيضاً من الظلم إلى التور. بل إن الباب إلى مرسمه كان، على عكس بقية السلم، مضاءً إضاءة منيرة نسبياً. وهذا هو، ولاشك، إشارة سامية مفعمة بالتوقع. على العكس من ذلك لم تكن خادمة المحامي مهتمة سوى بسحب المدعى إليها في العتمة على السجادة، لكي تكتسب جسدياً وتلهيه عن كل ما هو ذهنني. وعدم تميز زبائنه بالتفكير يتيح للمحامي أن يمارس عمله الشاذ. لكن من يبحث في الفن عن مشورة ومعونة، يجري تحديه ذهنياً بالذات. ينبغي عليه أن ينفتح شخصياً، يجهد، يساهم طوعاً مساهمة فعالة، كي يمنع حياته قدرأً أكبر من العمق والسمو. إن الفن يواظب ويوسع الأدمية الحقة، يعمق ويضاعف طاقاتها. إنه اقتحام ضد الحد الأرضي الأخير، كما كتب كافكا في يومياته.

إن يوزف لك غير العليم كثيراً حتى الآن بماهية الفن العميقه يلقى في بادئ الأمر صعوبات كبيرة في اعتبار **الحجرة الصغيرة** البائسة على السطح مرسمأً، والرجل حافي القدمين الذي لا يرتدي سوى سروال كثاني ورداء نوم، فناناً رزيناً؛ ولا سيما أن اللوحة الوحيدة في هذه الحجرة كانت مازالت

مغطاة بقميص. بتكلّف ومشقة يتلمس طريقه إلى الرسام وإلى هذا الأثر الفني الذي يمثل صورة قاض، تعطيه كُ أخرى إمكانية التحدث عن الحكمة. ويبدو في غاية الأهمية أنه هو نفسه يفتح الباب إلى الحديث الحاسم بأن يدرس اللوحة في تفاصيلها ويسأّل عن معناها العميق. وبهذا يتبيّن بالتدريج في خلفيتها القاضي الذي يهم بالنهوض متوعداً، شخص طويل هو ولاشك، لكن بغير وضوح، إلهة العدالة. إنها تسيطر، في ضيائتها غير المألوف، على مقدمة اللوحة، وتحيط رأس القاضي بظل يبدو مثل حلبة أو وشاح رفيع، ويتلاشى على شكل إشعاعي قرب حافة اللوحة. وهذا يبيّن، من طرف، وهو وخيلاء أولئك الذين يملكون فكرة ما عن الحكمة الهائلة، ويشير، من طرف آخر، إلى فيض الأسرار اللانهائي، لكن المسيطر على كل شيء والمتبعة من الخلفية المنظوية على معانٍ كثيرة، بأن يرى المراقب المندهش بأن إلهة العدالة إنما تتحد على نحو غامض بـإلهة النصر وإلهة الصيد. ويجدب عمل الرسام وسر الفن كفجأة ويتكمّنا من قلبه، فتصبو نفسه إلى تفسيرات ومدارك معرفية واضحة. غير أن الرسام لا يقدر ولا يجوز له أن يمنحه ذلك. فالذات لأنّه مطلع، موضع ثقة الحكمة، ينبغي عليه أن يحافظ على الحقيقة سراً لا يمكن بلوغه والكشف عنه، وإن كان مشيراً إلى الاتجاه. وكذلك في اللقاء مع الفن لا يمكن حدس الحقيقة من الخارج، وإنما من الداخل وحسب، ولا يمكن معايشتها سوى كتجربة ذاتية^(*).

(*) هذه هي تجربة كل شاعر عظيم. أدونيس مثلاً: «كثيراً ما كان يُخجل إلى أيني أسمع في داخلي صوتاً يقول لي: استمعشك، اعتصم، وحاذر أن تسقط في أي شيءٍ إلا في نفسك. وعليك هنا أن تسقط عمودياً، وأن تسلك الطريق الأكثر رحابةً: ملاً قرار له، وما لا ينتهي. إذ بدءاً من ذلك، تستطيع أن تهبط في أعماق الأشياء» (ها أنت أيها الوقت، ص ٢٩).

ينبغي على يوزف ك أن يفتح قلبه لهذه التجربة ويحفى عن نفسه بكل معنى الكلمة بأن يخلع معطفه الشتوي ويفك أزرار سترته أيضاً. مدفوعاً إلى عمق الوسائل واللحاف من قبل الفنان بتهديد وبلا كلفة في آن، يستشعر الهواء الرطب الذي يكاد يعيق التفسّر، والذي يروج الآن فجأة يصعب حياته على نحو غير مأثور. لذا لا يكاد الأمر يفاجئ عندما يُعرض الآن أخيراً ومن جديد السؤال الهام والحااسم عن ذنبه. في الفن تتجلّى للإنسان الإمكانية والغاية الأسمى لأدميته. الفن هو المرأة النبيلة لقدرها الذهني - الروحي، وبهذا في وقت واحد مقاييس القيم لإنجاز مهمته في دمج الطبيعة والذات، المرئي واللامرئي، النهائى واللانهائى في واحدة متكاملة^(*). بهذا المعنى يعرف الفنان أن كل شيء، أي الوجود الأرضي بكامله، هو من الحكمـة؛ لكن يمكن للفن أن يرفعه إلى مجال الحقيقة والقاء والمطلق، كما يقول كافكا مرة. إن القدرة الفطرية على حدس سر الخلقة هذا وتبیانه في صورة يجعل الرسام موضع ثقة الحكمـة ومرشدـاً رزيناً لأنوثـة البشر.

في البداية يدّعـي كـ، في حديثـه مع تيتوريـي، ببساطـة وبلا مبالـة وبدون أية مسـؤولـية، براءـته الكـاملـة. لكنـه من ثم يـشعر تدريـجـياً بعدم الاطـمـئـنانـ. بل إنـ الذـكـرـ المتـكـرـ لبراءـته من قبلـ الرـسـامـ يـقـلـ عليهـ، ولا سيـماـ أنـ هـذـاـ يـوضـحـ أنـ البرـاءـةـ الحـقـيقـيةـ تـؤـديـ، بـدونـ أـيـةـ مـسـاعـدةـ، إـلـىـ الـخـلـاصـ

(*) يكتب أدونيس:

«... فالنفاذ إلى أعماق الذات، إنما هو في الوقت نفسه نفاذ إلى أعماق الطبيعة. ... إشارة إلى اكتشاف المجهول، سواء في الذات أو في الطبيعة. إشارة تقول إنـ المرئي وجهـ الـلامـرـئـيـ، والـمحـسـوسـ عـتـبةـ لـغـيـرـ الـمـحسـوسـ، حيثـ تـزـولـ الفـوـاـصـلـ، ويـصـبـحـ الـبـاطـنـ وـالـظـاهـرـ وـاحـدـاـ» (الـشـعـرـيـةـ الـعـرـبـيـةـ، صـ٦٣ـ).

الفوري من الادعاء وتعني التبرئة الحقيقة. غير أن أمثلة الفنان تدعك يدرك أن هذا الهدف يظل مستحيل المنال بالنسبة إلى كل إنسان. إن التبرئات الحقيقة تُبعد إلى مجال الأساطير، يمكن للمرء أن يصدقها، لكن لا يمكن إثباتها. ماذا يعني كافكا، إذاً، فعلاً بـتبرئة حقيقة؟ إنها تعني ولاريب الحلم المتلهف بسعادة كاملة لحياة باتت فيها ضرورة الطبيعة وواجب الذهن شيئاً واحداً، الحلم بعودة مستحقة إلى فردوس مدرك. من شأن الإنسان أن يتحول ولا بد وبغير تحفظ إلى قديساً.

لكن من يصعد بريئاً حقاً إلى كمال الفردوس، يظل أيضاً في غيوبه نهاية عن العالم الأرضي ولا يحتاج لا إلى فنه ولا لأية مساعدة أخرى. إن الفردوس الذي يحلم به الإنسان لا يمكن أن يلقاءه في هذه الدنيا. لهذا فإنه لا يعرف أيضاً تبرئة حقيقة وحيدة، إذ لا يمكن لها أبداً أن تصبح هنا يقيناً. ورغم ذلك فإنه يتثبت بنزوعه إلى هذه الغاية التي لا سبيل إلى بلوغها، وذلك لأنه يوجد في حياته لحظات تدعه يحدس التحقيق المنشود، وإن كان هذا على نحو عابر، فإنها تشجع رغم ذلك على أن يأمل أملاً مسوغاً. وبالنسبة إلى الشخص المفتح، المحب للفن، يصبح الفنان وفنه مساعدة ثمينة. وتثيرلي يعرضها على يوزف ك باسم التبرئة الظاهرة والمماطلة.

في حين أن التبرئة الحقيقة لابد، إذاً، أن تظل بالنسبة إلى الإنسان مجرد حلم غير قابل للتحقيق، فإن التبرئة الظاهرة يمكنها أن تتحقق. لكن الأمر الخامس هنا هو أن يتوجه النظر والأمل نحو الداخل وليس نحو الخارج. إن الموضوع يذكر ببداية الرواية، حيث يُزعج يوزف ك ذات صباح، وهو مازال في فراشه، ويوقظ من سباته من قبل الحكمة، عندما يوضح تيتورلي الآن كيف يأتي القاضي عادة في الصباح الباكر، يأتي دون عائق عبر الباب الداخلي، صاعداً فوق السرير، كي يرسم. فقط في العالم الداخلي

الشخصي تكشف هذه المحكمة عن معناها الكامن، هذا المعنى الذي يصوّره الفنان في أثره الفني و يجعله ظاهراً جلياً. لكن كيف تتحقق بهذا التبرئة الظاهرية؟

بصف الرسام الجرى بصفته مجھوداً مرکزاً محدوداً زمنياً، يقتضي الأمر لديه الحصول على موافقة عدد كافٍ من القضاة على سلوك المدعي عليه، كي يتحقق وفاق كبير مع مطالب المحكمة. والطريقة التي يقترحها الفنان من أجل ذلك تجعله أمام المحكمة مشاركاً في المسؤولية عن صحة الطريق. وهو يضمن، إذاً، حقيقة فنه الذي يقدمه للمدعي عليه. إن التعامل المفيد والممتع مع الفن يمكنه، طبقاً لذلك، أن يبين للإنسان وجهة حياته وغاياتها، إذ أنه في زمن أقصى درجات التفاؤل يستشعر الوحدانية وتطابق الأجزاء مع كلٍ أعلى؛ حواسه تضيء له الخلفية الكامنة، وتظهر له اللامرأي في المرئي، أي المعنى الغامض للوجود الأرضي^(٥).

مثلاً هو الحال في غفران كهنوتي عن الخطايا بعد الاعتراف، فإن قضاة كافكا يملكون الحق في التخلص من الاتهام. بعد ذلك يشعر الإنسان للحظات أنه تخلص من كل ما هو شر، وعلا على كل ما هو أرضي. لكن كما تهدد خطيبة جديدة الخاطئ المبرأ، تحوم فوراً فوق المدعي عليه المبرأ إمكانية اعتقال جديد تنقسم لديه، مرة أخرى، الحياة الطبيعية وتوجه النفس، وتصبحان مهمة وتتكلفاً من جديد. إن تجربة الفن التي يقصد بها كافكا ولاري卜 التبرئة الظاهرية، ليست طبعاً حالة دائمة. إنها

(٥) في قصيده «تقويم للفلك ٢٠٠١» يكتب أدونيس:
إنما أنت وحدك، أيها الشعر،
تعرف السر
ساكناً في سريرة الخلق».

تولّي مثل كل شيء في الحياة الأرضية، لكن يمكن أن تتكرر مراتاً وفي كل وقت، عندما يسعى الإنسان إلى ذلك عن رضى وبنشاط.

أما لدى المماطلة، التي يشرحها تيتورلي بصفتها نوع الخلاص الثالث، فإنه لاحاجة هنا إلى مثل هذا الجهد كما هو الحال لدى بلوغ ثيرئة ظاهرية. هنا يكفي أن يشارك بطريقة ما باستمرار في أدنى مرحلة من مراحل المحاكمة في كل شيء، إذ يجب على الدوام أن يحدث في المحاكمة شيء ما في الظاهر. وتبعاً لذلك يظل أيضاً كل شيء ظاهرياً وسطحياً. بالالمماطلة يصنف كافكا سلوك المواطن المتعلّم النشيط الذي يشارك في الحياة الثقافية، ويكون على اطلاع، وحتى عندما لا يكون لديه مرة متسع من الوقت أو رغبة، فإنه يعلن، باعتنار على الأقل، عن اهتمامه المستمر. إن الفن هو هنا ببساطة جزء من الحياة الاجتماعية التي يثبت المرء وجوده فيها وأدميته.

يدرك يوسف لك أنه لم يعد يستطيع في حياته أن يتخلص نهائياً من الادعاء ومن المحاكمة التي نشأت معه. لكن الفنان ينّ له الآن من خلال الفن سبلاً كيف يمكن رغم ذلك أن يعيش إلى حد ما مع هذا العباء الملقي على العاتق. على كل حال، إن لك على استعداد للاستفادة من ذلك. سوف أعود ثانية قريباً، يقول بحزم وهو منهوك القوى في آن. لقد أفعى الفنان، على ما يبدو، بإمكانية مساعدة الفن له في محاكمةه وبجدوى هذه المساعدة. لكن من طرف آخر، لم يغب طبعاً عن الرسام مدى أهميته بالنسبة إلى يوسف لك. ولذا يبدو له تهذيب لك وعرفانه بالجميل، على الفور، فرصة سانحة لعقد صفقة سريعة. وبالتردد يستغل ضعف لك وعجزه لبيعه في الحال كومةً من اللوحات بدون إطار. كلها على وتبة واحدة كلّياً، ولا علاقة لها بالمحكمة وتظل، لهذا السبب، مقبضة ودون معنى واضح. ولذا

يبدو الأمر كأنه سخرية، عندما يهمس تيتواري لضحيته شاردة الذهن: بعض الناس يرفضون مثل هذه اللوحات، لأنها مقبضة، لكن آخرين، وأنت منهم، يحبون المقبض بالذات. وهذا يناسب فعلاً حالة لك الراهنة وجهله قضايا المحكمة. ويكون من الأسهل على الرسام أن يفاجئه على حين غرة ويدعه بيتابع، وهو شارد الذهن، الصور اللطيفة لكن الحالية من المعنى. وهذا ما يعيه لك فجأة، حين يفيق من شروده ويرى نفسه محاطاً بمكاتب محكمة. وأنجراً يصحو ويدرك أن عليه أن يحسب حساب ذلك في كل وقت من أوقات حياته، وذلك لأن كل شيء هو من المحكمة، وهو بات يملك ولاريب النظرة الثاقبة التي تمكّنه من التعرف في الحال على حجاب المحكمة مثلاً.

يختصر لك إدراكه الجديد بـ قاعدة أساسية...، أن يكون دائماً مستعداً، وألا يدع نفسه يفاجأ فقط، وأن يتضرر، في كل ما هو جوهري، بحكمته. (إنه الموقف الذي يتخذه في مطلع الفصل الأخير على نحو مقنع وموفق). بهذا القرار يدخل إلى المصرف، الذي يظل فيه الشخصي والعمل متناقضين عادةً مثلماً يتنافر الفن وسلام الوظائف.

٤ - واجب إثبات الذات الشخصي ضد قرار الغير والوضع تحت الوصاية

- التاجر بلوك -

كان القس قد ناشد ك ألا يدع مساعدات ظاهرية تلهيه عن مطلبه الرئيسي. وهذا ما دعاه إلى إساءة الظن بمحامي المريب. وعلى خلاف ذلك يبدو أن تيتوري يقدم له مساعدة تبشر بنجاح، لكنها تحتاج إلى مشاركة المدعي عليه في العمل مشاركة فعالة. عليه أن يشارك في نجاح محامته إما بأن يبذل مجهوداً مرتكزاً محدوداً زمنياً أو مجهوداً أقل بكثير لكنه مستمر. وهذا يهدى من روعه ك ويقنعه أكثر من تعطّله الكامل لدى د. هولد؛ إذ أن تصرفات هذا المربيه والمتسرة والمتكتمة، والتي هي باهظة التكاليف فوق ذلك، لا تتحقق أدنى تقدم على ما يبدو، لكنها تقيي الموكل في حالة إبهام مقلقة. ونتيجة لذلك ينصح في نفس ك عزمه على أن يسحب من الحامي توكيلاه. وفوق ذلك يسعى إلى معاداته شخصية، ويرؤكد بهذه الجرأة عزمه على التصرف أيضاً طبقاً لقناعته. يوزف ك يثبت لأول مرة نفسه شخصيةً واثقةً من ذاتها متحملاً لمسؤوليتها الخاصة بها. ونتيجة ل موقفه الجديد تتبدل أيضاً علاقة ك بلني. يفاجئها وهي

بقميص النوم مع التاجر بلوك الذي يرتدي أيضاً ملابس ناقصة؛ وعلى الفور شعر ك أنه متفوق جداً عليه. أحس أنه حر هكذا، مثلكما لا يكون المرء في ما عدا ذلك سوى عندما يتكلم في الغربة مع أناس قليلي الشأن. بلوك، هذا الإنسان خائرك النفس يعرضه يوزف ك كما ينبغي، عندما يدعه يعتبر قاضي التحقيق ذي المرتبة الدنيا على الصورة في حجرة عمل المحامي، يعتبره عمداً قاضياً ذا مرتبة عالية، وعندما يعطيه ك أوامر متقاضة، ويربكه بها قصداً في خضوعه عن رضي. إن بلوك هو فعلاً إنسان يرثى له، كما تقول لني بلهجة تنم عن موضوعية كما تنم عن زراية واستخفاف، رغم أنها هي نفسها كانت قد ساهمت مساهمة كبيرة في ترويض التاجر مثل حيوان مسلوب الإرادة. إنه زبون كبير للمحامي. وبهذه الصفة سلم له نفسه، ونتيجة لذلك وقع في الوقت ذاته ضحية خادمه. بتخلّيه عن استقلاليته يدع آخرين يفكرون نيابة عنه ويدع غرائزه توجهه. هذه المعرفة المهمة تزهد ك نفسه بعشيقته السابقة. إن حضور التاجر... سلب الرغبة في تمضية الليلة مع لني والتحدث معها عن إخطاره للمحامي. إنها إلى جانب د. هولد بالضرورة. كل منهما يعني إلهاء وليس مساعدة. لهذا السبب سرعان ما يدرك ك ضرورة إلغاء توكيلاً المحامي نهائياً.

بمثال التاجر بلوك يعلم ك مصير إنسان ينقل، في أزمته الذهنية - الروحية، المسؤولية عن حياته الخاصة به إلى آخر. كانت وفاة زوجة هذا الرجل قد هزّته وحرّكت في نفسه فجأة أسئلة مبدئية يئس من الإجابة عليها. في المسائل القانونية المتعلقة بالعمل كان ينوب عنه محام منذ عشرين عاماً. فلماذا لا ينوب عنه الآن أيضاً، في قضيته الخاصة به؟ لكن مهما كانت استغاثة بلوك مفهومة، فإن تطاول المحامي برده الواحد جدير بالاستنكار. إن سلوكه المخادع لا يسلب التاجر كامل ممتلكاته فحسب، بل

كرامته الإنسانية أيضاً. أكثر من خمسة أعوام ونصف العام يستغل د. هولد بلا خجل الأزمة النفسية لإنسان، لإبقاءه في تبعية تامة وإذلاله، وذلك بحب للانتقام وشهوة للسلط. وأنه لا يستطيع أن يقدم أدنى خدمة نظير ذلك، فإنه يوجه بلوك قصداً إلى اعتقاد خاطئ يقوده بالضرورة إلى استنتاجات خاطئة، حتى لدى ملاحظات صحيحة. وعلى العكس، فإن هذه الاستنتاجات تزيد من ثم الحيرة والقلق والأزمة التي يتمسك من أجلها المستغث بمعنه الآثم.

يدرك بلوك على نحو صحيح أنه لا يوجد شيء مشترك لدى هذه المحكمة، وأن كل شيء إنما يتوقف على المدعى عليه الفرد وحده، ولا يرى بلوك تقدماً في محاكمته، ويسير غور تدابير المحامي الفاشلة، ويصف التماساته بأنها كلها علم حقاً، لكنها كانت في الحقيقة بلا مضمون، ويعتبرها عديمة القيمة كلياً. ورغم كل ذلك فإن بلوك لا يستغنى عن مساعدة المحامي له. بل على العكس، إنه يبحث عن عدد أكبر من أمثال هؤلاء المساعدين، ويخدعاً ويغشها مع محامين آخرين، محامين محتالين لا يتمتعون بسمعة أقل ريبة. لكن كل هذا النشاط الذي لا يكلّ على ما يبدو، لا يستطيع أن يخفىحقيقة أن لأشياء يحدث. وأن التدخل المستقل... إراهق كبير وينهك القوى، فإن بلوك لا يعمل بنفسه لدى المحكمة. مثل الرجل من الريف في مثال قس السجن، يفضل القعود عن العمل وهو مقتنع قناعة خاطئة أن الانتظار ليس عديم الجدوى. إنه يعلم، وهو أعمى القلب والبصيرة، بمساعدة المحامين الكبار له، ويبدأ حياته بلا جدوى، لأن يقوم بلا كلل بمراقبة المحامين المحتالين الخقرين في أفعالهم الكريهة والفاشلة. إن الإنسان الذي يريد أن تُحدَّد حياته من الخارج، لا يخطئ في تقدير طاقاته فحسب، وإنما يخطئ من قدر نفسه.

إن مثل هذا التخلّي عن الذات يمكن أن يفضي إلى إذلال كبير، وينعكس هذا في المعاملة التي يلقاها في هذه الأثناء التاجر بلوك، الذي كان يملّك متجر حبوب كانت مكاتبته تشغّل فيما مضى طابقاً تقريباً. أما الآن فإنه يدع لنّي، وهو مسلوب الإرادة ويُكاد يكون ممتناً، تخبوه في غرفة الخادمة... الغرفة ذات السقف المنخفض والتي ليس لها نوافذ، وذلك كي يكون تحت تصرف المحامي ليلاً نهاراً، لكن هذا لا يستقبله إلا إذا كان معتدل المزاج. وبعد أن يدرك ك فداحة الشمن الذي اشتري به بلوك خبراته، يشمئز، ويسعى بحرث أكثر من أي وقت مضى إلى أن يحرر نفسه، بالإخطار، ليس من المحامي وحده، وإنما من لنّي والتاجر أيضاً. قياساً إلى فقدان هذا شخصيته، فإن يوزف ك يجد طريقه إلى إحساسه بذاته.

- إخطار المحامي بإلغاء توكيه -

حيث تعلم لنّي ببنية ك، تحاول غريزياً على الفور، بل وبقوة بدنية في آخر الأمر، أن تصرفه عن ذلك؛ إذ أنها تخدس بمعنى الكلمة أنه ترتبط بذلك أيضاً، وبالضرورة، نهاية علاقة الحب بينها وبين ك. هذه الحقيقة يتناولها المحامي عندما يصف، في حديثه مع ك، حب لنّي بأنه ظاهرة غريبة من ظواهر علوم الطبيعة على نحو ما. وهنا يكون المدعى عليه دائماً الضاحية الطبيعية، إذ باعتقاله، وليس قبل ذلك، يطرح السؤال المرشد، فيما إذا كان بصفته إنساناً يقع فريسة الحسية، التي - كما يقول كافكا مرّة - تصرف انتباها عن المعنى، أم أنه ينجح في رفع حسنته إلى حب جدير بالإنسانية، يصل فيه، عبر حواسه، إلى المعنى الحقيقي^(*). إن الآنسة بورستن ولّي

(*) لـكلمة Sinn الألمانية عدة معانٍ، منها: معنى، حس (أ.و.).

تجسدان القطبين المتعارضين في هذا المجال. (من المؤكد أنه ليس من باب المصادفة أن عشيقه المدعي العام هستر تدعى هلني وتتجدد - جوازاً على مستوى المحكمة - طباقاً لها في اسم لني). إن الحب لا يعني بالنسبة للنبي سوى الجنس، وهو غاية لذاتها طبيعية. والمحامي يفضح بدائته، عندما يبوح أمام ك كيف يطلب من خادمه بين الفينة والأخرى، بشهوانية، أن تحدثه على نحو مسلّ، عن مثل هذه المغامرات الجنسية. لكن يوزف ك يقف الآن إزاء هذا قوياً داخلياً، متمالكأ نفسه تماماً. لذا لم يعد في مقدور المحامي إلهاءه... وصرف نظره عن السؤال الرئيسي. إن تصميم ك يرغم د. هولد على القيام بكشف ذاتي محرج بشكل متزايد.

بعد نطق ك بالإخطار، يرى المحامي نفسه مرغماً على النهوض من فراشه. يرفع اللحاف عنه ويجلس على حافة السرير. في عريه وارتعاشه من البرد يشير الآن نفسه انتظاماً بحاجته إلى المساعدة على نحو يدعو إلى الرثاء. إن تعبير Kafka آنف الذكر: إن فكرة الرغبة في مساعدتي هي مرض يجب أن يُشفى في الفراش، يجد مطابقاً له في هذه الصورة الشعرية: من يخلص المساعد المزعوم من خطئه المتبادل، يُشفى مرضه ويخرجه من الفراش. لقد أدرك يوزف ك أنه لا يقدر أن يلقى عباء المحاكمة على عاتق أحد دون أن يضاعف هموم نفسه، ويصبح بهذا أكثر ذنبًا. من يريد أن يحافظ على قدر نفسه، عليه أن يظل واعياً لحرفيته التي لا يمكن نقلها إلى أحد ولمسؤوليته الشخصية. أما من يأثم في ذلك، فإنه يلقى مصير بلوك المذل. هذا المصير يختتم الفصل مثل تمثيلية شديدة الوضوح ورادعة. ولا يستطيع يوزف ك سوى أن يولي مشتمراً.

إن الأمر لفاضح، عندما يتوارى د. هولد في الفراش ثانية، من أجل عرض التمثيلية، ويسحب اللحاف حتى الذقن ويستدير نحو الحائط. بهذا يصبح بالنسبة إلى موكله غير مرئي تقريراً، يصعب فهمه، أكثر ترفاً وقوه.

ورغم خواص هذا الإخراج الرخيص، فإنه لا يخطئ تأثيره التخويفي على بلوك المأمور بالحضور. مضطرباً كل الاضطراب يدخل على رؤوس أصحابه، متورّ الوجه، ويداه متقلصتان وراء ظهره. وإلى كلمات المحامي ينصل كأنما ينصل إلى صوت غامض بعيد يتحكم في وجوده. إن ارتعاشه يعتبر عن قلق البقاء، الذي يرغمه على الركوع - آبة، ويدعه - تحت تعليمات إخراج لبني - يقبل بخضوع يدي إلهه الأرضي. أكثر من ذلك لا يمكن إهانة إنسان وإذلاله. وكونه يوافق، وهو مسلوب الإرادة، على فرض الوصاية عليه كلياً، فإنه يحول نفسه إلى حيوان. لم يعد هذا موكلًا بعد، لقد كان كلب المحامي، يلاحظك غاضباً، ويحس فجأة كأنما كان مكلفاً بأن... يقدم تبليغاً عن ذلك إلى جهة أعلى. وبهذا يُعرف على نحو جلي بمتى الإنسان ذهنياً وبمهمته أو - كما يقول كافكا في موضع آخر - بالمشاركة في العمل في شؤون العالم وفي المسؤولية. إن يوزف لك متأنداً أخيراً من الطريق الصحيح.

وعلى العكس من ذلك، فإن سلوك التاجر بلوك يعني المحاولة للتخلص عن سموه وتحقيق مهمته بسبب ما يرتبط بذلك من جهود وتحديات. وهي محاولة محظمة للذات ومزدرية بالإنسان. ونتيجة لذلك لا يمكن أن تبدأ محاكمته، وذلك لانتفاء الإنسانية والكرامة البشرية. إنها النهاية العدمية لعالم يخلو من العقل.

(رغم أن ماكس برود يشير بشكل واضح إلى أن هذا الفصل لم يكمل، فإنه لا يمكن إضافة شيء جوهري إلى أهمية مضمونه وأهميته الفنية. لقد قيل كل شيء).

٥ - طرائق تحقيق الحياة تحقيقاً مجدياً

- البيت -

من ي يريد النجاة من مصير الناجر، عليه أن يتخلص بحزم وفعالية من قبضة الحامي الحديدية. إن القوي داخلياً قام بهذه الخطوة، وبدلاً عن الحامي يتوجه أكثر نحو تيتورلي، الذي أصبح في هذه الأثناء أحد معارفه المقربين ومحسناً إليه. وفوق ذلك وجد في فولفارت على ما يبدو مساعدًا آخر يبشر بالخير ويقدر أيضاً أن يجيب على أسئلته موجهاً. (في هذا الموضع يظهر نقص الرواية في وضوح سبب فقدان بعض حلقات الوصل فقداناً جلياً).

يشير لك السؤال، أين يمكن منشأ الادعاء عليه. وكل من تيتورلي وفولفارت يقدر دون صعوبات إعطاء الجواب على ذلك. لكن كلاً منها لا يقدر أن يصف سوى الهيئة الخارجية للنيابة العامة الكبيرة، التي تتصل خلفيتها الكامنة لا سيل إليها أبداً. بهذا يشير كل منهما، إذاً، إلى تمثيل الإنسان بفضل قدرته على المعرفة، ووعيه الخير والشر. بهذه الحقيقة ما من ثمة شك، لكن النفاد إلى سببها هو أمر محال. إن عالم ما قبل التاريخ يلفه ظلام لا يمكن التفاذ إليه. يظل الصمت المعتم لسر الخلية.

إذاً لا يقدر الفنان أيضاً أن يكشف النقاب الأخير عن الحقيقة. صحيح أن الحقيقة هي غايتها التي يسعى إليها، غير أنه يشارك هذا في آخر الأمر جميع الناس الذين يسعون إلى ذلك. إنهم في هذا أنداد له، لذا فإنك كان يستطيع من طرفه أن يعدّ تيورلي، إذ أن كليهما يتوقان إلى الحقيقة ويتساقبان إليها بحيث أن كلاًّ منهما يخشى نجاح الآخر، إذ أن المجال الشخصي يظل كبيراً. والمشترك بين الجميع هو البحث المتأمّس. لكنه يصل من الخيال المغامر عبر الحدس الجُفُل إلى يقين موجّه وساع إلى غايتها. إنها مباحث الحياة الصغيرة التي تدعك يظن أنه يفهم أكثر بكثير هؤلاء الناس من محيط الحكمـة، وأصبح في مقدوره أن يلعب معهم، ويوشك أن يدخل نفسه بينهم، يحصل على الأقل لبرهة على الصورة الشاملة الأفضل. وهذه هي الحالة التي يصل إليها يوزف لك فعلاً وعلى خير وجه في القسم الأول من الفصل الختامي. لكن رغم مثل هذه النجاحات المؤقتة، فإنه لا يوجد أي شك بأنه لا يتسنى لأي إنسان أن يحصل في حياته على يقين حقيقي وباقٍ. إن الإنسان لا يقدر أن يسمو على نفسه، لا يقدر أن يحيط علماً بنفسه، كما يقول كافكا. إنه في الظلام. حياته محصورة، إلى حد ما، في الدرجة الأولى للمحكمة. لكن وإن لم يحصل على الحقيقة كلها، أليس كثيراً أن يعمى بصره من بريقها وأن يتمتع بهذا البريق المتجلّ؟

على كل حال يعتبر يوزف لك مثل هذه الغبطة منبع حياته الحقيقي. منه يغذي أفكاره وأماله بين الحين والآخر. إن الحياة بكمالها تفتح له نفسها من ثم كأنه المدعى عليه الوحـيد، وجميع الآخرين يحيطون به وينظرون نظرة كأنما يتأملون وهم يملكون إحساساً بالمسؤولية. في هذه الساعات من التأمل والتمعن إلى النفس يستمد عزاء، فجأة يفهم مستأجرـي السيدة

غروب آخر الذين يحيطون به مثل جوقة تسکو، لأنه لم يعد يهتم بهم أدنى اهتمام. إنه يسبر غور غيرته وترقه، عندما يهرب من الآنسة بورستنر ثم يعود إليها رغم ذلك مراراً؛ إذ أن حياته تبدو له الآن بصفتها مبني الحكمة، الذي يعرفه خير معرفة، وممراته... بدت له مألوفة كأنها كانت مسكنه دائماً وأبداً. ولأنه يستوعب محیطه مندهشاً بعينين مفتوحتين بجهد، يتجلّى له شيء من طبيعته الواسعة والمنطوية على معانٍ كثيرة، هذه الطبيعة التي تكمّن حتى في وقائع اليوم الأقل أهمية. إن الواقع السطحي يصبح رمزاً ذا دلالة كبيرة للإنسان المندهش إذا فتح نفسه لهذا الواقع في هدوء والتفت إليه في تأمل.

في لحظة من لحظات مثل هذا الهدوء الحالق يعيش يوزف لك مرة، في القسم الأخير الذي حذفه Kafka من الفصل، نسوة تبرئة حقيقية، ويستمتع بها. وأن هذه النسوة حدثت وتُقلّت عن طريق تيتوولي، فلا يمكن أن تكون قد نشأت سوى نتيجة تجربة مع الفن. إن لك على يقين: هنا، إذا كان في أي مكان، كان الاختراق ممكناً. ما هو المقصود بذلك؟ إن الإنسان يصبو إلى كسر قيود ارتباطه الطبيعي، وإلى أن يسعى إلى الحرية هدفاً، كما يقول Kafka نفسه. إن اندماج الحرية والارتباط يصبح ممكناً في الأثر الفني. فيه يُصوّر اللانهائي في النهائي، اللامرأوي يسطع في المرأوي. هذا هو التحايل على الحكمة! في الشعور السامي الناشئ عن مغامرة الفن يقدر الإنسان أن يشارك لفترة قصيرة في نظام العالم الأسمى هذا، الذي يُحشّب به.

لكن لأن هذا النظام لا يصبح قط يقيناً نهائياً، فإن الفنان يوجه ابتسامة قليلة الحياة إلى الفراغ برأس مرفوع. لكن هذه الجرأة بالذات، مخاطرة

الفراغ هذه تحول الإنسان إلى شخصية. ولأنه، رغم عدم اليقين، يعترف بإمكانية عالم أفضل، فإنه يعطي حياته معنى ونزاً نحو أعلى، وينجحها الوقار الإنساني. إن شعر كافكا كله ليس له غاية أخرى.

إن تجربة الفن المنشودة بحيوية واستعداد داخلي ترفع الإنسان إلى حالة معلقة مُشعدة من الانسجام تشمل كل ذرى وأعمق حياته، ارتفاعاً وإنخفاضاً، دون بذل أي مجهود، وبسهولة مثل قارب خفيف في الماء^(*) واعياً إن نوع الحركة الجميل هذا لا يمكن بعد الآن أن يخص حياته السابقة الدنيا، يعيش الاختراق المنشود، فوق رأسه الذي حفظه حادث التحول. لمدة لحظة يواجه ضوء الحقيقة الباهر. صحيح أنه لا يحتمله، لكنه، من الآن فصاعداً، مقتنع بيقينيته. من يعش هذا ذات مرة، ير عالمه بأعين أخرى. يدرك نفسه جزءاً من كلّ أعلى، ويحس فيه بالسكينة والاستقرار وأنه قرير العين.

بعد هذه التجربة يشتمل يوسف ك مبني المحكمة بكماله بنظرة واحدة. كل شيء يبدو له أكثر هدوءاً وبساطة، منتظمأ على نحو سليم معقول ومأثوراً على نحو راسخ. ظاهرياً يغير تحول ك عن نفسه في حالة جديدة تلته دافئة وثقيلة على نحو منعش، بينما تظل ملابسه السابقة.. كومة بسط فوقها القميص بأكمامه المترجمة. إن دلالة هذا واضحة. إنه ولا ريب رمز القلق الوجود، هذا القلق الذي يثقل على حياة ك. لكن يحل محله الآن الشعور السامي المبهج بالغلبة الناجح عليه. إن ك يعيش لأول مرة تحقيقاً مجدياً لحياته، ويستمتع بهذا التحقيق.

(*) الاستشهادات في هذا المقطع والمقطع التالي هي من مقطع مؤلف من صفحتين شطبه كافكا من مخطوطته (أ.و).

- سفرة إلى الأم -

إن القرار المفاجئ بالعودة إلى زيارة والدته أخيراً بعد ثلاثة أعوام يتخذه يوزف ك تماماً قبل أربعة عشر يوماً من نهاية محاكمته التي تستمر طوال عام واحد. في مرتين متتاليتين لم يكن قد لبى طلب والدته في زيارته لها في عيد ميلاده على الأقل، ولم يكن قد وفي بوعده الذي قطعه لها. كان يقوم بواجهه كابن يأن بعين أمه، التي تعيش لوحدها والتي يكاد بصرها يكفّ، بنقود، يرسلها إلى ابن خالة يقيم في جوار الأم، ويوافيه بأخبارها بانتظام كل شهرين. لكن هل يكفي هذا حقاً إزاء الأم العجوز، التي تفخر بابنها، بل وتعتبره رغم كل اعتراض مدير المصرف؟ هل من حق مثل هذا الابن أن يلاحظ بنفسه كارهة تقريباً كيف تستمد هذه المرأة في شيخوختها قوة جديدة من ورع إيمانها؟ عندما يرى يوزف ك الآن فجأة في هذا التطور الأمر الجيد، وينجح حالاً على لقاء شخصي، فإن هذا يطابق التغييرات الكبيرة التي طرأت على إحساسه بالحياة. إذ من الواضح الحالى أنه تم له في القسم الثاني من الرواية تحقيق خطوات ملموسة في تعامله مع محكمته، كما توصل إلى إدراك عميق نماهيتها.

وربما يكون بالإمكان وضع الأمر في نطاق تأثير فولفارت المذكور في الفصل السابق، والذي ظل دون إنجاز، عندما يعيش يوزف ك الآن، بعد تجربته مع الفن لدى تيتورلي، أيضاً على مستوى آخر أعلى، أي في علاقة أكثر جدارة وأكثر حباً مع والدته، يعيش تحقيقاً سازاً لحياته. على كل حال، تهفو نفسه الآن إلى أمه طبقاً لحاجة ورغبة تتبعان من داخله، وذلك رغم الأخبار الطيبة عنها وبدون سبب مخصوص. وهو يعي تمام الوعي أنه إنما يخدم بذلك على الأقل غرضاً حميداً. ولهذا السبب يستذكر أيضاً أن يقلل من قيمة سلوكه بتساؤله فيما إذا كان يسافر بدافع التأثر مثلاً. إنه بالأحرى

التعبير عن شعوره المستمر بالغبطة بعد تبرئة ظاهرية تدع المحاكمة تهدأ على ما يبذو منذ أسابيع! وعندما يظل يوزف ك، رغم كل الاعتراضات والتردد، وهو صاحب معنى الكلمة، على قراره أن يسافر، تبدأ بالنسبة إليه الساعات الجميلة التي هي مكنته ولا ريب في محاكمته، إذا وقف في دخليته موقفاً صحيحاً. إن المدير، صديقه مرهف الحس والمخلص، يعرف هذا ويقدر بحق وعن قناعة أن يتمنى له سفرة سعيدة. ولا تخدم هذه السفرة غرضاً حميداً فحسب، بل إنها، بصفتها فعلاً حسنة، تعمّر صدر الابن نفسه بشعور من الغبطة نبيل.

ونظراً للأهمية الإنسانية لهذه السفرة، فإنه يسهل على ك حقاً أن يصد، صامتاً تقريباً، منافسه اللإنساني نائب المدير؛ وذلك لأن سمعته ومركزه في المصرف لم يعودا يشغلان باله في شيء. بل على العكس، إن انحناءة الباب ودهشة الموظف كوليتش إذ يزور له رسالة على نحو اعتباطي، يشددان وعيه أنه مازال أحد كبار موظفي المصرف. وبهذا يجري قبل كل شيء توضيح أن التطور في محاكمته ومجرى حياته في الوظيفة إنما يتألفان وبالكاد يخل أحدهما بالآخر. إذ حتى الحقد الشخصي الذي يكتبه ك لموظفي المصرف الثلاثة ذوي الرتب الدنيا، والمتورطين لهذا السبب في محاكمته بالضرورة، هذا الحقد الذي يشعر به لدى اعتقاله، يمكن الآن التخلّي عنه. في المقطع المذوف في نهاية هذا الفصل يعني ك تقريباً من هذا الحقد، الذي لا يرضيه في نهاية المطاف ليس إلا لأن منافسه اللإنساني إنما يقاسمه إياه. إن الحقد ليس الجواب الجدير على غباء كوليتش، وحمله رابنشتاين، وتواضع كاميير.

يعيش يوزف ك في وفاق مع محاكمته، لأنه يدرك مطالبها ويتصرف طبقاً لهذه المطالب. وبهذا يتحقق، طوعاً وبإدراك مسؤوليته، الرسالة الأعلى للحياة الإنسانية، هذه الرسالة التي تشمل وجوده بكامله.

٦ - الموت أملأً بالخلاص أو هلاكاً نهائياً

- حلم -

إن الحالة المعلقة التي تتملك يوزف ك نشوة في فصل البيت، وتبقى في السفرة المسارة إلى الأم، تجد ذروتها في خلاص يحلم به بعد الموت. لهذا السبب يجب رؤية قصة حلم، التي نشرها كافكا منفصلة عن الرواية، حلقة ختامية في سلسلة التطور هذه، وإضافتها إلى أحداث الرواية كفصل قبل الفصل الأخير. في الموت يواعد يوزف ك الحالم بإمكانية خلاصه، عندما يدرك غاية حياته إدراكاً صحيحاً ويعمل بفاعلية جاهداً لتحقيق هذه الغاية. وفيق مبهجاً من هذا الإدراك، الذي يسيطر، على نحو واعد ومن الآن فصاعداً، على حياته ويوجهها إلى أعلى.

يدعه هدوء نزهة ذات يوم جميل يعي على الفور أنه في مقبرة؛ إذ أن الموت هو جزء لا يتجزأ من كل حياة، لكن الإنسان وحده يعرف ذلك. وهذه هي النتيجة الضرورية لتميزه بالمعرفة. من خلال هذه المعرفة يسعى، وبالتالي، في موقف مغلق لا يتزعزع، وبتصميم، إلى غايتها الحقيقة والتي لا يقدر، من ثم، أي شيء أن يشغله عنها. إنه يسرع ببساطة وتصميم نحو تلة قبر حفيثاً، لكنها تجذبه كأنها عيد مُغِّرٍ أعد على نحو بديع. إن

التهليل هو على ما يبدو احتفاء بإتمام حياة حافلة تحفقت.

موجهاً نظره بعيداً بِإِجْلَالٍ وَتَشْوِقٍ، يرمي يوزف ك على ركبتيه أمام تلة القبر تماماً. وفعلاً يبدأ في اللحظة نفسها الاحتفال الرسمي الرائع الذي ينحه فنان، بحر كات كثيرة، جلالاً. على الشاهدة يخلق... كل حرف نقىًّا وجميلاً، محفوراً بعمق وبذهب كامل. لكن الأمر وكأنما لا يسمح للفنان سوى بوضع الإطار العام الرائع، وإعداد العدة لعمل يشارك فيه لكن لا يقدر نفسه أن يكمله على نحو مقنع. إن فنه يصل لغاية الكلمتين غير الملزمتين هنا يرقد... لكنه يتعدد أمام الاسم الشخصي ويقع في حيرة كبيرة. إنه بأشد الحاجة إلى المساعدة على ما يبدو، ويستدير مرة أخرى إلى ك يكاد يتسلل إليه. لكن إذ يظل ثقيل الفهم جاماً، فإنهما يتبدلان نظرات عاجزة وحسب. وبهذا يتسبب ك على ما يبدو في نشوء سوء فهم شنيع يعيق إلى حد كبير سير الاحتفال. إن الخط الفاخر يفقد الآن حيوية الحركة وروعه الجمال؛ ويتوجب إعادة إيقاف صوت ناقوس كنيسة المقبرة. كل شيء يهدد بالفشل، ويوزف ك لا يقدر على ما يبدو سوى الاسترسال في ذرف دموعه، كي يغرق مسلوب الإرادة مغلوباً على أمره نادباً حظه. في مثل نقطة الحضيض هذه يصرخ القس في فصل الكاتدرائية في وجهه غاضباً: لا ترى إذاً على بعد خطوتين؟ يصرخ لأنه يظن أنه يرى ك يسقط بغير موجب. على نحو مشابه يتصرف الفنان الآن: غاضباً يدوس بـإحدى قدميه في تلة القبر، بحيث أن التراب تطاير حوله إلى أعلى. وهنا يدرك ك آخرأ!

حتى الموت الخاص يصنب من الإنسان المشاركة العملية. لأنه قادر على إدراك قانون الطبيعة الضروري، فإليه أيضاً أن يرضى به مختاراً وأن يرغب في تحقيقه. هنا وحسب يحافظ لنفسه، في ارتباطه، على الحرية! هنا

وبحسب تصبح حياته المحدودة باباً له إلى اللانهاية! الأرض ليست عائقاً وإنما هي الإعداد لـ اختراق. إن قشرة الأرض رقيقة ولا تبدي مقاومة تقريباً، إذ أنها أقيمت في الظاهر وحسب. من يندفع إليها بتصميم، يشقها ويفتح لنفسه علوًّا وعمقاً لا نهائين. ك يغوص فيها، ويرى، وقد أداره على ظهره تيار خفيف، اسمه الكامل والمتجلّي منطلقاً من الأعماق غير الفادة إلى الأعلى بزخارف ضخمة. «أغرق إذاً! أقدر أيضاً أن أقول: اصعد!» جاء في «فاوست». في التحقيق الفاعل لحياته وموته يسمو الإنسان إلى عظمته الحقة، ويظل بهذا جديراً بالخلاص.

كشف حلم يوزف ك الشروط التي تقدر حرية العقل في ظلها أن تتخطى الفناء الأرضي للإنسان. إذ يخضع للضرورات الطبيعية مختاراً ومدركاً لمسؤوليته، فإنه يحقق معنى الخلقة المليء بالأسرار. يصبح جزءاً من الكل اللانهائي الذي يشير بقاؤه بالخير. مفعماً بهذا الوعي يدرك ك، الذي أفق، النهاية الجدية لحياته وغاية هذه الحياة.

- نهاية -

على عكس مخطوطة الرواية التي ظلت ناقصة لم تكتمل، نشر كافكا بنفسه أمثلة أمام القانون وحلم يوزف ك^(٤). هذا الاعتراف غير المحدود بالنصرين الشعريين يزيد من أهميتها. لهذا السبب لا يجوز الاستغناء عن فصل حلم في مجموع الرواية، رغم أنه لم ينشر ضمن الرواية في أية صورة من طبعاتها. إنه يشكل توازناً ضروريَاً، وموجهَاً، مع النهاية الحقيقة للرواية.

^(٤) نشرت أمام القانون عام ١٩١٧ في مجلة «يوم القيامة»، ونشرت حلم في العام نفسه في ثلاثة مجلات مختلفة. ثم نشرت القصتان ضمن المجموعة القصصية طيب ريفي، التي صدرت عام ١٩١٩ (أ.و.).

إذ يطرح السؤال الحاسم: هل يقدر إنسان حلم مرة بموت ذي جدوى، وأصبح مذاك مقتنعاً بإمكانية هذا الموت، أن يتنهى، بإطلاق، مثل كلب؟ من يفترض هذا رغم ذلك، فإنه لا يعطي النصف الثاني من الجملة الختامية حقها: لكن(*) الأمر كان وكأنما الحجل يقى بعده. غير أن هذه الإضافة بالذات تعطى الرواية عظمتها الحقيقة؛ فهي وحدها تتضمن اعتراف كافكا بالحياة الإنسانية الأسمى. إن الليلة الأخيرة المستثناء من الحدث بلاوعي ما زالت تطوي في ظلمنتها السر المفعم بالأمل.

في نهاية المحاكمة التي استمرت عاماً كاملاً يتكرر في مسكن ك... عشية عيد ميلاده الواحد والثلاثين، في جوهره، الحدث نفسه الذي أدى إلى اعتقاله صاح يوم عيد ميلاده الثلاثين. إن الفرق الذي يجسم كل شيء يكمن في موقف يوزف ك المتحول كلياً إزاء هذا الحدث. في بينما كان يرى نفسه آنذاك غير متتهي وأنه بوغت، ويتمدد ضد التحدى الجديد وهو قاصر كلياً عن الفهم، فإنه يستقبل الآن زائره دون أن تكون الزيارة قد أعلنت له، وكان في وضع من يتوقع ضيوفاً. لقد تعلم ك إذاً، في مجرى محاكمته، أن يقيّم حياته بمقاييس أعلى، وأن يدركها ويشكّلها محكمة مستمرة يظهر هذا التطور على وجه الخصوص في نصف الرواية الثاني، وببلغ بلا ريب في الفصل الأخير ذروته ونهايته.

لا يلتح ك على الرجلين الآن كما فعل مع حارسيه بالسؤال الذي لا يجاذ عليه، ولذا لا طائل تخته: من أنت؟ وإنما يثبت متسائلاً على ما يبدو:

(*) كلمه «لكن» في الجملة الأخيرة من نص الرواية العربي غير موجودة في نص كافكا، وترجمتها الحرافية هي: كان الأمر وكأنما الحجل يقى بعده. وقد أضاف إشافيير كلمة «لكن» طبقاً لفهمه للجملة الأخيرة في الرواية ولرواية بكاملها. وقد تناقشتا مرات عديدة حول هذه الجملة راجع ص ٣١٧ - ٣١٨ (أ.و).

أنتما إذاً معيتان لي؟ إنه يعرف تماماً لماذا حضرا، ويكان يذعر من مدى السهولة التي يكتشف بها مهمتهما كتمثيلية مدروسة. بهذا يصبح الرجال دمى مطيعة تقريباً في يده، لأنه يعرف الإمكانيات المحدودة لحالاتهم. ليسا مهياً لأن يسألوا، يعترف لك لنفسه، لأنه هو نفسه وحده هنا يقدر أن يعطي جميع الأجوبة الضرورية. إنها المهمة الشخصية لكل إنسان أن يبدأ حياته وموته بمعنى. لهذا السبب يتولى القيادة على طريقه الأخير.

كيف يعامل رسولاً موته؟ في بايَّ الأمر بيستان له فناء جسده، هذا الفنان الذي لا محيس عنده. لذا يندمجان معه في وحدة لا تتجزأ ويختضنانه بهذا، في آن، إلى الحتميات الضرورية لكل حياة طبيعية. ما من إنسان يملك إمكانية للتمرد على نهايته الأرضية. ومن يحاول ذلك، لا بد له أن يفشل. من لا يريد أن يموت، يموت من ثم بساطة ضد إرادته. صحيح أن كُّلّ يقدر، وهو على طريقه الأخير، أن يتوقف مرة ويكتُّ، لكن لا يجوز له على الإطلاق أن يتخلّى عن الغاية المستهدفة بالضرورة. وإذا هو حاول رغم ذلك، فإن الرجلين لم يكونا بحاجة سوى ألا يرخيَا أيديهما حتى يستمرا في سحبه. يقدر أن يشتَّت ضدهما، ويسبب لهما عملاً شاقاً، غير أنه لا يستطيع قط أن يقاوم بنجاح. وكافكا يبين عبادة مثل هذا الجهد بصورة مؤثرة هي صورة الذباب الذي يسعى بأرجل مكسورة لانتزاع نفسه عن الدبق، دون أن ينجو من مخالب الموت المؤكد.

ترمز الآنسة بورستن في الرواية إلى الشخصية المستقلة التي تقيه من أن يصرف نظره عن الجوهرى ويلهي نفسه بالأمور السطحية. إن الحال هو كأنها تناديه الآن أيضاً بمعنى الاعتقال: ألا تبدد طاقتكم على نحو غير مجدٍ، وإنما أن تستجمع قواك؛ إذ سوف توضع أمامك متطلبات عالية. إن ذكرى الآنسة بورستن في الفصل الأخير تعني على كل حال عظمة موجهة تدعه يدرك على الفور عدم جدواي مقاومته. لذا فإنه سرعان ما يتخلّى في

المقاومة ضد موته عن أن يتمتع بأخر ومضة للحياة. وبدلًا عن ذلك يواجه مهمته الأخيرة بحزم.

ولايغيب النجاح عن التتحقق. يتحرك لك برغبته، وبهذا القرار الصحيح ينشط على الفور مرافقيه أيضًا. يعبر كافكا عن التوافق الجدي بين الضرورة والحرية في انتظام خطواته مع خطوات الآخرين. هذا الوفاق يدع يوزف ك يصبح سيد الموقف. إذ يقرر أن الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أفعله الآن هو أن أحافظ حتى النهاية على العقل الخاطئ بهدوء، فإنه بين في الوقت نفسه أن محاكمة التي استمرت عاماً إنما كانت بالنسبة إليه درساً ناجحاً ولاريب. لذا فإنه يفسر الآن أيضاً هذين الرجلين الأبلهين نصف الآخرين تفسيراً صحيحاً. إذ أنهما ليسا هنا سوى لكي يتعرف بنفسه عليهما في ضرورتهم اللاوعية، وأن يأخذ عنهما، في حريته ومسؤوليته الشخصية، سلوكهما الغائي القائم على ناموس الطبيعة. لقد بات يوزف ك أخيراً سيد نفسه !

لقد أدت حسنته إلى الحس (المعنى)، حياته يحددها بنفسه، وطبيعته يملؤها عقله. وبهذا اجتاز ك تناقضات الوجود الأرضي المتغيرة في ظاهرها. والهدف الذي تحقق، ينعكس في الصورة الشعرية: واجتاز الثلاثة، الآن في تفاصيم تام، جسراً يغمره ضوء القمر، وأصبح الرجالان يستجيان الآن عن رضى لكل حركة صغيرة يقوم بها ك. هذا النغم الثلاثي المتواافق هو ولاريب التعبير عن توازن كبير وحياة تحافت .^(*).

(*) يكتب أدونيس (في: احتفاء بالأشياء الغامضة الواضحة):
- «سأل الحياة:

متى تكونين صديقة لي؟
قالت:

حين يكون الموت صديقاً لك» (ص ١١ - ١٢).



لأن يوزف ك مستعد لموته ويقبله بشكل واع، فإنه يحتفظ بـالقيادة ساعياً إلى غايته عبر بعض الشوارع الصاعدة، وإلى خارج المدينة، حتى المقلع الصغير المهجور والمفتر. ولأنه يدرى أن العلاقات الاجتماعية لم يعد لها الآن دور بالنسبة إليه، فإنه يسحب الرجلين إلى الأمام بقوه. إن إقراره الخازم بموته يضعهم، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، في ضيق تنفس شديد. في حين يسرع صوب غايته الأعلى على نحو مستقيم وبدون عائق، يضطران لتركه والتأخر عنه. إن الأمر هو كائماً كان في مقدور روحه أن تغادر جسمه! إن ضوء القمر، غير العادي، بطبيعته وهدوئه، يبدو أنه يستقبلهم. وفعلاً ثمة حجر مقطوع... قرب جدار الكسر. كل شيء يشير إلى اختراق نهائي إلى حياة أعلى... لكن ك يحرم نفسه، من ثم، هذا اليقين!

إن نقطة التحول تأتي ولاريب في اللحظة عندما تخلص ك من مرافقيه الطبيعيين وتتحرر منها ظاهراً، لكنه من ثم لا يغادرهما فعلاً، بل يكث واقفاً ويتضرر صامتاً. وهذا يؤدي أولاً إلى أن كل عمل يجب أن ينتقل ثانية وعلى الفور إلى الرجلين منهوكـي القوى كلـياً، اللذين يتضيـبان عرقاً، والمكلـفين أكثرـ ما في وسـعـهمـماـ. والنشـازـ النـاتـجـ عنـ ذـلـكـ سـرعـانـ ما ينـعـكـسـ فيـ حـيرـتـهـمـاـ الـخـرـجـةـ وـفـيـ الإـلـزـامـ الـذـيـ لـاـ مـحـيـصـ عـنـهـ بـأـنـ يـقـومـاـ

← - «المخلوقات كلها تنجيء إلى الموت
ماعدا الإنسان» .

الموت هو الذي يجيء إليه» (ص ٣٦).
- «الإنسان كتاب
تقرؤه الحياة دائمة،
ويقرؤه الموت في لحظة واحدة،
مرة واحدة» (ص ٤٦ - ٤٧).

الآن بأنفسهما بإتمام الحدث الضروري على نحو من الأنجاء. وبخلاف ذلك، يتحمل ك كل شيء بصر دون أن يقوم بعمل. ونتيجة ذلك لا يظل وضعه متکللاً للغاية وغير جدير بالتصديق فحسب، وإنما يکث في آخر الأمر، وهو ينتظر موته، أكثر من ذلك، في وضع لم يكن حتى الأحسن من بين الأوضاع التي تم التوصل إليها من قبل. إن سكين جزار طويلة رفيعة مسنونة من الجانبين تشير إلى أن جسده يجب أن يموت. لكن لماذا لم يعد يوزف ك فجأة، رغم إدراكه الأفضل، يوافق على هذه الضرورة التي هي من نواميس الطبيعة؟ إن ك يعرف تمام المعرفة أنه كان من واجبه أن يمسك بنفسه السكين... ويطعن نفسه بها. لكن لماذا لا يفعل ذلك؟

إن الموت الشخصي لا يمكن أن يتم على نحو مجيد إلا إذا كان صاحب العلاقة يريده على أي حال ويوافق عليه بغير تحفظ. وهذه هي النتيجة المقنعة التي توصل إليها يوزف ك بعد محاكمته التي استمرت طوال عام. من يوجه نظره، عبر الوجود الأرضي المباشر، إلى اللانهائي، عليه أن يدرك موته باباً ممكناً وحيداً إلى الحياة الأبدية. وما من ثمة طريق آخر إلى هذه الغاية، اللهم إلا إذا صرف الإنسان نظره عنه وغير اتجاه النظر. صحيح أن المنطق لا يتزعزع، لكنه لا يقاوم إنساناً يريد أن يحيا. بدلاً من أن يأمل بخلاص مجھول وبقاء مشكوك فيه بعد الموت، يؤثر ك أن يتثبت، في خوفه من الموت، بيقينية حياته. لكن إذ لا يمكن إلغاء حقيقة معرفته، وإنما تکديرها فحسب، كما كتب كافكا في إحدى حكمه، فإنه يستسلم الآن إلى إغراء تزوير حقيقة المعرفة بتحويل المعرفة إلى غاية. إن كثرة الأسئلة المعلقة والممكّنة على ما يبدو في نهاية الرواية هي النتيجة وخيمة العواقب لخداع النفس الحيان.

إذ لا يؤدي يوزف ك واجبه الذي أدركه بوضوح، وينفي عن نفسه

مسؤولية هذا الخطأ الآخر، فإنه يستغني طوعاً ومذنباً عن كل ما يسمى بالإنسان إلى قدره. إذ فقط حرية قراره والمسؤولية عن عمله تميزانه شخصية فلذةً. كافكا يعبر عن هذه القناعة في حكمة: إذا حُمِّلت كل مسؤولية، فيمكنك أن تفید من اللحظة وترغب في تحمل المسؤولية، لكنك إذا ما حاولت ذلك، فإنك ستلاحظ أنك لم تُحْمَل شيئاً، وإنما أنك هذه المسؤولية نفسها. لهذا السبب، إنه خطأً كبير عندما ينكر لك، رغم ذلك، قدرته على المسؤولية، إذ أنه بهذا الإنكار إنما يهين نفسه ويسلبها إنسانيته. لا يعود موته مقبولاً ومرغوباً فيه من قبله، ويتحول من الفعل الحر الممکن إلى حدث ضروري يحمّله كإعداماً. وبالتالي فإنه لا ينفق على نحو آخر سوى كما ينفق كل حيوان^(*). مثل كلب! هكذا جاءت كلمته الأخيرة، صحيح، لكن بهذه المقارنة يعي أيضاً على الفور إنخفاقه وهزيمته. لذا فإن الخجل الناتج عن ذلك هو تعبير عن إنسانيته المستردّة وعن الأمل المرتبط بها بأن يقي بعده. هذه الكلمة الأخيرة للرواية تظل بلا ريب المفتاح لفهمها.

لكن لماذا يؤثر كافكا هذه النهاية على الخلاص الذي يُحلّم به؟ إن جواباً مقنعاً على هذا السؤال لا يمكن أن يقوم سوى على حب الشاعر للحقيقة حباً مطلقاً، هذا الشاعر الذي كان، حسب كلمات صديقه ماكس برود الحديرة بالتصديق، «لاميل طبقاً لـكامل طبيعته، إلى أن يعطي أية وعد أو إرشادات حول الحياة السعيدة. كان يعجب بكل من يستطيع ذلك، أما هو نفسه فقد ظل معلقاً. لكن هذا التأرجح بالذات كان من شأنه أن يكون

(*) يكتب أدونيس:
«ما أشغلي أن أموت
كأي حيوان إلهي»
المطابقات والأوائل، ص ١٠٣.

خاويًا، لو لم يشعر في نفسه المطلق بصفته مطلقاً يجلّ عن الوصف. في قلقه يستشعر المرء يقيناً نائماً، به وحده يصبح هذا القلق ممكناً ويحافظ عليه». إن حبه للحقيقة حباً مطلقاً يدع كافكا يظهر مرشدًا باقياً لحياة جديرة بالإنسان، نوراً في الظلام يضيء ويبين إمكانية ممكنة جداً لتحقيق وجود أرضي.

(بإقراره بالابتهاج بالحياة وبوعي الموت يتم لكافكا هذا العرض بأروع صورة في قصة البناء، التي كتبها في آخر عام من أعوام حياته).

III - كافكا الآخر

إن دراسة جديدة لرواية المحاكمة تتقصى المغزى، لابد أن تفضي إلى إدراك وعمرفة: من يفسر قلق كافكا كنقطة نتيجة العث، لكن لا يدركه كإرتعاد أمام صوت العقل، الإلهي في الإنسان؛ من يرى أشخاص شعره يخفقون بلا أمل ويغرقون في العدم، لكن لا يفهم ضرورة الموت خلاصاً ومكناً وباعثاً لكل أمل، فإنه يتجاهل نطاق توتر وعظمته هذا الفن. ما من نص شعري لكافكا يخلو من أمل!

إن كون الانطباع الأول، السطحي، بأن عالم صور كافكا هو معتم، يغطي في بادئ الأمر الخلفية الكامنة وعمق المعنى، أفضى في الدراسات الأولى إلى نتيجة خطيرة وخيمة العواقب، هي اتهام الشاعر بالعببية والغموض المقصود. وما يؤسف أن هذه الكليشيهات المتحاملة، لا بل الخاطئة في معظمها، مازالت حتى اليوم تسيطر على القسم الأكبر من الدراسات، وتغدر صورة شاعر لا يطمح منه سوى إلى رفع العالم إلى النقاء والحق والمطلق.

من أجل الرد على التحامل، الذي لا يمكن الدفاع عنه، رداً ذا جدوى، تم اختيار استشهادات كافكا التالية بحيث أنها تمثل ثقلاً موازناً مكملاً. عليها أن تصدّ الظلمة الخارجية الظاهرة بالنور الباطني الذي يضيء،

ويحمل كل شيء في أعمق شعر كافكا. **الظلال لاتطفئ الشمس**، يقول بنفسه، ويشير بهذا إلى مصدر الضوء الذي يتبع فنه إطلاقاً ويحدد ماهيته الحقيقة. لا ريب أن شكواه، عجزه وضعفه، أرقه وقوطه، إنما تميّز القسم الأكبر من تعبيره المتوجع عن ذاته، فإنها في آخر الأمر ليست سوى نتائج الآلام المرتبطة بالضرورة بالتميّز الإنساني بالمعرفة. لكن الفنان لا يريد الاستغناء عن الآلام، إذ فيها يتجدّر، بالنسبة إلى روحه الباحثة عن الحقيقة بينهم، التوق اللانهائي إلى ما هو، بالنسبة إلى كافكا، أقوى من كل ما يشير القلق، التوق إلى سر الخلائق غير القابل للفهم أو الإدراك^(*).

تحت اثنى عشر عنواناً جرى جمع أفكار كافكا وحكمه التي عبر عنها في يومياته ورسائله ونصوصه الجزئية وأحاديثه عن هذه المواضيع الخامسة. إن أقوال الشاعر ذات الدلالات الكبرى تضيء وتوضح طاقة الحياة والموت الهائلة التي يتمتع بها أشخاص آثاره الفنية النشيطون بلا كلل وإلى آخر لحظة^(**).

(*) يكتب أدونيس:

ظامئ

ولا برويني

إلا ماء لا أقدر أن أصل إليه» (احتفاء... ص ٢٥).

(**) في الأصل الألماني ثمة ١٨ صفحة من الاستشهادات، من نصوص كافكا، تدور حول المواضيع التالية: ١ - الإنسان، ٢ - الرسالة، ٣ - المعرفة، ٤ - الحقيقة، ٥ - الحرية، ٦ - الذنب، ٧ - الإمكانية، ٨ - الأمل، ٩ - القلق، ١٠ - الموت، ١١ - اليقين، ١٢ - الفن (أ.و.).

ملاحظة ختامية:

نتيجة التفسير

إن عالم كافكا الفني متعدد الطبقات والواسع يعكس جميع مجالات الوجود الإنساني. وعالم الصور الشعري المرئي هو الشكل الخارجي لمضمنون غير مرئي يتحدر في أفكار وأحساس وعقل وروح الفنان. إن حياته الباطنية الهائجة والجارفة مطبوعة في أعماقها بطبع القلق والحدس، الغبطة والمعاناة، الحنين والأمل، لكن قبل شيء بطبع الإجلال والمهابة أمام الوعي المنهش بأنه ما زال يوجد ما هو أعظم وأسمى. وفي السعي اللانهائي بشأن هذه الإمكانيات المتنوعة للوجود الإنساني لا يوجد توقف، إذ أن الهدف العالي في هذا العالم يظل في آخر الأمر لا سبيل إلى بلوغه، غير أنه رغم ذلك يُكلّف به الإنسان الفرد رسالةً مدى الحياة.

يعلم كافكا أن ما من إنسان يقدر أن يقول ما هو نهائي، لذا يحذّر مناشداً، من سائر النتائج الموهومة، التي يرفضها بصفتها خوزقة ظاهرية للقضية الظاهرة. لكنه يعرف أيضاً أنه في ظلمة المجهول هذه ثمة يقينية الضوء، الذي يملأ بريقه وظلله حياة الإنسان. هذا هو سر الخلقة الجدي والمعنى المليء بالأسرار للفن الفريد من نوعه الذي أبدعه الشاعر العظيم.

أحاديث ومراسلات مع الذي أدرك أخيراً رسالة كافكا

١

تعارف

كان ابني جبران قد أهدى مدير مدرسته الابتدائية ومعلمه، في نهاية الصف الثالث، نسخة ألمانية من كتاب «النبي» لجبران خليل جبران. وقد أرسل المدير إلى ابني جبران رسالة طويلة لطيفة رداً على هديته.

وفي نهاية الصيف الرابع، الأخير في المدارس الابتدائية الألمانية، بحث ابني عن هدية ثانية وأخيرة يقدمها إلى معلمه طوال أربع سنوات.

وفي تلك الأيام، من مطلع صيف عام ١٩٩٩، كنت أنظر وصول بضعة نسخ من الجلد الأول من «الآثار الكاملة» لكافكا، فخطر لابني أن يقدم نسخة عربية من كتاب ترجمه والده عن الألمانية هدية إلى السيد بروتنر Broenner.

وأثناء حفل الوداع من المدرسة الابتدائية حدثت زوجتي السيد بروتنر عن فكرة جبران، فقال لها أنه يعرف شخصياً عالم أدب، كان أيضاً مديرأً لثانوية الآباء اليسوعيين التي تخرج منها ابنه؛ وان هذا العالم نشر عدة كتب عن كافكا؛ وأنه - بروتنر - على استعداد لإقامة اتصال بيني وبينه.

قلت: من غير الممكن أن يكون «عالم أدب» نشر عدة كتب عن كافكا، لم أسمع باسمه. ونسينا الموضوع نهائيأً، بما فيه اسم «العالم - المدير».

لكن إلى بضعة أسابيع فقط. حين حصلت على نسخة من «طبعية خط اليد» لرواية المحاكمة، لقيت مفاجأة سارة. ففي مقدمة هذه الطبعة ورد اسم كريستيان إشفايلر في معرض الحديث عن محاولات ترتيب فصول الرواية، إذ كتبت عنه الأسطر التالية: «على عكس بروند، اوترسيروت، إليمار، وباسلي، تعتمد تأملات كريستيان إشفايلر في تسلسل الفصول على ثبات الحدث ومركز المعنى كمقولتين للترتيب: (إذا وضعت الفصول في أماكنها الصحيحة، لا تظهر الرواية، رغم عدم اكتمالها، ثبات حدث مقنعاً فحسب، وإنما أيضاً تطوراً منتظماً وبنية معنى معقولة)».

وبعد ذلك عناوين تسعه عشر فصلاً مرتبة ترتيباً مغايراً عن الترتيب المألوف.

وفي هامش ذكر اسم كتابه : «الأمل الميؤوس منه بخلاص الذات (تفسير وترتيب جديد لتسلسل فصول رواية المحاكمة لكافكا)» (بون ١٩٨٨). كما ذكرت مقالته، حول تسلسل الفصول، في مجلة «كلمة فعالة» (١٩٨٩).

تيقظت حواسى. ابعت نسخة من كتاب «رسالة كافكا غير المدركة»، وسألت زوجتي عن اسم «عالم الأدب ومدير الثانوية»، فتذكرته.

وفي الحال كتبت زوجتي، بتاريخ ٢٩ آب ١٩٩٩، إلى معلم ابنا جبران الرسالة التالية:

السيد بروتنر المحترم،

عرضك بإقامة اتصال بين السيد د. إشفايلر وزوجي نقبله برغبة.

نرفق لك نسخة من كتاب كافكا في اللغة العربية مع مرافقات في اللغة الألمانية: الغلاف الأول والأخير والفهرس. وفي الكتاب نفسه أيضاً تجد بعض الصفحات في اللغة الألمانية. مع شكرنا لجهدك، وتحيات لطيفة لك ولزوجتك.

بعد ثلاثة أيام فقط خابر السيد بروتنر، وأبدى إعجابه بالهدية «التي لا تقدر بثمن»، وذكر عنوان ورقم هاتف السيد إشفايلر.

ابتعت نسخة من كتاب «قصص كافكا وخلفيتها الكامنة». وبتاريخ ١٣ أيلول ١٩٩٩ أرسلت إلى المؤلف الرسالة التالية:

السيد د. إشفايلر المحترم،

في طبعة خط اليد للمحاكمة وقعت مؤخرأ على اسمك لأول مرة. إن تسلسل الفصول هو مسألة مركبة. على الفور قرأت كتابك «رسالة كافكا غير المدركة». إنني أعتبره الدراسة الأكثر ترابطاً وإنقاضاً عن المحاكمة. وعلى الفور قررت: سوف يترجم هذا الكتاب كاماً. الآن أقرأ «قصص كافكا وخلفيتها الكامنة».

سوف أرجوك أن تهديني نسخاً عن جميع المقالات التي نشرت عن كتبك.

لو أتمكن من القدوم إلى اويسكرشن، سيكون ذلك أول سفرة لي إلى خارج بون منذ ثلاثة أعوام. إن حرية حركتي مقيدة لأسباب صحية. ربما كثيراً ما تكون أو تحب أن تكون في باد غودسبرغ^(*). وفي هذه الحالة سيكون شرفاً كبيراً لزوجتيولي أن تستقبلك. إلى ذلك الحين، ولأنني أوثر الاستماع على التحدث، أرسل لك نسخة من كتاب كافكا بالعربية مع بعض المواد التي يمكن أن تعطي انطباعاً عن «قصة» الكتاب ومضمونه^(**).

مع تحيات ودية

وفي الحال أرسل لي إشفايلر، بتاريخ ١٩٩٩/٩/١٧ طرداً بريدياً يحوي رسالة ونسخة من كتابه «حقيقة كافكا فناً»، وعلى صفحته الأولى كتب المؤلف بخط يده الإهداء التالي:

إلى محب كافكا، ابراهيم وطفي: مع الأمانة، أن يضيء العالم
الشعري العظيم للشاعر بعض الإضاءة!

مع صلة قلبية

كريستيان إشفايلر، اويسكرشن في أيلول ١٩٩٩.

وكان نص الرسالة:

السيد وطفي المحترم،

إنه لمن الجميل جداً إيجاد أحد يستطيع الإحساس بالجهد اللانهائي

(*) بلدة جميلة (٧٠ ألف نسمة) متصلة بمدينة بون وتابعة لها إدارياً.
(**) المرفقات بالألمانية: ترجمة الغلاف الأول والأخير للمجلد الأول من «الآثار الكاملة» + الفهرس + بعض المقاطع من الكتاب + صورة من رسالة الى دار نشر فيشر + قائمة كتب للمترجم.

اللازم لترتيب المحاكمة ترتيباً ذا مغزى وإظهار عظمتها»(يجب على المرء أن يكون قد أمضى حياته مع كافكا، كي ينجز ذلك)». - رائع! (٥).

بكتابي الرابع أود أن أفت نظرك إلى قصة البناء. تعلم أن كافكا كتبها في العام الأخير من حياته. إنها قصة حب، وأجمل ما أعرفه من كافكا. ربما يعجبك تفسيري، أو على الأصح، يقنعك.

أظن أننا سوف نسمع من بعضاً، وأنظر ذلك بسرور.

كريستيان إشفايلر

خالص التحية

كلف زوجتي بالاتصال به (تقوم أيضاً بأعمال سكرتيرة).

وأجرت عدة اتصالات هاتفية إلى إشفايلر ومنه. وأخذنا انطباعاً عنه. وأخذ انطباعاً عننا. ودعانا إلى مدينته لحضور محاضرة يلقيها عن كافكا، ثم تناول الطعام معه. لكن لأسباب صحية لم نتمكن من تلبية الدعوة. ثم سافر إشفايلر في إجازة لمدة أسبوع. وعند عودته خابر واتفق على موعد لقاء. كنت قد رجوت زوجتي أن تدعه يحدد الموعد الذي يناسبه، وقلت لها إن كل موعد يناسبني. وتحدد موعد اللقاء يوم الجمعة الواقع في ١٢/١١/١٩٩٩، الساعة السادسة عشرة والنصف.

وكان انطباع زوجتي أن إشفايلر يكنّ لي تقديرًا كبيراً، ويعتبر أن

(٥) هذه جملة من رسالة بعثت بها إلى دار نشر فيشر بتاريخ ١٦/٢/١٩٩٨ حين استلم إشفايلر رسالتي إليه، خابري على الفور، وإذا تم أكمن في البيت، قال لزوجتي إنه حين قرأ هذه الجملة في النسخة التي أرسلتها له، لم يستطع الانتظار حتى ينتهي من قراءة كل مرفقات رسالتي، وتفاق في الحال إلى التحدث مع من كتب هذه الجملة.

الوصول إلى صعب، وأنه يتهيب اللقاء، ويتصرف بحذر، ويحاول تجنب أي تصرف قد لا يناسبني. فمثلاً لاحظت زوجتي أنه كان يتمنى أن يكون موعد لقائنا قبل ساعة مما اتفق عليه، لكنه فضل ربيماً أن يتنزه في حديقة مدينتنا، أو يجلس وحده في مقهى، على أن يطلب موعداً قد لا يناسبني، إذ قالت له زوجتي إنني سأحضر من عملي في نحو السادسة عشرة. وأما يوم الجمعة فإنني أشتراك في دورة رياضة، ولا أحضر إلى البيت قبل ثمانية عشرة. أي أن إشفايلر سيمضي مدة ساعة بلا أي عمل، لقاء أن زوجتي ألغت درس الرياضة لي.

لم يعجبني تصرف الاثنين. وصباح يوم اللقاء خابت إشفايلر من مكان عملي - وكان هذا أول اتصال هاتفي بيننا، وكان مفاجأة له - ، وقلت له: «يا رجل، أنا عربي، تعال إلى بيتي متى تشاء. أنت عالم كبير، وأنا مجرد ناقل. ولا يجوز أن تضيع ساعة من وقتك الثمين للاستساع، وسأخرج قبل ساعة من عملي المكتبي البليد». ويدو أن لهحتي حلت فليلاً جمود الجليد الذي تراكم خلال أسبوعين بين المانين. وقال إشفايلر: «فعلاً، يناسبني موعد الساعة الخامسة عشرة والنصف».

ولم أستطع الخروج من عملي قبل انتهاء الدوام. وعندما وصلت إلى البيت بعد إشفايلر بربع ساعة، كان يتحدث مع زوجتي ... عن كافكا طبعاً. سلمت عليه قاتلاً: «أرجوك في بيتي متأخراً أحد عشر عاماً». سأل زوجتي: «أرجو أن تترجمي لي ما يقصده زوجك». أجبته: «بدأت العمل في ترجمة كافكا في عام ١٩٨٨. وهو العام الذي وضعت فيه أطروحتك للدكتوراه عن كافكا. كان علينا أن نلتقي في ذلك العام، كحد أقصى».

وتحدثنا مطولاً عن كافكا. ودون انقطاع عن الحديث قدمت لنا

ررجتي بعض الطعام الخفيف وقنيتين من الجمعة. جلسنا معظم الوقت في غرفة الجلوس، وشاركتنا زوجتي أجزاء من الحديث. وحضر أولادي بضع دعائق وسلموا، وسألهم إشفايلر عن مدارسهم، وقال له جبران إنه كان يود أن يرور مدرسة إشفايلر الثانوية. وجلسنا مرة في غرفتي وحدنا.

كنت حتى ذلك الحين قد قرأت ثلاثة كتب لإشفايلر، هي: «رسالة كافكا غير المدركة» و«قصص كافكا وخلفيتها الكامنة» و«حقيقة كافكا فناً».

وبناءً على إيجاز شديد، وبشكل متفرق ، قلت للمكاتب بما أوجزه هنا إيجازاً أكثر:

- لقد أدركـت رسـالـة كـافـكـا حـقـاً.
- قـدـر كـتابـاتـكـ مثل قـدـر كـتابـاتـ كـافـكـاـ تـكـشـفـ فـي زـمـن لـاحـقـ.
- تـفـسـيرـكـ لـكـافـكـاـ هو أـفـضـلـ تـفـسـيرـ.
- أـعـتـبـرـ كـتابـكـ عـن الـحـاكـمـةـ إـنـجـازـاًـ كـبـيرـاًـ، وـعـرـضـاًـ كـامـلـاًـ بلا ثـغـرـةـ.
- وـسـوـفـ أـتـرـجـمـهـ كـامـلـاًـ إـلـىـ الـعـرـبـيـةـ.
- لـوـ عـرـفـتـ كـتابـكـ عـنـ قـصـصـ كـافـكـاـ سـابـقـاًـ، كـنـتـ تـرـجـمـتـ تـفـسـيرـكـ لـفـصـةـ الـأـنـسـاخـ، وـنـشـرـتـهـ كـدـرـاسـةـ ثـامـنـةـ فـيـ الـمـجـلـدـ الـأـوـلـ مـنـ «ـالـآـثـارـ الـكـامـلـةـ»ـ.
- كـتابـكـ عـنـ قـصـصـ كـافـكـاـ حـدـدـ لـيـ الـمـجـلـدـ الـثـالـثـ مـنـ «ـالـآـثـارـ الـكـامـلـةـ»ـ تـحـديـداًـ جـديـداًـ. وـسـوـفـ أـتـرـجـمـ منـ كـتابـكـ هـذـاـ ٤٠ـ صـفـحةـ، ١٧١ـ - ٢١١ـ (ـتـفـسـيرـ قـصـيـ يـوزـفـيـهـ، الـغـنـيـةـ، أوـ شـعـبـ الـفـئـرانـ وـفـنـانـ جـوعـ).
- كـتابـكـ «ـحـقـيـقـةـ كـافـكـاـ فـنـاًـ»ـ يـحـويـ تـفـسـيرـاتـ جـديـدةـ بـالـنـسـبـةـ إـلـيـ.
- إـنـهـ تـفـسـيرـاتـ عـمـيقـةـ جـداًـ، وـهـيـ فـوـقـ مـسـتـوـايـ، وـيـجـبـ أـنـ أـقـرـأـهـاـ عـدـةـ مـرـاتـ.

- أعتبر عدم الاعتراف بعملك من قبل المختصين في شعر كافكا فضيحة أدبية. (كما قلت مازحاً: «سوف أعيدك إلى ألمانيا، كما تمت إعادة كافكا عن طريق الفرنسية والإنكليزية»).

- سوف أقرأ بقية كتبك برغبة كبيرة، وما زال لدى أسئلة كثيرة.
لم أتحدث إلا قليلاً وبإيجاز كبير.

وتحدث إشفايلر طوال ثلث ساعات على الأقل. تحدث بحماس ورغبة. وهذا هو موجز ملاحظاتي عنه:

- إشفايلر مختص قدير في شعر كافكا. موضوعه يملأ عليه جوانحه، ويبدو أنه لا يملك موضوعاً آخر غير كافكا. (أدخلته إلى غرفتي، كي يرى مكتبي وصورة كافكا وصورة الصفحة الأولى من المحاكمة، بخط يد كافكا، المعلقتين. لم يلتفت إلى أي شيء، ولم يسأل أي سؤال، بل تابع حديثه في تفسير المحاكمة - هذا التفسير الذي أعرفه جيداً من كتابه - وكأنه يلقي محاضرة على مجموعة).

- يختزن في ذاكرته كل شعر كافكا، وكل ما كتبه هو عن كافكا.
وهو محدث بارع، لا يمل سماعه.

- أستطيع أن أتعلم منه الكثير.

كان سعيداً باستماعي إليه بانتباه شديد.

إنه إنسان غير سعيد. لقد بلغ السابعة والستين من عمره، ولم يُعترف بعمله، وليس لديه أولاد.

وكانت انطباعات زوجتي عنه أنه حزين لعدم الاعتراف بعمله من قبل

المحضين، وأنه في هذا اللقاء كان سعيداً لاستماعي إليه، وأنه يحفظ كتاباته عن كافكا غبياً، وأنه «مسكون بكافكا». قلت: «أما أنا فلا» (إشارة إلى مقالة عنني بهذا العنوان).

في اليوم الذي أعقب اللقاء أرسل لي إشفايلر طرداً بريدياً يحوي نسخة من كتابه «شعر كافكا ككل / المفتاح لفهمه». وعلى الصفحة الأولى كتب إشفايلر بخط يده الإهداء التالي:

إلى أقاربي الثقافيين الاختياريين السيد إبراهيم وطفي وزوجته العزيزة كشكرا على لقاء عصر يوم متربع بالسعادة.

في صدقة قلبية كريستيان إشفايلر تشرين الثاني ١٩٩٩

وبتاريخ ١٧/١١/١٩٩٩ أرسلت له الرسالة التالية:

السيد د. إشفايلر المترم،

أعتيرك أفضل مفسر لكافكا. وبهذه الصفة سوف أقدمك لقراء كافكا من العرب، والذين هم أنفسهم كتاب في معظمهم.

سوف أترجم كتابك «رسالة كافكا غير المدركة» إلى العربية وأنشره.

وفوق ذلك أود أن أكتب مقالة عنك وأجري حديثاً معك.

في هذه الأيام أقرأ أطروحتك للدكتوراه. وبعد انتهاءي من قراءتها مباشرة سوف أقرأ - بهم أيضاً - «الخلفية الكامنة» و«شعر كافكا ككل». وبهذا سأكون قد قرأت كتبك الستة. وبعد ذلك أود إجراء الحديث معك.

زيارة لك لنا بتاريخ ١٢/١١/١٩٩٩ كانت زيارة كريمة شرفتنا جداً.

منذ عام ١٩٨٨ أجلس إلى كافكا، على بعد خمس وثلاثين كيلو متراً منك، دون أن أعلم شيئاً عنك. هذا كارثة شخصية بالنسبة إلى ودراما (كما هي العادة في الحياة)، وهو أيضاً على نحو مخصوص عارٍ بالنسبة إلى النقد الألماني.

وربما سيكون في مقدورنا أن نستدرك بعض الشيء. في نهايات الأسابيع لدينا دائماً متسع من الوقت لك، وفي كل ساعة. وهذا ما سيكون لدينا قريباً في كل يوم من أيام الأسبوع أيضاً^(*). اليوم تركت زوجتي في البيت مصابة بزكام شديد. وإنما كانت ستكتب لك هنا شيئاً. وهي سوف تخبرك قريباً، وتسألك متى تود تشريفنا بالزيارة الكريمة التالية. أمنس استلمنا نسخة من كتابك «شعر كافكا ككل» مع الإهداء الجميل. شكرأ جزيلاً أيضاً لهذا الشرف الكبير.

مع تحيات ودية

قبل ظهر يوم الثلاثاء الواقع في ١١/٢٣/١٩٩٩ خابت إشفايلر من مكان عملي. قالت لي زوجته إنه خرج إلى المدينة لمؤتمره وسيعود بعد نحو ساعة. وحادثتي بضع دقائق كمن يتحدث مع أقاربه الذين يودهم. وفي الختام قلت لها إنني سأخبر زوجها من البيت. لكنهما لم يكونا في البيت مساء.

صباح اليوم التالي أيضاً خابت إشفايلر، فلم أجده. لكن بعد نحو ساعة خابرني إشفايلر، وقدرت أنه كان قد أخذ من زوجتي رقمي في

(*) كنت في هذه الأثناء قد أندثرت بتسريحني من عملي المأجور.

العمل. سألني فيما إذا كان ثمة أمر مستعجل. قلت: «أبداً، أود متابعة محادثنا عندما يكون لديك وقت ورغبة». قال إنه سيتصل بي بعد الرابع من كانون الأول، كي نتفق على موعد لقاءه. وقال: «حافظ على صحتك». وتأكد لي مرة أخرى رغبة إشفايلر القوية بمتابعة التحادث.

وعند وصولي إلى البيت في نحو الساعة الرابعة بعد الظهر قالت لي ابنتي إن «صاحب كافكا» خابر لتوه، وقال إنه سوف يخابر مرة ثانية بعد نحو نصف ساعة. وحدثني زوجتي أنه خابر قبل الظهر وقال لها أن تعنني بي، لأنه سيأخذ مني كثيراً. فقالت له إن طبيبي قال لي في اليوم السابق إن وضعي الصحي يسمح لي بالسفر. فقال إشفايلر: «إذاً أولاًً معنِّي، ثم إلى اويسكرشن». وأبدى رغبة قوية بمحادثتي شخصياً، فأعطته زوجتي رقمي في العمل.

وبعد نحو نصف ساعة خابرنى إشفايلر في البيت، وقال لي إنه سيلقى في التاسع والعشرين من الشهر محاضرة عن المحاكمة، وذلك في بلدة تقع على الجانب الآخر من نهر الراين. سألني فيما إذا كنت أحب مرافقته. فأجبته بالإيجاب مسروراً. وقال لي إنه سيمرون علي في الساعة السابعة والربع مساء يوم الاثنين، ويصطحبني معه في سيارته.

وفي المועד المحدد حضر إلي، واصطحبني معه، واستغرقت السفارة نصف ساعة تماماً، لم نتحدث خلالها سوى عن كافكا. وكان مكان المحاضرة هو صالون أدبي في بيت أحد أصدقاء إشفايلر. وكان عدد الحاضرين يزيد عن خمسة وعشرين شخصاً، يشكلون «حلقة أدبية» يجتمع أعضاؤها بانتظام.

ألقى إشفايلر محاضرته، وكانت موجزاً لكتبه الثلاثة عن المحاكمة.

وقد تحدث واقفاً طوال خمس وستين دقيقة تماماً، وذلك على فترتين تخللتهما فترة استراحة تناولنا أثناءها بعض المأكولات الخفيفة والمشروبات، وتسامينا بعض الشيء.

كان إشفايلر خطيباً بارعاً أثار إعجاب المستمعين. بعد انتهاءه عرف الحاضرين بي رسمياً، وقال إنني من سوريا، أحاول تعريف العالم العربي بكافكا. وأجاد إشفايلر على بعض الأسئلة التي وجهت إليه حول موضوع محاضرته. ثم انفككت الحلقة، وعاد بي، حيث تحدّثنا طوال نصف ساعة آخر عن الحاضرة وموضوعها وأثرها، وعن محاضرات مماثلة، وعن أستاذ إشفايلر، فيلهلم امريش.

وعندما افترقنا أمام مسكنى في الحادية عشرة والربع مساء، أي بعد أربع ساعات تماماً من لقائنا، شعر كل منا أنه يقترب من الآخر اقتراضاً حقيقياً... روحياً.

بتاريخ ١٢/٩/١٩٩٩ كتبت إلى إشفايلر الرسالة التالية:

السيد د. إشفايلر المحترم، كآخر كتاب من كتبك أقرأ في هذه الأيام «شعر كافكا ككل». ثلاثة كتب عن الحكماء! هذا أمر لانظير له. حالياً أفكر أنني سأستخرج من كتبك الثلاثة كتاباً واحداً في العربية، سوف يتتألف من ثلاثة أقسام: القسم الأول: وهو نوع من المقدمة، ويضم القسمين الأولين من كتابك «الأمل الميؤوس منه». القسم الثاني: «رسالة كافكا غير المدركة». وبودي أن أضم إليه مواضيع عديدة من «الخلفية الكامنة...».

القسم الثالث: مقالة عنك وحديث معك. وأقدر أن يبلغ الحجم نحو مئتي صفحة. هذا واجبي، وأشار جانبياً أنه نوع من التعويض عن عدم

وجود ذكر لك في المجلد الأول من «الآثار الكاملة» في العربية. بالنسبة إلى الحديث أحب أن «أتمرن»، إن أمكن. وهذا يعني، شفهياً أولاً، وبلا تحديد، وبدون كتابة ملاحظات، وبعد ذلك صياغة الأسئلة خطياً. اعتباراً من الأول من كانون الثاني ٢٠٠٠ لدى متسع من الوقت ليلاً نهاراً طوال سبعة أيام في الأسبوع، وهذا ما أنتظره بكل سرور.

مع تحيات ودية

بتاريخ ١٢/٢٠ ١٩٩٩ أرسل لنا إشفايلر بطاقة معايدة كتب عليها ما

يلي:

أسرة وطفي العزيزة،

بمناسبة نهاية العام أتمنى لكم جميعاً خاتاماً هائلاً وبداية جديدة حافلة بالأمل. بالنسبة إلي كان جميلاً جداً أنني تعرفت عليكم في عام ١٩٩٩ لوضع حجر الأساس من أجل تعاون مشمر. وربما نوفق سوية في العام القادم - أي بعد خمسة وسبعين عاماً من صدور رواية المحاكمة - في أن نفتح أعين بعض أصدقاء آخرين لكافكا على هذا الأثر الفني العظيم. وإنني لشاكراً أن يجوز لي إعطاء آخرين متuaً أدبية.

مع صلة ودية كريستيان إشفايلر وزوجته هلغا

وفي اليوم نفسه كنت قد أرسلت إلى إشفايلر الرسالة التالية:

السيد د. إشفايلر المحترم،

ها أنا قرأت - بكل رغبة - كل كلمة من كتبك الستة (كما قرأتها

زوجتي أيضاً). بتوق أنتظر الكتاب التالي، أو على الأصح الكتب التالية. من شأنني أن أجد كتاباً منك عن القلعة أهم كتاب. وأرى أن هذا واجب عليك. ومن شأن هذا أن يجعل صورة كافكا الشاملة التي تقدمها كاملة تقريباً، وأنت المفسر الوحيد الذي فعل ذلك.

سيكون شرقاً كبيراً لي إذا وجدت بعض الوقت نمضيه سوية. كما أنه يمكنني أن أحضر إلى اويسكرشن.

اعتباراً من كانون الثاني أتواجد في البيت فقط، وإنني أنتظر منك خبراً.

عيد ميلاد مباركاً أتمناه لك وللسيدة زوجتك، وتبنياتي لكم بما بتحقيق كل رغباتكم في العام الجديد.
تحيات قلبية، أيضاً باسم زوجتي

اعتباراً من أول عام ٢٠٠٠ لازمت البيت وتفرغت لكافكا (إذ كنت قد شرحت من عملي في مؤسسة عربية)، ولم أشأ الاتصال بإشفايلر الذي كان يعرف وضعني. وبتاريخ ١١/١١/٢٠٠٠ خبرني ظهراً. تمنى لي عاماً جديداً سعيداً، وسألني عن صحتي وعن أحوالي في وضعي الجديد، وقال إن بطاقة المعايدة، التي أرسلها إلي في اليوم نفسه الذي أرسلت فيه رسالتي الأخيرة إليه، ليست جواباً على رسالتي، لذلك فإنه يخبارني الآن كي نحدد موعد لقاء. وسألني إذا كان يوم الثلاثاء القادم الواقع في ١٨/١ يناسب حضوره إلى. قلت لإشفايلر إنه يستطيع الحضور إلى في أي يوم وأي ساعة يشاء. وسألني عما هو أفضل بالنسبة إلى: قبل أو بعد الظهر. قلت: «هذا أيضاً أتركه لك». فلم يشأ أن يحدد. قلت: «حسناً قبل الظهر أكون أكثر نشاطاً». قال: «وأنا أيضاً». وتابع قائلاً إنه يجب أن يخرج من عندي في

الساعة الثانية عشرة والنصف. قلت: «لك كل الحرية». قال: «إذاً سأتأتي الساعة التاسعة والنصف، يوم الثلاثاء الواقع في ١٨/١». بعد أن كان إشفايلر قد حدد ساعة خروجه من عندي، حدد أيضاً، دون أن يسألنيرأني، ساعة قدومه إلىي. وبعد أن اتفقنا على اليوم وضحاه، حدد إشفايلر بنفسه أن يبقى لدى طوال ثلاثة ساعات. وهذا سرني. وقد كرر الموعد، في الشهر واليوم والساعة، مرة ثانية، كي أتأكد منه وأسجله لدى.

و قبل الموعد المحدد بخمس دقائق حضر إشفايلر. و تحدثنا - هو وزوجتي وأنا - طوال ثلاثة ساعات متواصلة عن كافكا وعن عملنا مع كافكا، دون أن نتطرق إلى أي موضوع آخر، لا إلى الطقس ولا إلى السياسة ولا إلى أمور شخصية... إلا إذا كانت تتعلق بكافكا.

و كان حديثنا «تمريناً» على الحديث المنشور هنا لاحقاً.

أعلمت إشفايلر أنني أترجم المحاكمة تماماً طبقاً لنظريته في تسلسل فصولها، وأنني أنجزت ترجمة نصف الرواية، وأنني - بعد إنجازي ترجمة الرواية كلها - سأترجم كتابه عنها «رسالة كافكا غير المدركة»، وأصوغ خطياً أسئلتي الموجهة إليه في «حديث صحافي».

لم يوافقني إشفايلر على فكري التي ذكرتها في رسالتي إليه المؤرخة في ٩/١٢/١٩٩٩ عن جمع كتبه الثلاثة عن المحاكمة في كتاب واحد. كان يرى أن كتابه الأخير «رسالة كافكا غير المدركة» يكفي. فأخذت برأيه.

و كان إشفايلر يرى ضرورة أن أترجم المقاطع التي حذفها كافكا بيده من مخطوطته، وأضيفها، في مواضعها التي كتبت فيها، إلى الطبعة العربية. هذه المقاطع موجودة في «طبعة خط اليد» الألمانية. وكانت حجة إشفايلر أنه فسّر هو هذه المقاطع التي يعتبرها جزءاً لا يتبعها من الرواية.

لكتني لم أوفق إشفايلر على إضافة المقاطع التي حذفها كافكا إلى نص الرواية في العربية، إذ أنني لا أريد - وهل أستطيع؟ - أن أصحح كافكا شاعراً. غير أنني سوف أترجم هذه المقاطع كما جاءت في استشهادات إشفايلر مفسراً، وأتركها ضمن تفسيره.

وعلمت من إشفايلر أنه يعد ويلقي محاضرات كثيرة عن كافكا وعن شعراء آخرين عديدين. وشعرت أنه يلقى في الأمسيات الأدبية التي يقيمها بخاحاً واعترافاً لم يلقهما في وسائل الإعلام.

كان انطباع زوجتي أن إشفايلر يعتبر عملي أكبر نجاح لقيه في حياته: فصول رواية كافكا مرتبة حسب نظرية إشفايلر لأول مرة في العالم. وكتابه عن الرواية يترجم لأول مرة.

وانطباع زوجتي أن إشفايلر يعتبر عملي عظيماً (لا غرو في ذلك!). وقد رجا زوجتي جداً أن تعني بي كل العناية، حتى أستطيع إتمام هنا العمل.

وأكثر من مرة قال لنا إشفايلر إننا نستطيع مخابرته في أي وقت، بل وإيقاظه من النوم. ودعانا إلى لقاء قادم في منزله، وعرض علينا أن يحضرنا سيارته في اليوم الذي نشاء.

وعند الوداع لدى باب البيت أكد كل منا للآخر، صادقاً، أن هذا اليوم كان يوماً سعيداً.

* * *

وتفرغت كلياً لتكميل ترجمة المحاكمة. ولم أشاً الاتصال بإشفايلر حتى أُنجز ترجمة الرواية بكمالها. لكنه اتصل بي بعد نحو ستة أسابيع. ففي

يوم الجمعة الواقع في العاشر من آذار عام ٢٠٠٠ اتصل بي هاتفيًا، وقال لي إنه كان أثناء هذه الفترة على سفر لمدة عشرة أيام، وإنه بعد الآن محاضرة عن الشاعر هاينريش هاينه، سيلقيها في أمسية أدبية في مدينة آخر؛ وإنه بعد ذلك يحب أن يلتقي بي. وسألني عن إمكانية ذلك، فلما أبديت له سروري بلقائه في أي وقت يشاء، اقترح أن يحضر إلى يوم الثلاثاء الواقع في ٢٨ آذار ٢٠٠٠ الساعة التاسعة والنصف صباحاً، وأن يبقى لدى حتى الثانية عشرة والنصف. فوافقت مسروراً.

وحضر إشفايلر في الموعد المحدد. وتحدثنا طوال ساعتين ونصف الساعة... عن كافكا وحده.

أربت إشفايلر مخطوطة ترجمة المحاكمة الكاملة (باستثناء الخمس عشرة صفحة الأخيرة)، وكانت تتألف من ٣٤٠ صفحة/ورقة بخط اليد. قالت له إن تسلسل الفصول في هذه الترجمة مطابق تماماً لنظريته. كان تسلاناً يعرف أن هذه المخطوطة العربية هي المخطوطة الأولى في العالم التي تحوي رواية المحاكمة بفصول مرتبة ترتيباً صحيحاً. أمسك إشفايلر المخطوطة بيده، وقلب بعض صفحات، ونظر إلى نظرة مفعمة بالامتنان، والدموع تکاد تطفر من عينيه. ولا غرو في ذلك! فقد كان يمسك بين يديه أول ثمرة من ثمار عمله، الذي أمضى فيه طوال حياته.

قلت: «في أيام العطل في عامي ١٩٩٨ و ١٩٩٩ ترجمت نصف المحاكمة. وبعد تسريري من عملي المأجور في آخر عام ١٩٩٩ ترجمت النصف الثاني منها في أشهر كانون الثاني وشباط وأذار ٢٠٠٠، باستثناء الصفحات الخمس عشرة الأخيرة، التي سأترجمها في الأيام القادمة. بعد ذلك سأقوم بتنقية المخطوطة. ولن يستغرق هذا طويلاً، لأنني عملت منذ البداية بدقة متناهية، والتصحيحات الالزامية ستكون طفيفة جداً. وهناك عدد

قليل من المفردات والمواضيع أحتج لها إلى مساعدة من شخص. وسوف أستعين بزوجتي أولاً، وإذا ظلت بعض كلمات بحاجة إلى إيضاح، فسوف أسألك برغبة. مثال: ما هو موعد يوزف ك في الكاتدرائية؟ هل هو الساعة العاشرة، أم الحادية عشرة»^(*).

قال إشفايير: «أنا جاهز دائماً». وسألني متى أعمل. قلت: «من العاشرة حتى الرابعة عشرة بلا انقطاع. بعد الغداء ساعة نوم وساعة مشوار سيراً على الأقدام. ثم ساعة عمل. وبعد العشاء الخفيف ساعة عمل أخرى. وأمضي الساعتين الأخيرتين في القراءة. أي أنني أمضي ثمان ساعات كل يوم مع Kafka. ست ساعات ترجمة وساعتين قراءة. سبعة أيام في الأسبوع. هكذا كان الحال طوال ثلاثة الأشهر الأولى من عام ٢٠٠٠. وهكذا سيستمر الحال».

قال إشفايير مندهشاً: «هذا ما لا أقدر عليه. أنت توماس مان». قلت: «لا أحب قراءة توماس مان. ماذا تقصد؟». قال: «بهذا النظام والدقة عمل توماس مان طوال حياته». قلت: «لا غرو أنه كتب نحو مئة ألف صفحة. كاتب أو مترجم يستطيع أن يحدد لنفسه ساعات عمل معينة. أما الشاعر فإنه لا يستطيع ذلك. وتوماس مان هو كاتب وليس شاعراً. كتب Kafka المحاكمة خلال ١٦٢ يوماً، دون أن يكتب فيها يومياً. ويمكن لترجم ودارس أن يقضي عمراً كاملاً مع المحاكمة. من ناحيتي لم يبق من العمر الكثير. لعل أحدهم (يتبرع)، يوماً ما، بعمره في هذا السبيل!». ثم أريت إشفايير إضمارة، وقلت له إنها تحوي ثمانين عشرة مقالة عربية عن Kafka، وإنها بمتابة مخطوطة كتاب بعنوان «Kafka في النقد العربي»، سيصدر يوماً ما.

(*) راجع ص ١٤٥ / س ١٦ وص ١٤٧ / س ٢٢.

نظر إلى إشفايلر نظرة ذات معنى: «ها أن عملك أثمر قبل عملي!». قلت: «كل منا متأكد أن عملك سيقدر في المستقبل حق قدره». قال: «نعم، أعرف لكن بودي أن أعيش ذلك».

قلت: «لدي اليوم موضوعان أحب الحديث فيهما معك. الأول: تجربة Kafka وتجربتك وتجربتي في ما يتعلق بالطبع والنشر والتوزيع والتلقي. والثاني: Kafka وماكس برود وغوغنوف يانوش».

تحدثنا عن هذين الموضوعين نحو ساعتين. لدى حديثنا عن الموضوع الأول روى لي إشفايلر أن ناشر كتبه قال له إنه مستعد لإصدار طبعة من رواية المحاكمة بتسلسل فصول حسب نظرية إشفايلر، بشرط أن يتبنى الناقد رنيكه هذه النظرية. وقال لي إشفايلر إنه سيكتب إلى رنيكه، لكنه لا يعلق أملاً كبيراً، وذلك لأن رنيكه قد تجاوز الثمانين من عمره، ولا بد أن بريدهاليومي يحمل إليه بسلام^(*).

وعند حديثنا عن الموضوع الثاني رويت لإشفايلر الأفكار الرئيسية مما كتبته عن برود ويانوش^(**).

قال لي إشفايلر إنه كان ساذجاً، إذ لم يتبع إلا إلى الاستشهادات التي أوردها يانوش، دون النظر إلى الظروف الأخرى.

حين دخلت علينا زوجتي، قال لها إشفايلر إن محادثتنا كانت محادثة سعيدة وإنه سعيد بها غاية السعادة.

(*) مارسل رايش - رنيكه الناقد الأكثر شهرة ونفوذاً في ألمانيا في النصف الثاني من القرن العشرين. يطلق عليه لقب «البابا» (أ.و).

(**) راجع المجلد الأول من «الآثار الكاملة»، ص ١٩٦ - ٢٠٤ - ٢٠١ - ٢١٥.

ثم تحدث إشفايلر معنا طوال أكثر من ساعة في مواجهة شخصية، وعرض مرة أخرى أن نلتقي المرة القادمة في منزله، وقال إنه سيأتي ويأخذني بسيارته ويعود بي. ليس قريباً جداً، لكن بعد فترة.

وفي الساعة الثالثة عشرة تقريراً غادرنا إشفايلر، وكل منا يشعر بسعادة.

في تحليلنا لهذه الزيارة كنت متفقاً مع زوجتي على أن إشفايلر أعطانا هذه المرة انطباعاً مغايراً عن المرة الأولى. كان الآن منطلقاً، غير متوتر، غير متهيب. كان راضياً جداً، بل كان سعيداً. لقد لقى لدينا الاعتراف الذي يستحقه، ووثق من جديه عملي. وشاهد لأول مرة ثمرة عمله: إن رواية المحاكمة لكافكا ترجمت لأول مرة بتسلسل فصول حسب نظرية إشفايلر، وستطبع لأول مرة في العالم بتسلسل الفصول هذا.

بعد أيام من هذا اللقاء كتبت إلى إشفايلر الرسالة التالية:
السيد د. إشفايلر المحترم،

في هذه الدقيقة، إنها الساعة الثالثة عشرة والدقيقة الخامسة عشرة من يوم الأحد الواقع في التاسع من نيسان عام ٢٠٠٠ أنهيت ترجمة نصوص المحاكمة. بدقة تامة، وبدون أدنى تعديل، طبقاً لتسلسل الفصول الذي وضعته.

لذلك، أيها السيد د. إشفايلر، جزيل، جزيل شكري. بدون عملك كان عملي سيجيء مغايراً كلياً.

منذ أحد عشر عاماً وثلاثة أشهر أترجم كافكا.

في الأسابيع القادمة على تصحیح بروفة کتاب، ليس من کتب کافكا^(*). بعد ذلك سوف أراجع مخطوطة ترجمة المحاكمة مرة أخرى. وعقب ذلك مباشرة سوف أترجم کتابك. ومن ثم سوف يتمكن بضعة مئات الملايين من البشر الناطقين باللغة العربية من قراءة محاكمة کافكا و - بفضل تفسيرك - فهمها أيضاً، إذا رغبوا في ذلك!

يسري أن أستطيع إعلامك هذا.

مرة أخرى شكري وتحيات قلبية.

بعد أربع وعشرين ساعة من إلقاء الرسالة في صندوق البريد خابر إشفايلر وقال لزوجتي - إذ كنت خارج البيت - إنه سر جداً بالرسالة، وإنه لا يعرف أحداً يقدر تفسيره لکافكا ويعرف به أكثر مني. وعرض أن يحضر يوم الثلاثاء القادم الواقع في ٢٠٠٠/٤/١٨ الساعة الخامسة عشرة، ويصطحبني معه إلى منزله، ويعيني بعد انتهاء زيارتي له. وقال إنه سيخابر مرة ثانية في اليوم التالي ليسمع جوابي، وإنه يتمنى أن يكون إيجابياً.

وصباح اليوم التالي خابر، وقال لزوجتي إنه لا يريد إزعاجي أثناء عملي، وسألها عن جوابي. فأعلمته موافقتي وسروري بزيارته له.

وفي الموعد المحدد حضر إشفايلر، واصطحبني بسيارته.

وقبل الخروج من باد غودسبيرغ، مر بي إشفايلر على المدرسة الثانوية التي عمل فيها طيلة أربعة وثلاثين عاماً، مدرساً أولاً ثم مديرآ، وأراني من الخارج جميع منشآتها الكثيرة: أبنية المدرسة والمدرسة الداخلية ومباني الإدارة

(*) «ثلاثة كتاب من الألمانية / فايس. كيهارت. فالزر».

والسكن والملاعب والطرقات والحدائق^(٤).

ثم تابعنا السفر إلى منزل إشافيير في مدينة اويسكرشن. وكانت زوجته بانتظارنا. قاداني عبر جميع حجرات المنزل المؤلف من ثلاثة طوابق، وأراني اللوحات الكثيرة المعلقة على جميع الجدران بما فيها حجرة النوم. كان أثاث المنزل مريحاً يدل على ذوق رفيع. وكانت حجراته مليئة بالتماثيل والمعروضات الفنية التي تدل على تطواف صاحبه في العالم، وعلى أنه جامع لتحف فنية.

جلسنا في حجرة عمل إشافيير الواسعة التي تطل على حديقة المنزل. وكانت ثمة وجبة طعام خفيفة معده على منضدين صغيرتين (كانت زوجتي قد حذت إشافيير عن مواعيد وجباتي الصغيرة). خاب إشافيير نحو عشر دقائق، حدثني زوجته أثناءها عن حياتهما اليومية. وسألتني عن أولادي. وحين عاد إشافيير، قالت لنا زوجته إنها ستركت. وحدنا، حيث لدينا ما يكفي من الأحاديث.

أراني إشافيير كتبه وبعض دفاتره. ولاحظت أنه لا «عمل على الكمبيوتر» وإنما يكتب بالقلم. قال لي: (من «ينحت» كل ...، ويكون سعيداً عندما ينجز صفحة واحدة أو نصف صفحة في اليوم، لا «جنس الكمبيوتر» تقديرأً عالياً).

وأجابني إشافيير على كل سؤال برغبة وتفصيل. وعما حدثني به هو تفاصيل زيارته، مع زوجته، إلى مارباخ، مشاهدته الخطوط الأصلية لرواية

(٤) كان المبنى الرئيسي العريق قصراً لأسرة ما. في عامي ١٩٠٥ و ١٩٠٦ كان الشاعر رainer ماريا ريلكه (١٨٧٥ - ١٩٢٦) ضيفاً في القصر مدة أسبوعين كتب خلالهما قصيدة موقوفتين أهداهما للأسرة. (كان يتسمى أحياناً على درب مجاور، تحول فيما بعد إلى شارع سكني، سمي: شارع ريلكه).

المحاكمة، المحفوظة في خزانة حديدية في «أرشيف الأدب الألماني» (راجع ص ٧٤٥ من المجلد الأول)، والتي لم تكن قد نشرت بعد في «طبعه خط اليد».

حدثني إشفايلر أنه «اليوم بالذات» (٢٠٠٠/٤/١٨) سمع إشاعة تقول إن البروفسور يورغن بورن، مدير «معهد أبحاث الأدب الألماني في براغ» (راجع ص ١٦٣ من المجلد الأول). كان قد باع سراً عدداً من رسائل كافكا إلى ميلينا (المخطوطات الأصلية بخط يد كافكا)، وهناك دعوى أمام المحكمة ضد بورن. وتتابع إشفايلر قائلاً إنه يأمل أن يسمع قريباً تفاصيل الحقيقة.

وكنت سابقاً قد أبديت لإشفايلر رغبتي الشديدة في قراءة ما كان قد كتبه، أثناء دراسته الجامعية، عن كافكا؛ وكذلك كل ما كتب عن كتب إشفايلر، بالإضافة إلى مراسلاته بخصوص هذه الكتب.

وفي ختام حديثنا الآن سلمني إشفايلر نسختين من دراستين كان قد كتبهما عن المحاكمة أثناء دراسته الجامعية لدى البروفسور فليهلم إمريش (راجع ص ٢٧٦ من المجلد الأول). وكانت الدراسستان تحويان تعليقات البروفسور إمريش كتبها على الهوامش بخط يده.

كما سلمني إشفايلر ملفاً يحوي جميع مراسلاته منذ بدء دراسته وحتى الآن، وال المتعلقة بكافكا؛ كما يحوي كافة المقالات المنشورة عن إشفايلر في الصحف. وكانت الرسائل والمقالات أصلية وليس صوراً طبق الأصل. وقال لي إشفايلر إنه أمضى يوماً كاملاً في إعداد هذا الملف لي. -
بعد أن تناول كل منا صحيحاً من الحسأء الشهي أعدته لنا زوجته -
كانت هذه هي وجبي الحقيقة الثانية لديها - ، اصطحبني إشفايلر بسيارته وأعادني إلى باد غودسبرغ.

و عند الوداع في الساعة العشرين تماماً أمام مسكنى أكد كل منا -
صادقاً - للآخر أنه أمضى عصر يوم سعيد.

طوال الطريق ذهاباً وإياباً وفي منزل إشفايلر تحدثنا عن كافكا طوال
أربع ساعات ونصف الساعة بلا انقطاع (مشاهدة المدرسة الثانوية وحديثي
مع السيدة إشفايلر استغرقا نحو نصف ساعة إضافية).

بتاريخ ١٩٩٩/٥/١٩ كتبت إلى إشفايلر الرسالة التالية:

السيد د. إشفايلر المحترم،

كل ما أعرتني إياه من أوراق صورته في هذه الأثناء وقرأته. وكله مهم
بالنسبة إلى عملي. وسوف آخذ الكثير منه بعن الاعتبار. مازال تنقصني
أطروحتك لامتحان الدولة. (في المرة الأخيرة لم أثأنا أن آخذ منك كل شيء
دفعة واحدة).

راجعت وصحيحت ترجمة المحاكمة مرة أخرى. وأثناء ذلك قرأت
كتابك «رسالة كافكا غير المدركة» مرة أخرى، مرة ثالثة. بعد قراءة كل
فصل من فصول كتابك، كنت أقرأ الفصل المطابق في الرواية وأصحح
الترجمة. وقد انتهيت من تصحيح كامل المخطوطة.

كمترجم أتواجد في وضع مؤات لا يمثل له، سعيد كلياً فعلاً. عندما
يكون لدى أسئلة لدى الترجمة - ومن لا تكون عنده -، فإنه في مقدوري
أن أسأل زوجتي المفهومة. وإذا ضاق بها السبيل، فإنه يجوز لي - أظن - أن
أسأل أكبر مفسر لكافكا. (ماذا كان من شأنني أن أفعل، لو كنت في
الصحراء ومعي نسخة من رواية المحاكمة وبضع قواميس، سوى تشوييه هذا
الأثر الفني تشويهاً كاماً؟). بعد إنجاز العمل مع زوجتي ظل لدينا بعض

الأسئلة القليلة اللغوية وـ«التقنية»، والتي تحتاج إلى مساعدة منك، مثلًاً «ركوب مدرسة عليا»^(*) أو هل على «الرسام» أن يشكل فصلًاً مستقلًاً؟

إنني آمل بلقاء قصير معك.

مع جزيل الشكر سلفاً وتحيات ودية.

في التاسعة والنصف من صباح اليوم التالي - يوم سبت - خابرني إشفايلر، وقال إنه يظن أنني لم أبدأ العمل بعد، وإنه يأمل وصول مخابرته قبيل غرقى في عملي. وقال إنه يستطيع الحضور إلي يوم الثلاثاء. واتفقنا على حضوره في الساعة العاشرة. وقلت إنني أقدر أننا نحتاج إلى نحو عشرين دقيقة، ثم تحدث «دون عمل».

و قبل الموعد المحدد بربع ساعة وصل إشفايلر، وهو يحمل النسخة الأصلية من أطروحته لامتحان الدولة، بعنوان «تفسير رواية المحكمة لكافكا»، والتي تقع في ٩٥ صفحة. احتفظت بها، وأعدت له الدراسين السابقتين ومراسلاتهما.

كنت قد أعددت ثلاثة نسخ من قائمة تحوي أسئلتي اللغوية والتقنية التي أحتاج إلى مساعدته فيها، وكانت تبلغ واحداً وثلاثين سؤالاً. جلسنا، إشفايلر وزوجتي وأنا، وأمام كل منا نسخة من قائمة الأسئلة ونسخة من الرواية. (وأحاب إشفايلر على كل سؤال مطولاً وبرغبة كبيرة. الشرح كان مهنته). ولم تكفنا عشرون دقيقة، بل تحدثنا طوال ساعتين ونصف الساعة، فقد كنا نتناقش أحياناً حول جملة واحدة طوال ربع ساعة، مثل جملة الريف يحول إلى نظام للعالم. هل «يعمل من الريف» أفضل؟ هل

(*) شرحها لي إشفايلر فيما بعد بـ«استعراض مقدمة» (راجع ص ٢٦/٢٠ س).

«الكذب» أو «الخداع» أفضل من الزيف؟ إلخ... والجملة الأخيرة من الرواية احتاجت إلى أكثر من ربع ساعة. (ولا غرو في ذلك! فقد كتبت عن هذه الجملة الواحدة مقالات عديدة).

وفي الختام كنا، زوجتي وأنا، مقتنيين بكل جواب، وسعدين بمساعدة إشفايلر لنا، هذه المساعدة التي لا تقدر بثمن. وكان إشفايلر سعيداً بتقديم هذه المساعدة أكثر من سعادتنا بتلقّيها. وهذا أمر منطقي. فقد قال لي إشفايلر مرة: «طوال أربعين عاماً لم يهتم أحد بعملي مثل اهتمامك». وتابع موجهاً حديثه إلى زوجتي: «بصراحة كنت أتمنى أن يأتي مثل هذا الاهتمام من شخص ألماني». وملتفتاً إليّ قال: «ها إن عريباً يفعل ذلك!». وعند الوداع قال لي إشفايلر: «خابريني، فأحضر على الفور!»

وبعد بضعة أيام خابر إشفايلر زوجتي، وقال لها: (لا حاجة إلى إزعاج زوجك وهو في عمله. عندما يجلس إلى الطعام، قولي له، رجاءً، ما يلي: «الشخص المذكور في فصل سفرة إلى الأم هو على الأرجح ابن حالة كليس ابن عمّه. وعن عم يوزف لك كافكا أولاً اسم كارل ثم بده إلى ألبرت»).

كان إشفايلر، إذاً، يفكّر بأسئلتي الدقيقة.

بتاريخ ٢٢/٦/٢٠٠٠ أرسلت إليه الرسالة التالية:
السيد د. إشفايلر المحترم،
مخوططة المحاكمة المنقحة تتواجد في مطبعة في دمشق منذ بضعة أيام.

في هذا الأسبوع بدأت في ترجمة كتابك «رسالة كافكا غير المدركة». معه سوف أمضي برغبة «إجازتي» في هذا الصيف. يسرني أن أستطيع إعلامك بذلك.

مع تحيات ودية.

بتاريخ ٢٨/٦/٢٠٠٠ أرسل إشفايلر إلى الرسالة التالية :

عزيزي السيد ابراهيم وطفي المحترم،

من المفرح دائمًا بالنسبة إلي أن أسمع شيئاً منك، وأناأشكرك على ذلك. إذ أسافر الآن حتى الثالث من آب إلى جنوب فرنسا، أتمنى لك إبداعاً جيداً في هذه الفترة. إن أفضل فكري ليبقى لديك، وأأمل أن يشعرك ببعض السرور الذي أحسست به أثناء عملي.

أتمنى كل خير لك ولأسرتك.

خالص التحية

طياً الصورة التي وعدت بها.

بتاريخ ٢/٨/٢٠٠٠ أرسلت الرسالة التالية:

السيد د. إشفايلر المحترم

في الفترة التي كنت تت shamss فيها، بحق، كان القسم من فكرك يعنى به لدى أحسن الاعتناء، الأمر الذي هيأ لي مسيرة كبرى وما زال يهمي.

لأنك تكتب بشكل واضح مفهوم، الأمر الذي هو إنجاز كبير، فقد تقدمت بترجمة كتابك دون مصاعب، وتوغلت حتى وصلت إلى «رسامك». لقد فعلت ذلك وما زلت أفعل بمعية سرور.

وأمل جداً أن أنهي كلياً من ترجمة كتابك قبل نهاية آب. وطبعاً يصلك، من ثم، نسخة النجاح. وإلى ذلك الحين أحيلك بودّ.

في اليوم التالي تماماً، أي فور استلامه رسالتي هذه، خابريني إشفايلر؛ فإذا لم يجدني، قال لابني بـألا أخبره، إذ لن يكون في منزله.

وصباح يوم الثلاثاء الواقع في ٢٠٠٠/٨/٨ خابريني إشفايلر مرة أخرى، وقال لي إنه سيحضر إليّ في أي وقت أحتاجه في شيء ما، أو يكون لي رغبة في مجرد لقاءه. حتى إنه في ميسوره أن يحضر في الحال، ويعطلي عن عملي. قلت لإشفايلر إنه بودّي دائماً أن ألقاه وأنتحدث معه، أما الآن فإننا سنبدأ بعد دقائق في طعام فطور يوم عيد ميلاد ابتي كاتارينا، التي بلغت في هذا اليوم سن الرشد، وأتنا سمنضي طوال اليوم في ظل هذا الحدث.

بعد تقديميه تهانيه لابتيولي وتنياته للأسرة بتمضية يوم جميل وسعيد، قال إشفايلر إنه سينتظر مخابرة مني قريباً.

لاحظت رغبته الشديدة في لقائي، حتى في حال عدم حاجتي له فيما يتعلق بالعمل من إيضاحات أو ما شابه؛ فرجوت زوجتي الاتصال به قريباً والاتفاق معه على موعد لقاء قريب، نتحدث فيه ثلاثتنا.

بعد يومين خابرته زوجتي، فسرّ أبلغ السرور. وأظن أنه كان أثناء

مخابرته الأخيرة قد أخذ - مخططاً - انطباعاً بأنني لا أحب لقاءه الآن، أو أنتي - بعامة - لا أحب لقاءه إلا من أجل العمل. وقال إشفايلر لزوجتي إن قلبه هو دائماً «مع زوجك». قال إنه كان في مدinetنا في اليوم السابق، وكان بوذه أن يحضر إلينا. واتفق مع زوجتي أن يخابرنا قريباً.

وخارب، راغباً في الحضور، فلم يجدني في البيت. وعمدت زوجتي ألا تعلمها، هي، إلى أين وصلت في ترجمة كتابه، كما أحب أن يعلم. واتفقنا أن يحضر إلينا صباح يوم الثلاثاء الواقع في ٢٠٠٠/٨/٢٩.

وبتاريخ ٢٠٠٠/٨/٢٣ أرسلت إليه الرسالة التالية:

السيد د. إشفايلر المحترم،

سرور أعلم:

يوم أمس الساعة التاسعة عشرة أتممت ترجمة كتابك «رسالة كافكا غير المدركة». برغبة كبيرة أمضيت معه ما يقرب من تسعة أسابيع. بخط يدي يتألف من ١٥٥ صفحة. وقد ترجمته بالدقة نفسها التي ترجمت بها رواية كافكا.

مؤقتاً تركت الموضع التالية دون ترجمة: ١ - صفحة ٩ والأسطر العشرة الأولى من صفحة ١٠ . السبب: ما جاء في هذين المقطعين يرد في موضع آخر عندي عن سيرة حياة كافكا. ٢ - سطر ٧ - ١٠ على صفحة ١٢٧ (الجملة بين قوسين). ٣ - أقوال الشاعر (ص ١٣٤ - ١٥٢). بعد سطر ١٦ من صفحة ١٣٤ كتبت هامشاً أشرت فيه إلى نقصان ١٨

صفحة في ترجمتي، وذكرت الموضعين الثاني عشر^(*). أرى ضرورة تعريف القارئ العربي بآثار كافكا تدريجياً و«بتأن». حتى مجلدي الأول كان نوعاً من التكليف فوق الطاقة. في حديثي «الصحافي» معلمك سوف تتحدث عن ذلك. إن موعد لقائنا القادم قد تحدد، فإلى ذلك الحين خالص التحية.

وكما توقعنا، خابر إشفايلر على الفور. قال لزوجتي إنه يجب عليه أن يخابر، وإنه لسعيد لإنجاز ترجمة كتابه، وإنه سيحضر يوم الثلاثاء بكل رغبة (عمداً لا يطلبني إشفايلر على الهاتف، لأنه يعرف تماماً أنه لا يجوز انتزاع المرء من مثل هذا العمل لأي سبب تقريباً. وهو يعرف أن كلامه سيصلني أثناء تناول الطعام).

وحضر إشفايلر في الموعد المحدد، ومكث لدينا نحو ثلاثة ساعات.

وكلت أعلم تماماً الموضوع الأساسي لهذا اللقاء: عدم ترجمتي لأقوال كافكا التي يبلغ حجمها ١٨ صفحة في كتاب إشفايلر. وكان هو يعلم سبب تصرفي: إنها تضم استشهادات عديدة من كتاب يانوش: «أحاديث مع كافكا». وعندما أراد على الفور مناقشة عدم ترجمتي لهذه الأقوال، رجوهه بإلحاح عدم فعل ذلك الآن، وإنما تأجيل الأمر حتى أنهى من إعداد أسئلتي خطياً من أجل الحديث الذي سأجريه معه رسمياً. فلم يبق لديه خيار سوى الانتظار. كنت أود مفاجأته بصيغة سؤالي حول هذا الموضوع، كما أني لم أكن أرغب في الواقع تحت تأثيره في صياغتي لهذا السؤال.

قلت لإشفايلر إنني سأعطي نفسي إجازة من كافكا لمدة بضعة أيام.

(*) راجع ص ٥٦٨ من هذا المجلد.

بعدها سوف أراجع ترجمتي لكتابه، وأستوضح من زوجتي، كما هي عادتي، عن كل مفردة أو جملة لمتأكد من فهمي لها بوساطة القواميس. وفي حال التعبير التي تكون زوجتي غير متأكدة من فهمها لها، سوف أسأله عنها في لقائنا القادم.

قال إشفايلر إنه دائمًا وبكل رغبة تحت التصرف، وإنني لا أحتاج إلا إلى إيصال خبر إليه، حتى يحضر على الفور.

حدثنا إشفايلر عن محاضراته التي يلقيها، في مناسبات معينة، عن توماس مان وهاینریش هاینه وهولدرلين.

أريته نسخة من كتاب «ثلاثة كتاب من الألمانية»، الذي كان قد صدر قبل أيام. وقلت له إنني في فترات استراحة من كافكا أقوم بترجمة ما «خفيفة».

لم يتعرف إشفايلر على صورتي بيتر فايس وهاینر كيهارت المشهورتين على الغلاف الأخير للكتاب، بل تعرف على صورة مارتن فالزير وحدها.

في كل لقاء كما نذكر مارتن فالزير، لكن فقط بصفته مؤلف كتاب «وصف شكل» عن كافكا، هذا الكتاب الذي صدر عام ١٩٥١ ، وشكل بداية المدرسة التي شرحت كافكا من ناحية الشكل في آثاره.

وسألت إشفايلر، الآن، عمن يقرأ من الكتاب الألمان المعاصرين. وكنت أعرف جوابه سلفاً.

يبدو أن إشفايلر جرب قراءة فالزير، حتى يتعرف على كاتب «وصف شكل». قال لي الآن إن فالزير حاول تقليد كافكا، وأشار إشفايلر بيده إشارة

استهزاء. ذكرت له إبني كتب صفحتين عن روايات فالزر والانساخ^(*). وذكرت له إبني لم أستطع قراءة غراس ولا بول مثلاً. قال: «لا يوجد في الألمانية شاعر معاصر». وبذا أن الكاتب الوحيد الذي قرأه إشافييلر من الكتاب المحدثين هو برشت. قلت: «كان يحب الحياة أيضاً».

وعرجت زوجتي على إجازة إشافييلر وسفرياته وعلى إجازة ابنتينا اللتين كانتا قد عادتا قبل أيام من سوريا. قال إشافييلر إنه سافر إلى نحو خمسين بلداً، لكن فقط لمشاهدة المعالم الحضارية.

وعندما خرجت مرة إلى غرفة الحمام، قال إشافييلر لزوجتي: «لا أحد يفهمني مثل زوجك»، وقال إنه لا يعرف أحداً يستطيع أن يتحدث معه عن كافكا، لذلك هو بحاجة إلى زيارتنا بين الحين والآخر.

عندما غادرنا إشافييلر، قلت لزوجتي: «إنه، مثلك، يشعر بكرهية إزاء مارتن فالزر». قالت: «كشف فالزر عري الألمان، على نحو لا يرد. من يحب أن يُكشف عريه؟». قلت: «الصادق، الحالي من عقد النقص، مئات آلاف قراء فالزر^(**). لكن مقابل ذلك أقنعتني زوجتي، في حديث استمر نحو ساعتين، أن أقوال كافكا التي لم أترجمها لا يمكن أن تصدر عن إنسان آخر غير كافكا.

بعد فترة طلبت من زوجي مخابرة إشافييلر وسؤاله فيما إذا كان

(*) راجع «ثلاثة كتاب من الألمانية/ فايس كيهارت. فالزر»، ص ١٥٩ .
(**) والعرب أيضاً يحددون على من يكشف عريهم، في الماضي والحاضر: أدونيس (أبو).

يرغب في زيارتنا قريباً، حيث أتني بحاجة إلى الاستفسار منه عن بعض انتعابير في كتابه «رسالة كافكا غير المدركة». قال إشفايلر إنه سيعضـر في اليوم التالي في الساعة التاسعة والنصف صباحاً.

وحضـر، وأوضح لنا انتعابير المطلوبة كان بينها ثلاثة تعابير هامة كانت قد أجهـدـتنا، وظـنـتـ أنها من صياغـتهـ، لكنـها لمـ تـكـنـ ذلك^(٥).

وتحـدـثـناـ،ـ إـشـفـاـيـلـرـ وزـوجـتـيـ وـأـنـاـ،ـ طـوـالـ ثـلـاثـ سـاعـاتـ.ـ وـطـبـعـاـ اـقـتـصـرـ الحديثـ عـلـىـ كـافـكـاـ،ـ الـذـيـ مـلـأـ حـيـاةـ إـشـفـاـيـلـرـ أـكـثـرـ مـاـ مـلـأـ.

وفي الخـتـامـ عـبـرـ إـشـفـاـيـلـرـ مـنـ جـدـيدـ عـنـ سـرـورـهـ الـكـبـيرـ لـدـىـ كـلـ زـيـارـةـ يـقـومـ بـهـاـ لـنـاـ وـلـدـىـ كـلـ حـدـيـثـ مـعـنـاـ.

بتاريخ ٢٥/١٠/٢٠٠٠م أرسلت الرسالة التالية:

عزيزي السيد د. إشفايلر المحترم.

بكل ود أحبيك.

طبعاً أرسل إليك أسئلتي. بها أحاول أن أجـريـ معـكـ حدـيـثـاـ صحـافـياـ.ـ وـسـوـفـ يـنـشـرـ سـوـيـةـ فـيـ مـجـلـدـ وـاحـدـ مـعـ رـوـاـيـةـ كـافـكـاـ الـمـاـخـاـكـمـةـ وـكـتـابـكـ «رسـالـةـ كـافـكـاـ غـيـرـ المـدـرـكـةـ».ـ كـمـ أـنـتـيـ -ـ قـبـلـ صـدـورـ الـمـجـلـدـ -ـ سـوـفـ أـنـشـرـ

(٥) بعيد صدور كتاب جديد لغونتر غراس، يلتقي الكاتب مترجميه طوال أيام في «ورشة عمل». كل مترجم يسأل عن كل مفردة أو تعبر لم يكن متاكداً من معناه، والكاتب يشرح ويفسر ويناقش. في المرة الأخيرة كان عدد المترجمين الحاضرين أحد عشر مترجم، من أحد عشر بلدآ. وقد دام اجتماعهم مع الكاتب طوال أسبوع. وكانت النفقـاتـ عـلـىـ حـسـابـ دورـ النـشـرـ...ـ فـيـ أـلـانـيـاـ وـفـيـ الـبـلـدـانـ الأـحـدـ عـشـرـ (١٠).

مقاطع من هذا الحديث في صحيفة عربية^(*).

إن الأمر متترك لك أن تقوم بإجراء تعديلات على أسئلتي: تغيير مواضع، اختصار، إطالة، فصل، إضافة الخ...

ويكفي لأجوبتك أن تكون مسbebة، كما تراه مناسباً. كل ما تكتبه سوف يترجم وينشر حرفاً. يوجد ما يكفي من الورق، ولا يوجد مراجع أو رقيب أو ناشر يشوه شيئاً. كما أن لدينا متسعـاً من الوقت كافياً، إذ قبل الربع القادم لا تحتاج إلى نص الحديث.

شكراً جزيلاً سلفاً.

ومرة أخرى أحييك، آملاً بلقاء قريب.
مرفقات^(**).

في اليوم التالي وبتاريخ ٢٠٠٠/١١/١٦ خابرنا إشفاييلر مرتين، تحدث فيما مطولاً (سيأتي ذكر ذلك لاحقاً).

بتاريخ ٢٠٠٠/١١/٢١ حضر إشفاييلر إلينا، وسلمـنا نص الحديث كاملاً: كل سؤال من أسئلتي وجوابه عليه. الأسئلة مطبوعـة كما وصلـته، وأجوبـتها عليها مكتوبة بخط يده على أوراق منفصلـة.

وهذا هو نص الحديث - الحوار:

(*) نشر الحديث، في معظمـه، في صحيفة «العرب» (لندن) على حلقتين بتاريخ ٢٨/١١ و٣/١٢/٢٠٠١ تحت عنوان: «أحاديث مع الذي أدرك أخيراً رسالة كافكا».

(**) الأسئلة مطبوعـة بواسطة الكمبيوتر، كل سؤال على ورقة منفصلـة.

حديث

ابراهيم وطفي:

السيد د. إشفايلر! ولدت بعد سبعة أعوام وثمانية أشهر وثلاثة أسابيع من وفاة كافكا. هل تؤمن بتناسخ الأرواح؟

كريستيان إشفايلر:

كلا. هذا المفهوم لا يرد في مجمل صورتي عن العالم. غير أنني أؤمن بتقارب الأرواح؛ لكن هذا يحتاج إلى وعي. وعند الولادة لا يملك المرء هذا الوعي بعد.

وطفي: لندع المزاح جانباً! هل تؤمن على الأقل بصلة قربى على سبيل المثال بين شاعرين مثل غوته وكافكا؟

إشفايلر: إذا كنت تقصد هذا بمعنى ذهني، فلا شك! كان كافكا معجبًا كبيرًا بغوته وفنه. كانت قناعته أن غوته يقول، كل ما يتعلق بنا نحن البشر. وكافكا نفسه يستخدم عمداً كلمة أقرباء، عندما يكتب في رسالة عن غريبلبارترس ودوسليوفسكي وكلايسن وفلويير^(*). بهذا يعني إذاً أقرباء الحقيقين في الإحساس والتفكير.

وطفي: وبين كافكا وإشفايلر؟

إشفايلر: لا ريب. كان فنه يعني بالنسبة إليّ، بادئ الأمر، تحدياً كبيراً،

(*) Franz Grillparzer (١٧٩١ - ١٨٧٢) أهم مسرحي نمساوي.

وذلك لأنني كنت أحدهم شيئاً ما من سرّه العميق، لكنني لم أكن أفهم هذا الشيء. إن حكم كافكا الموجزة ويوبياته ورسائله ونصوصه الجزئية أفتعتني بعمق عالمه الفكري. ومن هنا أصبحت دائماً أكثر يقيناً بأن «صورته عن العالم» هذه، والتي راحت تسحرني أكثر فأكثر، لابد أن تكون هي الأساس الذي يقوم عليه «عالم الصور» في آثاره الفنية. وهكذا أصبح فتح معاليف الصور الشعرية العظيمة والكشف عن سرها الخفي مهمّة دائمة تجرياً بالنسبة إلىّي. والحل الذي راح يتقدّم تدريجياً أظهر في نهاية المطاف فسيفساء، تجمعت أخيراً أجزاءها متعددة الألوان لتشكل كلاماً حياً بديعاً.

وطفي: فيما إذا كنت تذكر الشارة الأولى بين كافكا وبينك؟ هل كان «حباً من النّظرة الأولى»؟

إشفايلر: نعم، إذ كنت طالباً شاباً قرأت أولًا المحاكمة، فسحرتني إلى درجة أنني لم أعد منذ فصل الدراسي الرابع (السنة الثانية الجامعية ١٩٤٠) أريد أن أدرس سوى لدى أستاذة مختصين في آثار كافكا. ففي الفصل الشتوي لعام ١٩٥٤/٥٥ أصبح معلمي هو الأستاذ فيلهلم إمريش من جامعة كولونيا، والذي كان آنذاك الباحث في آثار كافكا الأكثر تقديرًا واعتبارًا من بين جميع الباحثين. وفي حلقة دراسية له عن التعبيرية كتبت أول دراسة لي عن رواية المحاكمة لكافكا.

وطفي: بذل إمريش جهداً كبيراً بتصحيح هذه الدراسة وأعطتها درجة «جيد». ويبدو أن هذا قد شجعك للبقاء على الوفاء للموضوع الصعب، إذ أنك فعلاً كتبت أطروحة امتحان الدولة أيضاً في عام ١٩٥٨، عن المحاكمة. وبعد النتيجة الجيدة جداً أصبح إمريش هو الأستاذ المشرف على أطروحتك للدكتوراه، وأمّن لك منحة دراسية من وزارة الثقافة لمدة عامين، ١٩٥٩ و ١٩٦٠، كي تتابع دراستك عن كافكا. لكن إمريش لم يدعوه

جامعة برلين وانتقل إليها، وأنت ذهبت إلى الكلية اليسوعية في بادغودسبرغ، وأصبحت مديراً لها. ماذا حدث آنذاك لدراستك عن كافكا؟

إشفايلر: إذ كنت قد قطعت خطوات طويلة فيها، ظنت أنني أستطيع إنجازها أثناء فترة التمرين في الكلية. لكن ثبت أن هذا غير ممكن. ومن هنا فقد قمت بتدريس رواية المحاكمة في الصفوف العليا، واعتبرت ذلك بمثابة وصيتي الأدبية. لقد عالجت الرواية خمساً وعشرين مرة على الأقل. وقبل كل مرة كنت أقرؤها من جديد. وبهذا ظل كافكا قريباً مني باستمرار. وردود فعل تلاميذي المتنوعة في كل مرة فتحت لي كثيراً من الآفاق الجديدة، وكانت بمثابة إثراء كبير لي. وبمناسبة مرور مئة عام على ميلاد كافكا، في عام ١٩٨٣ ، راجعت ونقحت مرة أخرى كل ما كنت قد كتبته عن ذلك. وفي عدد توز ١٩٨٣ من مجلة «أصوات العصر» نشرت أول دراسة لي، حاملة العنوان نفسه لأطروحتي للدكتوراه في وقت لاحق.

وطفي: ماذا يعني «عالجت الرواية»؟

إشفايلر: شرحتها للتلاميذ، وكتبوا عنها دراسات، وناقشتهم فيها. وفي كل مرة كان ذلك يستغرق نحو عشرين حصة دراسية.

وطفي: بعد ثلاثين عاماً من امتحان الدولة وضعـت في عام ١٩٨٨ أطروحتك للدكتوراه (٣٢٠ صفحة). العنوان: «الأمل المبعوس منه بخلاص الذات (تفسير وترتيب جديد لسلسلة فصول رواية المحاكمة لكافكا)». هذه الدراسة هي حدث أدبي مثير. حتى ذلك الحين كانت الرواية تطبع دائماً في عشرة فصول «مكتملة» وستة «نصوص جزئية».

لديك تألف الرواية من تسعه عشر فصلاً. وتسلسلها يغير التسلسل في الطبعات الأخرى (حالياً يوجد في المكتبات واحد وعشرون طبعة مختلفة

رواية المحاكمة.

إن تسلسل فصول الرواية لدبك تعلّمه بتفسير جديد لكل فصل. بعد عامين نشرت في عام ١٩٩٠ كتاباً آخر عن الرواية بعنوان «الحقيقة الكامنة في رواية المحاكمة لكافكا». يقع هذا الكتاب في ١٧٢ صفحة، ويضم خمس دراسات:

- ١ - ترتيب جديد لتسلسل الفصول.
- ٢ - شروط حب يتحقق.
- ٣ - تطور مجرى حادث الرواية.
- ٤ - عالم المحامي كاغراء مضلل.
- ٥ - أهمية الفن والفنان.

في هذه الدراسات الخمس تُعرض رواية كافكا الشهيرة كبيان حبٍ، معنى، وتفصيّر من داخلها. وتبعداً لذلك تتلاقي فصولها المكتملة وغير المكتملة لتشكل، بمهارة بالغة مثلما هو الحال في فسيفساء بدعة متعددة الألوان، كلّاً منسجماً. إن الحال هو كأنما يكتشف المبعث الخفي للضوء السري الذي ينبعث من عالم صور كافكا، الغامض زُعمًا.

في التفسيرات التي جاءت في هذا الكتاب يكسب قراء رواية المحاكمة نظرة عميقّة في العالم الذهني للشاعر. إنك توضح وتضيء على نحو مفهوم طبقات هذا الأثر الفني المتعددة، والمدخل الصعب لفهمه، كما أنك توضح وتضيء أهمية كافكا الفنية الفريدة.

في العام التالي، عام ١٩٩١ ، صدر كتاب جديد منه (يقع في ٢٣٠ صفحة) بعنوان «قصص كافكا وخلفيتها الكامنة». في هذا الكتاب تقدم

تفسيرًا لكل من اثنتي عشرة قصة من أشهر قصص Kafka، وهي: ١ - الحكم، ٢ - حلم، ٣ - حكاية صغيرة، ٤ - أمام القانون، ٥ - في رواق السيرك، ٦ - الجار، ٧ - بنيات آوى وعرب، ٨ - رسالة قيسارية، ٩ - الانساخ، ١٠ - في مستعمرة العقاب، ١١ - يوزفينا، المغنية، أو شعب الفران، ١٢ - فنان جوع.

في كتابك تدرس هذه القصص مقرباً من نصوصها أكثر ما يكون الاقتراب، وتفسرها على هذا الأساس. هنا تثبت أن صور Kafka الشعرية جاءت نتيجةً فنية لراقة في متنهى الدقة وإدراكه نقيدي. إن Kafka يصف، في نظرة ثاقبة وبعد نظر، الإنسان في محيطه وفي عصره. يسر سلوكه الخاطئ وما يعرضه للمخاطر، لكن Kafka يرشد الإنسان إلى طريق يهديه عن ضلالاته. في مركز سائر القصص يقف القدر الروحي للإنسان، وغايته، وأمله بهدف ذي معنى.

لاشك أنه ليس من اليأس النفاذ إلى الخلفية المضمرة لشعر Kafka المفعم بالأسرار. لكن من هذا العمق وحده توضّح الصفيحة الواحدة للعلاقات بين الفرد والجميل. إن العالم الذي يبدو غير معقول وغير قابل للسير يُظهر قانون نظامه. إن الكل الشعري لفن Kafka يتتحول في ظلمة حياتنا اليومية المستطحة إلى ضوء غير مألف.

في عام ١٩٩٣ صدر كتابك التالي (٢٢٧ صفحة): «شعر Kafka ككل / المفتاح لفهمه». في هذا الكتاب تقدم تفسيراً لست قصص من قصص Kafka: ١ - تقرير إلى أكاديمية، ٢ - فضح محثال، ٣ - حول مسألة القوانين، ٤ - طبيب ريفي، ٥ - الوقاد، ٦ - أبحاث كلب.

في القسم الأول من هذا الكتاب يُعرض العالم الذهني لكافكا، هذا العالم المحدد بالأسئلة الحاسمة عن معنى الحياة والموت. إن اللغة الفنية الجديدة، لغة الصور، التي أبدعها كافكا لكي يعبر بها عن غاية الإنسان وهدفه، يجب أن تُدرك وتُفهم في أهميتها التصويرية كمفتاح لفهم كلّ شعرى. ونجاح التفسير الذي تحقق هنا، يدلّ في آن، على مخرج من الفوضى الخيرة التي سادت الأبحاث والدراسات السابقة. إن شعر كافكا يتجلّى بنية معنى شاملة ومقنعة.

في القسم الثاني من الكتاب يجري، على أمثلة القصص الست، تبيان النجاح المفهوم والممتع لتفسير صحيح قائم على المعنى. إن القارئ يكتشف نصوص كافكا الشعرية، المزعوم أنها غامضة لايسير غورها، من جديد ويعيشها في الضوء الأكثر سطوعاً لإدراك منفتح ومحرر. وبناء على عظمة فنه يثبت كافكا نفسه كأهم شاعر في القرن العشرين. وبتفسيراتك في كتابك هذا تضع علامة أخرى مرشدة على طريق فهم آثار كافكا الفنية.

كتابك الخامس عن كافكا صدر في عام ١٩٩٦: «حقيقة كافكا فناً/ بارقات نور في الظلام». في ٢٤٠ صفحة تفسر اثنتي عشرة قصة قصيرة وقصة طويلة واحدة.

في القسم الأول القصص القصيرة: ١ - الرحيل، ٢ - الصقر، ٣ - المخزروف، ٤ - الجسر، ٥ - رجل الدفة، ٦ - في الليل، ٧ - التنة المفاجئ، ٨ - الحقيقة عن سانشو بانسا، ٩ - ملحقات، ١٠ - عودة، ١١ - موضوع قديم، ١٢ - صمت حوريات البحر.

وفي القسم الثاني من الكتاب تفسر قصة البناء بصفتها قصة حب رائعة.

إن المطلب الذي يطلبه كافكا من قرائه، يعبر عنه بصرامة عارية في السؤال: إذا لم يوقدنا الكتاب الذي نقرؤه بلكرة على الرأس، لماذا نقرأ الكتاب إذًا؟ إن فن كافكا يُظهر غاية وهدفًا، حرية ومسؤولية، إمكانيات وحدود الآدمية. وقناعة كافكا هي: فقط حين يذل الناس كل جهد ويساعدون بعضهم بعضاً بحب، يحافظون على أنفسهم على ارتفاع نوعاً ما فوق هوة جهنمية. إن كل تفسيرات هذا الكتاب هي محاولة للاقتراب قليلاً من مطالب الشاعر العالية أن نفهمه فيما صحيحاً. هنا تتوضح في وقت واحد مكانة كافكا الفريدة بلا جدال. ويستان أودين^(*) يقول: «إذا سئلت، أي شاعر هو الأقرب إلينا يعني علاقة ذاتي، شكسبير، غوته بعصورهم، فإنه على أي أستئن كافكا في المقام الأول. إنه في غاية الأهمية بالنسبة إلينا، لأن مشكلاته هي مشكلات الإنسان المعاصر».

كتابك السادس عن كافكا صدر في عام ١٩٩٨: «رسالة كافكا غير المدركة/ المحاكمة الصحيحة». بفن قراعتك الخلاقة تبيّن في هذا الكتاب كيف يمكن تحويل الصور الشعرية المفردة إلى سياق معنى كلي مترابط. تبيّن أنه يمكن، بهذا، إدراك المحاكمة من داخلها كضفيرة علائق، وترتيب فصولها، وتجميعها مثل فسيفساء متعددة الألوان في كل معمول ذي معنى. بناء على ذلك وحسب تظاهر آثار كافكا رسالتها المضمرة، وتغدو مرشدًا عصرياً لحياة كرية ذات معنى. (ترجمة كتابك هذا يتضمنها هذا المجلد الثاني من «الآثار الكاملة/ المحاكمة»).

(*) شاعر إنكليزي. (١٩٠٧ - ١٩٧٣) Wystan Hugh Auden.

إن قوة إقناع تفسيراتك تقوم على دقة شعورك بالشكل الفني لآثار كافكا وبالعالم الذهني المصور في هذه الآثار. إنك تنجح في التدليل على نحو مقنع بأنه يجب فهم كل أثر فني من آثار كافكا كلاً فنياً تلاقت فيه جميع الأجزاء بمرتكز معنى ذهني لتشكل بالضرورة وحدة متكاملة عظيمة. في مرتكز جميع تفسيراتك تقف لغة الشاعر الفنية، لغة الصور، وخلفيتها الذهنية. والسؤال الخالص عن معنى فن كافكا يسيطر على تفسيراتك كافة، و يؤدي إلى أجوبة واضحة ومفهومة. إن الشاعر يصور ويقدر عارفاً متعمقاً بالحياة البشرية ورائداً مرشدًا للذوي الاهتمامات الذهنية.

السيد د. إشفايلر! منذ أكثر منأربعين عاماً تشتعل بحماس بفك رموز عالم صور كافكا، تهتم بعالمه الذهني. كل ما نشرته في حياتك هو عن كافكا. كتب ستة كتب. الكتب الستة كلها هي عن كافكا. ثلاثة منها عن رواية المحاكمة. عملياً عملت طوال أربعين عاماً في فتح مغاليق هذه الرواية (كافكا كتبها على ١٦١ ورقة. والحكومة الألمانية ابتعاثت المخطوطة بمبلغ ٣,٥ مليون ماركاً = ١,٨ مليون يورو). لاشك أن هذا هو رقم قياسي عالمي غير عادي، ويحتاج إلى مثابرة دؤوبة. كيف يعمل المرء هذا؟ ولماذا؟ لماذا بقيت على وسائلك لكافكا طوال أربعين عاماً؟ لا بدّ أن يكون ثمة شيء غير مألف، عميق الغور، مفعم بالأسرار.

إشفايلر: بعد دراسات تمهدية استمرت سنوات طويلة لم تتمكن آنذاك، رغم أنني كنت قاب قوسين من الوصول إلى الهدف، من إنجاز أطروحة الدكتوراه. وكان هذا بالنسبة إلي، طبعاً، خيبة أمل كبيرة. لكن عملي الجديد في التدريس كان يستنفذ كل طاقاتي ويأخذ أفضل ساعات اليوم، التي كنت أكرسها قبل ذلك إلى شاعري المفضل وحده. أقل من الأفضل

كان، بالنسبة إلى، خسارةً له. لكن تقدمي على الآخرين ظل لحسن الحظ كبيراً بشكل كافٍ، بحيث جاز لي أن أطلع بهدوء إلى كل ما كانوا ينشرونه عن كافكا، ولا سيما أن قلًّا دائمًا عدد الدارسين الذين كانوا يسألون عن المعنى العميق لشعره. لقد اكتفى علم الأدب بقصصي وحل المسائل المتعلقة بسيرة حياة الشاعر وتحقيق طبعات كتبه. وأنذاك استطعت تكميلة دراستي عن كافكا طوال ثلاثين عاماً من حياة معاشه، حياة التعلم والبحث عن معنى. قرأت آثار أقربائه الحقيقيين، معاصريه وآبائه الروحيين، مثل كيركيجارد الذي قال عنه كافكا إن هذا الفيلسوف يصادق عليه ويقره مثل صديق. وهذا أوصلي إلى الإدراك بأن الأسئلة نفسها تفجر دائماً وأبداً في نفوس المفكرين والفنانين العظام، الذين يروحون يتوكّلون إيجاد أجوبة عليها. وكان أمراً مذهلاً بالنسبة إلى إدراك كم توافقت بعض نتائج هذه المعالجات المستقلة عن بعضها كلياً، توافقاً يصل أحياناً إلى مجال الصياغة. في سائر كتبه تجد توازيات مع شعراء آخرين ومفكرين وفنانين وموسيقيين، ساعدهوني في إضاءة صورة العالم لكافكا. إن وفائي لكافكا بات وفاءً لذاتي أيضاً. وهذا الوفاء هو وفاء مدى الحياة، كما آمل.

وطفي: كورت توخولسكي (١٨٩٠ - ١٩٣٥) يصل إلى نتيجة مفادها، أن المحاكمة هي كتاب لا يقدر إنسان بمفرده طوال حياته أن يفسره تفسيراً كاملاً.

إشفايلر: بصفته شاعراً حدس توخولسكي عمق الأثر الفني ومطلبه الشامل للنفاد إلى كل إمكانيات الحياة للإنسان تحت عدسة العقل. ومن وجهة نظر كافكا يوضح هذا سمة عدم اكتمال الرواية. من المؤكد أنه كان قميماً أن يضيف مجموعة مواضيع أخرى. غير أن المفسر يملك عملاً كثيراً مع النص الموجود، وذلك لأن ما يهم كافكا، لدى جميع المسائل، هو إثبات الإنسان

لوجوده الذهني. لكن هذه العملية تدوم طوال الحياة. ويتوجب على الإنسان أن يثبت جدارته، دائماً وأبداً وحتى نهايته. إنها مهمة مستمرة دائمة.

وطفي: في كتاب «الكثير من كافكا» مؤلفه كريستوف برندله يقول أحد الشخصوص، كارل كافكا: «إنه يشعر بالخواص عندما لا يشتغل بدراساته عن فرانز كافكا، وإنه لا يجد شيئاً يدو له جديراً بإبلاغه إلى الآخرين سوى ما يحده في كتابات فرانز كافكا» (ص ١١٧). إلى أي حد ينطبق هذا عليك؟ هل تحب التعليق على هذه الجملة؟

إشفايلر: قيل عن كافكا: «كان يؤثر الصمت على أن يقول شيئاً غير جوهري». من هنا يمكن للمرء أن يقول عن آثاره أيضاً: إنها لاتعالج سوى ما هو جوهري. ومن يدرك هذا ويتخذه مقاييساً، يحس كل ما هو غير جوهري خاويأً بالضرورة.

وطفي: إنك تعرف بفضل هاينز إده في تفسيره كثير من صور كافكا الشعرية تفسيراً صحيحاً. هنا أستشهد من كتابك الأول: تفسير صور «طعام الفطور، الفراش، النافذة، الباب، الصغر، الكبير، الكتاب، المسرح، الفن، الموسيقى، الحجرة، المصفحة، الغسيل، التغسيل، التفاحة، وسخ المطبخ، القبعة، الساعة، التعب، الحارس، الاعتقال، الادعاء، اللطف، الدعابة».

في عام ١٩٦٢ أثبتت إده أن الجملة الأخيرة في المحاكمة قد «فُسرت حتى اليوم تفسيراً خاطئاً بصفة عامة». في عام ١٩٨٨ ذكرت في كتابك الأول أن هذا «صحيح ولاريب» (ص ٧٤). أرجو أن توضح لي ولقرائي العرب الجملة الأخيرة في الرواية على نحو أكثر تفصيلاً وتيسيراً مما جاء في كتابك.

إشفايلر: «مثـل كلـب!» قالـ، لكنـ الأمـر كانـ وـكأنـما الخـجل يـقـي بـعـدهـ^(*). جـسـديـاً لاـيمـوتـ الإـنسـان سـوى مـثـلـ كـلـ الـخـلـوقـاتـ. لـكـنـ حينـ يـحـتـمـلـ يـوزـفـ كـمـوـتهـ بـهـذـاـ المعـنىـ وـحـدـهـ وـيـتـقدـهـ، يـأـمـ فيـ الإـمـكـانـيـةـ الـأـعـلـىـ لـلـإـنسـانـ، هـذـاـ الإـنسـانـ الـذـيـ عـلـيـهـ أـنـ يـعـيـ أـنـ لـيـسـ مـجـرـدـ مـخـلـوقـ يـيـولـوجـيـ؛ إـذـ أـنـهـ يـتـسـميـ بـجـزـئـهـ الـحـاسـمـ إـلـىـ عـالـمـ ذـهـنـيـ. إـنـ الـمـطـلـقـ مـنـفـتـحـ لـهـ، أـيـ أـفـكـارـ الـحـقـيقـةـ وـالـحـرـيـةـ وـالـعـدـالـةـ وـالـمـسـؤـلـيـةـ. لـكـنـ مـنـ يـنـكـرـ هـذـاـ، يـزـيلـ صـفـةـ الـإـنـسـانـيـةـ عنـ الـإـنسـانـ وـيـلـبـسـهـ صـفـةـ التـوـحـشـ. وـهـذـهـ أـكـبـرـ خـطـيـةـ ضـدـ الـعـقـلـ. حينـ يـدـرـكـ يـوزـفـ كـخـطـيـتـهـ وـيـخـجلـ مـنـهـاـ، يـعـودـ إـنـسـانـاـ. غـيرـ أـنـ عـقـلـهـ يـعـنـيـ الـأـمـلـ بـالـبـقـاءـ (لاـشـكـ أـنـ هـايـنـزـ إـدـهـ هوـ وـاحـدـ مـنـ دـارـسـيـ كـافـكـاـ الرـصـبـينـ الـقـلـائـلـ)^(**).

وطـفـيـ: تـرـىـ فـيـ لـغـةـ أـفـكـارـ الـفـيـلـيـسـوـفـ الدـانـمـارـكـيـ كـيـرـكـيـجـارـدـ مـفـتـاحـاـ لـفـسـيـرـ وـفـهـمـ عـالـمـ صـورـ كـافـكـاـ.

بـمـقـارـنـاتـكـ بـيـنـ كـافـكـاـ مـنـ طـرـفـ وـكـيـرـكـيـجـارـدـ وـنـيـتـشـهـ وـهـايـدـيـغـرـ مـنـ طـرـفـ آـخـرـ بـمـاـ لـاـيـحـصـىـ مـنـ اـسـتـشـهـادـاتـ مـنـ آـثـارـ الـمـفـكـرـيـنـ الـأـرـبـعـةـ، تـقـنـعـ كـلـ الـاقـاعـ. لـقـدـ درـسـتـ الـفـلـاسـفـةـ الـثـلـاثـةـ حـقـاـ. أـمـاـ عـنـدـيـ، فـقـدـ أـصـبـحـ الـوقـتـ مـتـأـخـراـ لـلـبـدـءـ فـيـ درـاسـةـ جـدـيـدةـ. أـثـبـتـ هـذـاـ هـنـاـ، لـكـيـ يـسـمـحـ لـيـ بـإـعـطـاءـ الـمـتـرـجـمـيـنـ الـعـرـبـ الـقـادـمـيـنـ، النـصـيـحـةـ (وـالـمـهـمـةـ)، بـدـرـاسـةـ آـثـارـ الـفـلـاسـفـةـ الـثـلـاثـةـ.

هلـ هـذـاـ صـحـيـحـ؟

إـشـفـاـيـلـرـ: بـعـدـ أـنـ سـحـرـتـنـيـ آـثـارـ كـافـكـاـ الـفـنـيـةـ وـلـغـةـ الـصـورـ فـيـهـاـ، الـلـغـةـ الـشـعـرـيـةـ،

(*) رـاجـعـ هـامـشـ صـ٥٥٢ـ (أـ.وـ).

(**) «كـلاـ! لـيـسـ المـوـتـ أـنـ تـمـوتـ

المـوـتـ أـلـاـ تـعـرـفـ أـلـكـ الجـوـهـرـ»

(أـدـونـيـسـ، فـيـ قـصـيـدـةـ (تعـوـيمـ الـفـلـكـ)ـ (٢٠٠١ـ).

حاولت طوال سنوات تقضي وفهم عالم كافكا الفكري، كما عبر عنه في حكمه ونصوصه الجزئية وپويماته ورسائله. وعلى أساس هذه المعرف والمدارك، راحت الصور الشعرية تنكشف بالتدريج دائمًا أكثر، حتى أعطت معناها وخليفتها المحبوعة. وعندما يتبعن للمرء أن فلسفته مثل كيركجارد ونيتشه وهайдيغر مثلاً إنما كانوا قد عاشوا تجارب مماثلة، وتوصلوا إلى مدارك مشابهة لإدراك كافكا، فإن هذا يعني طبعاً مصادقة على التفسير الخاص بالمرء، وإثراء لهذا التفسير؛ الأمر الذي يشير السعادة في النفس. بهذا المعنى تحمل مقدمة أطروحتي للدكتوراه عنوان: «اعتقال يوزف ك في لغة فريديريش نيتشه».

لقد كانت دراسة «الفلسفه الثلاثة» عوناً كبيراً لي لإدراك وفهم عالم كافكا الفكري على نحو أفضل.

وطفي: كافكاقرأ نيتشه أثناء دراسته في المدرسة الثانوية. وظل من أنصاره أثناء دراسته الجامعية. وقرأ كيركجارد في وقت لاحق^(*).

إنك تبحث عن كافكا في شعراء آخرين و... تجده. في غوته وهولدرلين وريلكه مثلاً. هناك محاضرة لك بعنوان: «المسائل الكبرى للبشرية من وجهة نظر كافكا وغوته». ومحاضرة أخرى بعنوان: «الشعر شكل آخر من أشكال التبشير».

(*) ثمة كتاب بعنوان «كافكا ونيتشه»، يقع في ١٦٦ صفحة، هنا بعض الأفكار الرئيسية التي جاءت فيه: لم يكن كافكا تلميذاً لنيتشه، لكنه أخذ عنه أفكاراً كثيرة، كذلك صوراً ومصطلحات. كل منها تشوقه للناقضات. نيتشه: هجوسي، إيجاني. كافكا: ناكر للذات. يشتراكان في تمجيل شوبهارو. يتألف الكتاب من قسمين. القسم الأول دراسة عن توازيات عامة بين آثار كافكا وأثار نيتشه. ويضم القسم الثاني تفسيرات لروايات كافكا الثلاث وبعض قصصه استناداً إلى فلسفة نيتشه (أ.و).

إشفايلر: كما قلت، إنني على قناعة أن جميع المفكرين والشعراء العظام يواجهون المسائل نفسها. إن جهودي الدؤوبة في سبيل فن كافكا جعلت شاعري المفضل مقياسي، الذي أقيس به طبعاً آخرين أيضاً. إن التجانسات كبيرة ومتعددة على نحو لاهائي. لكن هذا هو الجوهرى في ثراء العالم الذهنى، هذا الجوهرى المثير للmutation.

وطفي: أتمنى أن أعرف شيئاً عن تربتك الدينية وعن معتقدك.

إشفايلر: نشأت في بيت كاثوليكى خير، وتتقاعدت مدبراً لكلية آباء يسوعيين^(*). إن الحضارة الغربية صاغت، إذأ، ثقافتي ووجهتني. إنني على قناعة أن حياتي هي الرسالة التي أحملها لاستكمال الصفات الحميدة المودعة في وإبلاغها إلى أخوتى البشر. هذا الموقف الأساسى الإنساني يرتكن على إجلالى لمعجزة الخليقة، هذه المعجزة المفعمة بالأسرار، والتي أشعر بمسؤوليتها أمامها.

وطفي: هل يوجد شيء مشترك بين الكاثوليكية وكافكا؟

إشفايلر: الموقف الأخلاقي الأساسى بالسلوك على نحو يتيح للمرء أن يظل من شأنه أن يكون جديراً بالخلاص.

وطفي: ترجم كافكا في اتجاهات كثيرة. إلى كل مدرسة نقدية أو غير نقدية. إلى اليهودية، الشكلانية، النفسانية، الفلسفية، الاجتماعية، الماركسية، وإلى آخر ما هناك من مدارس. هل «ترجمته» أنت إلى اللاهوتية، أو حتى إلى الكاثوليكية؟ مثال قديم: في أطروحتك لامتحان الدولة (ص ٧٠ - ٧١) تلمح إلى «ميتابيزيقية الموت عند كافكا في دفن

(*) تأسست في عام ١٩٠١ (أو).

المسيح». تكتب: «إن تصريحية المسيح بنفسه في سبيل ذنب البشرية بكل ملامها ومن أجل خلاصها هي غاية كافكا ومطenie من البشر. إنه المطلب الواحد دائمًا من كل إنسان، ومن هنا يتحدث كافكا في الرواية عن صورة جديدة في مفهوم مؤلف».

أم أن كل فن هو في الحقيقة نوع من الدين، تعبير، بحث الإنسان عن الحقيقة والمعنى؟^(*)

إشفايلر: وأنت تترجم كافكا إلى العربية!

وطفي: ربما يكون هذا أغرب ما يحدث لكافكا. إنه يترجم إلى لغة لا يقرأ فيها^(**). لنقل إن هذا شيء «كافاكاوي»... لكن بالمعنى المؤلف، الحالى؛

إشفايلر: نعود إلى سؤالك. إن مشهد الكاتدرائية في رواية المحاكمة، لكن لاسيما مشهد دفن المسيح في صورة الهيكل، تثبت أن كافكا مطلع طبعًا على الرمزية المسيحية. الجديد هو أن متأنل الصورة لم يعد يقدر على الاقتراب من سرّ ما هو مصور^(***). لا ريب بأن الإيمان بات أكثر صعوبة بالنسبة إلى كافكا أيضًا. لكن هذا لا يغير شيئاً من معرفته بالكتاب المقدس. أظن أحياناً أنني أفهم الخطيئة الأولى مثلما لا يفهمها إنسان آخر، يكتب

(*) ثمة كتاب يقع في ٢٠٣ صفحة بعنوان «الوجه الثاني لكافكا»، يفسر فيه كاتبه رواية المفقود «كاثوليكيًا»: كارل روسمان (كافكا) يعتقد الديانة الكاثوليكية. مسرح أو كلاهوما هو أمثلة على القبول في العقيدة (تعميد، تثبت التعميد، الغربان). ويدعو الكاتب إلى تفسير آثار كافكا كلها «كاثوليكيًا».

وفي الولايات المتحدة ثمة تفسير «بروتستانتي» لآثار كافكا. هل نقرأ، يوماً ما، تفسيراً «إسلامياً»؟ (أ.و).

(**) راجع هامش ص ٦٣٣.

(***) راجع ص ١٤٩.

ذات مرة، ويقصد بهذا عراكه الشخصي في سبيل مشكلية الوجود البشرية. بهذا المعنى، إن كل فن عظيم هو فعلاً توق إلى عالم أفضل، «نوع من الدين»، كما تقول. هذا موضوع تتشعب جذوره في كل إنسان مفكر.

وظيفي: قصة البناء لكافكا هي قصة ساحرة، وتفسيرك هذه القصة كعلاقة حب مترعة قد تحققت، هو تفسير جديد كلياً وبديع أيضاً. إن حياة كافكا في ما يتعلق بالحب هي علم قائم بذاته. في المحاكمة يصف عدة أشكال من العلاقات بين المرأة والرجل، وفي القلعة يصف، ربما، الأشكال كلها.

في كتبك جميعها تضع خطاً عريضاً جداً بين الحب والحياة الجنسية. بالنسبة إليك لا قيمة سوى للحب. كل ما عدا ذلك تراه سلبياً. نি�تشه يكتب: «كل ازدراء للحياة الجنسية هو الخطيئة الجوهرية التي تناقض روح قدس الحياة». أرجو أن تشرح للقارئ العربي، بكلمات موجزة، كيف جرى في المحاكمة تصوير موضوع الحب - الحياة الجنسية.

إشفايلر: أربع نساء في الرواية يقفن على مستوى حياة جنسية حيوانية مكشوفة: هلني، إلزا، لني، وزوجة حاجب المحكمة. على نقىض هاته النساء، ترفع الآنسة بورستنر، وخاصة أنهاها الأخرى، الآنسة مونتاغ، مطالب من الرجل أعلى جداً، بحيث لا يعود مجرد شريك في الحياة الجنسية، ومن هنا قابل للاستبدال. إن وصف الآنسة بورستنر يدع المرء يستشعر في وضوح تأثيرها الإيروسي وجاذبيتها. إن يوزف ك يقع في حبها. غير أنه لا يملك فرصة لدبيها إلا بصفته معتقلأً، أي إنساناً واعياً لقدره الذهني أيضاً. أما لني، فيزعجها تفكيرك بالمحاكمة، ومن هنا تحاول إلهاءه عنها. إن إبروء غريزتها المباشر يكفيها. وهي تسحب الرجل من أعلى إلى قاع الجنس، وتتوحشه. لكن إذ يحاول يوزف ك تقبيل الآنسة بورستنر كما يندفع حيوان ظمآن، ترفضه خائنة الأمل. إنها لاتدع نفسها تخطّ إلى مجرد موضوع

جنسى. لذا فإنها تُظهر أنها الأخرى، صديقتها كمعلمة لغة، التي تجعله يعي غريزته المكشوفة سلوكاً لا يليق بالبشر. ولأن يوزف لك يدرك ذلك، فإن الآنسة بورستن ترافقه حتى الفصل الأخير من محاكمته. إنها تعنى بالنسبة إليه عظة مرشدة، بألا ينسى قط امتيازه كإنسان. بهذا المعنى يراعي الإنسان ويؤدي الحياة الجنسية أيضاً، لكن بصفته إنساناً وليس حيواناً.

نيتشه يكتب أيضاً: «إن إضفاء الروحية على الحسية هو حب». ويكتب: «الروح راسخة ومتوطنة في الحواس، كما أن الحواس راسخة ومتوطنة في الروح».

إن الخلائق بالإنسان هو دائماً وفي كل مكان هدف كافكا.

وظفي: تحدث ناقد عن «فن اللغة» لدريك، وكتب، إنه لدريك «ابتكارات لغوية هائلة». وفعلاً، إنك تقدم نتائج أبحاثك في لغة صافية، مفهومة، تخلو من أي زخرف أو تزويق. إن تفسيراتك لا يفهمها علماء الأدب وحدهم، وإنما تتبع لكل قارئ منتبه فهماً للموضوع العقد. كتبك لا تتضمن هواش وحواش ولا كلمات أجنبية. كيف تحقق ذلك بصفتك عالم أدب؟

إشفايلر: من يتأمل طويلاً في أمر ما، حتى يصل أيضاً إلى نتيجة واضحة، يمكنه أن يقدم ذلك أيضاً في لغة مفهومة. إن الرطانة الاختصاصية غالباً ما تكون، مع الأسف، مجرد تعبير أكاديمي ظاهري عن اليس. وأرتال الهواش والحواشي اللانهائية تخدع في معظم الحالات عن أن المرأة لا يملك أفكاراً خاصة بها، وإن كان قد جمع معلومات كثيرة. أما من وجد أن اثنين واثنين يساوي أربعة، فإنه لا يملك رغبة في أن يرهن على خطأ من اكتشف سبعة أو ثلاثة عشر حلاً. لكن هذا ما يطلبه علم أدب لاجدوى منه يهدد أن يتحول إلى غاية في حد ذاتها. في أطروحتي للدكتوراه تجد، من ثم،

أيضاً أكثر من ستمائة هامش وحاشية، معظمها مطلوب لغرض الشكل العلمي.

وطفي: إلى أي حد تنتهي إلى مدرسة إمريش؟^(*) هل تريد أن تقول لي أهم السمات للمدارس الرئيسية في الأبحاث عن كافكا، وذلك في بضعة سطور؟

إشفايلر: بالنسبة إلى إمريش كان الشكل اللغوي مجرد وعاء شعرى لمضمون عقلي - ذهني. كان الشكل يعني الطريق إلى المضمون، إلى الخلفية المضمرة، كما يقول كافكا نفسه. وهذه هي قناعتي أيضاً. على خلاف ذلك هناك، في المقام الأول، المدرسة الشكلانية، التي تنكر على الأثر الفني تقديمها أي معرفة، وتستغني، من هنا، بوعي عن تفسير المضمون. يقتصر التفسير هنا على تحليلات الشكل. يدرك المرء دوائر متناقضة وجملة ذات بنية واحدة، تتالف من قسمين يناقضان بعضهما بعضاً. بهذه الطريقة يصل مثلاً مارتن فالر إلى نتيجة مدمرة، هي أن المعنى لدى كافكا هو «اللامعنى». ومن نافل القول أن أذكر أن مثل هذا الشكل الفارغ إنما يسمح بكل نهج تفسير، وبالتالي يمكن سوء استخدام كافكا لكل شيء^(**).

وطفي: رسالة إلى الوالد تفهم حسب رأيك، على نحو خاطئ، بصفتها اتهاماً خالصاً. أية وثيقة هي إذاً؟

إشفايلر: كتب كافكا الرسالة وهو في سن السادسة والثلاثين وقبل وفاته

(*) راجع في هذا المجلد ص ٤٢٥ - ٤٥١ ، وفي المجلد الأول الصفحات التالية:
٢٧٦ - ٣١٧ ، ٣٢١ - ٤٨٣ ، ٥٠٠ - ٦٨٥ - ٦٩٢ .

(**) أدونيس يكتب: «إن النظر إلى الشكل بحد ذاته، أبي الشكلية، قتل للأثر الفني»
(زمن الشعر، ص ١٥).

بخمس سنوات. إنها، إذاً، أثر فني من آثار الشاعر الناضج كل النضوج. إن مخاطبته الوالد الأعز مصاغة عن وعي، كذلك رغبته في الختام بأن تؤدي الرسالة إلى شيء قريب جداً من الحقيقة... ويجعل الحياة والموت أكثر سهولة، بالنسبة إلى كل من الأب والابن. إن الرسالة هي، إذاً، وثيقة عن متبادل في الحياة. ولا يمكن الحديث عن اتهام أحداً. اللهم إلا إذا جرى الشهير بالوجود البشري بكامله. بهذا المعنى يكتب Kafka فعلاً: كانت كتابتي تدور حولك، وأنت موضوع رئيسي في تفكيري، يصبح الوالد مثلاً للعالم وللحياة الطبيعية، اللذين يتوجب على الشاعر أن يعرضهما ويعالجهما. إنها المواجهة بين حياة «عملية» وحياة ذهنية.

من أجل فهم الرسالة فهماً أفضل، وبالتالي فهم علاقة أب - ابن، تحدى الإشارة إلى جملة ضرورة أخطاء تربتي. وليس من شأنى أن أعرف أن أعمل الأمر على نحو آخر.

وطفي: أرى أن رسالة إلى الوالد إنما تمثل شكوى واتهاماً... شكوى من الأب... من كل أب لا يدع بناته وأبناءه يحققون ذاتهم كما يشاؤون.

وطفي: هل شاهدت، مرة، مخطوطة المحاكمة، أغلى مخطوطة في العالم؟

إشفايلر: في عام ١٩٨٩ سافرت خصيصاً إلى مارباخ...

وطفي: حيث «معبد الأدب الألماني»، «معبد الفكر» و«السماء الواقعة تحت الأرض»^(*).

إشفايلر: ... وشاهدت المخطوطة. كانت غايتي أن أتأكد من عدم وجود أية إشارة من Kafka تدل على تسلسل الفصول المفردة. لم يسمح لي

(*) راجع ص ٧٤٥ - ٧٤٦ من الجلد الأول (أو).

بمشاهدتها سوى في حضور عالم أدب من «أرشيف الأدب الألماني». وطبعاً كنت أشعر بالانفعال والرهبة. وربما لهذا السبب سمح لي أن أمسك كل ورقة من أوراق المخطوطة، وكان عالم الأدب يجلس إلى جانبي طوال ساعتين. وكانت سعيداً لعدم وجود أية إشارة من كافكا تعارض نظريتي في تسلسل فصول الرواية. تتالف المخطوطة، كما تعلم، من أوراق مفردة، ١٦١ ورقة، ذات لون أصفر، ليست مصفرة، وإنما صفراء. وهي من النوع المتين، ويمكن مسكتها باليد بلا خوف. والكتابة تملأ الصفحة كلياً، ولا ترك أي هامش. والتصحيحات قليلة جداً. لقد كتب كافكا إملاء. والله يعلم، إملاء من.

وطفي: إن عرض المخطوطات الأصلية للمشاهدة ليس عديم الخطر. إنها «تشيخ» سنوات، عندما تتعرض إلى ضوء النهار مجرد ساعات.

إشفايلر: في مارباخ ت-chan المخطوطة في خزانة حديدية تتواجد في حجرة مظلمة. والمخطوطة مصورة على فيلم.

وطفي: في عام ١٩٩٠ شاركت في ندوة عقدت في مارباخ، وشارك فيها ثلاثون باحثاً في آثار كافكا من سائر أنحاء العالم. ماذا كان موضوع الندوة؟ كيف كانت النقاشات؟ والنتائج؟

إشفايلر: عقدت الندوة بتاريخ ٢٥ - ١٩٩٠/٩/٢٩ تحت عنوان: «بعد قراءة جديدة لرواية فرانز كافكا: المحاكمة». في تلك الأثناء كانت أطروحتي للدكتوراه قد صدرت (١٩٨٨)، كما كانت مقالتي عن تسلسل فصول الرواية قد نشرت في مجلة «كلمة فعالة» (١٩٨٩). وكان عليّ أن أبدأ الندوة بمحاضرة قصيرة بعنوان: «أسئلة إلى الناشر». وكان باسلبي يعرف أعمالي ونظريتي وموقفي الهجومي. وقد تغيب عن الندوة، بعد أن اعتذر

قبيل الموعد. صحيح أنني استطعت عرض نظريتي، لكن لم يجر نقاش جديّ فعلاً، وذلك لأن اهتمام المشاركون الآخرين كان منصبنا على مسائل تحقيق الطبيعتين أكثر من تسلسل الفصول، وعلى كل حال كان كل منهم حريراً على تكرار نظريته المعروفة. حتى أن باحثاً تشيكيّاً ألقى محاضرة طويلة عن نائب في البرلمان أقيمت عليه آنذاك دعوى قضائية، من الممكن أن تكون قد ألهمنا كافكا! وما يدل على إشكالية الندوة بكمالها هو أن محاضرتي لم تنشر في الكتاب الذي نشر بعد بضعة أشهر وتضمن المحاضرات التي ألقيت في الندوة، وذلك بحجة أنني كنت قد نشرت كتاباً عن موضوع محاضرتي. يبدو أن «القراءة الجديدة لرواية كافكا» لم تكن قد أثارت رغبة في الحديث عن هذه الرواية من جديد أيضاً.

وطفي: أجلّت رحلّة إلى براغ مرة بعد مرة. وبعد أن ترجمت ونشرت كتابين لكافكا وعنده، أردت أخيراً أن أسافر إلى براغ، كي أتبع آثار كافكا، وأتعرف على جو مدينة كافكا. لكنني مع الأسف لم أعد أتمكن، لأسباب صحية، من تحقيق هذا المشروع. هل كان لديك هناك مشروعك؟ ألا تجد علاقة بين مدينة كافكا وشعر كافكا؟

إشفايلر: براغ مدينة آية في الجمال. يقدر المرء أن يتمشى فيها - كما يقال - على آثار كافكا، ولا سيما أنه سكن في مواضع متعددة. على ضريحه، الذي يرقد فيه والداه أيضاً، يقشعر بدن محب شعره ولاري، وخاصة أنه ثُبّت على الحدار المقابل لوحه تذكارية لماكس بروود. لكن من يزور براغ، لا يفهم شعر كافكا بشكل أفضل لهذا السبب.

وطفي: لقد تعرّفت على ماكس بروود. كيف كان ذلك؟ آية انطباعات أخذتها عنه؟

إشفايلر: كانت تجربة طلابية. برود تحدث في قاعة محاضرات في الجامعة منتصف خمسينيات القرن العشرين. مع الأسف لم يكن لدى آنذاك أسئلة حول كافكا. من هنا كانت هذه الذكرى سطحية جداً. ذكر برود أن صديقه كان يرتدي دائماً بدلات غامقة، ولم يرتد بيريه فقط. وقبل كل شيء ناشدنا أن نصدقه أن كافكا لم يكن عدانياً أبداً.

وطفي: مؤخراً قرأته مرة ثانية سيرة حياة كافكا، التي كتبها ماكس برود. إن انطباعاته الشخصية عن الصديق كافكا، التي نشأت خلال الثين وعشرين عاماً، هي انطباعات قيمة وفي غاية الأهمية بالنسبة إلى فهم شخصية كافكا. لكن سيرة الحياة هذه لم تنشر لأول مرة سوى في عام ١٩٥٤ . أي بعد مضي ثلاثين عاماً على وفاة كافكا. ويدعى برود أنه كتب هذه السيرة في عام ١٩٣٧ . أي بعد ثلاثة عشر عاماً من وفاة كافكا. وهذا يعني أنها لم تكتب سوى بعد أن أصبح كافكا مشهوراً على نطاق العالم. وفي كتاب آخر يحاول برود أن يعمل من كافكا مفكراً يهودياً، بل وصهيونياً. هذا تشويه مبالغ فيه، ويناقض مبادئ كل علم وكل صدقة أيضاً. إنه يودي بكليهما. في وقت لاحق ترك برود امرأة غير ذات قيمة ولا علاقة لها بكافكا تحصل على ثلاثة ملايين ماركاً ونصف المليون ثمناً لخطوطة المحاكمة^(*). هذا غير لائق. كان من اللائق استثمار هذا المبلغ، وإنشاء جائزة كافكا به، أو إنشاء مؤسسة كافكا للأبحاث والترجمات، مثلاً. انطباعي هو أن ماكس برود استغل صديقه من أجل قضية يعتبرها خيرية.

(*) سكرتيرته وصديقه إستر هوفه. وكانت قد تجاوزت الثمانين عاماً من عمرها عندما حصلت على المبلغ.

ماذا تقول حول كل موضوع «كافكا - برود»؟

إشتغایلر: يظل فضل برود الذي لا ينمازع أنه أدرك باكراً عبقرية صديقه الخجول - المتواضع، وعرف بها. وأظن أن وضعه أعمال كافكا فوق أعماله نفسه دلالة عظمة. وهذا ما يفسر أنه لم يشتهر بعد وفاة كافكا سوى بصفته وصيأ على تركته الأدبية. لكن الضجة التي أثارها حول انقاذه آثار كافكا لاتخلو من بعض التهريج. وصدقى هذه الضجة مازال قائماً في سائر أنحاء العالم حتى اليوم، وبالكاد يخلو منها كتاب ينشر عن كافكا. من المؤكد جداً أن السوق والدعابة لم تكونا غريتين على ماكس برود، بحيث أنها عندما كنا طلاباً، كنا نقول بتهكم وسخرية وتجديفاً تقريباً: «برودنا اليومي أعطانا اليوم»^(*).

وطفي: تقوم برود لكتب كافكا فوق كتبه لا يحتاج إلى عظمة، وإنما إلى حد أدنى من الصدق.

مع يانوش لدى مشكلة أكبر: معظم الباحثين يرونـه غير جدير بالتصديق. وأنت نفسك ترى الطبعة الثانية من كتابه «أحاديث مع كافكا» «موسعة على نحو غير جدير بالتصديق». ورغم ذلك تعتبره جديراً بالتصديق وتستشهد من كتابه كما لا يفعل باحث آخر. حقاً، يبدو أن هذه الاستشهادات هي من كافكا. إذ أن كافكا وحده يستطيع أن يكتب مثل كافكا. لكن، من طرف آخر، أظهر تحليلي لكتابه أنه لا يمكن لكافكا أن يكون قد أعطاه هذه الأحاديث^(**). في كتاب جديد صدر عام ١٩٩٩ جاء أن يانوش التقى كافكا خمس مرات لقاءات قصيرة جداً، في مكتب

(*) Brod (برود): Brot (خبز).

(**) راجع ص ١٩٨ - ٢٠٣ من المجلد الأول.

كافكا وفي طريقه إلى البيت. في الأشهر الأخيرة، بعد أن قرأت كتبك، أمعنت التفكير في هذه المعضلة. وقد توصلت إلى الفكرة التالية: ماكس برود، الذي استغل صديقه بعد وفاته في سبيل قضيته، أعطى غوستاف يانوش دفترًا، كان كافكا قد صاغ فيه بعضاً من أفكاره، وقال له: «اعمل من هذا الدفتر شيئاً ما... في سبيل قضيتنا».

هل تعتبر هذه الفكرة، هنا «الحل»، هذا «الحل الوسط» مستبعداً؟ ألم تلاحظ أثناء عملك الطويل هذا التناقض بين مضمون و«شكل» كتاب يانوش؟

إشفاييل: لاشك أن برود قام بدعاية كبيرة لترويج كتاب يانوش: «أحاديث مع كافكا». وكان هذا الترويج بالغ الأثر. وبلغت مبيعات هذا الكتاب رقمًا كبيراً. وكون أن المؤلف والناشر وتجارة الكتب قد أرادوا تحصيل أكبر قدر من رأس المال - ربما بأي ثمن -، إنما يطابق التفكير الاقتصادي السائد في مجتمعنا، تفكير الربح بأية وسيلة وبلا وازع من ضمير. لكن إذ لم يؤثر في نفسي سوى الأقوال بعيدة الغور، فإني لم أهتم فقط بمصدرها. إن الأفكار التي تتضمنها هذه الأقوال هي على كل حال ذات أهمية كبيرة، بحيث أنه يجب على المرء أن يعتبر يانوش نداً في العبرية لكافكا، إذا لم تكن هذه الأقوال هي أقواله. أنا شخصياً اكتسبت منها معارف موضعية كثيرة، تطابق العالم الذهني للشاعر مطابقة كاملة. وعن اتفاقات بين برود ويانوش لا أقدر أن أقول شيئاً. ومن شأنها أن تكون بالنسبة إلى غير ذات أهمية.

وطفي: لاتذكر كلمة «صهيونية» مرة واحدة في كتبك الستة. باستثناء واحد: في أطروحتك للدكتوراه تذكر هذه الكلمة، لكن فقط ضمن استشهاد: «كافكا يعتقد أنه لم يُرشد في الحياة لايد المسيحية ولا يد

الصهيونية»^(*). هناك بضعة أفراد يجرون في العربية ما يسمونه «نقاشاً»، عما إذا كان كافكاً يهودياً مؤمناً أو حتى صهيونياً. هل تحب أن تقول هنا للقراء العرب شيئاً عن هذا الموضوع؟

إشفايلر: جذور كافكا تقع بشكل ملحوظ في تراث الحضارة الغربية. لكن آثاره تعني عرايا إنسان مع عالمه... إنسان عصري، متقطع، منفتح، نقيدي بلا هواة. إنه مقتنع بالمهمة الذهنية للفرد في هذه الحياة، ويأمل بـ«الحكمة غير المرئية أثناء هذه الحياة وفي نهايتها، لكنه لم يكن مستعداً - كما وجب على برود نفسه أن يعرف - إلى أن «يعطي أية وعد أو إرشادات بشأن الحياة المباركة». لقد أراد كافكاً أن يحيا بطريقة من شأنها أن تجعله جديراً بالخلاص، حتى إذا لم يوجد. هذا إنجيل دنيوي، تحدده معرفة وأمل بشريان أكثر مما يحدده إيمان. ومن هنا فإن الموضوع يخص كل البشر. إن رسالة كافكا تدعو إلى كرامة الإنسان وتساميه. وهذا هو - بالنسبة إلى كافكا - مقياس لكل ما هو إنساني.

وطفي: هل يمكن لقصة من قصص كافكا، قصة واحدة، أن تشكل استثناء، و تعالج موضوعاً أفقياً وليس عمقياً؟ هل تستطيع أن «تحزر» أية قصة أعني؟؟

إشفايلر: لا أقدر أن أحزر، لأنني أعتبر ذلك مستحيلاً كلياً. إن أهمية شعر كافكا تكمن في العمق، إذ تعني الكتابة بالنسبة إليه «شكلًا من أشكال الصلاة». فـ«نهي الجوهرى»، العميق. في حين أن السطحي يهدد بتحويل النظر عن الجوهرى، لذا فهو الشر: الشر هو ما يحول النظر. لا يوجد فن

(*) كتب كافكا حرفياً: لم ترشدني يد المسيحية في الحياة مثل كيركيجارد، ولم ألتقط الطرف الآخر من رداء الصلاة اليهودي مثل الصهاينة.

سطحي. هذا، عند كافكا، هو تناقض في ذاته^(*).

وطفي: لدى سؤالي فكرت بقصة: بنات آوى وعرب.

إشفايلر: أرجو مراجعة تفسيري لها^(**).

وطفي: قرأت كتبك الستة عن كافكا، ومنها الثلاثة عن المحاكمة، في الوقت نفسه الذي كنت أترجم الرواية أثناءه. إن التوازي بين الترجمة والقراءة كان أمراً مثالياً. كنت أقرأ دائماً ما كتبته أنت عن فصل من فصول الرواية، وأترجم هذا الفصل فوراً. ولا يوجد وضع أفضل بالنسبة إلى مترجم. إني شاكر لك. لدى المحاكمة أعرف أن مתרגمين آخرين - في أيّة لغة أخرى - يترجمون مفردات وجملة دون أن يفهموا معناها الصحيح، أو «المعنى الكلّي». إذا لم يفهم المترجم النص الذي يترجمه، كيف يمكنه أن يقدم المعنى الصحيح للقارئ؟

إشفايلر: بالقاموس لا يمكن للمرء، بكل تأكيد، أن يترجم شعراً. إذ أن اللغة الشعرية، لغة الصور، هي مجرد وعاء عليه أن يشير إلى مضمونه الحقيقي. ولابد للشكل الخارجي أن يطابق المضمون، الذي هو الأمر المهم. على المترجم تقع، إذ، مسؤولية فهم هذا المضمون، أو حدسه على الأقل. مثلاً عندما يطلق شاعر كلمة «سفينة صحراء» على جمل، حتى يبين أهميته

(*) يميز أدونيس بين «أغوار الحياة» و«زيد الحياة». ويكتب عن مستويين في الشعر: «الغور والسطح... السطح متصل بالواقع والفترة الزمنية. بينما يتصل الغور بالإنسان كإنسان. الغور مطلق، أما السطح فتاريخي» (زمن الشعر، ص ١٦٩ - ١٧٠).

(**) في كتابه «قصص كافكا وخلفيتها الكامنة» يفسر إشفايلر هذه القصة تحت عنوان «البنية الحداثية للوجود البشري» تفسيراً مطولاً يجعل التفسير «العربي» لها مثيراً للضحك.

كوسيلة نقل لا يستغني عنها في البحر الالهائي لرمال الصحراء، فإنه لا يجوز للمترجم أن يحول «سفينة الصحراء»، إلى جملة مرة أخرى. إذ بهذا يجري تدمير الشعرية، والنكوص عن النص الشعري، وتسطيح المرتفع إلى واقع سطحي مكشوف. على المתרגمين أن يكونوا قادرين على الإحساس شعرياً.

وظيفي: في مجال أكتشف ببطء شيئاً مشتركاً بين الثلاثة: كافكا وأنت وأنا: مجال النشر والطباعة والتلقي.

قصة كافكا في هذا المجال معروفة (للقارئ العربي أيضاً) (٤٠).

في عام ١٩٩٤ عرضت «الآثار الكاملة» لكافكا على سبع دور نشر عربية «كبيرة». كل دار من الدور السبع رفض العرض. اضطررت إلى الطباعة على نفقتي الخاصة، أو كان عليّ ألا أترجم كافكا. من كل كتاب أطبع ألف نسخة (٤١). والتوزيع مختلف. في مدینتي مثلاً، التي يبلغ عدد سكانها نحو ١٢٠ ألف نسمة، لاتباع كتبى. يمكنك مواساتي. أروي لي قصتك مع نشر وتوزيع كتبك.

إشفايلر: كان لدى حظ كبير مع ناشر كتبى. وإذا كان يعرف سمعتى كمدرس، وحماسى لكافكا، ومحاضراتي الأدبية، فإنه لم يشك في نوعية كتبى. لكننى إذا كنت أرغب في نشر ليس كتاباً جيدة فحسب، وإنما كتاباً جميلة أيضاً، أصبح المجموع كثير التكاليف، بحيث كان عليّ أن أشارك بمبلغ معقول كسلفة نفقات طباعة. كان واضحاً لنا كلينا أن مثل هذا الأدب الاختصاصي لا يمكن أن يكون سلعة مغربية. (حتى نهاية عام ١٩٩٩

(*) راجع فصول «الطباعة» في المجلد الأول.

(**) الرقم الصحيح هو أقل من ذلك (١.٥).

باعت دار النشر نحو ٢٦٠٠ نسخة من كتبها بسعر ٤٨ ماركاً لكل نسخة). «آه، العامة يعجبها ما يصلح في السوق»، شكا هولدرلين. وقتئي سيكون خسارة إذا كتبت للسوق. ويتبع هولدرلين: «بالإلهي يؤمن من يكونه نفسه». مع الأسف ليس هؤلاء سوى قلائل، رغم أننا نتمنى أن يكونوا الجميع. المواساة هي في تحقيق الذات بعمل متع.

وطفي: نشر ماكس برود رواية المحاكمة في عام ١٩٢٥ ، بعد أن رب تسلسل الفصول حسب «شعوره». وقد أستطع هذه الرواية شهرة كافكا العالمية.

وبعد ٢٨ عاماً على نشر الرواية لاحظ باحث بلجيكي، في عام ١٩٥٣ الناقضات في تعاقب فصول السنة، وطالب بتعديل ترتيب الفصول طبقاً لذلك. واحتاج الباحثون أربعاً وعشرين عاماً آخر حتى دحضوا حجج ماكس برود الواهية.

وبعد ٣٥ عاماً على بدء هذا النزاع وضعت في أطروحتك للدكتوراه (عام ١٩٨٨) تسلسلاً جديداً لفصول رواية المحاكمة، تسلسلاً مقنعاً كل الاقناع، وكتبت: «يؤمل أن تضاف في الطبعة النقدية الفصول غير المكتملة والنصوص الجزئية المنشورة في الطبعات السابقة كملحق، وكذلك قصة حلم، إلى صلب الرواية» (ص ٣٥).

في العام التالي نشرت مقالة بعنوان «حول تسلسل الفصول في رواية فرانز كافكا المحاكمة». في هذه المقالة توجز النتائج التي توصلت إليها في أطروحتك.

في نهاية عام ١٩٩٠ صدرت (في دار نشر فيشن) الطبعة النقدية الجديدة لرواية المحاكمة «في صيغة خط اليد»، لكن بتسلسل الفصول القديم،

الخطائى. أعمالك لم يؤخذ بها علمًا أبداً. لماذا لا؟ ما هو رأيك؟ وما هي تجاربك مع ناشري الطبعة النقدية؟

إشفايلر: في الحقيقة أوصلت نتائج عملي إلى مالكولم باسلى. بعد ذلك أُعلن في مجلة «دير شبيغل» عن ترتيب جديد لتسلاسل الفصول بصفته حدثاً أدبياً في غاية الإثارة. وإن أنه لم يذكر اسمى في ذلك، فقد نشرت بنفسي نتائج عملي في المجلة الاختصاصية «كلمة ف غاله». وعند ذكر أي شيء من كل هذا في طبعة تسمى طبعة نقدية، يظل سر الناشر، سراً مربيناً. إن الأمر مؤسف على نحو خاص، لأنه لدى الفوضى الحالية في ترتيب الفصول لا يمكن إدراك وفهم حدث الرواية في تطوره ذي المعنى. مع الأسف لم يكن فهم كافكا هو هدف الطبعة النقدية.

وطفي: أقدر مايلي: في المكتبات ومستودعاتها ومستودعات دور النشر يوجد مئاتآلاف النسخ من طبعات المحاكمة البالغ عددها ٢١ طبعة، كما يوجد نسخ أخرى من مئات الكتب عن المحاكمة بتسلاسل الفصول القديم. وطباعة جديدة للرواية طبقاً لتسلاسل الفصول لديك، وفرض هذه الطباعة من قبل وسائل الإعلام والصحافة المتخصصة، من شأنه أن يحول نسخ الطبعات القديمة للرواية و«تفسيراتها» إلى أ��ام من التفانيات. وهذا يعني خسارة عشرات ملايين الماركات. إن دار النشر الأساسية التي تنشر آثار كافكا، باتت ملکاً لشركة إعلام ضخمة^(*). وليس العلم والشعر والحقيقة، وإنما الربح وحده هو، نعم، «دين الشركات». و«الباحثون» و«الناشرون»،

(*) شركة هولتسبرينث مقرها الرئيسي في شتوتغارت. في عام ٢٠٠٠ بلغ حجم معاملاتها مبلغ ٤,٦ مليار ماركاً. وهي تملك صحفاً ودور نشر في ألمانيا وخارجها، مثل دار نشر ماكميلان في لندن.

وكتبة «وسائل الإعلام» يريدون أن يكسبوا مالاً ويعيشوا بهناء.

إشفايلر: إن القصور الواضح للطبعة النقدية الصادرة عن دار نشر فيشر دفع دار شترومفلد إلى نشر طبعة تاريخية - نقدية جديدة للرواية. لكن في هذه الطبعة أيضاً غاب مع الأسف الفصل المهم حلم، الذي لم يعثر على مخطوطة له، لكن الذي نشره كافكا بنفسه، والذي يمثل خياراً آخر عن النهاية الحقيقة للرواية. إنه خيار آخر يحدث في الحلم.

ثم إن هذه الدار ترك القارئ دون عون، وتكلّفه بأكثر ما في وسعه. تكليفه بالهمة الصعبة التي أخفق علم الأدب حتى اليوم في حلّها إنفاقاً كاملاً: ترتيب تسلسل الفصول. وبتعبير ساخر: بعد خمس وسبعين عاماً من نشر الرواية يمكن للأبحاث عن كافكا أن تبدأ أخيراً بترتيب فصول رواية القرن هذه ترتيباً مجدياً، حتى يمكن، يوماً ما، فهمها بعض الفهم؛ اللهم إلا إذا لاحظ أحدهم قبل ذلك أنني قد نجحت في حل هذه المهمة. وأقول هنا إنه مما لا ريب فيه قط أنه يمكن تسويق هذا الحدث الأدبي المثير. لكن من يستطيع تبيان ذلك للباحثين التقليديين ولوسائل الإعلام التابعة؟

وطفي: تشكّل أعمالك ولاشك نقطة تحول في الأبحاث عن كافكا. إذا وضعت كل ما قرأت من الستة عشر ألف دراسة عن كافكا في كفة ميزان، وكببك الستة في الكفة الأخرى، فإن هذه تزن أكثر.

لقد قرأت كل ما نشر عن كتبك، كما قرأت مراسلاتك. لقد نشرت في صحف محلية بعض المقالات الإيجابية عن كتبك. أما ما عدا ذلك، فلم تلق أعمالك صدى لدى الباحثين الاختصاصيين أو في وسائل الإعلام الكبيرة. إن أهمية أعمالك تقف في تناقض صارخ مع هذا «اللامصدى». كيف يمكن تجاهل مؤلف ستة كتب عن كافكا تجاهلاً تاماً؟ لماذا يقتلونك

صمتاً؟ هل هم غير قادرين على فهم كافكا؟ هذا الوضع غير مفهوم بالنسبة إلىي. يمكن هذا أن يحدث في بلد مختلف عن ركب الحضارة. أما في ألمانيا، بلد «الشعراء والمفكرين»؟ إبني - ببساطة - في ذهول.

هل لديك إيضاح شامل؟ أرجو أن تكتب من أعماق روحك.

اشفایلر: مختص في شعر كافكا معترف به، قال لي حرفيًا بعد أن فرأطروحتي: «إنك تجعلني أمام طلابي غير جدير بالتصديق». أجبت: «الموضوع يتعلق بكافكا وليس بك». فتجاهل جوانبي. من كون لنفسه سمعة مختص وخبير، يصعب عليه، على ما يبدو، أن يسحب نظرياته الخاطئة. وبدلاً عن ذلك، ينحصر همه في حصر الأضرار بأية وسيلة. والقتل صمتاً هو الطريق الأكثر سهولة، وإن كان الأكثر فظاظة. رغم أنني أكتب في الحقيقة للمختصين، فإبني لا أستطيع توقع عون منهم. لكن ربما سيأتي أحد يوماً ما، محب للاستطلاع، بهتم اهتماماً جديداً - مثلث - بفن كافكا، وسوف يجد في أعمالى المرشد الصحيح. وعلى كل حال، إن الهجوم الساخر أحياناً الذي تلقاه كتبى، هو أيضاً تعبير عن تجاري، التي لا تصدق، في التعامل مع المختصين في شعر كافكا، هؤلاء القاصرين، الفاشلين، الذين أعيتهم الحيلة، لكن الذين، رغم ذلك، لم يصبحوا أقل اغتراراً بأنفسهم.

وطفي: مadam هؤلاء «المختصون» غير قادرين على دحض تفسيراتك، فإنه لا يقى أمامهم سوى حفظ ماء وجوههم من خلال قتلك صمتاً.

إن «مصالتك» هي أسوأ من «مصالتي»، إذ أنك تكتب في لغة يقرأ فيها. أما أنا فلا. في اللغة الألمانية يطبع من الكتاب الجيد عشرات أو مئاتآلاف

لنسخ. في اللغة العربية يطبع من الكتاب الجيد بضع مئات من النسخ^(*).

شفايلر: عوته قال مرة: «ثمة فرق كبير، بين أن أقرأ للممتعة والإثارة أو أن أقرأ للمعرفة والتعلم». طريقة السلوك الأخيرة تتحصر، في ألمانيا أيضاً، في فئة صغيرة من القراء. إن السوق لا يسيطر عليه الكتاب الجيد، وإنما الكتاب المتهافت أو الذي يعالج موضوعاً راهناً. لكن هذه السلعة الجماهيرية تلقى ترويجاً من قبل وسائل الإعلام. وهذه لا يهمها نشر العلم. وكثيرون من ذوي الشهرة يستغلون هذا الوضع بلا وازع ولا ضمير. ومع الأسف تضيع الكتب الجيدة القليلة بين الكميات الهائلة من الكتب عديمة الأهمية.

وطفي: كافكا لم يكتب لقراء. كانت الكتابة بالنسبة إليه حاجة ضرورية للحياة، حاجة ذاتية جداً. في اللغة الألمانية وحدها نشر نحو ستة عشر ألف دراسة، بين كتاب ومقالة طويلة، عن آثار كافكا. لكن المختصين لم يفهموا كافكا. ومن طرف آخر، يباع ويقرأ في ألمانيا وحدها، في الأعوام الأخيرة،

(*) «في مطلع القرن العشرين كان لدى العرب ثلاث جامعات (اثنتان في بيروت وواحدة في القاهرة). وكان عدد العرب لا يتجاوز الخمسين مليون نسمة. وكان الكتاب الجيد يطبع منه نحو ثلاثة آلاف نسخة. واليوم صار لدى العرب نحو ١٧٥ جامعة، وبلغ عددهم نحو ٢٤٠ مليون نسمة أو أكثر. ومازال الكتاب الجيد يطبع منه ثلاثة آلاف نسخة فقط» (صغر أبو فخر في حواره مع أدونيس في تموز ٢٠٠٠). حسب تقدير رسمي عربي بلغ عدد العرب في عام ٢٠٠٠ نحو ٢٩٢ مليون نسمة، وسيبلغ عددهم في عام ٢٠٢٥ نحو نصف مليار نسمة (أ.و.).

قال الناشر روحي البعلبكي إن القارئ العربي بات شبه مفقود، وإن القارئ المواطن أضحمى عملية نادرة، وإن الاهتمام بالكتاب أمسى اهتماماً هامشياً: «إن نصف الكتب التي تطبع لاتباع، ونصف الكتب التي تباع لأنقرأ، ونصف الكتب التي تقرأ لأنفهم، ونصف الكتب التي تفهم يفهم عكسها!!».

نحو مئة وخمسين ألف نسخة من كتب Kafka كل عام. كيف تفسر ذلك؟

إشفايلر: إن السحر الذي ينبعث من عالم Kafka الشعري، عالم الصور، هو، بالنسبة إلى القارئ المفكر، سحر لا يقاوم. هكذا هو الأمر ببساطة. وهذا السحر يعني تحدياً متواصلاً يدفع إلى الرغبة في التفسير. لكن «المختصين» أثاروا الكثير، الكثير من سوء الفهم.

وطفي: بعد صدور كتابك الأخير قلت وأنت تشعر بالرضى: «الآن قلت كل ما أردت قوله. الآن وصلت إلى الهدف». هذا تحقيق للذات. ولا يمكن أن يقول ذلك سوى عدد قليل جداً من الناس. بكل حرارة أهنتك، وأتمنى لك حياة مديدة، مديدة. لقد أتممت رسالتك.

إشفايلر: حين يهتم المرء طوال أكثر من أربعين عاماً بالآثار الفنية لشاعر، ويرى لدى ذلك، تدريجياً، لكن بوضوح متزايد، ما كان يحدسه دائماً؛ فإن هذا يمتع شعوراً بدليعاً. في النهاية عرفت أنني أدركت أخيراً رسالة Kafka في روايته المحاكمة. وهذا منحني اطمئناناً لم يعد يسمح أن يكون من الممكن وضع أي فصل من فصول الرواية في موضع آخر يختلف عن موضعه في التسلسل الصحيح الذي وضعته. وبإنجاز هذه المهمة وصلت، في الوقت نفسه، إلى حدود الممكن بالنسبة إليّ. وأكثر من ذلك لم يعد لدى ما أقوله.

وطفي: بعد خمس وثلاثين عاماً من العمل مدرساً ثانوياً، ومديراً لمدرسة ثانوية، وعالم أدب، تقاعدت في عام ١٩٩٤ . في العام الأول بعد تقاعده حضرت مئة وستين حفلة موسيقية. أرجو منك بضعة جمل عما تستغل به في فترة التقاعد.

إشفايلر: الموسيقى تعني الكثير اللامتناهي بالنسبة إليّ. في كتابي «حقيقة

كافكا فناً» حاولت مرة أن أقارن بين موسيقى غوستاف مالر وشعر فرانز كافكا. أسمع بانتظام ووعي موسيقى كلاسيكية من باخ إلى بارتوك. إلى جانب ذلك أكرس نفسي للآثار الكاملة لشعراء عظام، هذه الآثار التي لم أكن أستطيع أثناء عملي المهني أن أقرأها بكمالها. من هؤلاء الشعراء: بن، بورشرت، برشت، غوته، هولدرلين، هاینه. وفوق ذلك أقوم بتفسير أشعار من فالتر فون دير فوغل فايده، نيلي ساكس، باول سيلان؛ أناشيد غوته الكبيرة، قصائد هوفمان ستال وريلكه وتراكل تشكّل مركز الثقل إلى جانب، أشعار الشاعرين المذكورين هولدرلين وهاینه. غالباً ما أقوم بتكتيف هذه الأعمال الأدبية إلى محاضرات ألقاها، حيث دعيت، منذ تقاعدي، أكثر من سبعين مرة لالقاء محاضرات في أمسيات أدبية. وطبعاً أتحدث مرات عديدة عن كافكا، لكن فقط عنه كتبت كتاباً، الاثنين الأخيران في فرة التقاعد. عن الشعراء الآخرين يوجد كتب جيدة تعجبني.

وطفي: «كافكا والموت». هذا علم قائم بذاته. في حياته كما في آثاره. ترى أن مركز المعنى إنما يكمن في ما يلي:

الإنسان فان جسدياً، إمكانياته محدودة، سجين طبيعته؛ بعقله يملك حدساً باللانهائي. هنا ينشأ توتر: الإنسان يقف أمام مهمة، هي السعي من هذا النهائي إلى اللانهائي، أن يرتفع من الطبيعة إلى العقل - الروح، وذلك بأن يعطي حياته نوعاً أعلى^(٤). اعتقال يوزف ك هو، بالنسبة إليك، الواقعة التي

(٤) يكتب أدونيس: «لأنك تكون أحياء إلا بقدر ما نعيش معنى اللانهاية. وهذا المعنى هو ما يعلمنا إياه الإبداع» (زمن الشعر، ص ١٦٩).
«كن الحد والنهاية، تكن قبرأ. كن اللانهاية تكن نفسك، تكن الإنسان والحياة والكون» (زمن الشعر، ص ١٧٢).
«الموت دخول في لانهاية الطبيعة» (سياسة الشعر، ص ١٤٣).

تعطيه إشارة كي يعطي حياته أخيراً محوراً لها، معنى.

في القسم الثاني من الرواية يقبل يوزف لك، من خلال اعتقاله، المهمة التي تلقّها. من أمثلة أمام القانون يتعلم أن عليه «في وجوده الأرضي أن يثبت صلاحيته لخلاص ممكناً». إن إمكانية الخلاص هذه، «ضوء الحقيقة الذي لا يظهر في الأمثلة إلا في الموت، هو الخلفية المضمرة في شعر كافكا». في نهاية تطوره يعرف لك أنه يجب عليه لهذا السبب أن يقبل الموت، وأنه في «معنى موته يجد أيضاً، في آن، معنى حياته»^(*).

أولاً: ما هو مدى صحة فهمي لك؟

ثانياً: هل هو موضوع إيمان، فيما إذا كان يوجد فعلاً خلاص، يمنع الحياة والموت معنى؟

إشفايلر: شروحتك تطابق، ولاريب، قناعاتي. الخلاص الحقيقي هو طبعاً موضوع إيمان صرف. لكن ليست هذه هي المسألة. إن شعر كافكا - مثلما هو الحال لدى فنانين عصررين كثرين - يحمله القلق. وذلك لأن الإنسان هو أكثر من مجرد مخلوق بيولوجي، لأنه ينتهي بجزء حاسم إلى عالم ذهني - كما قلت مرة ويجوز لي هنا أن أكرر القول -، وبهذا يملك مدخلاً إلى المطلق، أي إلى أفكار الحقيقة والحرية والعدالة، ويلمع عليه باستمرار السؤال عن المعنى. وهنا تختلف العقول بسبب التناقض بين النهائي واللامنهائي. إن التزوع إلى غاية أسمى يعني قدر الإنسان. وهذا يعطي الموت معنى والحياة اتجاهها. وماذا يأتي بعد ذلك ليس يقيناً قط، لكنه أمل. وهذا

(*) أدونيس يكتب: «الموت هنا امتلاء» (زمن الشعر، ص ١٨٩). و«الموت اسم آخر للحياة» (آفاق الكتابة، ص ١٨٢).

الأمل لا يخلو منه نص من نصوص كافكا. أما من يتخلّى عن التزامه الروحي الأعلى، فإنه ينكر امتيازه إزاء سائر المخلوقات الأخرى.

وطفي: قبلك كان كافكا يعتبر شاعراً عسيراً على الفهم ظل غريباً على القارئ بشكل عجيب. وكان عالم صوره يبدو للكثيرين غير قابل للتفاذه إليه، ولغته أكثر عمقاً من أن تكتشف للقارئ قط. من كان يقول «كافكا»، كان يفكّر بالظلم والتماهي والتلغير وانعدام المعنى والمخرج. كان كافكا اللغر الأبدي، الذي لا يريد أن يُفَكَّر. ولم يمكن تصنيف آثاره، مضموناً وشكلًا، ضمن أي تيار من التيارات الأدبية. تحت ستار الموضوعية العلمية في الأبحاث عن كافكا كان يستتر قدر كبير من انعدام الاتجاه ومن العجز والقصور عن التعرض للمسائل الهامة فعلاً.

فيك وجد كافكا، أخيراً، مفسراً جديراً به.

إن نصوص كافكا هي مادة لانتفاضة الأسئلة والتفسيرات. هل كشفت المعنى الأخير، التفسير النهائي لنصوص كافكا؟ أم أن هذه النصوص تظل كتاباً لا سبيل إليها ولا يمكن إنعام قراءتها، يجوز لنا أن نستمر في الاندهاش منها؟

هل تستبعد أنك تفسر بعض الأمور تفسيراً أعمق مما يكون الشاعر قدّه؟
كيف كان من شأن رد فعل كافكا أن يكون إزاء كل تلك التفسيرات العيشية الغير ذات معنى؟

إشفايلر: «أن ندرك ما يؤثّر فينا». هذا هو مبرر التفسير. لكن كما يتخلّف كل مفهوم عن الصورة ولا يصل إلى مستواها، فإن ما من تفسير، مهما كان صائباً، قادر أن يستنفد أثراً فنياً على نحو نهائي. إن الأثر الفني يظل كائناً

حيّاً دائمًا وأبدًا من جديد، ويشير الدهشة^(٥).

لأن نقل آثار كافكا إنما يقع في العمق، فإن المرء لا يقدر على تفسيرها «أعمق من اللازم»، لكن يمكنه تفسيرها سطحياً أكثر من اللازم، تفسيراً مسطحاً، تفسيراً لا على التعين. والأبحاث عن كافكا تقدم مع الأسف فيضاً من الأمثلة الأكثر شذوذًا. وكان من شأن كافكا أن يكتفي بالابتسام ابتسامة مهذبة. في الواقع: إن الهراء الأكاديمي سدَّ المداخل المؤدية إلى آثار هذا الشاعر الفريد سدًّا كاملاً حتى اليوم... لكن مازال ثمة أمل!

وطفي: كل كتاب عن كافكا أقرؤه - بعد قراءتي كتبك - لا يمكنه أن يكون سوى كتاب «مسطح». السيد د. إشفايلر! بالنسبة إليك أنت مفسر كافكا. إنك المفسر الوحيد الذي يرسم صورة شاملة لكافكا. أعمالك سوف تبقى طيلة بقاء آثار كافكا.

إن أمنيتي الأكبر وأمي الأكبر هما أن يصبح هذا الحديث الصغير الخطير الأولى المتواضعة على طريق الاعتراف بتفاصيلك بصورة عامة، وبنهايتها. في تسلسل فصول رواية المحاكمة بصورة خاصة.

إن كافكا نفسه لم يصبح مشهوراً في ألمانيا إلا بعد أن اشتهر خارجها. وبــ يصبح مشهوراً في العالم إلا من خلال الترجمة.

(٥) أدونيس يكتب: معنى الشعر «يتجدد دائمًا بتجدد قارئه» (زمن الشعر، ص ١٦) و«الشعر الحقيقي لا يستنفذ» (ص ٧٢). والنص الشعري «يتجدد مع كل قارئ لا يتنهى، لا يستنفذ. هذا ما يميز الأعمال الشعرية الحلاقة» (كلام البنــيس، ص ٢٧). و«الجمال الشعري يتكتشف، باستمرار،.... مع كل قارئ، ثم وجديداً». (ص ٣٠).

اعتراف؟

بتاريخ ٢٦/١٠/٢٠٠٠ ، في اليوم التالي لإرسالي أسلتي بالبريد، كان إشفايلر قد خابر، وقال لزوجتي مالي:

«لقد فوجئت كل المفاجأة. جلست على الفور وقرأت كل شيء. وإذا فرغت من القراءة، غلبني البكاء... سعادةً. إن زوجك هو الإنسان الوحيد الذي فهمني بشكل صحيح، وليس هذا فحسب، وإنما هو الإنسان الوحيد الذي يفهم كافكا مثلما أفهمه. إنني في دهشة من التضليل العميق للسيد وطفي في موضوع كافكا، وإنني معجب بكل الإعجاب كيف ركب أسلته وصاغها. هذا لا يمثل له. إنني لا أقدر أن أجبر بمشاعر فياضة مثلما يفعل العرب؛ لكنني أريد أن أجيب بقول من أقوال هولدرلين، خطر عفوياً على بالي: (لقد كتبت الكثير. اليوم أفلحت في الأمر. أكثر من ذلك لا أقدر أن أحفر).»

سوف أشرع في العمل بغضبة كبيرة. إن السيد وطفي يدخل بأسئلته إلى أعماق روحي، وسوف أجبيه برغبة. ولا أعرف قط كيف يمكنني أن أثني عليه على نحو مكافئ.

لقد صاغ أسلته بشكل صحيح، دقيق؛ وبذل جهداً كبيراً، فجاءت الأسئلة حافلة.

أرجو أن تقولي لزوجك كل ما قلته. بوذى أن أحتضنه بين ذراعي بحرارة. ولو رجوتكم أن تفعلي هذا من أجلي ونيابةً عنِّي، فإنه من شأنك أن تسخقيه... فرحةً وبهجة.

ما من أحد اهتم بي مثل اهتمام زوجك. إنني مغتبط كل الاغتباط
بتعرفي عليه، زميلاً ندأ».

أبدت زوجتي تحفتها من أن تكون بعض أسئلتي أسئلة شخصية غير مناسبة (كانت تظن أنه لن يجيب على كل أسئلتي). فعارضها إشفايلر بشدة، وقال إنني لم أطرح عليه أي سؤال غير مناسب.

وبحدر ولطف زائدين سأل إشفايلر زوجتي عما إذا كانت تعرف القصة التي عليه أن «يحررها» (ص ٦٢٧). قالت زوجتي إن هذا الموضوع يتجاوز صلاحياتها، وإنها عندما طبعت الأسئلة، أرادت أن تسألي بنفسها هذا السؤال، لكنها لم تفعل.

وأيضاً بحدر ولطف زائدين عن اللزوم كلياً، سأل إشفايلر زوجتي فيما إذا كان بالإمكان أن يتحدث معي قليلاً جداً، إذ أنه لا يقدر أن يتضرر طويلاً حتى يعرف ماهي القصة التي أعندها.

اعتذر لي إشفايلر كل الاعتذار على إزعاجه لي في عملي، وقال لي إنه ذرف دموعاً لشدة فرحة بأسئلتي واهتمامي وفهمي. وكرر قول هولدرلين.

قلت له إن هذا يسعدني كل السعادة، لأنه يدل على صحة عملي.
سألني إشفايلر عن اسم القصة، فذكرتها له، وحدثته عن التفسيرين الموجودين لها في اللغة العربية^(٤).

وتحدىنا بضع دقائق. واتفقنا على البقاء على اتصال.

(٤) في اللقاء الثاني اتفقنا على ذكر القصة في «الحديث»، فأضفنا السطرين ٢ و ٣ على صفحة ٦٢٨.

بتاريخ ١٦/١١/٢٠٠٠ خابر إشفايلر وقال لزوجتي مايلي:
«السيدة وطفي! هنا أُبلغ عن الإنبار، كما يفعل زوجك دائمًا: اليوم،
الواقع في ١٦ تشرين الثاني، الساعة العاشرة والنصف أكملت العمل».
و فقط بعد هذه الجملة ألقى إشفايلر التحية. وتابع قائلاً إن العمل كان
جميلًا جدًا، قام به برغبة كبيرة. وإن زوجته كانت تأخذه من طاولة المكتب
بالقوة أحياناً، وترسله إلى الحديقة، لأنها كانت تخشى من أن يغرق في
العمل أكثر من اللازم. وقال إن هذا العمل كان عملاً جباراً، رائعاً، لأنه
كان يمسه كثيراً في أعماقه. وقال إنه يجب عليه أن يشي على السيد وطفي
مراها وتكراراً، وعلى تضليل الشامل وعلى تنظيمه لعمله تنظيماً كفؤاً. «إن
الموضوع لاميل له».

واتفق إشفايلر مع زوجتي أن يحضر إلينا بتاريخ ١١/٢١ الساعة
النinthة والنصف.

وحضر إشفايلر في الموعد المحدد. في حين كان في زياراته الأولى يبدو
هادئاً وأحياناً مكتباً بعض الشيء، وصل هذه المرة وهو في غاية النشاط
والحيوية. وعلى الفور بدأ الكلام عن الحديث، وقال إنه يجب أن يتلوه
 علينا. وراح يقرأ كل سؤال وجواب عليه، ويقدم أحياناً بعض الشروحات.
وقال إنه عمل طويلاً في صياغة الأجوبة، ولم يقدر أن يجيب في اليوم
الواحد على أكثر من سؤالين.
وفي هذا اللقاء أجرينا سوية بعض التعديلات الطفيفة على «الحديث».

وقال لنا إشفايلر إنه سيطبعه في كتيب، وسأل زوجتي فيما إذا كانت تريد طباعة الحديث له على الكمبيوتر، فوعدهته بذلك.
وكان واضحًا أن إشفايلر يشعر بالسعادة.

وحدثنا إشفايلر عن مقالة نشرها هارتموت بیندر قبل أيام، موضوعها فراشة من ورق كان كافكا قد صنعها لأخته. وقال إشفايلر: «عاش بیندر حياة هنية من ربع كتبه عن كافكا، رغم أنه لم يفهم كلمة من كافكا. إنه ينشر مقالة بحجم نصف صفحة في صحيفة يومية كبيرة عن فراشة من ورق. هذا ما لديه عن كافكا. إن الأمر لا يطاق. يبدو لي أن لا أحد غيرنا يفهم هذا، وإلا كيف يمكن لصحيفة كبيرة أن تنشر مثل هذا الهراء». وقد رجوت إشفايلر أن يرسل لي هذه المقالة.

وحين غادرنا إشفايلر، كان منفرج الأسarisir ومغبطاً كل الاغبطة، وراح، وهو يهبط الدرج، يدندن بأغنية مرحة.

وفي اليوم التالي أرسل لي إشفايلر مقالة بیندر (وكان فعلاً لاستحق القراءة). وأرفقها إشفايلر بالكلمات التالية:

أسرة وطفى العزيزة،
حتى ترون أية هموم حقيقة تشغل بال بلد الشعراء والمفكرين ! شكرأً
جزيلاً من أجل ساعات الصباح الرائعة التي قضيتها معكم.

بتاريخ ٢٠٠٠/١٢/٦ أرسلت زوجتي إلى إشفايلر نص الحديث
مطبوعاً على الكمبيوتر.
وعصر يوم ١٢/١٩ / خابر إشفايلر. وكانت ابنتي زكية على الخط.

وإذ كتت نائماً، رجاهما أن تفتح صندوق البريد في الحال، وتسالمني الملغف عندما أستيقظ. (يبدو أن إشفايلر لم يشاً أن يتواجد معنا في فرة التحضير لعيدي الميلاد ورأس السنة؛ كما يبدو أنه أراد أن يعيد نص الحديث بعد انتهاءه فوراً من مراجعته وإجراء بعض التصححات المطبعية القليلة). وكان الملغف يحوي نص الحديث، مرفقاً بالرسالة التالية:

عزيزي السيد وطفي المحترم،

لي شخصياً أرجو صفحة إضافية. إنك تعرف الآن كل شيء عنني.
لكن من هو الرجل الذي يجري معي مثل حديث الضائعين هذا؟

١ - من هو ابراهيم وطفي؟

٢ - ماذا جمع بينه وبين كافكا؟

٣ - ماذا فعل حتى الآن من أجل أن يفهم عالم كافكا الفyi؟

إنك، طبعاً، تمثل حظاً سعيداً بالنسبة إلي. أخيراً وجد من يملأ الشروط الالزمة كي يتحسس دقائق شعر كافكا ويتمتع بهذا الشعر. كم قرأ حتى المختصون المزعومون المحاكمه بشكل سطحي، حين لاتزدوج الناقضات الواضحة لدى تسلسل الفصول السابق أحداً منهم! في الظروف الحاضرة لا يمكن لأي شخص أن يكون، حتى الآن، قد فهم بنية معنى الرواية. لكن الأسوأ من ذلك، بالنسبة إلي شخصياً، هو أن هذا الوضع لا يؤثر في نفس أي مخصص من المختصين المزعومين أدنى تأثير. لكن يوجد أحياناً استثناءات، استثناءات قرابة ثقافية نادرة: إنك أنت مثل هذا الاستثناء، يا عزيزي السيد وطفي.

كريستيان إشفايلر

في محبة شاكرا

كتبت، قبل فترة، قد تقدمت إلى هيئة إنترناتسيونس من أجل دعم ترجمتي لرواية كافكا وكتاب إشفايلر عنها. وقد طلبت مني هذه الهيئة تقديم، أولاً، تصريح عن سبب اختيار هذين الكتابين، وثانياً موافقة صاحب حقوق طبع الكتاب الثاني (حقوق طبع الكتاب الأول انتهت في عام ١٩٩٤).^(*)

وقد كتبت زوجتي التصريح التالي:

يعتبر فرانز كافكا واحداً من أهم شعراء اللغة الألمانية في القرن العشرين. فيألمانيا يوجد نحو ٦٠ ألف دراسة عن كافكا، وسوف يبقى في المستقبل ذا أهمية فائقة ليس فقط بالنسبة إلى علم الأدب. في روايته «المحاكمة» يصف كافكا العالم الذهني، الفلسفه التي تشكل وعاء لكل الحضارات. في تفسير إشفايلر في كتابه «رسالة كافكا غير المدركة/ المحاكمة الصحيحة» لا يجري إضاءة خلفية صور كافكا الذهنية وحسب، وإنما يُقدم أيضاً، ولأول مرة، ترتيب فصوص يتبعأخذ لمحه عن عالم أفكار الشاعر الألماني الكبير. إن رواية «المحاكمة» لكافكا، التي لم تُفهم إلا بتفسير إشفايلر لها، تمثل تحدياً بالنسبة إلى القارئ العربي أيضاً، يدفعه إلى التأمل في مسألة معنى ومهمة الوجود البشري. إن تقديم هذه الإمكانيه لنحو ٢٥٠ مليون إنسان يتحدثون العربية نراه فرصة كبيرة.

رغم إمكانية وجود عدد كبير من القراء، فإنه لا يوجد كتاب معقول من أو عن كافكا. لقد ترجمت عدة كتب من كتبه إلى العربية. منذ عام ١٩٥٧ يطبع ويوزع كتاب «المسخ» المترجم من الانكليزية إلى العربية. لكن

(*) Inter Nations هيئه رسمية ألمانية تدعم مالياً، كل عام، ترجمات نحو مئتي كتاب من اللغة الألمانية إلى مختلف اللغات، وذلك بأن تمنع المترجم جزءاً من أجر ترجمته. مؤخراً ضمت هذه الهيئة إلى معهد غوته، المكلف بمهمة نشر اللغة والثقافة الألمانيتين في العالم.

الترجمة الجديدة من قبل السيد وطفي أظهرت عدة مئات من الأخطاء في الترجمة القديمة. ومن رواية «المحاكمة» يوجد ترجمة شوّهت هذا الأثر الفني العظيم واختصرته إلى النصف.

على عكس جميع المתרגمين السابقين شغل السيد وطفي نفسه، منذ دراسته فرع الأدب الألماني في ألمانيا، بكافكا طوال عقود؛ ومن خلال أحاديث عديدة أجراها مؤخراً مع مفسر كافكا، د. كريستيان إشفايلر، أنسأ علاقة أكثر عمقاً مع الشاعر ولغته الرمزية وعالمه الذهني. إننا نقوم بهذه الحقيقة أيضاً كفرصة كبيرة.

إن ضرورة التشجيع المطلوب تتبع عن مكافأة الترجمة وقلة عدد النسخ نسبياً، التي تطبع في البداية. إن الكتب الجيدة ما زالت، في البلاد العربية أيضاً، لاتباع مع الأسف إلا على المدى البعيد وبأسعار قليلة. وبدون تشجيع في مكافأة الترجمة لن يمكن نشر «المحاكمة».

إن عمل حياة السيد وطفي كمترجم يعطيكم أيضاً فرصة لاتقدّر بشمن لتقديم كافكا إلى القراء العرب، ووضع ما أراد شاعر ألماني عظيم أن يقوله للبشرية للنقاش في البلاد العربية أيضاً؛ فوق ذلك تقديم تفسير كعون لهم شامل. طويلاً يتضرر القراء العرب الإطلاع على آثار شعراء ألمانيا العظام مثل غوته وهولدرلين... .

كانت مخطوطة «المحاكمة» المؤلفة من ١٦١ ورقة جديرة بـ ٣,٥ مليون مارك دفعتها حكومتكم ثمناً لها. تحت هذا الضوء أيضاً نطلب منكم معونة حتى نتمكن أن نقدم إلى القارئ العربي المتن هذا الأثر الفني العظيم من الثقافة الألمانية.

* * *

بتاريخ ٢٠٠١/١١ أرسلت إلى إشفايلر «محاولة» صغيرة رداً على أسئلته في ٢٠٠٠/١٢/١٩ . وأرفقت ترجمة مقالة نشرت في صحيفة «العرب» (لندن) بتاريخ ١٩٩٩/٧/٢٩ ، تحت عنوان: «مسكون بكافكا».

وفي المغلف نفسه أرسلت الرسالة التالية:

تقدمت إلى هيئة إنترناشيونس في بون بطلب من أجل دعم ترجمتي. وقد طلب مني تقديم موافقة المؤلف (أو دار النشر) على الترجمة. لذلك أرجوك كتابة تصريح خططي. وربما يكون من الأفضل إذا وجهت موافقتك (مع الكلمة توصية!) مباشرة إلى العنوان المذكور.
شكراً جزيلاً لمساعدتك، وتحيات ودية.

صباح اليوم التالي خابر إشفايلر وقال إنه من الجميل أن يخابر المرء فور استلامه رسالة، ويعلم عن وصولها. وقال إنه خابر لتوه دار نشره، وإنه سيرسل طبعاً موافقته وموافقة دار النشر على ترجمة كتابه، وإنه سيعيد قراءة مرفقات الرسائلين بهدوء، وسيتصل بنا قريباً.

وبعد ثلاثة أيام اتصل وقال إنه من، ولم يشأ أن يزعج دون موعد سابق، ووضع مغلفاً في صندوق البريد.

كان المغلف يحوي بروفة الحديث مع صفحة جديدة منقحة من قبله، بصورة عن رسالة موجهة منه إلى هيئة إنترناشيونس، جاء فيها:

السيدة هلفين المختومة،

طلب مني السيد ابراهيم وطفي موافقتي على ترجمته لكتبي الصادرة لدى دار نشر Bouvier في بون. بعد تحدثي مع دار النشر أعلمك أننا نوافق على ذلك دون تردد.

إنه لأمر عظيم أن تترجم آثار كافكا الفريدة من نوعها إلى اللغة العربية. والسيد إبراهيم وطفي هو مختص فوق العادة في هذه الآثار وضليع بها. وفي أحاديث عديدة متعمقة أظهر لي فهماً شاملًا لآثار كافكا، وترك في نفسي خيرًا. أنا نفسي جهدت أكثر من أربعين عاماً من أجل هذا الفهم، وإنني لسعيد أنني وجدت في السيد وطفي شريكًا ندًا. ومن هنا، فإنني على يقين أن الشعر الألماني، وعلى الأخص آثار كافكا ذات الشهرة العالمية، لا يقدر أن يجد سفيراً أكثر كفاءة وجدارة. إذا وجدت إمكانية للدعم، فإن السيد وطفي يستحقه إلى غير حد.

مع أملٍ بدعمكم له أحييكم بحرارة. د. كريستيان إشفايلر^(٤).

في اليوم التالي طبعت زوجتي الصفحة الجديدة، وأرسلتها مع البروفة والقرص المدمج.

يوم ٢٥/١/٢٠٠١ خابر إشفايلر زوجتي، وهو في مطبعة، كي يوضع المتضمن معها بعض الأسئلة التقنية الصغيرة وطلب إشفايلر الحضور فوراً من أجل إجراء بعض التعديلات الطفيفة على الديسك. وفي حين عملت زوجتي على الكمبيوتر، جلست مع إشفايلر نحو نصف ساعة أو أكثر. وقال لي إنه سيحضر في المرة القادمة عدة نسخ من كتابه «رسالة كافكا غير المسركة». وسألني فيما إذا كنت أرغب في أن أرسل نسخة منها إلى مارتن فالرر. قلت له إن هذه الفكرة كانت قد خطرت لي، وإنه يمكنني تحقيقها قريباً، إذ أنني منذ أشهر أريد أن أرسل إلى فالرر نسخة من كتابي

(٤) في ما بعد رفضت هيئة انترناشيونس دعم الترجمة، وذلك دون ذكر السبب.

بالعربية «ثلاثة كتاب من الألمانية»، والذي هو في معظمه عن فالزر.
صباح يوم ٢٠٠١/٦ خابر إشفايلر وسائل فيما إذا كان يستطيع
المرور علينا وتسلينا نسخ الكتاب، حيث أنه قادم مع زوجته إلى بون،
ولما يكن إدخال النسخ إلى صندوق البريد.

في الساعة الثانية عشرة حضر إشفايلر، وسلمي أربع نسخ من كتابه،
وقال لي إنني حر التصرف بها.

هبطت زوجتي معه، وسلمت على زوجته في السيارة. وقال إشفايلر
إنه يأمل أن نحضر إليهما قريباً.

بتاريخ ٢٠٠١/٣ زارنا إشفايلر، وأمضى لدينا طوال ساعات
الصباح. وتحدثنا خاصة عن الكاتب الذي يضم حديشا، والذي تأخرت
طبعاته. وحدثنا إشفايلر عن رد فعل زوجته. كان قد «عدّها» بكافكا طوال
أربعين عاماً، حتى أصبحت لاتريد سماع حرف ك. وفي الفترة الأخيرة لم
تبذل اهتماماً بحديشا رغم رجائه لها مرات عديدة. فوجه لها انتقادات
وأكرهها بمعنى الكلمة. بعد ذلك فقط قرأت الحديث خفية، واعتذر له
كثيراً، وقالت له إنها الآن فقط فهمت كل العلاقة بكافكا فهماً صحيحاً،
وإنها تشاركه الحماس عن الأحاديث. وأبرز لنا إشفايلر مرة أخرى أن
الأسئلة أظهرت له نفسه العلاقة من زاوية نظر جديدة، وأنه لدى كل سؤال
تقريباً كان يهبط إلى أعماق نفسه، وإنني، بهذه الأسئلة، إنما رسمت سيرة
حياته مع كافكا، وإنه لم يفهم هذه السيرة فهماً صحيحاً إلا من خلال
أسئلتي.

ومن الأمور القليلة الأخرى التي ذكرها إشفايلر دون أن يكون لها

علاقة مباشرة بكافكا هي أن زوجته ابتعات حتى الآن نحو عشرين نسخة من كتاب «النبي» لجبران خليل، وأهداها في مناسبات متعددة. (لكنه لم يذكر فيما إذا كان قد قرأ الكتاب الذي كانت زوجتي قد أهداه له في عيد الميلاد).

في الختام عبر إشفايلر من جديد عن سروره الفائق لدى كل زيارة يقوم بها لنا ولدى كل حديث يجريه معنا.

وفي مثل الزيارات الأخيرة، راح إشفايلر، وهو يهبط الدرج، يدنن بأغنية مرحة.

صباح يوم ٢٠٠١/٤/٣ خابر إشفايلر، وقال إنه استلم نسخ الكتيب، ويحب تسلينا بضع نسخ على الفور، وإننا أول من يستلمها.

حضر وهو يحمل علبة كرتون تحوي أكثر منأربعين نسخة من الكتيب. على الغلاف والصفحة الأولى:

رسالة كافكا غير المدركة

- حديث -

ابراهيم وطفي،

المختص في كافكا والمنترجم العربي لكافكا،

سؤال

المفسر الألماني لكافكا

د.كريستيان إشفايلر

يقع الكتيب في ٢٥ صفحة، قياس ٢١٠٨٢١ سم. الغلاف والورق والطباعة والإخراج ذات مستوى جيد. لون الغلاف ليس واحداً في جميع النسخ، وإنما ثلاثة أنواع: أحمر وأخضر ورمادي.

وعلى الصفحة الثانية جاءت سيرة المترجم مع كافكا حواباً على سؤال المفسر، ومنقحة من قبل هذا:

ابراهيم وطفي هو المترجم العربي لآثار كافكا. إنه يكتب: في سن العشرين قرأت عام ١٩٥٧ الانساح في اللغة العربية. كانت هذه القراءة مثل لحمة على الرأس، كما يجب على الكتاب أن يكون حسب رأي كافكا. استشعرت أهمية هذا الأثر الأدبي، وأهمية كافكا، الذي من شأنه أن يلعب دوراً في حياتي. في عام ١٩٦٣ انتقلت من سوريا إلى ألمانيا، حيث أعيش مذاك دون انقطاع. في فرانكفورت درست فروع الأدب الألماني والأدب العربي والسياسة. أثناء دراستي الجامعية ركزت على كافكا، وبرشت، وبوشنر، وهولدرلين، وبيترفایس. أول دراسة كتبها كانت عن رواية المحاكمة لكافكا. ترجمت إلى العربية ونشرت اثنى عشر كتاباً ومقالات عديدة. منذ خمسة وثلاثين عاماً أقرأ كافكا وعن كافكا، وأنترجمه منذ عام ١٩٨٨ . في عام ١٩٩٤ نشرت كتابي الأول عن كافكا: «الحكم / مع تفسيراتها». في عام ١٩٩٥ تبع الكتاب الثاني: «رسالة إلى الوالد / مع تفسيراتها». المجلد الأول من «الآثار الكاملة» لكافكا صدر في عام ١٩٩٩ . وهو يضم الكتابين السابقين وكتابين جديدين: «الوقاد / مع تفسيراتها» و«الانساح / مع تفسيراتها». وقد كتب ناقد عربي أن المترجم «مسكون بكافكا».

المجلد الثاني من «الآثار الكاملة» في اللغة العربية يصدر قريباً وهو يضم:

- ١ - رواية كافكا المحاكمة، تماماً طبقاً لنظرية إشفايلر في تسلسل لفصول، دون أي تعديل. (هذه المحاكمة العربية سوف تكون أول محاكمة لكافكا في العالم بتسلسل لفصول هذا!).
- ٢ - كتاب إشفايلر «رسالة كافكا غير المدركة/ المحاكمة الصحيحة»، بصفتها الدراسة الأكثر ترابطًا وإنقاضاً عن المحاكمة.
- ٣ - أحاديث ومراسلات مع الذي أدرك أخيراً رسالة كافكا.

في تلك ليلة لم يجلس إشفايلر، وقال إنه سيحضر قريباً كي نتحدث عن الكتيب.

وكان واضحًا أن هذا الحديث - الكتيب إنما يسعد إشفايلر كل السعادة.

بتاريخ ٢٠٠١/٤/٢١ أرسلت الرسالة التالية:

عزيزي السيد د. إشفايلر المحترم.

ترجمت «الحديث» كاملاً، وسوف أرسله قريباً إلى المطبعة. إذا وافقت، أحب إضافة أربع مواضع جديدة إلى «الحديث» في العربية. وسوف أكون شاكراً من أجل أي رد فعل أو تعديل أو اقتراح من قبلك.

تحيات قلبية.

(وقد أرفقت الموضع الجديدة، التي بلغ حجمها صفحة كاملة).

في اليوم التالي خابرني إشفايلر مرتين، وخاربته مرة. وتناقشنا مطولاً حول الموضع الجديدة. وقال لي إشفايلر إنه موافق على الموضع الأربعة، وإنه سوف يكتب ردوداً عليها. وفي المخابرة الثانية منه تلا عليّ جوابين من أجوبته على موضوعين.

وقال لي إشفايلر إن الفترة التي قضتها في كتابة الأجوبة على أسئلتي في «الحديث» كانت أجمل فترة من الفترات الطويلة التي أمضتها من حياته في أبحاثه عن Kafka. وقال إنه في منتهى السعادة.

بتاريخ ٢٠٠١/٥/٣ خابرني إشفايلر، وقال لي إنه انتهى من كتابة الأجوبة الجديدة منذ أيام، وإنه لم يشأ أن يرسلها بالبريد، ولم يستطع الحضور إلينا، لأنه كان لديهم ضيوف كثيرون أقاموا لديهم عدة أيام. وسألني فيما إذا كان يستطيع الحضور ضحى يوم ٨/٥/. فأبديت موافقتي وسروري. ولم نحدد ساعة الموعد، إذ باتت مألفة: التاسعة والنصف صباحاً.

وحضر إشفايلر، ومكث لدينا طوال ثلاث ساعات. وقد تلى علينا أجوبته على أسئلتي الجديدة الأربعة. وتناقشنا فيها. وأعطانا النص.

وحذثنا إشفايلر عن مشكلته مع هارتموت بيندر. كان قد كتب له رسالة حول نظريته في تسلسل فضول المحاكمة، لكنه لم يتلق ردّاً منه.

وحدثنا أن بيندر يملك ذاكرة قوية، ولديه عدد كبير من المساعدين^(*)، وأنه انكبت على كافكا طوال عقود. لكن كون بيندر «فارغاً» في الحقيقة، فإنه أخطأ الاتجاه، ولم يعد قادراً على التراجع عنه.

قدمت إشفايلر نسخاً مصورة عما ورد عن كتبه وعن ترجماتي في الطبعة الجديدة من بيليوغرافيا كافكا، وحدثه عن مراسلاتي مع المشرفة على هذه البيليوغرافيا، ماريا كابوتوا - ماير، رئيسة فرع الأدب الألماني في جامعة تبل في مدينة فيلادلفيا الأمريكية.

وأعطانا إشفايلر عنوان الناقد مارسيل رايش - رنيكه، واقتراحًا بنص نرسله إليه مع نسخة من كتاب إشفايلر «رسالة كافكا غير المدركة» ونسخة من «الحديث».

كان إشفايلر، ومازال، على يقين - وأنا أشار له هذا اليقين - أن العالم الأدبي سوف يأخذ، يوماً ما، بنظرية إشفايلر حول تسلسل فصول رواية المحاكمة لكافكا، وبتفسير إشفايلر لهذا الأثر الفني العظيم.

وأكثر من مرة قال لي إشفايلر إن أعز أمنية لديه هي أن يعيش هذا الحدث. والآن قال لي إن ترجمتي لكتابه وإجرائي لهذا الحديث معه مما الخطوة الأولى على طريق تحقيق أمنيته.

قلت: «صحيح أنك بعد أشهر تبلغ السبعين من عمرك، لكنك تتمتع

(*) هارتموت بيندر هو أستاذ الأدب الألماني في جامعة لودفيغسبورغ. ومن المألف أن يكلف الأستاذ طلابه بوضع أبحاث معينة، يستخلص منها ما يشاء، ويستخدمها في كتاباته.

بصحة جيدة، ومظهرك يدل على أنك ستعيش طويلاً. إنك سوف تعيش حدث الاعتراف بنظرتك وتفسيرك».

وقلت: «عندما يطبع هذا المجلد الثاني من «الآثار الكاملة» لكافكا، وتصلني نسخ منه، سوف أرسل إلى كل من الدارسين المذكورين فيه، والباقين على قيد الحياة، طرداً بريدياً يحوي: نسخة من المجلد + ترجمة الغلافين الأول والأخير + ترجمة الفهرس + نسخة من حديثنا، كما سأرسل مثل ذلك إلى بعض وسائل الإعلام».

وتابعت قائلاً: «لقد بدأت بمارتن فالزر. يوم أمس أرسلت له نسخة من كتابك (رسالة كافكا غير المدركة)، ونسخة من حديثنا، ورسالة طويلة».

نظر إشفايير إلى نظرة مفعمة بالامتنان، والدموع تکاد تطفر من عينيه... فرحاً.

وقال: «بعد أيام انطلق مع زوجتي في رحلة بحرية من هامبورج إلى برسبورغ. في الليالي سفر، وفي النهارات زيارات لمعالم مدن المراقي. وفي تموز سنمichi إجازتنا السنوية في جنوب فرنسا، على شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

بعد ذلك سنلتقي... باستمرار ودائماً.

ابراهيم وطفني

يون/أيار ٢٠٠١

كلمة ختامية

استخدم النقاد والباحثون جميع مناهج تفسير الآداب في تفسير آثار Kafka، وحاولوا تطبيق مادة هذه المنهاج أو رسالتها على هذه الآثار. غير أنهم اختلفوا أشد الاختلاف في النتائج التي توصلوا إليها. ويمكن تصنيف نتائج تفسيراتهم في ثلاثة:

- ١ - لا جدوى من البحث عن مضامين لآثار Kafka. وعلى المفسر أن يقتصر على تحليل بنيتها الشكلية ولغتها وأسلوبها. وهذه النتيجة تتضمن الادعاء بأن Kafka لا يقول شيئاً عن العالم الذي نعيش فيه. وأصحاب هذا النهج الشكلي يدعون عدم وجود تطور في أحداث رواية المحاكمة؛ ويررون أن فصولها هي «تنويات لشكل واحد خالٍ من المعنى».
- ٢ - صحيح أن نصوص Kafka تحتاج إلى تفسير، لكن أفضل تفسير لا يترك وراءه شيئاً سوى ورقة بيضاء لا تحوي سوى اسم المفسر. فعلى سبيل المثال كتب أحد الباحثين أن Kafka يريد، في مجموع آثاره، «أن يقول إن ما لا يقال، لا يقال». وهذه النتيجة تتضمن الادعاء بأن آثار Kafka إنما تعرض عبث الوجود بعامة، وعث كل أشكال الوجود بخاصة.
- ٣ - لا يوجد تفسير أفضل من تفسير، وإنما مجرد تفسيرات قابلة

للنقض، وصحتها غير قابلة للإثبات. وهذه النتيجة تتضمن الادعاء بأن آثار كافكا إنما تعرض تعدد استكشاف مغاليل الوجود.

وقد أفاد أصحاب الإمكانية الثانية من النتائج التي توصل إليها أصحاب الإمكانية الأولى. وأفاد الدارسون الذين استخدمو الإمكانية الثالثة من نتائج المدرستين الأوليين. فالدراسات التي وضعت عن الشكل في آثار كافكا خلقت الشرط اللازم لفهم هذه الآثار. والدراسات التي وضعت محاولةً لإثبات عبث الوجود أدت إلى إدراك أن كافكا ليس من أتباع مبدأ العدمية، وإنما من أتباع مبدأ الشك؛ وأدت إلى القول بأن الجهل والشك لا يبعان من ماهية العالم، وإنما من ماهية الإنسان. إن عالم كافكا ليس عالماً عبيداً، لكن عقل الإنسان لا يكفي لإدراك هذا العالم. وما من تفسير لآثار كافكا هو تفسير كامل. لقد وضع كافكا آثاره على نحو تعكس فيه علاقة الإنسان بالعالم. وكما يضع المفكر ادعاءات حول الكل الهائل للوجود، هذه الادعاءات التي هي قائمة حقاً على تجربة، لكن يمكن نقضها بتجربة جديدة؛ هكذا لا يصل قارئ آثار كافكا دائماً إلا إلى آراء جزئية، وهذه تتطلب تكملة بأن تناقض. أو: إن القارئ يتصرف إزاء آثار كافكا مثلاً يتصرف الإنسان إزاء الكون.

ثم عرفت الدراسات عن كافكا مرحلة جديدة. فقد أدرك باحث أن في آثار كافكا، ولاسيما في المحاكمة، ثمة مواجهة بين مستويين من واقع العالم: «العادي والمتناقض». وأدرك باحث آخر أن ذاتية كافكا الشديدة إنما تحمل معنى عالماً. وانطلق ثالث من «مشكلية داخلية» تتحاطى نفسها وتتصبّع ألموزجاً لنفسية إنسانية عامة، وأدرك أن هذا «العالم الداخلي» إنما يعكس عالماً خارجياً، أثرته المشكلية الداخلية، التي يعود منبعها، من ناحية أخرى، إلى العلاقة الجدلية مع العالم الخارجي. يوجد، إذ، عالم داخلي

يقوم برد فعل على العالم الخارجي، يشكله ذاتياً، ويصوّره من جديد عالماً فنياً. ثمة، إذًا، عالم داخلي خالص يأخذ شكل ظواهر العالم الخارجي التجريبي. نزاعات وحالات نفسية خالصة تستتر بستار أحداث خارجية. إن الحقيقة الواقعة هي، في آثار كافكا، تعبير خالص عن النفسي، كسام للباطني، وليس رمزاً. بهذا التحليل الصائب لعالم صور كافكا يجري تبيان البنية الواقعية المعقدة لشعر كافكا وسبر غورها. وهنا ينتفي ما يبدو تناقضاً أن يكون تناقضاً.

* * *

يعتبر كافكا «أيقونة» الحداثة الأدبية في الآداب العالمية. ويفقق معظم الباحثين في آثاره على أن رواية المحكمة هي واحدة من أهم الآثار الأدبية العظيمة في القرن العشرين، وأنها الرواية الألمانية الأكثر تأثيراً في الرواية والقصة في العالم (وتعتبر الجملة الأولى فيها أشهر بداية لرواية في القرن العشرين).

في اللغة الألمانية وحدها يوجد أكثر من ثلاثة وخمسين كتاباً مستقلاً وبضعة آلاف من المقالات عن هذه الرواية. وتشكل هذه الدراسات مكتبة من محاولات التفسير، وهذه المكتبة هي في تزايد مستمر. وقد تراوحت التفسيرات بين أكثر التناقضات. فهناك، على سبيل المثال، تفسير يقول إن المحكمة إنما تمثل «الإلهوية»، وتفسير آخر يقول إن المحكمة إنما تمثل العالم «الشرير». وثالث يقول (وهذا أصح) إنها تمثل الحياة بعامة.

وما من دراسة من هذه الدراسات تقدم تفسيراً كاملاً مكملاً، مقنعاً، لرواية المحكمة. كل دراسة تقدم تفسيراً لجانب واحد أو بعض جوانب في الرواية، دون أن تتمكن من تقديم تفسير كوحدة وكل. ومن هنا قيل بأن

المحاكمة إنما هي «لغز الألغاز». وهكذا فعلاً يحسها القارئ (توماس مان، الذي كتب نحو مئة ألف صفحة، وبياع من كتبه ملايين النسخ كان عام، قال إن عقله ليس معقداً بشكل يكفي لفهم رواية المحاكمة).

لكن هذا اللغز تم حلـه، وذلك من قبل اثنين من أهم المختصين في دراسة آثار كافكا، هما فيلهلم إمريش وكريستيان إشفايلر. وقد انطلق إمريش من أن عظمـة كافكا الشعرية إنما تكمن في الأقوال المضمرة في صورـه الشعرية، وكتب: «إن السمة المميزة لصورـة كافكا الشعرية تكمن في أنها تطابـق الحقيقة الباطـنية المحبـوـدة، وليس الحقيقة الظـاهـرـية المكتـشـوفـة. إن كافـكا يحوـلـ، على الفورـ، هذهـ الحقيقةـ الباطـنيةـ إلىـ صورةـ مجـسـمةـ تـظـهـرـ، نـفـسـهـاـ، كـوـاقـعـ تـجـريـيـ، وـمـنـ ثـمـ تـصـبـ القـارـئـ طـبـعاـ مـثـلـ ضـرـبةـ مـطـرـقةـ لـاتـرـكـهـ وـلـاتـسـمـحـ لـهـ بـهـرـبـ».

أتصور الإبداع «عملية كيميائية» تجتمع فيها مواد وعناصر عديدة من تجارب الشاعر اليومية وانفعالاته وأفكاره وأحساسه وتخيلاته، وتفاعلـ مع بعضـهاـ بـعـضـاـ فيـ رـأـسـهـ، ويـتـبـعـ عنـهـ صـورـةـ جـدـيـدةـ لمـ تـوـجـدـ سـابـقاـ فيـ الصـبـيـعـةـ، وـلـيـسـ لـهـ مـقـابـلـ رـمـيـ فيـ الـحـيـاةـ الـيـوـمـيـةـ الـمـأـلـوـفـةـ، الـتـيـ نـسـمـيـهـ «ـوـاقـعـيـةـ». أيـ أنـ ماـ مـنـ شـخـصـيـةـ فـيـ الـأـثـرـ الـفـنـيـ «ـتـرـمـ»ـ إـلـىـ شـخـصـيـةـ «ـوـاقـعـيـةـ»ـ، وـإـنـماـ هـيـ مـخـلـوقـ قـائـمـ بـذـاتـهـ لـذـاتـهـ. وـالـأـثـرـ الـفـنـيـ يـصـبـحـ كـائـنـاـ حـيـاـ.

رواية المحاكمة هي سلسلـةـ منـ الصـورـ الشـعـرـيـةـ. كلـ مشـهـدـ فيهاـ هو صـورـةـ شـعـرـيـةـ. وـتـفـسـيرـاتـ كـلـ صـورـةـ لـاتـلـغـيـ وـلـاتـاقـضـ بـعـضـهاـ بـعـضـاـ، وـإـنـماـ تـضـيـفـ إـلـىـ بـعـضـهاـ بـعـضـاـ. وـهـكـذـاـ تـصـبـ كـلـ التـفـسـيرـاتـ صـحـيـحةـ... (أـوـ خـاطـئـةـ). إـذـ يـجـوـزـ لـكـلـ قـارـئـ أـنـ يـحـسـ وـيـتـأـثـرـ وـ«ـيـفـهـمـ»ـ ماـ يـشـاءـ وـكـمـاـ تـسـمـحـ لـهـ حـالـتـهـ الـنـفـسـيـةـ.

أما إـشـفـاـيـلـرـ فقدـ فـسـرـ مـعـظـمـ الصـورـ الشـعـرـيـةـ المـفـرـدةـ وـحـوـلـهـاـ إـلـىـ سـيـاقـ

معنى كلي مترابط. وبناء على هذا المعنى الكلي المتكامل قام إشفايلر بترتيب فصول رواية المحاكمة ترتيباً جديداً كلياً. وبهذا جاء كتابه عن المحاكمة «رسالة Kafka غير المدركة» بصفته الدراسة الأكثر ترابطاً وإيقاعاً. وهو الكتاب الوحيد الذي يُعرفه الذي يقدم تفسيراً شاملأً لرواية المحاكمة. لذا فقد ترجمته هنا كاملاً، وأخذت بنظرية إشفايلر عن ترتيب فصول الرواية.

ترجمت رواية المحاكمة إلى ثلاثين لغة، لكنها لم تترجم إلى أيّة لغة بهذا التسلسل للفصول كما جاء في هذه الترجمة العربية.

وأكثر من ذلك: في اللغة الألمانية نفسها لا يوجد أي طبعة للرواية بهذا التسلسل للفصول. هناك واحد وعشرون طبعة بتسلسل فصول قديم... خطاطي.

وبكلمة أخرى: إن قارئ هذه الترجمة العربية هو القارئ الوحيد في العالم كله، الذي يملك الآن طبعة من رواية المحاكمة ربّت فصولها حسب تسلسل صحيح (لديّ قناعة ثابتة بأنه سوف يؤخذ بهذا التسلسل... في ألمانيا وفي العالم).

وبين يديّ القارئ العربي هنا، فوق ذلك، عشرون مقالة ودراسة عن المحاكمة. وهذا أمر غير متواافق، في مجلد واحد مع نص الرواية، لأي قارئ آخر.

لكن على القارئ هنا، أن يقرأ بطريقة تقويم وفهم جديدة. عليه، أولاً، أن «يقرأ نفسه»: ماذا قرأ حتى الآن، ماذا قرأ في البيت؟ في المدرسة؟ في الجامعة؟ ماذا قرأ بحافظ ما يسمى وسائل إعلام؟ كم تكون لديه حس بالشعر العظيم؟ ويمكن للكاتب العربي و«الناقد» أن يتتسائل: ماذا قرأ من الآثار الأدبية في العالم؟ وما هي درجات تشوه ترجمات هذه الآثار؟ وماذا فهم من إحدى الترجمات الأخرى لرواية المحاكمة؟

وكما أن الكاتب يعيش كتابته، وإنما من غير الممكن أن يكتب أثراً حالداً، وكما أن المترجم يعيش عمله، وإنما فإنه من الحال عليه أن يقدم عملاً غير مشوه؛ كذلك على القارئ أن يعيش القراءة. عليه أن يحس أنه لا يقدر على الحياة بدون قراءة، وأن يحس أن القراءة ضرورة حياته، وإنما تكون قارئاً حقيقياً، قارئاً يتقاسم مع المبدع مهمة إنتاج الأثر وتكريسه.

وهناك أيضاً قدرة القارئ العقلية على تلقي الأثر الفني.

ولا يجب على القارئ بالضرورة، أن يبحث بسرعة عن الأفكار والآراء والمعاني الجاهزة في الأثر الفني، بل عليه أن يحاول إيجاد متعة الاندھاش والتأنیل والاكتشاف وفك رموز الأثر الفني وصوره.

إن صور كافكا هي بوابات إلى مضمون نصه. وخلفيتها المستترة تتطلب الإضاءة والإدراك.

إن صباح اعتقال ك هو استيقاظه على بداية جديدة. ومن خلال ذلك يستدعي ك بنفسه ما سوف يقلب حياته. وهذا الأمر يريد أن يخرج من ذاته، كما يريد أن يأتي إليه من الخارج.

إن المحكمة تدهامه، ولاتركه بعد الآن ينجو من فخها، وذلك طبقاً لكلمة كافكا: **ذهب فقص** يبحث عن عصفور.

المحكمة سيئة، ظالمة، قذرة، غامضة... لتصبح بدلاً عن كلمة «المحكمة» كلمة «الحياة»!

الحياة كمحكمة... محكمة تعاقل الإنسان، إذ يولد. وتحكم عليه بالموت دون ذنب. والبراءة من هذا الحكم مستحيلة. الإنسان يبحث عن عون في حياته: في الحب، في مذهب ما من المذاهب العامة (التي يمثلها المحامي هولد)، في الفن...

أمام القانون؟... قانون الحياة؟... أي سر الحياة؟

إن الأثر الفني يحاور النفس البشرية وأعماقها، وبهذا يصبح أثراً حالداً. يكون قضية إنسانية ذات عمق وتأثير طويل الأمد. يكون رسالة إنسانية جادة توجه إلى كل من يريد من البشر تلقّيها.

والتفسيرات الأكاديمية لاتقدم لنا أسرار الأثر الفني على طبق. بل إن سر الأثر الفني يمكن في التأثير الذي يحدثه في نفس قارئه؛ وذلك دون أن يجد هذا القارئ، بالضرورة، «معنى» الأثر الفني. معنى محدداً، مباشراً، يومياً.

إن قراءة الأثر الفني، وقراءة تفسيراته، هي مغامرة فكرية عميقه. أو هكذا يجب أن تكون. مغامرة يمكن أن يحسها القارئ المبدع عملية إبداع جديدة، ليست بعيدة جداً، من ناحية المبدأ، عن عملية إبداع الأثر الفني نفسه.

وكل قارئ «يفهم» من النص ما يقدر على فهمه، طبقاً لطبيعته ومعرفته وتجربته. لكل قارئ أن يعكس النص على نفسه، ويعكس نفسه على النص. ومن هنا يحدث التجاوب بين النص وقارئه، وتتبع متعة القراءة^(*). ومن هنا تنشأ «تفسيرات» متعددة للنص^(**). وهذا صواب. إن النص ذا البعد الواحد، «المفهوم» من القراءة الأولى، الذي يمكن حصره في معنى واحد محدد، هو نص غير شعرى، يظل تأثيره آنياً، ويزول مع زوال

(*) أدونيس يتحدث عن «التوهج الذي يحدثه الشعر في أثناء اللقاء بين النص الشعري ووعي القارئ» (النظام والكلام، ص ٧٥).

(**) يكتب أدونيس: «النص الشعري متعدد المعانى، بالضرورة». وإن للنص دلالات بعدد قرائه».

الحالة الراهنة التي يعالجها، في حين أن النص الشعري حقاً هو الذي يصبح نصاً خالداً، تقرؤه أجيال كثيرة على مدى عصور.

ليس هذا تقليلاً من «قيمة» النص غير الشعري، الذي يعالج المسائل المادية للإنسان في زمان ومكان معينين، وإنما هو مجرد التمييز بين ضررين من الكتابة يختلفان اختلافاً جذرياً، ولا علاقة لهما مع بعضهما بعضاً.

يمكن القول إن المحاكمة هي نص روائي - فلسفى (فلسفى: بالمعنى العربي لهذه الكلمة). لكنها، بالمعنى الأوروبي - العالمي، هي نص «شعري».

الشعر المعنى هنا هو النص الذي يعالج المسائل الذهنية، العقلية، الروحية للإنسان (والإنسان يتألف، نعم، من مادة وذهب وروح)؛ النص الذي يعالج مسائل الإنسان إنساناً - ذاتاً، وليس عضواً في جماعة ما. (ومن هنا فإن هذا الشعر لا يخص جماعة معينة، وإنما يخص البشرية جماء). في هذا لافرق، على سبيل المثال، بين العلاقات السبع التي نشأت في القرن الرابع الميلادي، ومسرحيات شكسبير التي نشأت في القرن السادس عشر، ومسرحيات وقصائد غوته التي نشأت في القرن الثامن عشر، وروايات وقصص كافكا وكتابات جبران وأدونيس من القرن العشرين^(*).

(*) من المعروف أن غوته كان يقدر العلاقات السبع، التي كانت مترجمة في عصره عدّة ترجمات، تقديرًا عالياً. كان يعتبرها «كنوزاً رائعة»؛ وقد درسها مطولاً، حتى حفظ غيّباً أجزاء طويلة منها، وتأثر بها واستوحاهما في قصائد كثيرة جداً من «الديوان الغربي - الشرقي». ومن الثابت وجود توافق في البنية وتوازٍ حرفي حتى في المفردات بين قصائد لغوثه من جهة والعلاقات من جهة أخرى، وخاصة معلقتي امرئ القيس وزهير بن أبي سلمى.

وآثار جبران خليل جبران تقرأ في الألمانية أكثر مما تقرأ في العربية. وفي عام ١٩٩٨ صدر في الألمانية الجلد الأول من «الآثار الكاملة» لأدونيس، وسوف يتبعه ثلاثة مجلدات.

ليس الشعر عروضاً ولا طرباً ولا خطابة، وإنما هو فكر وخيال وتلقي العالم برهافة حس فائقة، رهافة حس فنان لا يملكونها الإنسان العادي.

ويمكن للشعر أن يتخذ أي شكل، ويظل شرعاً: قصيدة، مسرحية، رواية، قصة، خاطرة. وهنا يمكن الحديث عن شعر قصيدة، شعر مسرحي، شعر روائي، شعر قصصي. بل إن أدونيس كتب حتى التاريخ العربي شرعاً (الكتاب/أمس المكان الآن).

وما يكتبه أدونيس عن تعريف الشعر وماهيته، ينطبق على رواية المحاكمة وأثار Kafka جميعها. من أكثر من مئة قول لأدونيس، أنتقي هنا بضعة استشهادات على سبيل المثال:

«من مهام الشعر أن يفتح دروباً إلى ذلك العالم الخفي وراء العالم الظاهر... سيكون الشعر... مفاجئاً، غريباً، عدو المنطق والحكمة والعقل. هكذا ندخل معه إلى حرم الأسرار. تتحد بالأسطوري، العجيب، السحري. نمزج بين الغريب والأليف، الوضوح والسر،... الحقيقة والوهם، الداخلي والخارجي، الذات والموضوع،... الواقع والحلم. تعتبر العالم الداخلي وعجائبه الواقع الوحيد» (مقدمة للشعر العربي، ص ٥٨).

- «من مهام الشعر... أن نرى في الكون ما تمحجه عنا الألغة والعادة، أن نكتشف وجه العالم المخبوء، أن نكتشف علاقات خفية، وأن نستعمل لغة ومجموعة من المشاعر والتداعيات الملائمة للتعبير عن هذا كله» (زمن الشعر، ص ٩).

- «كل شعر عظيم هو، بالطبيعة، شعر مجرد... من حيث أنه إنساني شامل، لا شعر وقائع يومية، جزئية، وقطاعات خاصة مجذزة من كيان الشخص الإنساني» (٢٣٤).

- الشعر يقدم للقارئ «حالة، أو فضاء من الأخيلة والصور» (٢٧٨).
- «الغموض... دليل غنى وعمق... ولو كان الغموض بذاته نقصاً، لسقط من شعر الإنسانية أعظم ما أنتجته» (٢٧٦).
- «كل خلاق غامض بالنسبة إلى معظم معاصريه، لا الآن وحسب، بل في التاريخ كله، وفي الشعوب كلها. وبهذا المعنى (هناك حجاب) بين الخلاقيين والقراء. لكن هذا الحجاب يتمزق أمام الذين يجيئون بعد. وبما أن النص يبقى هو هو، لا يتغير، فإن تهمة الغموض دعوى باطلة: قناع يخفي به القارئ ضعف ثقافته وقصورها، وإصراره على أن يفهم ما تغير بذهنية لم تغير... هكذا يبدو أن الغموض وصف يطلقه القارئ على نص لم يقدر أن يستوعبه» (٢٨٠).
- الشعر هو «الغوص في أعماق الذات والوجود، والكشف عن أبعادهما» (الشعرية العربية، ص ٦٦).
- «الفكر... شعر خالص، والشعر فكر خالص» (٦٦).
- النص الشعري هو «نص فكري - تخيلي» (٧٤).
- «يُخرج المجاز الواقع من سياقه الأليف» (٧٥).
- على الشعر أن «يقدم لنا شيئاً من أعماق الإنسان ومجهولها النادر الفريد» (سياسة الشعر، ص ١١١).
- «على الشعر أن يتميز بخصوصية استقصاء للعالم النفسي الداخلي» (١٢٢).
- دور الشعر هو «الكشف عن خبايا الذات والعالم» (١٧٠).
- «الغاية الأخيرة من الشعر... هي الكشف عن ذات الشاعر، ورؤيته

- الخاصة للإنسان والعالم» (احتفاء بالأشياء الغامضة الواضحة، ص ٦٤).
- النص الشعري هو «بناء صور وأحيله» (١٨٩).
 - «العالم المجازي - التخييلي» هو جوهر الشعر (٢٠٨).
 - «الشعر، كمثل الحلم، ليس مجالاً للفهم العقلاني، وإنما هو مجال للتأويل» (النظام والكلام، ص ١٩٨).

* * *

والشعر سوف يكون موضوع المجلد الثالث من هذه «الآثار الكاملة». وسوف يضم هذا المجلد خمس قصص وتفسيرها واحداً فقط لكل قصة، كما سيضم كل ما كتبه كافكا عن الشعر في يومياته ورسائله^(٤).

وسوف يضم المجلد الرابع بقية القصص (دون تفسيرات).

ومجلد الخامس رواية المفقود (دون تفسيرات).

ومجلد السادس رواية القلعة، مع تفسير واحد هو تفسير إمريش لها.

ومجلدان السابع والثامن سوف يضممان اليوميات والرسائل.

وهكذا سوف تتالف «الآثار الكاملة» من المجلدات التالية:

١ - الحكم/ الانساخ/ الوقاد/ رسالة إلى الوالد: الأسرة.

٢ - المحاكمة: الذات

٣ - في مستعمرة العقاب/ معاناة أولى/ امرأة صغيرة/ فنان جوع/ يوزفينه، المغنية، أو شعب الفرمان: الشعر.

(٤) لم يكن كافكا يستخدم الكلمة «شعر»، وإنما كان يستخدم كلمات أخرى، مثل: الكتابة، الأدب. بل كان يسمى شعره مجرد خربشات.

٤ - بقية القصص.

٥ - المفقود: المجتمع الصناعي.

٦ - القلعة: الكون البشري.

٧ - اليوميات.

٨ - الرسائل.

ابراهيم وطفي

يون/ أيار ٢٠٠١

IV - من سيرة حياة كافكا
وتلقي آثاره في العالم

١ - أعوام القرارات

عاش فرانز كافكا أربعين عاماً وأحد عشر شهراً (١٨٨٣ - ١٩٢٤). ويبلغ حجم القصص التي نشرها أثناء حياته، واعتبرها مكتملة، نحو ثلاثة وخمسين صفحة. وترك وراءه «أطلالاً من الخرائب»: نحو ثلاثة آلاف وأربعمائة صفحة من المخطوطات الأدبية نشرت بعد وفاته، منها يومياته ونحو أربعين نصاً أدبياً بينها ثلاثة روايات. كما ترك نحو ١٥٠٠ رسالة. وهذا وضع لا مثيل له في الأدب العالمي.

وما كان يتخيله ويحلمه كافكا، أخذ في ما بعد أنفاس بضعة ملايين من البشر. ففي شبكة الانترنت نجد حالياً، عام ٢٠٠٣، أكثر من مائة وثلاثين ألف موقع باللغة الإنكليزية عن كافكا.

وقد نشرت كتب عديدة عن حياة كافكا، وظن القارئ المختص أنه بات يعرف أدق تفاصيل هذه الحياة.

لكن كتاباً جديداً صدر عام ٢٠٠٢ عن دار نشر فيشر في ألمانيا، وضعه الباحث راينر شتاخ بعنوان «كافكا / أعوام القرارات». بعد وفاة كافكا بثمانية وسبعين عاماً، يقدم هذا الكتاب أول سيرة حياة كبرى للكاتب الذي قيل عنه إنه الأكثر تأثيراً في كتاب القرن العشرين. ليس سيرة كاملة، وإنما سيرة «أعوام القرارات» فقط: أعوام ١٩١٠ - ١٩١٥. يقع هذا

الكتاب في ٦٧٣ صفحة من القطع الكبير (ثمن النسخة الواحدة ٩٨ يورو). وهو الجزء الثاني من ثلاثة عن حياة كافكا.

ولماذا يصدر الجزء الثاني قبل الأول؟ لأن ثمة وثائق وشهادات عن فترة شباب كافكا لم تنشر بعد، ولا سيما تركة صديقه ماكس برود الأدبية، المؤلفة من يومياته التي كتبها طوال ستين عاماً، ومراسلاته مع كافكا خلال اثنين وعشرين عاماً.

أمضى الباحث شتات طوال ست سنوات في إعداد هذا الكتاب، وهو يتوقع حاجته إلى مثل هذه المدة لكل من الجزئين الأول والثالث من سيرة حياة كافكا.

كان يظن حتى الآن أن حياة كافكا باتت في العقود الأخيرة معروفة في أدق تفاصيلها. غير أن هذا الكتاب يفاجئنا بما لا يحصى من تفاصيل جديدة من حياة كافكا اليومية وبشرح مطوله عن شخصيته وصفاته.

ويحلل شتات خلفيات سلوك كافكا تحليلاً منطقياً يدعى تصرفات كافكا، التي كانت حتى الآن تبدو غريبة وغير مألوفة، تظهر الآن مفهومه ومعقوله وتخلو من أيّة غرابة: تفكيره الجدي بالانتحار، خوفه من الجنون، قلقه وما يسميه متبلدو الإحساس «سذاجة» أو «ضعف شخصية»، شعوره بضآلته شأنه، عمله ذات مرة بستانياً بأجر، أحلامه وتصوراته وتخيلاته المشيرة للرعب، خوفه من العجز الجنسي، خوفه من الزواج وتوقفه إليه في آن.

في رسالة تقع في خمس وثلاثين صفحة كتبها كافكا بين ٢٩ / ١٢ / ١٩١٣ و ١٢ / ١ / ١٩١٤ طلب كافكا، للمرة الثانية، الزواج من فيليس باور. وفي ما بعد اعتبر النقاد هذا الطلب أغرب طلب زواج في التاريخ.

وحقاً ييدو كذلك، فهو طلب بخط يد كافكا يحوي مساوى الزواج من كافكا.

وعلى مدى ثلاثة صفحات يشرح شتاك سبب عدم زواج كافكا (الذى عقد خطوبته ثلاث مرات). والسبب هو الحوف من فقدان الهوية فلا أكون وحدى فقط، لا أكون مع نفسي فقط. هذه الجملة تقول: «فلا أكون نفسي أنا فقط». وهكذا ظلل كافكا «عازب الأدب العالمي».

ويكشف شتاك عن التناقضات العديدة في حياة كافكا، ويشرح علاقاته الجنسية المعقّدة.

ويذكر القرب الذي لا محيس عنه بين الإبداع والجنون. والخوف من الجنون يعالج كافكا بواسطة الأدب، مثلما فعل الكاتب السويدي أوغست سترنبرغ. وقد ظلل كافكا طوال عام تقريباً يقرأ كتاباً واحداً استشعره قريباً منه نفسياً هو سترنبرغ. إنني لا أقرؤه لكي أقرأه، وإنما لكي أست Klan لصدره، كتب كافكا في يومياته. وتحمل هذه الجملة دلالة كبيرة. كان سترنبرغ قد أظهر أنه من الممكن الخروج من أشد الأزمات المهددة للحياة وإنقاذ الذات بالأدب. هذا الإظهار وحده أحس به كافكا تشجيعاً له.

ويبيّن كاتب السيرة أن قلق كافكا إنما كان قليلاً شاملأً، لكنه كان مبرراً أيضاً: تقلبات مزاج ليست باليد، تخيلات قسرية، أحلام يقظة ساحقة، دوافع غريزية مندلعة في الوعي مثل لهب، تأثيرات خارجية تحتاج الآنا طوال ساعات. كان من الواضح كل الوضوح لكافكا أنه كان يعيش في تجارب نفسية متطرفة ظلت غريبة كل الغرابة بالنسبة إلى كل شخص التقى به طوال حياته، ومن هنا كانت تعتبر «غير طبيعية» إلى حد ما. لكنها لهذا السبب بالذات كانت أيضاً غير قابلة لإطلاع أحد عليها.

وتحوي سيرة كافكا هذه على الكثير من المواقف المؤثرة للغاية، يذكر

منها هنا موقف واحد: تفكير كافكا، مرة، بالانتحار: كان في سن التاسعة والعشرين من عمره، يعيش مرحلة إبداع أولى في حياته، كتب خلالها ثلاثة من أهم آثاره. كتبها في أوقات فراغه من العمل الوظيفي المأجور. أفراد أسرته جميعهم طلبوا منه التخلص عن كتابته وقضية ساعات بعد العمل الوظيفي في الإشراف على معمل يخص الأسرة. فرضخ إلى الأسرة، بعد أن اضطر للتوقف عن إنهاء كتابة رواية المحاكمة. وهنا فكر جدياً بالانتحار.

يشرح كاتب السيرة الصراع بين حياة كافكا الداخلية الثرية وحياته الخارجية الخاوية. بين الرسالة والعمل الوظيفي المأجور. وتمزقه بينهما.

ويوضح العمل الوظيفي المأجور الذي كان كافكا يقوم به. كان كافكا ناجحاً في عمله الوظيفي، هذا العمل الذي كان يشكو منه في يومياته ورسائله أقصى شكوى. في عام ١٩١١ أصبح كافكا «وكيلًا قانونياً» لمؤسسة التأمين على حوادث العمال (وهي المهنة التي أعطاها ليوزف ك في رواية المحاكمة)، وأصبح كافكا نائب رئيس قسم يبلغ عدد موظفيه سبعين موظفاً. وكان كافكا يخجل من النجاح الذي كان يتحققه في عمله الوظيفي. حتى أنه كان يخفيه على صديقه التي كان يكتب لها عدة رسائل في اليوم. ولم تعلم شيئاً عن بناجه الوظيفي قط.

كان كافكا يطلب من نفسه انقسام التجربة النفسية. أن تغيب نفسه عن نفسه طوال ساعات في اليوم. تمر أوقات في المكتب أيام فيها، وأنا أتحدث أو ألمي، أكثر مما أنا نائم. وطوال أيام كان يخالجه وهم بأن المسألة هي مسألة إرادة بأن يظل بلا مشاركة من الساعة الثامنة حتى الرابعة عشرة كل يوم.

ولا يحوي كتاب «أعوام القرارات»، بصفحاته الـ ٦٧٣، كلمة

واحدة عما يسمى بالعربية «يهودية كافكا». لقد كان كافكا «يهودياً» بالاسم فقط. كان يهودياً غريباً لا جذور له. ويكتب شتاخ حرفياً أن كافكا إنما كان أحياناً «يجد الصهيونية مقرفة» (ص ٥٧).

يقدم الكتاب صورة عن الأوضاع الخارجية، السياسية والاجتماعية، الخبيثة بكافكا. إنه يضم فصلاً مطولاً عن نشوب الحرب العالمية الأولى، التي خططت لها النمسا، الدولة التي كان كافكا مواطناً من مواطنيها. هنا نفهم ابعاد كافكا عن «العام»، وعما سمي في ما بعد «الالتزام». ونفهم أسباب عدم وجود أكثر من خمسين سطراً في يوميات كافكا عن هذه الحرب.

كما يعرض الكتاب الأرضية الاجتماعية لآثار كافكا التي كتبها في مرحلتي الإبداع الأوليتين، والأحداث والظروف والملابسات التي نشأت فيها هذه الآثار: الحكم، الانفاسخ، المحاكمة، في مستعمرة العقاب.

إن العلاقة بين حياة كافكا وأدبه هي موضوع شغل الدارسين كثيراً ومطولاً. وشتاخ يوضح هذه العلاقة على نحو أفضل وأكثر إقناعاً، ويشرح توضع الحياة والأدب.

يشير إلى «آلاف الأحداث» من الحياة اليومية، التي دخلت إلى آثار كافكا. ويوضح أن آثار كافكا إنما شكلت من حياة كافكا اليومية، من حياته «الواقعية» ومن حياته الحلمية؛ أن هذه الآثار نابعة من ذات عصرية، وأنها آثار حالية.

إن كتاب شتاخ قد يدفع القارئ إلى الميل للأخذ بالتفسير الذاتي لآثار

كافكا، هذه الآثار التي تبدو هنا انعكاساً لتجارب ذاتية لكافكا. غير أن شتالخ يوضح أن المعلومات الكثيرة من الحياة اليومية، الواقع على السطح، والتي لا يمكن لنصر أدي أن ينشأ بدونها، إنما تخطي، على نحو كامل اللغز الذي تعرضه هذه الآثار: أنها إبداع يقف للذاته. كانت الكتابة تمثل حياة حقيقة لكافكا. إن آثاره هي حياة، وهي فن عظيم في آن. وهل يوجد أعظم من فن الحياة؟ وهل من فن، إطلاقاً، غير فن الحياة؟

إن الوثائق التي اعتمد عليها كاتب السيرة هي، بالدرجة الأولى، رسائل كافكا ويومناته. ولا سيما رسائله إلى فيليبس باور. هذه الرسائل هي رسائل غير مألفة، وقد قيل إنها «الوثائق الأكثر فضاعة في الأدب العالمي». وهي غير قابلة للمقارنة مع أية مراسلات أخرى». وقد مكنت الوسائل الحديثة في تحقيق الكتب من «مسح طوفان» رسائل كافكا إلى فيليبس والوصول إلى البيانات التالية: في تشرين الثاني عام ١٩١٢ كتب كافكا إلى فيليبس ما يقرب من ست وعشرين ألف كلمة، وفي كانون الأول أكثر من ثمان وعشرين ألف كلمة، وفي كانون الثاني ١٩١٣ تسع عشرة ألف كلمة، وفي شباط أربع عشرة ألف، وفي آذار عشرة آلاف وخمسمائة. وكل هذا بعد لقاء أول، وحيد حتى ذلك الحين، جرى مساء يوم الثالث عشر من آب ١٩١٢. عن ذلك اللقاء يكتب شتالخ:

(مثـلـ التـارـيخـ المـادـيـ يـعرـفـ أيـضاـ تـارـيخـ الفـكـرـ وـالأـدـبـ أـيـاماـ بـارـزةـ تـنـطـيعـ فيـ ذـاكـرـةـ الـأـجيـالـ الـلاحـقـةـ، كـمـاـ فيـ ذـاكـرـةـ الـمـشـارـكـينـ مـباـشـرـةـ، بـصـفـتـهاـ لـحظـاتـ قـرـارـ (ـمـصـبـيرـيـةـ). وـغالـبـاـ ماـ تـكـوـنـ لـحظـاتـ تـمـلـكـ إـشـارـاتـ وـتـصـورـاتـ مـتـأـهـيـةـ مـنـذـ فـتـرـةـ طـوـيـلـةـ لـكـنـهاـ مـخـزـنـةـ عـلـىـ نـحـوـ لـاـ شـعـورـيـ، تـقـومـ تـحـتـ تـأـثـيرـ حدـثـ خـارـجـيـ عـرـضـيـ باـقـتـحـامـ الـفـكـرـ وـاجـتـياـحـهـ عـلـىـ نـحـوـ صـادـمـ. وـقدـ عـرـفـ

هذه التجربة كثيرون، منهم روسو وهولندرلين ونيتشه وفاليري. وليس من النادر أن تعتبر أمثل هذه التجارب «ساعات قدر»: إن صاحب العلاقة يشعر، دون إرادة منه أبداً، أنه يحمل فوق موجة، ويعيش ترکيزاً في التفكير والإحساس لم يعرفه سابقاً، وتنقشع ظلمات، والطريق الصحيح المنشود منذ مدة طويلة يقع فجأة في سطوع كامل. من مثل هذه اللحظات يمكن أن تبعث مدى الحياة موجات إبداع متواصلة، تطغى بعد ذلك من طرفها على الظروف العادية التي تمت تحتها الهزيمة المفجرة.

في سلسلة أمثل هذه اللحظات يتنظم مساء يوم الثالث عشر من آب عام ١٩١٢، هذا المساء الذي لعله غير وجه تاريخ الأدب الألماني وربما غير تاريخ الأدب العالمي تغييراً ملمساً. بعد ذلك المساء، الذي التقى فيه كافكا الفتاة فيليس باور، وقع كافكا في غيبوبة أفق منها شخصاً آخر.

حين أفاق فرانز كافكا ذات صباح من أحلام مزعجة، واقتحمت عليه الصورة الدقيقة على نحو مخيف لحشرة بشريّة تدعى غريغور سامسا، كانت ثلاثة أيام قد مضت على استلام كافكا لرسالة... من فيليس).

يصور شتاخ هذه الفتاة تصويراً دقيقاً، وكأنها شخصية رواية. وهو يقرأ رسائل كافكا إليها، بعامة، بصفتها «رواية رسائل». وهذه قراءة صحيحة. بل إنه كتب سيرة كافكا هنا على شكل رواية مشوقة للغاية، رواية كتب فيها بطلها كتبأ ما زالت رائجة جداً حتى اليوم.

وفي فصل يقع في ست عشرة صفحة بعنوان «الحب والإدمان على الرسائل» يشرح شتاخ دور الرسالة كوسيلة اتصال لدى كافكا. وعلى مدى أربع صفحات يشرح شتاخ ما يسميه «ثقافة الرسائل»، وبين دوافع كافكا التي تدفعه، مثله مثل كتاب آخرين كثيرين، للمراسلة. إنها وسيلة من وسائل صياغة الذات.

ويستشهد شتالن حتى بالرسائل التي كتبها كافكا ولم يرسلها. ويربط بين اليوميات والرسائل ويحللها ويشرحها ويعلق عليها، فتصبح مفهومه أكثر.

يظهر كتاب «أعوام القرارات» عظمة كافكا وبؤسه في آن. يظهره على حقيقته: ليس من طينة البشر، وإنما منسوج من أدب. ليس لدى اهتمام أدبي، وإنما أتألف من أدب، إنني لست شيئاً آخر، ولا أستطيع أن أكون شيئاً آخر. ومرة أخرى: الرواية هي أنا، وقصصي هي أنا.

لقد كتب كافكا، لكنه لم يؤلف. كتب إملاء، ولا أحد يعلم من أملى عليه. لقد كتب من خلاله. وقد أتلف كافكا مما كتبه أكثر مما احتفظ به. ما وصلنا من آثار كافكا كتب خلال مدة لا تتجاوز الأحد عشر عاماً ونصف العام، من أيلول ١٩١٢ حتى نيسان ١٩٢٤. غير أن كافكا كان قد كتب قبل سن التاسعة والعشرين «آلاف الصفحات» أتلفها برمتها. (منها الصيغة الأولى لرواية المفقود). لقد ضاع حصاد كامل النصف الأول من نتاج كافكا الأدبي. إن كل ما كتبه كافكا خلال خمسة عشر عاماً الأولى (١٨٩٧ - ١٩١٢) من حياته الأدبية ألقاه تباعاً في مدفأة منزل أهله. من هذه الأعمال الأولى لم يبق سوى مقتطفات ضئيلة جداً وصلتنا عن طريق الصدفة، هي مجموعة تأمل وقصة وصف كفاح.

يشرح شتالن خلفيات مراحل إبداع كافكا وفترات نضوب قريحته. يشرح مرحلتي الإبداع في هذه الأعوام الخمسة: في صيف وخريف عام ١٩١٢، وفي صيف وخريف عام ١٩١٤. ويشرح طريقة الإبداع، وسماته، ومطالب كافكا العالية من نفسه وابتغائه الكمال.

بعمق يوضح شتالن الكثير من سمات عملية الإبداع لدى كافكا،

ويذكر على الأخص سمتين بارزتين: ١ - إنها أحداث واقعية، وليس أبداً مجرد ومضات فكرية، هي التي تفتح بوابات الإبداع وتقود كافكا، بل تلقي به، إلى قمة إمكانياته اللغوية... وفي اللحظة التي تبدأ فيها مرحلة إبداع جديدة، مثال ليلة ٢٢ - ٢٣ أيلول عام ١٩١٢، فإن كافكا يروح ينهل من خزان متربع قبل ذلك. ٢ - إن الصعوبات المتزايدة التي واجهت كافكا لدى نصوصه الطويلة، والتي أدت في النهاية إلى أنه لم يستطع تكملة أية رواية من روایاته الثلاث، إنما نشأت من أن فيض خزان طاقة التخييل قد أفرغ من محتوياته، وبات يتطلب الامتلاء من جديد.

وفي الختام يشرح كاتب السيرة أسباب إعجاب القراء بنصوص كافكا: إنه السحر الذي ينبعث من هذه النصوص، والألغاز التي تدعوه إلى تفسيرات. وإنها الدهشة أمام ما لا يدرك. وكتاب شتاخ هذا يدفع القارئ إلى إعادة قراءة نصوص كافكا.

والنقد الأكبر الذي يمكن توجيهه إلى شتاخ هو بخصوص حكمه بعدم إمكانية تفسير رواية المحاكمة. فهو يرى أن هذه الرواية إنما هي «شيء رهيب»، وأن معضلة تفسيرها «غير قابلة للحل». وهذا لم يعد صحيحاً. ولا يدعي الكاتب أنه استطاع أن يقدم لنا صورة عن «الحياة الحقيقية لفرانز كافكا»، وإنما مجرد نظرة فانية عليها، نظرة طويلة.

مراراً وتكراراً يقع المرء في سيرة حياة كافكا على أحداث، وإن كانت موثقة بكل دقة ومن زوايا متعددة غالباً، تظل رغم ذلك في منطقة ميزة تقع بين الظلمة والنور، في شبه ظلام يوقف الفضول والشك، بل ويدع القارئ يصل إلى قناعة بأن كل شيء في حياة كافكا إنما قد سار على نحو مغاير لما هو معروف، وأن هذا القارئ إنما قد جرى خداعه فيما يتعلق بما هو حاسم

في هذه الحياة.

وأحياناً يشعر القارئ أن كتاب «أعوام القرارات» إنما يكشف عن كل شيء لدى كافكا. لكن سرعان ما يحس أن هذا الشعور إنما هو شعور خادع، ما من ثمة نواة داخلية نصل إليها. وما من نقاب هو النقاب الأخير. وراء الحجرة الداخلية النفسية ثمة أبواب أخرى. وهذه الأبواب تظل مواربة، إلى حين.

نشر عن كتاب «كافكا / أعوام القرارات» مقالات نقدية عديدة، فيما يلي ترجمة مقتطفات من خمس مقالات منها، وترجمة حرفية لمقالة سادسة بقلم د. كريستيان إشفايلر، المفسر الأهم لآثار كافكا (ا. و):

آ - سيرة فاشل عظيم

لم يعمد كافكا إلى تسهيل الأمر على أحد، لا على قرائه ولا على ناشريه ولا على كتاب سيرته ولا على نفسه. كان حسب مقاييسه فاشلاً. ولم يعتبر سوى عدد قليل من قصصه مكتملاً، أما كل شيء آخر فقد ظل ناقصاً بالنسبة إليه. ورغم ذلك فهو ولا ريب واحد من أهم كتاب العصر الحديث وأكثراهم تأثيراً. ومن هذه الناحية يوجد عدد لا يحصى من الكتب والدراسات عن آثاره التي نشأت في معظمها في الليالي الموحشة. لكن ما كان غائباً حتى الآن هو سيرة حياة وافية. وقد حاول الآن كتابة هذه السيرة عالم الأدب راينر شتاخ، الذي انصب اهتمامه على كافكا منذ فترة طويلة، حيث نشر في عام ١٩٨٧ كتاباً بعنوان «أسطورة كافكا الإيروسية».

«أعوام القرارات» هي الأعوام بين ١٩١٥ و ١٩١٠، حيث عاش كافكا اختراقه الإبداعي، وكتب قصتي الحكم والانساح وروايتين من رواياته الثلاث التي لم تكتمل. كما بدأ في هذه الفترة «جحيم تقسي الذات» في اليوميات والرسائل. وما يميز هذه السنوات بالإضافة إلى ذلك هو «الحياة المزدوجة الرهيبة» بين المكتب وطاولة الكتابة في البيت، والعلاقة مع فيليس باور، وأهوال الحرب العالمية الأولى. ومن كافة الواقع والوثائق تتجلّى حالة الغربة والمغايرة التي تحيط بهذا الفاصل العظيم.

يغامر راينر شتاخ مغامرة كبيرة ويفوز على طول الخط. فلا هو يغيب، مثل آخرين كثرين، في أعماق تحليل النصوص؛ ولا هو يخضع للإغراء الذي يدفع كاتب السيرة لوصف المساحات البيضاء في حياة كافكا. فعندما يتلقى هذا، مثلاً، مع فيليس لأول مرة بعد مراسلات دامت سبعة أشهر، لا يتورع كاتب السيرة عن الاعتراف بأننا لا نعرف شيئاً عما دار في ذلك اللقاء. كما أنها لا نحس لدى شتاخ شيئاً من هوس الكثرين من كتاب السير بالتفاصيل النافلة، هذا الهوس الذي يؤدي إلى نشوء دراسات جافة عسيرة القراءة. إن أسلوب شتاخ ومهاراته في تركيب قطع الفسيفساء الكثيرة يجعلان من كتابه تجربة قراءة مشوقة بشكل مفاجئ وممتعة (كريستيان شتال).

ب - نهاراً موظف، ليلاً متحول

«حياة؟ إذا وضعنا مقاييس المجتمع الأوروبي في القرن الواحد والعشرين معياراً نقيس به حياة كافكا، فإن النتيجة تقع علينا وقع الصاعقة». بهذا التمهيد يبدأ شتاخ واحدة من أكبر مغامرات تاريخ الأدب.

هذا الجزء الثاني مفهوم للقارئ ولا يشترط معرفة ما قبله وما بعده. إنه

سيرة منفردة، تامة، مرحلة هامة من مراحل العمر. هذه السنوات الخامسة مطبوعة بطبع حب Kafka لفليسيس، هذا الحب امترع بالألم. لقد التقى كاتب السيرة بابن لفليسيس في أمريكا، وروى قصة أسرتها فيما يتعلق بكافكا. بهذا يعلم القارئ الآن أكثر مما كان Kafka يعلم آنذاك. وهذا يغير الرؤية السابقة تغييراً جذرياً.

نعلم أن Kafka كان قد وضع على نفسه كامل الذنب في فشل علاقته بفليسيس. لكن شتاخ يقنعنا الآن أن أحاديث وقعت في أسرة باور لا علاقة لها بكافكا، أدت إلى شلل فليسيس في حبها له. هذه الأحداث كانت: انتحار اخت فليسيس، إنجاب اخت ثانية طفلاً غير شرعي، قيام أخيها باختلاس مال من والد خطيبته واضطراره للهرب إلى أمريكا (بتمويل من فليسيس) خوفاً من عقوبة سجن، خروج والدها من البيت وإقامته مع عشيقة له. وقد أحافت فليسيس هذه الواقع عن الناس وعن Kafka. بهذا الحمل لم يكن لفليسيس أن يخلو بالها لحب عظيم.

والناحية الثانية التي أدركها شتاخ لأول مرة بصفتها ناحية حاسمة في حياة Kafka هي الحرب العالمية الأولى. Kafka نفسه لم يكتب شيئاً عن ذلك. لكن الحرب أفسدت عليه قراره الخامن الأول في حياته: كان قد قرر الاستقالة من وظيفته في براغ، والانتقال في مطلع آب عام 1914 إلى برلين، والتفرغ للكتابة، حيث كان الكاتب روبرت موزيل قد وجد له عملاً صغيراً في إحدى الصحف. كما كان من شأن هذا الانتقال أن يخلص Kafka من سطوة والده عليه، ومن القرب المقبض من ماكس برود. وفيما بعد أضاعت الحرب مدخلات Kafka، التي كان من شأنها أن تكفيه لمدة عامين دون كسب مال. وهكذا اضطر للاستمرار في مراولة وظيفته. وفي عام 1917 أصبح بمرض السل.

لكن ميزات هذه السيرة لا تكمن في الكشف عن مصادر جديدة، وإنما في تحديد المخطات الرئيسية في حياة كافكا تحديداً جديداً.

وربما كانت السمة الرئيسية لهذا الكتاب، والتي يفيد منها القارئ أكثر ما يفيد، هي روح التعاطف التي يكتب بها شتاخ عن كافكا. إن شتاخ يضع نفسه مكان كافكا، والتنتيجة التي يخرج منها القارئ هي أن كتاب «كافكا» الذي وضعه شتاخ إنما هو أثر أدبي.

ت - توقي الحكم في الأدب العالمي

في عام ١٩٨٧ نشر راينر شتاخ كتابه الأول عن كافكا بعنوان: «أسطورة كافكا الإيرانية». وقد درس في هذا الكتاب شخصيات النساء في مجموع آثار كافكا.

ثم اقتفى شتاخ آثار فيليس باور، وكشف عن وثائق ومواد جديدة تلقي ضوءاً جديداً على هذه المرأة التي بقىت في الظل فترة طويلة. يقال إن من يهتم بكافكا، لا يعد في مقدوره أن يتركه.

ويدخل شتاخ النتائج التي توصل إليها في هذين العملين إلى كتابه الجديد عن سيرة حياة كافكا.

في الحقيقة يجب تسمية هذا الكتاب «رواية»، رواية سيرة ذاتية. هو رواية لأنها يملأ الفراغات بين الوثائق التي كتبها كافكا أو من حوله، يملؤها بتعاطف كبير وبطاقة تصويرية فائقة، بحيث يتبعه القارئ باهتمام شديد. ومرة أخرى يخاف القارئ عبر مئات الصفحات على سعادة كافكا وفيليس، رغم معرفته بشقاечهما الموثق. ويعود فضل هذه الرواية الأخاذة المشوقة والمعاطفة إلى فن يخلو من الابداع. بلمسات حذرة يكمّل كاتب

السيرة ساعات لم تدون في دفتر، أقوالاً لم تصل إلى ورق، أفكاراً وردود فعل وأحساس لم تمر عبر شفاه. لكن هذه الظلال والأشباح المستحضره من عالم الأموات هي التي تملأ هذه الرواية حيّاً.

يعطي شتاخ لعرضه بنية درامية، فهو لا يقدم سوى سنوات ١٩١٠ حتى ١٩١٥، التي هي أكثر فترة مؤثرة في حياة كافكا، سنوات القرارات، رغم أنه لم يوجد في حياة كافكا سوى قرار واحد وحيد، هو القرار الذي قضى بإنفاق كل وقت، كل طاقة، كل عمل، كل حياة في سبيل الأدب. لكن ألا يعرف المرء هذا كله؟ ألم يقرأ ويمعن الفكر فيه طويلاً؟ أن اللقاء مع فيليبس باور الشابة قد حول فرانز كافكا؟ لا بل أن انحيازه إلى الأدب ضد سعادة مع فيليبس إنما عمل منه شاعراً؟ نعم، كان المرء يعرف ذلك كله؛ لكن هذه البداية لا تقع في الضوء الأكثر سطوعاً إلا بعد أن يكون المرء قدقرأ فصل شتاخ عن «نشوة البداية».

في ليلة ٢٢ - ٢٣ أيلول ١٩١٢ من الساعة العاشرة حتى الساعة السادسة صباحاً تمت ولادة الشاعر فرانز كافكا. وهو نفسه سجل بدقة كيف كتب في هذه الليلة قصة الحكم. وحقاً كانت هذه الهزة المبالغة الخلاقية من فعل قرار. كان كافكا قد عقد العزم على أن يستخدم لقاء المصادفة مع فيليبس باور من أجل تحول في حياته: الانعتاق من تبعيته لأسرته، الانعتاق من تبعيته لوالده، الانعتاق من البنوة الدائمة. كان هذا القرار قراراً بتأسيس الذات. وما كادت النقلة الأولى في اللعبة الجديدة تجري، وما كادت الرسالة الأولى تكتب إلى الفتاة، التي تعرف عليها على نحو عابر، حتى انبثقت منه الحكم، التي هي قصة يمكن وصفها بأنها رؤيا. فهي تتباين بكل ما حدث له في المستقبل: الإخفاق الكامل، الخطوبية الفاشلة، حياة الوالد أطول منه. من ليلة الحكم هذه يدع كاتب السيرة حياة كافكا

تنطلق. إنها ليلة قدر. ليلة أحس فيها كافكا بأنه شاعر (مانفرد شنايدر).

ث - لكن أين كان كافكا؟

إن أحد أسباب سحر فرانز كافكا لا بد أنه يكمن في أن كاتب هذه الآثار العظيمة إنما يبدو، رغم يومياته، ورسائله، ورسالة إلى الوالد الشهيرة، وصورة، وتوثيق عمله الوظيفي، ورغم كل ذكريات آخرين عنه، وكأنه يمتنع على الأجيال اللاحقة. ولا يعود ذلك (فقط) إلى الأبحاث العلمية عن كافكا، فقد قامت هذه الأبحاث بإضاءة حياة كافكا ومحيطه. ولا يعود ذلك (فقط) إلى نقص في الوثائق من سيرة حياته. لقد تم إتلاف الكثير منها أو ضاع. إن رسائل كافكا ويومياته ورسالة إلى الوالد لا يمكن اعتبارها بالذات شيفرة حلّت رموزها وفصلتها عن الآثار. لقد استخدم كافكا هذه الوثائق ورشةً للعمل الأدبي أو أخضعها لإخراج أدبي. ويوميات ماكس برود ومراسلاته وتركته بكلاملها هي مصدر بالغ الأهمية بالنسبة إلى حياة كافكا، لكن هذه التركرة لم توضع حتى اليوم تحت تصرف العلماء. وعندما يتم ذلك، سوف نعرف الكثير وبدقّة أكثر عما نعرفه اليوم. غير أن الانطباع بامتناع كافكا علينا لن يتغير في شيء، إذ أن كافكا كان متحفظاً أيضاً إزاء أعز صديق له.

إن السبب الحقيقي لهذا الامتناع يكمن في أن كافكا إنما كان قد ركّز حياته على الأدب ترکيزاً كلياً. كاتب سيرة حياته الجديد، رايبر شتاخ، يصوغ ذلك بقوله: «كان الأدب المؤرة الحقيقة لوجود كافكا». كيف يمكن كتابة سيرة مثل هذه الحياة، التي تنطلق قواها، بشكل أساسى، «في النفسي»؟ كيف يمكن سرد هذه الحياة؟

يقول شتاخ إن الكتب السابقة عن حياة كافكا هي مجرد «محاولات» و«مداخل»، «تكهنات أو تمارين أكاديمية إلزامية مخيبة للأمال».

إن قرار شتاخ أن يكتب الجزء الثاني قبل الجزء الأول من سيرة حياة كافكا، بسبب عدم وضع تركة ماكس بروド تحت تصرف العلماء حتى الآن، يكلف ثمناً باهظاً جداً، هو أننا ما زلنا لا نعرف شيئاً عن بدايات كافكا الأدبية. كما أنه ينبع عن هذا القرار غياب الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية والعرقية لبراغ في عهد كافكا.

والليلة الحقيقة لهذه السيرة تأتي من منهجها. يدعى شتاخ أن «جميع التفاصيل والأحداث موثقة؛ لاشيء مؤلف». طبعاً لا يجوز لكاتب سيرة أن يؤلف. لكن من أين علم شتاخ هذا؟: «على عكس فيليس، كان كافكا يقرأ كل كلمة ويتأمل فيها». كيف وردت فكرة قصة *الأنسان*؟ «كان كافكا يرقد على ظهره وراح يتجلو بناطريه على الجدران وسقف الغرفة... كان الجو بارداً، ومن الخارج تسلل، كما كان الحال منذ أيام، ضوء فجر يوم من أيام نوفمبر. وعلى النافذة تساقطت قطرات من الندى. كان برود قد انقطع عنه، وكانت فيليس قد انقطعت عنه». نرى من مثل هذه الجمل، التي تملأ كتاب شتاخ، أن الكاتب قد اتخاذ الرواية عن سيرة حياة نموذجاً له. وهكذا يظهر كاتب السيرة راوياً، والقارئ عليهما خبيراً، وكافكا بطلاً للرواية. إيماتي Empathie هي الكلمة السحرية لكاتب السيرة. هذه الكلمة تعني الاستعداد والقدرة على أن يضع المرء نفسه موضع الآخرين. حقاً، بدون هذه الصفة لا يقدر أحد أن يكتب سيرة حياة آخر. لكن من طرف آخر، ينبغي على كاتب السيرة أن يقف على مسافة ما من يكتب عنه. هذه المسافة تذكر أن الأمر لا يمكن أن يكون أكثر من محاولة اقتراب من صاحب السيرة. غير أن شتاخ يتعدى هذه المسافة من خلال استحضاره

لشاهد. وبأسئلة خطابية يقوم بخلق ألفة بين كاتب السيرة والبطل والقارئ. «ماذا أعاقة؟ الطقس الرديء؟». أو: «ماذا كان ينبغي فعله؟» أو: «هل كان من الممكن أن تفقد هذه الرسالة بالذات؟» أو: «لكن أين كان كافكا؟».

مثل هذه الوسائل تجعل العرض مشوفاً سهلاً القراءة، لكن السؤال الضnoon عن التأليف لا يمكن التخلص منه طوال القراءة. علماً أن هذه السيرة تحوي الكثير من المعلومات الجديدة، وينجح شتاخ في صياغة عبارات نابعة ذات مغزى عميق. فهو يكتب، مثلاً، أن تقنية كافكا الأدبية «الترابط الكامل في الداخل وربط تام لسائر المواضيع والصور والمفاهيم» هي أحد الأسباب لإخفاق كافكا في مشاريعه الروائية الثلاثة. ويأخذ شتاخ عمل كافكا الوظيفيأخذ الجد. لقد اتخذ كافكا من خبراته المهنية في المكتب وفي عناصر المصانع وقاعات المحاكم مادة لتخيلاته الأدبية.

وإذا دفع شتاخ هذا الجزء الأول من سيرة حياة كافكا ينتهي في عام الحرب الثاني، عام ١٩١٥، فإن القارئ يفاجأ بأن كاتب السيرة لا يذكر سوى أقل القليل عن علاقة كافكا بالحرب العالمية، وعن أقواله النادرة بشكل غريب حول الحرب.

إن العلاقة بين كافكا وفيليس باور تمثل مرکز هذه السيرة. وشتاخ يصف هذه العلاقة بكل دقة وبكل رقة. وهو يرى أن كافكا وفيليس إنما يقدمان رقصة بخطوات صغيرة متعرجة، غير أنها رقصة غير لطيفة. «خطوة إلى الأمام وخطوتان إلى الوراء، رقصة أشباح بلا لمس وبتشاقل غريب». ولم يسبق أن عرضت هذه العلاقة على نحو سديد أكثر. ومن هنا فإن هذه السيرة، إذا قرئت بحذر، هي رغم كل شيء مكسب محظي في كافكا (غرهارد كورتس).

ج - قصصي هي أنا

بالمعنى الدقيق - وكيف يمكن للمرء إلا يتصرف بدقة في حالة كافكا
- هذه أول سيرة حياة صحيحة تعطي موضوعها حقه.

يظهر شتاخ الهوة الشاسعة بين حياة كافكا الباطنية وحياته الظاهرة.
ولا يكفي بوصف «البعد الأفقي» في حياة كافكا، وإنما يدخل إلى «البعد
العمودي»، لكي ينزل بعض الشيء ويقتضي. الغوص في العمق الذي لا
سييل إلى بلوغه، كما يصفه كافكا نفسه.

لقد وضع شتاخ مهمة طموحة لنفسه. يعني أن يعرف ويكتب،
«كيف كان الحال، أن يكون المرء فرانز كافكا». والهدف الثاني هو أن
يعرف من نصوص كافكا، كيف يمكن مثل هذه النصوص أن ينشأ.
إن شتاخ يعيد بناء حياة كافكا، ويدع القارئ يشارك في التجربة
والتفكير والمعرفة.

يصف شتاخ حرب البلقان في عام ١٩١٢ كمقدمة للحرب العالمية
الأولى، التي يصفها من ثم بالتفصيل. لكن مهما وصف ظروفًا خارجية،
فإن ذلك يتم بهدف فهم أفضل لكائن اللغة هذا: كافكا.

عن العامين الأولين من «أعوام القرارات» يكتب شتاخ نحو مائة
صفحة. وعن العام الأول مع فيليبس باور يكتب شتاخ نحو ثلاثة صفحات:
ظهور فيليبس في حياة كافكا، الولادة الحاطفة الأسطورية لنص الحكم،
نشوء الوقاد والأنساخ والصيغة الثانية من المفقود، طوفان الرسائل بين
براغ وبرلين، إعتقد الذات للكاتب العالمي كافكا، هذا الإعتقد الذي فتح
شرنقة كاتب يحمل الاسم نفسه، ظل يجرب الكتابة طوال عقد ونصف
العقد دون أن ينشر شيئاً من كتاباته. هذه الأحداث المتجمعة بتركيز في

بضعة أسابيع وأشهر تملأُ السيرة أيضاً على نحو درامي. قبل تلك الفترة كان كل شيء مجرد تحضير، أخذ نفس. الآن وقعنا في مركز إعصار نفسي وفي نشوة عملية كتابة كافكاوية تلغى الفروق بين الخارج والداخل، بين سطح الحياة وأعماقها. شتاخ يقودنا عبر مشاهد كثيرة من حياة كافكا اليومية، ويعبر بنا قبل كل شيء قرب حياة كافكا الأخرى، حياة الليل جالساً إلى طاولة الكتابة. إذ أن « فعل الكتابة» هذا هو بؤرة الوجود بالنسبة إلى كافكا.

يعد شتاخ إلى تحليل نصوص كافكا التي نشأت في هذه السنوات الخمس. لكن هذا التحليل يتميز عن تفسيرات مفسري آثار كافكا الكثرين. فشتاخ لا يحلل آثاراً محكمة البناء ومكتملة، وإنما يروي عملية إنتاج هذه الآثار، يقدم المادة وهي في حالة التكون، يحاول تبيان هذا التلمس والبحث والتردد والافتقاد والإخفاق.

وقد جمع شتاخ مادة غزيرة عن فيليس باور، التي تعتبر أهم شخص في حياة كافكا، وهي الشخص الوحيد الذي استطاع أن يحتل في ميثولوجيا كافكا الشخصية الموقف المقابل للوالد، وأن يحافظ على هذا الموقف ردحاً من الزمن. يروي شتاخ معلومات جديدة كثيرة عن حياة فيليس وشخصيتها وعملها وأسرتها، ويلقى ضوءاً جديداً عليها يناقض الرأي القائل بأنها كانت مجرد صفة بيضاء قام كافكا بإسقاط مخيته الهائلة عليها.

يقدم كاتب السيرة فيليس باور بصفتها امرأة قوية، عصرية، مستقلة، متحررة، تحمل أعباء كثيرة في عملها وأسرتها. بهذه الصورة يكتسب عرض شتاخ لسنوات كافكا الخامسة قدرًا أكبر من التقليل والمسؤولية والعدالة أيضاً. فنحن لا نعود نقف هنا بلا ترو إلى جانب العقري ونتائجـه. فقد أصبحنا نعلم أنه كان من شأن فيليس أن تجاذف وتوقف إلى جانب كافكا،

وتعيش معه، وتصمد، لو أراد هو أن يستطيع، أو لو استطاع أن يرید.

في رحلة قراءة هذا الكتاب الطويلة يدخل القارئ إلى أعماق حياة كافكا وكتابته. يشعر أنه كان في «حجر الخلد»... بكهوفه وأنفاقه ومراته. وإذا بخرج منه، بانتهائه من قراءة الكتاب، يفرك عينيه ويرمش بهما وهو يرى عالماً غريباً لم يعد بديهياً تماماً. يبدو، إذًا، أن تجربة راينر شتاخ معنا ومع كافكا هي تجربة ناجحة. إن روایته الوثائقية التأملية جذبتنا إلى متاهة حياة غير سعيدة على نحو جلي وكتابة ناجحة على نحو غامض مبهم. جذبتنا وورطتنا بحيث فقد أثناء القراءة ما يسمى «الحياة المألوفة». إننا علمنا أكثر بكثير مما علمنا عن كافكا. وقلما يمكن قول هذا عن كتاب آخر عنه (راينهارد باومغارث).

ح - كتاب شتاخ: ما له وما عليه

«ثمة شيء ما على كل حال أشاركه كافكا وموزيل»، يكتب معاصرها هرمان بروخ، «نحن ثلاثة لا نملك سيرة حقيقة؛ لقد عشنا وكتبنا، وهذا هو كل شيء». وحقاً سارت حياة هؤلاء العظماء الثلاثة على نحو لا يلفت النظر ظاهرياً وفي مسارات متواضعة، وحتى أن روبرت موزيل يعترف بشكل واضح: «لن أدون أموراً شخصية إلا فيما ندر، وفقط عندما أعتقد أنها ستكون لي يوماً ما ذات أهمية فكرية». إن اتجاه الهدف المعطى بهذا واضح: لا يهم الشاعر إلا الجوهرى، وهذا هو آثاره الفنية.

أما عندما يحصل فنان بهذه الآثار على شهرة عالمية، فإن فضول الناس يزداد لمعرفة شخص المؤلف وحياته ومحيطة مشكلاته وحلولها. وقد استثمر ماكس برود، أول من استثمر، الاهتمام العالمي بصديقه فرانز كافكا،

ونشر سيرة حياة ضمت ذكرياته من اثنين وعشرين عاماً مشتركاً. وجرت تكملة هذه الذكريات بالصيغة الأولى التي نفذت بسرعة من كتاب غوستاف يانوش «أحاديث مع كافكا». كلاوس فاغنباخ تقصى علمياً سيرة حياة الشاعر في شبابه. وهارموند بيتر وضع بعد ذلك مرجعاً في جرلين جمع فيه كل ما أمكن ربطه بشكل من الأشكال باسم كافكا. وهانس - غرد كوخ أيضاً ينهج نهجه. بضم كتابه تسعًا وثلاثين مقالة كتبها معاصرون لكافكا تحوي ذكرياتهم التي تصل من أحاديث في المصعد الكهربائي إلى بيانات متناقضة عن ربطات العنق المفضلة لدى الشاعر حتى أكلته المحبوبة «فطائر حسب وصفة د. لامان». لكن كل هذا تتفوق عليه الآن «أول سيرة حياة كافكا عظيمة في اللغة الألمانية» من راينر شتاخ في دار نشر فيشر. من الأجزاء الثلاثة المختلط لها صدر الجزء المتوسط، ويقع وحده في ٦٧٣ صفحة. لا ريب أنه عمل ضخم!

ورغم أن محب كافكا لا يكتشف شيئاً جديداً جداً، اللهم إلا إذا كان يهتم جدياً بالحيانات الزوجية لوالد خطيبة كافكا مرتين فيليس باور أو بالأعمال الجنائية لشقيقها، فإن كتاب السيرة هذا يقدم لقارئه متعة أخاذة ولا ريب. بلغة وأسلوب سلسين يسحر شتاخ قبل كل شيء بفن عرضه الواضح الذي يشي بخيال واسع. إن الواقع تتحول إلى حدث قراءة مؤثر. الانخراط في الحو، الحضور المباشر، القرارات الواجب اتخاذها بم بشقة وعلى مهل، والتي يفككها دائماً وأبداً التردد ويجري التراجع عنها في الغالب، احتمال الخطيبة المضني، هزة رأس الوالد المؤنة، المحكمة ذات الواقع الصاعق في فندق أسكانيا... كل هذا يصدم ويؤثر في النفس أعمق تأثير. إن القارئ يصبح معاصرًا مباشراً لكافكا، يرافقه على دروبه كلها، يعيش ويعاني معه

كل الروساوس والخواوف في حياته المعقّدة. من هذا الجانب، إن كتاب شتاخ هو كتاب سيرة كما يمتناه المرء. لو لم تكن آثار الشاعر!

لقد حاول هارتمانه بيندر أن يعيد تجويع أقسام رواية المحاكمة غير المكتملة التي خلفها كافكا على نحو غير منتظم إلى حياة الشاعر المعاشرة، كي يبرهن على أن هذه الكتابات ليست سوى انعكاس للهموم اليومية. وبهذا اعتقاد جاداً بأنه بهذه الطريقة يحقق ترتيباً جديداً للفصول مجدياً. الواقع المتسلسل للحياة كأحجار بناء في الصياغة الإبداعية لأثر في! لم يكن في مقدور هذا أن يلقى التوفيق، وهو لم يلق أيضاً. إن شتاخ لا يكرر هذا الخطأ. بالأحرى يسلك الطريق المعاكس، وذلك بأن يأخذ الشكوك المعقّدة والجوهريّة جداً للشاعر المرهف والموزان بتردد، ويسقطها على الآثار الإبداعية ويطيلها. غير أن هذا الطريق أيضاً لا يقدر أن يعطي صياغة أثر في مستقلة حقها. إن شتاخ لا يملك شيئاً يقوله حول ترتيب الفصول في رواية المحاكمة، ولهذا السبب يقر على نحو قاطع جازم: «إن المعضلة، مع هذه المخطوطة، هي غير قابلة للمحل». وفي حقيقة الأمر أخفق حتى الآن جميع كتاب السيرة والناشرون في حل هذه المعضلة. إن التصحيحات الخذرة في الطبعة النقدية بإشراف باسلي هي خاطئة، والطبعة النقدية اللاحقة الصادرة عن دار نشر شترومفلد تستغني عن كل محاولة لترتيب الفصول. على كل حال تذكر في المقدمة جهود بعض المفسرين، وهذا يبشر بالأمل. إذ أن كافكا ترك للأجيال الآتية أحجار بناء ملونة لفسسيفساء ضخمة. والآن لن يوجد عالم أدب يكون قادراً على ترتيب اللوحة العظيمة ترتيباً معقولاً إلى حد ما! من شأن هذا أن يكون اعترافاً بفشل اختصاصي كافكا جمعيهم. إن تفسيرات كافكا هي تفسيرات معقّدة أثارت اليأس في نفوس بعض المفسرين. لكن بعد أن تم مارتن فالزر حيلة تحويل آثار كافكا الفنية

نفسها ذنب فشله هو، بقوله إن هذه الآثار تعني العبث، أعاد الاعتبار إلى فيالق من المفسرين الفاشلين، لا بل دعا مفسرين جددًا لتأكيد هذا العبث الباطل. وشتان يعرف هذا الحطام، بيد أنه لا يفعل شيئاً سوى أن يعتليه مع الأسف. إنه يضيء ساعات النهار للشاعر، غير أنه لا يلقي ضوءاً على لياليهظلمة. عندما يريد كافكا أن يكون وحيداً، كي يتفتح باطنها ويقذف ما هو عميق؛ وعندما يأمل من فنه، هذا الفن الذي كان يعني بالنسبة إليه الأهم في هذه الحياة، الذوبان الإلهي ويقطنة حقيقة، وعندما يعيش لدى إمام أثر فني متقن شعوراً خاصاً بالرضى والسعادة ويكسب وضوح إدراك، فإن شتان يكون قد وَدَعَ منذ مدة طويلة.

على السؤال: ومن يعطيك القوة؟ يجيب كافكا: من يعطيك وضوح الرؤية. على تقىض ذلك يصل شتان إلى النتيجة وخيمة العاقب: «إن محاكمة كافكا هي شيء رهيب. لا شيء هنا عادي، لا شيء سهل. سواء نظرنا إلى نشوء الرواية أم إلى المخطوطة، إلى الشكل أم المضمون أم التفسير؛ فإن النتيجة تظل واحدة: عتمة وغموض أى نظرنا». مع الأسف لا يمكن لبارقة أمل أن تصيء في هذا العته. لكن لا يوجد نص شعري لكافكا إلا ويحمله هذا الأمل ويحدده. إن شعاره الأبي كان: **عدم التخلّي!** وحتى إذا لم يأت الخلاص، فإنه أريد رغم ذلك أن أكون في كل لحظة جديراً به. وحقاً أعطى هذا الإنجيل الدنيوي كامل حياة كافكا الكرامات التي لا شك فيها. كان يعرف أن مصاعب حياته هي الثمن الذي وجب عليه أن يدفعه تضحيّة على قربان فنه. لكنه كان مستعداً لدفعه كاماً وبغير تحفظ: العالم الهائل الذي أملكه في رأسي. لكن كيف أتحرر وأحرره، دون أن أتفرق. ومن الأفضل ألف مرة أن أتفرق من أن أحافظ به في نفسي أو أن أتجاهله. فأنا هنا حقاً لهذه الغاية، وهذا واضح لي كل الوضوح. إن آثار

كافكا الفنية تهب القارئ المفتوح والفضولي عقلياً مدارك عظيمة متربعة بالمعنى. ومع الأسف ليس راينر شتاخ من مقدمي هذه المدارك. إنه يكتفي ببيث الروح في حياة كافكا اليومية المعاشرة. ومن يتبعه على هذا الطريق، لن يصاب بخيئة أمل بكل تأكيد. لكن من يريد أن يفهم فن كافكا، فإنه لا يوجد لدى شتاخ سوى القليل من العون. وإنه لمن المؤسف حقاً أن شتاخ لا يعرف على ما يبدو التفسيرات التي تصل إلى الجوهر والتي لا يمكن ترتيب فصول رواية المحاكمة سوى بناء عليها. إن هرمان بروخ وروبرت موزيل هما على حق: ليس المؤلف في حياته اليومية، وإنما غير المؤلف في آثاره الفنية، أي الجوهرى، هو الذي يجب أن يثير الاهتمام بشاعر عظيم.

(د. كريستيان إشفايلر)

٢ - الحكم على الذات

بتاريخ التاسع والعشرين من كانون الأول عام ١٨٩٩، بعد ظهر يوم جمعة، دخل عامل عاطل عن العمل مكاتب «مؤسسة التأمين على حوادث العمال» في براغ، كي يطلب دعماً مالياً. وحين رفض طلبه بعد فحص حالته، راح يشتم الموظفين بصوت عال وقدف بضعة كراسى في المكان. وإذا أسرع بعض الخدم على أثر الضجة غير المألوفة، سحب مدية من جيبه. وقد وجّب استدعاء شرطي، وبعد ذلك فحصت تمّ بقى مجتمعة انتزاع السلاح من الغاضب. وجرى تسليمه إلى مديرية الشرطة، حيث سجلت بياناته الشخصية. كان الرجل يدعى يوسف كافكا، وقد جاء من قرية في شرق بوهيميا. ولعدم وجود قانون صحفة آنذاك، فقد نشرت الحكاية في الصحف مع ذكر الاسم الكامل. أما اليوم، فإن من شأن هذا الرجل أن يدعى: «يوسف ك»، ويكون بطل قصة في قسم المخليات في الصحف.

«كم هم متواضعون هؤلاء الناس!» قال بعد نحو عشر سنوات موظف مؤسسة التأمين فرانز كافكا لصديقه ماكس برود، «إنهم يأتون إلينا ويتسلون. بدلاً من اقتحام المؤسسة وتحطيم كل شيء، يأتون ويتسلون». وليس من المستبعد أن يكون كافكا قد سمع هذه القصة من رئيسه مارشنر مدير المؤسسة، الذي كان آنذاك رئيس القسم الذي تولاه كافكا فيما بعد.

ومن شأنها أن تكون قد أثرت في نفس كافكا؛ وكون سمّيه الغاضب، ولعل قرابة بعيدة تربطه به، قد سُتيَّ، مثله تماماً، باسم القيصر الحاكم (فرازير يوزف)، فإن ذلك لم يجعل كل شيء سوى أكثر غرابة وطرافة.

في صيف عام ١٩١٤ كان الساسة والعسكريون في ألمانيا والنمسا يخططون للحرب (التي عرفت في ما بعد بالحرب العالمية الأولى)، لكن السكان كانوا لا يعرفون شيئاً عن ذلك. ولم يكن هناك رأي عام ن כדי. ولم تكن أمور السياسة تشغّل أفكار المثقفين. وكانت الحرب غائبة كلياً في مخططات الحياة الشخصية وفي التخيلات والأمنيات. وكان هذا ينطبق على كافكا أيضاً. ومن كتاباته لا نستقي شيئاً يذكر عن وجه الحرب الظاهري. وكان كافكا يرهب الحرب ويكرهها. ولأسباب صحية استثنى من التعثّة العامة. وقد فرح لذلك، فقد أراد أن يبقى وحيداً. وفي الوقت نفسه أحس نمو ميل داخلي، توتر عصبي. وراحت مشاهد واضحة العالم، وصور، وجمل تعبر وعيه. كان الأمر حالة من القلق الخالق، يعرفه كافكا ويتنظره منذ أن قام بتحمية أوراق المفقود جانباً قبل أكثر من عام ونصف العام. في ٢٨ تموز كتب كافكا في يومياته: إذا لم أنفذ نفسي في عمل، فإني سأضيع. كان في مقدور كافكا أن يقول ذلك، لأن الخلاص كان قريباً.

في الثاني من آب، بعد ساعات قليلة فقط من بدء كارثة القرن العشرين الأولى، ودع كافكا التهليل والأعداد الخاصة من الصحف والبيانات والخطب والإشعارات وتخزين مواد التموين، ودع الأزياء العسكرية والمدافع المحورة والرأييات النظيفة والنساء المنتسبة. والجملة التي أدار بها ظهره للعالم جملة شهيرة من يومياته: ألمانيا أعلنت الحرب على

روسيا. بعد الظهر مدرسة سباحة. إنها جملة باردة وغريبة. لكن هذا كان كل ما يمكن قوله.

في اليوم التالي انتقلت شقيقة كافكا إلى منزل الوالدين، بسبب غياب زوجها في الحرب، وسكنت في غرفة كافكا، في حين انتقل هو إلى منزلها. هناك - وكانت هذه هي المرة الأولى التي يقيم فيها خارج منزل أهله - فتح دفاتره وكتب: خلوة كاملة. ما من زوجة مشتهاة تفتح الباب. في غضون شهر كان على أن أتزوج. الكلمة رهيبة: كما أردت، وجدت.

يوزف ك: ظهر الاسم المختزل لأول مرة في ٢٩ تموز عام ١٩١٤، وذلك بعد يوم واحد فقط من قرار كافكا أن «ينفذ» نفسه بعمل كتابة. ومرة أخرى كانت قصة آب - ابن هي التي أحلت عليه، وكان الشخص الرئيسي فيها يدعى «هانس غوره». غير أنه خطر لخيال كافكا فيما بعد أن يضع مكان الاسم شيفرة. شيفرة واضحة وكتومة في آن. كان هو يعرف ماذا يعني ك. والقارئ يستطيع أن يتصور.

ولا نعلم فيما إذا كان كافكا قد قام بتجارب أخرى مع ظل نفسه هذا، قبل أن يدخله إلى طاحونة المحاكمة. في «دفتر اليوميات التاسع»، الذي استخدمه لبداية الرواية، ثمة عدة صفحات ناقصة: محاولات كتابة من تلك الأيام الأولى من عزلة جديدة، نصف منشودة ونصف ملزمة، وجدتها في منزل شقيقته. وقطط في نحو العاشر من آب - هذا ما تكشف عنه الأوراق الباقية - طرأ على كافكا الفكرة الخامسة. وعلى عادته رسم خطأً قصيراً علاماً على بدء محاولة جديدة، وكتب من ثم جملة غريبة عجيبة: لا بد أن أحداً قد افترى على يوزف ك، إذ أسر ذات صباح دون أن يكون من شأنه قد فعل شرّاً.

أسر؟ هكذا جاء في الخطوط، على نحو متروع جداً. لكن المفهوم يضلل، كما لا بد أن يكون كافكا قد أدرك ذلك بعد قليل. إن الأسر هو فعل حربي، وكان المرء يقرأ عنه يومياً في الصحافة، ومن هذا الطريق كانت الحرب قد تسللت إلى الكلمات الأولى من روايته. لكن في زمن السلم - وفي المحاكمة يسود سلام على نحو واضح - لا يكون الأسر ممكناً سوى كلعبة أولاد أو كابوساً. وكان على كافكا أن يصحح الجملة، إذ إنه بالتأكيد لم يكن يريد أن يصف حلماً، كما إنه لم يصف حلماً في قصة الانفاسخ. وفي اليوم التالي وجد الحل. وكانت جرعة قلم كافية لوضع الرواية على طريق آخر. وهكذا نشأت واحدة من «الجمل الأولى» الأكثر شهرة في الأدب الروائي: لا بد أن أحداً قد افترى على يوزف ك، إذ اعتقل ذات صباح دون أن يكون من شأنه قد فعل شرًا.

إن محاكمة كافكا هي شيء رهيب. لا شيء هنا عادي، لا شيء سهل. سواء نظرنا إلى نشوء الرواية أم إلى الخطوط، إلى الشكل أم المضمون أم التفسير؛ فإن النتيجة تظل واحدة: عتمة وغموض آتى نظرنا.

وكان أول من ذاق هذا هو ماكس برود، الذي كان كافكا يتلو عليه بين الفينة والأخرى بعض صفحات، والذي أخذ الخطوط في النهاية لكي يقيها من الإتلاف الذي كان يهددها. كانت المحاكمة عملاً رئيسياً، ومن هنا كانت مناسبة لإظهار شهرة الصديق الأدبية مثلما يظهر شهاب عظيم. ولم يكن لدى برود أذني شك بقدوم هذه الشهرة. غير أن ما كان يمسكه بين يديه كان ١٦١ ورقة منفصلة مكتوبة في الغالب على الوجهين ومقطعة من دفاتر شتى. وكان كافكا قد رتب هذه الأوراق ترتيباً مؤقتاً غير كاف، بأن قسمتها إلى حزم صغيرة، ووضع كل حزمة داخل ورقة غلاف كتب

عليها عنواناً مؤقتاً. وقد اعتبر بعضهم في ما بعد هذه الحزم «فصولاً». لكن كان هناك «حزم» لا تتألف سوى من ورقة واحدة، ولدى حزم أخرى كان من المشكوك فيه في ما إذا لم تكن تحوي أكثر من فصل. ولم يكنafka قد ذكر شيئاً عما هي الأقسام التي يعتبرها مكتملة، كما أنه لم يكن قد رقمها. وبالتالي وجد برود نفسه أمام خليط من فصول مكتملة، وفصول مكتملة تقريباً، وفصول نصف مكتملة، وبدايات فصول. وكان برود مضطراً إلى تحديد تسلسل الفصول إذا أريد لها أن تشكل يوماً ما كتاباً. ولا ريب أن برود كان طوال أعوام يملّك فرصة لسؤال الكاتب نفسه عن ذلك. ييد أنه تقاضى السؤال. كان مسروراً لمجرد أنه يحفظ في درجه هذا الكتّن بأمان. وهكذا اقتصر على الضغط بطريقته المألوفة على Kafka، بأن راح يتحدث علينا عن رواية «مكتملة»، بل إنه هدد ذات مرة بأن «يحييك» المحاكمة إلى النهاية على مسؤوليته الخاصة. فقد نشر في عام ١٩٢١ مقالة بعنوان «الشاعر فرانز Kafka» تحدث فيها عن «العمل الأعظم» ل Kafka، «رواية المحاكمة، المكتملة حسب رأيي، لكن حسب رأي الشاعر طبعاً غير مكتملة، غير القابلة للاكمال وغير القابلة للنشر». ولو كان Kafka قد راودته مجرد شبهة بأنه يمكن لبرود أن يعني ما يقول، فلا بد أنه كان سيطلب ولا شك إعادة أوراق المحاكمة إليه.

لم يكن برود يمتلك ما يمتلكه عالم اللغة المتدرس من عدة حرفية وضمير مهني. فهو لم يتورع عن شطب مقاطع كتبها Kafka بطريقة الاحتزال، وتبييضها بيده على الورقة نفسها. وقد جاء إلى كل وسيلة من أجل تحويل نظر القراء عن عدم اكتمال الرواية، هؤلاء القراء الذين كان ما زال يجب إقناعهم بعصرية Kafka. وأكمل برود وضع النقاط والفوائل الناقصة، وقام بتوحيد الأسماء، لا بل إنه حرك جمالاً من أجل إكمال فصل

غير مكتمل. وما كان غير مكتمل على نحو مبالغ فيه، أهمله أو عمد إلى نفيه إلى ملحق الطبعات اللاحقة. وما تبقى قام بترتيبه طبقاً لإحساسه. وبهذه الطريقة غير النادرة نشأ في نهاية المطاف نص انحنى فوقه عبر أجيال مفسرون، كأن الأمر يتعلّق بنص نزل وحياً.

واليوم، إذ يمكن لكل قارئ معاينة الأوراق الأصلية بصورة طبق الأصل، يمكننا أن ندرك بسهولة أن برود إنما قام بعمل جيد، قياساً إلى الظروف التي يصعب أن تكون أكثر معاكسة. وكان هدف برود هو، بعد وفاة كافكا، نشر آثار هذا الرئيسية بأسرع ما يمكن. وقد حقق برود هذا الهدف في غضون تسعه أشهر فقط. لكن هناك سؤالاً لم يتمكن برود من الإجابة عليه: كيف كان كافكا خليقاً أن يرتب في نهاية الأمر أحجار بناة أثره الفني وأن يربطها مع بعضها البعض ويسد ثغراتها؟ ورغم التقدم الهائل الذي أحرزته وسائل التحقيق، فما من أحد نجح حتى اليوم بتقديم حل مرض. إن المعضلة، مع هذه المخطوطة، هي غير قابلة للحل. وهكذا لا يبقى أمامنا شيء آخر سوى أن نأمل وجود فهرس وضعه كافكا بنفسه، يجري اكتشافه يوماً ما في عملية ما مناسبة على سطح منزل من المنازل في براغ...

إن وضع مخطوطته الفوضوي يعود إلى قرار عملي اتخذه بهدف وحيد هو «تأديب» كتابته. لقد أمعن كافكا التفكير في سبب عدم إنتهاء رواية المفقود، وأراد هذه المرة أن يعمل الأمر على نحو معاير وبطريقة أفضل. كان يتوقف إلى أن يقذف من أعماقه وبانشاء صوراً ومشاهد بدون أي انقطاع أو إخلال، شبيه ولادة كائن حي. وكانت هذه الرغبة غير قابلة للتحقيق، حالما حطمت تلك الصور إطار القصة القصيرة وتوسعت لتصبح عالماً قائماً بذاته. هناك حدود للطبيعة البشرية. وغالباً ما كان كافكا يستشعر ذلك؛ أما الآن فقد شرع في قبوله. الشاعر أيضاً يجب أن ينام. وحتى لو

أقام في قو خلف أسوار لا يمكن اجتيازها، فإنه لن يتمكن من التخلص من جسمه المحتاج، الحياة، التي هي الإزعاج في حد ذاته.

العمل بانتظام: هذا شرط أساسى حاول برود منذ أعوام إقناعه به. يريد أن كافكا كان يشعر أنه غير قادر على أن يفرض على كتابته استمرارية وإيقاع عمل يومي. عندما لم يكن ينفذ عبر الأبواب الداخلية لا صوت ولا شعاع، كان يؤثر الانقطاع عن الكتابة وإعادة المحاولة في اليوم التالي. وإذا لم يتحل المرء بهذا الصبر، فإنه يكون في خطر أن يقوم «بتضييمات» سطحية، من شأنها أن تدمر أجمل عمل. وهذا ما أثبته نص ريشارد وصوميل قبل سنوات. بنوع من الاشمئزاز راح كافكا يفكـر بذلك النص، الذي اضطر إلى المشاركة في كتابته مع ماكس بروـد بناء على إلحاح من هذا أبناء إجازة مشتركة.

غير أن المحاكمة افتحت إمكانيات حرفة جديدة لم يكن كافكا قد فكر بها فقط. كان كافكا يريد أن يصف المحاكمة حقيقة مع كل علاماتها القضائية المميزة. وكان يريد أن يصف تأثير هذه المحاكمة على مدعى عليه يعيش في محـيط واضح المعالم وتحـقق حـياته في عدد محدود من العلاقات المألوفة: مؤجرة، جارة، عشيقـة، أم، زملاء، رؤسـاء عمل، زبائن عمل، محـامي، دليل. هل كان من الضروري حـقيقة تلمس الطريق عبر أقدار هؤـلاء الناس بـخط مستقيم وبـترتيب زمنـي، كما كان كافـكا قد فعل مع المـفقود؟ ألم تـكن هناك استراتيـجيات أخرى أيضاً مـحكمة؟ لا رـيب. وطالما أن كل زاوية تـنتظر البـطل مـفاجأة، فإنه لا يـقى أـمام الكـاتب شيء آخر سـوى البقاء لـديه واستئـاف العمل دائمـاً حيث ظـل باقـياً في اليوم السـابق. هناك أو ليس في أي مكان. إذ عليه أن يـحدد سـلفاً تـطورات لا يـخبر وجودـها سـوى الآن، في هذه اللـحظـة، إذ تـظـهر في مـخـروط ضـوء مشـاهـده

التخيلية. بيد أن هذا الأفق ضيق، ومن هنا تظل مهمته واحدة دائماً: الانتقال من الجملة الأخيرة لليلة الأخيرة إلى الجملة الأولى للميوم الجديد.

لكن المحاكمة كانت على نحو مغاير. كانت عدّة ساعة تقع آليتها تحت الضوء الكامل للوعي. كان لدى كافكا بداية كان لابدّ أن يقع عليها برق ادعاء واتهام، وكان لديه نهاية لا يمكنها أن تتألف سوى من تنفيذ الحكم. وبهذا أصبح هناك إطار سلسلة من مشاهد مرتبطة مع بعضها بعض دون تماسك نشأت بالضرورة من فكرة المجموع. والخدعة الفنية المنطقية التي اهتدى إليها كافكا كانت تكمن بأن لا يكتب سوى في المشهد الذي يقف أمام عينيه بشدة أكثر. مرة في هذا الدفتر ومرة في ذاك. وإذا لم يوجد دفتر جديد في متداول اليد لتدوين محاولات أخرى، فإن كافكا كان يقلب دفتراً مكتوباً ويروح يكتب فيه ابتداء من الوراء. ولأن بداية الرواية ونهايتها كانتا الدعامتين المحددين بوضوح شديد، واللتين سيقوم عليهما البناء كلّه، فإن كافكا كتب هذين الفصلين أول ما كتب، بل ومن الممكن أنه قد كتبهما في وقت واحد.

بهذا ضمن كافكا أن يسير العمل في حقل محدود. كما أنه عقد العزم على معالجة المصاعب التقنية للكتابة بدلاً عن الحلم بظروف مثالية. كان كافكا يبدو لأصدقائه، منذ أشهر، عصبياً ومجهداً ومكلفاً أكثر من وسعه في جميع الشؤون العملية. ولم يكن في مقدور هؤلاء الأصدقاء أن يحدسوا أن كافكا إنما كان يرى أمام عينيه الشمار التي كانت نفسه تصبو إليها. إن التركيز الذي كان يتضنه عيناً طوال عام، طرأ الآن على نحو مفاجئ. الآن بات يجب الشروع في العمل وجنى المحصول، على وجه السرعة وبكلتا اليدين.

من ناحية الأدب قدرى بسيط للغاية. إن الحس لتصوير حياته

الباطنية الحلمية أزاح كل شيء إلى الثانوي، وهذا ضمر على نحو مخيف ولا يتوقف عن الضمور. وما من شيء آخر يقدر أن يرضيني. بيد أن طاقتني على ذلك التصوير ليست بيدي ولا يمكن حسبانها، وربما تكون قد تلاشت إلى الأبد، وربما تهبط على مرة أخرى، لكن ظروف حياتي غير مواتية لها. وهكذا أتأرجح، أطير بلا انقطاع إلى ذروة الجبل، بيد أنني لا أستطيع بالكاد أن أبقى في الأعلى لحظة واحدة. آخرؤن يتأرجحون أيضاً، لكن في مناطق سفلية وبطاقات أكبر؛ وإذا هم هددوا بالسقوط، فإن القريب الذي يسير إلى جانبهم لهذا الغرض يتلقفهم. أما أنا، فإبني أتأرجح هناك في الأعلى، وما من ثمة موت مع الأسف، لكن آلام الاحضار الأبدية (اليوميات، ٦ آب ١٩١٤).

هذا المقطع هو من أشهر المقاطع ومن أكثر المقاطع التي يستشهد بها من يوميات كافكا. يذكره الدارسون شهادةً على الشك بالذات، لا بل وداعاً من الحياة، هذه الحياة التي ارتدت كلياً، بعد الانفصال عن فيليس، إلى الثانوي. وفعلاً يتعلق الأمر بأقوى وصف لحياة كافكا نعرف منه. إنه يتحدث إلى نفسه: يتحدث عن الذروة التي يتأرجح عليها، ويتحدث عن منطقة الموت التي يقيم فيها وحده كلياً. وليس خليقاً أن يتحدث عن ذلك، لو لم يكن يرى الذروة أمامه. وهو سوف يقيم هناك، بعد بضعة أيام فحسب. وما كاد يقوم بالخطوات الأولى في الأقاليم الموحشة لعالم المحاكمة، حتى لم يعد لديه هو أيضاً أي شك بذلك.

أكتب منذ بضعة أيام، وأحب أن أحافظ. إنني اليوم لست محمياً كلياً وقابعاً في العمل مثلما كنت قبل عامين، لكنني على كل حال وجدت معنى، وبات حياتي المنتظمة، الخاوية، حياة العزووية الجنونية، مبرّر. لقد أصبح في مقدوري أن أجري محاورة مع نفسي ولا أحدق

هكذا في الفراغ الكامل. وليس ثمة تحسن بالنسبة إلى سوى على هذا الطريق (اليوميات، ١٥ آب ١٩١٤).

إن كافكا يقف الآن في بداية المرحلة الإبداعية الأكثر خصوبة في حياته. ويجوز لنا أن نخمن مصدر الإمداد المفاجئ لوقود الإبداع: إنه ذلك القدر من الطاقة الذي كان الكفاح النفسي حول الزواج قد حرقه طوال أشهر وأعوام. إن الأمر هو كأن ستارة قد فتحت. إن المسرح الداخلي، الذي كان غارقاً مدة طويلة بين النور والظلمة، يشع الآن كما في ضوء مصابيح كهربائية. شخص تظاهر، مشاهد، مناظر طبيعية، واقعية وبدنية كما في هلوسة الحمى. في البداية يفيض عليه الأمر، يدون جملأً ومشاهد قصيرة تومض وتختفي على مهل؛ لكن سرعان ما يغفر كافكا ليصبح مخرجاً لتلك الأحلام، يمسك بزمام الأمر، يطبق يديه حقاً، يحاول مرة تلو الأخرى أن يحث نفسه من جديد كأنه متهدد الفنان، متهدد نفسه: أعلم أنه لا يجوز لي أن أتراجع، إذا ما أردت أن أصل، عبر المتاعب الدنيا للكتابة المكتوبة بطريقة حياتي، إلى الحرية الأكبر التي قد تكون تنتظرني.

يريد كافكا الآن أن يستدرك ما فاته، وهو يجيء أكثر مما يستطيع أن يفهمه. وبعد مدة قصيرة لم تعد الكتابة المردوحة في دفاتر المحاكمة تكفيه، فيخرج مخطوطة المفقود، تلك الرواية التي كان قد توقف عن الكتابة فيها منذ فترة طويلة ونسىها تقريراً في الدرج، يقرأ الآن فيها، يمعن التفكير، ويشرع في وضع مشهد جديد. صور أخرى، خارقة، تتدافع إلى الخارج وتفجر نطاق التجارب في شوارع المدينة ومكاتبها: هكذا ذات مساء مشهد منظر طبيعي واسع، منبسط، رتيب، يقطعه خط سكة حديدية، من لا مكان إلى لا مكان. نقطة في هذا المطر، كوخ حقير يستخدم مبني محطة، في الداخل غريب يؤدي خدمة موحشة كما هي غير ذات جدوى. ذكريات

سكة حديد كالدالا يسمى كافكا هذه الرؤيا السيбирية التي تتأي أكثراً ما يمكن عن عالم المحاكمة، والتي يرسمها رغم ذلك في الوقت نفسه. اليوميات ثبتت هذا. كذلك تخيلات العقاب القديمة تلح مرة أخرى، صور عنف آلي جامد. ومشهد الإعدام في المحاكمة، هذا المشهد الذي يقوم فيه جلادان مهذبان بإغمام سكين في قلب المدعى عليه، ينهك كافكا إلى درجة أنه، قبل ثوان من موت بطله، يفقد المسافة التي تفصل القاص عن أثره الفني وينغمر في الرواية: رفعت يديه، جاء في الخطوط أولًا، وفرجت ما بين أصابعه^(*).

إن النتاج الأدبي الذي أبدعه كافكا في الأشهر الأخيرة من عام ١٩١٤ هو نتاج ضخم. من العجيب أن المضائقات تقويني، كتب كافكا حين كان انفصالة عن فيليبس قد ارتسם في الأفق. وعندما تم هذا الانفصال، رد كافكا بعمل غير مألف: فقد قرر مغادرة براغ وأهله ووظيفته.

يبد أن ما عاشه بعد بدء الحرب لم يعد مجرد مضائقات، بل نكبات. وتحولت حياته إلى حال مؤقتة متقلبة. ووضعت قدرته على إدارة ظهره للعالم تحت امتحان قاس. وألقت الحرب ظلالها على الحياة في البيت والعمل والمكتب. ورغم أن نصف موظفي القسم، الذي كان كافكا نائباً لرئيسه، قد سحبوا إلى الحرب، فقد تمكنا كافكا من الحصول على إجازة عمل لمدة أسبوعين في تشرين الأول ١٩١٤. وقد أمضاها في شقة شقيقته، وعمل في الليالي خاصة دون ترويج عن النفس. كتب في المحاكمة، وكتب الفصل الأخير من رواية المفقود، وصمم الجحيم الآلي لقصة في مستعمرة

(*) صصح كافكا الجملة لتصبح: رفع يديه وفرج ما بين أصابعه.

العقاب. كان كافكا في غضون هذين الأسبوعين يقف على قمة قدرته على التركيز؛ ورغم ذلك لم يكن بحاجة إلى إقصاء فكرة موت منقذ بيده نفسه، فيما راح يصب تخيلاته السادية بلغة الكلاسيك، ويشهد لنفسه بـ عمل جيد وفهم كامل لوضعه.

وطفت الضغوط الخارجية على كافكا، وشلت قوة إنتاجه. واضطر إلى التوقف عن الكتابة في المحاكمة في منتصف كانون الثاني عام ١٩١٥.

«جميعنا، نحن الذين نشرع في قراءة كتاب، لنعرف بعد عشرين أو ثلاثين صفحة أين نضع الكاتب؛ ما هذا الذي نقرؤه؟ كيف يجري الأمر؛ فيما إذا كان الموضوع جداً أم لا؟ أين نضع الكتاب على وجه الإجمال. هنا لا تعرف شيئاً إنك تتلمس طريقك في الظلام. ما هذا؟ من يتكلم؟». لم يعد يجوز لنا اليوم أن نكتب عن المحاكمة كافكا بهذه الطريقة المترانحية. كان ذلك زمن البراءة، زمن الاندھاش الأول. كان الشاعر كورت توكولسكي هو الذي لم يعرف كيف يهدئ روعه أمام كون جمالي لم يجد له لا حلماً ولا حقيقة، لا مجازاً ولا رمزاً. إنه عالم يتلهف بالذات على معنى وفهم، وذلك دون إبطاء، حتى أن توكولسكي توجه إلى برود راجياً منه الكلمة لإيضاح تاريخه.

من شأن نقاد الأدب اليوم أن يتسموا: من المؤكد أن المحاكمة منيعة ولا يمكن الوصول إلى دقائقها بفضل هذه الراحة. هنا تقدمنا جزءاً لا بأس به من الطريق. ومع ذلك: أليس دهشة توكولسكي أمام اللغز العصي على سبر غور هذا النص وقابليةه للفهم والإدراك، هي الشرط اللازم لقراءة تكون وحدها قراءة جديرة بهذا اللغز؟ «هنا لا تعرف شيئاً». هذه هي التجربة التي لا يمكن لقارئ أن يوفرها على نفسه.

ييد أنه بات من العسير قراءة المحاكمة بأعين بريئة هكذا. إن أثر كافكا هذا يشارك عجائب الطبيعة قدرها، هذه العجائب التي غالباً ما جرى إظهارها من المناظير نفسها دائماً، بأن الأمر لم يعد بحاجة إلى معايشة حقيقة أبداً، وذلك لأن صورة داخلية إنما قد حلّت محل الواقع. حتى إن أعمق قراءة والغوص الكامل في لغة كافكا لا يحسّن أبداً ضد الصور الثانوية التي يوقدّها فيلم اورسون ويزل في وعي القارئ. لا بل إنه من الممكن أن مشاهدي الفيلم الذين يقرؤون الرواية بعد مشاهدتهم للفيلم إنما يصابون بخيالية أمل: يجدون البطل أقل جاذبية وأكثر كلاماً، وعلى وجه الإجمال تجرّي في الكتاب مساومة حول كلمات ودقائق لغوية، وكان الكاتب إنما يريد أن «يرهن» لا أن يقص.

وبصاعب مائلاً ولا ريب يكافع أولئك الذين اتخذوا من القراءة مهنة: النقاد وعلماء الأدب. ليست الصور السينمائية هي التي تصايّرهم، وإنما «الترجمات» الاستدلالية التي أعدتها العلوم النظرية عن المحاكمة، (كما فعلت مع سائر الإنجازات الأدبية غير المألوفة). فمنذ ثلاثينات وأربعينيات القرن العشرين أصبحت آثار كافكا حالة اختبار لناهض تفسير متحجرة جديدة دائماً: تحليل نفسي، ديني، اجتماعي، باطني... وكل محاولة من هذه المحاولات تركت آثارها في حقل التداعي للاسم العالمي كافكا. إن الصراعات المريضة حول «المفتاح» الصحيح، والعدد الكبير من البعثات الاستكشافية المتتابعة على قمة «المعنى»... كل هذا قد يبدو اليوم غريباً، غير أنه رغم ذلك يظلل قراءتنا للرواية. إذ أن كل جهد عقلي، ومهما كان في غير محله، يؤثر على المادة التي ينشغل بها، يعلي من شأنها ويعيد تقييمها. وعندما يبحث ألف شخص عن المفتاح العام، دون أن يتمكّنوا من العثور عليه، فإن الظن بأنه مستتر على نحو ماهر بشكل خاص، لهو أكثر إغراء من الاعتراف الجاف بعدم وجود مثل هذا المفتاح.

ومن الجليّ طبعاً أن كافكا نفسه لم يكن بريئاً كل البراءة من إثارة هذا الجنون، وأن الشبهة بأنه يتوجب على المرء فعلاً أن يترجمه أولاً حتى يتمكن من فهمه، إنما يرتبط بهيبة الغريب من الدخول في «الموضوع» مباشرة. إن نصوصه الكبيرة كافة - المفقود، المحاكمة، القلعة، كذلك الحكم و الانساخ - إنما تعرض لموضوع أن أنساً إنما يقفون أمام لغز يلفه الغموض مثلما هو مغر. هذا اللغز يصيب كلاً من يوزف ك وغريغور سامسا مثل ضربة على الرأس، في لحظة الاستيقاظ. إنه «الوجع الشديد»، بأن المرء لا يفهم، الذي ينتقل إلينا على نحو لا يقاوم، والذي تحاول أن تخلص منه. وعمد كافكا عن وعي إلى تعميق هذا الإحباط، بأن جعل القارئ لا يفهم بالكاد شيئاً أكثر مما يفهم الشخص الرئيسي في الرواية، وبأنه فقط من يضع إشارات (الذي عليه أن يقوم بتفسيرها ثانية) يستطيع أن يدرك في ما إذا كان ما يقوم به الشخص الرئيسي لاستكشاف اللغز يحمل أملاً في النجاح أصلاً. إن الأمر هو كأن المرء يسير وراء شخص يتلمس طريقه في الظلام. لكن حالما يحاول المرء أن يتحرر من هذه التبعية ويختلف، يكون قد فقد آخر إمكانية لعرفة الوجهة.

ويمكن إيضاح مصدر هذه الظلمة بأن يحاول المرء أن يروي أحد هذه النصوص، المحاكمة على سبيل المثال، على مسامع أحد الناس غير القارئين. وكيل قانوني لمصرف يجري إعلامه أنه معتقل. يعلم أن دعوى قضائية قائمة ضده، لكن ما من أحد يستطيع أن يقول له ما هي جريرته. وتفشل جميع محاولاته، بمعونة وسطاء، للوصول إلى محكمة مستعدة لإعطائه معلومات. وكذلك محاميه لا يحقق تقدماً واضحاً. ولقاءات مع نساء يأمل المدعى عليه عوناً منها، تتطل قصصاً عابرة. وفي النهاية يحضره جلادان وبقودانه إلى مقلع حيث يعدمانه.

يدرك المرء على الفور لماذا يضيع مثل هذا الموجز، الذي يقتصر على حدث الرواية، المضمون الحقيقى لها إضافة كاملة: إنه واضح أكثر من اللازم. هل يعقل يوزف ك فعلاً؟ إن الرواى يدعى ذلك منذ الجملة الأولى. بيد أن الاعتقال المزعوم يقتصر على مجرد الإعلام به، وبعد ذلك يقدر المعتقل أن يفعل ما يرغب فعله. يذهب إلى عمله مثلاً يذهب كل يوم. المحكمة تعلن له عن نفسها، لكن لا يمكن معرفة في ما إذا كان من شأنها أن تتحرك. والتحقيق الأول يجري في علية على سطح مبني سكن عادى، ولا ينتهي إلى أكثر من التثبت من البيانات الشخصية، هذه البيانات التي هي بالإضافة إلى ذلك بيانات خاطئة. إن هذا هو كاريكاتير محكمة، ولا علاقة له كثيراً على كل حال بالقضاء الذي يعرفه القارئ.

اعتقال، استجواب، ادعاء: لا يجب فهم شيء بالمعنى الحرفي، كل شيء مغایر بعض الشيء، مع أنه ليس مغایراً كلياً أكثر مما هو متوقع. وبحق تحدث بعض النقاد عن «منطق حلم» - وكافكا نفسه أعطى كلمة تذكير هامة باستحضاره حياتي الباطنية الحلمية -. وبالفعل يوجد كثير من الأمور المشتركة بين واقع المحاكمة وتأثيرات التغريب التي تميز الأحلام عميقاً الآخر. من ذلك التفاصيل التي ترى بنظرة حادة جداً، زحمة المكان والزمان زحمة مخيفة، مقاومات لا يدرى كنهها، لكن قبل كل شيء افتقد المحوافر والإيضاحات والأسباب. يتعرف المرء على أشياء كثيرة، لكنها متكسرة وكأنها ترى من زاوية منحرفة. إن محكمة كافكا واقعية من ناحية الشكل: هناك مدعى عليهم، حراس، محامون، قضاة، قاعات رسمية، تدرج رتب، وثائق، عقوبات. بيد أن ما لا يدرى كنهه هو الغرض الذي يرمي إليه هذا الجهاز الهائل، والذي يبدو أنه يدور داخل نفسه ويفادي نفسه.

إن خصماً يظل وجهه محجوباً يبدوا لنا خطراً بصفة خاصة. وهذه علامة مميزة تستخدمنا بولع من أجل إثارة الرعب. إذ طالما أن ذلك «الآخر» لا يظهر، فإن المشاهد يكون لنفسه عن غير عمد صورة لهذا الآخر، تكون تحسيناً لخوفه هو. وما من شيء آخر يحدث في المحاكمة. إن كافكا يبين ويفسر. لكن إذا تبعنا إصبعه بنظرنا، فسرعان ما ينسدل حجاب. وعلى كل حال تملك محكمته وجهها مرئياً. ييد أن كل ما يرى من هذا الوجه، لا يفعل شيئاً سوى أن يحيل دائماً إلى شيء آخر، أكثر جوهرية، غير قابل للتصور: **القضاة الأعلى**، القانون. وكلما قل ما يعرفه المرء، زاد التكهن. الجميع يتتحدثون عن ذلك، على كل امرئ أن يساهم، لكن ما من أحد يقدر أن يستند إلى تجرب خاصة به، وإنما دائماً فقط إلى ما يزعم آخرون أنهم سمعوه أو عاشهوا. إن المحكمة تحتل التفكير واللغة، وبهذا تصبح موجودة في كل مكان. وليس الأمر بأي حال مجرد وعي بالذنب، عندما يندفع المدعى عليه إلى المحكمة، لكي يواجه أخيراً قضاته المجهولين وجهاً لوجه: ما من خصم مرئي يثير الخوف مثلما يفعل خصم متخيل، وما من مبارزة علنية تثير الفزع مثل حقل رؤية قناصة.

لكن عندما تكون المحكمة في كل مكان، فإنها تكون بالمعنى الدقيق هنا، في القيعان البدنية للحياة. يعقل يوزف ك وهو مستلق في فراشه، الحراسان يأكلان طعام فطوره ويساومان على قميص نومه. جيران يبحلقون نحو النافذة. الزملاء في المصرف أيضاً يعرفون الأمر. وحتى عاشقاً يكون ك معروضاً الآن لأعين وأذان شهود لا يطاولهم شيء. إن بداية إجراءات المحاكمة تعني نهاية كل شأن شخصي. هذه التعرية الكاملة للضاحية قرأتها بعض النساء على أنها تنبؤ. وفعلاً إنه لأمر يثير الذهول كم يقترب جو وصف كافكا من الأجواء النفسية للمجتمعات التي تحكمها أنظمة شمولية.

كيف أمكن لكافكا أن يعرف هذا، قبل عقدين من ظهور النازية في ألمانيا والستالينية في روسيا وقيامهما بتجريد ملايين البشر في حالة من الفزع الدائم؟ إن كابوس المحاكمة يصور حالة أساسية للقرن العشرين.

كافكا لم يعرف هذا. غير أن راداره الاجتماعي راقب بعيداً، ولم يكن بحاجة إلى حرب عالمية لتقديم له تجربة سلطة جماعية معيشة في كل مكان مثل رمال متحركة، كما إنها بلا وجه. لقد خبر كافكا هذه التجربة في وقت مبكر. وكانت سطوة والده عليه مثالاً على أن المريع في السلطة إنما يمكن بالذات في قانونيتها الخاصة بها وفي تعسفها غير المفهوم والذي يبدو بلا هدف. إن اللحم النيء النازف الذي كشفت عنه الحرب كان مجرد إضافة، مثلما كانت صورة جسم اخترقه أدوات كان كافكا يعرفها من عمله الوظيفي قبل أن يستطيع معالجتها أدبياً في قصة في مستعمرة العقاب بدأ طويلاً.

لكن لم تكن تشخيصات العصر ولا رسائل مكتوبة بالشيفرة موجهة إلى القارئ هي التي أملت خطة بناء المحاكمة. منذ أن نشرت يوميات كافكا، ونحن نعرف أن المحكمة في فندق أسكانيا كانت المكان الذي نشأت فيه الصور والمشاهد الحاسمة، وأن كافكا لم يستلهم الإذلال الذي تجمع طوال عام فحسب، وإنما بالإضافة إلى ذلك نقل إلى الرواية جزئيات لا تخصى من تجربته^(*). لقد جرى تقصي أثر واستكشاف مئات المطابقات

(*) في ربيع عام ١٩١٤ كان كافكا يترااسل من براغ مع امرأتين في برلين في آن: صديقتنه فيليبس باور وصديقتها المزعومة غرته بلوخ. في تموز أعطت غرته رسائل كافكا الموجهة لها إلى فيليبس. وقد جاء في إحدى هذه الرسائل أن كافكا غير متخصص للزواج من فيليبس، وأن هذا الزواج سيفشل.

والإشارات من سيرة حياة الكاتب، والراجح أن هناك مئات أخرى سوف تضيّع منها إلى الأبد. ولا بدّ أنه كان واضحًا لكافكا أنه إنما كان يلعب لنفسه وحده: صحيح أنّ أوائل قرائه، برود وباوم وفنتش وحتى اخته أوتلا، استطاعوا أن يخمنوا العلاقة بين الآنسة بورستن وفيليس باور، لكنهم لم يستطعوا التتحقق من صحة ذلك. إنهم لم يعرفوا أنه استخدم لكلا الشخصين عالمة الاختزال ف. ب. كذلك لم يعرفوا أن البلوزة المذكورة عدّة مرات في غرفة الآنسة بورستن هي طبعاً بلوزة الخطوبة. وغرته بلوخ، المولودة يوم اثنين، تظهر في الرواية باسم الآنسة موتناغ^(*). وثمة مدير في مؤسسة التأمين على حوادث العمال كان كافكا يكرره، يظهر في الرواية في شخص نائب مدير متطاول. والموت في المقلع والواقية منه: كان هنا، منذ سنوات، موضوعاً يجده فكر كافكا، الخبرير في الحوادث، أثناء عمله الوظيفي. والعزاء الذي يقع وقع الصاعقة التي قدمها السيدة كروباخ إلى المستأجر العتقل، لا تأخذ الأمر مأخذًا صعباً هكذا، إنما جاء - هنا يجوز لنا أن نراهن - من والدة كافكا.

إذاً هي لعبة بناء مليئة بشيفرات خاصة، ظلت مغلقة حتى على أقرب الأقارب. ومن هذا وحده تمكن كافكا من إقامة عالم خيالي قاهر لا يقاوم ومعقول قبل كل شيء؟ من شأن هذا أن يكون أعمجوبة. لكن دعونا ألا

← وطلبت فيليس لقاء مشتركاً. وتم لقاء في فندق أسكانيا في برلين. وجلس كافكا أمام ثلاثة نساء: فيليس وغرته وأخته لفليس. وكانت ساعة حساب شعر كافكا خلالها أنه أمام محكمة. وفعلاً أصدرت فيليس حكمها: فسخ الخطوبة. وفيما بعد شبه كافكا هذه الجلسة بمحاكمة محكمة.

(*) ف. ب. هما الحرفان الأولان من «الآنسة بورستن» أيضاً. «موتناغ» تعني «يوم الاثنين».

نخلط بين النشأة والاعتبار: إن السؤال الفضولي والمشروع ولا ريب «من أين له هذا؟» يقدم في أحسن الأحوال صور تصوير شعاعي طبقي من جمجمة المؤلف، بيد أنه لا يقدم أبداً أجوبة عن ما وماذا. إن المحاكمة ليست رواية سيرة حياة مثلما هي المفقود ليست رواية سيرة حياة. ويتوقف المرء أعمى أمام هذه الآثار، طالما أنه لا يحسب حساب قدرة كافكا الخارقة على صهر الواقع وتحويلها إلى إشارات؛ إشارات تتجدد من أصلها المادي. ونحن نعثر على أدلة على ذلك في كل صفحة، ومنذ الصفحة الأولى.

على الفور طرق الباب، ودخل رجل لم يكن قد رآه قط في هذا المسكن. كان نحيلًا لكنه متين البنيان، وكان يرتدي رداء محبوك التفصيل أسود اللون، يحمل مثل بدلات السفر ثنيات مختلفة وجيوباً وبكلات وأزراراً وحزاماً، وبالتالي بدا رداء عملياً، دون أن يتضح للمرء لماذا يصلح. «من أنت؟» سأل ك...

إننا لا ندري أين رأى كافكا مثل هذه البدلة؛ ومن المستبعد أن يكون قد ابتدعها. لكن الأمر الحاسم هو أن هذا اللباس إنما يظهر هنا كإشارة، وذلك لأنه يشير إلى وظيفة: إنه لباس مهني. وما ينقص هو المهنة التي تخصه. وكلما كانت ظاهرة الإشارات ملفتة للنظر أكثر، كان الظلام الذي بات يحس وراء ذلك أكثر أثراً وتهديداً. كل تفصيل يقول: إنني هنا، وأننا أعني شيئاً، لكنني لا أقول ماذا. ولذا إنما نفكر برجال المخابرات وبالزربانية بأزيائهم الرسمية وأعضاء الفرق الخاصة، مع أن هؤلاء الحقيقيين لا يبدون قط مثل الحراس غير الخطيرين التابعين للمحكمة الخيالية.

إن مهارة كافكا تكمن قبل كل شيء - وهنا يتتجاوز الانساخ بخطوة هامة - بأنه على ما يبدو ليس الرواذي هو الذي يشير دائماً إلى الظلام، وإنما الشخص نفسه هي التي تفعل ذلك. يقيناً، إن يوسف ك محاط حقاً

بالإشارات. ييد أننا لا نرى هذه الإشارات سوى بأعينه؛ وهذه النظرة هي دائمًا نظرة قلقة وغير مستقرة. ثمة انتباخات يعتبرها غير ذات أهمية، ورغم ذلك تترك أثراً في نفسه مدة طويلة؛ وما يعلنه ذا أهمية، يبدأ على إثبات نفسه أنه باطل. إن كون الإعلام عن اعتقاله يجب أن يتم في حجرة الآنسة بورستن بالذات، يعتبره قسوةً من المحكمة وعدم اكتراث. لكن بعد بعض ساعات تعذبه مشاعر بالذنب، وكأنه اختار بنفسه مكان الاعتقال.

يجد المرء هنا طبقة عميقة من طبقات الرواية، تتجلى قبل كل شيء في سلوك المدعى عليه، هذا السلوك الحلمي وغير المنطقى. إن المدعى عليه لا يتصرف حقاً بنفقة وروية، بل يتأرجح بين إيماءات الخضوع وحملات التباهي ضد المحكمة. دون أن يكون من شأن أحد قد طلب منه ذلك، يخطط لوضع عريضة تثلج تبريراً كتائياً لحياته. لكن عندما يقع الأمر على عاته، يصبح غير قادر على التركيز. من مؤجرته، التي هي امرأة جاهلة، يأمل تأكيد براءته؛ كذلك من الآنسة بورستن، جارته في الغرفة، التي لم يكن حتى الآن قد اكترث بها، وراح الآن يتثبت بها. وفجأة يخطر على باله أن يزور والدته التي كان قد تجنبها طوال أعوام. إن الأمر واضح جلي: إن الاعتقال أصابه في أعمق أعماقه. يشعر أنه مذنب، ورغم أنه لا يقال في أي موضع من الموضع شيء عن أين يمكن هذا الذنب، فإن له ولا ريب علاقة بالطريقة كيف طفق لك، الذي كان قبل ذلك يحيا حياة باردة متزمتة، على وتبة واحدة، يرغب الآن فجأة في أن يحول العالم كله إلى مساعدين له.

ويلقي هذا ضوءاً متغيراً على المحكمة أيضاً. فرغم أنها تحذب إلى ذنب لك، فإنها لعاجزة في حقيقة الأمر. بأرفع ريشة عمد كافكا إلى محو كل أثر لنشاط مستقل تقوم به المحكمة. حتى موعد التحقيق الأول يحدده

المدعى عليه بنفسه، وما من ثمة أية عقوبة تفرض على إهمال دعوات المثول أمام المحكمة، كما يؤكّد له بوضوح. والحارسان هما اللذان يعاقبان، ولا يعاقبان سوى لأنّك شكاهم. ولا يظهر الجنادن أحياناً، إلا عندما يتّظرونّهماك، وليس قبل ذلك ساعة. وإذا قوّمك بمقاومة بدنية على سبيل التجربة، لا يقدّران على تحريك ضحبيّهما من موضعه، ومن هنا لا يمكن أن يجري الإعدام إلا بعد أن استسلم لك معمّرياً. إن المحكمة تبدو ذات ردة فعل فحسب، إنها تقوم بمهمة مرأة ضخمة تعكس ما يريده لك فعلاً، على عكس ما يؤكّدته. وفقط لأنّه لا يعرف نفسه (الأمر الذي قد يكون جزءاً من ذنبه)، يقابله وجهه نفسه في هذه المرأة وجهاً غريباً ومثيراً للرعب.

ولا تخفي هيئات المحكمة، نفسها، عدم اكتراثها. إن الجملة التي قد تكون أهم جملة في الرواية وأخطرها شأنها، وهي أحد الأقوال الصحيحة الصادرة عن ذلك الخصم الذي هو ثابت الجأش كما أنه مرعب، تأتي في آخر فصل في الكاتدرائية ويقولها قس السجن: المحكمة لا تريد شيئاً منك. إنها تفتح أبوابها لك عندما تأتي وتعفيك عندما تذهب. فالتر بنيامين فستر هذا الإبلاغ الحبّير على نحو عقربي ندي: «بهذه الكلمات الأخيرة، التي تصل إلىك، يجري التعبير في الحقيقة عن أن المحكمة إنما لا تميّز قط عن أي موقف. وهذا يصح على كل موقف، لكن بشرط ألا يعتبره المرء متطرّفاً من خلالك وإنما آت إلىك من الخارج ومتطرّفاً له».

وربما لم يقترب حتى الآن قارئ آخر اقتراباً أكثر من جوهر المحاكمة البارد بروادة الجليد. إذ أن من شأن هذا أن يعني أن منطق الحلم الخاص بكافكا إنما هو و CABOOS الحداثة شيء واحد: العملية القائمة وراء ظهر كل فرد بنزع ملكيته لحياته. كل فرد حر. لكنه مهما قرر ولأي شيء يقرر: إنه يظل «حالة»، حالة وضعت من أجلها منذ زمن طويل القواعد المناسبة،

والإجراءات، والمؤسسات. وكل خلجة من خلجمات النفس الأكثر عفوية والأكثر سعادة تبقى داخل أسوار الأفق المغلق لعالم جرى تصميمه وتجري إدارته على نحو شيء كل السوء وخاطئ كل الخطأ.

تفيد واحدة من النوادر التي كثيرة ما يجري الاستشهاد بها، أن كافكا، عندما تلا على أصدقائه قسماً من الفصل الأول من المحاكمة، قد أغرق في الضحك إلى درجة «لم يتمكن معها فترة من الزمن من متابعة القراءة»، كما أن المستمعين إليه قد تسلىوا «على نحو جامع». وكتب بروド فيما بعد متذكراً: «وهذا أمر عجب بما فيه الكفاية، إذا تأمل المرء جدية هذا الفصل الخفية. لكن الأمر كان هكذا».

ويقيناً لم يكن برود، نفسه، بلا ذنب كلياً في موضوع أن الجدال حول «مسائل الوجود» التي تعالجها روايات كافكا كما يقال، إنما غطى، مدة طويلة، على اللمسات المضحكه وموضع الحاكمة الهرزلية. ونحن نجد لدى كافكا رغبة في الملاحظة مع محافظة على المسافة، وتنابع لديه طريق قرميد في سقوطه يقع على رأس إنسان، فيما يعلن هذا الإنسان أن مثل هذه الحدث إنما هو بعيد عن الاحتمال إلى أبعد حد.

إنه قبل كل شيء هزل السلوك الخاطئ، هو الذي يظهر بالحاج في كل مكان، ويفتح للقارئ طريقنجاة من مجال سلطة القدر؛ ذلك الهزل الذي يظهر من ثم دائماً عندما تكون دوافع إنسان تقع تحت أعين الجميع، باستثناء عينيه هو. إن المدعى عليه يرى أنه من الغريب والمنكر أن يدخل غرباء إلى حجرته دون أن يقوموا بالتعريف بأنفسهم؛ ثم يخطر له أنه يمكنه أن يقدم أوراق الدراجة أو أن يقتل نفسه. إنه يتناقض مع مؤجرته حول سلوك الآنسة بورستنر، وينسى لدى ذلك أنه سيتأخر في زيارته المألوفة

لإحدى المؤسسات. إنه يجلس في غرفة الأجرة وهو فخور أنه تجاهل تلبية دعوة للممثل أمام قاضي التحقيق؛ وهنا يرد على خاطره أنه قد يكون مع ذلك لشروعه فكرة أعطى السائق عنوان المحكمة.

مخيف هو الأمر في مجموعه، هزلية هي التفاصيل. كذلك ينطبق هذا على المحكمة. إن القضاة يقرؤون مجلات خلاعة عوضاً عن كتب القانون، ويدعون نساء تحمل إليهم مثل حيوانات داجنة سمينة. وخدمتهم يكادون يغمى عليهم إذا ما قيض لهم مرة أن يتفسوا هواء جديداً بدلاً عن غبار الوثائق. والجلادان يبدون مغنى أوربا عجوزين. فوق المدعى عليهم في حجرة الانتظار في مكاتب المحكمة يوجد حفرة في السقف، تتدلى منها بين الفينة والأخرى ساق أحد المحامين. ويتفوق على هذا كله القصة التالية، والتي طبعاً لا يمكن لأحد أن يشهد على صحتها، لكن التي لها جداً مظهر الحقيقة:

موظف متقدم في السن، رجل طيب هادئ، قام طوال يوم وليلة بلا انقطاع بدراسة قضية كانت معقدة لا سيما بسبب مذكرات الحامي. إن هؤلاء الموظفين هم مجتهدون فعلاً مثلما لا يكون أحد آخر. والآن عند الصباح، بعد أربع وعشرين ساعة من عمل غير مثمر جداً على الأرجح، ذهب إلى باب المدخل، وكمن وراءه، وراح يدحرج على درجات السلالم كل محام أراد أن يدخل. وتجتمع المحامون على الفسحة في الأسفل وتشاوروا عما ينبغي عليهم أن يفعلوا؛ فمن طرف إنهم لا يملكون في الأصل حقاً بالدخول، لذا لا يمكنهم أن يقوموا بالكاد بشيء ضد الموظف من الناحية القانونية، وينبغي عليهم أيضاً، كما تقدم، أن يتحاشوا إثارة الموظفين ضدهم. لكن من طرف آخر إن كل يوم لا يقضى لدى المحكمة هو يوم ضائع بالنسبة إليهم ولذا كانوا حريصين إذاً كل الحرص

على أن يدخلوا. وفي النهاية اتفقوا على أنهم يريدون إجهاد الرجل المسن. ومرة بعد مرة أصبح يُرسل محام يصعد الدرج كي يدع نفسه، تحت مقاومة قدر الإمكان لكن مقاومة سلبية، يقذف إلى أسفل، حيث يتلقفه زملاؤه. واستمر ذلك نحو ساعة، فتعصف الرجل المسن فعلاً، لقد كان أيضاً منهاكاً من العمل الليلي، فعاد إلى مكتبه. ولم يشا الواقفون في الأسفل أن يصدقوا الأمر في البداية فأرسلوا أولاً واحداً منهم كي يفتش وراء الباب ويتحقق فيما إذا كان المكان هناك خالياً. ثم بعد ذلك ليس إلا دخلوا ولم يجرؤوا على الأرجح أن يتذمروا مجرد تذمر.

هذه تمثيلية ساحرة خالصة. وإذا ما قيض يوماً ما اكتشف هذا المشهد في أحد الأفلام الـهزلية الكثيرة التي كان كافكا يحب مشاهدتها والتسرية بها عن نفسه، فليس على هذا أن يفاجئ أحداً. إن ضحكة هو ضحك رواد السينما.

وابعد كافكا عن أصدقائه. لكن رغبته في تلاوة مقاطع من آثاره كانت لا تزال على أشدّها؛ كان يحب أن ينبع رؤاه الصامتة إيقاعاً مسموماً. في العشرين من تشرين الثاني ١٩١٤ ألقى على مسامع أصدقائه قصة كاملة هي قصة في مستعمرة العقاب. وكان هلعهم عظيمًا. كان الأصدقاء المقربون يعلمون أن كافكا يعمل مهووساً لإنجاز رواية، والآن ظهر، على نحو غير متوقع، بنتائج جانبي يقع في حجم كبير. كانت العينة الأولى من المحاكمة غريبة ومقبضة بشكل كاف. والآن زاد كافكا بقصته الجديدة على منطق الحلم في الرواية زيادة كبيرة.

في قصة كافكا في مستعمرة العقاب أصبح أدباً ما كان يعتبر حتى عام ١٩١٤ غير قابل لأن يكون أدباً: التعذيب. وعندما عبر الناشر، الذي قبل نشرها على الفور، عن ارتياعه من موضوع القصة، وذكر أنه يعتبرها

«محرجة»، أجابه كافكا: إن تعرضك للإحراج يلتقي مع رأيي تماماً...
ليست هذه القصة وحدها هي المحرجة، وإنما بالأحرى زماننا العام وزمني
الخاص في أن هما محرجان. ولو كانت مخطوطة المحاكمة وقعت بين
يدي الناشر في الوقت المناسب، لكان مستعمرة العقاب قد فاجأته أقل مما
فعلت. إن آلة الإعدام في القصة كانت في الحقيقة أداة من أدوات القانون
الذى كان يعيث فساداً ليس في وضع النهار، وإنما في قبو ما، عميق لا
سبيل إليه، تابع للمحكمة.

إن النظرة العابرة الأولى تكشف عن أن قصة في مستعمرة العقاب
إنما هي، من حيث الموضوع، غرس من غراس رواية المحاكمة. ويدو من
البديهي أن العملين إنما قد كتباه في الوقت نفسه. لكن المفاجئ هو أن كافكا
نفسه قد وقع على هذا اللغم على حين غرة. كان قد أخذ إجازته الشمية،
 أسبوعاً كاملاً، ثم أسبوعاً ثانياً، بهدف محدد هو دفع المحاكمة إلى الأمام
على نحو حاسم أو حتى إتمامها. ورغم ذلك عمد إلى وضع تلك الدفاتر
جانباً، وطفق في كتابة نص جديد كل الجدة. لماذا؟ هذه واحدة من
اللحظات النادرة التي ينفتح فيها منظر في مخبر كافكا، حيث تراءى
إبداعاته في حالة الاختمار.

لقد كانت أولاً فكرة من أفكار دوستويفسكي التي استلهمها كافكا
واتخذها دعامة حاملة، الحدث الشهير في رواية «الجريمة والعقاب»: مذنب
لا يتحمل ذنبه، يلعن على قاضيه، حتى يقوم هذا بإنها اللعنة الوحشية. إنها
فكرة عقاب الذات، الحكم على الذات، التي بدت لكافكا مشمرة ومتناقضة
على نحو كاف لكي يجري تصويرها مرة ثانية في رواية أخرى على نحو
جديد كل الجدة.

لا غرابة في أن كافكا قد وجد هذه الفكرة جذابة، وذلك نظراً

لتخيلات عقاب الذات، هذه التخيلات التي لا تخصى ومنها الوحشية، والتي كان كافكا يحفظها في يومياته منذ أعوام. كان ثمة رغبة مازوشية تساؤره لم يتمكن دائمًا من صدّها، كان لها نصيب كبير في خوفه الدائم من أن يفقد عقله ذات يوم. ماذا تعني «مازوشية»؟ فاعل واع لذنبه، يقصد في مخبئه حتى يقف رجال الشرطة أمام الباب، يبدو أنه يتبع مصلحته الطبيعية. فاعل آخر يؤثر أن يذهب إلى مكتب قاضي التحقيق ويقول: «أنا الفاعل. أعملوا معي ما تشاوون». يبدو هذا جنونا، مازوشية. لكن هذا الفاعل الثاني يملك فرصاً أفضل بكثير لأن يحتاج العقوبة الختامية دون أن تصاب كرامته بضرر لا يمكن إصلاحه. لقد خضع للقانون، دون أن يتخلّى كلياً عن قانون الفعل. وحتى عندما يواجه الموت، فإنه يحافظ على كرامة من يحدد متى يحدث الأمر: كرامة المستحر الأخيرة.

لقد استغرقت محاكمة يوزف ك عاماً. وهو يجد أن هذا يكفي. عشية عيد ميلاده الواحد والثلاثين يرتدي ملابس سوداء، ملابس احتفال، ملابس حداد. يجلس في مقعد ثثير ويتنظر. والمحكمة فهمت. في التاسعة مساء يطرق باب ك، للمرة الثانية والأخيرة. ولا ينبغي على أحد أن ينطق بالحكم، لقد صدر: الموت طعنًا بالسكين.

عيد ميلاده الواحد والثلاثون. كان ذلك يوم الجمعة، الثالث من تموز عام ١٩١٤. في ذلك اليوم استلم كافكا رسالة من غرته بلوخ، تحدثت فيها إليه لأول مرة ليس كشخص يثق به، وإنما كمدع. اليوم الذي أعرضت فيه عنه. وفي اليوم نفسه وصل نبأ آخر يقول أن الانسخ لن تنشر في مجلة. نهاية أملين.

لكن في ذلك اليوم حدث أمر آخر. لقد نشرت الصحف أن حكومة أمبراطورية النمسا وهنغاريا كانت قد اتخذت يوم الثالث من تموز قراراً

بالقيام بالحرب (التي سميت في ما بعد الحرب العالمية الأولى). كان ذلك اليوم هو اليوم الذي صدر فيه الحكم: الحكم على أوروبا.

غداً سأذهب إلى المعمل، كتب كافكا في الرابع من كانون الثاني عام ١٩١٥، وسوف يتوجب عليّ، بعد تجنيد باول، أن أذهب بعد ظهر كل يوم. بهذا يتوقف كل شيء^(*). وهذا ما حدث. في الليلة اللاحقة اضطر إلى التوقف عن الكتابة في معلم الضياعة وكيل المدعي العام. ورغم جهود يائسة بذلها لإنقاذ المحاكمة على الأقل، أثبتت الضغط الخارجي أنه أكثر قوة. وهكذا جرى صفق الباب... وظللت المحاكمة مخطوطة غير مكتملة.

من كتاب: «فرانز كافكا / أعوام القرارات»
راينر شتاخ

(*) باول صهر كافكا الذي كان يشرف على معمل الاسبست الذي تملكه أسرة كافكا.

٣ - مراسلات وحديث مع كاتب سيرة Kafka

ـ آ - مراسلات

بون في ٢٧ / ١ / ٢٠٠٣

السيد د. شتاخ المخترم،

في سيرة Kafka تحول حياته إلى رواية مشوقة للغاية. وكانت قراءة كتابك متعة خالصة بالنسبة إلي. بعد هذه القراءة أصبحت أفهم آثار Kafka على نحو أفضل.

أود تقديم كتابك في اللغة العربية، وقد شرعت في كتابة مقالة عنه لنشرها في دورية عربية وضمن كتاب.

وهنا لدى رجاء «كبير» إليك: أحب قراءة جميع المقالات النقدية التي نشرت عن كتابك واستخدامها من أجل مقالتي. هل من الممكن موافاتي بصور عن هذه المقالات؟ (لا أعرف سوى مقالة واحدة: Manfred Shnyder: «تولي الحكم في الأدب العالمي»).

طلياً شيئاً «غير اعتيادي» لك: نسخة من رواية Kafka «الحاكم» باللغة العربية.

صدر هذا الأثر الفني في عام ٢٠٠٢ كمجلد ثان من «الآثار الكاملة» لكافكا.

لدى ترجمة الرواية استقر رأيي على تسلسل الفصول الذي وضعه إشفايلر. كل النظريات الأخرى عن تسلسل الفصول قدمتها في كتابي بدقة وتفصيل. وبهذا بات القارئ العربي يملك النظريات كلها في مجلد واحد، وفي مقدوره، وعليه، أن يتأمل بنفسه في هذه المسألة.

والمجلد الأول (٨٤٨ صفحة)، الذي يضم أربعة من آثار كافكا مع تفسيراتها، صدر في عام ٢٠٠٠ ونفد في هذه الأثناء. والطبعة الثانية هي قيد الإعداد.

إلى الطبعة الثانية من «المحاكمة» (بعد عام أو عامين) أحب أن أضيف مقاليتين من وعن كتابك: المقالة المذكورة أعلاه وترجمة لفصل «الحكم على الذات: المحاكمة وفي مستعمرة العقاب» (ص ٥٣٦ في كتابك).

بودي أن أعرف في ما إذا كنت تعرف كتاب إشفايلر: «رسالة كافكا غير المدركة». في حال النفي، أرسل لك نسخة منه.

أنتظر جوابك باهتمام. مع تحيات ودية
ابراهيم وطفي
المرفقات:

- ١ - «المحاكمة» (بالعربية)، ٢ - الغلاف الأول والأخير + الفهرس،
- ٣ - قائمة كتب «للمنترجم»، ٤ - كافكا «عربي» (بالألمانية)^(*).

(*) نص بعنوان: (كافكا «عربي» / «المحاكمة» الصحيحة)، ترجمته: رواية فرانز كافكا الشهيرة «المحاكمة» كتبت في عام ١٩١٤، ونشرت في عام ١٩٢٥ طبع منها حتى الآن ٧٨ طبعة بعدد نسخ بلغ المليون ونصف المليون. لكن: هل «فهمها» أحد؟ هل يقدر المرء أصلاً أن يفهم على نحو صحيح رواية جرى ترتيب فصولها على نحو خاطئ؟ حتى الآن صدرت أشهر رواية ألمانية في القرن العشرين باللغة الألمانية وبثلاثين لغة أخرى في عشرة فصول «كاملة» وملحق ←

اويسكيرشن من كريستيان إشفايلر^(*)

السيد شتاخ المحترم،

في التو أنهيت قراءة كتابك عن سيرة كافكا، ومن شأنى أن أكتب لك عنه أموراً طيبة كثيرة جداً، ييد أن نقدي حرى أن يكون أكثر أهمية بالنسبة إليك:

في صفحة ٥٣٩ تدعى بخصوص تسلسل فصول رواية المحاكمة أنه «ما من أحد نجح حتى اليوم بتقديم حل مرض. إن المعضلة، مع هذه المخطوطة، هي غير قابلة للحل». هذا يصح ولا ريب بالنسبة إلى كتاب السيرة والناشرين، لكنه يعني بالنسبة إلى أنك لا تعرف جهودي أبداً. بعد أطروحتي لنيل شهادة الدكتوراه، التي عالجت هذا الموضوع، كتبت خمسة كتب أخرى عن كافكا. آخر كتاب لي يحمل عنوان «رسالة كافكا غير المدركة / المحاكمة الصحيحة». إنه التفسير الأول المتراوط للرواية غير المكتملة، وهو يتبع منطق الصور، الذي تعرف أنت أيضاً به (ص ٥٨٠)، ومن هنا يستطيع - في إطار الممكن تحت الظروف المعطاة - أن يحدد لكل قطعة مكانها غير القابل للتبديل، هذا المكان الذي ينجم فعلاً «بالضرورة من فكرة الكل الواحد» (ص ٤٠). إن الأبحاث التقليدية عن كافكا تملك مع

← من ستة فصول غير كاملة. أما الآن، فإن «المحاكمة الصحيحة» تصدر في تسعه عشر فصلاً مرتبة ترتيباً مغایراً كل المغایرة. لكن ليس باللغة الألمانية، ليس بعد، وإنما باللغة العربية. متى يصدر «كتاب القرن العشرين» بترتيب فصول صحيح باللغة الألمانية؟

(*) أثناء زيارات إشفايلر لي تحدثنا طوال ساعات عن رايبر شتاخ وكتابه الجديد. وقد سلمني إشفايلر صوراً عن رسالته إلى شتاخ وجواب هذا.

الأسف كل سبب، من أجل الحد من أضرارها، لقتل هذا «الحدث المثير»
لكن في هذه الأثناء صدر كل شيء باللغة العربية).

إن حياة كافكا هي بلا ريب حياة كافكاوية، وأنت تبرهن على ذلك.
ومن المؤكد كل التأكيد أن الأبحاث التقليدية عن كافكا حتى الآن هي
أكثر كافكاوية، وأنت تذكر ذلك على نحو عابر.

لكن آثار كافكا الفنية هي ليست كذلك! وقناة كافكا، «فقط في
العالم المنظم يبدأ الشاعر»، يبحث المرء عنها عبثاً مع الأسف في مؤلفك
الضخم.

وربما لا يعمل كتاب السيرة شيئاً خطأ بالضرورة إذا هم دخلوا مرة في
ال الحديث مع مفسر. منذ خمسة عقود وأنا أقوم بمعالجة آثار كافكا الفنية
والعالم الفكري المتعكس فيها. كان هذا عملاً من أعمال سيزيف، ييد أنه
كان عملاً مجدياً.

ما يزعج أنك تستشهد «بواحدة من الجمل الأولى الأكثر شهرة في
الأدب الروائي» (ص ٥٣٧) استشهاداً خطأً على نحو طفيف حقاً، لكنه
خطأ على نحو جوهري (يكون قد «يكون من شأنه قد»).^(*)
ومواساة لك أقول إنه لا يوجد على الأرجح سوى قلائل من يلاحظون
أصلاً هذا الخطأ. في هذا التفصيل الصغير حري بك أن تدرك مدى الجدية
والدقة اللتين أعني بهما الأمر. ولعلي أستطيع بهذا أن أثير اهتمامك

(*) الاختلاف «الجوهري» بين جملة كافكا الأصلية والجملة التي استشهد بها شتاخ هو نصف حرف باللغة الألمانية، فبدلاً عن حرف a وفوقه نقطتان، استخدم شتاخ هذا الحرف بدون نقطتين. لكن الفارق الذي يتوجه نصف الحرف هذا في معنى الجملة هو فارق جوهري فعلاً. ولم يدع شتاخ أن هذا الخطأ هو خطأً مطبعي، وإنما اعترف أنه خطأه هو.

بتفسيراتي، وذلك رغم أنني معتاد على أن من يسمون بحبراء لا يهتمون سوى بنتائجهم الخاصة بهم. لكن، لكي أختتم باستشهاد من كافكا، لا يقى لي سوى «الحياة التي يقللها الأمل (هل تعرف فلقاً أفضل؟)».

كريستيان إشفايلر مع تحيات ودية

او سنابرك في ٢٦ / ١ / ٢٠٠٣

السيد إشفايلر المحترم،

شكراً جزيلاً لرسالتك، التي أستطيع الآن فقط الإجابة عليها، لأنني كنت في إسبانيا منذ مطلع كانون الأول مع انقطاعات قصيرة وأنجز بريدي بالدرجة الأولى عن طريق البريد الإلكتروني.

مالذي قوله عن كلامك يمكن إيجازه في الحقيقة في نقطة واحدة. إن ما تفهم به مراراً بحثة كافكا جميعهم - وأيضاً في هذه الرسالة من جديد - إلا وهو النرجسية وعدم القدرة على إنصاف أبحاث «المنافس»: على هذا السلوك تماماً تقدم أنت المثال الأكثر تطرفاً المعروف لدى عموم.

إنك تكتب لي عن كتابي: لكن منذ الجملة الثالثة يأتي النقد بأنني لم آخذ علمًا بجهودك.

تستشهد برأيي عن عدم إمكانية إعادة ترتيب فصول المحاكمة كما أراد كافكا، وتحبيب: غير ممكن ربما بالنسبة إلى كتاب السيرة والناشرين، لكن طبعاً ليس بالنسبة إليك.

تكتب: «ربما لا يعمل كتاب السيرة شيئاً خطأ بالضرورة إذا هم دخلوا مرة في الحديث مع مفسر». يبدو أنك لا تعرف كتابي «أسطورة كافكا الإيروسية» الصادر في العام ١٩٨٧، إذ إنه يقدم تفسيرات من الصفحة

الأولى حتى الأخيرة. هل تعتقد جاداً أنه كان يمكن لسيرة حياة مثل السيرة المنشورة من قلبي أن توضع بدون ت مضية أعوام عديدة في قراءة تفسيرات آثار الكاتب وإجراء أحاديث حول ذلك؟

إن رسالتك تتناول مصالحك وحدها، عملك وحده. إنه حفل المشروع طبعاً ألا تهتم سوى بعملك، لكن موقف العارف الذي تظاهره دائماً، هذا الموقف، الذي يقف حقاً في تناقض لامقى مع تواضع Kafka وشكوكه الذاتية، لا أحتمله إلا بصعوبة.

لقد طبعت حديثاً أجريته أو كتبته مع مترجمك العربي، إنه «حديث» لا ترد فيه كلمة عن أعمال بنيامين وأدورنو وبوليتسر وكاثي وفاغنباخ وبيندر، حديث يطفح، بدلاً عن ذلك، بمدح الذات، ويقرأ فيه كذروة الادعاء بأن كتاباتك عن Kafka تزن أكثر من كامل بقية الكتابات عنه.

وحتى لو قدر لحدثك أن يكون أعمى القلب كي يدعى مثل هذا: ألا يحرجك أن ترى هذا مطبوعاً؟ كتاباتك تزن أكثر من كل ما أنتجه الكتاب المذكورون أعلاه؟ من الأفضل ألا أعلق على هذا. لكن يجب عليك أن تدرك أنك بمثل هذا الاستعلاء إنما تستبعد نفسك من كل نقاش علمي مسؤول وجدي. ببساطة، إن هذا لم يعد أمراً جدياً. ولهذا السبب أود أن أرجوك أن تفهم أن المضي في جدال من حيث المحتوى بينك وبيني لا يدو لي واعداً بنجاح كبير.

غير أن هذا لا يغير شيئاً في أنني شاكر لك كل الشكر على تنبيهي إلى الخطأ المطبعي الفادح فعلاً الذي وقع في الجملة الأولى من المحاكمة. للتو تطبع الطبعة الرابعة من كتابي التي يصحح فيها هذا الخطأ، الذي أتحمل بنفسي على الأرجح المسئولية عنه. لقاء هذا التنبيه لك جزيل شكري.

راينر شتاخ

مع تحيات ودية

اويسكيرشن في شباط ٢٠٠٣ (من كريستيان إشفايلر)

السيد شناخ المحرر،

لا، إن رسالتك لا تمتاز باللطف والتهذيب، لا بل إنها لا تشى بعد أدنى من احترام على المرء إظهاره تقديرًا لإنجاز قدمه دارس آخر. غير أن الأسوأ من ذلك بكثير هو إساءة فهمك وتقليلك من قيمة الآثار الفنية الفريدة من نوعها التي أبدعها شاعر كان على قناعة: إن الظلال لا تطفئ الشمس. في حين أن نتيجة فهمك جاءت على نقىض ذلك: «محاكمة كافكا هي شيء رهيب... إن النتيجة تظل واحدة. ظلمة أى نظرنا». من المؤسف أنك لست مستعدًا لقراءة أحد كتبى، إذ إنه من شأنك في هذه الحالة أن تلقى فوراً من غوته النصيحة: «من يرد اتهام مؤلف بالغموض، عليه أولاً فحص دخلية نفسه ورؤيه فيما إذا كان الأمر هنا أيضاً في غاية الوضوح: في الغسق تصبح الكتابة الواضحة جداً غير مقروءة». لكن الظلال والظلم ما زالت لا تكفيك، وإنما تحتاج إلى ظلمة كاملة لكي لا تتبيّن شيئاً أو حتى تضيء شيئاً. ألا تلاحظ أنك تنظر في الاتجاه الخاطئ؟ إن نكبة معظم دارسي كافكا هي أنهم اكتفوا دائمًا بالظلال. على عكس ذلك لم أبحث سوى عن الشمس، فأمسكت على الأقل بجزمة عظيمة من أشعتها. هكذا فحسب يمكن للمرء النفاد إلى «الخلفية الكامنة»، إلى «العالم المنظم»، إلى «الثقل في العمق» لآثار هذا الشاعر العبرى. وطبعاً تلمنت على أساتذة وجهاء، لكن هؤلاء كانوا مفسرين ومتكلمين وفلاسفة، ويقيناً ليسوا كتاب سيرة ولا ناشرين.

يمكن للمرء أن يعرف كل شيء عن كافكا، ومع ذلك لا يفهم منه

شيئاً. إن الطريقة المضطربة، العاجزة، التي حاول بها سلفك الكبير هارتوموت ييندر أن يصنع نظام ترتيب الفصول في رواية المحاكمة بناء على ظروف وملابسات السيرة الذاتية، هي طريقة تكاد تدعو للرثاء. إن ييندر يمسح الأثر الفني الشعري ويحوّله إلى اليومي. إنه يقوم بتسطيحه، يقوم بتدميره. على هذا النحو لا يمكن إعطاء مقصد الإبداع والصياغة حقه، ولا إدراك بنية الرواية. وعندما كتب ييندر نفسه عن الطبعة النقدية التاريخية التي صدرت عن دار نشر شترومفلد، هذه الطبعة التي تستغنى، بسبب الاضطراب العام، عن كل تحديد لترتيب الفصول، تنفس الصعداء وكتب مبتهجاً أنه يمكن الآن لكل قارئ أن يخلط أحداث الرواية كما يشاء، ويستخلص بنفسه تطور هذه الأحداث كما يرغب. وهذا يعني أن على كل هاو أن ينجز بنفسه ما عجز عن إنجازه طوال عقود من يسمون خبراء وختصاصين.

لا ريب أن لكتاب السيرة أيضاً حدودهم، وليس من النادر أن يضللوا طريقهم مع الأسف ويشروا الارتباط. لقد هبط ييندر مثلاً إلى مستوى الصيادين وجامعي الفضلات، واكتشف فيفي، غفريت السيدة، الذي كان كافكا قد أخاف به أحنه أوتلا. وهانز - غرد كوخ يدعى حادمة في منزل أهل الشاعر تصف الأطعمة التي كانت محببة إلى كافكا، بما فيه وصفة لنوع من أنواع الفطائر. ويقوم كوخ حالياً بالاشتراك مع كلاوس فاغنباخ بعرض الدراجة النارية التي كان كافكا يدور بها، كما يعرض وثائق عن معمل الاسبست الذي كان كافكا يملكه. بعد سبعة وأربعين عاماً على وفاة دورا ديامنت، قاموا باستخراج عظامها من مقبرة جماعية، كي يدفنوها في وقار في قبر آخر بحضور دستة من الأشخاص الذين يحملون اسمها والذين كان قد جرى تتبع آثارهم واكتشفهم على نحو علمي. وباحث أمريكي بحث طوال تسعة أشهر في برلين عن رسائل تعزية كان كافكا قد كتبها إلى طفل

أعضاء لعنته. ومنك، أيها السيد شتاخ، نعلم الآن أن شقيق فيليس باور كان قد اقترف أ عملاً جنائياً. من الجائز أنني لا أعرف كيف أقدر مثل هذه التحريرات الشاقة ونتائجها بالنسبة إلى الأبحاث عن كافكا، لا سيما بالنسبة إلى فهم الآثار الفنية والعالم الفكري المععكس فيها، وهو الأمر الذي يهمني وحده دون سواه؛ إذ إنني في هذه الأثناء قرأت ودرست وعالجت المحاكمة مراراً وتكراراً.

إنك تفعل خيراً لنفسك، إذ لا تزيد أن تتحدث معي عن هذا الأثر الفني، حيث سيكون من شأنك أن تملك فعلاً أوراقاً حاسرة. أما أنا، فيبدو لي أنني يوزف لك أمام حراسه الواثقين بأنفسهم والصامتين الذين لا يجيرون على أسئلته، وذلك لأنهم لا يقدرون أن يجيبوا. وفي آخر الأمر يدرك يوزف لك: إن وثيقهما غير ممكن لولا غاؤهما. كلا، أيها السيد شتاخ، رغم ادعائك القاطع الذي لا يمكن الدفاع عنه، بأن معضلة المحاكمة غير قابلة للحل، إنني بكل تأكيد لا أعتبرك غبياً! ولهذا السبب، فإني أختتم رسالتي هذه بعبارات الإطراء التي أقولها لك بصدق ورغبة: مما لا ريب فيه أنك كتبت أفضل سيرة حياة كافكا من بين سير الحياة التي قرأتها أنا. إن عرضك الواضح والمفعم بالخيال يسرح القلب. بمتعة يتبع المرء لغتك وأسلوبك. يصاب بدهشة وذهول عندما يكون في فندق أسكانيا. وعندما تدع كافكا يقف تحت المطر، يظن المرء أن المرأة نفسه قد ابتل. كل هذا بديع وجدير بالتقدير إلى غير حد. أما في جوار آثار كافكا الفنية، فإنه ما زال لديك مع الأسف حاجة ملموسة للاسترداك. وسيكون من المؤسف جداً إذا لم تمعن الفكر مرة أخرى في ذلك أثناء عملك التالي.

كريستيان إشفايلر

مع تحيات ودية

السيد وطفي المخترم،

شكراً جزيلاً لرسالتكم المؤرخة في ٢٧ كانون الثاني وللمطبوعات المرفقة التي كنت أعرفها طبعاً من قبل، وذلك لأنني أقوم في دار نشر فيشر أيضاً بعمل استشاري.

لعلك تعلم أن السيد إشفايلر أيضاً قد كتب لي في هذه الأثناء وأنه قد تلقى مني جواباً نقدياً جداً أرسل لك طيباً صورة عنه. إنني أود إطلاعك عليه لأنه يمس أيضاً «ال الحديث» الذي أجريته مع إشفايلر ومن ثم نشرته.

أرجو أن تفهم أن الدور الغريب، والذي يكاد يتصرف بالاستكانة، الذي تخذه في هذا الحديث، إنما يشير الشكوك في نفسى إزاء عملك أيضاً. من البديهي أنه سوف يسرنى إذا ما جرى بواسطتك إطلاع قراء أيضاً في مجال اللغة العربية على عملى. لكننى عندما أقرأ أنك تعلن سلفاً في ختام حديثك أن كل كتاب مقبل عن كافكا إنما هو كتاب «مسطح»، وتضع إشفايلر على عرش مباشرة إلى جانب كافكا نفسه، فإنه ينبغي على أن أتسائل فيما إذا كنت أنت الوسيط الذي يستطيع أن ينقل فعلاً صورة موضوعية إلى حد ما إلى المجال الثقافي الخاص به.

إن السيد إشفايلر يعيش في عالمه الخاص به. ما يهمه هو عمله الخاص به، إنجازه الخاص به. إنه يقرأ ما يصدر عن كافكا، لكن ما من شيء مما يكتبه، يشي بأنه يأخذ علمًا فعلاً بما يكتبه آخرون. وهكذا أيضاً كان الحال مع الرسالة الثانية التي تلقيتها منه مؤخراً والتي - كما هو متوقع - لا تطرق مضمونها إلى دليل واحد. وعن لهجة التبخر الشامل والاستخفاف التي اعتاد

السيد إشفايلر أن يستخدمها، لا أريد أن أتحدث؛ يكاد الأمر أن يكون مضمحةً، لو لم يكن محزناً. لكن يعززني الوقت والرغبة من أجل الرد على الحوارات مع الذات.

في حال أملك ترغب، رغم كلماتي الصريحة، بأن تكتب عن سيرتي، فإنني أرفق لك بعض مقالات نقدية، والتي أملك نسختين من كل منها^(*). لقد نشر أكثر بكثير، لكن لا بد لي من إجراء جرد أولًا. إن المقالة الأفضل بكثير هي مقالة باومغارد من صحيفة دي تسايت؛ لقد قرأ فعلاً بدقة أكثر من النقاد الآخرين جميعهم.

في حال رغبت بترجمة وطباعة فصل من السيرة في اللغة العربية، أرجوك التوجه إلى قسم حقوق الطبع في دار فيشر؛ إن حقوق الترجمة هي للدار وليس للمؤلف. إن الترجمة الكاملة الأولى سوف تصدر في مدريد في مطلع حزيران؛ والترجمة الأمريكية تتبع في العام القادم.

راينر شتاخ

مع تحيات ودية

بون في ٢١ / ٢ / ٢٠٠٣

السيد د. شتاخ المحترم،

شكراً جزيلاً لرسالتك المؤرخة في ١٦ / ٢ / ٢٠٠٣ والتي سرتني للغاية، وذلك لسبب وجيه:

قبل بضع سنوات كنت أرى فعلاً أنه لا يمكن بعد الآن أن ينشر شيء

(*) بلغ عدد المقالات المرفقة تسعة مقالات.

هام عن كافكا. من هنا كلمتي القديمة: «مسطح». غير أن كتابك عن سيرة كافكا دعاني الآن أغير رأيي عن طيب خاطر. وهذا أمر جيد هكذا.

وعلى الفور وضعت الخطة التالية: يضاف إلى الطبعة الثانية لرواية «المحاكمة» ثلاث مقالات:

١ - مقالة نقدية عن كتابك.

٢ - من كتابك الفصل عن «المحاكمة» كدراسة رقم ٢١ في كتابي.

٣ - حديث طويل معك، كآخر فصل (إذا الكلمة الأخيرة تبقى لك).

عن حديثي مع الدكتور إشفايلر اسمع لي أن أعلمك ما يلي:

- ليس أنا الذي نشرته.

- صفحة الغلاف والصفحة الأولى والشاشة في نهاية الحديث ليست مني (الشاشة غير موجودة في العربية)^(٥).

- السطر الخامس والسادس في صفحة ٢٠ بما في العربية كما جاء في نهاية الصفحة في النسخة التي وصلتك.

- الأسئلة كلها وضعتها بنفسي.

(*) راجع ص ٦٥٠. إشفايلر هو الذي نشر الكتيب بالألمانية. وقد كتب في نهايته الشاشة التالية (دون علمي): (في طبعتها النقدية - التاريخية لرواية «المحاكمة» أشارت دار نشر شترومفلد، لأول مرة، إلى ترتيب إشفايلر لفصول «المحاكمة» وإضافته فصل «حلم» إلى الرواية، هذا الفصل الذي لم يذكر سابقاً مع الرواية فقط، رغم كونه فصلاً موجهاً وحايناً. ييد أن هذه الدار نشرت الرواية عمداً في فصول غير مرتبة. إن الترتيب الجديد النهائي للفصول وتعليق هذا الترتيب يتضمنهما كتاب «رسالة كافكا غير المدركة / المحاكمة الصحيحة»، الصادر مثل بقية كتب إشفايلر عن دار نشر بوفيه في بون).

- ملاحظتك عن دوري «الغريب» صحيحة مائة بمائة. وسببها يعود إلى طبيعتي وسيرة حياتي. كما إنها لا تزعجني (لكن الوضع يتحسن تدريجياً. لا سيما بفضل رسالتك!).

- عن شكوكك بخصوص عملي، هذه الشكوك التي لا تقل عن شكوكك بخصوص هذا العمل، كتبت بنفسك في كتابي الأول عن Kafka في عام ١٩٩٤^(*).

شكراً جزيلاً للمقالات النقدية، التي قرأتها على الفور. قبل ذلك كنت قد دونت ملاحظاتي عن كتابك. وما سرني أنني اكتشفت أن أفكاري تتفق تقريراً مع أفكار باومغارد. صياغاته أفضل من صياغاتيطبعاً. في رسالتي الأولى نسيت أن أكتب ما يلي: أعرف كتابك «أسطورة Kafka الإيروسية» معرفة جيدة. في هذه اللحظة أرى أنني كنت قد انتهيت من قراءته يوم الرابع والعشرين من أيلول عام ١٩٨٩. منه ومن مقالات نقدية عن معرضك عن فيليس كتبت (في المجلد الأول من «الآثار الكاملة») فصلاً يقع في ست عشرة صفحة عن «الخطيبة». والطبعة الثانية التي تصدر قريباً تحوي اسم رايبر شتاخ (مرتين).

طبيعي أنني سوف أطلب من دار فيشر ترخيصاً لترجمة فصل «المحاكمة». وطبعاً كنت أوثر أن أقوم بترجمة الكتاب بكامله. لكن، لكن...!

يماماً ما سوف أصوغ بعض الأسئلة الموجهة إليك. وعندئذ سوف تسمع مني.

(*) راجع المجلد الأول من «الآثار الكاملة»، الطبعة الثانية، ص ٢٢٧.

أفضل أن أرسل لك على الفور هذه الرسالة مكتوبة على الآلة الكاتبة وغير مصححة، على أن أنتظر تصليح جهاز الكمبيوتر وأن تستطيع زوجتي تصحيح هذه الرسالة. إذاً أرجو المقدرة! مع تحيات ودية ابراهيم وطفي

بون في ٤ / ٤ / ٢٠٠٣

السيد د. شناخ المحترم،

لاحقاً لرسالتنا أبعث لك أسئلتي آملًا وراجياً الإجابة عليها.

أكرر «مشروع»:

طبعه «المحاكم» الثانية سوف يزداد عليها قسم رابع يتتألف من ثلاثة فصول:

١ - سيرة حياة كافكا (مقالة نقدية مطولة عن كتابك).

٢ - الحكم على الذات (ترجمة هذا الفصل في كتابك + الموضع في الصفحات الأربعين الأخيرة المتعلقة بالرواية).

٣ - حديث مع كاتب سيرة كافكا.

يمكن لهذا القسم الجديد في كتابي أن يبلغ حتى مائة صفحة. في ما يتعلق بالحديث، إن الأمر متترك لك أن تقوم بإجراء تعديلات على أسئلتي: تغيير مواضع، اختصار، إطالة، فصل، إضافة الخ... ويمكن لأجوبتك أن تكون مساعدة، كما تراه مناسباً. كل ما تكتبه سوف يترجم وينشر حرفاً.

وإذا أردت أن أعلق على جواب ما من أجوبتك، فإنني سوف أعلمك تعليقي.

أستطيع انتظار أجوبتك حتى خريف هذا العام، لكنني أرجوك إعلامي
قربياً إن أمكن، في ما إذا كنت ستجيب على أسئلتي.
(ملاحظة شخصية: زوجتي وجهاز الكمبيوتر يعملان ثانية). بسرور
مع تحيات ودية
أسمع خبراً منك.

اوستنبروك في ٢٢ / ٤ / ٢٠٠٣

السيد وطفي المخترم،
شكراً جزيلاً لرسالتك المؤرخة في ٤ نيسان، والتي وجدتها في
انتظاري بعد عودتي إلى ألمانيا.

طبعاً أستطيع أن أجيبك على بعض الأسئلة التي تطرحها. في بعض
الحالات يحتاج المرء إلى صياغة الأسئلة على نحو مغاير بعض الشيء؛ على
 سبيل المثال السؤال عن ترکة برود الأديبة: إذ إنني سأقوم في الصيف
 بمحاولة جديدة لإقناع الورثة، لكن هؤلاء لا يودون رؤية أسمائهم مطبوعة.

ثم إنني لا أحب الإجابة على أسئلة تتعلق بالسيد إشفايلر. كنت قد
نوهت لك برأيي في أعماله، كما أن حكمي على الحديث المطبوع الذي
جرى معك لم يتبدل. لكن لا فائدة من جرح شعور هذا الرجل مرة أخرى،
إذ إنه على كل حال سادر في غيه.

سيكون من الأسهل لي إذا أرسلت لي الصفحات الأربع كملف
(ملحق برسالة إلكترونية)، هل هذا ممكن؟ من شأن هذا أن يوفر علي بعض
الكتابة في الكمبيوتر.

٢٠٠٣ / ٤ / ٢٥ بون في

السيد د. شتاخ الخترم،
شكراً جزيلاً لرسالتك اللطيفة الإيجابية والتي سرتني جداً وأوافق
عليها طبعاً كل المواقفة.

أحب أن أعلمك أن السيد إشفايلر لا يعرف شيئاً عن اتصالي معك
ولن يعرف. لا علاقة له بذلك في أي شيء. حديثي معك موجه للقارئ
العربي وحده (وهو في العادة كاتب). وهكذا تماماً كان المقصود بحديثي
مع السيد إشفايلر. وكون حديث نشر من ثم أو ينشر ليس من شأنني. إنني
أعمل من أجل القارئ العربي وحده، وأنما وسليط ولست طرفاً.

إنني أحاول أن أقدم لهذا القارئ أهم الأفكار والآراء عن كافكا،
وأعتقد أن «المحاكمة» في طبعتها العربية الثانية ستكون مثيرة للاهتمام بسبب
القسم الرابع الجديد. وهذا يسرني سلفاً.

بسرور أرسل لك أسئلتي كملف. ومنذ الآن أعرف أنني سوف أترجم
أجوبتك بمعناها.
مع خالص التحيات

٢٠٠٣ / ٥ / ١٢ بون في

السيد د. شتاخ الخترم،
أرسل لك طيباً نسخة من الطبعة الثانية المنقحة من المجلد الأول من
«الآثار الكاملة» لكافكا باللغة العربية. وأرفق ترجمة لفهرس الكتاب
وغلاقيه.

حيث القصاصات تجد بعض الصفحات بالألمانية وترى اسمك مرتبين.
وفصل «الخطيبة» يحوي صفحتين منك: موجز مقالتك المنشورة في آب

١٩٩٧ عن مكتبة فيليبس باور بعنوان «خطيبة كافكا لم تكن بسيطة هكذا».

إن الطبعة الثانية من «المحاكمة» هي قيد الإعداد. ومن القسم الرابع الجديد أخرجت الفصل الأول بعنوان «أعوام القرارات»، وهو مقالة نقدية مطولة عن كتابك عن سيرة حياة كافكا، تضم أيضاً الأفكار الرئيسية في المقالات التي كنت قد أرسلتها لي.

والآن آتي إلى السبب الرئيسي لرسالتي: أشير إلى مراسلاتنا السابقة لاسيما رسالتك المؤرخة في ٢٢ / ٤ / ٢٠٠٣، وأرجوك موافاتي بأجوبتك على أسئلتي. بتاريخ ٢٥ / ٤ أرسلت لك الأسئلة مرة ثانية، بناء على طلبك، كملف بالبريد الإلكتروني؛ ويمكنني إرسال الملف مرة أخرى. (أمل جداً أن تكون قد حفظت نجاحاً في محاولتك مع ورثة ماكس برود!).

رجائي الثاني يخص ترجمة فصل «الحكم على الذات» (ص ٥٣٦ من كتابك). في حزيران كتبت إلى دار نشر فيشر طالباً موافقتها على ترجمتي لهذا الفصل، غير أنني لم أتلق جواباً حتى الآن. وسأكون شاكراً لك إذا قلت هناك كلمة بهذا الخصوص. أنتظر جوابك باهتمام كبير باعثاً لك تحيات ودية للغاية.

اوستابروك في ٢٦ / ١٢ / ٢٠٠٣

السيد وطفى المحترم،

عدت لنؤي مرة أخرى من مكان إقامتي الثاني في جزر الكاريبي ووجدت في انتظاري كتابك الجديد، الذي أود أنأشكرك عليه. أين سيتمكن الحصول على هذا الكتاب في المنطقة الناطقة بالعربية؟

فيما يتعلّق بأسئلتك: على رسالتي المؤرخة في ٢٢ نيسان التي أرسلتها لك، لم يصل جواب إلى حتى اليوم؛ كما إنني لم أتلق رسالة عبر البريد الإلكتروني تحوّي ملحاً منك. يرجى أن تفحص مرة أخرى فيما إذا كان هذا قد أرسل آنذاك إلى العنوان الصحيح.

استغربت جداً إعلامك بأنك أخذت صفحتين من مقالة عن مكتبة فيليس باور. إنك تذكر عنوان المقالة على نحو غير صحيح، لكنني أظن أنك تقصد النص من صحيفة فـأ تست: «خطيبة كافكا لم تكن أيضاً هكذا بسيطة». لكن هذه المقالة ليست مني، وإنما من عالم الأدب الأمريكي يو لنسنغ. إنه لا يجوز أن تكون قد طبعت النص باسم مؤلف خطأ؟ يرجى أن توضح الأمر لي^(*).

من أجل ترجمة فصل «الحكم على الذات»، يسرني أن أتوجه إلى دار النشر. من الممكن جداً أن تكون رسالتك قد استقرت في أي قسم عن طريق الخطأ.

بون في ٢٩ / ١٢ / ٢٠٠٣

السيد د. شتاخ المحترم،

شكراً جزيلاً على رسالتك المؤرخة في ٢٦ / ١٢ والتي سررت بها غاية السرور.

آسف أنك لم تلق رسالتي المؤرخة في ٤ / ٢٥ المرفق معها ملف الأسئلة! ومذاك ظننت طوال الوقت أنك لا تزيد الإجابة على أسئلتي. كان

(*) راجع المجلد الأول من «الآثار الكاملة»، الطبعة الثانية، ص ١٤٩ - ١٥٠.

ذلك خليقاً أن يكون «كارثة» بالنسبة إلى وإلى الطبعة الثانية من «الحاكم». أما الآن فإني مبتهج للغاية لأنك كتبت أصلاً. الآن «تم إنقاذ» الطبعة الثانية!

هنا أرسل لك الأسئلة مرة أخرى كملف راجياً إعلامي وصوته. إن كامل الطبعة الثانية تنتظر أجوبتك على أسئلتي، هذه الأسئلة التي أخرجت ترجمتها ونضتها.

يجري توزيع كتبى من قبل دار نشر في دمشق، ويمكن الحصول على هذه الكتب من مكتبات في سوريا ولبنان وفي جميع معارض الكتب في البلدان العربية. ويبلغ عدد هذه المعارض ١٦ معرضًا على الأقل في السنة. وهذه المعارض هي سوق الكتب الرئيسي على وجه العموم. وطبعاً يمكن الحصول على كتبى من دار النشر نفسها. إنها دار الحصاد للنشر والتوزيع، عنوانها دمشق، ص. ب ٤٤٩٠، هاتف + فاكس: ٢١٢٦٣٢٦ / ١١ / ٠٠٩٦٣؛ العنوان الإلكتروني: yaarob@scs-net.org

لدى «الطبعات» في العربية لا يجوز التفكير بمقاييس ألمانية. «الطبعة الأولى» من المجلد الأول من «الآثار الكاملة» لكافكا بلغ عدد نسخها، صدق أو لا تصدق، ثلاثةمائة نسخة؛ الطبعة الثانية ألف نسخة. من «الحاكم» طبع أولًا خمسمائة نسخة، يبدو أن معظمها قد بيع خلال عام ونصف العام.

يشأن المعلومة عن مكتبة فيليس باور: صياغتي لهذه المعلومة في رسالتي في ٥ / ١٢ ليست صياغة صحيحة. الصحيح: «... صفحتين عن دراستك لتركة فيليس وتحقيقها في عام ١٩٩٧ وعن المعرض الذي أقيم في فرانكفورت في عام ١٩٩٨ تحت إشرافك». في هذا الصدد وحده ذكرت

اسمك في كتابي. ولبست الصفحتان ترجمة حرفية للمقالة، وإنما موجز عنها. إن القارئ يفهم أن الصياغة مني والمعلومات مأخوذة بتصرف من مقالة. ولدى صياغتي لعنوان المقالة في رسالتي لك، لم تكن المقالة أمامي، فجاءت الترجمة من العربية إلى الألمانية غير دقيقة، كما هو الحال دائماً عند إعادة الترجمة. المهم أن ترجمة عنوان المقالة في كتابي هي ترجمة صحيحة.

لكن فعلاً جاء في كتابي أنك نشرت المقالة. يمكنني اعتبار هذا خطأً مطبعياً سوف أصححه في الطبعة التالية، وذلك بزيادة أربعة أحرف، فتصبح الجملة: «نشرت عنه مقالة...». وعندما أجد متسعًا من الوقت، سأتترجم لك هاتين الصفحتين عنك، أو أعيد ترجمتها. على كل حال، أطلب منك المغذرة.

إنني أنتظر جداً أجوبتك. إن المجلدين الأولين من «الأثار الكاملة» لكافكا بالعربية سوف يكون لهما شأن ما.

مع تحيات قلبية وأطيب الأماني للعام الجديد ٢٠٠٤
المرفق: ملف «أسئلة حديث مع كاتب سيرة كافكا».

٢٠٠٣ / ١٢ / ٢٩ في

السيد وطفي المخترم

هذه المرة تلقيت ملفك؛ وإذ أن الأسئلة كثيرة، فإنه يتعمّن عليّ أن أرجوك أن تنتظر بعض الوقت. في البداية يوجد بعض الأسئلة التي تتشابه كثيراً من ناحية المضمون، وهي في الحقيقة سؤال واحد؛ وأسأجيب عليها مجتمعة.

كذلك السؤال عن ورثة ماكس برود، لنتمكن من الإجابة عليه بدقة، حيث أنها ما زلتا في مفاوضات. وقبل أن تنتهي، لا يجوز تسمية أسماء علينا. فاغنباخ كان قد فعل ذلك ذات مرة، ومنذ ذلك الحين تمت مقاطعته في تل أبيب ولم يعد لديه اتصال^(*).

في هذه الأثناء كتبت إلى السيدة شوستر في دار نشر فيشر، ورجوتها السماح لك بترجمة فصل من كتابي. لكن يبدو أنها لن تكون في الدار إلا بعد يوم الثاني عشر من كانون الثاني. هنا إذاً يتبع عليك الانتظار بعض الوقت. لكن من المفروض أنه لا يوجد مشكلة، كما أظن.

راينر شتاخ

مع أصدق التحيات

بون في ٣٠ / ١٢ / ٢٠٠٣

السيد د. شتاخ المحترم،

شكراً جزيلاً على رسالتك بتاريخ يوم أمس، والتي ارتحت لها جداً. المهم أنك سوف تجيب على الأسئلة، وكل ما عدا ذلك هو بالنسبة إلي أقل أهمية. أرجو أن تأخذ الآن وقتاً كما تشاء، فليس علينا رئيس، ويمكن للمطبعة أن تنتظر كما نريد. كما إنني أستطيع أنأشغل نفسي بترجمة الفصل من كتابك.

وحادثة الملف في نيسان اتضحت: يوم أول أمس أرسلت لك، مرة

(*) كلاوس فاغنباخ سافر، في منتصف خمسينيات القرن العشرين إلى تل أبيب، أثناء إعداده أطروحة دكتوراه عن طفولة Kafka وصباح، والتقى ماكس برود طوال عدة أيام، ونشر فيما بعد أطروحته في كتاب. كما نشر لاحقاً أربعة كتب أخرى عن Kafka.

ثانية، رسالة مع ملف الأسئلة كملحق. وبعد ست ساعات عادت لي رسالتي، وقد أعادها سيد يدعى مانفرد شتاخ مع الملاحظة التالية: «آسف! إن رسالتك وصلت إلى مستقبل غير مقصود. ربما كان د. رايبر شتاخ يملك هذا العنوان سابقاً». وهذا يعني أن هذا السيد قد تلقى في نيسان ملفي دون أن يعيده (ولا حتى أجاب على الأسئلة!). لكنه كان يوم أول أمس أكثر لطفاً!

مع تحيات ودية وأصدق الأماني للعام الجديد.

٢٠٠٤ / ١ / ٤ في

السيد وطفي المحترم،

هنا أرفق، كما وعدت، أجوبتي على أسئلتك. لقد أصبح المجموع كبير الحجم إلى حد ما، لكن الأسئلة أيضاً كانت كثيرة. أمل أن تستطيع استخدام النص في هذا الشكل، وأود أن أرجوك إعلامي إذا ما طبع.

رايبر شتاخ

مع أصدق التحيات

بون في ٤ / ١ / ٢٠٠٤

السيد د. شتاخ المحترم،

بعد القراءة الأولى السريعة لأجوبتك أود أن أقدم لك خالص التهاني عليها وأن أقول إن هذا الحديث يعجبني غاية الإعجاب وإنني سعيد به. طبعاً سوف يطبع هذا الحديث في كتابي. سوف أترجمه بدقة وعناية ترجمة حرفية. هذا ما أعدك به.

يوم غد سأشرع في العمل. وسأعمل بمعنعة.
مع خالص الشكر وتحيات قلبية.

بون في ١٥ / ١ / ٢٠٠٤

السيد د. شناخ المخترم،

برغبة كبيرة ومحنة ترجمت الحديث بنصه الحرفى دون أن أقوم بتعديل
أو حذف كلمة واحدة منه.

لدى الترجمة ثم لدى قراءة النص العربي زاد إعجابي بالحديث عما
كان لدى القراءة الأولى. وسوف ينشر كاملاً في الطبعة الثانية من
المحاكمة، وذلك كفصل في القسم الرابع الجديد من المجلد. هذا مؤكد.
إنك لتعلم أني ناشر كتبى (وهذا أمر حسن).

أود أن أرجوك الإجابة على السؤال الجديد التالي. إنه في غاية الأهمية
بالنسبة إلى القارئ العربي. سوف أضيفه على الصفحة التاسعة بعد السطر
الرابع عشر من النص الألماني ...

مع خالص الشكر وتحيات ودية.

بون في ١٧ / ١ / ٢٠٠٤

السيد د. شناخ المخترم،

يبدو أني ما زلت غارقاً في «الحديث» معك. هذا يجعل عملاً أكثر،
لكنني أقوم به بكل رغبة. وأنت؟ (أرجو المغفرة!).

على الصفحة التاسعة بعد السطر الثامن والعشرين سوف أضيف
الأسطر التالية (أرجوك الإجابة عليها) ...

كما أني سوف أختتم الحديث بالجملة التالية... مع خالص الشكر
وتحيات ودية.

٢٠٠٤ / ١ / ١٨ في

السيد وطفي الخترم،

شكراً جزيلاً لرسالتك في ١٥ و ١٧ / ١. سوف أحاول أن أقول
بعض جمل حول مسألة الصهيونية. لكنني أرجوك أن تتفهم أني بعد ذلك
أود أن أكتفي بهذا. إن قائمة أسئلتك كانت وفيرة وشاملة جداً، والإجابة
عليها أخذت وقتاً كثيراً. كما أني ألتقي من أطراف أخرى أسئلة كثيرة، لا
بدّ لي من أن أحدّ منها على نحو ما، وإلا فلا يبقى لدى أي وقت للكتابة.
حول الصهيونية إذاً... .

وكفى حول هذه المسألة، والتي ما زال يمكن قول الكثير عنها. لكن
من شأن ذلك أن يصبح مقالة مستقلة.

وأظن أنه بات الآن لديك كمية كبيرة من المواد. ولا آمل سوى أن
يؤتي العمل الذي تبذله ثماره، ويوضح صورة Kafka في العربية بعض
الشيء. أكثر من ذلك لا يستطيع المرء أن يفعل، كما أظن.

راينر شتاخ مع أصدق التحيات.

ب - حديث مع كاتب سيرة كافكا

ابراهيم وطفي:

في عام ١٩٨٧ نشرت كتابك الأول عن كافكا: «أسطورة كافكا الإيروسية» (٢٧٧ صفحة)، تعالج فيه شخصيات النساء في آثار كافكا. إنه كتاب مثير. بعد خمسة عشر عاماً من ذلك نشرت كتابك الثاني عامه: «كافكا / أعوام القرارات» (٦٧٣ صفحة). وهو جزء من ثلاثة أجزاء مخطط لها. كم عاماً عملت في الكتاب الأول؟ وكيف استمر الأمر؟ كم عاماً في الكتاب الثاني؟ وكم تظن أنك ستعمل في الجزأين التاليين من سيرة كافكا؟ كم عاماً انشغلت عموماً في كافكا؟ هل ستشغل نفسك به بقية حياتك؟

د. رainer شتاخ:

كتاب «أسطورة كافكا الإيروسية» نشأ من الأطروحة التي تقدمت بها لنيل شهادة الدكتوراه والتي اشتغلت بها عدة سنوات. غير أن هذا يعود قبل كل شيء إلى أنني كنت آنذاك، بعد إتمام دراستي الجامعية، مضطراً للكسب قوتي، ولم يكن في وسعي تخصيص سوى بضع ساعات في اليوم لكافكا. أما سيرة حياة كافكا، فإنها مشروع ذو بعد مغایر كلّياً. هنا كان من

الواضح منذ البداية أن غزارة المواد ستفرض عملاً طوال اليوم. وقد عملت طوال ما يقرب من ستة أعوام في الجزء الأول. والجزء الثالث الذي أعمل به الآن سوف يحتاج إلى أربعة أعوام على الأقل. وبعده سأعد الجزء الأول الذي سيعرض فترة طفولة كافكا وصباه. لكن ما زال من غير الممكن تقدير الوقت الذي سوف تحتاجه لوضع هذا الجزء، فالامر يتعلق فيما إذا كان سيتاح لي دراسة وتقييم تركة ماكس برود الأدبية. وإذا ما تم هذا، فإنه من الممكن جداً أن يحتاج العمل في هذه المادة الجديدة وحدتها مدة عام كامل أو عامين. لكن بصورة عامة - يمكن القول منذ الآن - سوف تكون كتابتي لسيرة حياة كافكا «عمل عمر» ولا ريب.

وطفي: يقال، إن من يستغل بكافكا، لا يقدر بعد ذلك أن يتركه. يبدو أن هذا ينطبق على العديد من الباحثة اختصين بكافكا. هل ينطبق هذا عليك أيضاً؟ كيف ولماذا؟ كيف ومتى ولماذا كانت البداية لديك؟ كيف تطور الأمر بعد ذلك؟ هل تبدلت علاقتك بكافكا بمرور الأعوام على نحو آخر؟ وكيف؟ كيف سيستمر الأمر بينك وبين كافكا؟ ماذا تخطط؟ ماذا تظن؟

شتاخ: كثيرون من الذين يشغلون أنفسهم بكافكا طوال أعوام، يمرون أولاً بمرحلة من التماهي؛ وعندئلي لم يكن الأمر مختلفاً. وقد حدث هذا التماهي قبل كل شيء بفضل اليوميات والرسائل التي تعرفت عليها عندما كنت في منتصف العشرين من عمري. لقد كان الأمر صدمةً: هذه المراقبة القاسية للذات، المراقبة التي لا تعرف الهوادة. هذا الصدق وهذه المقدرة اللغوية المبنية التي تستحوذ على الفؤاد. وكان الشعور الأول: هذا ما أود أنا أيضاً أن أقدر عليه. وكان الأمر طبعاً في غاية السذاجة، لكنه أدى على كل حال إلى أن أشغل نفسي بالآثار الأدبية على نحو أكثر تعمقاً.

وتكون المرحلة الثانية، من ثم، أن يتعرض المرء للدراسات عن كافكا. وهذا أمر لا محض عنه، إذ إن المرء يظل من الهوا إذا ظن أنه يستطيع أن يعتمد على أفكاره الخاصة به وحدها. لكن الانشغال بالدراسات يمثل تجربة صبر قاسية، دعت كثيرين إلى الإعراض عن كافكا. إن هذه الدراسات هي، أولاً، بلا نهاية ولا حد؛ ويحتاج المرء مدة أسبوع حتى يمكن من تكوين نظرة شاملة. وثانياً، يوجد عن كافكا آلاف الدراسات التي لم توضع سوى بهدف الحصول على لقب ما من الألقاب الجامعية. وغالباً ما تكون هذه الدراسات الأكاديمية جافة واختصاصية أكثر من اللازم ومليئة بالتكلهفات، أو أنها تعتمد على «نظيرية» ما وتحاول بناء عليها عصر «المعنى الحقيقي» من آثار كافكا. ناهيك عن أن غالباً ما يقوم الواحد بالنقل عن الآخر، ومن النادر أن يجد المرء شيئاً جديداً حقاً.

كل هذا ليس مفرحاً، لكن الدرر التي يجدها المرء مع ذلك، إذا ما تخلى بالصبر، إنما تعوض عن خيباتأمل كثيرة. يتملك المرء فجأة شعور بعمق نصوص كافكا وعدم إمكان استنفادها. وفي الوقت نفسه يصبح المرء أكثر ارتياحاً إزاء «التفسيرات الشاملة». ويفيد لو لي اليوم من الغرابة بمكان حقاً أنه وجد ذات يوم أناساً ظنوا أنه في مقدورهم انتزاع لغز هذه الآثار بواسطة مناهج آداب اللغة أو بـ«مفاتيح عامة» - أي بنظرية واحدة شاملة.

على مدى العقود زاد بالأحرى تقديرى للإنجازات كافكا. ولا سيما منذ أن وجهت اهتمامي في تسعينات القرن العشرين للسؤال عن كيفية نشوء مثل هذه النصوص حقاً - سؤال السيرة بدل سؤال المعنى - ، يدهشنى دائماً من جديد كم تصدى كافكا لأية ظروف خارجية تعيسة، لا بل كارثية. هذا لم يقدر حق قدره، كما أرى. لقد تمكّن كافكا بإراده الكتابة ضد ظروف خارجية وداخلية معاكسة أكثر ما تكون المعاكسة. لكن بمن

باهظ، إذ إنه اضطر لترك نصوص كثيرة جداً غير مكتملة، وأوصل نفسه صحيًا ونفسياً إلى حافة الإنهاك الكامل. وأظن أنه الآن، في هذه اللحظة، لو كانت الأجزاء الثلاثة من السيرة منجزة، لكنت خليقًا أن أفرغ مرة أخرى وأدرس بدقة أكبر بعض هذه المعاكستات والبشاورات، وأكتب عنها ربما بعض المقالات والمحاضرات، على سبيل المثال عن المضايقات اليومية ذات الصبغة اللاسامية التي كان كافكا يعيشها والتي لا يذكرها في كتاباته فقط، أو عن المعاناة من الجوع والبرد في براغ اللذين كان كافكا يتحملهما دون أن يشكو.

وطفي: أين يكمن سبب التأثير الآسر الذي ينبعث من نصوص كافكا؟ أين تكمن قوة جاذبية كافكا؟ بالنسبة إليك، إلى الباحثة، إلى القراء؟ إنك تكبر وتتجعل كافكا كل الإكبار والتجليل. لماذا بالدقة؟ ما هي الأسباب (ربما باختصار شديد)؟

شناخ: إن ابتكارية نصوص كافكا وأصالتها وكمالها اللغوي لا نظير لها في الأدب العالمي، كما أعتقد. لدى كافكا لا يوجد أبداً كلمة زائدة عن اللزوم. ما من مرة تظهر لديه جملة ضعيفة أو استعارة واهية أو عبارة جوفاء، ولا حتى على بطاقات بريدية يكتتبها من الإجازة. ورغم ذلك لا يجد على كتابته قط أنه أجهد نفسه فيها؛ إنها أبعد ما تكون عن التكلف والتصنعن. بل العكس هو الصحيح، حتى أن لعنته تبدو من النظرة الأولى في غاية البساطة. لكن عندما ينظر المرء بدقة أكثر، فإنه يرى أعماماً ووهاداً. وغالباً ما تتفتح في نصوصه آماد معنى عديدة، تدعو حقاً للتأمل والمحاولة التفسير.

وثمة وجه ثان هو طبعاً راديكالية كافكا وحداثته. نصوصه تبدو كأنها لا تشيخ. إنها ما زالت تثير الدهشة والإعجاب كما كانت تثير منذ

اليوم الأول. وهذا أيضاً من النادر جداً وجوده في الأدب. وكون مثل هذا ممكناً، يكاد أن يكون أعموجية جمالية. إذ أن كافكا لم يحاول فقط عن وعي أن يبدع شيئاً خالداً؛ على العكس، غالباً ما كان يكتب بدون أي تحطيط. ومن الصور والشخصيات التي كانت تخطر له، لم يكن ينتقي سوى تلك التي كانت تبدو له مقنعة وـ«حقيقة صادقة». ومن هنا كانت لديه مشكلات مع توجيه أحداث معتقدة، هذه الأحداث التي لا محيد عنها لدى كتابة رواية.

وطفي: مراجعك لدى كتابة سيرة كافكا هي: رسائله، يومياته وآثاره. ماذا أيضاً؟ نتائج أبحاث؟ صحف من أيامه؟ أبحاث خاصة؟

شناخ: ذات أهمية كبيرة بالنسبة إليّي، بادئ الأمر، كانت الطبعة النقدية لآثار كافكا، هذه الطبعة التي لم تكن متوفرة لكتاب سيرة كافكا السابقين. إن الطبعة النقدية توثّق عملية الكتابة لدى كافكا، ولهذا أهمية مرکزية عند كاتب ترك آثاراً غير مكتملة أكثر بكثير مما ترك آثاراً مكتملة، وكاتب لا توجد لديه حدود واضحة إطلاقاً بين كتابات «خاصة» وكتابات «أدبية».

ومصدر آخر هام هي رسائل كافكا إلى فيليبس باور. صحيح أن هذه الرسائل نشرت منذ أكثر من أربعين عاماً، لكن لم يسبق لأحد قط أن عمد إلى تقييمها بدقة واستخدامها لدى كتابة السيرة، رغم أن هذه الرسائل تقدم كمية ضخمة من التفاصيل الواضحة. لإنجاز هذا التقييم وحده احتاجت إلى عدة أشهر، لكن هذا العمل كان مجدياً، لأن أحجار الفسيفساء، إذا ما جرى تجميعها بحق، تقدم على وجه الإجمال صورة مجسمة عن محيط كافكا. إنها فسيفساء ضخمة.

وفعلاً إن الصحف اليومية التي كانت تصدر في عصر كافكا هي في

غاية الأهمية. لكن لا يجوز للمرء أن يقتصر (كما فعل كتاب سيرة سابقون) على البحث في مقالات الصحف آنذاك عن إشارات مباشرة دخلت إلى كتابات كافكا. صحيح أنه أمر طريف أن يعثر المرء على الإعلان عن خطوبه كافكا. غير أن الأكثر أهمية بكثير هو النظر إلى مثل هذه الإعلانات من وجهة نظر تاريخية حضارية. على سبيل المثال من أجل التثبت فيما إذا كان ما زال من المأثور الحديث عن المال والأملاك عندما يتعلق الأمر بالزواج. إن الإعلانات آنذاك أيضاً ذات دلالة كبيرة. يجد المرء مثلاً كثيراً من الإعلانات التي تمدح معونة طيبة ضد «توتر الأعصاب». لقد كان هذا إذاً ظاهرة من ظواهر ذلك العصر وليس غرابة من غرائب كافكا. وكذلك من المثير قراءة إعلانات زواج بأسلوب لغوي يمتد إلى القرن التاسع عشر، وإلى جانبها مباشرة طبعت إعلانات عن وسائل منع الحمل أو حتى عن بطاقات بريدية جنسية دون أي إخفاء. هنا يرى المرء بكل معنى الكلمة كيف تفتح الحداثة الحياة اليومية وتتحطم العادات التقليدية والأخلاق البورجوازية. لقد عاش كافكا في عصر فتحت فيه الأبواب على حين غرة واندفعت إليها الريح الجليدية لمجتمع الاستهلاك الحديث. وبدون هذه التجربة يكاد لا يمكن فهم حداثة نصوص كافكا. كان ذلك تجربة صدمة بالنسبة إلى الناس آنذاك، ولا يمكن الشعور بشعورهم إلا إذا رأى المرء مصادر عصرهم، ولا سيما الصحف.

وطفي: فاغنياخ سافر إلى تل أبيب والتقي ماكس برود. أنت سافرت إلى نيويورك والتقيت ابن فيليبس باور. إنه في غاية الإثارة بالنسبة إلى قرأي، كيف يعمل المرء شيئاً كهذا: النفقات، الوقت، الخ... إن النتائج التي توصلت إليها جديدة. والقارئ يعلم منك أكثر مما كان كافكا يعلم آنذاك. وفيليس باور تظفر بحقها.

شتاخ: كذلك السفرة إلى نيويورك جرى توسيع أغلب نفحاتها من قبل دار نشر فيشر. لقد كان واضحاً بالنسبة إلينا أن من شأن المعلومات من ابن فيليبس باور أن تكون معلومات ثمينة للغاية، وهذا ما تبين فيما بعد. وهذه المعلومات وحدها هي التي أتاحت لي تبيان علاقة كافكا بخطيبته من منظور آخر، من طرفها هي. إن مثل هذه التغييرات للمنظور هي في غاية الأهمية بالنسبة إلى السيرة، إذ إن المرء لا يحصل على صورة موضوعية، عندما يروي المرء دائماً من منظور كافكا وحده. بل إن المرء يقع في هذه الحالة في خطر تكرار أخطاء كافكا وحالات سوء فهمه. وكما نعلم اليوم، لقد أخفت فيليبس باور بعض الأمور التي كان يتبعن على كافكا أن يعلمهها بالضرورة، مثل بعض الكوارث الأخلاقية التي وقعت في أسرتها. ومن هذه الناحية فإن القارئ يعلم في بعض النقاط عن خطوبية كافكا فعلاً أكثر مما كان الخطيب نفسه يعلم. لكن علماً أنه من الواضح بالنسبة إلى كل الوضوح أنه ما زال يوجد أمور كثيرة جداً لا نعرفها.

وطفي: أين تكمن الفروق الرئيسية بين سيرة كافكا هذه وسيرته التي كتبها آخرون؟

شتاخ: إن تغييرات المنظور التي ذكرتها هي مثل هذا الفرق الذي يميز السيرة التي كتبتها عن السير الأخرى، وبعمادة: استخدام وسائل أدبية و«سينمائية». لكن قبل كل شيء أيضاً الحجم: حتى الآن لم يوجد إطلاقاً سيرة لكافكا حاولت أن تجمع كافة المعلومات المتوفرة اليوم وتعرضها بطريقة تصل للقارئ غير المختص أيضاً.

وللحجم علاقة طبعاً بكوني أحاول أن أرسم صورة شاملة، ما أمكن، لعصر كافكا، وذلك لإعطاء القارئ انطباعاً عن ظروف الحياة آنذاك. وبدون هذا لا يمكن أبداً فهم الكثير من قرارات كافكا. وإنه ليهمني حقاً

قبل كل شيء لا تبيان ما كان قد حدث، وإنما أية خيارات كانت أمام كافكا بعامة. هنا أيضاً تميز عن كتاب السيرة الآخرين. إنه لا جدوى من التأمل السيكولوجي في مسألة لماذا لم يكن كافكا يخابر خطيبه كثيراً، إذا لم يكن المرء يعرف كم كان إجراء مخابرات هافتفية إلى الخارج صعباً آنذاك، وكم كان البريد سريعاً من ناحية أخرى. وكذلك موضوع لماذا لم يستأجر كافكا شقة لنفسه، إذا كان احتمال الحياة مع والديه بمثيل هذه الصعوبة. إن التفسير البسيكولوجي وحده لا يكفي هنا. علينا أن نرى ماذا كان المأثور في الطبقة المتوسطة، وما كان من شأنه أن يكون إساءة وإهانة للأسرة. لكن كل هذا يحتاج طبعاً إلى وقت وإلى حجم. ومن هنا ستتألف السيرة من ثلاثة مجلدات. لكن بعض القراء شهدوا لي في هذه الأثناء أن القرب من الأحداث الذي ينشأ من خلال ذلك، إنما يستحق الجهد. لكن لا يجوز التعمق أكثر من اللازم في التاريخ؛ يجب أن يظل الاتصال بكافكا قائماً دائماً.

وطفي: إلى أي مدى تلقي نتائج أبحاثك ضوءاً آخر على نواحٍ أخرى (ما هي) في حياة كافكا؟ إلى أي مدى تغير صورة كافكا عن طريق عملك؟

شتاخي: لقد أحلمت إلى الموضوع: كانت ظروف كافكا الخارجية أكثر صعوبة مما كنا نظن. صحيح أن كافكا كان أستاذًا في الشكوى، لا بل في اللوحة. غير أنه من النادر جداً أن شكا من أشياء كانت تصيب الجميع. عندما كان يهود يقدفون مرة بحجارة، كان يتتجاهل ذلك بملحظة ساخرة. مراراً وتكراراً كان يمكنه أن يرى في مكتبته أناساً أصيروا إصابات رهيبة في حوادث أثناء العمل، فجاؤوا يطالعون بتقادع؛ ولا بد لهذا أن يكون عيناً

نفسياً، غير أنه لم يشكو ذلك. حتى في عامه الأخير في برلين، عندما بدأ التضخم الناري مدخراته وراتبه التقاعدي، ولازم الفراش في غرف باردة، حتى في هذا الوضع لم يشكو.

يتعين علينا أن نعتقد أن كافكا كان نفسياً أكثر صلابة بكثير مما افترضنا حتى الآن، وأن استراتيجية للحياة وشعوره الحاد بالكرامة والصدق والإخلاص هي هامة مثل أهمية حساسياته وحالات اكتئابه التي يجري الحديث عنها دائماً وأبداً. كان كافكا مريضاً بالوهم، هذا صحيح، كما كان مدللاً إلى حد ما، لم يكن يتحمل الضوضاء، وكان بحاجة إلى مواد غذائية محددة تماماً، لم يكن من السهل تأمينها، وميله نحو الزهد يبدو أحياناً متتكلفاً. لكنه من طرف آخر قام بتبعة طاقات نفسية مدهشة لمواجهة طبيعته الخاصة به والكوارث الخارجية التي لحقت به، ولبقاء متوجاً رغم ذلك. ومن الواضح جداً أنه قد استهين حتى الآن بهذا الإنجاز لكافكا.

وطفي: لم يكتب كافكا شيئاً تقريراً عن الحرب العالمية الأولى: ألمانيا أعلنت الحرب على روسيا. بعد الظهر مدرسة سباحة. ولم يشارك في النقاشات حول الحرب. لكنك أنت ترى هذه الحرب شأنًا حاسماً بالنسبة إلى كافكا، وتصف تأثيرها على حياته وموته المبكر. هذا أمر جديد وهام. كما إنك أبدعت في وصف الخلفية التاريخية للحرب. وأظن أن ما من مؤرخ يستطيع تقديم ما هو أفضل.

شتاوخ: في عام ١٩١٤ عاش كافكا في غضون ثلاثة أسابيع فقط كارثتي حياته الكبیرتين: الأولى كانت فسخ الخطوبة في فندق أسكانيا في برلين، حيث طرحت عليه أمام شهود أسئلة خاصة محرجة إلى أقصى حد، ووجهت إليه ملامات جسيمة. هذه المهانة التي جاءت بالذات من المرأة التي أحبها، لم يستطع كافكا أن يبرأ منها قط. وبداءاً من هذه اللحظة راح

كافكا ينسحب دائمًا أكثر، وبات أكثر ارتياهاً، وإلى الخارج أكثر بروادة أيضًا.

الكارثة الثانية، الحرب، عمد كتاب السيرة السابقة إلى إهمالها على نحو ساذج حقاً. وذلك لأن كافكا كان يهاب الشكوى من متعاب كانت تصيب الآخرين على نحو أكثر قسوة. صحيح أنه لم يتوجب عليه أن يذهب إلى الجبهة، لكن علينا ألا ننسى أن الحرب إنما قضت نهائياً على أمل كافكا الأكبر بأن يترك عمله الوظيفي ويعادر براغ ويعيش كاتباً. ولو استقال من وظيفته، لكان يتعين عليه أن يتحقق بكتيبيه. وبات السفر إلى الخارج غير ممكن، حتى أن المخابرات الهاتفية إلى الخارج أصبحت محظورة، وهيئات الرقابة كانت تقرأ كل الرسائل. كيف يمكن تحت مثل هذه الظروف الحفاظ على العلاقة مع امرأة في برلين؟ والأدباء القلائل ذوو الأهمية الذين كان كافكا قد تعرف عليهم، والذين كان من شأنهم أن يتمكنوا من مساعدته، كانوا جمِيعاً في الحرب: روبرت موزيل وإرنست فايس على سبيل المثال؛ كذلك ناشره كان في الجبهة ولم يعد في مقدوره أن يهتم بكافكا. في لحظة إذاً أراد فيها كافكا أخيراً أن يبدأ حياة جديدة خارج براغ، ألقى على نفسه كليةً وفي الوقت نفسه محبس في مدinetه.

ناهيك عن تلك الأوضاع الاجتماعية التي كانت تسود في براغ أثناء الحرب: مواد غذائية باهظة الثمن للغاية، أزمة سكن، قلة فحم التدفئة، بؤس اللاجئين، عداء للسمامية متزايد. كذلك بسبب الرقابة لم يكن في مقدور كافكا أن يكتب عن هذه الأمور في الرسائل. لكن من الواضح أن كل هذا كان عيناً كبيراً. وما يشير الدهشة فعلًا أنه رغم كل شيء أثناء الأشهر الأولى من الحرب إنما قد عاش مرة أخرى فترة إبداع طويلة، والتي استخدمها أيضًا

تحت أكثر الظروف الخارجية معاكسة، وإنكب على الكتابة في الليالي حتى درجة الإلهاق.

وطفي: إن الجزء الحالي مفهوم لذاته، يمثل سيرة حياة مكتملة للأعوام الهامة في حياة كافكا.

موضوع: ترفة ماكس برود الأدية. تتألف هذه الترفة قبل كل شيء من يوميات برود التي كتبها طوال ستين عاماً ومراسلاته مع كافكا خلال اثنين وأربعين عاماً. لقد مضى خمسة وثلاثون عاماً على وفاة برود، وما زالت ترفة محفوظة في مكان سري ولم تنشر بعد. من هم ورثة برود؟ لماذا لا يسمحون بنشر ترفة الأدية؟ أين تكمن المعضلة؟ ماذا تعرف عن ذلك؟ متى تقدر أنه يمكن أخيراً الإفاده من هذه الترفة؟ تذكر أن ترفة برود هي السبب في أنك كتبت ونشرت الجزء الثاني قبل الجزء الأول من سيرة حياة كافكا. هذا يعني أنك تعتبر هذه الترفة على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة إلى حياة كافكا. لكن كافكا حافظ، كما هو معروف، على مسافة بينه وبين برود. هل تريد أن تقول بضع كلمات عن العلاقة بين الاثنين؟

شناخ: أوصى برود بتركته الأدية للمرأة التي عاش معها في شيخوخته، وما زالت هذه المرأة تعيش حتى اليوم (عام ٢٠٠٤) في تل أبيب. وترددتها في نشر الترفة أمر مفهوم لأن هذه الترفة تضم طبعاً العديد من الوثائق الشخصية والخاصة، رسائل حب مثلاً، لا يجب أن تنشر بالضرورة.

لكن ثمة فرق بين أن تنشر مثل هذه الوثائق أو أن يجري تقييمها علمياً. وإذا ما جرى هذا التقييم مع شعور بالمسؤولية، فيما من غضاضة فعلاً في ذلك، ولا من ناحية أخلاقية أيضاً. كذلك رسالة حب يمكن أن تكون

وثيقة من وثائق العصر. مما له دلالة كبيرة على سبيل المثال معرفة كيف عالج برود تدخل والديه الدائم في علاقاته الجنسية: إلى أي حد تسامح، إلى أي حد خلق لنفسه إمكانيات سرية، وقبل كل شيء: إلى أي حد أخذ برأي والديه حول أي نمط من المرأة يصلح للزواج على وجه الإجمال. هنا كان برود يواجه التأثيرات نفسها تماماً و«محاولات التوجيه» التي كان كافكا يواجهها. ومن شأن المقارنة أن توضح على الأرجح كل الإيصال فيما إذا كان وضع كافكا وسلوكه أموراً غير مألوفة أو كانوا بالأحرى وضعاء وسلوكاً ناطعين في ذلك العصر.

إن الأمر يرتبط بنوع عملي: إنني أحتج إلى مواد تكشف عن الخلفيات وتميز شخصية كافكا. مما لا ريب فيه أن كافكا يرد في يوميات برود. لكنني، لو كانت هذه اليوميات تحت تصرفني، لن أتقطع منها أبداً الموضع وحدها التي تتحدث بوضوح عن هذه الصداقة. وكذلك لدى الرسائل: لحسن الحظ نشرت المراسلات بين برود وكافكا، وذلك بعد موافقة وريثة برود في ثمانينات القرن العشرين. لكن يهمني أيضاً مراسلات برود الأخرى التي ما زالت محفوظة في تركته، وتبلغ خمسة عشر ألف رسالة على الأقل، بينها رسائل كثيرة من ناشرين وكتاب وسياسيين. وبالإضافة إلى ذلك تحوي تركة برود مواداً كثيرة عن فترة الدراسة في المدرسة والجامعة، أي مواد عن تلك الأعوام التي لا تملك منها في حالة كافكا أي شيء تقريباً. وكذلك نشاط برود كصحيوني مثالي إلى حد ما لا يمكن توثيقه بدون هذه التركبة. وقد راقب كافكا هذا النشاط بكل دقة وقام أحياناً بالتعليق عليه.

أما فيما إذا كنا سنقترب بفضل هذا من لغز هذه الصداقة، فإنه أمر أشك فيه. كان برود مستمعاً صبوراً، وكان يكتب بسهولة ويسر أكثر بكثير

من كافكا، الذي كان يعجب به لهذا السبب. وكان برود يقدم شبكة وجدانية عندما كانت أحوال كافكا تسوء. غير أن كافكا لم يدع نفسه مرة يقنع بأي شيء، لا بالصهيونية ولا بطريقة عمل منتجة كما هو مزعوم. لقد ظل نفسه كلياً. وعلى الأرجح سأتمكن فقط في نهاية عملي، في الجزء عن السنوات الأولى، أن أقول شيئاً جوهرياً عن هذه الصداقة. وأأمل جداً أن تكون ترفة برود قد نشرت حتى ذلك الحين وجرى تقييمها علمياً.

وطفي: برود لم يكن يعرف يوميات كافكا. ولم ير رسائل كافكا إلى فيليس باور إلا بعد عقود من وفاته.

وطفي: كتابك بكماله لا يحوي كلمة واحدة عما يسمى «يهودية كافكا». ثانياً: حرفيًّا تكتب أن كافكا إنما كان أحياناً «يجد الصهيونية المنظمة مقرفة». ثم تتابع: «في النقاشات العقائدية التي كانت تجري على صفحات المجلة الصهيونية سلسليستغير (الدفاع عن النفس) لم يتدخل مرة واحدة فقط - مع أنه كان يعرف ناشريها وكتابها جميعاً -، وكذلك في الرسائل الكثيرة التي خلفها كافكا يتتجنب المسائل النظرية للصهيونية بالصمت وعدم الافتراض. عن (الصحيح) كان يبحث في مكان آخر. الصحيح كان التعبير المباشر، الحقيقي، بعيد عن التصنّع والتظاهر، كان في الكتابة» (ص ٥٧).

هذا يدع القارئ العربي بالذات يرهف أذنيه. ما من مكان آخر في العالم جرى فيه الحديث عما يسمى «يهودية كافكا» وما يسمى «صهيونية كافكا»، على نحو خاطئ وبسوء فهم، مثلاً ما جرى في اللغة العربية.

هل تود إفاده القارئ العربي أكثر بعض الشيء عن هذا الموضوع، طبقاً لما وصلت إليه الأبحاث حتى الآن؟ أعتقد أن ما من أحد آخر يعرف الأمر أكثر منك وأفضل.

شتات: كانت المسألة الأساسية لدى كافكا هي مسألة هويته الخاصة به. وهذه المسألة تواجه كل فرد في وقت من الأوقات، ويمكن حلها بطريقتين مختلفتين كل الاختلاف: الأولى هي أن يتماهى الفرد مع جماعة («أنا يهودي»، أو «أنا ألماني»، أو «أنا من البلاط»)، والثانية هي أن يخلق المرء لنفسه هوية ويشق طريقه ضد بقية العالم. ولأن كافكا كان يحس نفسه كاتباً قبل كل شيء آخر، فقد انصب اهتمامه على الحل الثاني، إذ أن الكتاب لا يشكلون جماعة يشعر المرء برعايتها له دون أن يكون قد أنجز حقاً شيئاً ما. لذاقرأ كافكا عدداً كبيراً من السير الذاتية لناس شقوا طريقهم في مجالهم أو بمشروع محدد؛ مثل سيرة حياة نابوليون، أو سيرة حياة زارع كافح ضد الأدغال، أو سيرة حياة امرأة دافعت عن حقوق المرأة. كان يهتم قبل كل شيء بترجم ناجحة لناس لم يعتمدوا على رأي الجماعة، وإنما شقوا طريقهم الخاصة بهم.

لكن بعد أن أخفق كافكا عدة مرات في كتابة أثر فني - قبل كل شيء بعد أن اضطر إلى الإقلاع عن الكتابة في المحاكمة - ، لم يعد يعتقد كل الاعتقاد أن في مقدوره أن يرز كاتباً بمستوى فلوبير أو دوستويفسكي مثلاً. وهكذا ازدادت أهمية الهويات الجماعية بالنسبة إليه. وكانت الهوية اليهودية هي في متناول اليد طبعاً. لكن في أسرة كافكا - وفي كافة الأسر اليهودية الموسرة - لم يكن قد يقي شيء يذكر من الثقافة اليهودية التقليدية. كان المرء يذهب إلى الكنيس أيام الأعياد مرتين في العام أو ثلاث مرات. وكان هذا كل شيء. كما أن كافكا كان قد تلقى تربية عصرية. وفي تلك الأيام كان يتquin على اليهود أن يتبعوا باستمرار إلى كيف ينظر غير اليهود إليهم. وقد نشأ عن ذلك موقف من التوجس والقلق. وظهور فكرة أن يملك اليهود أرضاً إقليمية خاصة بهم لا يحتاجون فيها إلى هذا التكيف والاتباع

كانت فكرة محررة قدمت نفسها على أنها مخرج مغر تحسس له كثيرون من الشبيبة اليهودية. وقد أعجب كافكا بعض الوقت بهذه الفكرة، غير أنه لم يكن يهتم أي اهتمام بأمور السياسة. كان ما أُعجِّبه هو إعجاب الناس بالفكرة، عملهم من أجل قضية. لكن ما لم يعجب كافكا، فهو المؤتمر الصهيوني في فيينا؛ فما جرى هناك كان يماثل ما يجري في جلسة أحد التوادي، حيث جرت مجادلات من الصباح إلى آخر الليل عن أمور لم يعد كافكا يتعرف فيها على الفكرة الرئيسية للصهيونية^(*). وهذا أيضاً هو السبب الذي حدا بكافكا إلى صد دعاية ماكس برود المتواصلة. بل إن برود أراد أن يضع كلامهما الكتابة في خدمة الصهيونية، وهذا ما لم يقبله كافكا بأي حال من الأحوال. كما أنه رفض أن يشارك أية مشاركة في الصراعات أو أن يتقلد أي منصب أو يضطلع بأية مهمة في الجمعيات الصهيونية. ورغم ذلك ظلت إمكانية الهجرة إلى فلسطين بمثابة يوتوبيا مريحة. كان يعرف أن هناك مخرجاً يفضي من أوروبا التي مرفقها الحرب. من المؤكد أن كافكا لم يكن يعتقد عقيدة، ولم يفته أن الكثيرين من أتباع الصهيونية إنما كانوا سذاجاً كل السذاجة، إذ كانوا يظنون أن حصولهم على أرض إقليمية إنما يحل المشكلات كلها.

وطفي: قراءة كتابك كانت متعة خالصة بالنسبة إليّ. إنك تحول

(*) في أيلول ١٩١٣ كان كافكا في فيينا عضواً رسمياً في وفد «مؤسسة التأمين على حوادث العمال» إلى «المؤتمر العالمي الثاني للإسعاف ومنع الحوادث». وفي الوقت نفسه كان يعقد في فيينا «المؤتمر الصهيوني العالمي الحادي عشر»، الذي حضره نحو عشرة آلاف يهودي من جميع أنحاء العالم. ومرة واحدة حضر كافكا إحدى جلسات هذا المؤتمر بصفته متفرجاً. «وجلس كما في حفل غريب كلياً، وهو يشعر باللل. ثم خرج وراح يتمشى في الحديقة» (شتاخ، ص ٤٠٩).

حياة كافكا إلى رواية مشوقة غاية التسويق. وفي الحقيقة يجب تسمية كتابك «رواية سيرة ذاتية». إنها أكثر تشوقاً وحيوية من حياة كافكا الحقيقية. هل هذا صحيح؟ لقد قمت، إذأ، بتأليف. لكنني أنا أحس بذلك «مسموحاً به».

شتاخ: صحيح أنني استخدمت تقنيات أدبية معينة، لا تستخدم حقاً سوى في روايات. ولم أفعل ذلك كي أدع حياة كافكا تظهر أكثر تشويقاً مما كانت عليه في حقيقة الأمر - أعتقد أنها كانت مشوقة على نحو كاف، فالحرب تكفلت بذلك - ، وإنما لكي أضع أموراً معينة أمام أعين القارئ على نحو محسوس ما أمكن، وأتيح له مدخلاً لما وصفته في مقدمة الكتاب «إباتيية تاريخية»^(*).

ورغم ذلك فإنني لا أسمع تعبير «رواية سيرة ذاتية» برغبة؛ إذ إن الروايات هي في العادة خيالات. لكن طموحي هو أن أستخدم حقائق فحسب: كل شيء موثق أو على الأقل يمكن توثيقه. وإنه ليبدو لي من غير المعقول حقاً أن أبدد عمري لاختلاف رواية بطلها كافكا. لكن بعض النقاد عبروا عن هذه الشبهة تماماً. من شكل الرواية استنتاجوا التخييل وقابلوا، لهذا السبب، كامل مشروع السيرة بأكبر قدر من عدم الثقة. ومن المثير أن هذا لم يحدث حتى الآن سوى في ألمانيا. عندما نشرت الترجمة الإسبانية، أبرز النقاد هناك الجانب الروائي بالذات بصفة إيجابية.

وطفي: عن عملك: كيف تنظم عملك؟ أعني مجرى اليوم والعام.

شتاخ: إنني عامل بطيء إلى حد ما وأحتاج مع الأسف - مثل كافكا

(*) تعني كلمة Empathie: الاستعداد والقدرة على أن يضع المرء نفسه موضع شخص آخر.

- إلى كثير من الهدوء، من أجل الوصول إلى الدرجة الضرورية من التركيز. ولذا تبين أن الحل الأفضل هو القراءة والتقصي في هامبورغ، وإنجاز العمل الحقيقي، الصياغة، في جزر كناريا. إذ هناك يخلو لي الجو، والطقس والمناظر الطبيعية تساعد على التأمل. ولهذا السبب فإنني أنتقل بين المكانين بانتظام.

إن ربط المواضيع المتعددة مع بعضها بعض، والعمل اللغوي مع الطبعة النقدية وتخزين «إدراة» النتائج المكتسبة خلال سنوات عديدة، من شأن كل هذا أن يكون غير ممكن أبداً لو لا استخدامي جهاز كومبيوتر. إن جهاز الكومبيوتر هو أداة عمل عظيمة جداً، ناهيك عن أن الانترنت والبريد الإلكتروني يتihan لي، اطلاقاً من أي مكان في العالم، الوصول إلى معلومات معينة، دون أن أضطر إلى حمل مكتبة معي. لم يعد في مقدوري أن أتصور كيف كان الحال في ثمانينات القرن العشرين عندما كتبت كتابي الأول بمساعدة علب القصاصات. كما أن الإنماز الذي حققه أولئك الذين تقصوا سيرة كافكا قبل بجيل، يكاد لا يمكن تقديره تقديرأً كافياً، إذا أمعنا النظر في أنه كان عليهم أن يعملوا بدون الوسائل التقنية الراهنة.

وطفي: جميع قرائي تقريراً هم من الكتابة. من أجلهم لدى سؤال خاص لك. وأظن أن هذا السؤال هو واحد من أهم الأسئلة في هذا الحديث. سيكون حلم حياة بالنسبة إلى كل باحث عربي أن يجد دار نشر تمول مشروع حياته. مثل هذا لا يوجد مع الأسف في دور النشر العربية. كيف كان الأمر، كيف هو لديك ولدى دار فيشر؟ هل عشت فعلاً طوال سبع سنوات من سلف على المكافأة عن الكتاب؟ من شأن هذا أن يعني أنك عشت من ريع كتاب قبل أن يصدر؟ أم أنك ربحت في اليانصيب؟ ما علاقتك بالطبعة النقدية لآثار كافكا؟

شتاخ: إن الدعم المالي على مثل هذا المدى الطويل لمشروع ما من قبل دار نشر هو أمر نادر الحدوث جداً في ألمانيا أيضاً. وتجب الملاحظة: عندما أعلنت دار نشر فيشر استعدادها لتمويل عملي طوال سنوات من خلال تقديم سلف على المكافأة، لم يكن بالإمكان تقدير المدة التي ساحتاجها فعلاً، كما أنه لم يكن يوجد عيّنات من النص، اللهم إلا بعض مما كنت قد نشرته، وكان معظم ذلك مقالات أدبية، حصلت على جائزتين عن مقالتين منها. كان الموضوع ببساطة موضوع ثقة. غير أنني كنت معروفاً شخصياً من قبل دار النشر، حيث كنت قد عملت فيها مراجعاً علمياً عدة سنوات. واليوم أيضاً ما زلت أقوم للدار بوظيفة مراجع فيما يخص الطبعة النقدية لأنّـه كافكا. ما زال ينقص بعض مجلدات الرسائل وكذلك كتابات كافكا الرسمية حتى تكتمل هذه الطبعة.

وطفي: ما هو مدى نجاح كتابك؟ كم كان عدد نسخ الطبعة الأولى؟ هل تبعط طبعات أخرى أو ستتبع؟ بأي عدد من النسخ؟ كم مقالة نقدية نشرت عن الكتاب؟ هل سيترجم الكتاب؟ (بودي أن أترجمه في الحال إلى العربية، لكنني لن أجده داراً تنشره، ولا أستطيع طباعته على نفقتى الخاصة). كم حدثاً عن كتابك أعطيت حتى الآن؟

شتاخ: في هذه الأثناء (مطلع عام ٤٢٠٠) أصبحت الطبعة الرابعة في المكتبات الألمانية، حتى الآن بيع منه ما يقرب من عشرين ألف نسخة، وفي تشرين الأول ٤٢٠٠ سيصدر الكتاب في طبعة جيب أيضاً. إنني مسرور جداً طبعاً بهذه النتيجة، حيث أن هذه السيرة ليست «قراءة سهلة»، والمقاطع المحسمة أيضاً تحتاج إلى تركيز من قبل القارئ. لكن يبدو أن ردود فعل وسائل الإعلام ساهمت مساهمة جوهرية في وصول الكتاب إلى قراء من خارج دائرة محبي كافكا. لقد نشر عدد لا يحصى من المقالات النقدية

والتي لم أعد منذ مدة أحصيها، وأصبح لدى في هذه الأثناء إضمارة شخصية. أعطيت عدة مقابلات تلفزيونية ونحو خمس وعشرين مقابلة إذاعية، وأقيمت لي ما يقرب منأربعين أمسية أدبية نفذ معظم تذاكرها^(٥). لا أستطيع إذاً أنأشكو من قلة اهتمام. وبعد عدة سنوات من حياة منعزلة نوعاً ما كان ذلك مرحلة سعيدة منحتني شعوراً بأن الأمر كان مجدياً.

ولأن كافكا كاتب عالمي، فإن الأمر سيكون طبعاً محك اختبار آخر بالنسبة إلي إلى أي حد ستتجدد السيرة اعترافاً عالمياً أيضاً. لقد صدرت الطبعة الأسبانية في ربيع عام ٢٠٠٣، وسوف تتبع الترجمة الإنكليزية في عام ٢٠٠٥، وكذلك ترجمة كورية. علمأً أنه أصابني حظ عظيم بالمترجمين؛ إنهم أفادوا في اختصاصهم. وهذا ذو أهمية لدى نص يستخدم، كما قلت، أيضاً وسائل أدبية.

وطفي: متى يصدر الجزءان الآخران من سيرة كافكا؟ وكم سيلغ حجمهما؟

شناخ: إذا تأملنا وضع المصادر المعقد، فإنه من الباكر في الحقيقة الوعد بشيء. غير أنني متأكد إلى حد ما إلى أن الجزء الثالث سيصدر في عام ٢٠٠٨، بمناسبة مرور مائة وخمس وعشرين عاماً على ميلاد كافكا، وعلى الأرجح باللغة الإنكليزية أيضاً. ولأن هذا الجزء الذي أعمل فيه الآن يشمل عقداً كاماً (من عام ١٩١٥ حتى وفاة كافكا في عام ١٩٢٤)، فلن يكون حجمه أقل من حجم الجزء الذي صدر.

وطفي: في الجزء الحالي لا تكتب عن رحلة كافكا (مع ماكس برود) إلى باريس في عام ١٩١٠. ما هو السبب؟ ربما لأن بيندر نشر كتاباً كاماً

(٥) يصل ثمن تذكرة حضور أمسية أدبية إلى مبلغ عشرة يورو.

عن ذلك؟ أم لأنه قد يكون ثمة إحراج؟ إلياس كانشي تساءل في عام ١٩٦٧ في ما إذا لم يكن من الأفضل عدم نشر رسائل كافكا إلى فيليبس باور. وهكذا تساءلت أنا أيضاً لدى قراءة هذه الرسائل كما لدى قراءة كتابك في ما إذا لم يكن من الأفضل تجاهل بعض المشاهد في حياة كافكا. من يحب كافكا، يتنى أن تلغى مثل هذه المشاهد من العالم. هل فكرت أنت أيضاً هكذا؟ (أظن أن هذا هو أحد الأسباب التي دعت إشفايلر للشعور بالارتباك. إن المرء لا يحب أن يرى شاعره المفضل في موقف لا يليق به).

شناخ: لا أرى أدنى سبب لتجاهل أي شيء في حياة كافكا عمداً. إن محبي كافكا الحقيقيين يريدون أن يعرفوا كيف كان الحال، ولا يريدون أن يرعوا أية صورة رومانسية غير واقعية لشخص. إن كافكا هو شخصية فريدة من نوعها، وهذا وحده يلزم بأكبر قدر من الصدق. ثم: إنه ينتمي إلى الحداثة على نحو واضح مؤكداً، بل إنه واحد من أهم ممثليها. وما يخص الحداثة أن الجسم البشري، بما فيه الجنس، إنما يؤخذ بالأهمية المركزية التي يملكتها فيحقيقة الأمر بالنسبة إلى الوجود الإنساني. كما أن فهمي لما على سيرة حياة أن تقدم في الوقت الراهن لا يتفق مع انتقادات «أخلاقية». ومن شأنى على الأرجح ألا أتصرف على نحو مغاير فيما لو كتبت عن شخص آخر.

طبعاً أعرف أن كافكا في رحلاته مع بروذ زار أيضاً بيت «دعارة»، وليس في رحلات فحسب: حتى أنه في براغ أحب إحدى المؤسسات وأقام معها علاقة غرامية (طبعاً علاقة غير سعيدة). وما أعرفه، سوف أرويه بأمانة وصدق ما أمكن، علمًا أنه من الواضح لي كلياً أنني بهذا إنما أثير أيضاً الميل الجنسي للقارئ المحب للتلصص. وإنه لأمر لا يمكن تجنبه أن شخصاً مثل كافكا إنما يثير فضولاً وحب استطلاع فيما يتعلق بشؤونه الشخصية. وهذا

ما يفعله كل شخص ييرز في مجال من المجالات. وهناك صحافة كاملة تعيش من ذلك. إلا أن على كاتب السيرة المهم أن يحاول أن يفقد قراءه إلى خارج هذه النقطة: حسناً، الآن تعلمون أن كافكا أيضاً قد جمع تجارب جنسية، ماذا نفعل الآن بهذه المعرفة؟ هل يوجد ربما علاقة بين هذه التجارب والطريقة المرعبة التي عولج فيها الجنس في آثاره؟ وكيف حلّ كافكا التزاع بين الزواج والجنس؟ هل حلّه على خلاف رجال جيله؟ على خلاف أصدقائه؟ على خلاف غير اليهود؟ هل هناك ربما علاقة مليئة إلى حياة الزهد مع تجربة الجنس «القدر»؟ هل كان لتجاربه تأثير على صورته عن المرأة؟ كذلك صداقته مع ماكس برود يجب إضاءتها من جديد انطلاقاً من هذه النقطة. إذ أن برود كان هنا مغايراً كل المغايرة، ولم يكن يقيم أي وزن لحياة زهد، لا بل كان يبعد الجنس بكل معنى الكلمة. وهذا أيضاً أسلوب في أن نوعاً من الغربة بين الاثنين لم يمكن إزالتها قط، حيث استطاع كافكا أن يكتب منذ عام ١٩١٥: لا أحد هنا لديه تفهّم لي بصفة عامة. لكن كيف يمكن للقارئ أن يفهم كل هذا ويشعر به إذا أخفى عنه ما حدث فعلاً؟

وكون رحلة عام ١٩١٠ لا ترد بعد في الجزء الذي نشر، يعود إلى سبب تقني في غاية البساطة: إنني أريد طبعاً معالجة الرحلات التي قام بها كافكا مع برود، أي تجارة السفر المشتركة، والتي انتهت في عام ١٩١٠ (باستثناء سفارة قصيرة إلى فايمار)، أريد معالجتها كموضوع واحد كبير ولا أن أقسمها على جزءين بأي حال. لهذا السبب سوف أكتب بإسهاب في الجزء الذي يعالج السنوات الأولى عن سلسلة الرحلات إلى باريس وإيطاليا، طبعاً مستعيناً بنتائج أبحاث هارتموت بيذر.

وظيفي: لدى سؤالي لم أفكر بمشهد بيت الدعارة ولا بمشهد الموس.

وطفي: يبدو أن المركز الهام الذي يحتله الأدب في الحياة العامة في ألمانيا إنما يعود، أخيراً وليس آخرأ، إلى الاهتمام الهائل الذي يديه القراء بحياة الكتاب. ولو لم تفتن حياتهم هذا الافتتان، فإن آثارهم لن تقرأ كثيراً هكذا. الكاتب السويسري بيتر ييكسل شخص ذات مرة انطباعاته بعد أمسية أدبية قائلاً: «الناس لا يهتمون بالأدب. إنهم يهتمون بالأدباء».

هل تؤثر حياة كافكا في نفوس الناس أكثر مما تؤثر آثاره؟ هذه الأيام أقرأ كتاب هارتموت بیندر المصور: «أين كان كافكا وأصدقاؤه ضيوفاً». إنه كتاب ضخم الحجم باهظ الثمن يصف مقاهي براغ وأماكن اللهو فيها قبل مائة عام. كما هناك كتاب ثان لبيندر: «براغ / مشاورير أدبية عبر المدينة الذهبية». وكتاب مصور ثالث: «كافكا في باريس». ومن ريع هذه الكتب يعيش بیندر بربخاء.

بروفسور رالف نيكولاي كتب لي أن دار النشر أعادت له نسخ كتابه «نهاية أم بداية / حول وحدة التناقضات في قلعة كافكا»، وذلك «لأن أرقام المبيع بعد خمس وعشرين عاماً لم تعد تبرر تكاليف المستودع». في هذا الكتاب يدرس تأثير نيتشه على كافكا.

ماذا أخذ كافكا عن نيتشه؟ أين تناول كافكا قهوة؟ طبعاً لا يمكن وصف الوضع بهذا التبسيط. هل تؤدّي أن تقول شيئاً حول ذلك؟ (أنا أيضاً أحب أن أقرأ كل شيء يكتب عن حياة كافكا مثلما أحب أن أقرأ كل شيء يكتب عن صديق شخصي لي. بل إن كافكا لصديق!).

شتاخ: (*).

(*) في رسالته المؤرخة في ١٨ / ٢٠٠٤ تجاهل شتاخ هذا السؤال ولم يجب عليه.

وطفي: إنك تدع حياة كافكا تبدأ انطلاقاً من الليلة التي كتب فيها قصة الحكم، ليلة ٢٢ - ٢٣ أيلول عام ١٩١٢. لقد كانت ليلة قدر أحس فيها كافكا لأول مرة أنه شاعر.

قبل ذلك بفترة طويلة، عندما بدأت في عام ١٩٨٨ بترجمة «الآثار الكاملة» لكافكا، انطلقت من تلك الليلة. فكان كتابي الأول هو «الحكم»، الذي يضم القصة باعتبارها «الصورة الكافكاوية الأولى التي نشأت منها كل آثار كافكا، واللبنية الأساسية في بناء كافكا الأدبي». كما يضم نحو مائتي صفحة عن هذه القصة ومبدعها.

إنها لمسألة حساسة، إلى أي حد حرّي بكتاب عن سيرة حياة أن يفهم بصفته أيضاً تفسيراً لآثار الكاتب. بكثير من المعلومات وعلى نحو مقنع تتصف قصة نشوء كل من الحكم والانساخ والمحاكمة. بهذا يفهم القارئ هذه الآثار على نحو أفضل. إن مؤلفك يحوي معلومات غزيرة عن حياة كافكا وتفاصيل كثيرة من حياته اليومية وخلفيات آثاره. على نحو صحيح للغاية ثبتت: «إن الغزارة تسد النظر بدلاً من أن تفتحه، بل إنها تقدر، في الحالة الأسوأ، أن تقتل الفكر وتختنق كل فكرة تفسيرية» (ص ٢٠٧). وغزارة «المعلومات... تخطئ كلياً اللغز الحقيقي الذي تقدمه هذه النصوص: أنها تقف لذاتها إبداعاً جماليّاً. أمام هذا اللغز وقف أيضاً كافكا نفسه» (ص ٢٠٧). رغم ذلك أظن أن بعض القراء يشعرون أنك تميل إلى إبراز الناحية الذاتية في آثار كافكا. أم أن مجموع انتباعي خطاطي؟

شتاخي: لا يمكن أن تكون مهمة سيرة حياة أن تفسر آثار كاتب. عليها أن تدرس مكان الربط بين الآثار والحياة بكل دقة ممكنة، وكذلك إذا التأمل فيما إذا كانت الآثار تحمل صورة ذاتية معينة، ومن ناحية أخرى لها تأثيرات على الحياة... بحيث أن تصورات الكاتب تحول بطرق غير مباشرة إلى

وأعْ. أَيْضًاً عمليَّة الإِبْدَاع تُخَصُّ أَمْوَارَ السِّيرَةِ الذَّاتِيَّةِ: مِنْ أَينْ تَأْتِي البواعثُ الْحَاسِمةُ؟ عَلَى أَيَّةٍ مَقَاصِد يَتَعَرَّفُ إِلَيْهَا فِي التَّصْحِيفَاتِ الَّتِي يَجْرِيَهَا الكَاتِبُ عَلَى نَصُوصِه لاحقًا؟ هَلْ لِدِيهِ أُمَّةٌ يَحْتَذِي بِهَا عَنْ وَعِيِّ، الْخَ.

لَكِنْ كُلُّ عَمَلٍ فِي يَمْلِكُ أَيْضًاً مَضِيمَوْنًا مَوْضِيَّعِيًّا. وَيَكِنْ لِهَذَا الْمَضِيمَوْنَ أَنْ يَظْلِمُ خَافِيًّا حَتَّى عَلَى الْفَنَانِ، وَلَا يَتَضَعَّفُ فِي الْغَالِبِ سُوَى بَعْدِ سَنَوَاتِ عَدِيدَة. فِي حَالَةِ كَافِكَا مَثَلًاً مِنَ الْمَهْمَمِ أَنَّهُ مِنْ أُولَئِنَّ مَنْ وَصَفَ بِرُورَةِ الْحَيَاةِ الْوَظِيفِيَّةِ الْحَدِيثَةِ. وَأَنَّهُ مِنْ أُولَئِنَّ مَنْ رَأَى أَوْ عَلَى الأَقْلَى حَدَسَ أَنْ خَلْفَ الْبِيَرُوقَاطِيَّةِ الْمَرِيقَةِ يَظْهَرُ نَمْطٌ مَغَایِرٌ كُلِّيًّا مِنَ اِنْتَماطِ مَمارِسَةِ السُّلْطَةِ يَحْطُّ مِنْ قَدْرِ الْفَرَدِ وَيَحْوِلُهُ إِلَى مَحْرَدِ رَقْمٍ وَأَخْيَرًا يَطْمَسُ مَاهِيَّتَهُ، وَلَكِنْ لَا يَنْشَأُ سُوءٌ فِيهِمْ: مَا زَالَ هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَفْسُرَ كَافِكَا اِجْتِمَاعِيًّا أَوْ سِيَاسِيًّا. لَكِنْ لَا يَكِنْ فَصْلُ هَذِهِ الْجَوَابَاتِ عَنْ آثارِهِ، وَهَذَا شَيْءٌ نَتَعْرِفُ عَلَيْهِ ثَانِيَّة: لَكِنْ هَلْ مِنْ عَمَلٍ كَاتِبِ السِّيرَةِ أَنْ يَبْحَثَ بِدُقَّةٍ عَمَّا تَعْرِفُ عَلَيْهِ هَنَا ثَانِيَّة؟ وَلَوْ أَنِّي أَقْدَمْتُ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنِّي سَأَحْتَاجُ لِيُسَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَجْزَاءٍ، وَإِنَّمَا إِلَى سَتَةٍ. وَمِنْ شَأنِ كُلِّ نَاقِدٍ أَنْ يَقُولَ: تَكْلِيفُ فُوقِ الطَّاقةِ.

وَظْفِي: لَدِي الرَّوَايَاتِ تَكْتُبُ: «لَيْسَتِ الْمَحاكِمَةُ رَوَايَةُ سِيرَةِ ذاتِيَّةِ، مُثَلَّهَا فِي ذَلِكَ مَثَلُ الْمَفْقُودِ». هَذَا صَحِيحٌ جَدًا. لَكِنْ ثُمَّ - هَنَا أَقْتِبِسُ مَوْضِعَيْنِ طَوِيلَيْنِ -: «إِنَّ مَحاكِمَةَ كَافِكَا هِيَ شَيْءٌ رَهِيبٌ. لَا شَيْءٌ هُنَا عَادِيٌّ، لَا شَيْءٌ سَهُلٌ. سُوَاء نَظَرَنَا إِلَى نَشُوعِ الرَّوَايَةِ أَمْ إِلَى الْمُخْطَوَطَةِ، إِلَى الشَّكْلِ أَمِ الْمَضِيمَوْنِ أَمِ التَّفْسِيرِ؛ فَإِنَّ النَّتِيْجَةَ تَظَلُّ وَاحِدَةً: عَتَّمَةٌ وَغَمْوُضٌ أَنِّي نَظَرَنَا» (ص ٥٣٧). وَ«لَكِنْ هَنَاكَ سُؤَالًا لَمْ يَتَمَكَّنْ بِرُورَدِ مِنِ الإِجَابَةِ عَلَيْهِ: كَيْفَ كَانَ كَافِكَا خَلِيقًا أَنْ يَرْتَبِّ في نَهَايَةِ الْأَمْرِ أَحْجَارَ بَنَاءِ أَثْرَهُ الْفَنِيِّ وَأَنْ يَرْبِطُهَا مَعَ بَعْضِهَا بَعْضٌ وَيَسِدُ ثَعَرَاتِهَا؟ وَرَغْمِ التَّقدِيمِ الْهَائِلِ الَّذِي أَحْرَزَهُ وَسَائِلُ التَّحْقِيقِ، فَمَا مِنْ أَحَدٌ نَجَحَ حَتَّى الْيَوْمِ بِتَقْدِيمِ حلٍّ مَرْضِيٍّ. إِنَّ الْمَعْضَلَةَ،

مع هذه المخطوطة، هي غير قابلة للحل. وهكذا لا يبقى أمامنا شيء آخر سوى أن نأمل وجود فهرس وضعه كافكا بنفسه، يجري اكتشافه يوماً ما في علية ما منسية على سطح منزل من المنازل في براغ...» (ص ٥٣٩).

هنا لدى المشكلة الوحيدة مع كتابك.

شتاخ: بدبيهي إن للسؤال كيف كان من شأن كافكا أن يرتب تسلسل فصول رواية المحاكمة لو قيض له الانتهاء من كتابتها ونشرها، بعض الأهمية اللغوية على الأقل. أما بالنسبة إلى المضمون الموضوعي للرواية، فإن هذا السؤال هو سؤال ثانوي بالأحرى. إن الأمر هو سجال لغوي نمطي لا يهم أحداً ما عدا عدد ضئيل من الخبراء. إن اتجاه الانهيار الذي يسير عليه بطل الرواية هو باد للعيان. كما أن الأسباب التي تعلق عن إيقاف هنا الانهيار هي أيضاً ماثلة أمام كل عين. إنه مذنب، وهو يعرف ذلك، وفي النهاية لا يجد له سوى جسامنة العقاب غير مستحقة.

نظراً للشكل الذي وصلتنا فيه الرواية - في دفاتر مفردة يحوي كل منها فصلاً مكتملأ أو فصلاً غير مكتمل - ، فإن هناك عدة خيارات ممكنة كان من شأن كافكا أن يشكل منطقية هذا الهلاك تفصيلاً. نحن لا نستطيع أن نعرف كيف كان من شأنه أن يحل هذه المعضلة في نهاية المطاف. وكل ما قوله حول ذلك يبدو لي معقولاً قليلاً أو كثيراً. لكن ما من شيء مؤكد. هناك متخصصون بحثوا هذه المسألة طوال عقود... وكل هذا دون أن يروا المخطوطة فقط؟ بصراحة: إنني لا أستطيع أن أفهم هذا^(*).

وطفي: هل تعرف كتب إشفايلر عن كافكا؟ كيف تحكم على تفسيراته، ولا سيما تفسيره لرواية المحاكمة؟ ماذا تسوق ضد نظريته حول

(*) عاين إشفايلر المخطوطة الأصلية طوال ساعتين (راجع ص ٦٢١ من هذا المجلد).

سلسل الفصول؟ (أنا لا أشعر بتناقض بين عملك وعمل إشفايلر. أرى العملين إنجازين كبيرين يكملان بعضهما بعضاً).

شتاخ: لا أريد أن أتحدث عن السيد إشفايلر.

وطفي: ما هو موقفك من المختصين الآخرين بأدب كافكا، الشيوخ والشباب منهم؟ وما هو موقفهم منك؟ ذكرت مرة كلمة «مجموعة Pear!»

شتاخ: لقد عرفت أكثر التجارب تباعاً، علمًا أن الاتجاه كان أن علماء الأدب الشباب كانوا أكثر افتتاحاً، في حين كان لدى بعض كبار السن، على ما يبدو، شعور بأنه يتبعون عليهم الدفاع عن مجال اختصاصهم. فوق ذلك، يبدو أن القاعدة السائدة هي: كلما كان أحدهم اختصاصياً أكثر، كان الوصول إليه أكثر صعوبة. أفهم أن المرء يحسد عمل ونجاح شخص آخر؛ هذا من طبيعة الإنسان، وطبعاً يحدث لي أيضاً. لكن - الآن يجب عليّ مع الأسف أن أصبح خطابياً بعض الشيء - لا يليق بمقام عالم يأخذ عمله وأخذ الجد أن ينساق وراء هذا الحسد بحيث أنه يمنع التفاهم مع علماء آخرين أو حتى يعوق عملهم. إنني لا أستطيع أن أتعجب بصدق كافكا وفي الوقت نفسه أعادني كل من يعجب مثلي بهذا الصدق. إن هذا لأمر غير معقول ويناقض كلياً الموقف الفكري لهذا الإنسان. لكن من الغريب أن هذا النمط من التفكير يوجد في محيط كل كاتب كبير: عما يختص حوله متخصصون في أدب غوته وهولدرلين وكافكا لا يمكن لإنسان خارج هذه المجموعات أن يفهمه. وعلى الأرجح يتعلق الأمر بالشخص نفسه، الذي هو مجدب للغاية، بل إنه يتبع تشوهات خلقية إذا ما استمر طويلاً.

وطفي: ما زال لدى سؤالان صغيران: ١ - ما هو مدى مصداقية غوستاف يانوش؟ ٢ - لا تظن أن كافكا هو والد ابن غرته بلوخ؟

شتاخ: لقد ثبت منذ مدة طويلة أن تقارير يانوش عن أحاديثه مع كافكا غير موثوق بها. بل إنه يمكن للمرء لدى بعض الجمل أن يثبت من أين نقلها (مع تعديلها على نحو طفيف). لا مرأة أنه ينقل أيضاً بعض أقوال كافكا الصحيحة، لكن لا يمكن للمرء أن يعرف فقط فيما إذا كان قد سمعها أم ابتدعها، أم إذا كانت مزيجاً من الاثنين. وعندما كان يجري مواجهة يانوش في محادثة شخصية بهذه التناقضات، كان يشير ساخرًا إلى «ذاكرته السيئة»^(*).

حكاية ابن كافكا أذاعها ماكس برود. وهذه الحكاية تمثل بالنسبة إلى دليلاً على أن ماكس برود لا بد أن يكون في أواخر عمره قد ابتعد عن كافكا ابتعاداً نفسياً كبيراً جداً. هل يمكنك أن تصور أن إنساناً ذا ضمير حي مثل كافكا ينجب أولاد طفلاً مع غرته بلوخ ثم يضي سوية معها ومع خطيبته إجازة لمدة عدة أيام، دون أن يدع أي شيء يلاحظ عليه؟ من يرى شيئاً مثل هذا ممكناً، لم يفهم شيئاً آبداً من نفسية كافكا. أظن أنني قلت في السيرة ما هو ضروري عن هذه المسألة^(**).

وطفي: كنت قد أرسلت لك نسخة من المحاكمة بالعربية مع المرفقات التالية بالألمانية: الغلاف الأول والأخير + الفهرس + «حديث» مع إشافيير. ماذا تقول عن هذا الحديث؟

شتاخ: كان من الأفضل ألا يطبع.

(*) راجع المجلد الأول من «الآثار الكاملة»، ص ٢٠٥ - ٢١٥.

(**) تقول الحكاية إن غرته بلوخ ولدت ابنًا من كافكا توفي عام ١٩٢١ وهو في سن السابعة. لكن كافكا لم يعلم ذلك فقط، إذ أخفقت الأم أثناء الحمل والولادة والوفاة عنه وعن أهلها ومعارفها. على نحو مقنع يدحض شتاخ في كتابه هذه الإشاعة.

وطفي: سؤال افتراضي: لنفترض أن كافكا يعود ليعيش مرة ثانية في عصرنا، وعليه أن يقرأ كتابك ويعلق عليه. ماذا سيكون من شأنه أن يكتب؟ أولاً: عن كتابك، ثانياً: عن حياته السابقة، كما وصفتها. (إذا أجبت على هذا السؤال، سأحاول أنا أيضاً الإجابة عليه... لك ولقرائي).

شناخ: من الصعب جداً الإجابة على هذا السؤال. كان من شأن كافكا على الأرجح أن يرتابع من كون حياته الخاصة أصبحت أصلاً مدار نقاش علني. وأظن أنه كان ساذجاً في هذه النقطة: لقد قرأ بنفسه رسائل فلوبيير أو دوستويفسكي الخاصة، كان مولعاً بقراءة اليوميات أيضاً. غير أنه لم يخطر بباله قط أن يومياته ورسائله قد تنشر يوماً ما. لم يكن يعتبر نفسه هاماً بما فيه الكفاية، بل إن هذا يمكن فهمه إلى حد ما، إذ أنه اضطر إلى ترك آثار كثيرة دون أن يستطيع تكميلها بحيث أنه شعر نفسه فاشلاً.

كان كافكا يملك حساً كبيراً فيما يتعلق بالكرامة الشخصية، وكان حساساً إلى أقصى حد ضد الامتهان أو الانتقاد من القدر. أظن أنه - حالما يكون من شأنه أن يتغلب على الرعب الأول من سيرته التي كتبتها - لا بد له أن يعترف على الأقل أن هذه السيرة ليست مثيرة للميل الجنسية لدى القارئ الحب للتلصص، وأنها تحترمه وتقدره في نقاط ضعفه أيضاً، وأنها تحاول أن توضحه، لكنها لا تمسه حقيقةً أو حتى «تحكم عليه»، الأمر الذي كان الأسوأ بالنسبة إليه. وكان من شأنه أن يتسم لنفسه في هدوء... على الأمور الكثيرة التي لا يعرفها كاتب السيرة.

وطفي: كان من شأن كافكا أن يقول: «ما من إنسان في العالم أسيء فهمه مثلما أسيء فهم كافكا».

٤ - تلقي آثار Kafka في العالم

كتاب جميل بغلاف أحمر، ثمن النسخة الواحدة منه خمسين مارك (٢٥٦ يورو)، يتالف من ثلاثة مجلدات يبلغ عدد صفحاتها ١٤٣٣ صفحة من القطع الكبير. وقد صدر في عام ٢٠٠٠ (دار ساور - Saur - ميونيخ - المختصة في نشر مثل هذه الكتب).

إنَّ الطبعة الثانية من «بليوغرافيا Kafka الدولية / للمؤلفات والدراسات».

يضم المجلد الأول، الذي يقع في ٢٦٣ صفحة، جميع طبعات آثار Kafka بين عامي ١٩٠٨ - ١٩٩٧ في العالم. ويتألف من خمسة أقسام: ١ - طبعات كاملة، ٢ - روايات مجموعة، ٣ - روايات مفردة، ٤ -مجموعات متنوعة وقطع نثرية مختارة، ٥ - منشورات مفردة وقطع نثرية أخرى.

ويتألف المجلد الثاني من جزءين.

يضم الجزء الأول عناوين جميع الدراسات التي وضعت عن Kafka في العالم بين عامي ١٩٥٥ - ١٩٨٠. ويقع في ٦٨٠ صفحة. ويتألف من خمسة أقسام أيضاً: ١ - بليوغرافيا، تقارير أبحاث وماشابه، ٢ -

مجموعات، مجلات، أعداد خاصة، جمعيات كافكا، ٣ - أطروحت دكتوراه وما شابه، ٤ - مقالات ومحاضرات، ٥ - كتب.

ويضم الجزء الثاني عناوين جميع الدراسات التي وضعت عن كافكا في العالم بين عامي ١٩٨١ - ١٩٩٧، ويقع في ٤٩٠ صفحة. ويتألف من الأقسام الخمسة نفسها.

وكل دراسة في هذا الكتاب ذكر عنوانها وكتابها وناشرها، والعام الذي نشرت فيه، ولغة التي كتبت بها، وموجز عنها في بضعة جمل أو مقاطع حسب أهميتها. وكل ذلك باللغتين الألمانية والإإنكليزية، وهذا يعني أن هذا الكتاب قد وضع ليفيد منه الباحثون في جميع أنحاء العالم.

ومؤلفا بيليوغرافيا كافكا هذه هما أستاذًا الأدب الألماني في جامعة تقبل في مدينة فيلادلفيا الأمريكية: ماريا لويزه كابوتو - ماير ويوليوس هرتس، وكلاهما نمساوي.

كانت السيدة كابوتو - ماير قد أسست في عام ١٩٧٥ جمعية كافكا الأمريكية، كما أسست في عام ١٩٧٧ «مجلة جمعية كافكا»، وأسست «معهد أبحاث كافكا» في جامعة تقبل. وأدارت شؤون الجمعية والمجلة والمعهد. وقد حصلت على ميدالية ذهبية للفنون والعلوم في جمهورية النمسا.

ويوليوس هرتس هو مشارك كابوتو - ماير في أعمالها المذكورة. وقد كتب المؤلفان مقدمة طويلة لهذه الطبعة الثانية بعنوان «بعض الملاحظات عن تأثير كافكا في العالم»، هذه ترجمة أهم ماجاء فيها: تضم هذه الطبعة الموسعة مواداً غزيرة في ما يتعلق بتلقي آثار كافكا في العالم كله. وهي بمثابة مدخل إلى السيل الذي لا ينقطع من الدراسات

عن كافكا، ومرشد عبر متاهة هذه الدراسات. إنها تتونخى فائدة قراء كافكا ودارسيه في العالم. وعليها أن تغفر لهم إلى معالجة آثاره بنشاط، وإلى معالجة تلقي هذه الآثار في كل بلد من البلدان.

إن ترجمات آثار كافكا إلى اللغة الكورية هي الترجمة الأكثر غزارة في العالم. والباحثون الكوريون يعتمدون على بيليوغرافيا كورية عن كافكا.

كان التعاون الدولي مع نحو أربعين مكتبة وطنية جيداً جدأً في الغالب، كما أن بعض دور النشر قدمت مساعدة. ولا يمكن إبراز مساهمة أرشيف الأدب الألماني في مارياخ بشكل كاف، وكذلك المساعدة التي قدمها الباحثون الدوليون الذين كانوا يتواجدون هناك في أعوام ١٩٩٦ - ١٩٩٩.

وهنا تذكر بعض نتائج الأبحاث الهامة في مجالات جزئية متعددة:

إن صدور الطبعة النقدية - التاريخية في دار فيشر ابتداء من عام ١٩٨٢، والذي أشرف عليه فريق من الباحثين العالميين في آثار كافكا، أدى إلى نشوء ترجمات جديدة لهذه الآثار إلى اللغات: الفرنسية والإنكليزية والإسبانية والهولندية والإيطالية والتشيكية.

ومن المتوقع ظهور ترجمات أخرى أكثر جدة نتيجة «طبعة خط اليد» التي بدأت تنتشر ابتداء من عام ١٩٩٤ عن دار شترومفلد. وذلك لأن هذه الطبعة تضع بعض وجوه الطبعة النقدية - التاريخية موضع تساؤل. وقد أثارت «طبعة خط اليد» لرواية المحاكمة جدلاً جديداً واحداً. ورفض مالكولم باسلي، القيم على معظم مخطوطات كافكا التي تتواجد في مكتبة بودلайн في جامعة أكسفورد، السماح لدار شترومفلد تصوير هذه المخطوطات.

وناشد عدد كبير من الباحثين العالميين في آثار كافكا باسلی وورثة كافكا للسماح بمواصلة نشر صور المخطوطات.

لقد تم الاعتراف، بعامة، أن كافكا إنما هو أيقونة الأدب العالمي في القرن العشرين، وأنه «جد أعلى لورثة كثرين». وقد قامت جميع التيارات الفكرية والثقافية والسياسية في ذلك القرن باختبار نفسها على آثاره. وكذلك فعلت جميع المناهج المتعلقة بالتلقى الأدبي. وبات كل تيار وكل منهج يملأ كافكا خاصاً به.

في عام ١٩٩٦ نشر باحث ألماني كتاباً بعنوان: «خيانة وبيع؟ / معضلات تلقى آثار كافكا في فرنسا»، قال فيه إن هذا التلقى أدى إلى الكثير من سوء الفهم وإلى «خيانة» آثار كافكا. ويمكن لهذه النظرية أن تعتبر أساساً قام عليه تلقى آثار كافكا في العالم كله.

باحث ثان استند إلى رأي الياس كانتي واعتبر كافكا «خيبراً في السلطة»، وركز على «صور العنف» الكثيرة في آثار كافكا، وعلى ارتباط هذه الصور بالأفكار الاقتصادية والرأسمالية.

وهناك باحث أعطى لكافكا دوراً جديداً بصفته «دون جوان» خطراً، ورأى باحث آخر في فعل الكتابة لدى كافكا محاولة للتغلب على موضوع الجنس.

واثمة دراسات عديدة عن تأثير كافكا على عدد كبير من الكتاب المحدثين في بلدان عديدة، مثل: دورنمات، بورجيس، فيليب روت، الياس كانتي، أيشنغر، هاندكه، يلينك، توريني.

وفي العقدين الأخيرين قامت جمعيات كافكا بدور. وقد تأسست الجمعية الأولى في أمريكا. وقد أسستها ماريا لويسه كابوتون - ماير. وتعقد هذه الجمعية مؤتمراً سنوياً، وبهذا خلقت منبر نقاش لحبى كافكا في العالم.

وباتت نتائج هذه المناقشات تنشر، ابتداء من عام ١٩٧٧، في «مجلة جمعية كافكا». أضاءت هذه المجلة، طوال ربع قرن، قسماً هاماً من كامل الأبحاث والدراسات عن كافكا؛ وقدمت للباحثين الشباب منهم والمشاهير إمكانية لتبادل الآراء والاطلاع المتبادل على نتائج أبحاثهم. وكانت المجلة تنشر معلومات عن عمل معهد بيليوغرافيا كافكا في جامعة تقبل في فيلادلفيا، حيث نشأت هذه البيليوغرافيا أيضاً.

وتعلّمنا هذه المجلة على المواضيع التي كانت تهم الباحثين الأميركيين، وأهمها: كافكا والواقعية، تاريخ ثقافة القرن العشرين، النساء، الرواية الجديدة، الأدب الراهن، الفلسفة، كافكا في مرآة سيرة حياته، كافكا والاتجاهات الجديدة في التحليل النفسي، كافكا وعصر إعادة الإنتاج الآلية، كافكا وترجماته، كافكا والبيروقراطية، كافكا ومعاصروه من الكتاب، كافكا والمسرح والفيلم، كافكا في أفق حداثي، كافكا أيقونة ثقافية، «إقليم كافكا»، كافكا ناقداً أدبياً.

بعد تأسيس جمعية كافكا الأمريكية، تأسست كذلك جمعية كافكا النمساوية في بلدة كلوسترنيويورغ قرب فيينا، حيث كان كافكا قد توفي في مصح يقع في الجوار. ومنذ أوائل سبعينيات القرن العشرين تقوم هذه الجمعية بتنظيم ندوات دولية؛ وقد نشرت نتائج هذه الندوات في ثمانية مجلدات، حتى الآن، بعنوان «سلسلة جمعية فرانز كافكا». وكل مجلد يضم، في المقام الأول، دراسات عن موضوع واحد، مثل: «كافكا والتبؤ»، «ماذا يبقى من كافكا؟»، «كافكا في العالم الشيوعي». وفي العقد الأخير من القرن العشرين اهتمت هذه الجمعية بتأثير الباحثين في شعر كافكا من العالم الشيوعي سابقاً، وتعتني بالمبني الذي توفي فيه كافكا في بلدة كيرلنغ المجاورة. كما أنها تقوم بإصدار نشرة دورية عن كافكا.

في عام ١٩٩٢ تأسست جمعية كافكا في هولندا. وتقوم بإصدار نشرة فصلية عن كافكا في اللغة الهولندية. كما أنها تقيم ندوات ومؤتمرات، وتنشر معلومات وبيانات بيليوغرافية ودراسات ومقالات.

وفي كوريا أسس باحثون في آثار كافكا جمعية كافكا هامة، قامت بترجمة لاحصر لها آثار كافكا، وأسهمت في انتشار هذه الأفكار انتشاراً مدهشاً لانظير له.

في براغ تقوم جمعية كافكا التشيكية، قبل كل شيء، بالدعابة لكافكا؛ وتنشر دراسات مخصصة بكافكا، كما تصدر نشرة دورية، في اللغتين التشيكية والإنكليزية، بعنوان «الامساخ»؛ وتقيم معارض.

ويبدو أن السلسلة الطويلة من الندوات عن كافكا لا تنتقطع. في عام ١٩٨٣ عقد في بولندا «مؤتمر كافكا» الدولي الأول. وفي عام ١٩٩٢ حول الكاتب والخرج المسرحي جيورج تابوري (من أصل هنغاري، يعمل في ألمانيا) مدينة في شمال إيطاليا، طابعها من القرون الوسطى، حولها بكاملها إلى «بلاد كافكا» دولية، وذلك بمساهمة فرق دولية، مسرحية وموسيقية وللباليه والإنشاد، وكذلك من خلال عرض أفلام وعروض أوركسترا.

ولاتقطع الاقتباسات المسرحية والسينمائية لآثار كافكا. والانترنت يقدم طوفاناً من مواقع كافكا والبيانات البيليوغرافية ونصوصاً من آثاره وترجمات هذه الآثار.

وليس من اليسير تفسير شهرة كافكا العالمية، التي بدأت يبطء ثم تزايدت بسرعة. وعلى رغم ادعاءات مضادة، ثبت أن كافكا لم يكن مجاهولاً عند وفاته في عام ١٩٢٤، بل كان يتمتع بشهرة إلى حد ما بصفته كاتب قصص، أعيدت طباعة بعضها في صحف وهو مازال على قيد

الحياة. ففي عام ١٩٢٢ نشرت قصة فنان جوع في صحيفتين أمريكيتين كانتا تصدران في اللغة الألمانية في نيويورك وشيكاغو. وبين عامي ١٩٢٠ و ١٩٢٤ صدرت ترجمات عدّ من قصصه في اللغات التشيكية والهنغارية والبروتوجالية والكاتالانية. وأسهمت أمسيات أدبية في التعريف بكافكا. وكانت هذه الأمسيات آنذاك ذات أهمية أكبر مما هي اليوم. وبعد وفاة كافكا نشرت مقالات نعي ليس في براج وحدها (في اللغتين الألمانية والتشيكية)، وإنما كذلك في برلين ولايبزيغ وفيينا وبرatisلافا (هنغاريا). ولم يعد في مقدور أسرة كافكا الرد شخصياً على بطاقات التعزية. وأقيمت لكافكا حفلتا تأبين في براج وفيينا.

غير أنه من الواضح أن الآثار التي أعدّها كافكا بنفسه للطباعة - والتي ليس بينها أية رواية - لم تكن خلية أن تكتفي فقط لتعليق شهرته العالمية الحالية. وكان الاعتراف بكافكا، المتزايد ببطء، يعزى قبل كل شيء إلى نشر رواياته الثلاث بتتابع سريع بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٧. وكان هدف ماكس برود من نشر هذه الروايات هو أن يجعل صديقه مشهوراً، ولذا قدمها بصفتها روايات مكتملة. وكتب عنها مقالات كثيرة، ثم نشر بقية الترکة الأدبية لكافكا.

أثرت هذه الآثار تأثيراً إيجابياً في نفوس كبار الكتاب الألمان آنذاك، بينهم كورت توكولسكي وهرمان هسه وتوماس مان وألفرد دوبلن. وفي المنطقة الناطقة بالألمانية وضعت في ذلك الأسس التي قام عليها الاعتراف بكافكا بصفته كاتباً ذا أهمية، وإن لم يكن بالإمكان الحديث عن شهرة عالمية بعد.

لكن في الوقت نفسه تقريراً بدأ تطور في جنوب أوروبا وغربها، خارج نطاق اللغة الألمانية، كان حاسماً في قيام شهرة كافكا العالمية المقبلة.

ففي غضون أعوام قليلة ترجمت آثار كافكا إلى عدة لغات، وكانت محظوظاً اهتمام كبير. لكن حتى الآن لم توضع دراسات عن أسباب ترجمة كافكا بالذات واهتمام القراء بهذه الترجمات. في بلجيكا نشرت في عام ١٩٢٥ ترجمة لخمس قصص من قصص كافكا. وفي العام نفسه نشرت في مدريد مجلة إسبانية مشهورة قصة *الأنساخ* من ترجمة خورخي لويس بورخيس. وبعد عامين نشرت المجلة نفسها دراسة مطولة عن روايتي *الحاكمة* والقلعة. وذلك في وقت (عام ١٩٢٧) لم تكن توجد فيه ترجمات فرنسية أو انكليزية. في عام ١٩٢٨ نشرت مجلة في ميلانو أول ترجمات إيطالية. وفي العام نفسه نشرت *الأنساخ* في اللغة الفرنسية من ترجمة الكسندر فيالات، الذي كان بالاشتراك مع السوريين مسؤولاً عن شعبية كافكا في فرنسا. وفي العام نفسه نشرت قصة *الحكم* في اللغة الانكليزية. وبهذا ثبتت قدماً كافكا في الولايات المتحدة أيضاً (حيث كان لدى كافكا الكثير من الأقارب البعيدين بينهم كاتبة تدعى كمبرلي كافكا). لكن في المقام الأول كانت موهبة الشاعر الاسكتلندي ادوبن موير وموهبة زوجته هي التي قامت، ابتداءً من عام ١٩٣٠، بفتح العالم الانكليزي لكافكا.

إن سر انتشار آثار كافكا، في لغات أخرى أيضاً، يكمن في معظمه لدى المترجمين. وكثيرون منهم قدمو إنجازات كبيرة بصفتهم كتاباً أو علماء. ويمكن تسمية سلسلة طويلة من أسمائهم. أصحاب كافكا، إذًا، حظ كثيرة في ما يتعلق بمترجمين أتقنوا عملهم. وحتى اليوم تصدر ترجمات جديدة في عدة لغات. وذلك لواحد من سببين، أولاً صدور الطبعة النقدية - التاريخية في ألمانيا، وثانياً التغيرات في استخدام اللغة مع مرور الزمن. وليس الترجمات كلها عن الأصل الألماني. فهناك ترجمات إسبانية عن الفرنسية، وترجمات صينية عدة عن الانكليزية.

في ألمانيا وبالنسبة إلى دور النشر الألمانية - التي بذلها ماكس برود مرات عده - لم يكن كافكا كاتباً رائجاً في سوق الكتب. كان بالأحرى «إشارة سرية» حلقة قراء متزايدة باستمرار. لكن بعد الحرب العالمية الثانية تبدل ذلك تبدلاً جذرياً.

قياساً إلى قلة عدد السكان نسبياً في الدول الاسكتلنافية، فإن العدد الكبير لترجمات آثار كافكا يثير الدهشة، وذلك دون رواج هذه الآثار في سوق الكتب.

في ألمانيا تجاوزت مبيعات كل من رواية المحاكمة و«القصص» عدداً مليون نسخة منذ فترة طويلة. وبعد سقوط حقوق الطبع، بعد مضي سبعين عاماً على وفاة كافكا، أصبحت آثاره تصدر لدى سبع دور نشر كبرى مختلفة.

في بريطانيا والولايات المتحدة تقوم دور نشر كبرى عددة بنشر ترجمات هذه الآثار. وفي الفترة الأخيرة دخلت دور نشر في براغ صراع المافسة بطبعات في اللغتين الألمانية والإنكليزية. ومنذ سنوات طويلة يوجد طبعات «آثار كاملة» في اللغات: الفرنسية والإيطالية واليابانية والكورية والهولندية والاسبانية والبرتغالية - الصربية. وما يفاجئ هو عدم وجود طبعة «آثار كاملة» في اللغة الإنكليزية.

في العالم الناطق بالاسبانية تقوم أكثر من عشر دور نشر كبرى بإصدار ترجمات لآثار كافكا، وخصوصاً في مدريد وبرشلونة وبوونس ايرس وهافانا. ومعظم الترجمات البرتغالية تصدر في سان باولو وريو دو جانيرو ولشبونة، وتوزع في ثلاثة قارات.

في البلدان السلافية لم توجد ترجمات لكافكا قبل الحرب العالمية

الثانية سوى في تشيكوسلوفاكيا وبولندا. بعد عام ١٩٤٥ فهم موظفو الثقافة في المعسكر الشرقي كافكا، الفردي، رمزاً للاستلام ونقداً للإيديولوجية الجماعية. وبعض محبيه تحدثوا عن «خوف العالم الشيوعي من كافكا» في بعض البلدان الشيوعية كان نشر آثار كافكا أو دراسات عنها أمراً محظوراً. وكانت يوغسلافيا تشكل استثناء. لكن «قمع» كافكا لم يكن شاملاً. ففي عام ١٩٥٧ صدرت ترجمات في كل من هنغاريا وبولندا، وبعد ذلك في براغ. إن بولندا تميز بتسامح في المجال الثقافي. وحتى عام ١٩٩٠ طبع وبيع من كل من روايتي **الحاكمة** والقلعة أكثر من ثلاثة ألف نسخة. وتجاوز عدد الدراسات والمقالات التي كتبت ونشرت في اللغة البولندية عن آثار كافكا المئتين. وقامت مسارح عديدة في ثمانينات بولندية هامة ب تقديم عروض مسرحية مقتبسة عن روايات كافكا وقصصه وحتى رسائله. كما قدم التلفزيون البولندي أفلاماً تلفزيونية عدة مقتبسة من آثار كافكا. وفي براغ قدمت سلسلة طويلة من المسرحيات المقتبسة من آثار كافكا، توجت في أيار ١٩٨٩ بهرجان كافكا الذي استمر طوال عشرة أيام.

في عام ١٩٦٢ صدرت أول ترجمة لكتاب من كتب كافكا في الاتحاد السوفيتي، وذلك في اللغة الاستونية. ثم صدرت بعض الترجمات لآثار كافكا في اللغتين الأوكرانية والروسية. وفي الوقت نفسه صدرت ترجمات في بلغاريا ورومانيا.

بعد سقوط الحكومات الشيوعية زاد الاهتمام بكافكا في بعض البلدان، وخصوصاً في الجمهورية التشيكية. إن جمعية كافكا التشيكية تحصل على معونات من الحكومات التشيكية والألمانية والنساوية. وحالياً يجري الإعداد لإصدار طبعة «آثار كاملة» تشيكية.

وكذلك تمت في ألم صغيرة من ناحية عدد سكانها، مثل فنلندا، ترجمة وطباعة وإعادة طباعة أقسام كبيرة من آثار كافكا. اسلندا، التي يبلغ عدد سكانها ٢٧٠ ألف نسمة، ترجمت ونشرت بعض آثار كافكا. في مقدونيا (ابتداء من عام ١٩٦٢)، وبقية البلدان التي كانت تشكل يوغوسلافيا، ترجمت آثار كافكا وطبعت في بلغراد وزغرب منذ عام ١٩٥٣. حتى نهاية ستينيات القرن العشرين كانت جميع آثار كافكا مترجمة إلى اللغة الكرواتية - الصربية. بعد عام ١٩٦٩ كانت قراءة رواية المحاكمة في المدارس الثانوية الصربية إلزامية.

بين البلدان الإسلامية تقف تركيا في المقدمة إلى حد بعيد. إلا أن دبلوماسيًّا في ألمانيا وضع لنفسه هدفًا هو ترجمة «الآثار الكاملة» لكافكا إلى اللغة العربية. علينا أن نتمنى له المثابرة والتوفيق.

في ما يتعلّق بترجمة كافكا، في العقد الأخير من القرن العشرين، إلى لغات جديدة وتلقّيه في أصقاع أخرى، تظهر جغرافيًّا - كافكا مثيرة: من الواضح أن لكافكا وطناً في بلدان وقارات أخرى مثلما له وطن في أوروبا وأمريكا. وتحليل بعض الأرقام الإحصائية، التي تبدو جافة في البداية، يقود إلى نتائج مفاجئة يُذكر هنا بعض الأمثلة منها. ومن الحال تقدير، مجرد تقدير تقريبي، عدد ما يطبع مما ينشر لكافكا وعنده على شكل كتب وفي مجلات وصحف. لكن نظرة إحصائية قصيرة على عدد طبعات كافكا المذكورة في هذه البليوغرافيا، تعطي الصورة التالية في ما يتعلّق بقسم «مجموعات متنوعة»:

في اللغة الألمانية يوجد ١٩٤ طبعة مختلفة من الطبعات التي تضم أكثر من أثر من آثار كافكا. في اللغة الإسبانية ١٨٨ طبعة، في اللغة الإيطالية ١٠٠ طبعة، في الانكليزية ٨٧ طبعة، في الفرنسية ٧٢ طبعة، في

البرتغالية ٤٣ طبعة، في اليابانية ٣٩ طبعة، في السويدية ٢٦ طبعة، في النرويجية ١٤ طبعة، وفي اللغة المصرية ٩ طبعات. إنها أرقام وتسلسل غير متوقعين بالضرورة.

وفي ما يتعلّق برواية المحاكمة جاءت الأرقام كالتالي: في اللغة الألمانية ٧٨ طبعة، في الانكليزية ٦١ طبعة، في الإسبانية ٤٣ طبعة، في الإيطالية ٣٥ طبعة، في الفرنسية ٢٨، في البرتغالية ٢٥، في المصرية ٢٤، في الهولندية ١٨، في السويدية ١٧، في النرويجية ١٦، وفي اللغة اليابانية ٩ طبعات.

إن مراكز موجات كافكا في آسيا تقع في اليابان وقبلها في كوريا. إن عدد ترجمات كافكا إلى اللغة الكورية، هذا العدد الذي لا يصدق تقريباً، هو عدد مقاجع ومدهش. واليابان ترجمت كل شيء من كافكا تقريباً، وأسهمت: فوق ذلك، في الدراسات والأبحاث عنه. في كوريا ظهرت الترجمات الأولى لكافكا في عام ١٩٥٥، وذلك بعد عامين فقط من الهدنة. ولعل القلق هو الذي دفع جيل ما بعد حرب كوريا إلى اكتشاف كافكا، كما فعل الجيل القلق في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية. وفي الصين بدأ تلقي كافكا في عام ١٩٧٩، أي بعد الثورة الثقافية. وهذا التلقي مازال محصوراً في حدود ضيقة. وبعض الترجمات تقوم على ترجمات انكليزية. وكان ثمة ترجمة صينية أولى بعنوان «ظاهرة فرانز كافكا»، لا تصل إلا إلى حلقة من أعضاء الحزب الشيوعي. لكن العقد الأخير من القرن العشرين أظهر ازدياداً هائلاً في الاهتمام بكافكا في هذه البلاد. وفي تايوان صدرت الترجمات الأولى لقصص كافكا في عام ١٩٦٠. غير أن بعض البلدان الآسيوية مازالت تقف موقف الارتياب إزاء التأثيرات الأدبية الغربية. وعلى الأرجح تقوم الأزمات الاقتصادية والسياسية في إفريقيا بعرقلة التعامل مع كاتب أوروبي. لكن هناك ثمة استثناءات.

ما يلفت النظر أن ترجمة لرواية المحاكمة نشرت في النرويج في خريف عام ١٩٣٣، وكتب عنها ٢٩ مقالة نقدية.

في رومانيا نشرت في عام ١٩٦٤ عشرون ترجمة لبعض القصص. وبعد ذلك نشرت بيليوغرافيا عن الأدب الألماني المترجم إلى اللغة الرومانية، ضمت ١٠٢ ترجمة ومقالة نقدية عن كافكا. وحتى في مقاطعة كوسوفو وجدت في عام ١٩٧٢ ترجمة ألبانية لرواية المحاكمة، وفي عام ١٩٨٠ ترجمة لرواية القلعة.

بدأت ترجمات كافكا إلى اللغة الإسبانية في إسبانيا في عام ١٩٢٤. لكن بلدان أمريكا الجنوبي والمكسيك قدمت إلى كافكا وطنياً جديداً لم يكن متوقعاً قط. في العالم الناطق بالإسبانية عرفت إسبانيا وأمريكا اللاتينية تطورات متفاوتة. فإسبانيا أظهرت اهتماماً باكراً بكافكا. لكن هذا الاهتمام لم يستمر طويلاً. فابتداء من عام ١٩٣٦ تحولت بونس ايرس إلى مركز ترجمة ونشر لآثار كافكا، حيث كرس كتاب ذو أهمية ومتجمون أنفسهم لكافكا. وانطلاقاً من الأرجنتين انتشر كافكا في العقدين الخامس وال السادس من القرن العشرين في البلدان الأخرى في أمريكا اللاتينية. بعد ذلك انتقل مركز ثقل نشر آثار كافكا إلى إسبانيا ثانية، ووصل إلى ذروته في العقدين التاليين، ثم تناقص بسرعة في العقد الأخير من القرن العشرين. وقد يمكن القول إن ترجمات كافكا إلى الإسبانية وجدت قراء متخصصين في عهد محدد هو عهد النازية والشمولية في أوروبا.

حتى نهاية العقد السادس كانت اللغة الفرنسية هي، بعد اللغتين الألمانية والإنكليزية، أهم لغة بالنسبة إلى ترجمات كافكا، ثم تفوقت الطبعات الإسبانية والإيطالية على الطبعات الفرنسية.

كان جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية من الكتاب في البلدان الناطقة

الألمانية، وهو يبحث عن تدرّجاته وفهمها لكافكا. وبإيجاز يمكن القول إن الدراسات الألمانية قد ساهمت مساهمة أساسية في موضوع كافكا. وبهذا في علم الأدب في القرن العشرين. وبأموال ألمانية تم اقتناص مخطوطات قيمة مثل مخطوطة رواية المحاكمة، ومكتبة كافكا الشخصية^(*). وقد أصبح كافكا بصفته كلاسيكيًا عصرياً موضوع أبحاث أكثر من غيره من كتاب القرن العشرين، كما بات موضوع أطروحتات دكتوراه مفضلاً، ويدرس كثيراً في دروس الأدب الألماني في المدارس الثانوية^(**). وقد ألهم النخبة الفكرية في مرحلة طويلة، كتاباً مؤرخي أدب وفنانين وفلسفه ومفكرين ومتقفين في أمم كثيرة. وترجمات كافكا إلى أكثر من أربعين لغة هي تمثال باق لعظيم من عظماء الآداب العالمية في القرن العشرين.

وإذا ما تحدثنا عن جزء في نهاية القرن العشرين، فإنه من المتوقع انتهاء تأثير طبعة ماكس برود. وسوف يتوجب على القرن الواحد والعشرين معالجة نصوص الطبعات النقدية - التاريخية التي حرص تحقيقها في العقددين الأخيرين. لقد أصبح كافكا مثله مثل شكسبير ودانتي ومولير، ملكاً عاماً للعالم المتحضر. وهذه البي bliوغرافيا تعبر عن هذا الوضع، كما أنها تفيد تلك

(*) في عام 1988 اباعت حكومة ألمانيا المخطوطة الأصلية لرواية المحاكمة ببلغ 1,1 مليون جنيه استرليني. والمخطوطة محفوظة في «أرشيف الأدب الألماني» في مدينة مارباخ. كما أمكن العثور على مكتبة كافكا الشخصية، بعد ضياعها عدة عقود، وقد تم ابتعادها، وهي محفوظة في «معهد أبحاث الأدب الألماني الذي نشأ في براغ»، التابع لجامعة فوبرتال.

(**) يقدر عدد أطروحتات الدكتوراه التي كتبت في ألمانيا عن كافكا بألفي أطروحة. وهناك مئات من الكتب التفسيرية لنصوص كافكا، مخصصة لطلاب المدارس الثانوية.

البلدان ومناطق اللغات التي لم تضع بعد بيليوغرافيا كافكا خاصة بها.

بوليوس هرتس

ماريا لوبيزه كابوتو - ماير

* * *

إن جزأى المجلد الثاني من بيليوغرافيا كافكا، اللذين يقعان في ١١٧٠ صفحة، يخلوان من أية مساهمة عربية (تعلق بالدراسات والأبحاث عن كافكا).

في المجلد الأول، الذي يضم طبعات آثار كافكا، ورد عن ترجمات آثار كافكا إلى اللغة العربية:

في القسم الثالث (روايات مفردة) ورد في فصل «المفقود» مايلي:
«أمريكا: ترجمة (?) فهمي الدسوقي. القاهرة. دار الهلال ١٩٧٠».

وفي فصل «الحاكم» ورد: مع مقدمة. القاهرة، ١٩٦٩.

وفي فصل «القلعة» ورد «القصر، ترجمة وتقديم مصطفى ماهر. القاهرة. الدار القومية.

في القسم الخامس (منشورات مفردة) ورد في فصل «الحكم» مايلي:
«ابراهيم وطفي: فرانز كافكا / الحكم / مع تفسيراتها، ٢٠٧ صفحة. قصة الحكم ص ٩ - ٢٨، إشارات وتحليلات وتفسيرات، من حياة كافكا، كلمة أولى بالعربية عن كافكا أو مدخل إلى مقدمة، ملاحظة شخصية. يتضمن الكتاب تفسيرات مترجمة عن الألمانية. الناشر ابراهيم وطفي. بون ١٩٩٤».

وفي فصل «رسالة إلى الوالد» ورد مايلي:

«ابراهيم وطفي: فرانز كافكا / رسالة إلى الوالد / مع تفسيراتها، ٢٢٥

صفحة. رسالة إلى الوالد ص ٩ - ٦٦، أربع دراسات مترجمة عن الألمانية: غرهارد نويمان، فيلهلم إمريش، يواخيم اونزلد، ميخائيل مولر. لماذا رسالة إلى الوالد؟ المترجم. من حياة كافكا وأخباره. الناشر ابراهيم وطفي، بون ١٩٩٦.

وفي القسم الأول (طبعات كاملة) ورد عن الترجمة إلى العربية مايلي:
«فرانز كافكا: الآثار الكاملة مع تفسيراتها ١/ (الأسرة)/ الحكم/ الوقاد/ الانساح/ رسالة إلى الوالد/ ترجمتها عن الألمانية ابراهيم وطفي. بون، ٧٥٠ صحفة (قيد الطبع) (*)».

(*) بتاريخ ١٥/١٩٩٨ تلقيت وأنا في عملي خارج البيت مخابرة هاتفية بدت لي آنذاك في منتهى الغرابة. السيدة كابوتو - ماير تحدثت معي مطمئناً، بلهمجاً صديق حميم، وبسعادة لا توصف؛ وأثبتت على ترجمتي لكافكا ثياء بدا لي في حينه في غاية المبالغة. «رائع» و«خيالي» هما الكلمتان الأقل مبالغة اللتان استخدمنهما السيدة ماير في وصف عملي. قالت إنها عثرت لتوها في «أرشيف الأدب الألماني» في مدينة مارباخ على كتابي «الحكم» و«رسالة إلى الوالد» العريبين مع ترجمة لغلافيهما الأول والأخير وفهرسيهما إلى الألمانية (من كل كتاب أنشره)، أرسل نسخة مع ترجمة غلافيه وفهرسه إلى الألمانية إلى عدة مكتبات ومراكز في ألمانيا مثل «المكتبة الوطنية الألمانية» في فرانكفورت - التي تضم ستة عشر مليون كتاب وقرص مدمج - ، و«مكتبة الترجمات» في «أرشيف الأدب الألماني» في مارباخ، ودار النشر صاحبة حقوق طبع الكتاب).

وحديثي السيدة ماير (التي كنت أعرف اسمها من الطبعة الأولى من بيليوغرافيا كافكا) عن الطبعة الثانية، وأنها حضرت من أمريكا خصيصاً من أجل تصحيح بروفة هذه الطبعة. وقالت لي إنه يسعدها غاية السعادة أن تضيف الكتابين العريبين إليها. وسألتني بإلحاح عن عملي المسبق، ورجتني أن أوأفيها في اليوم نفسه إن أمكن، وبالفاكس، بما لدى بالألمانية عن كتابي التالي. وقالت لي إنها أرسلت لي رسالة، لكنها لم تستطع الانتظار حتى تتلقى مني جواباً خطياً، ←

— و خاصة أنها ستعود إلى أمريكا بعد أيام قليلة. فخابرتني، وإذا لم تجذبني في البيت، أخذت رقبي في العمل.

في اليوم التالي تلقيت رسالة السيدة كابوتو - ماير. وكانت مكتوبة بسرعة فائقة وبخط اليد على ورقة رسمية من أوراق جامعة تobel الأمريكية. وهذا نصها الحرفي:

السيد وطفي المخترم،

الموضوع: رجاء لإرسال بيانات حول ترجمتك العربية لآثار كافكا.
لدى أعمال تصحيح الطبعة الثانية لبليوغرافيا كافكا الكبيرة، المؤلفة من ثلاثة مجلدات (دار نشر ساور، ميونيخ) في مارباخ على نهر نيكار، حيث أعمل في أرشيف الأدب الألماني حتى ١/٢٢، اكتشفت جزئين من ترجماتك «الآثار الكاملة» هما «الحكم» و«رسالة إلى الوالد» (المجلد السادس؟).

أود أن أضيف، بالضرورة، هذا العمل المثير والهام إلى البليوغرافيا، وأرجوك موافتي بمعلومات إضافية بأسرع ممكـن. هل ترجمت الأجزاء ١ - ٥ ؟ وماذا تضم هذه الأجزاء؟ أرجو إرسال معلومات دقيقة وسريعة إلى د. ماريا لويسه كابوتو - ماير، أرشيف الأدب الألماني في مارباخ/نيكار، مبنى السكن، مرتفع شيلر ١/١٠ د ٦٦٦، أو بالفاكس إلى رقم : ٨٤٨-٨٩٩ ٧١٤٤ / ١١٠. أحتاج إلى: مضمون الجزء، عدد صفحاته، مكان الترجمة، دار النشر، تاريخ الإصدار، إلخ... ابتداء من ١/٢٢ فاكس رقم ٢١٥٢٠٤٧٧٥٢ ٠٠١ (الولايات المتحدة). تحيات قلبية
ماريا لويسه كابوتو - ماير

بتاريخ ١١/١٧ ١٩٩٨ أرسلت بالفاكس ترجمة ألمانية لغلاف المجلد الأول من «الآثار الكاملة» وفهرسه، والذي كان مازال قيد الطبع، وذكرت أنه سوف يقع في نحو ٧٥٠ صفحة.

وفي اليوم التالي خابرتني السيدة كابوتو - ماير، وأبدت سعادة أكبر، وذلك لأن فهرس المجلد الأول كان يحوي أسماء مؤلفي الدراسات، والذين هم أهم دارسي كافكا في ألمانيا. لقد اقتنعت السيدة ماير بجدية هذا العمل، وأضافت المجلد الأول إلى البليوغرافيا قبل صدوره بعام ونصف العام.

وعند صدور البليوغرافيا فوجئت مرة ثانية بما ذكرته كابوتو - ماير بأن —

← دبلوماسياً في ألمانيا «وضع لنفسه هدفاً هو ترجمة الآثار الكاملة لكافكا إلى اللغة العربية. وعلينا أن نتمنى له المثابرة والتوفيق». وأخيراً فهمت سلوك معدة بيليوغرافيا كافكا معنى: لقد أمضت حياتها مع كافكا، وتمنى طبعاً أن تقرأ آثاره في جميع أنحاء العالم. وهي ترى أن هذا قد تحقق، باشتئاء في إفريقيا، حيث «تقوم على الأرجح الأزمات الاقتصادية والسياسية بعرقلة التعامل مع كاتب أوريبي»؛ وعند العرب (يعرف كل دارس لكافكا أنه لا جدوى من تقديم نص من نصوص كافكا إلى قراء جدد، إذا لم يرق بتفسيرات له). وكانت السيدة ماير ترى اللغة العربية، التي يتكلّمها أكثر من ربع مليار إنسان، على خريطة كافكا الدولية بمثابة بقعة بيضاء وحيدة ضمن «العالم المتحضر». لذا فإن ماير تمنى «المثابرة والتوفيق» في ترجمة الآثار الكاملة مع تفسيراتها إلى اللغة العربية.

بتاريخ ١٧/١٠/١٩٩٩ أرسلت إلى السيدة كابوتو - ماير في جامعة تقبل في فيلادلفيا نسخة من المجلد الأول من «الآثار الكاملة»، وأرفقت معها ترجمة ألمانية للغلافين الأول والأخير ولفهرس المجلد.

بعد صدور البيليوغرافيا أرسلت إلى السيدة كابوتو رسالة بتاريخ ٢٠٠١/١٠/١ شكرتها فيها على إدراجها ترجماتي في «بيليوغرافيا كافكا الدولية». وصحّحت لها بضعة أخطاء صغيرة في البيانات المذكورة عن هذه الترجمات، وكتبت: «لم أكن دبلوماسياً فقط، وإنما مترجمًا في سفاراة».

كما ذكرت أني ترجمت مقدمة البيليوغرافيا ونشرتها في صحيفتين عربيتين تحت عنوانين هما: «صورة فرانز كافكا في العالم» («الحياة»، ٢٠٠١/٦/٢٧) و«تلقي آثار كافكا في العالم» («العرب»، ٢٠٠١/٧/٢٠).

وجرى تبادل بضعة رسائل بالبريد الإلكتروني بين كابوتو وزوجتي. بتاريخ ١١/١٢/٢٠٠١ ذكرت كابوتو أنها أحيلت إلى التقاعد منذ أيلول ٢٠٠٠، وذكرت عنوانها الجديد في نيويورك، وكتبت: «قدمي تهشّتي إلى زوجك على إنجازه العظيم». وبتاريخ ٢٤/١/٢٠٠٢، كتبت: «أولاً وأفر التحيات إلى زوجك الجدد، الذي حمل نفسه الكثير من إنكار الذات، وبدل جهوداً في موضوع كافكا. إن بيليوغرافيا كافكا كلفتني حياتي تقريباً، إذ كان العمل الرئيسي يقع على كاهلي، ويملاً كل وقت... إنه ليسبني أن السيد وطفي يواصل العمل. ويسر زملائي ويسرني أن مقدمتنا ترجمت إلى العربية ونشرت. إننا فخورون جداً بذلك. ←

← هل كتب السيد وطفي أية مقالة أخرى عن البيليوغرافيا؟ من شأن ذلك أن يكون في غاية الأهمية بالنسبة إلينا.

ماريا لويزه كابوتوا مع وافر التحيات الودية

أسماء المشاركين في وضع الدراسات

Verfasser der Studien

- | | |
|---------------------------|-----------------------|
| 1 - Louis Begley | 1 - لويس بغل |
| 2 - Peter Beicken | 2 - بيتر بايكن |
| 3 - Friedrich Beissner | 3 - فريدریش بایسنر |
| 4 - Walter Benjamin | 4 - والتر بنیامین |
| 5 - Hartmut Binder | 5 - هارتموت بیندر |
| 6 - Juergen Born | 6 - یورغن بورن |
| 7 - Max Brod | 7 - ماکس برود |
| 8 - Elias Canetti | 8 - الیاس کانتی |
| 9 - Hanz Elema | 9 - هانز إلما |
| 10 - Theo Elm | 10 - تیو إلم |
| 11 - Wilhelm Emrich | 11 - فیلهلم إمریش |
| 12 - Christian Eschweiler | 12 - کریستیان إشفلایر |
| 13 - Ernst Fischer | 13 - ارنست فیشر |
| 14 - Ulrich Fuellborn | 14 - اولریش فولبورن |
| 15 - Willy Haas | 15 - فیلی هاس |
| 16 - Hermann Hesse | 16 - هرمان هسه |

- | | |
|--------------------------|-------------------------|
| 17 - Heinz Ide | ۱۷ - هاینریش ایده |
| 18 - Klaus Jeziorkowski | ۱۸ - کلاوس ژیورکوفسکی |
| 19 - Helmuth Kaiser | ۱۹ - هلموت کایزر |
| 20 - Werner Keller | ۲۰ - فرنر کیلر |
| 21 - Detlef Kremer | ۲۱ - دیتلف کرمیر |
| 22 - Heribert Kuhn | ۲۲ - هریبرت کون |
| 23 - Klaus Mann | ۲۳ - کلاوس مان |
| 24 - Reinhard Meurer | ۲۴ - راینهارد مویرر |
| 25 - Michael Mueller | ۲۵ - میخائل مولر |
| 26 - Gerhard Neumann | ۲۶ - گرہارڈ نویمان |
| 27 - Lord Malcolm Pasley | ۲۷ - لورڈ مالکولم باسلي |
| 28 - Will Peuckert | ۲۸ - ویل بویکرت |
| 29 - Martin Pfeifer | ۲۹ - مارتین بفایفر |
| 30 - Heinz Politzer | ۳۰ - هاینریش پولیتسر |
| 31 - Roland Reuss | ۳۱ - رونالد رویس |
| 32 - Karol Sauerland | ۳۲ - کارول ساولاند |
| 33 - Reiner Stach | ۳۳ - راینر شتاخ |
| 34 - Otto Stoessl | ۳۴ - اوتو شتسسل |
| 35 - Jean-Marie Straub | ۳۵ - جان-ماری شترواب |
| 36 - Kurt Tucholsky | ۳۶ - کورت توخلویسکی |
| 37 - Hermann Uytersprot | ۳۷ - هرمان اوترسبروٹ |
| 38 - Martin Walser | ۳۸ - مارتین فالرر |
| 39 - Ernst Weiss | ۳۹ - ارنست فایس |
| 40 - Peter Weiss | ۴۰ - پیتر فایس |
| 41 - Edmund Wilson | ۴۱ - ادموند ولیسون |



فرازير کافکا
في عام ١٩١٧



مفسر کافکا: د. کریستیان اشوایلر
Kafkas Interpret: Dr. Christian Eschweiler

Christian Eschweiler

Kafkas
unerkannte Botschaft

Der richtige ›Process‹

1998

BOUVIER VERLAG · BONN

غلاف كتاب إشفيeler: «رسالة كافكا غير المدركة»

Kafkas unerkannte Botschaft

- Ein Gespräch -

Ibrahim Watfe,
der Kafka-Kenner und arabische Kafka-Übersetzer,
befragte
den deutschen Kafka-Interpreten
Dr. Christian Eschweiler

غلاف كتيب الحديث مع إشفايلر



كاتب سيرة كافكا: د. رainer شتاخ
Kafkas Biograph: Dr. Reiner Stach

Franz Kafka Der Process

emand wünschte Joseph K. verhindert haben, denn ²
dass das er etwas Raum achtet hätte, ~~um nicht~~ ^{um nicht} ~~um~~
~~auszugehen~~ ^{zu gehen}. Die ~~beste~~ ^{neue} Köchin der Kinneräume die
die ihm jetzt Tag gegen viele Uhr früh das Frühstück
brachte. Raum ~~und~~ ^{und} war noch niemals geschenkt.
K. wartete noch ein Viertelstunde, nah von seinem Kopftisch
an die alte Frau die ihm gegenüber saß und
die im gut einer an ihr gegenwärtige ^{früher} gewohnte
Weisheit beobachtete, dann aber, als die Zeit begrenzt
war und ihm sie keinen weiteren ^{noch} Blatt gab
und sie ~~wann~~ ^{da} er in dieser Wohnung noch
niemals geschenkt hatte trat er zu. Er war schlank
und doch fest, robust ^{und} trug ein liegendes schwarzes
Kleid, das ähnlich den Reisekittichen eines verstreuten
Falters, Tages, Schnallen, Knöpfen und einem Gürtel
verschmiert war und in Kleiderlappen über der man sich
durchdringen blieb wurde, wodurch ^{der} er selbst sollte, beginnen
zu verstehen und zu erkennen. Der mit ^{für} fragte K. ^{erst}
der Mann aber ging über die Frage hinweg, als
wäre man eine Droschke und müsste sich umwenden und
fragte ihn weiter: ^{Was soll ich tun?} ^{Was soll ich tun?} ^{Was soll ich tun?}
Will mir der Frühstück bringen? sagte K. und
verachtete michst stillschweigend durch seine Augen.

الصفحة الأولى من المحاكمة بخط يد كافكا

في المكتبات

حرب الشمال

على

شعوب الجنوب

مقالات سياسية

ترجمة واعداد عن الانجليزية
ابراهيم وظفي

تمثل هذه المقالات بعض «القططات» من حرب الشمال على شعوب الجنوب، هذه الحرب التي بدأت منذ عقود دون أن تدركها.

وتبيّن نظام النهب والاستغلال الذي وضعه الشمال في عصر الاستعمار، وما زال يطبقه حتى الآن.

إذ على عكس جميع التأكيدات العلنية، فإن دول الشمال لا تريد في الواقع أن تساعد سكان دول الجنوب أبداً.

بل يمكن مقارنة سياسة الشمال إزاء دول الجنوب بمزرعة دواجن يقوم فيها الثعلب بالإشراف على الدجاجات، لكي يتمكن من التهام دجاجة كل يوم.

ما العمل؟

- «إن دون العالم الثالث تشن سلاحاً قوياً في يده، فإذا اتفقت جميع الدول المستبدية على عدم تسديد ديونها، فإن النظام الرأسمالي سيهار بين عشية وضحاها».

- «يجب أن تخالص من عقدة التبعية بأن الغرب أفضل منه».

- «يجب تحطم جبهة الوحدة القائمة بين النخبة المستغيرة في الجنوب وبين الشمال الرأسمالي».

- «من أجل إخراج اقتصادات العالم الثالث من نظام الاقتصاد العالمي الراهن الذي يهيمن عليه العرب، ومن أجل إنهاء تبعية الجنوب للشمال، ينبغي على شعوب العالم الثالث أن تثور».

- «لا يمكن للبشرية أن تبقى على قيد الحياة إذا لم تجد في البحث عن بديل للنظام القائم».

في المكتبات

هاینر کیبهارت

مرتس

حياة فنان

مسرحية

الطبعة الثانية

ترجمها عن الألمانية
ابراهيم وطفي

يعتبر هاینر کیبهارت (١٩٢٢ - ١٩٨٢) واحداً من أهم الكتاب الألمان في النصف الثاني من القرن العشرين ومن أكثرهم شهرة ونجاحاً وقد لاقت مسرحياته، التي ترمي إلى وصف الواقع بهدف تغييره، صدى عالياً، إذ جرى تقديم بعضها في أكثر من عشرين بلداً. وقام نجاحه داخل ألمانيا وخارجها على كون المواقع التي عالجها مواضيع راهنة.

و «مرتس»، التي هي أهم مسرحيات کیبهارت، تعالج موضوع المؤس النفسي في المانيا، حيث يملك الطفل الذي يولد اليوم فرصة للدخول فيما بعد إلى مستشفى للأمراض العقلية أكبر بكثير مما يملك فرصة للدخول إلى جامعة.

تبين مسرحية «مرتس» العلاقة القائمة بين المرض النفسي والمجتمع المريض. وتروي سيرة حياة ومعاناة الكسندر مرتس، الفنان الذي أصيب بالمرض بتأثير الأسرة والمدرسة والمجتمع والطبع أيضاً. فحطمه بيته.

لأن الكسندر مرتس يقاوم المخاولة التي يقوم بها العالم الغريب عنه للهيمنة عليه، فإنه ينقسم إلى شخصين، شخص يريد أن يكونه، وشخص يُرغم على أن يكونه. ولكنه إذ لا يشارك في لعبة الازدواجية الجنوية هذه، لأنه لا يريد أن يتحول إلى غريب، فإن المجتمع بينما يصفه فاشلاً، خارجاً عن المألوف. فينطوي على نفسه، ويتجأ إلى عالم آخر. وتجد بداية الجنون هذه استمراً لها في مصحة الأمراض العقلية، حيث يرفض مرتس التكيف كما رفض التكيف في المجتمع.

إنها مسرحية اجتماعية بالمعنى الكلاميكي، فهي تقرير عن فرد، لكن هذا التقرير يكشف أيضاً عن ملامح هامة لعصر بأكمله.

ثلاثة كتاب من الالمانية

بيتر فايس. هاينر كيهارت. مارتن فالزر

يعطي هذا الكتاب بعض الانطباعات عنmania وعن ثلاثة من أهم كتاب اللغة الألمانية في النصف الثاني من القرن العشرين: بيتر فايس وهاينر كيهارت ومارتن فالزر. ويضم:

- ١ - خمس مقالات عن حياة وأدب بيتر فايس وحديثين معه.
- ٢ - مقالة مطولة عن حياة وأدب هاينر كيهارت.
- ٣ - مقالتين عن مارتن فالزر، ونصين من نصوصه، ولقاء معه.

ترجمة واعداد ابراهيم وطفي

في المكتبات

فرانز كافكا

الآثار الكاملة

مع تفسيراتها

١

(الأسرة)

الحكم

الوقاد

الانمساخ

رسالة الى الوالد

ترجمها عن الالمانية ابراهيم وطفي

المجلد الثالث

فرانز كافكا

الآثار الكاملة

مع تفسيراتها

٣

(الشعر)

في مستعمرة العقاب
معاناة أولى
امرأة صغيرة
فنان جوع
يوزفينه، المغنية، أو شعب الفئران

ترجمها عن الالمانية ابراهيم وطفني

المجلد الرابع

فرانز كافكا

الآثار الكاملة

مع تفسيراتها

٤

(القصص)

ترجمها عن الالمانية ابراهيم وطفي

فهرس المجلد الرابع (القصص)

- | | |
|-------------------------|-----------------------------|
| ١ - حلم | ١٤ - الصقر |
| ٢ - حكاية صغيرة | ١٥ - الخذروف |
| ٣ - أمام القانون | ١٦ - الجسر |
| ٤ - في رواق السيرك | ١٧ - رجل الدفة |
| ٥ - العجار | ١٨ - في الليل |
| ٦ - بنات آوى وعرب | ١٩ - التنّزه المفاجئ |
| ٧ - رسالة قيقصرية | ٢٠ - الحقيقة عن سانشو بانسا |
| ٨ - تقرير إلى أكاديمية | ٢١ - ملحقات |
| ٩ - فضح محثال | ٢٢ - عودة |
| ١٠ - حول مسألة القوانين | ٢٣ - موضوع قديم |
| ١١ - طبيب ريفي | ٢٤ - صمت حوريات البحر |
| ١٢ - أبحاث كلب | ٢٥ - البناء |
| ١٣ - الرحيل | - وبقية القصص القصيرة |

المجلد الخامس

فرانز كافكا

الآثار الكاملة

مع تفسيراتها

٥

(المجتمع الصناعي)

المفقود

رواية

ترجمها عن الالمانية ابراهيم وطفي

المجلد السادس

فرانز كافكا

الآثار الكاملة

مع تفسيراتها

٦

(الكون البشري)

القلعة

رواية

ترجمها عن الالمانية ابراهيم وطفي

الأخطاء المطبعية الواردة في هذا الكتاب

الصواب	الخطأ	الصفحة/السطر
مدع	مدعى	١/٣١
هليني	هيلينه	١٦+٩/٣٥
هليني	هيلينه	٥/٣٦
صغيراً	صغر	١٧/٦٩
ألا إنها	ألا أنها	٨/٧٩
ك،	ك.	١٦/٨٧
المحكمة، «يجب	المحكمة» ، يجب	١/٩٩
الإنجاز.	الإنجاز.	١٦/١٠١
إذا؟!	إذا؟	٢/١٠٢
شيء»،	شيء،	٥/١٠٣
إذا	إذا	٢٢/١٢٩
كم	كما	٤/١٥٤
وحساب»،	وحساب،	٢٠/١٥٥
التترية	التارية	١٧/١٥٧
التتارية	التاتارية	٣/١٦٠
بعد	بعد	١/١٦٢
من جراء	جراء	١٠/١٩٤

الرسام.	الرسام،	٢/٢٠١
بل إنه	بل أنه	٢/٢٢٠
قال لك	«قال لك	٢/٢٢٤
الجهات. «بلوك»	الجهات «بلوك»	١٤/٢٤٩
«الآثار الكاملة»، ص ٣١-١٥. «الآثار الكاملة»، ط ٢، ص ٣٣-١٥.		١٧/٢٦٩
«الآثار الكاملة»، ص ٤٧-٤٦. «الآثار الكاملة»، ط ٢، ص ٤٩-٤٨.		٤٧٠/هامش
«الآثار الكاملة»، ص ٢٣٧-٢٧٢. «الآثار الكاملة»، ط ٢، ص ٢٧٦-٢٤١		٤٧٦/هامش
سأهلك	سأضيع	٨/٢٨٥
شعوراً خاصاً بالرضا والسعادة	شعوراً بالرضا والغبطة	٦/٢٩٤
الثالثة	الثانية	١٤/٢٩٦
كثيراً	كثيرين	٤/٣١٤
وضوحاً	وضوح	١٤/٣١٦
«الآثار الكاملة»، ص ٢٧٦	«الآثار الكاملة»، ص ٢٨٠	٢٣٢/هامش
التترية		١٠/٣٧٢
«الآثار الكاملة»، ص ٣١١ و ٢٧٦.		٢٢/٤١٨
٢١-١٩/٤٣١ دائماً يعني مستقلاً عن مدة دائماً يعني مستقلاً عن مدة حياة		
حياة الرجل الذي خصص الرجل الذي خصص له، فإن حارس		
له، فإن حارس الباب أيضاً الباب أيضاً لن يستطيع أن يغلقه.		
لن يستطيع أن يغلقه.		
الحلم.	الحلم	١٩/٤٣٧
بين الطرفين.	بيهما.	٢/٤٤٠
(الصفحة كلها بلون أبيض).		٤٧٨
إنه	أنه	٢/٥٧١
- كان	كان	١٧/٥٧٧
- إنه	إنه	١٨/٥٧٧
٥٨٨/آخر س. «الآثار الكاملة»، ص ٢٠٤-١٩٦. «الآثار الكاملة»، ط ٢، ص ٢١٤-٢٠١.		
و ص ٢٠١-٢١٥.		

أئمبي	إنسي	٢/٦٠١
٥٦٠	٥٥٢	١٩/٦١٤
نيتشه	نيتشه	٦١٥/آخر س
٦٣٤	٦٣٣	٢٣/٦١٧
٧٤٦-٧٤٥ ص	٧٣٨-٧٣٧ ص	٦٢١/هامش من المجلد الأول
٢٠٣-١٩٨ ص	٢١٠-٢٠٥ ص	٦٢٥/آخر س من المجلد الأول
رفضت	١٠/٦٢٩	
أربعة	١٤/٦٥٢	
٦٧٠/آخر س في فترة كتابة المحاكمة	في عام ١٩١٧	
١/٦٥٩ - ٣ الصواب هو: (برسالة مرفقة بكتاب كان توماس مان قد أعاره إلى		
أينشتاين كتب هذا ما معناه : «أعيد لك الكتاب دون أن أتمكن من قراءته. إن العقل		
البشري هو أقل تعقيداً من أن يفهم مثل هذا الكتاب». الكتاب هو المحاكمة).		

هنا أشكر صديقتي وزوجتي أني لدعمها ورعايتها
لي، إذ لولا مساعدتها، لما نشأ هذا الكتاب (ا.و.).

Hier danke ich meiner Freundin und Ehefrau
Anne für ihre Unterstuetzung und Fuersorge,
denn ohne ihre Hilfe waere dieses Buch nicht
entstanden (I.W.).

أشكر جميع دور النشر والمؤلفين لموافقتهم الكريمة على الترجمة
والنشر.

Bei allen Verlagen und Autoren bedanke ich mich
fuer die freundliche Genehmigung der Ueberset-
zung und Veroeffentlichung.

للمنترجم

الكتاب	الناشر	الكاتب
١ - حديث عن فيتنام (مسرحية)	١٩٧٠ - وزارة الثقافة / دمشق	بيتر فايس
٢ - لعبة حلم (مسرحية)	١٩٧٢ - وزارة الثقافة / دمشق	أوغست سترنبرغ
٣ - القضية (مسرحية عن رواية كافكا)	١٩٨١ - مجلة الحياة المسرحية / دمشق	بيتر فايس
٤ - الليلة التي ذبح فيها الرئيس (مسرحية)	١٩٨٣ - مجلة الحياة المسرحية / دمشق	هاينز كيبهارت
٤ - ليلة جمعة (المسرحية السابقة)	١٩٨٤ - وزارة الثقافة / دمشق	هاينز كيبهارت
٥ - أحاديث مع غابريل غارسيا ماركيز	١٩٨٦ - دار طلاس / دمشق	بلينيو ميندورا
٦ - مرتس (مسرحية)	(١٩٩٠ : ط٢) - ابراهيم وطفي - بون	هاينز كيبهارت
٧ - معركة منزلية (مسرحية)	١٩٩٤ - ابراهيم وطفي / دمشق - بون	مارتن فالزر
٨ - الحكم	١٩٩٤ - ابراهيم وطفي / دمشق - بون	فرانز كافكا
٩ - رسالة إلى الوالد	١٩٩٦ - ابراهيم وطفي / دمشق - بون	فرانز كافكا
١٠ - حرب الشمال على شعوب الجنوب	١٩٩٦ - ابراهيم وطفي / دمشق - بون	عدد من الكتاب
١١ - ثلاثة كتاب من الألمانية	٢٠٠٠ - ابراهيم وطفي / دمشق - بون	فاس. كيبهارت. فالزر
١٢ - ١٣ - الآثار الكاملة (١)	٢٠٠٠ - ابراهيم وطفي / دمشق - بون	فرانز كافكا
[الحكم / الوقاد / الانسخ / رسالة إلى الوالد]	(٢٠٠٣ : ط٢)	
١٤ - الآثار الكاملة (٢) المحاكمة	٢٠٠٢ - ابراهيم وطفي / دمشق - بون	فرانز كافكا
	(٢٠٠٤ : ط٢)	

الكاتب والكتاب



يعتبر فرانز كافكا (١٨٨٣ - ١٩٢٤) «جندًا أعلى» لكتاب القرن العشرين، وأدب الأدب الغربي الحديث، وأكبر كاتب في اللغة الألمانية في عصرنا، و«عقلية لا يوجد بها الزمن سوى مرة واحدة كل قرن».

وقيقيل عن رواية «المحاكمة» إنها «واحدة من أكثر الآثار الفنية في الأدب العالمي فرادةً وأخذًا للنفس»، وإنها «كتاب القرن العشرين».

كتب كافكا هذه الرواية في عام ١٩١٤ . كتب ثلاثيتها

خلال خمسين يوماً. ونشرت لأول مرة في عام ١٩٢٥ ، بعد وفاة كاتبها.

في عام ١٩٨٨ اباعت حكومة ألمانيا الاتحادية المخطوطة الأصلية للرواية، المؤلفة من ١٦١ ورقة، بمبلغ ٣,٥ مليون ماركًا (نحو ١,٨ مليون يورو)، وقامت بالتأمين عليها بمبلغ ٤ مليون ماركًا.

حتى عام ٢٠٠٠ طبع منها ٧٨ طبعة، وبيع منها في المانيا وحدها نحو مليون ونصف المليون نسخة. وترجمت إلى ثلاثين لغة.

ورغم آلاف الدراسات التي وضعت عن هذه الرواية ومبدعها، فإنها لم تفسر بشكل منطقي، مفهوم سوى في أواخر القرن العشرين: إنها محاكمة الحياة. حياة كل إنسان مفكر يبحث عن معنى وجوده. وهي محاولة للكشف عن المعنى الكامن في سر الحياة الإنسانية.

يضم هذا المجلد الثاني من «الآثار الكاملة» لكافكا:

١ - نصوص رواية «المحاكمة»، يتسلسل فصول صحيح لأول مرة في العالم.

٢ - عشرين مقالة عن الرواية، وضعت خلال نصف قرن.

٣ - آخر وأهم دراسة عن الرواية: كتاب «رسالة كافكا غير المدركة».

٤ - أحاديث مع أهم مفسر لرواية «المحاكمة».

٥ - من سيرة حياة كافكا وتلقى آثاره في العالم.

يمثل هذا المجلد طريقة جديدة في تقديم كاتب عالمي إلى الكاتب والناقد والقارئ العربي.